التاريخ الإسلامي
مواقف وعبر

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

رقم الإيداع القانوني:
الترقيم الدولي:

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع
٢ شارع منشا - محرم بك - الإسكندرية
تليفون: ٣٩٠١٩١٤ - فاكس: ٥٩٠١٦٩٥

التاريخ الإسلامي
مواقف وعبر

(ما بعد الخلفاء الراشدين)

إعداد
الدكتور عبد العزيز بن عبد الله الحميدي
الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين
جامعة أم القرى

المقدمة

الحمـد لله رب العالمين والصـلاة والسلام على سـيدنا ونبـينا محمـد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد: فـقد سبق نشـر الكتاب الأول من كتب التـاريخ الإسلامى وموضـوعه السيـرة النبوية والكتاب الـثانى وموضوعـه «الخلفاء الراشـدون» وهذا هو الكتاب الثالث وهو يشتمل على المواقف والعبر من تاريخ الأمـويين والعباسيين والعثمانيين والدويلات المستقلة المعاصرة لهم.

وليس المقصود بهذا التـاريخ رصد كل ما دونه المؤرخون من تاريخ هذه الدول، وإنما المقصود ذكر ما يوافق عنوان هذا الكتاب وهو المواقف والعبر.

وقد سرت فى تـرتيب هذا الكتاب على التنظيم الجِهَوِي، وذلـك بذكر أحداث كل جهة فى عنوان واحد مرتبة على الترتيب الزمني.

وقد بدأت بذكر جـهاد المسلمين مع الروم وذلك في عهد الأمويين والعـباسيين ومن أُلحِق بهم والعـثمانيين، ثم ذكـرت جهـاد المسلمين في بلاد السند والهند فى عهد الأمويين والعباسيين وفى عهد الدويلات الإسلامية فى الهند، ثم ذكرت جهاد المسلمين فى المغرب وفي الأندلس، وكذلك الفتوح في المشرق فى العهود المذكورة أو بعضها.

ويشتمل هذا الكتاب على موضوعات جهادية وإدارية وأخلاقية وتربوية.

مصادر الكتاب:

لقد اعـتمـدت فى الكتابة عن هذه العـهود على عـدد من الكتب، من أبرزها «تاريخ الرسل والملوك» لـلطبرى، و«الـبداية والنـهاية» لابن كـثـيـر و«الكامل فى التاريخ» لابن الأثير.

وقد سـبقت ترجـمة موجـزة للطبرى وابن كـثـير فى الكتاب السابـق «الخلفاء الراشدون»، وسأذكر ترجمة موجزة لابن الأثير.

ابن الأثير:

هو المؤرخ العــلامة عز الدين أبــو الحسن على بن الأثيــر أبي الكرم محــمد بن محمد بن عبد الكريم الجزرى الشيباني.

من أشهر مؤلفاته «الكامل في التاريخ» و «أُسْد الغابة في معرفة الصحابة».

قال عنه الحافظ الذهبى: كان إمامًا علامة أخباريًا أديبًا متفننًا رئيسًا محتشمًا.

وقال عنه ابن خلكان: كان بيــته بالموصل مجمع الفضلاء، اجــتمعت به بحلب فوجدته مكمَّلا في الفضائل والتواضع وكرم الأخلاق.

توفى في شهر شعبان من سنة ثلاثين وستمائة رحمه الله تعالى[1].

***

(١) سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٣٥٣ - ٣٥٦، البداية والنهاية ١٣/ ١٤٩ - ١٥٠.

مواقف وعبر
في
جهاد المسلمين مع الروم

الجهاد مع الروم

في

عهد الأمويين

تقدم الكلام على مـواقف فتوح الشام في عـهد أمير المؤمنين عـمر بن الخطاب رضي الله عنه، وبقي الإشـارة بإيجاز إلى المواجهـات القتاليـة المستـمرة بين دولة الإسلام في الشام ودولة الروم منذ عهد عـمر رضي الله عنه، فإن الحرب لم تهدأ لبقاء دولة الروم في كثير من ممالكها.

وبعد استقرار حكم المسلمين في الشام فى أواخـر عهد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه فإن الروم أيسوا من عودة الشام إليـهم فلم يفكروا فى غزوه إلا في فترات اختـلاف المسلمين وحدوث الفتن بينهم كمـا هو الحال فى عهد أمـير المؤمنين علي رضى الله عنه، حيث عـزم ملك الروم على غزو الشام، فهـدده معاوية رضي الله عنه بالعزم على الصلح مع علي رضي الله عنه ثم التوجه نحوه لتأديبه.

وكذلك في عـهد عبـد الملك بن مروان حـينما كان في قـتال مع مـصعب بن الزبير.

أما فـيمـا عدا ذلك فإن المسلمين كـانوا ينظِّمون الغـزوات ضد الروم في أكـثر السنوات صيفًا ويسمونها الصوائف، وكان القصد من هذه الصوائف إضعاف دولة الروم وحماية دولة الإسلام، وكانوا أحـيانًا يطيلون الغزو ويتوغلون في بلاد الروم ويشْتُون بها، وقد بلغوا القسطنطينية عدة مرات.

***

جهاد الروم في عهد معاوية

الغزوات الأولى:

غزا المسلمون بلاد الروم في عهد معاوية رضي الله عنه عدة غزوات قبل الغزوة الكبرى التي كانت بقيادة يزيد بن معاوية.

وقد ذكر المؤرخون هذه الغزوات باختصار، فمن ذلك أنهم ذكروا أن المسلمين غزوا بلاد الروم سنة اثنتين وأربعين، فهزموهم هزيمة منكرة وقتلوا جماعة من بطارقتهم.

ثم غزوهم في سنة ثلاث وأربعين بقيادة بسر بن أرطأة.

ثم غزوهم في سنة ست وأربعين بقيادة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وأقاموا فيها فصل الشتاء.

ثم غزوهم في سنة ثمان وأربعين بقيادة أبي عبد الرحمن القيني وأقاموا في الشتاء في أنطاكية[1].

غزوة القسطنطينية:

وبعد أن قام أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه بإرسال عدد من الجيوش في عدة سنوات رأى أن الفرصة مناسبة لبعث جيش كبير لغزو القسطنطينية بعد أن أضعف دولة الروم وبث الرعب في قادتها وجنودها، فبعث جيشًا كبيرًا بقيادة ابنه يزيد في سنة تسع وأربعين، وفيه عدد من الصحابة منهم أبو أيوب الأنصارى وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهم، وقد قال رسول الله ﷺ: «**أول جيش من أمتى يغزون مدينة قيصر مغفور لهم**» أخرجه الإمام البخارى[2] وكان ذلك الجيش أول من غزا القسطنطينية.

ومما جرى في هذه الغزوة ما أخرجه الإمامان أبو داود والترمذى من حديث أسلم أبي عمران التجيبي قال: غزونا من المدينة نريد القسطنطينية، وعلى الجماعة

(١) تاريخ الطبرى ٥/ ١٧٢ - ٢٣٢، البداية والنهاية ٨/ ٢٥ - ٣٤، تاريخ ابن خلدون/ ٩.

(٢) صحيح البخارى، رقم ٢٩٢٤، الجهاد (٦/ ١٠٢).

عبد الرحمن بن خالد بن الوليد[1] والروم ملصقوا ظهورهم بحائط المدينة، فحمل رجل على العدو فقال الناس: مه، مه، لا إله إلا الله، يلقى بيديه إلى التهلكة، فقال أبو أيوب: إنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، لما نصر الله تعالى نبيه ﷺ وأظهر الإسلام قلنا: هلمَّ نقيم فى أموالنا ونصلحها، فأنزل الله تعالى: ﴿ **وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ** ﴾ [البقرة: ١٩٥]. فالإلقاء بالأيدى إلى التهلكة أن نقيم في أموالنا ونصلحها وندع الجهاد.

قال أبو عمران: فلم يزل أبو أيوب يجاهد في سبيل الله حتى دفن بالقسطنطينية[2].

فهذا الحديث يبين لنا خطورة الاشتغال بالأموال عن الجهاد في سبيل الله تعالى، وأن الهلاك الحقيقى هو هلاك الآخرة بسبب التهاون في واجبات الإسلام.

ولقد قاتل المسلمون أعداءهم حول أسوار القسطنطينية، واستشهد أبو أيوب الأنصارى رضي الله عنه هناك، وقد أوصى قبل موته أن يقربوه ما استطاعوا من أرض الروم فدفنوه قريبًا من السور[3].

ولم يتمكن المسلمون من فتح القسطنطينية هذه المرة لقوة أسوارها ومتانتها واستعداد الروم لتحمل الحصار لمدة طويلة، فعاد المسلمون إلى بلادهم، ولكنهم كسبوا من وراء ذلك إظهار قوة دولة الإسلام وأن بإستطاعتها أن تغزوهم في عقر دارهم، وهذا يجعل الروم يرتدعون عن محاولة غزو بلاد الإسلام في حال ضعف الدولة الإسلامية.

***

---

(١) يعني بذلك الجماعة الذين غزوا من المدينة، وفي رواية الترمذى: وعلى الجماعة فضالة بن عبيد.

(٢) سنن أبي داود، رقم ١٥١٢، الجهاد (٣/ ٢٧)، سنن الترمذي، رقم ٢٩٧٢، التفسير ٥/ ٢١٢.

(٣) انظر تاريخ الطبرى ٥/ ٢٣٢، البداية والنهاية ٨/ ٣٤ - ٦١.

جهاد الروم في عهد عبد الملك وابنه الوليد

الاستعداد لغزو الروم في عهد عبد الملك:

إن أهم المعارك الحاسمة بين المسلمين والروم في هذا العهد ما ذكره المؤرخ ابن أعثم الكوفي قال: وتحركت الروم بأرض القسطنطينية وغيرها من بلاد الروم فاجتمعوا في خلق عظيم وعزموا على مفاجأة المسلمين في دارهم وأخذ الشام من أيديهم، وبلغ ذلك عبد الملك بن مروان فنادى في أهل الشام فجمعهم في المسجد الأعظم، ثم صعد المنبر فحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال: أيها الناس إن العدو قد كلَب عليكم وطمع فيكم وَهُنتم عليه لتركِكم العمل بطاعة الله تعالى واستخفافكم بحق الله، وتثاقلكم عن الجهاد في سبيل الله، ألا وإني قد عزمت على بعثكم إلى أرض الروم فماذا عندكم من الرأي؟

قال: فأجابه الناس بأحسن الجواب ورغبوا فيما رغبهم فيه من الجهاد وعزموا على ذلك.

قال: فعندها أمر عبد الملك بن مروان فكُتِب له أربعة كتب، كتاب منها إلى أبان بن عثمان - وهو عامله على الحجاز - أن يوجه إليه برؤساء أهل الحجاز وفرسانهم، وكتاب إلى علقمة بن مرداس الخولاني - وهو عامله على اليمن - أن يوجه إليه بفرسان أهل اليمن، وكتاب إلى أخيه عبد العزيز بن مروان - وهو عامله على بلاد مصر - أن يشخص إليه بنفسه في أجناد مصر، وكتاب إلى الحجاج بن يوسف أن يوجه إليه بأجناد أهل العراق.

ثم كتب أيضًا إلى أخيه محمد بن مروان وإلى ابنه مسلمة وهما يومئذ في بلاد أرمينية وأذربيجان فأشخصهما إليه في جميع من معهما من أجنادهما[1].

(١) الفتوح لابن أعثم ٧/ ١٢٢، وهذا الكتاب للمؤرخ أبي محمد أحمد بن أعثم الكوفي، وقد قال عنه ياقوت الحموي: «الإخبارى المؤرخ وهو عند أصحاب الحديث ضعيف» - مقدمة الفتوح لابن أعثم / ب - وقد ذكرت في هذا الجزء جملة من أخبار الجهاد الإسلامي في بلاد الروم، ولا يؤثر في هذا القدر المنقول عنه كونه ضعيفًا عند أهل الحديث لأن هذا المنقول لا يترتب عليه أي حكم شرعي وإنما هو بيان لمواقف بعض التابعين الجهادية

هذا وإن كثـرة هذه الجيوش التي حشـدها عبد الملك بن مـروان من أنحاء بلاد الإسلام دليل على ضخامة الجيش الرومي الـذي عمل الروم على تجهيزه لغزو بلاد المسلمين.

وإن ما جـاء في خطبة عبـد الملك هذه من التذكـير بطاعة الله تعـالى واجتناب معصيته والاهتمام بالجهـاد في سبيله، وأن ذلك حصن الأمة الحصين وسبب رهبة الأعداء منهم، وأن الإخـلال بذلك سبب هوان أمة المسـلمين على أعدائهم.. إن اهتمـام عبـد الملك بذلك يدلنا على الوجه الآخـر لخلفاء المسلمين في عـصورهم الذهبيـة الذي عَتَّم عليـه بعض المؤرخين ولم يبرزوه بالدرجـة الكافية بـينما أبرزوا خلافات الولاة وحروبهم الداخلية وأنماط حياتهم التي تميل أحيانًا إلى مظاهر الدنيا بقدر كبير من البسط والتفصيل.

إن هذه الخطبة وأمثالها تعتبر امتدادًا لما اشتهر به عبد الملك من التفوق في العلم الشرعى حـيث كان من أكـابر طلاب العلم الذين تعمـقوا في العلم علـى علماء المدينة النبوية، كما تعتبر امتدادًا لما اشتهر به في شبابه من العبادة حيث كان وإخوة له يرابطون في المسجد النبوي بين الصلوات للصلاة والذكر والتلاوة.

إننا لا ننكر أن من المؤرخين من يذكـر ما للولاة من بعض المحاسن ومـا عليهم من المآخذ، ولكن الاهتـمام في ذلك كان فـي ذكر جوانب الإصـلاح التي تتعلق برفاهية الأمة وتقوية أمنها ورخائها.

والذي ينبغى لفت النظر إلـيه إلى جانب ذلك، الإشارة إلى مـدى فهم أولئك الولاة للإسلام وتطـبيقـهم لأحكامه وآدابه، ومـدى صلتهم بالله تعـالى وتذكرهم لعوامل النصـر وعوامل الانهزام، وعـوامل التمكين في الأرض وعوامل الانهـيار الحقيقية التي تقوم على تطبيق الإسلام في الأرض أو الإخلال بشىء من ذلك.

ومما ينبغى الإشـارة إليه أخيـرًا، الإشادة بدقة الرصـد الحربى لدى المسلمين في عـصورهم الأولى، حـيث علم عـبد الملك عن عـزم ملك الروم على غـزو بلاد المسلمين بجيش كبيـر فأعد للأمر عدته واستعـد لدفع البلاء قبل حلوله بما يتناسب مع حجمه وفي الوقت المناسب للقضاء عليه.

قال ابن أعثم في روايته المذكورة:

فلما اجتمع الناس من جميع الأمصار قام فيهم خطيبًا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها النـاس إنكم قد علمتم ما ذكـر الله عز وجل في كتابه من فـضل الجهاد وما وعد الله عليه من الثواب، ألا وإني قد عـزمت أن أغزو بكم غزوة شريفة إلى «أليون» صـاحب الروم فإنه قـد طغى وبغى، وقد بلغنـي أنه قد جمع للمـسلمين جموعًا كثيرة وعزم علـى غزوكم ومفاجأتكم في دياركم وقد علمت أن الله تعالى مهلكه ومُبَدِّدٌ شمله وجاعل دائرة السوء عليـه وعلى أصحابه، وقد جُمِعتم من كل بلد، وأنتم أهل البأس والنجدة والشجاعـة والشدة، وأنتم من قام لله بحقه ولدينه بنصرته وهذا ابـني مسلمة وقـد أمَّرته عليكم فاسـتمعـوا له وأطيعـوا يوفقكم الله ويرشدكم لصالح الأمور، قـال فقال الناس: سمعًا وطاعـة يا أمير المؤمنين، قال: فأمرهم عبد الملك بن مروان فعسكروا خارجًا عن مدينة دمشق في خلق عظيم.

قال: وخرج إليهم عـبد الملك بن مروان فعبأهم هنالك، فـجعل على كل قبيلة من القبائل من ساداتهم يقتدون برأيه، وينتهون إلى أمره، ثم قال لابنه: يابني إني قد نَدَبْتك لهذا الأمر وشرفتك بهذا الجيش فجعلته لك شرفًا وذكرًا إلى آخر الأبد، فكن يا بني للمسلمين بارًا رحيمًا وأميرًا حليـمًا، ولا تكن عنيدًا كفورًا ولا مختالاً فخـورًا، واعلم يا بني أن الروم سيلقـونك بجيش كثـير وجـمع كبيـر، فثق بالله واستعن به وتـوكل عليه، فكفى به وليًا وناصرًا،وانظر يا بني لا يَهُـولَنَّك ما ترى من جمع الروم وكثرة عددهم فإن الله تبـارك وتعالى بفضله ومنِّه مهلكهم وضارب وجوههم ومرعب قلوبهم ومـزلزل أقدامهم، ومعك يا بني بحمد الله خـلق كثير، فإن عـزمت على حرب عـدوك فاجعل عـمك محمـد بن مروان على مـيمنتك، واجعل ابن عمك محمد بن عبد العزيز على ميسرتك، واجعل محمد بن الأحنف ابن قيس على طلائعك، وعـبد الرحمن بن صـعصعة بن صـوحان على جناحك واعتمد في حربك على البَطَّال بن عمرو فإنه بطل شجاع مقدام [شياع][1] وانظر يا بني لا تكسل ولا تفشل ولا تجـزع ولا تهلع، فإنك إن لم تفعل ذلك وتعـديت ما

(١) هكذا وردت في الرواية ولم أجد لها مـعنى يناسب السياق إلا أن تكون «مُشَـيَّع» بمعنى شجاع ولكن هذا الوصف ذكر قبل ذلك، والبطال اسمه عبد الله بن عمرو الأنطاكي.

أوصيتك به استوجبت من الله المقت، ومن عباده البغض، ومن ملائكته اللعن فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٦].

قال: ثم أقبل عبد الملك بن مروان إلى الناس فقال: أيها الناس المسلمون أنتم إخواني وأعواني، وهذا ابني مسلمة وهو سيفي ورمحي وسهمي، وقد رميت به في نحر العدو، وبذلت دمه ومهجته لله عز وجل، ورجوت أن يقضي الله به على جيش الروم، فأعينوه واعضدوه وقوموا معه، وانصروه إذا كسل، وشجعوه إذا فشل، وأيقظوه إذا غفا، وفهموه إذا هفا، فإن أصيب فالأمير بعده عمه محمد بن مروان، فإن أصيب فابن عمه محمد بن عبد العزيز، فإن أصيب فاختاروا من أحببتم الأفضل فالأفضل، والخيار في ذلك إليكم، والسلام.

ثم دعا مسلمة فعانقه وقبَّل بين عينيه وقال: السلام عليكم يا ولدي وقرة عيني وثمرة فؤادى، فإن نفسي تحدثني أني لا أراك ولا تراني بعد هذا أبدا، ثم بكى، وبكى الناس لبكائه، وودع الناس بعضهم بعضًا، ورحلوا من عسكرهم يوم الجمعة، وذلك في أول يوم من رجب بعد صلاة الجمعة[1]، وعبد الملك بن مروان يشيِّعهم إلى أن نزلوا على فرسخين من مدينة دمشق، فأقاموا يومهم ذلك هناك، فلما كان من الغد ودعهم عبد الملك بن مروان ورجع إلى دمشق في نفر من أصحابه.

قال: وسار القوم في الآلة والسلاح الكامل والزيِّ الحسن والخيل العتاق والبراذين المُطهَّمة حتى نزلوا بموضع يقال له «مرج دابق»[2].

قال: فلم يزل مسلمة هنالك نازلاً والناس يخرجون إليه ويتلاحقون به من كل موضع راغبين في الجهاد حتى صار في عسكر عظيم، ووافاه الفتية المدنيون التائبون[3]، وسيأتي خبرهم بإذن الله تعالى.

(١) يعني من سنة ست وثمانين كما سيأتي في سياق مواقف المعركة، وانظر الكامل ٤/ ١٠٦.
(٢) هي قرية قرب حلب بينها وبينها أربعة فراسخ - معجم البلدان ٤/ ٣.
(٣) الفتوح لابن أعثم ٧/ ١٢٣ - ١٢٥.

هذا وإن في خطبة عـبد الملك هذه ووصيـته لولده ولجنده مثلاً لما قـدمت ذكره عنه من قوة ارتباطه بالله تعـالى وإدراكه العميق لعوامـل النصر المعنوية، ولا غرابة عليـه في ذلك فهـو من التـابعين الذين نهلوا من علم الصـحـابة رضي الله عنهم وتلقوا التربيـة على أيديهم، ففي خطابه لجيش المسلمين يبين ما جـمعه الروم لهم من الجمـوع الكثيرة ثم يحكم على نتـيجة المعركـة معهم بحـسن الظن بالله تعالى وقوة الأمل في نصره لأوليائه وإهلاك أعـدائه، وهذه بداية طيبة لتلك المعارك التي سـيخـوضهـا معـهم المسلمـون، حيث لم يَعْـتَدَّ عـبـد الملك بقوة جنده وحـسن استعدادهم المادي، بل جعل الأمر كله بيد الله تعالى.

وفي وصيـته لابنه مسلمة نجـده يوصيه بحـسن السياسة مع جنده حـيث يذكِّره بالالتزام بمكارم الأخلاق التي تجـعله محبوبًا لدى جنده، فـأوصاه بالبر الذى يصله بجنده، وبالرحـمـة التى تحجـزه عن الظلم، وبالحلم الذى يملك بـه غضـبه فـلا يتصـرف إلا بعقله السليم، ونهاه عن مـساوئ الأخلاق التى تجـعله مُبغَـضًا لدى جنده، حيث نهاه عن العناد الذي يدفـعه إليه الاعتداد بالرأي وعدم قـبول مشورة أهل الخبرة، ونهاه عن كفر النعمة الذي يتـمثل بعدم تقدير أهل الفضل،والإمساك عن شكرهم، وذلك يحـجب عنه طاقـاتهم الفـعالة وقـدراتهم المؤثرة فـيضـعُف إنتاجهم ويكون الفشل سبيلَه وسبـيلهم، ونهاه عن الخيلاء والفخر، لأن هذا الخلق السيئ يطمس من فكر الإنسان محاولة إدراك عـيوبه والطموح نحو الكمال، حيث يكون الفكر مشغولاً بتلمس ما يرضي غرور النفس وإن كان سرابًا لا وجود له في الواقع، إلى جانب كونه يحجب عن القائد نـتاج فكر المفكرين من أتباعه، ويحدد علاقتـهم به بنوع من المجاملة، والاكتفاء بأداء الواجـبات الضرورية الظاهرة بشيء قليل من الكفاءة والطاقة.

إلى آخر هذه الوصايا التي من أبرزها نهيه ابنه القائد عن الكسل والفشل والجزع والهلع، وتذكـيـره بأنه إن وقع في شيء من ذلك فـقد اسـتـوجب المقت من الله تعالى، والبغض من عـباده واللعن من ملائكته، وهو تأكيـد مرة أخرى على لزوم الصلة بالله تعالى وتذكُّـر عظمته ورقابتـه، وأن المعوَّل عليه في جمـيع الأمور هو

طلب رضوانه واجتناب سخطه، وعلى ذلـك يترتب طلب رضوان الملائكة والمتقين من عباد الله جل وعلا.

ومن أبرز تلك الوصايا تذكيـر الجند بنصر القائد إذا كسل وتشجـيعه إذا فشل، وإيقاظه إذا غـفا، وتفهيـمه إذا هفا، فالـقائد لا كيان له ولا قـوة إلا برقابة جنده ونصحهم إياه، وبذلهم كل طاقتهم مـعه في خدمة الهدف الأعلى الذي يجاهدون من أجله.

هذا وقد حصل ما توقـعه عبد الملك من عدم لقائه بابنه مـسلمة بعد ذلك اليوم حيث توفي عبـد الملك بعد ذلك بشهرين ونصف في منتصف شـوال من عام ستة وثمانين[1].

***

(١) الكامل ٤/ ١٠٢.

خبر الفتية التائبين

ذكر المؤرخ أحمد بن أعثم الكوفي - في سياق أخبار غزو المسلمين لبلاد الروم - خبر الفتية العشرة الذين كانوا في المدينة على شيء من المعاصي واللهو ثم تابوا إلى الله تعالى توبة نصوحًا وخرجوا مجاهدين فى سبيل الله تعالى، وقد ذكر أسماءهم وما هم فيه من اللهو المحرم والمعاصي من روايته عن عيسى بن دأب إلى أن قال: وكان هؤلاء الفتية العشرة في كل نعمة سابغة لا يأتي عليهم يوم من الأيام إلا وهم أشد سرورًا وأطول حبورًا من يومهم الذي مضى إلى أن وقع الخبر إليهم بأن عبد الملك بن مروان قد وجه جيشًا إلى بلاد الروم.

قال: وأراد الله عز وجل ما أراد من الخير، وأحب الله عز وجل أن ينقذهم مما هم فيه من ظلمة المعاصي إلى نور الطاعة.

قال: فأول من ارتدع منهم عما هو فيه ودعته نفسه إلى التوبة والإنابة إلى الله تعالى يحيى بن عمرو القرشي، فعزم على ذلك وجعل يُسِرُّه في نفسه ولا يذكر لإخوانه شيئًا مما قد عزم عليه، وهو مع ذلك يجالسهم ويحادثهم.

قال: فبينما هم ذات يوم على شرابهم ولهوهم إذ أخذوا شيئًا من تناشد الأشعار التي قد أحدثوها بينهم فجعل كل واحد منهم يقول شيئًا ويحيى بن عمر والقرشي ساكت لا ينطق بشيء حتى فرغوا من نشيدهم فأحب أن يلقي إليهم شيئًا مما قد عزم عليه من أمر التوبة ونزوعٍ عما هو عليه فأنشأ يقول:

قالت سلوتَ فقلت لست بجاهد — أنا والمهيمنِ ذي الجلال الواحد
وسلختَ ودَّك عن فؤادي مثلما — سلُخَ النهارُ من الظلام الراكد
قالت فَعُدْ فالعود عندي أحمدُ — فأجبتها هيهات لست بعائد
إني أخاف عذاب ربٍ سرمدًا — تبدو فضائحه ولست ببائد

قال: فلما سمع القوم من يحيى بن عمرو القرشي هذه الأبيات أنكروا ذلك منه إنكارًا شديدًا بليغًا، ثم إنهم عَضُّوه بألسنتهم وعذلوه فأكثروا فيه من عذله ولومه، ثم قالوا: يا هذا قد سمعنا منك شيئًا نخاف أن يكون فيه تفريق جماعتنا وتشتيت ألفتنا، وإننا نناشدك في ذلك.

قال: فتبسم يحيى بن عمرو القرشي ثم حرك رأسه وأنشد:

إن في اللهو ما علمت سرورا　　لا يُرى في حوادث الأقدار
غير أني تركت ذلك خوفا　　وحِذارًا من شرِّ عارٍ ونار
فأنيبوا إلى الإله وتوبوا　　كم إلى كم نقيم في الإصرار

قال: فلما سمع القوم ذلك أقبل عليه سليمان بن عمرو - يعني أخاه - فقال: والله يا أخي ما عدا جميعُ تكلمت به سويداء قلبي ولقد أخذ بمجامع قلبي وعقلي حتى لقد غلب على سمعي وصدري وحال بيني وبين لذتي، ولقد علمت أن الأمر كما ذكرت وأن الرغبة فيما رغبتَ، قال: ثم أنشأ سليمان بن عمرو يقول:

يا من يلوم موفَّقا　　يدعو إلى إسعاده
أبدى النصيحة إذ دعا　　لم يأل في إجهاده
لا تنكروا ما قاله　　مِنْ بَذلِه لرشاده
فلقد أتى بنصيحة　　موصولة بسداده

قال: فلما سمع القوم كلام سليمان بن عمرو وميله إلى أخيه جعل بعضهم يقول لبعض: هذا ما كنا نحذره من تفريق الألفة وتكدير العيش، فعند الله نحتسب ما فُجعنا به منكما!

وهكذا استجاب لنداء الجهاد أحد هؤلاء الفتية العشرة وهو يحيى بن عمرو القرشي، ودبَّ الإيمان في كيانه، وسَرتْ في جسمه الحياة كما يسرى الماء في العود اليابس، وتحوَّل في لحظات إلى مؤمن تقي يتذكر ببالغ الأسى والحسرة ماضيه المظلم فيزيده ذلك إيمانًا وعزمًا على المضي في طريق الهداية.

ولكن أنَّى له أن يَنْعم بنوم أو يهدأ براحة وأصحابه الذين كان معهم في طريق الغواية مازالوا مرتكسين في هذا الطريق المعوجِّ، ففكر كثيرًا في أمر هدايتهم، وجعل هذا الأمر هو قضيته المهمة في حياته، وكان الأمل في هدايتهم يَحْدُوه إلى العمل على اجتذابهم، وهو على يقين بأن الله تعالى الذي حوَّل قلبه إلى الهداية قادر على أن يحول قلوب أصحابه.. فقرر أن لا يقاطع مجالسهم، وأن يحضرها بروح الداعية المنقذ لا بروح المستمتع المداهن.

وإذا بإيمانه يدفعه إلى قـول كلمة الحق التي سيغضب لها جـميع أصحابه، ولم يُبَال بما سـينتج عن ذلك من احتـمال تعرضـه للأذى على أيديهم، أو على الأقل محاولة هجره وإبعاده عنهم.

قال: ثم انصرف القوم من مجلسهم يومهم ذلك وهم مغمومون بأمر يحيى بن عمـرو وأخيه سليمـان، فلما كان في الليلة المقـبلة اجتمـعوا أيضًا فجلسـوا، فلما اطمأن بهم المجلس أقبل عليهم يحيى بن عـمرو فقال: يا إخوتي ويا أخلائي ومن تقر عيـني بصلاحهم واجتـماع كلمتهم، إنه ينبـغي للراقد أن يستيـقظ من رقدته ويستجلي عن غشوته، ومهما شككتم في شيء فلا تشكوا في الموت، إنه نازل بي وبكم، وأسأل الله تعالى العصمة والتـوفيق والتسديد لي ولكم، والسلام، ثم أنشأ يقول:

دعـوتكمُ للرشـد والنصح جـاهدا ... ومـازلت للإخـوان مُذْ كنت نـاصحـا

فـإن تقبلوا نصـحي تنالوا سعـادة ... وتأتوا طريقا بـيِّنَ القصد واضـحا

ومن يتـرك القـصد المنيـرَ طريقـهَ ... يلاقي غـــدًا نارًا ويخلد كـــالحـا

وهكذا تبين لنا في هذا الخبر المؤثر الذي عاد فيـه هؤلاء الفتية إلى رشدهم بعد أن ارتكسوا في الغـواية، أن هداية رائدهم إلى الحق وهو يحيى بن عمـرو القرشي كانت بعد سماعه نداء الجهاد، حيث أحيى الجهاد ضميره ونبهه من غفلته، فتحول إلى داعية هُدىً يحاول إنقاذ أحبته من الهلاك الذي كان مشاركا لهم فيه.

وبهذا نلمس فائدة مهمة من فوائد إحياء الجهاد في سبيل الله تعالى، حيث يتنبه الغافلـون والسادرون في لهوهم إلـى ما تعانيـه أمتـهم، وما يُحدق بهـا من خطر الهلاك والذلة عـلى يد الأعداء، فَتَـحيَى في نفـوسهم معـاني التحـدي للأعداء، والحفاظُ على مجد الأمة وعزها المتمثل في بقاء دينها ودولتها.

وحينما يـقارن اللاهون العابثون بين وضعـهم المزري وقد تعجلوا نصـيبهم من النعيم في حياتهم الدنيا ونسـوا آخرتهم، وبين وضع المجاهدين الذين طلقوا الدنيا ورفضوا متاعها الزائل، غيرةً على آخرتهم، وحرصًا منهم على رفعة درجاتهم في الجنة.. حينمـا يقارنون بين هذين الوضعين تسـري في كيانهم روح قـوية تعصف بهم، فتـجعلهم يترفعـون عن الدنايا التي كانوا يعتـبرونها قوام الحـياة وبهجتـها،

وتطمح عقولهم نحـو رضوانِ الله تعالى ونعيم الجنة، فـيرون أن أقرب الطرق إلى ذلك أن يُقدِّموا أرواحهم فداءً لدينهم وإخوانهم المسلمين.

وهكذا فعل هؤلاء الفتية بعدما هداهم الله تعالى، حيث شاركوا في معركة فتح «طوانة» وكانوا عاملا مهـمًا في الفتح، وقدموا أرواحهم جميعًـا شهداء في سبيل الله تعالى.

هذا ولو نظر السـادرون في غيهم اللاهون عن حـماية أمـتهم ومسـتقـبلها.. لونظروا إلى مصلحتهم الدنيوية المستقبلية فضلاً عن الآخرة لهبُّوا سراعا للدفاع عن بلادهم ودولتهم، لأن التـمتع الذي يعيـشون فيه في ظل الأمن والرخـاء القائمين على استـقرار الدولة وانتـصارها على الأعـداء سينقلب رأسًـا على عقب حـينما يستولي الأعداء على دولة الإسلام ويتخذون المسلمين عبيدًا لهم.

إن هؤلاء الذين يستـمرون في لهـوهم ولا يشاركون أمـتهم في البناء والحـماية والدفاع يشـبهون من يعيش في بسـتان يَجْني منه ما لذَّ وطاب وهو يشاهـد حريقا هائلا على مـسافة منه ويـتوقع عقـلاً أن يصل إليه ليـحرق في بسـتانه الأخـضر واليابس، وهو مـع ذلك غارق في متـعته ولهـوه ولا يشارك في صـد هذا الحريق الذي أفنى ما حوله.. فهل يُعتبر هذا من العقلاء؟

فكيف الحال إذا كان بالجهاد فى سبيل الله تعـالى مستقبل الدنيا والآخرة؟ وهل تُوضع الدنيا بـكل ما فيـها من نعيم في مـيزان مع الآخرة؟! هذا وإنـنا لنجد في الأسلوب التـربوي الذي سلكه يحى بـن عمـرو القـرشي دلالة على تفـوق ذلك المجتـمع من الناحية التربـوية.. هذا التفوق الذي كان نتـيجة لِعلوِّ كـعب العلماء آنذاك في الدعوة والتـربية، فـهو لـمَّا هداه الله جل وعـلا لم يقاطع رفـاقه الذين تحولوا في عينه بعد الهداية إلى رفاق سـوء، بل جعل أكبر همه أن يحاول إنقاذهم من مواطن الهلاك وأسباب الشقاء.

وبالرغم من كونهم لاموه وعنَّفوه وشـدَّدوا النكير عليه.. وبالرغم من هفوتهم الظاهرة حيث ناشدوه الله تعالى أن يقرهم على باطلهم وأن يسكت عن دعوة الحق

فإنه لم يغضب، ولم يُشغِل نفسه فى رد باطلهم أو الدفاع عن نفسه، وإنما ركز في أبيات من الشعر على إيقاظ ضمائرهم التى لا يزال فيها بقية من حياة، وذلك بتذكيرهم بمصيرهم بعد الموت، وكان لهذا المنهج القويم أثر ظاهر في هداية من اهتدى منهم، ثم سلك إخوته الذين هداهم الله تعالى هذا المنهج نفسه مع بقية المجموعة كما سيأتي.

قال عيسى بن دَأَب راوي الخبر: ثم أقبل عليهم سليمان بن عمرو فقال: يا إخوتي ومن قد عظمت حقوقهم عليَّ، وابيضَّت أيديهم عندي، إنكم قد علمتم ما افترقنا عليه في ليلتنا الماضية، وما دعاكم إليه أخي يحيى بن عمرو الناصح لكم الشفيق عليكم، فإن تجيبوا إلى التوبة والنزوع عما أنتم عليه فحظَّكم أصبتم، وإلى الخير أجبتم، وإن تقيموا على ما أرى من لغطكم واتباعكم أهواءكم فإني أسأل الله لكم التوفيق - والسلام.

ثم أنشأ سليمان بن عمرو يقول:

سألت إلهي أن يؤلف بيننا ... على الخير كالتأليف في سائر الدهر

فقد عشتمُ عصرًا وعصرًا وإننا ... لفي غمرة جهلاء نهوي وما ندري

نُلَجلج في بحرٍ سكارى بِحَيرة ... فحتَّى متى لسنا نفيق من السكر

وتوبوا تنالوا جنة الخلد إنما ... ينال جنان الخلد من كان ذا صبر

قال: فلما سمع بشر بن مطر الأزدي مقالة يحيى وسليمان بن عمرو واستحكم قولهما في قلبه أعجبه ذلك، ثم قال: لقد علم من أُعيِن عقلا وأَحضرهَمّا أين موضع الحق - والسلام.

ثم أنشأ يقول:

لعمري لئن بعت الهداية بالعمى ... وآثرت غير الحق إني لخاسر

أأترك حظي بعد إذ أنا قادر ... على أخذه والحق فيه بصائر(١)

سأُجبر نفسي عن هواها وغيها ... بصبر قويِّ الحزم والحر صابر

---

(١) يعني هل أترك حظِّي من نعيم الآخرة وأنا قادر على أخذه بالعمل الصالح في الدنيا؟!

قال: فلما سمع القوم مقالة بشر بن مطر الأزدي غمَّهم ذلك غمًا شديدًا، ثم أقبل هارون بن الحصين على أصحابه فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ما أعظم الرَّزية بفرقتكم، وأجلَّ المصيبة بتباعدكم! والله ما أظن هذا الأمر إلا مشتِّتًا جماعتنا، مكدرا علينا صفو عيشنا، لأن الذي دعوتنا إليه من مزايلة ما نحن فيه شديد، وهو أثبت وأرسخ من أن يزيله العظات أو يقلعه الصفات.

قال: ثم افترقوا أيضًا ليلتهم مغمومين.

وهكذا وجدنا هؤلاء الثلاثة الذين هداهم الله حريصين على هداية رفاقهم بالكلام المؤثر نثرًا وشعرًا مع التركيز على ترغيبهم بالجنة وترهيبهم من النار، وآخرين من المجموعة كانوا يقومون بدعوة مضادة للبقاء على ما هم فيه من اللهو والمعاصي.

ولكن الله تعالى أعان دعاة الخير منهم بالرُّؤَى الصالحة التي أراها اثنين من رفاقهم كان لها الأثر في هدايتهم.

يقول عيسى بن دَأب في سياق روايته: فلما كان في الليلة الثالثة اجتمعوا، فلما اطمأن بهم المجلس أقبل عليهم محمد بن زرعة العبدي فقال: يا إخوتاه اسمعوا عني كلامي وتدبَّروا بعقولكم فقد أتيتكم بأعجوبة، فقالوا: هات ما بدا لك، فقال: اعلموا أني فارقتكم الليلة وصرت إلى منزلي [فأرقت](1) أرقًا شديدًا، حتى إذا كان قبيل الصبح أغفيت إغفاءة فإذا أنا بآت قد أتاني في منامي وهو يقول هذه الأبيات:

يا تارك القصد بعد معرفة ... وسالكًا غيره من الطرق
يحيى وأصحابه على رشدٍ ... كما جلا الليلَ ساطعُ الفلق
فلا تكونَنَّ كالمقيم على ... دَحْضٍ مَزَلٍّ أشفى على غرق

قال: فلما سمعت ذلك استيقظت فزعًا مرعوبًا حتى كاد الخفقان أن ينزع قلبي حتى سكَّنني من كان بحضرتي.

---

(1) ليست في الأصل.

قال: فأقبل عليه يعقوب بن عبد الكريم الأنصاري، فقال: يا أخي فكأني والله وإياك إنما كنا على أمر واحد غير أن الألفاظ مختلفة، وذلك أني قمت عن المجلس حين افترقنا بالأمس وبي من الحرقة[1] والأسف لتشتيت الفرقة ما لا أبلغ وصفه حزنًا على إخواني، وما رأيت من مفارقتهم لنا ونقضهم علينا ما نحن فيه من الألفة والمودة، فأتيت إلى منزلي، وظللت عامة ليلي أدير عيني على الغمض فلا أقدر على ذلك، فبينا أنا كذلك بين النائم واليقظان إذ أنا بهاتف يهتف بي وهو يقول:

يا خائضًا في غمرة الجهل — وحائدًا عن واضح السُّبل
لستَ على شيء فلا تكذِبَنْ — في راجعِ التوبة في مهل
من قبل يوم معَظمٍ هائل — يُشيب رأس المرضعِ للطفل

فلما سمعت ذلك استيقظت وما معى شئ من عقلى، فهذا والله يا إخوتى ما رأيت.

فلما سمع القوم ذلك عجبوا وجعل بعضهم يقول لبعض: كيف حتى خُصَّ محمد بن زرعة ويعقوب بن عبد الكريم بهؤلاء الهواتف من بيننا؟ هذا سيكون لنا نبأ.

قال: ثم أقبل سعيد بن إسماعيل الأسدي على محمد بن زرعة وهو يقول:

لولا الذي أضمرتَ من غدرةٍ — ما راعَكَ الهاتف إذ يهتف
خُصصتَ بالهاتف من بيننا — مالك في قولك لا تنصف
والله رب العرش يا إخوتى — فإنني مجتهدًا أحلف
لاخنت من أهوى ولا شتَّمته — جهرا ولا مثلي به يوصف

قال: ثم أنشأ هارون بن الحصين التميمي وهو يقول:

أَبالأحلام أسلو عن هواي — لأقوام أَتَواْ بالترَّهات
أتونا يزعمون بأن آتٍ — أتى بنصيحةٍ عند البيات
يحضُّهمُ على هجر وغدر — وقطع الحبل منا والشتات

(١) في الأصل الفرقة.

فمن يك راغبًا عن وصل إِلْفٍ فلست براغب حتى الممات

قال: وتفرق القوم أيضًا ليلتهم تلك وقد وفق الله عز وجل للتوبة خمسة نفر: ابني عمرو وبشر بن مطر الأزدي ومحمد بن زرعة العبدي ويعقوب بن عبد الكريم الأنصاري، وبقي منهم خمسة: هارون بن الحصين وأحمد بن الحصين وعبد الله ابن عمرو الطائي وسعيد بن إسماعيل الأسدي وأحمد بن محمد اليشكري(١).

وهكذا رأينا مثالا من المعركة الدائرة بين العقول السليمة وهي تنادى أصحابها بالعودة إلى طريق الهداية، وبين العواطف المتأججة وهي تنادي بالبقاء على طريق الغواية، حيث بات اثنان من هؤلاء الفتية بشرٍّ ليلة من القلق والأرق، حتى منَّ الله تعالى عليهما بمن أنقذهما من حيرتهما، وحسم تلك المعركة لصالح العقول السليمة.

ولا ريب أن البقية - وإن أظهروا بشيء من التعصب بقاءهم على غوايتهم - يعانون من هذه المعركة، ولكن لم يكن حان وقت هدايتهم وانتصار عقولهم السليمة على عواطفهم المنحرفة.

ولم ييأس هؤلاء الذين تابوا من هداية أصحابهم، بل ظلوا يدعون الله تعالى لهم ويحاولون معهم ذلك بشيء من الجهد المنظم، حيث تولى كل واحد منهم الكتابة لواحد من أولئك إلى أن هداهم الله تعالى.

يقول عيسى بن دَأب: وجعل هؤلاء الخمسة الذين قد تابوا يدعون الله ويتضرعون في أن يَرجع(٢) بقلوب إخوانهم إلى ما هم عليه من التوبة، فلم يزالوا كذلك إلى أن استجاب الله منهم دعاءهم في إخوانهم وأقبل بقلوبهم إلى طاعته.

قال: وكتب هارون بن الحصين إلى يحيى بن عمرو القرشي بهذين البيتين:

نفسى الفداء لمن جلَّى الإله به عنَّا العمى ووقاه مورد التلف

قد كان ما بيننا في الدين مختلفا فاليوم نحن جميعا غيرُ مختلف

---

(١) الفتوح لابن أعثم ٧/ ١٢٧ - ١٣٠.

(٢) في الأصل يراجع.

قال: ثم كتب أخوه محمد بن الحصين إلى سليمان بن عمرو أيضًا بهذين البيتين:

أتتني منك موعظة يقوِّم نصحها أوَدي

فجئتك تائبًا في اليوم خوفًا من عقاب غد

قال: ثم كتب أحمد بن محمد اليشكري إلى محمد بن زرعة العبدي بهذين البيتين:

لقد قرأت كتابًا منك هيَّجني يدعو إلى الله إسرارًا وإعلانا

أجبته ودعوت الله مجتهدا كيما[1] نكون على الخيرات أعوانا

قال: ثم كتب سعيد بن إسماعيل الأسدي إلى يعقوب بن عبد الكريم الأنصاري بهذين البيتين:

أتاني كتاب منك فيه مواعظ تحضُّ على خير وتدعو إلى رشد

فأبصرت ما فيه من الحق والهدى وفارقت من أهوى على أجهد الجهد

فلما وصلت هذه الأبيات من هؤلاء الخمسة إلى إخوانهم فرحوا لذلك واستبشروا، واشتدَّ سرورهم، ثم إنهم ابتهلوا إلى الله عز وجل في أن يُقَوِّي عزمهم على ما عزموا عليه من التوبة، فاستجاب الله لهم ذلك.

قال: ثم إنهم تواعدوا أن يجتمعوا في مشربة لهم فيكلم بعضهم بعضا، فاجتمعوا في مشربتهم تلك، قال: وهي مشربة معروفة بالمدينة يقال لها مشربة التوبة، وهي مشربة على العطَّارين بالمدينة، قال: فلما اجتمعوا هنالك [تعانقوا][2] وبكى بعضهم إلى بعض لطول الفرقة وما كانوا عليه من التباعد، وحمدوا الله تعالى على ما ألَّف من التقوى وسألوه التوفيق والعصمة مما هم فيه. وهكذا تمت توبة هؤلاء الخمسة، واجتمع شمل الفتية العشرة على الهدى وطاعة الله تعالى، بعدما كانوا يجتمعون على الضلال ومعصية الله جل وعلا.

---

(١) في الأصل كما.

(٢) في الأصل اعتنقوا.

ولقد كان أولئك الخـمسة الأوائل أوفياء لإخوانهم، حكمـاء في دعوتهم حيث قاطعوا مـجالس اللهو، وظلوا على صلة بإخوانهم الذين مـازالوا في غوايتهم عن طريق المكاتبة الفردية.

ولا شك أن الإنسان حينما يخلو لنفسه، ثم يتلقَّى في تلك الحال كتابا يخاطب عقله، ويدعـوه إلى رشده، فإن النفس تكون أكثـر ميلا إلى الهدى وقـبولا لنداء الحق، ذلك لأن العاطفة آنذاك تـكون خامدة، وليس لدى الإنسان ما يُثـير كوَامن النفس في اتباع الهوى، لبعده عن مجالس اللهو ورفقة السوء، فينفرد العقل بتدبير النفس، فإذا كان لدى الإنسان بقية من إيمان وقـابلية لسلوك طريق الخير فإن العقل يقود النفس إلى رشدها.

وكم للرسائل الخاصـة في تاريخ الدعوة من أثر بالغ، ونتائج مثمـرة في مجال الهداية والالتزام بالطريق المستقيم!

وهل كان إسلام بطل الإسلام خالد بن الوليد إلا من أثر كـتاب بعثه إليه أخوه الوليد، يَذْكر فيه إشادة النبى ﷺ به ورغبته في إسلامه؟

ثم لا ننسى دعاء أولئك الشباب الخمسـة لإخوانهم في ظهر الغيب، حيث كان بعضهم يوصي بعضًا بالدعاء لهم بالهداية.

ولا شك أن وضـعـهم وهم يحتـرقـون أسًى على إخـوانهم إذا تصـوروا الجنة وحرمان إخوانهم من نفح نعيمها، وتصـوروا النار وتعرضهم للفح جحيمها. . لا شك أن قلوبهم والحـال هـذه سـتكون حـاضـرة مع الله تعـالى بكل مـداركـهـا وتصوراتهـا، والله سبحـانه وتعالى كريم رحـيم، لا يرد دعوة صادقـة صادرة من قلب متلهف عظيم الرجاء قوي الأمل بعطفه وكرمه.

أوليست قلوب العـباد بيد الرحـمن جل جلاله يصـرفها كـيف يشاء؟ ثم أليس الدعاء الصادق سببًا في تحـويل القلوب من الغواية إلى الهداية؟ إن الدعاء الخالص وسيلة اتصال عظمي تقطع حجب الليل البهيم وتجاوز طبقات الفضاء العالية لتصل إلى مدبِّر الكون جل جلاله فيكون بهـذا الدعاء هداية الحيارى، ونصر المظلومين، وكشف الكربات، وغير ذلك من صنوف القضاء، المترتبة على الدعاء.

فهذا الخبر نموذج صالح للدعوة إلى الله تعالى، ويشتمل على فوائد جليلة:

منها أن من كمال الهـداية أن يسعى المهتدى لإنقاذ أصحـابه الذين كان معهم، لأن أمر هدايتهم مـتعين عليه، حيث إنه أعرف الناس بـحالهم، وأقدر الناس على مخاطبتهم والتأثير عليهم.

ومنها أن المهتدي عليه أن لا ينظر إلى الذين مـازالوا على الغواية نظرة استعلاء واستخفاف، بل عليه أن ينظر إليـهم نظرة رحمة وعطف، وأن يحاول إنقاذهم من الهلاك الذي وجَّهوا أنفسهم نحوه.

ومنها أن لا يكتـفي الداعية بمحـاولة واحدة في هذا المجـال، بل عليه أن يكرر المحاولات، وأن ينوع الأسـاليب التي يسـتخدمـها في سـبيل الوصـول إلى هدفه السامي.

هذا وبعد اجـتماع أولئك الفـتية على الهدى وجَّـههم رائدهم يحيى بن عـمرو القرشي إلى الجهـاد في سبيل الله تعالى، وخـرجوا إلى الشام استجـابة لنداء أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان الذي أمر بجمع الجيوش من بلاد الإسلام لغزو الروم كما سبق.

ووصل هؤلاء الفتية إلى جيش المسلمين المرابط بمرج دابق بقيادة مسلمة بن عبد الملك.

ولما سار الجيش الإسلامي لجـهاد الروم سار معهم هؤلاء الفتـية، وشاركوا في معركة طُوَانة التي تم بعدها فتح هذه المدينة، وقد ذُكِر من أخبار هؤلاء الفتية أنهم كانـوا في مقدمـة من برز لأبطال الروم، وقـد جاء بالتـفصـيل ذكر ما جـرى من بعضهم كمـا جاء في رواية عيسى بن دأب حيث قال عن جهـاد أحمد بن الحصين التميمي:

ثم حمل على العلج - يعني الرومي - فضربه ضربة على فخذه فقطعها فسقط العلج ميتـا، قال: وإذا بعلج آخر يقال له بولص قد بدر إلى أحـمد بن الحصين، قال: فنظر إليه أحمد فقصد نحوه وهو يقول:

دونك حــربًا لا تـقــيــه تُرسي صـبـرًا على المكـروه مني نفـسي

كـيــمـا أنال منزلا فـي القـدس فــإنمـا الدنيــا كــيــوم أمس

قال: واختلفا بطعنتين، طعنه العلج في خاصرته فجَنْدَلَه قتيلا - رحمه الله -.

قال: فلما قُتل هارون بن الحصين[1] وأخوه أحمد، خرج من بعدهما سعيد بن إسماعيل الأسدي نحو ذلك العلج وهو يقول:

يا بـولِصَ الروم إلـيك نفــسي قـد طال في ظلِّ الخطايا حـبـسي

اليـوم أحـمى إخوتي بالحـمـسي كـيمـا يكون بطن سبْع رمـسي[2]

قال: والتقيا بضربتين، ضربه الأسدي ضربة جندله قتيلا.

قال: وخـرج من بعده علج آخـر يقال له قـسطنطين الأصغر، قـال: فقـصده الأسدي وهو يقول:

يا أيـهــا الداعي إلـى الجــلاد في حــومــة الأبـطال والأنجــاد

أتاك لـيث سَـلِسُ القــيــاد ذو صــولة يكـرهـهـا الأعــادي

ثم تطاعنا برمحيـهما فلم يصنعا شيـئًا، وتضاربا بسيفـيهما فلم يصنعا شـيـئًا، فاعتنق كل واحد منهمـا صاحبه حتى سقطا عن فرسيهـما إلى الأرض، فشد عليه العلج بخنجر كان معه فوجأه في نحره فقتله - رحمه الله-.

قال: وخـرج من بعده يعـقوب بن عبـد الكريم الأنصارى نحو قـسطنطين هذا العلج وهو يقول:

لَتــذهَبَنَّ اليـوم نـفـسى أسـفـا إذ كنت بعـد خمـسـة مخلَّفـا[3]

قـد نلت من لذة عيـشي مـاصفـا حَسْبِي الَّذي عانيـت حسبي وكفى

---

(١) يعني التميمي وهذا دليل على أنه استشهد قبل أخيه أحمد.

(٢) يعني أحميهم بالقوة لأستشهد فيكون جسدي في بطون السباع.

(٣) هذا يدل على أنه قد استشهد خمسة من هؤلاء الفتـية، وقد ذُكر منهم هارون بن الحصين التميمي وأخوه أحمـد وسعيـد بن إسماعـيل الأسدي وهذا يدل على سبـق استشـهاد يحيى بن عـمرو القرشي وأخـيه سليمان.

ثم حمل الأنصاري على قسطنطين العلج فقتله، ثم وقف ودعا إلى المبارزة فلم يخرج إليه أحد، وكاعت الروم بعد قتل قسطنطين.

قال: وجعل مسلمة بن عبد الملك ومن معه من المسلمين يتعجبون من إقدام هؤلاء الفتية على الموت، وصبرهم على الحرب، وكل واحد منهم يتلو صاحبه.

قال: والتفت بشر بن مطر الأزدي إلى إخوته الذين بقوا معه: يعقوب بن عبد الكريم الأنصاري، وأحمد بن محمد اليشكري، ومحمد بن زرعة العبدي، فقال: يا إخوتي إنه قتل منا خمسة ومضوا لسبيلهم، ونحن ههنا أربعة، ونرجو أن نلحق بهم عن قريب إن شاء الله(١)، ولكن هل ترون ما أرى؟ فقالوا: وما ترى يرحمك الله؟ فقال: و يَحْكم إني رفعت رأسي إلى السماء أنظر إلى هذه الغمامة التي قد أظلت هذا العسكر فرأيت عجبًا عجيبا، وذلك أني رأيت رجالا لم أر مثلهم ولا مثل صورتهم ساعة قط، ومعهم خيام بيض لم أر على حسنها شيئًا، ونظرت إلى نسوة يطلعن علينا من هذه الغمامة ويضحكن إلى إخواننا هؤلاء الذين قُتلوا، فهذا ما رأيت.

قال: فعند ذلك اقشعرت جلود القوم، ووقفت شعورهم واشتاقوا إلى ما شوَّقهم إليه صاحبهم بِشْر بن مطر الأزدي، ثم غلبتهم أعينهم بالبكاء والترحم على إخوانهم، وجعل بعضهم يقول لبعض:

إنه يجب علينا الآن أن لا نقصِّر في جهاد هؤلاء القوم الكفار، فعسى الله أن يجمعنا مع إخواننا في مستقر رحمته.

قال: فكان أولَ من تقدم منهم إلى الحرب يومئذ بشر بن مطر الأزدي، وهو الذي رأى ما رأى، فجعل يرتجز ويقول أبياتًا مطلعها:

من كان في شك وفي تَعَامِي ... فقد رأيت الحور في الخيام
صبرا لهذا يا بني الكرام ... حتى تحلُّوا ساحة السلام

---

(١) يقصد بالخمسة: يحيى وسليمان ابني عمرو القرشي، وهارون وأحمد ابني الحصين التميمي، وسعيد بن إسماعيل الأسدي، وبقي العاشر لم يذكر وهو عبد الله بن عمرو الطائي فلعله مات قبل المعركة.

قال: ثم تقدم محمد بن زرعة العبدي وهو يقول:

إن كـان لابد مصـيري لـلفنا فـمـا مـقـامي بعـد خـمس ههنا
إن نلت مـا أبغي فـقـد نلت المُنَى جناتِ عـدن ليس فـيـهـا مِنْ عَنَا

قال: ثم تقدم أحمد بن محمد اليشكري وجعل يرتجز ويقول:

لا خيـر في العيشـة بعد صـحبي حسبي من العـيشة حسـبي حسبي
لا أرجع اليـوم وأقـضي نحـبي ثـم أحُـلُّ فـي جـنـان ربـي

قال: ثم حمل هؤلاء الفتية فقاتلوا قتالا شديدًا، وجعل يعقوب بن عبد الكريم الأنصاري يرتجز ويقول:

هيـهـات مني سـفـهي وطيـشي أقـصـد للحـصن أمـام جيـشي
قـد ذهب السـادة من قـريش[1] لا خير لي من بعـدهمْ في العيش

قال: ثم حمل يعقوب بن عبد الكريم الأنصاري حملة يريد باب الحصن قال: ولحقه إخوته الثلاثة حتى صاروا إلى باب حصن طـوانة، فجعلوا يقاتلون أشد القتال، قال: وصاح مسلمة بالمسلمين فحملوا، وانكشفت الروم من بين أيديهم كشفة قبيحة.

قال: وجعل قوم يقاتلون، وقوم ينقبون السور نقبًا واسعًا، وبادر يعقوب بن عبد الكريم الأنصاري فدخل الحصن من ذلك النقب وجعل يقاتل أهل الحصن وحده، فلم يزل كذلك حتى قطعت إحدى قدميه، ووثب قائمًا على تلك الحالة يقاتلهم على فرد قدم وهو يقول:

أضـرب بالسـيف على فـردِ قَـدَمْ والحـرُّ لا يجـزع مـن وقع الألم
والموت بعـد الإلف أشـفى للقَـرِم مع الذي أرجـوه مـن باري النَّسَم
أرجـو جنانا حـقـقـت كل النعم مع فتـية كانوا لـعمري كـالبَهَم[2]

(١) يعني بذلك يحيى وسليمان ابني عمرو القرشي.
(٢) يعني أنهم كانوا صغارا، شبههم بصغار الغنم.

في مجمع الحرب إذا الحرب اضطرم   خـوفًـا من الله العـــزيز ذي النِّقم

قال: فلـم يزل الأنصاري يقاتـلهم وحده ويدفعـهم عن ذلك حتى دخـل إليه إخوته الثـلاثة، فأعـانوه ودفعوا الروم عن ذلك النقب، ثـم إنهم كبَّروا وصـاحوا بأصحاب مسلمة، فدخل الناس من ذلـك النقب وفتحوا باب الحصن، والأنصارى ينزف الدم من رجليه حتى مـات رحمه الله وقُتل الثلاثة الذين كانوا مـعه - رحمة الله عليهم أجمعين[١].

وهكذا ضـرب هؤلاء الفـتـية المدنيـون أمـثلة رائعـة في الشـجـاعة والإقـدام والتضـحية، فشـاركوا في المبارزة التي هي أخطر أنواع الحـرب، وكل واحد منهم يتعرض للشهادة ويتمناها، ولما ظفر بها بعضهم قصد الباقون مواقع الخطر ليلحقوا بإخـوانهم، فكانوا أول من دخل في ذلك النقب الذي يُـفضى إلى داخل حـصن الروم، والغـالـب على من يقتـحم ذلك المضيق أنه يُقـتل لأن الأعداء يكونـون قد أعدوا العدة له، فظفر هؤلاء الفتية بالشهادة جـميعًا بعدما أثخنوا في الروم وفتحوا الطريق للمسلمين ليدخلوا من ذلك النقب.

وتمَّ فتح مـدينة «طوانة» وكان لهـؤلاء الفتيـة مشاركـة فعالـة في ذلك الفتح، وطُوى ذكرهـم في الدنيا ولكن فُـتحت لهم صـفحـة جديدة في الآخـرة، حيث انضموا إلى قافلة الشهداء، فتجددت لهم الحياة الخالدة بعدما فقدوا الحياة الفانية.

﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾

[آل عمران: ١٦٩].

***

(١) الفتوح لابن أعثم ٧/ ١٢٥ - ١٣٤ ط دار الكتب العلمية، و٣/ ٦٥ ٧٥ ط دار الفكر.

فتح عمورية

لما انتهى المسلمون من فتح طوانة سار مسلمة بن عبد الملك بالجيش الإسلامي إلى عمورية، وبلغ ذلك أميرها «شمعون» فوجه إلى المسلمين قائدًا من قادته يقال له «وَرْسيب» ومعه أربعون ألفا، وأقبل شمعون من ورائه ومعه ثمانون ألفا، وبلغ ذلك مسلمة فوجه قائده البطَّال بن عمرو في مقدمته ومعه عشرة آلاف بكامل تجهيزهم، فالتقى بمقدمة جيش الروم، واقتتلوا، وأسرع القتل في المشركين، وحمل «ورسيب» على البطال وهو لا يعلمه، وعلم البطال أنه ورسيب فضربه على رأسه فقدَّ البيضة والهامة وخر ورسيب قتيلا وانهزم جيشه.

وعلم بذلك شمعون فزحف بخيله ورَجله يريد لقاء المسلمين وأرسل البطال بن عمرو إلى مسلمة فخبَّره بذلك، فأقبل مسلمة بجماعة المسلمين، فالتقوا بأعدائهم واقتتلوا قتالا شديدًا، وترجَّل مسلمة فنزل عن فرسه ونزل الناس معه، وصاح صائح المسلمين: أيها الأمير البشرى فقد قتل الله شمعون، فكبَّر مسلمة وكبر المسلمون معه، وإذا بالبطال قد أقبل وفي يده رأس شمعون حتى ألقاه بين يدي مسلمة.

فعند ذلك وثب مسلمة واستوى على فرسه واستوى الناس معه على خيولهم، ثم حمل وحمل الناس معه، وانهزم الروم وولوا الأدبار، وأسرع المسلمون إلى باب عمورية فدخلوها بالسيف عنوة، فقتلوا مقاتلتها وغنموا أمتعتها وأموالها.

وكان للمسلمين أشعار حماسية في تلك المعركة منها قول عبد الرحمن بن صعصعة بن صوحان العبدي:

أنا ابن عبد القيس جدِّي صعصعة ... ذو البأس والإقدام عند المعمعة

إذا التقى الأبطال وسْط المعمعة ... والروم قد سارت إلينا مجمعة

ومن يخاف الله فاللهُ معه

ومنها قول عبد الله بن جرير بن عبد الله البجلي:

أنا ابن ذي الفضل فتى بجيله ... جرير شيخي وله فضيله

فضيلة عظيمة جليله   من النبيِّ صاحب الوسيلة[1]

وفي هاتين المعركتين أظهر المسلمون بسالة عالية وثبتوا لأعدائهم ثباتًا عظيمًا، فقد انتصرت مقدمة جيش المسلمين المكونة من عشرة آلاف بقيادة البطال بن عمرو على مقدمة جيش الروم المكونة من أربعين ألف مقاتل بقيادة ورسيب، وكان للبطال بن عمرو الأنطاكي أثر كبير في المعركتين حيث قتل قائد المقدمة ورسيب وقائد جيش الروم أمير عمورية شمعون، ومعلوم أن قتل قادة العدو يوقع الفشل في صفوفهم ويقودهم إلى الهزيمة كما تقدم لنا أمثلة لذلك.

***

(١) الفتوح لابن أعثم ٧/ ١٣٥ - ١٣٦.

فتح نقفورية

ثم سار مسلمة بن عبد الملك من عمورية يريد مدينة نقفورية، فلما أشرف المسلمون عليها إذا هم بنقفور الأكبر قد خرج إليهم في زهاء سبعين ألف فارس سوى الرجالة، فلما نظر إلى جيش المسلمين صاح بأصحابه: أن احملوا، وحمل معه أصحابه، فانكشف المسلمون أمامهم وقتل منهم جماعة، فنادى مسلمة في أصحابه بأعلى صوته: يا أهل الشام لا شام لكم، ويا أهل العراق لا عراق لكم، ويا أهل مصر لا مصر لكم، إن أنتم ولَّيتم الأدبار، اليوم يعلم الله منكم حسن الصبر واليقين.

ونادى محمد بن مروان وقال: يا أهل الإسلام أما تستحيون أن ينهزم أهل الدين والقرآن من بين أيدي الكفرة وعبدة الصلبان! أما ترغبون فيما رغبكم فيه ربكم وأتاكم به نبيكم [من] النصر، والله ينصركم ويثبت أقدامكم.

فعند ذلك صدقت عزائم المسلمين وتراجعوا إلى الروم، والتحم القتال، وحمل نقفور على مسلمة بن عبد الملك فضربه ضربة على بيضته [والبيضة ما يلبس على الرأس من الحديد للوقاية] فنكَّسه إلى الأرض، ثم صاح بالروم فحملوا على المسلمين حملة كادوا أن يزيلوهم عن مواقفهم غير أنهم ثبتوا للروم وأشرعوا الرماح في وجوههم، ورشقوهم بالسهام، ورجعت الروم إلى ورائها، ووثب مسلمة فاستوى على فرسه ثم نادى بأعلى صوته: أيها الناس إليّ إليّ، أنا مسلمة ابن عبد الملك: يوجب الله لكم الرضوان، فاجتمع عليه الناس ثم تواصوا بالصبر، ووعظ بعضهم بعضا، وحملوا على الروم كحملة رجل واحد ووضعوا فيهم السيوف، وكان نقفور أول قتيل.

وعلمت الروم بمقتل نقفور فولَّوا الأدبار والسيف يأخذهم حتى صارت القتلى بينهم كالتلول بعضهم على بعض.

وسبق البطال بن عمرو وجماعة من المسلمين إلى باب مدينة نقفور، فهجموا على أهلها فقتلوا من قدروا عليه، وأقبل مسلمة في جماعة من المسلمين حتى أحاطوا بالمدينة فاجتمعوا عليها، وغنموا ما فيها[1].

---

(١) الفتوح لابن أعثم ٧/ ١٣٧ -١٣٨.

وبعد: فهذه معركة كبرى من معارك المسلمين التي خاضوها ضد الروم، وقد كاد المسلمون فيها يتعرضون للإبادة مرتين، لأنهم لو انهزموا انهزامًا كليًا فلن يبقى منهم أحد حيث لا حصون لهم إلا ظهور الخيل.

وإن أبرز مواقف هذه المعركة قوة المسلمين الفائقة في الصبر واحتمال الشدائد، وسرعة الإفاقة بعد الصدمة الهائلة المباغتة، ففي تراجعهم الأول أمام هجوم الأعداء الصاعق ناداهم القائد مسلمة بن عبد الملك وذكرهم بأن مسئولية بقاء بلاد الإسلام بيد المسلمين معلقة بأعناق ذلك الجيش لأن الروم لن يكتفوا بهزيمة ذلك الجيش المنتخب بل سيتقدمون لاستعادة الشام وغيرها، وهذه لفتة جيدة حيث اعتبرهم حماة المسلمين وحراس دولة الإسلام، فعظَّم في نفوسهم الشعور بالمسئولية، وانطلقوا في هجومهم على الأعداء بطاقاتهم الكاملة، كما ذكَّرهم محمد بن مروان بما وعده الله تعالى لعباده المجاهدين في سبيله من النصر والتمكين، فكان لذلك أثره في ربطهم بالله تعالى واستمدادهم النصر منه جل وعلا.

ومن دلائل ثبات المسلمين وإخلاصهم لدينهم أنهم لم يتزعزعوا لما سقط قائدهم على الأرض، بل ثبتوا لهجوم الروم حتى ردوهم على أدبارهم، وهذا مثل لإدراك المسئولية وحسن التصرف عند المفاجآت.

وفي قيام مسلمة بعد ذلك وإعلانه عن موقعه ونداء المسلمين إليه دلالة على شجاعته حيث إن هذا الإعلان والنداء سيلفت أنظار الأعداء إليه.

***

فتح السماوة الكبرى

وقد استمر المسلمون في سيرهم وفتوحاتهم وتوغلوا في بلاد الروم، وفي ذلك يقول المؤرخ ابن أعثم الكوفى: وسار المسلمون نحو مدينة «السماوة الكبرى» وبها يومئذ بِطْريق من البطارقة الرومية يقال له «إفريطون» في ثمانين ألفا من الروم، وقد حصَّن السماوة قبل ذلك، ونصب على سورها عشرين منجنيقا وثلاثين عرادة(١)، قال: فنزل مسلمة والمسلمون على السماوة، ثم أمر بمجانيقه فُنصبت عليها من كل جانب وترامى الفريقان رميًا متداركًا، ودامت الحرب بينهم أربعين يومًا لا يفترون عن ذلك ليلا ولا نهارا.

فلما كان بعد ذلك أقبل بطريق من بطارقة الروم يقال له: «قرطس» إلى مسلمة ابن عبد الملك حتى وقف بين يديه في جوف الليل فكفَّر له(٢) وقال: أيها الأمير إن السماوة حصن حصين، وفيها خلق كثير، وليس يتهيأ لك أن تفتحها إلا أن يُفتح لك من داخلها فتدخلها، وإن أفريطون هذا صاحب السماوة قد أساء إليّ، وغصبنى على ابنة لي فأخذها مني قهرا، وقد عزمت على أن أفتح لك هذا الباب الذي هو مقابلك، فإذا أصبحت فعبئ أصحابك، واقترب من باب المدينة، والْقَ الحرب بينك وبين الروم، وقدِّم أبطال عسكرك بين يديك فإنى فاتح لك هذا الباب الذي هو مقابلك.

قال: فقال له مسلمة: إن أنت فعلت ذلك حملتك وكسوتك وبررتك بعشرين ألف درهم وخلطتك بأصحابي.

قال: فقال له قرطس: أيها الأمير إذا دخلت المدينة فافعل من ذلك ما أحببت، قال: ثم رجع قرطس إلى المدينة.

فلما كان من غد عبَّى مسلمة أصحابه كما كان يعبيهم قبل ذلك، ثم دنا من باب المدينة - وهي السماوة - وبين يديه البطال بن عمرو في فرسان من أصحابه،

---

(١) هي نوع من آلات الرمي أصغر من المنجنيق.

(٢) يعني وضع يده على صدره وطاطأ رأسه تعظيمًا على عادتهم.

(٣) يعني نادوا بالحرب على طريقتهم.

قال: ثم عَطْعَطَت الروم(١)، وكبَّر المسلمـون فاختلط الفريقان، واشـتبكت الحرب على باب المدينة، وفح ذلك البـطريق الباب، واقـتحم المسلمـون معـه، فجـعلوا يقتلون ويأسرون.

قال: وفتح أفريطون بابًا آخر من أبواب السمـاوة وخرج هاربًا على وجهه ومعه خلق كثير من أصحابه حتى صار إلى مدينة من مدن الروم يقال لها المسيحية(١).

وبعد: فإن في هذا الخـبر مثلا من اسـتعداد المسلمين الجيـد، وذلك من ناحية إعداد القـوة لقتال الأعـداء بما يتناسب مع عصرهم، حـيث كانوا يحملون مـعهم عددًا من المجـانيق التي تعادل المدافع في العصر الحـاضر، وقد كان عـددها وافرًا حيث أحاطوا بها على المدينة المحاصرة، وهكذا يجب على المسلمين أن يطبقوا قول الله تعالى: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ** ﴾ [الأنفال: ٦٠]. ليكونوا فـي ذلك على الأقل مثل أعدائهم، إلى جانب ما يتفوقون به على جميع الأمم من السلاح المعنوي.

وفي هذا الخبر مثل حَيّ لأثر العدل ومكارم الأخلاق في كسب القلوب والظفر بولائها ونصرتها، بغضِّ النظر عن العـوامل الأخرى التي تقتضي الولاء والنصرة، والتي أبرزها الاتفاق في الدين، ثم الاتفاق في اللغة والوطن والروابط الدنيوية.

كما أن فيه مثلا حيًـا لأثر الظلم ومساوئ الأخلاق في نفرة القلوب وميلها إلى الانتـقام، والتـشفي مـن الظالمين، بالرغم من الاتفـاق في العوامل الأخـرى التي تقتضي الولاء والنصرة.

فـهـذا القـائد الـرومي الذي كـان من عظمـاء ذلك البـلد والذي أعلن ولاءه للمسلمين واستعداده لنصرتهم، ثم قام بتنفيذ ذلك حسب اتفاقه مع المسلمين، إنما دفعه إلى ذلك اعتباران: الأول أنه تعرض للظلم وانتهاك العرض على يد أمير تلك المدينة، فنفر منه وتربص الفرصة المناسبـة للانتقام منه، ولا شك أن النفوس الأبية تتحمل كثيرًا من أنواع الظلم ولكنها لا تتحمل انتهاك أعراضها.

---

(١) يعنى نادوا بالحرب على طريقتهم.

(٢) الفتوح لابن أعثم ٧/ ١٣٩ - ١٤٠.

والاعتبار الثـانى: ملاحظة ما اشتهر به المسلمـون من العدل ومكارم الأخلاق، حيث كانت أخبارهم الطيبة في ذلك تسـبقهم إلى كل مكان يريدون فتحه، فتكون نفوس الشعوب مهيأة لقبول حكم المسلمين والاستنصار بهم على الظلمة الجبارين.

فلو كان المسلمـون المحاصرون لـتلك المدينة من جملة الأمم التي تريد الهـيمنة على الأرض لبـسط جبروتهـا وظلمهـا لَمَا كان هناك فـرق بينها وبين ذلك الجـبار المسيطر على تلك المدينـة، وإذًا فتحمُّل جـبروت القريب أولى من تحمل جـبروت البعيد، ولكن لما سَـبَقَتْ أخبار المسلمين وسيرتهم الحميدة فـي فتوحاتهم كان ذلك مشجـعًا لكل من مال إلى تقـدير مكارم الأخلاق أو تعرض لظلم من طغـاة قومه وجباريهم إلى أن ينحاز إلى صف المسلمين وأن يُظهر نصرتهم.

وفي هذه الحادثة عبرة لأصحاب المسئـولية، كي لا يستهينوا بمن تحت ولايتهم، وأن لا يغتـروا بما في أيديهم من القوة والسلطان، فـإن النفوس الأبية تصـبر على الضيم مـادامت تحت الغلبة والهـيمنة، فإذا لاحت لهـا فرصة لـلتشفي والانتـقام سارعت إلى اغتنامها، وهذا الشعور سائد في عموم البشر، ولكن المسلمين خاصة يتقيدون في كل تصـرفاتهم بشرع الله تعالى، حيث يغلِّبون جـانب المصالح العامة على المصلحة الخـاصة، ويراعون جـانب الإبقاء على دولة الإسلام والحـفاظ على عزة المسلمين.

هذا وإن مـا سخَّـره الله تعالى في هذه المعـركة من خـروج ذلك الرومي الذي أبدى استعداده لنصرة المسلمين يعتبر مثلا من أمثلة تأييد الله تعالى لأوليائه المؤمنين لَمَّا كانوا أهلا لذلك، ولَمَا يريد الله سبحانه بهم من إعزاز الإسلام، فقد كانت تلك المدينة من المناعـة بحيث يصعب علـى المسلمين فتحـها من خـارجها فـقيض الله للمسلمين من يفتحها لهم من الداخل بدون تدبير منهم.

***

فتح مدينة المسيحية

قال ابن أعثم الكوفي: واقترب المسلمون من المسيحية، وبلغ ذلك إفريطون صاحب السماوة، فنادى في جميع النصرانية فاجتمعوا إليه، فخرج بهم من المسيحية، وبين يديه بطريق يقال له: شماس في ثلاثين ألفا، وإفريطون من ورائه في أربعين ألفا.

قال: فدنا القوم بعضهم من بعض فاقتتلوا قتالا شديدًا وحملت الروم بأجمعها على عساكر المسلمين حملة فهزموهم حتى ألحقوهم بالسماوة، وقد قُتل منهم جماعة، ثم رجع المسلمون عليهم فهزموهم حتى ألحقوهم بالمسيحية، واشتبكت الحرب على باب المسيحية.

قال: وجعل «شماس» البطريق يحمل على المسلمين حملة بعد حملة فيقتل ويرجع إلى أصحابه، حتى قتل نفرًا من المسلمين.

قال: وحملت قبيلة من الروم على الضحاك بن يزيد السلمي فقتلوه وقتلوا معه جماعة من المؤمنين، وتقدم أفريطون صاحب السماوة في جمهور بطارقة الروم، فجعل يكافئ المسلمين[(١)].

قال: وقصده محمد بن عبد العزيز [يعني ابن مروان] على فرس له أصدى[(٢)] وهو يرتجز ويقول:

قد علم الروم ومن والاها ... وكل علج أقلف سواها

أَنّي إذا الحرب خَبَتْ لظاها ... أَلقيتُ أخراها على أولاها

قال: واختلفا بطعنتين، طعنه إفريطون طعنة فقتله، قال: فاغتمَّ المسلمون لقتل محمد بن عبد العزيز غمّا شديدًا، وتقدم البطال بن عمرو حتى وقف حذاء إفريطون وهو يقول:

لابد من عرض ومن مقام ... على مليك صمَدٍ منِعْام

فجاهدي يا نفس لا تُلامي ... بكل عَضْبَ ذكَر حسام

---

(١) يعني يظهر كفاءة الروم بما يشبه كفاءة المسلمين.

(٢) يطلق الصدَّى على لطافة الجسم.

ثم حـمل البطال على إفـريطون، والتقـيـا بطعنتين، طعنه البطال طعنة جـدَّلة قتيلا، ثم نزل فاحتز رأسه ورفعه على رمحه، ثم كبَّر وكبر المسلمون معه.

قال: ونظرت الروم إلى رأس إفـريطون وقد رفع فانكسـروا لذلك انكسارًا، وألقى الله تعـالى في قلوبهم الرعب، فولَّـوا الأدبار وكبَـسَتْـهم خيل المسلمين، وأخـذتهم السيوف، فقُتل منهم خلق كثير وانهزم الباقون على وجوههم، وسلَّموا مدينة المسيحية بجميع ما فيها فدخلها المسلمون عنوة فقتلوا من قتلوا، واحتووا على غنائمها(١).

هذا وإن في هذه المعركة ثلاثة مواقف نعلق عليها بإيجاز:

الموقف الأول: في مقـدرة المسلمين الحربيـة التي تمثلت في سرعـة عودتهم إلى القتال بعد الانهـزام، وهذا يدل على أن ما حصل لهم إصابة مؤقـتة بسبب حرب مفاجـئة لم يُعدُّوا لها أو بسبب تقـصير في تطبيق بعض عـوامل النصر، ثم عادوا بعدها أقوى مما كانوا، ودحروا قوة أعدائهم.

والثاني: موقف مـحمـد بن عبـد العزيز بن مـروان لما أقدم على مـبارزه ذلك الرومي الشجاع، وإن مـحط الإعجاب في ذلك ليس في مجـرد المبارزة، وإنما هو في كون أبناء الأمراء آنذاك ينافسون غيرهم في خوض غمار أقسى مراحل الحرب، ويغامرون بأنفسهم في مـوقف يكونون فيه أقرب إلى الموت، وهذا دليل على علو التربية الجهادية التي كان الأمراء آنذاك يأخذون بها أبناءهم.

أما الموقف الثالث: فهو في شـجاعة البطال بن عمرو وإقدامـه على مبارزة ذلك الرومي الذي قضى قبله على صاحبه محـمد بن عبد العزيز، وإن مظاهر الشجاعة تبدو في هذا الموقف في مقدرته على الاحتفاظ بمعنويته وإقدامه، مع ما شاهده من مصرع صـاحبه، وعدم تهيُّـبه من ارتفاع معنوية ذلك الرومي بسـبب ما أحرز من نصر. ثم إن عظمة هذا البطل المقـدام تبدو في سرعة استحضـاره لعظمة الله تعالى في ذلك الموقف، وما سيقُدم عليه هو وغيره من العرض على الله تعالى والوقوف بين يديه للحساب، وإن هذا الذكر القلبي واللسـاني يعطي المجاهد أقوى دفعة من الطاقة والثبـات وتجاوز الأهوال، وبهذه المعنوية العاليـة التي اكتسبـها من ذكر الله تعالى استطاع أن يقضي على مبارزه العنيف في أسرع وقت.

---

(١) الفتوح لابن أعثم ٧/ ١٤٠ -١٤١.

فتح مدينة «بدروق»

ذكر ابن أعثم أن المسلمين قضوا فصل الشتاء في مدينة «المسيحية» ثم زحفوا منها إلى «بدروق» فلما علم بذلك أميرها «لبوس» استنجد بملك الروم فأمده بخمسين ألفا إضافة إلى جيشه البالغ ثلاثين ألفا.

ولما دنا منهم المسلمون كبَّروا ثلاث تكبيرات فامتلأت قلوب الكفار رعبًا وخوفًا، وتقدم قائدهم «لبوس» أمام جيشه، فنظر إليه البطال بن عمرو وقد انبرى من بين أصحابه، فاستأذن مسلمة بن عبد الملك في الخروج إليه فقال له مسلمة: أذنت لك ولكن انظر أين تضع رمحك، فقال البطال بن عمرو: كُفيتَ أيها الأمير، ليس مثلي يحتاج إلى الوصية في هذا الوقت.

ثم جعل البطال بن عمرو يرتجز ويقول:

قل للأمير ذي الصِّيال مسلمة   وابن الكرام السادة المكرَّمة
ومقُعصي الأبطال يوم الملحمة   إني أنا البطال جدي علقمة
كم ساعدٍ وبيضةٍ وجمجمة   طرحتها عند هياج الغمغمة
وأسْمَر روَّيته من غلصمة   وأنت محمود بكل مكرمة

ثم رفع رأسه وخرج من الصف، فجال جولة ثم حمل على قلب الروم، وأمكنته الفرصة من «لبوس» فحمل عليه فضربه بسيفه ضربة فلق تاجه وهامته فخر قتيلا، وانهزم الروم بغير قتال، فلحقهم المسلمون وقتلوا منهم عددًا كبيرًا، وفرَّ الباقون على وجوههم لا يعرِّجون على شيء حتى لحقوا ببحر القسطنطينية واقتحم المسلمون مدينة بدروق فاحتووا غنائمها وكانت كثيرة.

ثم أنشأ البطال بن عمرو يقول:

لقد علم الروم الأراجس أننا   قتلنا لدى الهيجاء منها رئيسها
تركنا لبوسًا في القتام مجدَّلاً   فَقَبَّح ربي ذو الجلال لبوسها
ونحن أَبدنْا في العجاج كُماتَهم   ونحن هزمنا جيشها وخميسها

ونحن إذا ما الحرب شبت وأرهجت نخوض لظاها عنوة ووطيسها
ونحن قسمنا فيئها ونساءها ببدروق لما أن أثرنا شريسها
وكان لبوسٌ كهفها وعمادها وكان لعمري ليثها وهموسها
وكانت له الأبطال تسطو لأنه إذا ناب أمر لم تجده حَسيسَها
وسوف نُكرُّ الخيل فينا شوازبا عنَا جيجَ تبدي في الغبار جَسيسَها
نريد بها «أليون» كيما نثيره ونشفي لدى الحرب العوان نفوسها(١)

وهكذا عمل البطال كما كان خالد بن الوليد رضي الله عنه يصنع حينما كان يختطف قادة الأعداء فتنهزم جيوشهم في الحال، فكم أنجبت الأمة الإسلامية من أبطال عظماء كفوا جيوشهم كثيرًا من المواجهات القتالية وأحرزوا النصر العظيم لأمتهم.

***

(١) الفتوح لابن أعثم بتصرف ٧/ ١٤١ - ١٤٣.

جهاد الروم في عهد سليمان بن عبد الملك

محاصرة القسطنطينية:

أخرج الإمام أحمد بن حنبل من حديث بشر بن سحيم رضي الله عنه: أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**لتفتحنَّ القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش**».

قال: فدعاني مسلمة بن عبد الملك فسألني فحدثته فغزا القسطنطينية(١).

وقد ذكر الحافظ الذهبي خبر حصار القسطنطينية من رواية سعيد بن عبد العزيز قال: أخبرني من أدرك ذلك أن سليمان بن عبد الملك همّ بالإقامة ببيت المقدس، وجمع الناس والأموال بها، وقدم عليه موسى بن نصير من المغرب، ومسلمة بن عبد الملك، فبينما هو على ذلك إذ جاءه الخبرُ أن الروم خرجت على ساحل حمص فسبَتْ جماعةً فيهم امرأة لها ذِكْر، فغضب وقال: ما هو إلا هذا، نغزوهم ويغزونا، والله لأغزونَّهم غَزوة أفتح فيها القسطنطينية أو أموت دون ذلك. ثم التفت إلى مسلمة وموسى بن نصير فقال: أشيروا عليّ. فقال موسى: يا أمير المؤمنين، إن أردت ذلك فسر سيرة المسلمين فيما فتحوه من الشام ومصر إلى إفريقية، ومن العراق إلى خراسان، كلّما فتحوا مدينة اتخذوها دارًا وحازوها للإسلام، فابدأ بالدُّرُوب فافتح ما فيها من الحصون والمطامير والمَسالح، حتى تبلغ القسطنطينية وقد هُدِّمت حصونها وأوهيتْ قوتها، فإنهم سيعطون بأيديهم. فالتفت إلى مسلمة فقال: ما تقول؟ قال: هذا الرأي إن طال عُمر إليه أو كان الذي يأتي على رأيك ولا ينقضه رأيت أن تعمل منه ما عملت ولا يأتي على ما قال خمس عشرة سنة، ولكنّي أرى أن تُغْزِيَ جماعةً من المسلمين في البّر والبحر القُسطنطينية فيحاصرونها، فإنَّهم مادام عليهم البلاء أعطوا الجزية أو فتحوها عَنْوة، ومتى ما يكون ذلك فإنّ ما دونها من الحصون بيدك. فقال سليمان: هذا الرأي. فأغزى

(١) مسند أحمد ٤/ ٣٣٥.

جماعة أهل الشام والجزيرة في البرّ في نحو عشرين ومائة ألف، وأغزى أهل مصر وإفريقية في البحر في ألف مركب، عليهم عمر بن هُبيرة الفَزَاريّ، وعلى الكُل مسلمة بن عبد الملك.

قال الوليد بن مسلم: فأخبرني غيرُ واحد أن سليمان أخرج لهم الأعطية، وأعلمهم أنّه عزم على غزو القسطنطينية والإقامة عليها: فاقدروا لذلك قدْره، ثم قدم دمشق فصلّى بنا الجمعة، ثم عاد إلى المنبر فكلم الناس، وأخبرهم بيمينه التي حلف عليها من حصار القسطنطينية: فانفروا على بركة الله تعالى، وعليكم بتقوى الله ثم الصبر، وسار حتى نزل دابقًا، فاجتمع إليه الناس، ورحل مسلمة.

قال الذهبي: وأما مسلمة فسار بالجيوش، وأخذ معه إليون الرومي المرعشي ليدله على الطريق والعوار، وأخذ عهوده ومواثيقه على المناصحة والوفاء، إلى أن عبروا الخليج وحاصروا القسطنطينية، إلى أن برَّح بهم الحصار، وعرض أهلها الفدية على مسلمة، فأبى أن يفتحها إلا عنوة، قالوا: فابعث إلينا إليون فإنّه رجل منا ويفهم كلامنا مشافهةً، فبعثه إليهم، فسألوه عن وجه الحيلة، فقال: إن ملَّكتموني عليكم لم أفتحها لمسلمة، فملّكوه، فخرج وقال لمسلمة: قد أجابوني أنهم يفتحونها، غير أنهم لا يفتحونها ما لم تُنَحِّ عنهم، قال: أخشى غدرَك، فحلف له أن يدفع إليه كلَّ ما فيها من ذهب وفضَّة وديباج وسبي، وانتقل عنها مسلمة، فدخل إليون فلبس التاج، وقعد على السرير، وأمر بنقل الطعام والعُلوفات من خارج، فملأوا الأهراء[1] وشحنوا المطامير، وبلغ الخبر مسلمة، فكرّ راجعًا، فأدرك شيئًا من الطعام، فغلَّقوا الأبواب دونه، وبعث إلى إليون يناشده وفاءَ العهد، فأرسل إليه إليون يقول: مُلك الروم لا يبايع بالوفاء، ونزل مسلمة بفنائهم ثلاثين شهرًا، حتى أكل الناس في العسكر الميتةَ، وقُتل خلق، ثم ترحل[2].

---

(١) جمع هُري وهو بيت كبير يجمع فيه الطعام.

(٢) تاريخ الإسلام/ حوادث ٨١ - ١٠٠ص ٢٦٩ - ٢٧١،وانظر تاريخ الطبري ٦/ ٥٣٠ والكامل لابن الأثير ٤/ ١٤٦.

هذا وقد تبين لنا من هذه الأخبار أن أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك قد فزع من وصول الروم في غزوهم إلى وسط الشام، فاستشار القائدين الكبيرين موسى ابن نصير ومسلمة بن عبد الملك في غزو الروم وفتح القسطنطينية، فكان رأي موسى بن نصير عدم التوجه إلى القسطنطينية أوّلاً، وإنما تفتح بلاد الروم شيئًا فشيئًا فكلما فتح المسلمون مدينة نزل بها طائفة منهم واتخذوها دارًا، فإذا بلغ المسلمون عاصمة ملك الروم كانوا قد ضعفوا فيسهل فتحها، وقد وافقه مسلمة على أن هذا هو الرأي، لكنه أبان بأن هذا الغزو سيستمر خمس عشرة سنة وأن نجاحه لا يتم إلا إذا طال عمر أمير المؤمنين حتى ذلك التاريخ أو كان من يأتي بعده على هذا الرأي، ولما كان يعلم أن ذلك لن يتم لحرص سليمان بن عبد الملك على الإسراع في فتح القسطنطينية فإنه قد أشار برأي آخر وهو غزو تلك المدينة بجيش مكثف من البر والبحر، وقد وافق سليمان على هذا الرأي بالرغم من كونه مخالفًا لآراء أهل الخبرة الحربية.

ولقد كان الرأي الذي أدلى به موسى بن نصير هو العمل الذي قام به الصحابة رضي الله عنهم في كل فتوحاتهم، فلذلك نجحوا في القضاء على المدائن عاصمة الفرس، وبدؤوا طريقهم للقضاء على القسطنطينية عاصمة الروم بفتح الشام كله وتحويله إلى بلاد إسلامية.

ولقد بذل المسلمون جهودًا عظيمة في هذه الغزوة حتى بلغوا القسطنطينية وأثخنوا في الروم وكادوا أن يفتحوا عاصمة بلادهم لولا نفاد المؤن التي كانت معهم كما جاء في هذا الخبر، ولو أنهم وصلوا إلى تلك المدينة بعدما فتحوا ما قبلها من بلاد الروم وحولوها إلى بلاد إسلامية لكان أمر تموين الجيش بالغذاء سهلا ميسورًا.

وفي هذا الخبر عبرة عظيمة في خطر وضع الثقة بالأعداء وإن عاشوا فترة طويلة مع المسلمين، لأنهم لن يعاملوا قومهم بالخيانة ويعاملوا المسلمين بالوفاء ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وإنما قد يستكينون للمسلمين ويداهنونهم مادامو تحت قبضتهم، فإذا ملكوا أمرهم بدت عداوتهم في أعنف صورها.

وفي هذا الحصار يقول الحافظ ابن كثير: وقد لقي مسلمة في حصاره القسطنطينية شدة عظيمة، وجاع المسلمون عندها جوعًا شديدًا، فلما ولي عمر بن عبد العزيز أرسل إليهم البريد يأمرهم بالرجوع إلى الشام، فخلف مسلمة أن لا يقلع عنهم حتى يبنوا له جامعًا كبيرًا بالقسطنطينية، فبنوا له جامعًا ومنارة، فهو بها إلى الآن يصلي فيه المسلمون الجمعة والجماعة.

قال: وبالجملة كانت لمسلمة مواقف مشهورة ومساع مشكورة وغزوات متتالية منثورة، وقد افتتح حصونًا وقلاعا، وأحيى بعزمه قصورًا وبقاعًا، وكان في زمانه في الغزوات نظير خالد بن الوليد في أيامه في كثرة مغازيه وكثرة فتوحه وقوة عزمه وشدة بأسه، وجودة تصرفه في نقضه وإبرامه[1].

***

(١) البداية والنهاية ٩/ ٣٤١ - ٣٤٢.

جهاد الروم في عهد هشام بن عبد الملك

مازال المسلمون في جهاد مع الروم، ومن أبرز معاركهم معهم ما جرى في عهد أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك في سنة اثنتين وعشرين ومائة حيث بعث جيشًا بقيادة ابنه سليمان بن هشام وكان أمير العساكر المرابطين هناك مالك بن شبيب وكان معه بطل المسلمين في ذلك الزمن عبد الله البطال، فجاء الخبر إلى البطال بأن ملك الروم «إليون» قد خرج من القسطنطينية في مائة ألف فارس، فأخبر بذلك مالك بن شبيب وقال له: المصلحة تقتضي أن نتحصن في مدينة حران فنكون بها حتى يقدم علينا سليمان بن هشام في الجيوش الإسلامية، فأبى عليه ذلك، ودهمهم الجيش، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، والأبطال تحوم بين يدي البطال ولا يتجاسر أحد أن ينوِّه باسمه خوفًا عليه من الروم، فاتفق أن ناداه بعضهم وذكر اسمه غلطًا منه، فلما سمع ذلك فرسان الروم حملوا عليه حملة واحدة فاقتلعوه من سرجه برماحهم فألقوه إلى الأرض، ورأى الناس يَقْتُلون ويأسرون وقُتل الأمير الكبير مالك بن شبيب، وانكسر المسلمون وانطلقوا إلى تلك المدينة الخراب فتحصنوا فيها.

وأصبح إليون فوقف على مكان المعركة فإذا البطال بآخر رمق فقال له: ما هذا يا أبا يحيى؟ فقال: هكذا تُقتَل الأبطال، فاستدعى إليون الأطباء ليداووه فإذا جراحه قد وصلت إلى مقاتله، فقال له إليون: هل من حاجة يا أبا يحيى؟ قال: نعم، تأمر مَن معك من المسلمين أن يَلُوا غسلي والصلاة علي ودفني، ففعل الملك ذلك، وأطلق لأجل ذلك أولئك الأسارى(١).

وهكذا ختم الله تعالى حياة هذا البطل بالشهادة التي كان يدعو الله جل وعلا بالتوفيق إليها بعدما أثخن في الأعداء ودوخهم وأرعبهم عقودًا من الزمن، فما أعظم تلك الحياة الحافلة بالجهاد ومواجهة الأهوال والمخاطر! وما أسمى تلك النهاية التي ختمت بها تلك الحياة!!

وقد كان ملك الروم «إليون» يعرفه جيدًا لأن «إليون» كان مع المسلمين، وخرج معهم إلى حصار القسطنطينية، ثم خدعهم كما سبق، وملَّكه الروم عليهم،

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ٣٤٥.

والظاهر أن حرصه على علاج البطال وبقائه حيًا من أجل أن يأخذه أسيرًا فيساوم به قادة المسلمين لكون البطال من عظماء المسلمين وأبطالهم.

وقد كانت لهذا البطل مواقف جهادية عالية مرت علينا في عرض مواقف المعارك الماضية، وكان له - بعد الله تعالى - فضل في انتصار المسلمين أكثر من مرة.

وبالرغم من شهرته وقوة أثره في حروب أهل الشام فإن المصادر التاريخية قد اختلفت في اسمه واسم أبيه وكنيته، فبينما نجد في كتاب الفتوح لابن أعثم أن اسمه البطال بن عمرو، نجد الحافظ ابن كثير يذكر اسمه عبد الله البطال ويذكر كنيته مرة أبا محمد ومرة أبا يحيى(١) واتفق معه ابن الأثير في تسميته عبد الله البطال ولكنه ذكر أن كنيته أبو الحسين، واتفقا على نسبته إلى أنطاكية لأنه كان قد نزلها(٢) وذكره الإمام ابن تيمية في مناسبة بيان من نُسجت حولهم الأساطير لشهرتهم بالشجاعة وذكر اسمه عبد الله البطال وذكر أن كنيته أبو محمد(٣).

ولعل له ابنا اسمه يحيى وآخر اسمه محمد وثالثًا اسمه الحسين، فمرة يكنى بيحيى ومرة بمحمد ومرة بالحسين، ولكنه قد اشتهر في الحروب باسم البطال سواء عند المسلمين أو عند الروم.

أما جيش المسلمين فإن بعضهم قتلوا وبعضهم أسروا ولجأ بعضهم إلى المدينة التي حولهم فتحصنوا فيها، وقد انطلق إليهم «إليون» بجيشه فحاصرهم، فبينما هم في تلك الشدة والحصار إذ جاءتهم البُرُد بقدوم سليمان بن هشام في الجيوش الإسلامية، ففرَّ إليون بجيشه إلى القسطنطينية فتحصن بها(٤).

***

(١) البداية والنهاية ٩/٣١٧، ٣٤٥..

(٢) الكامل ٤/ ٢٤٨.

(٣) فتاوى ابن تيمية ١٨/ ٣٥٢.

(٤) البداية والنهاية ٩/ ٣٤٧.

فتح عمورية

لما انتهى المسلمون من فتح طوانة سار مسلمة بن عبد الملك بالجيش الإسلامي إلى عمورية، وبلغ ذلك أميرها «شمعون» فوجه إلى المسلمين قائدًا من قادته يقال له «وَرْسيب» ومعه أربعون ألفا، وأقبل شمعون من ورائه ومعه ثمانون ألفا، وبلغ ذلك مسلمة فوجه قائده البطَّال بن عمرو في مقدمته ومعه عشرة آلاف بكامل تجهيزهم، فالتقى بمقدمة جيش الروم، واقتتلوا، وأسرع القتل في المشركين، وحمل «ورسيب» على البطال وهو لا يعلمه، وعلم البطال أنه ورسيب فضربه على رأسه فقدَّ البيضة والهامة وخر ورسيب قتيلا وانهزم جيشه.

وعلم بذلك شمعون فزحف بخيله ورَجله يريد لقاء المسلمين وأرسل البطال بن عمرو إلى مسلمة فخبَّره بذلك، فأقبل مسلمة بجماعة المسلمين، فالتقوا بأعدائهم واقتتلوا قتالا شديدًا، وترجَّل مسلمة فنزل عن فرسه ونزل الناس معه، وصاح صائح المسلمين: أيها الأمير البشرى فقد قتل الله شمعون، فكبَّر مسلمة وكبر المسلمون معه، وإذا بالبطال قد أقبل وفي يده رأس شمعون حتى ألقاه بين يدي مسلمة.

فعند ذلك وثب مسلمة واستوى على فرسه واستوى الناس معه على خيولهم، ثم حمل وحمل الناس معه، وانهزم الروم وولوا الأدبار، وأسرع المسلمون إلى باب عمورية فدخلوها بالسيف عنوة، فقتلوا مقاتلتها وغنموا أمتعتها وأموالها.

وكان للمسلمين أشعار حماسية في تلك المعركة منها قول عبد الرحمن بن صعصعة بن صوحان العبدي:

أنا ابن عبد القيس جدِّي صعصعة ... ذو البأس والإقدام عند المعمعة

إذا التقى الأبطال وسْط المعمعة ... والروم قد سارت إلينا مجمعة

ومن يخاف الله فاللهُ معه

ومنها قول عبد الله بن جرير بن عبد الله البجلي:

أنا ابن ذي الفضل فتى بجيله ... جرير شيخي وله فضيله

فــضـــيلة عظيـــمـــة جلـيله   من النبيِّ صـاحب الوسـيلة[1]

وفي هاتين المعركتين أظهر المسـلمون بسالة عالية وثبتوا لأعـدائهم ثباتًا عظيمًا، فقد انتصرت مقدمة جـيش المسلمين المكونة من عشرة آلاف بقيادة البطال بن عمرو على مـقدمة جـيش الروم المكونة من أربعين ألف مـقاتل بقـيادة ورسـيب، وكان للبطال بن عمـرو الأنطاكي أثر كبير في المعركـتين حيث قتل قائد المقـدمة ورسيب وقائد جيش الروم أميـر عمورية شمعون، ومعلوم أن قـتل قادة العدو يوقع الفشل في صفوفهم ويقودهم إلى الهزيمة كما تقدم لنا أمثلة لذلك.

***

(١) الفتوح لابن أعثم ٧/ ١٣٥ - ١٣٦.

فتح نقفورية

ثم سار مسلمة بن عبد الملك من عمورية يريد مدينة نقفورية، فلما أشرف المسلمون عليها إذا هم بنقفور الأكبر قد خرج إليهم في زهاء سبعين ألف فارس سوى الرجالة، فلما نظر إلى جيش المسلمين صاح بأصحابه: أن احملوا، وحمل معه أصحابه، فانكشف المسلمون أمامهم وقتل منهم جماعة، فنادى مسلمة في أصحابه بأعلى صوته: يا أهل الشام لا شام لكم، ويا أهل العراق لا عراق لكم، ويا أهل مصر لا مصر لكم، إن أنتم ولَّيتم الأدبار، اليوم يعلم الله منكم حسن الصبر واليقين.

ونادى محمد بن مروان وقال: يا أهل الإسلام أما تستحيون أن ينهزم أهل الدين والقرآن من بين أيدي الكفرة وعبدة الصلبان! أما ترغبون فيما رغبكم فيه ربكم وأتاكم به نبيكم [من] النصر، والله ينصركم ويثبت أقدامكم.

فعند ذلك صدقت عزائم المسلمين وتراجعوا إلى الروم، والتحم القتال، وحمل نقفور على مسلمة بن عبد الملك فضربه ضربة على بيضته [والبيضة ما يلبس على الرأس من الحديد للوقاية] فنكَّسه إلى الأرض، ثم صاح بالروم فحملوا على المسلمين حملة كادوا أن يزيلوهم عن مواقفهم غير أنهم ثبتوا للروم وأشرعوا الرماح في وجوههم، ورشقوهم بالسهام، ورجعت الروم إلى ورائها، ووثب مسلمة فاستوى على فرسه ثم نادى بأعلى صوته: أيها الناس إليّ إليّ، أنا مسلمة ابن عبد الملك: يوجب الله لكم الرضوان، فاجتمع عليه الناس ثم تواصوا بالصبر، ووعظ بعضهم بعضا، وحملوا على الروم كحملة رجل واحد ووضعوا فيهم السيوف، وكان نقفور أول قتيل.

وعلمت الروم بمقتل نقفور فولَّوا الأدبار والسيف يأخذهم حتى صارت القتلى بينهم كالتلول بعضهم على بعض.

وسبق البطال بن عمرو وجماعة من المسلمين إلى باب مدينة نقفور، فهجموا على أهلها فقتلوا من قدروا عليه، وأقبل مسلمة في جماعة من المسلمين حتى أحاطوا بالمدينة فاجتمعوا عليها، وغنموا ما فيها[1].

---

(١) الفتوح لابن أعثم ٧/ ١٣٧ -١٣٨.

وبعد: فهذه معركة كبرى من معارك المسلمين التي خاضوها ضد الروم، وقد كاد المسلمون فيها يتعرضون للإبادة مرتين، لأنهم لو انهزموا انهزامًا كليًا فلن يبقى منهم أحد حيث لا حصون لهم إلا ظهور الخيل.

وإن أبرز مواقف هذه المعركة قوة المسلمين الفائقة في الصبر واحتمال الشدائد، وسرعة الإفاقة بعد الصدمة الهائلة المباغتة، ففي تراجعهم الأول أمام هجوم الأعداء الصاعق ناداهم القائد مسلمة بن عبد الملك وذكرهم بأن مسئولية بقاء بلاد الإسلام بيد المسلمين معلقة بأعناق ذلك الجيش لأن الروم لن يكتفوا بهزيمة ذلك الجيش المنتخب بل سيتقدمون لاستعادة الشام وغيرها، وهذه لفتة جيدة حيث اعتبرهم حماة المسلمين وحراس دولة الإسلام، فعظَّم في نفوسهم الشعور بالمسئولية، وانطلقوا في هجومهم على الأعداء بطاقاتهم الكاملة، كما ذكَّرهم محمد بن مروان بما وعده الله تعالى لعباده المجاهدين في سبيله من النصر والتمكين، فكان لذلك أثره في ربطهم بالله تعالى واستمدادهم النصر منه جل وعلا.

ومن دلائل ثبات المسلمين وإخلاصهم لدينهم أنهم لم يتزعزعوا لما سقط قائدهم على الأرض، بل ثبتوا لهجوم الروم حتى ردوهم على أدبارهم، وهذا مثل لإدراك المسئولية وحسن التصرف عند المفاجآت.

وفي قيام مسلمة بعد ذلك وإعلانه عن موقعه ونداء المسلمين إليه دلالة على شجاعته حيث إن هذا الإعلان والنداء سيلفت أنظار الأعداء إليه.

***

فتح السماوة الكبرى

وقد استمر المسلمون في سيرهم وفتوحاتهم وتوغلوا في بلاد الروم، وفي ذلك يقول المؤرخ ابن أعثم الكوفى: وسار المسلمون نحـو مدينة «السماوة الكبرى» وبها يومئـذ بِطْريق من البطارقة الروميـة يقال له «إفريطون» في ثمـانين ألفا من الروم، وقد حـصَّن السمـاوة قبل ذلك، ونصب على سـورها عشـرين منجنيقـا وثلاثين عرادة[1]، قال: فنزل مـسلمة والمسلمون على السمـاوة، ثم أمر بمجانيقـه فَنُصبت عليها من كل جـانب وترامى الفريقان رميًا متـداركًا، ودامت الحرب بينهم أربعين يومًا لا يفترون عن ذلك ليلا ولا نهارا.

فلما كان بعد ذلك أقبل بطريق من بطارقة الروم يقال له: «قرطس» إلى مسلمة ابن عبد الملك حـتى وقف بين يديه في جوف الليل فكفَّر له[2] وقال: أيها الأمير إن السماوة حـصن حصين، وفيها خلق كثـير، وليس يتهيأ لك أن تفتـحها إلا أن يُفتح لك من داخلها فـتدخلها، وإن أفريطون هذا صاحب السمـاوة قد أساء إليّ، وغصبنى على ابنة لي فأخذها مني قهرا، وقد عزمت على أن أفتح لك هذا الباب الذي هو مقابلك، فـإذا أصبحت فعبئ أصحـابك، واقترب من باب المدينة، والْقَ الحرب بينك وبين الروم، وقدِّم أبطال عسكرك بين يديك فإنى فاتح لك هذا الباب الذي هو مقابلك.

قال: فقال له مسلمة: إن أنت فـعلت ذلك حملتك وكسوتك وبررتك بعشرين ألف درهم وخلطتك بأصحابي.

قال: فقال له قرطس: أيها الأمير إذا دخلت المدينة فافعل من ذلك ما أحببت، قال: ثم رجع قرطس إلى المدينة.

فلما كان من غد عـبَّى مسلمة أصحابه كما كان يعـبيهم قبل ذلك، ثم دنا من باب المدينة - وهي السماوة - وبين يديه البطال بن عمرو في فرسان من أصحابه،

---

(١) هي نوع من آلات الرمي أصغر من المنجنيق.

(٢) يعني وضع يده على صدره وطاطأ رأسه تعظيمًا على عادتهم.

(٣) يعني نادوا بالحرب على طريقتهم.

قال: ثم عَطْعَطَت الروم[1]، وكبَّر المسلمــون فاختلط الفريقان، واشــتبكت الحرب على باب المدينة، وفح ذلك البـطريق الباب، واقــتحم المسلمــون معــه، فجــعلوا يقتلون ويأسرون.

قال: وفتح أفريطون بابًا آخر من أبواب السمــاوة وخرج هاربًا على وجهه ومعه خلق كثير من أصحابه حتى صار إلى مدينة من مدن الروم يقال لها المسيحية[1].

وبعد: فإن في هذا الخـبر مثلا من اسـتعداد المسلمين الجيـد، وذلك من ناحية إعداد القــوة لقتال الأعـداء بما يتناسب مع عصرهم، حـيث كانوا يحملون مـعهم عددًا من المجـانيق التي تعادل المدافع في العصر الحـاضر، وقد كان عـددها وافرًا حيث أحاطوا بها على المدينة المحاصرة، وهكذا يجب على المسلمين أن يطبقوا قول الله تعالى: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ** ﴾ [الأنفال: ٦٠]. ليكونوا فـي ذلك على الأقل مثل أعدائهم، إلى جانب ما يتفوقون به على جميع الأمم من السلاح المعنوي.

وفي هذا الخبر مثل حَيّ لأثر العدل ومكارم الأخلاق في كسب القلوب والظفر بولائها ونصرتها، بغضِّ النظر عن العـوامل الأخرى التي تقتضي الولاء والنصرة، والتي أبرزها الاتفاق في الدين، ثم الاتفاق في اللغة والوطن والروابط الدنيوية.

كما أن فيه مثلا حيًـا لأثر الظلم ومساوئ الأخلاق في نفرة القلوب وميلها إلى الانتـقام، والتـشفي مــن الظالمين، بالرغم من الاتفـاق في العوامل الأخـرى التي تقتضي الولاء والنصرة.

فـهـذا القـائد الـرومي الذي كـان من عظمـاء ذلك البـلد والذي أعلن ولاءه للمسلمين واستعداده لنصرتهم، ثم قام بتنفيذ ذلك حسب اتفاقه مع المسلمين، إنما دفعه إلى ذلك اعتباران: الأول أنه تعرض للظلم وانتهاك العرض على يد أمير تلك المدينة، فنفر منه وتربص الفرصة المناسبـة للانتقام منه، ولا شك أن النفوس الأبية تتحمل كثيراً من أنواع الظلم ولكنها لا تتحمل انتهاك أعراضها.

(١) يعني نادوا بالحرب على طريقتهم.

(٢) الفتوح لابن أعثم ٧/ ١٣٩ - ١٤٠.

والاعتبار الثـانى: ملاحظة ما اشتهر به المسلمـون من العدل ومكارم الأخلاق، حيث كانت أخبارهم الطيبة في ذلك تسـبقهم إلى كل مكان يريدون فتحه، فتكون نفوس الشعوب مهيأة لقبول حكم المسلمين والاستنصار بهم على الظلمة الجبارين.

فلو كان المسلمـون المحاصرون لـتلك المدينة من جملة الأمم التي تريد الهـيمنة على الأرض لبـسط جبروتهـا وظلمهـا لَمَا كان هناك فـرق بينها وبين ذلك الجـبار المسيطر على تلك المدينـة، وإذًا فتحمُّل جـبروت القريب أولى من تحمل جـبروت البعيد، ولكن لما سَـبَقَتْ أخبار المسلمين وسيرتهم الحميدة فـي فتوحاتهم كان ذلك مشجـعًا لكل من مال إلى تقـدير مكارم الأخلاق أو تعرض لظلم من طغـاة قومه وجباريهم إلى أن ينحاز إلى صف المسلمين وأن يُظهر نصرتهم.

وفي هذه الحادثة عبرة لأصحاب المسئـولية، كي لا يستهينوا بمن تحت ولايتهم، وأن لا يغتـروا بما في أيديهم من القوة والسلطان، فـإن النفوس الأبية تصـبر على الضيم مـادامت تحت الغلبة والهـيمنة، فإذا لاحت لهـا فرصة لـلتشفي والانتـقام سارعت إلى اغتنامها، وهذا الشعور سائد في عموم البشر، ولكن المسلمين خاصة يتقيدون في كل تصـرفاتهم بشرع الله تعالى، حيث يغلِّبون جـانب المصالح العامة على المصلحة الخـاصة، ويراعون جـانب الإبقاء على دولة الإسلام والحـفاظ على عزة المسلمين.

هذا وإن مـا سخَّـره الله تعالى في هذه المعـركة من خـروج ذلك الرومي الذي أبدى استعداده لنصرة المسلمين يعتبر مثلا من أمثلة تأييد الله تعالى لأوليائه المؤمنين لَمَّا كانوا أهلا لذلك، ولَمَا يريد الله سبحانه بهم من إعزاز الإسلام، فقد كانت تلك المدينة من المناعـة بحيث يصعب علـى المسلمين فتحـها من خـارجها فـقيض الله للمسلمين من يفتحها لهم من الداخل بدون تدبير منهم.

***

فتح مدينة المسيحية

قال ابن أعثم الكوفي: واقترب المسلمون من المسيحية، وبلغ ذلك إفريطون صاحب السماوة، فنادى في جميع النصرانية فاجتمعوا إليه، فخرج بهم من المسيحية، وبين يديه بطريق يقال له: شماس في ثلاثين ألفا، وإفريطون من ورائه في أربعين ألفا.

قال: فدنا القوم بعضهم من بعض فاقتتلوا قتالا شديدًا وحملت الروم بأجمعها على عساكر المسلمين حملة فهزموهم حتى ألحقوهم بالسماوة، وقد قُتل منهم جماعة، ثم رجع المسلمون عليهم فهزموهم حتى ألحقوهم بالمسيحية، واشتبكت الحرب على باب المسيحية.

قال: وجعل «شماس» البطريق يحمل على المسلمين حملة بعد حملة فيقتل ويرجع إلى أصحابه، حتى قتل نفرًا من المسلمين.

قال: وحملت قبيلة من الروم على الضحاك بن يزيد السلمي فقتلوه وقتلوا معه جماعة من المؤمنين، وتقدم أفريطون صاحب السماوة في جمهور بطارقة الروم، فجعل يكافئ المسلمين(١).

قال: وقصده محمد بن عبد العزيز [يعني ابن مروان] على فرس له أصدى(٢) وهو يرتجز ويقول:

قد علم الروم ومن والاها ... وكل علج أقلف ساواها

أنّي إذا الحرب خَبَتْ لظاها ... أَلقيتُ أخراها على أولاها

قال: واختلفا بطعنتين، طعنه إفريطون طعنة فقتله، قال: فاغتمَّ المسلمون لقتل محمد بن عبد العزيز غمّا شديدًا، وتقدم البطال بن عمرو حتى وقف حذاء إفريطون وهو يقول:

لابد من عرض ومن مقام ... على مليك صمَدٍ منِعْام

فجاهدي يا نفس لا تُلامي ... بكل عَضْبَ ذكَر حسام

---

(١) يعني يظهر كفاءة الروم بما يشبه كفاءة المسلمين.

(٢) يطلق الصدًّى على لطافة الجسم.

ثم حـمل البطال على إفـريطون، والتقـيـا بطعنتين، طعنه البطال طعنة جـدَّلة قتيلا، ثم نزل فاحتز رأسه ورفعه على رمحه، ثم كبَّر وكبر المسلمون معه.

قال: ونظرت الروم إلى رأس إفـريطون وقد رفع فانكسـروا لذلك انكسارًا، وألقى الله تعـالى في قلوبهم الرعب، فولَّـوا الأدبار وكبَـسَتْـهم خيل المسلمين، وأخـذتهم السيوف، فقُتل منهم خلق كثير وانهزم الباقون على وجوههم، وسلَّموا مدينة المسيحية بجميع ما فيها فدخلها المسلمون عنوة فقتلوا من قتلوا، واحتووا على غنائمها(١).

هذا وإن في هذه المعركة ثلاثة مواقف نعلق عليها بإيجاز:

الموقف الأول: في مقـدرة المسلمين الحربيـة التي تمثلت في سرعـة عودتهم إلى القتال بعد الانهـزام، وهذا يدل على أن ما حصل لهم إصابة مؤقـتة بسبب حرب مفاجـئة لم يُعدُّوا لها أو بسبب تقـصير في تطبيق بعض عـوامل النصر، ثم عادوا بعدها أقوى مما كانوا، ودحروا قوة أعدائهم.

والثاني: موقف مـحمـد بن عبـد العزيز بن مـروان لما أقدم على مـبارزه ذلك الرومي الشجاع، وإن مـحط الإعجاب في ذلك ليس في مجـرد المبارزة، وإنما هو في كون أبناء الأمراء آنذاك ينافسون غيرهم في خوض غمار أقسى مراحل الحرب، ويغامرون بأنفسهم في مـوقف يكونون فيه أقرب إلى الموت، وهذا دليل على علو التربية الجهادية التي كان الأمراء آنذاك يأخذون بها أبناءهم.

أما الموقف الثالث: فهو في شـجاعة البطال بن عمرو وإقدامـه على مبارزة ذلك الرومي الذي قضى قبله على صاحبه محـمد بن عبد العزيز، وإن مظاهر الشجاعة تبدو في هذا الموقف في مقدرته على الاحتفاظ بمعنويته وإقدامه، مع ما شاهده من مصرع صـاحبه، وعدم تهيُّـبه من ارتفاع معنوية ذلك الرومي بسـبب ما أحرز من نصر. ثم إن عظمة هذا البطل المقـدام تبدو في سرعة استحضـاره لعظمة الله تعالى في ذلك الموقف، وما سيقْدم عليه هو وغيره من العرض على الله تعالى والوقوف بين يديه للحساب، وإن هذا الذكر القلبي واللسـاني يعطي المجاهد أقوى دفعة من الطاقة والثبـات وتجاوز الأهوال، وبهذه المعنوية العاليـة التي اكتسبـها من ذكر الله تعالى استطاع أن يقضي على مبارزه العنيف في أسرع وقت.

---

(١) الفتوح لابن أعثم ٧/ ١٤٠ -١٤١.

فتح مدينة «بدروق»

ذكر ابن أعثم أن المسلمين قضوا فصل الشتاء في مدينة «المسيحية» ثم زحفوا منها إلى «بدروق» فلما علم بذلك أميرها «لبوس» استنجد بملك الروم فأمده بخمسين ألفا إضافة إلى جيشه البالغ ثلاثين ألفا.

ولما دنا منهم المسلمون كبَّروا ثلاث تكبيرات فامتلأت قلوب الكفار رعبًا وخوفًا، وتقدم قائدهم «لبوس» أمام جيشه، فنظر إليه البطال بن عمرو وقد انبرى من بين أصحابه، فاستأذن مسلمة بن عبد الملك في الخروج إليه فقال له مسلمة: أذنت لك ولكن انظر أين تضع رمحك، فقال البطال بن عمرو: كُفيتَ أيها الأمير، ليس مثلي يحتاج إلى الوصية في هذا الوقت.

ثم جعل البطال بن عمرو يرتجز ويقول:

قل للأمير ذي الصِّيال مسلمة ... وابن الكرام السادة المكرَّمة
ومقُعصي الأبطال يوم الملحمة ... إني أنا البطال جدي علقمة
كم ساعدٍ وبيضةٍ وجمجمة ... طرحتها عند هياج الغمغمة
وأسْمَر روَّيته من غلصمة ... وأنت محمود بكل مكرمة

ثم رفع رأسه وخرج من الصف، فجال جولة ثم حمل على قلب الروم، وأمكنته الفرصة من «لبوس» فحمل عليه فضربه بسيفه ضربة فلق تاجه وهامته فخر قتيلا، وانهزم الروم بغير قتال، فلحقهم المسلمون وقتلوا منهم عددًا كبيرًا، وفرَّ الباقون على وجوههم لا يعرِّجون على شيء حتى لحقوا ببحر القسطنطينية واقتحم المسلمون مدينة بدروق فاحتووا غنائمها وكانت كثيرة.

ثم أنشأ البطال بن عمرو يقول:

لقد علم الروم الأراجس أننا ... قتلنا لدى الهيجاء منها رئيسها
تركنا لبوسًا في القتام مجدَّلاً ... فَقَبَّح ربي ذو الجلال لبوسها
ونحن أَبدنْا في العجاج كُماتَهم ... ونحن هزمنا جيشها وخميسها

ونحن إذا ما الحرب شبت وأرهجت   نخوض لظاها عنوة ووطيسها
ونحن قسمنا فيئها ونساءها   ببدروق لما أن أثرنا شريسها
وكان لبوسٌ كهفها وعمادها   وكان لعمري ليثها وهموسها
وكانت له الأبطال تسطو لأنه   إذا ناب أمر لم تجده حَسيسَها
وسوف نُكِرُّ الخيل فينا شوازبا   عنَا جيجَ تبدي في الغبار جَسيسَها
نريد بها «أليون» كيما نثيره   ونشفي لدى الحرب العوان نفوسها(١)

وهكذا عمل البطال كما كان خالد بن الوليد رضي الله عنه يصنع حينما كان يختطف قادة الأعداء فتنهزم جيوشهم في الحال، فكم أنجبت الأمة الإسلامية من أبطال عظماء كفوا جيوشهم كثيرًا من المواجهات القتالية وأحرزوا النصر العظيم لأمتهم.

***

(١) الفتوح لابن أعثم بتصرف ٧/ ١٤١ - ١٤٣.

جهاد الروم في عهد سليمان بن عبد الملك

محاصرة القسطنطينية:

أخرج الإمام أحمد بن حنبل من حديث بشر بن سحيم رضي الله عنه: أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**لتفتحنَّ القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش**».

قال: فدعاني مسلمة بن عبد الملك فسألني فحدثته فغزا القسطنطينية(١).

وقد ذكر الحافظ الذهبي خبر حصار القسطنطينية من رواية سعيد بن عبد العزيز قال: أخبرني من أدرك ذلك أن سليمان بن عبد الملك همّ بالإقامة ببيت المقدس، وجمع الناس والأموال بها، وقدم عليه موسى بن نصير من المغرب، ومسلمة بن عبد الملك، فبينما هو على ذلك إذ جاءه الخبرُ أن الروم خرجت على ساحل حمص فسبَتْ جماعةً فيهم امرأة لها ذِكْر، فغضب وقال: ما هو إلا هذا، نغزوهم ويغزونا، والله لأغزونَّهم غَزوة أفتح فيها القسطنطينية أو أموت دون ذلك. ثم التفت إلى مسلمة وموسى بن نصير فقال: أشيروا عليّ. فقال موسى: يا أمير المؤمنين، إن أردت ذلك فسر سيرة المسلمين فيما فتحوه من الشام ومصر إلى إفريقية، ومن العراق إلى خراسان، كلّما فتحوا مدينة اتخذوها دارًا وحازوها للإسلام، فابدأ بالدُّرُوب فافتح ما فيها من الحصون والمطامير والمَسالح، حتى تبلغ القسطنطينية وقد هُدِّمت حصونها وأوهيتْ قوتها، فإنهم سيعطون بأيديهم. فالتفت إلى مسلمة فقال: ما تقول؟ قال: هذا الرأي إن طال عُمر إليه أو كان الذي يأتي على رأيك ولا ينقضه رأيت أن تعمل منه ما عملت ولا يأتي على ما قال خمس عشرة سنة، ولكنّي أرى أن تُغْزِيَ جماعةً من المسلمين في البّر والبحر القُسطنطينية فيحاصرونها، فإنَّهم مادام عليهم البلاء أعطوا الجزية أو فتحوها عَنْوة، ومتى ما يكون ذلك فإنّ ما دونها من الحصون بيدك. فقال سليمان: هذا الرأي. فأغزى

(١) مسند أحمد ٤/ ٣٣٥.

جماعة أهل الشام والجزيرة في البرّ في نحو عشرين ومائة ألف، وأغزى أهل مصر وإفريقية في البحر في ألف مركب، عليهم عمر بن هُبيرة الفَزَاريّ، وعلى الكُل مسلمة بن عبد الملك.

قال الوليد بن مسلم: فأخبرني غيرُ واحد أن سليمان أخرج لهم الأعطية، وأعلمهم أنّه عزم على غزو القسطنطينية والإقامة عليها: فاقدروا لذلك قدْره، ثم قدم دمشق فصلّى بنا الجمعة، ثم عاد إلى المنبر فكلم الناس، وأخبرهم بيمينه التي حلف عليها من حصار القسطنطينية: فانفروا على بركة الله تعالى، وعليكم بتقوى الله ثم الصبر، وسار حتى نزل دابقًا، فاجتمع إليه الناس، ورحل مسلمة.

قال الذهبي: وأما مسلمة فسار بالجيوش، وأخذ معه إليون الرومي المرعشي ليدله على الطريق والعوار، وأخذ عهوده ومواثيقه على المناصحة والوفاء، إلى أن عبروا الخليج وحاصروا القسطنطينية، إلى أن برَّح بهم الحصار، وعرض أهلها الفدية على مسلمة، فأبى أن يفتحها إلا عنوة، قالوا: فابعث إلينا إليون فإنّه رجل منا ويفهم كلامنا مشافهةً، فبعثه إليهم، فسألوه عن وجه الحيلة، فقال: إن ملّكتموني عليكم لم أفتحها لمسلمة، فملّكوه، فخرج وقال لمسلمة: قد أجابوني أنهم يفتحونها، غير أنهم لا يفتحونها ما لم تُنَحِّ عنهم، قال: أخشى غدرَك، فحلف له أن يدفع إليه كلَّ ما فيها من ذهب وفضَّة وديباج وسبي، وانتقل عنها مسلمة، فدخل إليون فلبس التاج، وقعد على السرير، وأمر بنقل الطعام والعُلوفات من خارج، فملأوا الأهراء[1] وشحنوا المطامير، وبلغ الخبر مسلمة، فكرّ راجعًا، فأدرك شيئًا من الطعام، فغلَّقوا الأبواب دونه، وبعث إلى إليون يناشده وفاءَ العهد، فأرسل إليه إليون يقول: مُلك الروم لا يبايع بالوفاء، ونزل مسلمة بفنائهم ثلاثين شهرًا، حتى أكل الناس في العسكر الميتةَ، وقُتل خلق، ثم ترحل[2].

---

(١) جمع هُري وهو بيت كبير يجمع فيه الطعام.

(٢) تاريخ الإسلام/ حوادث ٨١ - ١٠٠ص ٢٦٩ - ٢٧١،وانظر تاريخ الطبري ٦/ ٥٣٠ والكامل لابن الأثير ٤/ ١٤٦.

هذا وقد تبين لنا من هذه الأخبار أن أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك قد فزع من وصول الروم في غزوهم إلى وسط الشام، فاستشار القائدين الكبيرين موسى ابن نصير ومسلمة بن عبد الملك في غزو الروم وفتح القسطنطينية، فكان رأي موسى بن نصير عدم التوجه إلى القسطنطينية أوَّلاً، وإنما تفتح بلاد الروم شيئًا فشيئًا فكلما فتح المسلمون مدينة نزل بها طائفة منهم واتخذوها دارًا، فإذا بلغ المسلمون عاصمة ملك الروم كانوا قد ضعفوا فيسهل فتحها، وقد وافقه مسلمة على أن هذا هو الرأي، لكنه أبان بأن هذا الغزو سيستمر خمس عشرة سنة وأن نجاحه لا يتم إلا إذا طال عمر أمير المؤمنين حتى ذلك التاريخ أو كان من يأتي بعده على هذا الرأي، ولما كان يعلم أن ذلك لن يتم لحرص سليمان بن عبد الملك على الإسراع في فتح القسطنطينية فإنه قد أشار برأي آخر وهو غزو تلك المدينة بجيش مكثف من البر والبحر، وقد وافق سليمان على هذا الرأي بالرغم من كونه مخالفًا لآراء أهل الخبرة الحربية.

ولقد كان الرأي الذي أدلى به موسى بن نصير هو العمل الذي قام به الصحابة رضي الله عنهم في كل فتوحاتهم، فلذلك نجحوا في القضاء على المدائن عاصمة الفرس، وبدؤوا طريقهم للقضاء على القسطنطينية عاصمة الروم بفتح الشام كله وتحويله إلى بلاد إسلامية.

ولقد بذل المسلمون جهودًا عظيمة في هذه الغزوة حتى بلغوا القسطنطينية وأثخنوا في الروم وكادوا أن يفتحوا عاصمة بلادهم لولا نفاد المؤن التي كانت معهم كما جاء في هذا الخبر، ولو أنهم وصلوا إلى تلك المدينة بعدما فتحوا ما قبلها من بلاد الروم وحولوها إلى بلاد إسلامية لكان أمر تموين الجيش بالغذاء سهلا ميسورًا.

وفي هذا الخبر عبرة عظيمة في خطر وضع الثقة بالأعداء وإن عاشوا فترة طويلة مع المسلمين، لأنهم لن يعاملوا قومهم بالخيانة ويعاملوا المسلمين بالوفاء ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وإنما قد يستكينون للمسلمين ويداهنونهم مادامو تحت قبضتهم، فإذا ملكوا أمرهم بدت عداوتهم في أعنف صورها.

وفي هذا الحصار يقول الحافظ ابن كثير: وقد لقي مسلمة في حصاره القسطنطينية شدة عظيمة، وجاع المسلمون عندها جوعًا شديدًا، فلما ولي عمر بن عبد العزيز أرسل إليهم البريد يأمرهم بالرجوع إلى الشام، فخلف مسلمة أن لا يقلع عنهم حتى يبنوا له جامعًا كبيرًا بالقسطنطينية، فبنوا له جامعًا ومنارة، فهو بها إلى الآن يصلي فيه المسلمون الجمعة والجماعة.

قال: وبالجملة كانت لمسلمة مواقف مشهورة ومساع مشكورة وغزوات متتالية منثورة، وقد افتتح حصونًا وقلاعا، وأحيى بعزمه قصورًا وبقاعًا، وكان في زمانه في الغزوات نظير خالد بن الوليد في أيامه في كثرة مغازيه وكثرة فتوحه وقوة عزمه وشدة بأسه، وجودة تصرفه في نقضه وإبرامه[1].

***

(١) البداية والنهاية ٩/ ٣٤١ - ٣٤٢.

جهاد الروم في عهد هشام بن عبد الملك

مازال المسلمون في جهاد مع الروم، ومن أبرز معاركهم معهم ما جرى في عهد أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك في سنة اثنتين وعشرين ومائة حيث بعث جيشًا بقيادة ابنه سليمان بن هشام وكان أمير العساكر المرابطين هناك مالك بن شبيب وكان معه بطل المسلمين في ذلك الزمن عبد الله البطال، فجاء الخبر إلى البطال بأن ملك الروم «إليون» قد خرج من القسطنطينية في مائة ألف فارس، فأخبر بذلك مالك بن شبيب وقال له: المصلحة تقتضي أن نتحصن في مدينة حران فنكون بها حتى يقدم علينا سليمان بن هشام في الجيوش الإسلامية، فأبى عليه ذلك، ودهمهم الجيش، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، والأبطال تحوم بين يدي البطال ولا يتجاسر أحد أن ينوِّه باسمه خوفًا عليه من الروم، فاتفق أن ناداه بعضهم وذكر اسمه غلطًا منه، فلما سمع ذلك فرسان الروم حملوا عليه حملة واحدة فاقتلعوه من سرجه برماحهم فألقوه إلى الأرض، ورأى الناس يَقْتُلون ويأسرون وقُتل الأمير الكبير مالك بن شبيب، وانكسر المسلمون وانطلقوا إلى تلك المدينة الخراب فتحصنوا فيها.

وأصبح إليون فوقف على مكان المعركة فإذا البطال بآخر رمق فقال له: ما هذا يا أبا يحيى؟ فقال: هكذا تُقتَل الأبطال، فاستدعى إليون الأطباء ليداووه فإذا جراحه قد وصلت إلى مقاتله، فقال له إليون: هل من حاجة يا أبا يحيى؟ قال: نعم، تأمر مَن معك من المسلمين أن يَلُوا غسلي والصلاة علي ودفني، ففعل الملك ذلك، وأطلق لأجل ذلك أولئك الأسارى(١).

وهكذا ختم الله تعالى حياة هذا البطل بالشهادة التي كان يدعو الله جل وعلا بالتوفيق إليها بعدما أثخن في الأعداء ودوخهم وأرعبهم عقودًا من الزمن، فما أعظم تلك الحياة الحافلة بالجهاد ومواجهة الأهوال والمخاطر! وما أسمى تلك النهاية التي ختمت بها تلك الحياة!!

وقد كان ملك الروم «إليون» يعرفه جيدًا لأن «إليون» كان مع المسلمين، وخرج معهم إلى حصار القسطنطينية، ثم خدعهم كما سبق، وملَّكه الروم عليهم،

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ٣٤٥.

والظاهر أن حرصه على علاج البطال وبقائه حيًا من أجل أن يأخذه أسيرًا فيساوم به قادة المسلمين لكون البطال من عظماء المسلمين وأبطالهم.

وقد كانت لهذا البطل مواقف جهادية عالية مرت علينا في عرض مواقف المعارك الماضية، وكان له - بعد الله تعالى - فضل في انتصار المسلمين أكثر من مرة.

وبالرغم من شهرته وقوة أثره في حروب أهل الشام فإن المصادر التاريخية قد اختلفت في اسمه واسم أبيه وكنيته، فبينما نجد في كتاب الفتوح لابن أعثم أن اسمه البطال بن عمرو، نجد الحافظ ابن كثير يذكر اسمه عبد الله البطال ويذكر كنيته مرة أبا محمد ومرة أبا يحيى(١) واتفق معه ابن الأثير في تسميته عبد الله البطال ولكنه ذكر أن كنيته أبو الحسين، واتفقا على نسبته إلى أنطاكية لأنه كان قد نزلها(٢) وذكره الإمام ابن تيمية في مناسبة بيان من نُسجت حولهم الأساطير لشهرتهم بالشجاعة وذكر اسمه عبد الله البطال وذكر أن كنيته أبو محمد(٣).

ولعل له ابنا اسمه يحيى وآخر اسمه محمد وثالثًا اسمه الحسين، فمرة يكنى بيحيى ومرة بمحمد ومرة بالحسين، ولكنه قد اشتهر في الحروب باسم البطال سواء عند المسلمين أو عند الروم.

أما جيش المسلمين فإن بعضهم قتلوا وبعضهم أسروا ولجأ بعضهم إلى المدينة التي حولهم فتحصنوا فيها، وقد انطلق إليهم «إليون» بجيشه فحاصرهم، فبينما هم في تلك الشدة والحصار إذ جاءتهم البُرُد بقدوم سليمان بن هشام في الجيوش الإسلامية، ففرَّ إليون بجيشه إلى القسطنطينية فتحصن بها(٤).

***

(١) البداية والنهاية ٩/٣١٧، ٣٤٥..

(٢) الكامل ٤/ ٢٤٨.

(٣) فتاوى ابن تيمية ١٨/ ٣٥٢.

(٤) البداية والنهاية ٩/ ٣٤٧.

الجهاد مع الروم
في
عهد العباسيين

حينما قامت دولة بني العباس عـام اثنين وثلاثين ومائة شُغِل خلفاؤها بالحروب الداخلية، ولم تسـتقر إلا في أواخر عـهد المنصور الخليفـة الثاني، فلم يكن هناك جهاد إلا في عهد الخليفة الثالث المهدي، حيث بدأ الجهاد مع الروم.

ثم استمر الجهاد بعد ذلك مع الأعداء بنسبة قليلة متباعدة، وأغلبه جهاد الدفاع عن دار الإسلام.

وقد كان الجهـاد في العهد العباسي موجـهًا ضد ست من الأمم: الروم، وأهل المشرق، وأهل الهند، والصليبيين، والتتار، ونصارى الأندلس.

وكان الجهاد في العـصر العباسي الأول موجهًا من الخـلفاء أنفسهم، وذلك إلى نهاية عهد المعـتصم، ثم أصبح موجهًا من الدويلات التي استقلت بشـئون حكمها مع بقاء تبعيتها للدولة العباسية. وإن كـان بعضها قد استقلت تمامًا كالدولة الأموية بالأندلس وما تلاها من دويلات.

علمًا بأن الدولة العباسـية قد انتهت من بغداد في عام ستة وخـمسين وستمائة عندما اجتاحها التتار، ولكنها عادت في عـام ثمانية وخمسين في مصر حينما بايع الظاهر بيبرس أحد بني العباس بالخلافة كما سيأتي، غير أنها ظلت خلافة بالاسم وكان الحكم بيـد المماليك إلى أن قضى العـثمانيـون على المماليك فانتـهى وجود الخلافة العباسية.

ومازال القـتال دائرًا بين دولة الإسـلام ودولة الروم منذ عهـد الخليفـة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، إلى أن زالت بلاد الشـام ومصر عن الروم في عهـد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم زال شمال أفريقية عنهم في عهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه وفي عهد بني أمية، ودخلت كل هذه البلاد في دولة الإسلام، ولكن الحروب ظلت بين الروم والمسلمين مـن جهة بلاد الشام، وكـان إنشاء هذه الحـروب غالبًـا من المسلمين، ولكن دولة الروم كلمـا آنست من دولة الإسلام ضعفًا أغارت جيوشها على أطراف بلاد المسلمين.

١ - جهاد الروم في عهد المهدي والرشيد

غزو القسطنطينية:

قام أمير المؤمنين هارون الرشيد بغزو بلاد الروم في عهد أبيه المهدي وبعد توليه الخلافة، فالغـزوة الأولى وجهَّه فيها أبوه الخليفـة المهدي، وفي ذلك يقول الإمام الطبري: ووجهه أبوه - فيما ذُكِر يوم السبت لإحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة[١] غازيًا إلى بلاد الـروم، وضم إليه الربيع مولاه، فـوغل هارون في بلاد الروم، ولقَيته خـيول «نَقِيطَا» قومس القوامسـة، فبارزه يزيد بن مزيد[٢]، فأرجل يزيد، ثم سقـط «نقيطا» فضـربه يزيد حتى أثخنه، وانهـزمت الروم، وغلب يزيد على عسكرهم.

قال: وسـار هارون حى بلغ خليج البحر الذي عـليه القسطنطينيـة، وصاحبُ الروم يومئذ «أَغُـسْطه» امرأة أليون، وذلك أن ابنها كان صغـيرًا قد هلك أبوه وهو في حجرها، فجرت بينها وبين هارون بن المهدي الرسل والسفراء في طلب الصلح والموادعة وإعطاء الفدية، فـقبل ذلك منها هارون، وشرط عليـها الوفاء بما أعطت له، وأن تقيم له الأدلاء والأسواق[٣] في طريقه، وذلك أنه دخل مـدخلاً صعـبًا مخوفًا على المسلمين، فأجابته إلى ما سأل.

قال: وكتبوا كتاب الهدنة إلى ثلاث سنين، وسُلِّمت الأسارى[٤].

في هذا الخبر مواقف جهادية عالية، منهـا موقف يزيد بن مزيد الشيباني حينما بارز قائد الروم «نقيطا» فقتله، وكان ذلك سببًا في انهزام جيشه، وهكذا كان جهد هذا القائد الشـجاع يزيد بن مزيد مـغنيًا عن جهـود كبيرة سـيبذلهـا المسلمون في مقـاومة الروم لو ظلوا على إقـدامهم ومـعنوياتهم الأولى، ولكن حينمـا تحطمت معنوياتهم بقتل قائدهم سَهُل على المسلمين هزيمتهم.

---

(١) يعني من سنة خمس وستين ومائة.

(٢) هو يزيد بن مزيد بن زائدة الشيباني أمير أرمينية وأذربيجان وكان من الشجعان المشهورين.

(٣) أي المشتملة على ما يحتاجه المسافرون.

(٤) تاريخ الطبري ٨/ ١٥٢ - ١٥٣ باختصار.

ومن المواقف الجهادية العالية وصول المسلمين بقيادة هارون الرشيد إلى القسطنطينية، وهذا يعتبر مغامرة جريئة لبُعد ذلك المكان عن دار الخلافة، وقد وصلها المسلمون قبل ذلك عدة مرات أهمها وأعظمها وصولهم إليها أول مرة في خلافة معاوية رضي الله عنه بقيادة ابنه يزيد كما تقدم.

فتح هرقلة الأول:

أما جهاد هارون الرشيد في بلاد الروم في خلافته فقد تكرر عدة مرات أبرزها ما ذكره الإمام ابن جرير الطبري بقوله: فذُكِر أن نقفور لما ملك واستوسقت له الروم بالطاعة(١) كتب إلى الرشيد:

من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرُّخّ وأقامت نفسها مقام البيدق(٢)، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقًا بحمل أمثالها إليها، لكن ذلك ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قِبَلَك من أموالها، وافْتَدِ نفسك بما يقع به المصادرة لك وإلا فالسيف بيننا وبينك.

قال: فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب حتى لم يمكن أحدًا أن ينظر إليه دون أن يخاطبه، فدعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب:

بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب ما تراه دون أن تسمعه، والسلام.

ثم شَخَص من يومه وسار حتى أناخ بباب «هرقلة» ففتح وغنم، واصطفى وأفاد، وخرَّب وحرَّق واصْطَلَم(٣)، فطلب نقفور الموادعة على خراج يؤديه في كل سنة فأجابه إلى ذلك، فلما رجع من غزوته وصار بالرَّقَّة نقض نقفور العهد وخان الميثاق، وكان البرد شديدًا فيئس نقفور من رجعته إليه، وجاء الخبر بارتداده عما أخذ عليه، فما تهيأ لأحد إخباره بذلك إشفاقًا عليه وعلى أنفسهم من الكَرَّة في مثل تلك الأيام.

---

(١) أي ثبتت طاعة الروم له.

(٢) هذا تعبير عن ظهورها أمام الرشيد بمظهر الضعف.

(٣) أي استأصل.

وذكر أنهم احتالوا عليه بإنشاد الشعر المتضمن ذلك، ومنه قول الحجاج بن يوسف التيمي:

نقضَ الذي أعطيته نقفور ... وعليه دائرة البوار تدور
أبشر أميرَ المؤمنين فإنه ... غُنْمٌ أتاك به الإله كبير
فلقد تباشرت الرعية أن أتى ... بالنقض عنهُ وافد وبشير
ورَجتْ يمينك أن تعجِّل غزوة ... تشفى النفوس مكانُها مذكور
نقفور إنك حين تغدر إن نأى ... عنك الإمام لجَاَهل مغرور
أظننت حين غدرت أنك مُفْلت ... هبَلتْك أمك ما ظننت غُرور

ثم ذكر أن هارون الرشيد لما سمع هذا الشعر قال: أَوَقَدْ فعل نقفور ذلك! وعلم أن الوزراء قد احتالوا له في ذلك، فكرَّ راجعًا في أشد محنة وأغلظ كلفة حتى أناخ بفنائه، فلم يبرح حتى رضي وبلغ ما أراد(1).

ففي هذا الخبر مواقف عالية لأمير المؤمنين هارون الرشيد رحمه الله تعالى، حيث أظهر عزة الإسلام ودولته لما استهان بذلك ملك الروم، فكان جوابه بالفعل لا بالقول حيث غزاه بذلك الجيش العظيم الذي خلع فؤاد ذلك الملك فعاد ذليلاً يطلب ود هارون الرشيد والصلح معه.

وحينما نقض ذلك الملك الصلح وخان العهد لاستبعاده أن يعود إليه المسلمون في الشتاء، وعلم بذلك الرشيد، عاد إليه بجيشه رغم قسوة البرد وشدة المؤونة، حتى لقَّنه درسًا لا ينساه وأخضعه لما يريد.

ولقد كان غزو الروم في الشتاء مشقةً كبيرة ومخاطرة عظيمة على المسلمين، ولكن هارون الرشيد أراد أن يعَلَم الروم أن باستطاعة المسلمين أن يصلوا إليهم في أى فصل من الفصول، وأن غزوهم بلادهم في الصيف إنما كان باختيارهم لكونه أيسر لهم.

---

(1) تاريخ الطبري ٨/ ٣٠٧ - ٣١٠ باختصار.

فتح هرقلة الثاني وما حولها:

ذكر ذلك الإمام محمد بن جرير الطبري في حوادث سنة تسعين ومائة، فقال: وفيها فتح الرشيد هرقلة، وبثّ الجيوش والسرايا بأرض الروم، وكان دَخَلها - فيما قيل - في مائة ألف وخمسة وثلاثين ألف مرتزق، سوى الأتباع وسوى المطوّعة وسوى من لا ديوان له، وأناخ عبد الله بن مالك على ذي الكلاع ووجّه داود بن عيسى بن موسى سائحًا في أرض الروم في سبعين ألفًا، وافتتح شراحيل بن معن ابن زائدة حصن الصقالبة ودَبْسة، وافتتح يزيد بن مخلد الصّفْصاف وملَقوبية - وكان فتح الرشيد هرقلة في شوال - وأخربها وسبى أهلها بعد مقام ثلاثين يومًا عليها، وولّى حُمَيد بن معيوف سواحل بحر الشام إلى مصر، فبلغ حُميد قبرص، فهدم وحرق وسبى من أهلها ستة عشر ألفًا، فأقدمهم الرّافقة، فتولّى بيعهم أبو البختري القاضي، فبلغ أسقف قبرص ألفي دينار.

وكان شخوص هارون إلى بلاد الروم لعشر بقين من رجب، واتخذ قلنسوة مكتوبًا عليها «غاز حاجٌّ»، فكان يلبسها، فقال أبو المعالى الكلابيّ:

فَمنْ يَطْلُبْ لقاءَكَ أو يُردْهُ ... فَبالحَرَمْين أو أقصى الثغور

ففي أرْض العدُوِّ على طِمِرٍّ ... وفي أرض التَّرفّهِ فَوقَ كُورِ

وما حازَ الثغورَ سواكَ خَلْقٌ ... من المتُخلِّفينَ على الأمورِ

ثم صار الرشيد إلى الطوانة، فعسكر بها، ثم رحل عنها، وخلَّف عليها عقبة ابن جعفر، وأمره ببناء منزل هنالك، وبعث نقفور إلى الرشيد بالخراج والجزية، عن رأسه ووليّ عهده وبطارقته وسائر أهل بلده خمسين ألف دينار، منها عن رأسه أربعة دنانير، وعن رأس ابنه استبراق دينارين. وكتب نقفور مع بطريقين من عظماء بطارقته في جارية من سبي هرقلة كتابًا نسخته:

لعبد الله هارون أمير المؤمنين من نقفور ملك الروم. سلام عليكم، أما بعد أيها الملك، فإن لي إليك حاجة لا تضرّك في دينك ولا دنياك، هينة يسيرة، أن تهب لابني جارية من بنات أهل هرقلة، كنت قد خطبتُها على ابني، فإن رأيت أن تسعفني بحاجتي فعلت، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

واستـهداه أيضًـا طيبًا وسـرادقًا من سُـرادقائه، فأمـر الرشيد بـطلب الجارية، فأحـضرت وزُينت وأجلست على سـرير فى مضـربه الذى الذي كان نازلاً فـيه، وسلِّمت الجارية والمضرب بما فيه من الآنية والمتاع إلى رسول نقفور، وبعث إليه بما سأل من العطر، وبعث إليـه من التمور والأخبصة والزّبـيب والترياق، فسلَّم ذلك كله إلى رسول الرشيد، فأعطاه نقفور وقْـر دراهم إسلامية على برذون كُميت كان مبلغه خمـسين ألف درهم، ومائة ثوب ديباج ومائتى ثوب بُزْيون[1]، واثني عشر بازيًا، وأربعـة أكلب من كلاب الصيـد، وثلاثة براذين. وكان نقـفور اشـترط ألاّ يخرب ذا الكلاع ولا صـمله ولا حصن سنان، واشـترط الرشيـد عليه ألا يعـمر هرقلة، وعلى أن يحمل نقفور ثلثمائة ألف دينار[2].

في هذا الخبر مـثل من عزة المسلمين وقوة دولة الإسلام في عهـد أمير المؤمنين هارون الرشيـد، حيث كـان ملك الروم يدفع الجزية والخـراج لدولة الإسلام وهو صاغر، ويتذلل له بالكتـاب الذي بعثه إليه ليهبه امـرأة من السبي، وإنما علا شأن المسلمين وقويت دولتـهم لمحافظتهم علـى الجهاد في سبـيل الله تعالى، فقـد كان الرشيد يغزو سنة ويحج أخرى، وإذا كان هذا هو الغزو الذي يقوم به بنفسه فكيف بالبعوث التي يبعثها مع قادته؟!

***

(١) البزيون: ضـرب من نسيج البـز أو من رقيق الديباج، مـركب من: «بز» ومن: «يون»، أي يشبـه البز. وانظر الألفاظ الفارسية لأدي شير ٢٢ - هامش تاريخ الطبري -.

(٢) تاريخ الطبري ٨/ ٣٢٠ - ٣٢٢.

٢- جهاد الروم في عهد المعتصم

كان سبب ذلك أن ملك الروم «تَوْفيل بن ميخائيل» لما بلغه أن جيوش المسلمين ذهبت إلى أذربيجان وما حولها لغزو «بابك الخُرَّمي» غزا بجيشه أطراف دولة الإسلام فهجم على «زبطرة» وقتل رجالها وسبى الذراري والنساء ثم أحرقها.

وخرج أهل ثغور الشام والجزيرة وأهل الجزيرة إلا من لم يكن عنده دابة ولا سلاح.

فلما انتهى الخبر إلى المعتصم صاح في قصره: النفير، ثم ركب دابته وأخذ استعداد الحرب، ولـمَّا لم يتهيأ له الخروج في ذلك اليوم حتى تتم تعبئة الجيش جلس في دار العامة، ووجه عُجَيف بن عنبسة وعمرًا الفرغاني ومحمد كوته وجماعةً من القواد إلى «زبطرة» إعانة لأهلها، فوجدوا ملك الروم قد انصرف إلى بلاده، فوقفوا قليلاً حتى تراجع الناس إلى قراهم واطمأنوا.

وبلغ المعتصم أن امرأة هاشمية صاحت وهي أسيرة في أيدي الروم: وامعتصماه، فأجابها وهو جالس على سريره: لبيك لبيك، وأمر بتجهيز جيش كبير لغزو الروم، وسأل: أيُّ بلاد الروم أمنع وأحصن؟ فقيل: عَمُّورية، لم يعرض لها أحد من المسلمين منذ كان الإسلام، وهي عين النصرانية وبُنْكُها[1] وهي أشرف عندهم من القسطنطينية[2].

وذكر الإمام الطبري أن أمير المؤمنين المعتصم جهز جيشًا لم يتهيأ لخليفة قبله مثله من اكتمال السلاح والعُدد.

قال: ولما دخل بلاد الروم أقام على نهر اللَّمِس وهو على سلوقية قريبًا من البحر بينه وبين طرسوس مسيرة يوم، وعليه يكون الفداء إذا فُودي بين المسلمين والروم.

---

(١) البنك بضم الباء أصل الشيء وخالصه.

(٢) تاريخ الطبري ٩/ ٥٦ - ٥٧، الكامل لابن الأثير ٥/ ٢٤٧، تاريخ ابن خلدون ٣/ ٢٦٢.

وقد قسم المعتصم جيشه ثلاثة أقسام: قسمًا بقيادة الأفشين، وقسمًا بقيادة أشناس وقسمًا قاده بنفسه، وقد أمر الأفشينَ بالتقدم ثم أمر أشِناسَ بالسير بعده، ثم تبعهم ببقية الجيش، وقد جعل الموعد بينهم مدينة «أنقرة».

أما ملك الروم فإنه بلغه خبر خروج الجيش الإسلامي فأقبل بجيشه يريد مواجهة جيش المسلمين، فلما كان قريبًا من أوَّلهم علم بأن جيشًا للمسلمين كبيرًا قد جاز من طريق آخر وهو جيش الأفشين، فأخذ ملك الروم بعض جيشه لمواجهة جيش الأفشين وأبقى بعض الجيش بقيادة أحد أقاربه ليلاقي طليعة جيش المسلمين القادم من ذلك الطريق.

وقد التقى ملك الروم بجيش الأفشين فانهزم مشاة الجيش الإسلامي وقُتِل منهم كثير ولكن فرسان المسلمين كرُّوا على جيش الروم فهزموه وشتتوه، وانحاز ملك الروم مع قلة من جنده حتى استطاع الوصول إلى مقر جيشه فإذا بهم قد اختلفوا على قائده وتفرقوا عنه فَقَتَل ذلك القائد، ورجع نحو القسطنطينية ليجمع فلول جيشه.

وقد علم أشناس بذلك بواسطة بعض الأسرى الذين أسرهم فأرسل إلى المعتصم يخبره ففرح بذلك، والْتَقَتْ جيوش المسلمين حول أنقرة، وكان أهل هذا البلد قد أخلَوْه وهربوا(١).

وبعد ففي هذا الخبر مواقف، منها موقف العزة والشهامة والشجاعة من أمير المؤمنين المعتصم حينما دعا بالنفير إلى الجهاد لما بلغه مصاب المسلمين على يد الروم، ولقد بلغ به الحماس للجهاد والانتصار للمسلمين إلى حد أنه ركب دابته وأخذ سلاحه حال سماعه الخبر.

ومن ألطف مواقفه وأروعها إجابته نداء تلك المرأة المسلمة الأسيرة التي نادته باسمه ليخلصها من أسر الروم، وفي بيان هذه النخوة والشهامة يقول الشاعر عمر أبو ريشة رحمه الله تعالى:

رُبَّ وامعتصماه انطلقت ... مِلءَ أفواه الصبَّايا اليُتَّم
لامست أسماعهم لكنها ... لم تلامس نخوة المعتصم

---

(١) تاريخ الطبري ٩/ ٥٧ - ٦٢.

وما يذكر للمعتصم أنه أسرع في تجهيز جيش لنجدة المسلمين المنكوبين وصد الأعداء عنهم، ثم بدأ في إعداد جيش كثيف لتأديب الأعداء والانتقام منهم.

وإن نهوض المعتصم بذلك الجيش يعتبر إظهارًا لعزة الإسلام وقوة دولته، وردعًا قويًا لأعداء الإسلام حتى لا يتجرؤوا مرة أخرى على الإغارة على أطراف بلاد المسلمين.

ومن المواقف المذكورة في هذا الخبر موقف المسلمين من أبناء المناطق المجاورة لمدينة «زبطرة» حيث هَبَّ جميع الذين يملكون الأسلحة والدواب لنجدة إخوانهم الذين داهمهم العدو، وهذا فَهْم منهم لفرضية الجهاد وتَعَيُّنه على من داهمهم العدو ومن حولهم ممن تقوم بهم الكفاية، وقد استطاعوا دحر العدو ووقف تقدمه نحو بلاد الإسلام حتى اضطر إلى التراجع إلى بلاده، وهذا دليل على ارتفاع مستوى الإيمان لدى المسلمين آنذاك، حيث لم يعتبر أهل كل بلد مصالح بلدهم خاصة، وإنما اعتبروا العُدْوان على بلد إسلامي عدوانا عليهم جميعًا، وبهذا الشعور الحي العام يشعر الأعداء أن كل بلد إسلامي موصول بالبلدان الإسلامية الأخرى وأنه ليس بإمكان العدو التوغل في بلاد الإسلام اعتمادًا على بُعد عاصمته وجيشه.

ومن المواقف الرائعة في هذا الخبر مقدرة فرسان المسلمين الفائقة فى جزء من الجيش الإسلامي على هزيمة معظم جيش الروم، الذي كان بقيادة ملكهم، وهذا يُلقِّنهم درسًا بليغًا، لأنه لو حصل اللقاء مع جيش المسلمين الكامل فإن النتيجة ستكون إبادة جيش الروم، ولهذا لم يفكر ملك الروم بالعودة لفك الحصار عن «عمورية» التي تعتبر من أعظم مدنهم.

فتح مدينة عمورية:

أما فتح «عَمُّورية» من بلاد الروم، فقد ذكر الإمام ابن جرير الطبري أن المسلمين وصلوا إليها وحاصروها، وكان لها سور حصين وراءه نفق، فتحصن أهلها داخلها قال: وكان رجل من المسلمين قد أسره أهل عمورية فتنصَّر وتزوج فيهم فحبس نفسه عند دخولهم الحصن(١) فلما رأى أميرَ المؤمنين ظهر وصار إلى

(١) يعني لم يتصرف عند دخول فلول المنهزمين من الروم إلى عمورية والتحصن بها.

المسلمين، وجاء إلى المعتصم وأعلمه أن موضعًا من المدينة حمل الوادى عليه من مطر جاءهم شديد، فحمل الماء عليه فوقع السور من ذلك الموضع فكتب ملك الروم إلى عامل عمورية أن يبني ذلك الموضع فتوانَى في بنائه حتى كان خروج الملك من القسطنطينية إلى بعض المواضع، فتخوف الوالى أن يمر الملك على تلك الناحية فيمر بالسور فلا يراه بُني، فوجَّه خلف الصُنَّاع فبنى وجه السور بالحجارة حجرًا حجرًا، وصيَّر وراءه من جانب المدينة حشوا، ثم عقد فوقه الشُّرَف كما كان، فوقَّف ذلك الرجل المعتصم على هذه الناحية التي وصف، فأمر المعتصم فضرب مضربه من ذلك الموضع، ونصب المجانيق على ذلك البناء، فانفرج السور من ذلك الموضع، فلما رأى أهل عمورية انفراج السور علَّقوا عليه الخشب الكبار كل واحدة بلزق الأخرى، فكان حجر المنجنيق إذا وقع على الخشب تكسر فعلقوا خشبًا غيره وصيَّروا فوق الخشب البراذع ليترِّسوا السور.

فلما ألحَّت المجانيق على ذلك الموضع انصدع السور فكتب ياطس والخصي[1] إلى ملك الروم كتابًا يعلمانه أمر السور، ووجها الكتاب مع رجل فصيح بالعربية وغلام عربي وأخرجاهما من الفصيل، فعبرا الخندق ووقعا إلى ناحية أبناء الملوك المضمومين إلى عمرو الفرغاني، فلما خرجا من الخندق أنكروهما فسألوهما: من أين أنتما؟ قالا لهم: نحن من أصحابكم، قالوا: من أصحاب من أنتم؟ فلم يعرفا أحدًا من قواد أهل العسكر يسميانه لهم، فأنكروهما وجاؤوا بهما إلى عمرو الفرغانى بن أرنجا، فوجه بهما عمرو إلى أشناس، فوجه بهما أشناس إلى المعتصم، فساءلهما المعتصم وفتشهما فوجد معهما كتابًا من ياطس إلى ملك الروم يعلمه فيه أن العسكر قد أحاط بالمدينة في جمع كثير، وقد ضاق بهم الموضع، وقد كان دخوله ذلك الموضع خطأ، وأنه قد اعتزم على أن يركب ويحمل خاصة أصحابه على الدواب التي في الحصن، ويفتح الأبواب ليلاً غفلةً، ويخرج فيحمل على العسكر كائنًا فيه ما كان، أفلت فيه من أفلت وأصيب فيه من أصيب، حتى يخلص من الحصار ويصير إلى الملك.

(١) هما من قادة الروم وكانا دخلا عمورية بعد المعركة التي انهزم فيها الروم.

فلما قرأ المعتصم الكتاب أمر للرجل الذي يتكلم منهما العربية والغلام الذي معه ببدرة[1]، فأسلما وخلع عليهما، وأمر بهما حين طلعت الشمس فأداروهما حول عمورية، فقالا: ياطس يكون فى هذا البرج، فأمر بهما فوقفا بحذاء البرج الذي فيه ياطس طويلاً، وبين أيديهما رجلان يحملان لهما الدراهم وعليهما الخُلَع، ومعهما الكتاب، حتى فهمها ياطس وجميع الروم وشتموهما من فوق السور، ثم أمر بهما المعتصم فنحَّوهما.

وأمر المعتصم أن تكون الحراسة بينهم نوائب، في كل ليلة يحضرها الفرسان يبيتون على دوابهم بالسلاح وهم وقوف عليها، لِئَلاَّ يُفتح الباب ليلا فيخرج من عمورية إنسان، فلم يزل الناس يبيتون كذلك نوائب على ظهور الدواب في السلاح ودوابهم بسروجها، حتى انهدم السور ما بين بُرجين من الموضع الذي وُصف للمعتصم أنه لم يُحكم عمله.. إلى أن قال:

فلما كان من الغد قاتلهم على الثلمة، وكان أول من بدأ بالحرب أشناس وأصحابه، وكان الموضع ضيقًا، فلم يمكنهم الحرب فيه، فأمر المعتصم بالمنجنيقات الكبار التي كانت متفرقة حول السور فجمع بعضها إلى بعض، وصيروها حول الثلمة وأمر أن يُرمى ذلك الموضع، وكانت الحرب في اليوم الثاني على الأفشين وأصحابه فأجادوا الحرب وتقدموا.

فلما كان اليوم الثالث كانت الحرب على أصحاب أمير المؤمنين خاصة، ومعهم المغاربة والأتراك، والقيِّم بذلك «إيتاخ» فقاتلوا فأحسنوا واتسع لهم الموضع المنثلم، فلم تزل الحرب كذلك حتى كثرت في الروم الجراحات.

ثم ذكر أن الحرب بالنسبة للروم اقتصرت على القائد المتاخم لتلك الثلمة وجيشه، وأنه طلب من بقية قادة الروم الذين اقتسموا حراسة البروج حول المدينة أن يشاركوا في القتال وإلا ذهبت منهم المدينة فأبوا وقالوا: قد سلم السور من ناحيتنا وليس نسألك أنت تمدنا فشأنك وناحيتك، فعزم هذا القائد هو وأصحابه على الاستسلام للمسلمين.

---

(١) البدرة كيس توضع فيه الدنانير والدراهم.

فلما أصبح هذا القائد وهو «وندو» خرج فتفاوض مع أمير المؤمنين على التسليم مقابل الأمان على الذرية والمتاع والسلاح، فدخل المسلمون من تلك الناحية واستولوا على جميع ما في عمورية[1].

وهكذا تم فتح مدينة «عمورية» التي تعتبر من أعظم مدن الروم وأشدها تحصينًا، وكان من أسباب تعجيل الفتح ما قام به ذلك الرجل المسلم الذي تنصر ظاهرًا لـمَّا وقع أسيرًا في يد الروم، وذلك حينما دل المسلمين على نقطة الضعف في سور المدينة، وهذا موقف يذكر لهذا الرجل فإن الخروج من تلك المدينة المحصنة بغير توجيه من قادتها يعتبر أمرًا في غاية الصعوبة والخطورة، وقد خاطر هذا الرجل بحياته من أجل أن يدل المسلمين على مفتاح دخول تلك المدينة المحصنة.

ومما يذكر من المواقف في هذا الخبر ما كان يتمتع به المجاهدون آنذاك من اليقظة ودقة الرصد، حيث لم يستطع رسول الروم أن يفلت منهم مع أن الروم أجادوا اختياره، حيث اختاروا رجلا يجيد اللغة العربية بفصاحة، حتى يظن المسلمون أنه واحد منهم إذا خاطبوه، ولقد كان لهذا التفوق في الرصد الحربي أثره الكبير في سير أحداث المعركة، حيث جنَّب المسلمين خطر الهجوم المباغت الذي خطط له الأعداء.

هذا وإننا لنجد في خبر هذه المعركة عبرًا عظيمة: منها ما نتج عن تكاسل حاكم عمورية في بناء السور لما تهدم من أثر السيل، فلقد جر تكاسله هذا وبالاً عليه وعلى قومه، وقد كانت عمورية تردُّ الغزاة من قوة ومتانة سورها، لكن هذا الخطأ الفادح من أميرها كان سببًا في انتصار المسلمين وهزيمة الروم، ولقد كان هذا الوالي يفقد عاملاً مهمًا من عوامل النجاح في الحكم وهو الحزم.

ومنها تخاذل قادة الروم عن حماية مدينتهم، واعتبارهم كل واحد منهم أن مسئوليته منحصرة في حماية الجزء المخصص له من السور، وكانت الحكمة والسياسة الحربية أن يجتمعوا على حماية مدينتهم من ذلك السور المتهدم، لأن دخول المدينة من جهة يعني الاستيلاء عليها جميعها.

---

(١) تاريخ الطبري ٩/ ٦٣ - ٦٨ باختصار.

وهذا الموقف المتخاذل الأناني يدل على تفرق قادة الروم، وعدم وجود قائد قدير يخطط لهم وينفذون أوامره.

ومنها أن تركيز المسئولية في القادة الكبار البعيدين عن ميدان المعركة له أثر كبير في الفشل والهزيمة، فإن القائد الرومي الذي عزم على مباغتة المسلمين بالحملة عليهم، ثم الانحياز إلى ملك الروم لم يكن قادرًا على تنفيذ تلك الخطة إلا باستئذان ملك الروم الذي بينه وبينه مسافة بعيدة، فإلى أن يذهب الرسول - فيما لو سلم - وحتى يعود تكون المعركة قد حُسمت بينهم وبين المسلمين.

أما قادة المسلمين فإنهم قد عرفوا المبادئ العامة التي يسير عليها قادتهم عادة والأحكام والآداب الإسلامية التي يلزمهم تنفيذها، ثم هم بعد ذلك أحرار في الاجتهاد واتخاذ القرارات اللازمة بعد أخذ مشورة أهل الرأي في جيشهم، ولذلك فإنهم قد اغتنموا فرصًا كثيرة ما كانوا ليستفيدوا منها لو كانوا يرجعون إلى أمير المؤمنين في كل أمورهم.

***

٣- جهاد السلطان ألب أرسلان مع الروم

السلطان ألب أرسلان هو أحد سلاطين السلاجقة وهو محمد بن داود جفري بك بن ميخائيل بن سلجوق، وقد بلغت حدود سلطته من أقاصي بلاد ما وراء النهر إلى أقاصي الشام، ومع ذلك كان تابعًا لخلفاء بني العباس، وكان كريمًا عادلا عاقلا، وقد دخل بعض الأمراء تحت سلطانه لحسن سيرته وعدله.

وقد توفي مقتولا بيد أحد الولاة وهو يوسف الخوارزمي وكان السلطان أرسلان يريد قتله فعاجله يوسف وقضى عليه وذلك في سنة خمس وستين وأربعمائة[١].

معركة «مَلاَذْكُرْد»:

هذه معركة مشهورة حاسمة جرت بين المسلمين بقيادة ألب أرسلان وبين الروم بقيادة أرمانوس، وفي خبرها يقول ابن الأثير في حوادث سنة ثلاث وستين وأربعمائة: في هذه السنة خرج أرمانوس ملك الروم في مائتي ألف من الروم والفرنج، والغرب والروس والبجناك والكرج وغيرهم من طوائف تلك البلاد، فجاؤوا في تجمُّل كثير وزيّ عظيم، وقصد بلاد الإسلام فوصل إلى ملاذكُرد من أعمال خلاط، فبلغ السلطان ألب أرسلان الخبر وهو بمدينة خُوَيّ من أذربيجان قَدْ عَادَ من حلب، وسمع ما فيه ملك الروم من كثرة الجموع، فلم يتمكن من جمع العساكر لبُعدها وقُرْبِ العدو، فسيَّر الأثقال مع زوجته ونظام الملك إلى هَمذان، وسار هو فيمن عنده من العساكر وهم خمسةَ عشر ألف فارس، وجدَّ في السير، وقال لهم: إنني أقاتل محتسبًا صابرًا، فإن سلمتُ فنعمةٌ من الله تعالى، وإن كانت الشهادة فإنَّ ابني مَلِكْشاه وليُّ عهدي.

وساروا، فلما قارب العدوُّ جعل له مقدمة، فصادفت مقدمتُه عند خلاط مُقَدَّمَ الرومية في نحو عشر آلاف من الروم، فاقتتلوا، فانهزمت الرومية، وأُسِرَ مقدَّمهم فحُمِل إلى السلطان فجدع أنفه، وأخذ بالسلب إلى نظام الملك، وأمره أن يرسله إلى بغداد.

---

(١) الكامل لابن الأثير.

فلما تقارب العسكران أرسل السلطان إلى ملك الروم يطلب منه المهادنة، فقال: لا هدنة إلا بالرَّي، فانزعج السلطان لذلك، فقال له إمامه وفقيهه أبو نصر محمد ابن عبد الملك البخاريُّ الحنفي: إنك تقاتل عن دين وعَدَ الله بنصره وإظهاره على سائر الأديان، وأرجو أن يكون الله تعالى قد كتب باسمك هذا الفتح، فالْقَهم يوم الجمعة بعد الزوال في الساعة التي تكون الخطباء على المنابر فإنهم يدعون للمجاهدين بالنصر، والدعاءُ مقرون بالإجابة.

فلما كان تلك الساعة صلى بهم، وبكى السلطان فبكى الناس لبكائه، ودعا ودعوا معه، وقال لهم: من أراد الانصراف فلينصرف، فما ههنا سلطان يأمر وينهى، وألقى القوس والنشاب، وأخذ السيف والدبوس، وعقد ذنب فرسه بيده، وفعل عسكره مثله، ولبس البياض وتحنَّط، وقال: إن قُتلت فهذا كفني.

وزحف إلى الروم، وزحفوا إليه، فلما قاربهم ترجَّل وعفَّر وجهه على التراب وبكى وأكثر الدعاء، ثم ركب وحَمَل وحمَلَتِ العساكر معه، فحصل المسلمون في وسطهم، وحجز الغبار بينهم، فقَتَل المسلمون فيهم كيف شاؤوا، وأنزل الله نصره عليهم، فانهزم الروم، وقُتِل منهم ما لا يحصى، حتى امتلأت الأرض بجثث القتلى.

وأُسِر ملك الروم، أسره بعض غلمان كوهرائين فأراد قتله ولم يعرفه، فقال له خادم الملك: لا تقتله فإنه الملك، وكان هذا الغلام قد عرضه كوهرائين على نظام الملك فرده استحقاراً له، فأثنى عليه كوهرائين، فقال نظام الملك: عسى أن يأتينا بملك الروم أسيراً فكان كذلك، فلما أسر الغلام الملك أحضره عند كوهرائين، فقصد السلطان وأخبره بأسر الملك، فأمر بإحضاره، فلما أُحضر ضربه السلطان ألب أرسلان ثلاثة مقارع بيده، وقال له: ألَمْ أُرسل إليك في الهدنة فأبيت، فقال: دعني من التوبيخ وافعل ما تريد، فقال السلطان: ما عزمت أن تفعل بي إن أسرتني؟ فقال: أفعل القبيح، قال له: فما تظن أني أفعل بك؟ قال إما أن تقتلني، وإما أن تشهِّرني في بلاد الإسلام، والأخرى بعيدة وهي العفو وقبول الأموال واصطناعي نائبًا عنك، قال: ما عزمت على غير هذا، ففداه بألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار، وأن يرسل إليه عساكر الروم أي وقت طلبها، وأن يطلق

كل أسير في بلاد الروم، واستقر الأمر على ذلك، وأنزله في خيمة، وأرسل إليه عشرة آلاف دينار يتجهز بها، وأطلق له جماعة من البطارقة، وخلع عليه من الغد، فقال ملك الروم: أين جهة الخليفة؟ فدُلَّ عليها فقام وكشف رأسه وأومأ إلى الأرض بالخدمة، وهادنه السلطان خمسين سنة، وسيَّره إلى بلاده، وسيَّر معه عسكرًا أوصلوه إلى مأمنه، وشيَّعه السلطان فرسخًا[1].

وهكذا عشنا مع هذا الخبر الذي ضرب فيه المسلمون بقيادة السلطان ألب أرسلان مثلا عاليًا في البطولة والتضحية.

فهذه المعركة الهائلة لا يشبهها إلا بعض معارك الصحابة رضي الله عنهم كاليرموك ونهاوند، حيث يتقابل المسلمون مع عشرة أضعافهم وأكثر، ثم يكون النصر إلى جانب المسلمين في ساعات معدودة.

ولقد ظهرت القوة المعنوية للمسلمين في هذه المعركة بشكل بارز، حيث لم يَعُدْ هناك نظر إلى السلاح، وإنما اشرأَبَّت الأعناق إلى من بيده مقاليد كل شيء جل وعلا، وأيقن القادة والجنود أنه إذا لم يتداركهم الله سبحانه بنصر من عنده فإنهم لن يكسبوا المعركة أبدًا، ولكنهم قد وطَّنوا أنفسهم على البديل الأعلى، وهو أن يتقبلهم الله تعالى شهداء، وتعلقت آمالهم بإحدى الحسنيين: إما النصر أو الشهادة.

ولقد كان لقائد المسلمين أثر كبير في تقوية معنويتهم، وتعبئة مشاعرهم نحو الثبات أمام الأعداء.

ولا ننسى أثر العالم الرباني أبي نصر محمد بن عبد الملك البخاري، فقد قام بتأييد السلطان، وقوَّى قلبه برجاء أن يكون الفتح على يديه، وبتذكيره بالهدف السامي الذي يجاهد من أجله وهو نصر هذا الدين العظيم الذي وعد الله سبحانه بنصره على جميع الأديان، وأرشده إلى الوقت الأفضل للهجوم على الأعداء، فتقبل السلطان توجيهاته، وقوي أمله بالله تعالى.

---

(١) الكامل في التاريخ ٨/ ١٠٩ - ١١٠، وانظر البداية والنهاية ١٢/ ١٠٧ - ١٠٨.

وهكذا يؤدي العلماء الربانيون دورهم المطلوب منهم في تقوية الروح المعنوية لدى المجاهدين، وهذا هو السلاح القوي الذي يملكه المسلمون الصادقون، ويفقده أعداؤهم، وقد ظهر واضحًا في هذه المعركة أثر هذا السلاح.

أما المحاورة التي جرت بين السلطان ألب أرسلان وملك الروم فإنها كانت مثلا عاليًا في تمثيل أخلاق المسلمين وعلو سياستهم.

وإن هذه المعاملة إضافة إلى كونها تمثل أخلاق المسلمين المعروفة في إكرام الزعماء وتألُفِهم للإسلام، فإنها من الناحية السياسية قد ضمنت لزعماء المسلمين حقهم في التكريم والاحترام فيما لو وقعوا أسرى لدى الأعداء لعقود من الزمن.

فللّه در هذا السلطان الكبير والسياسي القدير!!

لقد جاء ملك الروم بِقَضِّه وقَضِيضِه وخيله ورَجِله وعتاده ليقضي على المسلمين وليمحو الإسلام من الوجود، وكان من غروره أنه أقطع بلاد المسلمين لأمرائه، فكان له بالمرصاد فرقة من جيوش المسلمين أبادت خضراءه وحطَّت كبرياءه، وعاد ذلك الجبار المتغطرس يقبِّل الأرض بين يدي السلطان ألب أرسلان ويتودد له ليقبله نائبًا عنه، وذلك منتهى الشعور بالذلة والمهانة، وإذا كان جزء من جيش السلطان أرسلان قد سحق جيشه فكيف لو أحضر السلطان جيشه كاملاً؟! وكيف لو اتفق مع بقية أمراء المسلمين على جهاد الروم؟!

***

الجهاد مع الروم

في

عهد العثمانيين

نشأة هذه الدولة

الدولة العثمانيـة تنسب إلى عثمان بن أرطغرل بن سليمـان، وجده سليمان هو زعيم إحدى قبائل الغُزّ التركية، الوافـدة من بلاد تركستان على إثر هجمات التتار على بلاد الإسلام، وقد وصل سليمان بقبيلتـه إلى بلاد الأناضول عام سبعة عشر وستمائة، ثم عاد بقبيلته إلى بلاده بعدما هدأت الأوضاع على إثر وفاة جنكيزخان زعيم التتـار، لكنه توفي غرقا في أحد الأنهار قرب مـدينة حلب، فاختلف أبناؤه من بعده، فواصل السـير بعضهم، وقرر أرطغرل العودة إلـى بلاد الأناضول فعاد معه أربعمائة أسرة من القبيلة.

وقدر الله تعالى أن يواجه أرطغرل ومن معه جـيش السلاجقة بقيادة علاء الدين السلجوقي وهم يقاتلون أعـداءهم، فقام أرطغرل بنصر السلاجـقة الذين كانوا قد أقامـوا دولة إسلامية في بلاد الأناضـول، فكافأه علاء الدين بأن أقطعـه جزءًا من بلاده المجاورة للروم في مقاطعة «اسكي شهر».

ثم توفي أرطغـرل وخلفه على تلك الإمـارة ابنه عثـمان، وشاء الله تـعالى أن يموت السلطان عـلاء الدين السلجوقي عـام تسعة وتسـعين وستمـائة ولم يكن له خليفة يخلفه، فحصلت فتن واضطرابات فقام عثمان بالاستيلاء على دولته، وكان ذلك بداية نشأة الدولة العثمانية.

وقد أحسَّ الأعداء من الروم والتتار بخطورة هذه الدولة الناشئة فقاموا بقتالها، وكان من أعظم الانتـصارات التي حقـقها السـلطان عثمـان استيـلاؤه على مدينة «بورصة» الحصينة، وحينمـا حاول الروم الاستعانة بالتتار توجه عثـمان نحو التتار فشتت شملهم، وحاصر بورصة حتى استولى عليهـا في عام سبعة عشر وسبعمائة ٧١٧هـ الموافق ١٣١٧م، وقد أصبحت بورصة بعد ذلك عاصمة الدولة العثمانية.

ثم تولى السلطان أورخان بن عثمان بعد وفـاة أبيه وذلك في عام ستة وعشرين وسبـعمائة ٧٢٦هـ الموافق ١٣٢٦م، وفي عهـده تم تنظيم الجيش العثـماني، وبدأ تكوين جـيش الانكشارية، وهو جـيش مكون من أبناء الدول الأوروبيـة الشرقـية

بعدما دخلوا في الإسلام وتم تدريبهم الحربي، وقد أصبح لهم أثر كبير في توطيد دعائم الدولة العثمانية وفي عهده توسعت الدولة العثمانية حيث استولى على عدد من الأقاليم الآسيوية.

وفي سنة ثمان وخمسين وسبعمائة - ٧٥٨هـ الموافق ١٣٥٧م - اجتاز سليمان باشا أكبر أولاد السلطان أورخان وولي عهده مضيق الدردنيل الذي يصل البحر الأسود ببحر مرمرة ومعه جزء من جيشه تحت أستار الظلام، حتى إذا وصلوا إلى الضفة الأخرى قبضوا على ما كان بها من القوارب وعادوا بها إلى الضفة المعسكرة عليها جيوشهم، فانتقل الجيش إلى ضفة أوروبا، وكان عدده ثلاثين ألفًا، واحتل ميناء «تزنب»، ووفقوا بسقوط جزء من أسوار مدينة «جاليبولي» التي تقع على مضيق الدردنيل من جهة أوروبا، وذلك بسبب زلزال شديد، فدخلها العثمانيون بدون عناء، وكان ذلك بداية استيلاء العثمانيين على شرق أوروبا.

وقد توفي سليمان بن أورخان بعد ذلك بعام وانتقلت ولاية العهد إلى أخيه مراد.

ثم تولى السلطان مراد الأول بن أورخان بعد وفاة أبيه عام واحد وستين وسبعمائة ٧٦١هـ الموافق ١٣٦٠م، وفي عهده بدأ جهاد العثمانيين في أوروبا الشرقية بشكل واضح، حيث استولى على إمارات البلقان، وسقطت مدينة «أدرنة» بأيدي العثمانيين ثم اتخذوها عاصمة لهم، كما تم فتح مقدونية وصوفيا وسالونيك، ومن أبرز المعارك التي خاضها العثمانيون في شرق أوروبا معركة قوصوه وكانت بقيادة السلطان مراد نفسه وقد انتصر فيها العثمانيون على جيش كثيف من الأحلاف النصرانية التي تكونت من الصِّرب والبُشناق والمجر والبلغار والألبانيين، وكانت في هذه المعركة نهاية السلطان مراد حيث كان يتفقد القتلى فقام صربي من بينهم فطعنه على حين غفلة منه فقتله.

ثم تولى السلطان بايزيد بن مراد الأول بعد استشهاد أبيه عام واحد وتسعين وسبعمائة، ٧٩١هـ الموافق ١٣٨٩م، وفي عهده قامت حملة صليبية بتحريض من البابا، فاجتمع جيش أوروبي عظيم بقيادة «سِجسْمُند» ملك المجر فزحفوا على

بلدان شرق أوروبا واستردوا بعض البلاد التي استولى عليها العثمانيون، وكان السلطان «بايزيد» غائبًا في آسيا، فلما علم بذلك عاد سريعًا والتقى بهم في معركة كبيرة انهزم فيها الصليبيون شر هزيمة وذلك عام ثمانية وتسعين وسبعمائة ٧٩٨هـ الموافق ١٣٩٦م.

وفي عهد السلطان بايزيد تم حصار القسطنطينية، وكاد أن يفتحها لولا مداهمة جيش تيمورلنك المغولي من المشرق، فاضطر إلى فك حصار القسطنطينية والزحف نحو المشرق لمقاومة التتار، وقد جرت بينهم معركة هائلة أبدى فيها السلطان بايزيد بسالة عظيمة إلا أن تفوق التتار في العدد وتسلل بعض جيش العثمانيين نحوهم جعل المعركة لصالح التتار فانهزم العثمانيون، ووقع السلطان بايزيد في الأسر هو وابنه موسى وذلك في آخر عام أربعة وثمانمائة، ثم مات عام خمسة وثمانمائة وتفرق أولاده وحدثت بينهم فتن وحروب كادت تقضي على دولتهم إلى أن استطاع أحدهم وهو السلطان محمد الأول ابن بايزيد أن يسيطر على الوضع، وقد بقي في السلطة ثماني سنوات قضاها في حروب داخلية أخضع بها الأمراء الذين انتقضوا على دولته.

وبعد وفاة السلطان محمد الأول عام أربعة وعشرين وثمانمائة ٨٢٤هـ الموافق ١٤٢١م، تولى السلطة ابنه مراد الثاني والد السلطان محمد الفاتح، وفي عهده أكمل العثمانيون سيطرتهم على آسيا الصغرى وشرق أوروبا.

ومن أشهر المعارك التي خاضها معركة «وارنه» وكان السلطان مراد قد تنازل عن السلطنة لابنه محمد الفاتح، وكان آنذاك صغير السن حيث لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره فاغتر بذلك ملوك أوروبا الذين كانوا قد عقدوا هدنة مع السلطان مراد فنقضوا الهدنة واغتنموا فرصة غياب السلطان مراد حيث كان في عزلة في إحدى قرى الأناضول، وجمعوا جيشًا كبيرًا بتحريض من البابا «أوجانيوس الرابع»، وما أن علم السلطان مراد بذلك التجمع حتى خرج من عزلته وعبر مضيق البسفور ومعه أربعون ألفا قد اختارهم من الجيش العثماني، فزحف بهم نحو تجمع الأعداء، ودارت بين الفريقين معركة رهيبة تحت أسوار مدينة «وارنه»، وقد كاد النصر أن يكون حليف النصارى لما يتمتعون به من الحماس والحمية

الدينية، ولكن ما قام به السلطان مراد من قتل ملك المجر قد غيَّر مسيرة المعركة، حيث أصيب الأعداء بالخوف والهلع لما رأوا رأس ملك المجر مرفوعة على رمح والمسلمون يكبرون فرحين، فحمل المسلمون عليهم وهزموهم شر هزيمة وذلك في عام ثمانية وأربعين وثمانمائة.

وفي عام خمسة وخمسين وثمانمائة ٨٥٥هـ الموافق ١٤٥١م، تولى السلطان محمد الفاتح بن السلطان مراد، وقد لُقِّب بالفاتح لما تم على يديه من فتح القسطنطينية الذي يعتبر من أعظم فتوحات المسلمين(١).

فتح القسطنطينية:

لقد كان هذا الفتح أملاً كبيرًا يتمنى قادة المسلمين تحقيقه منذ أن طرق مسامعهم قول رسول الله ﷺ: «**لَتُفتحنَّ القسطنطينية فلنعْم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش**»(٢)، وقد سبق ذكر الحملة الجهادية التي كانت في عهد أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه وكانت بقيادة ابنه يزيد، والحملة الأخرى التي كانت في عهد سليمان بن عبد الملك وكانت بقيادة أخيه مسلمة، ثم كانت محاولات أخرى، ولكن فتح هذه المدينة كان مدخرا للسلطان الشاب الشجاع محمد بن مراد العثماني الذي حاز على لقب الفاتح بعد ذلك، فكيف تم فتح هذه المدينة العظيمة التي أعجزت قادة المسلمين قبل ذلك.

لقد كان واضحًا لدى سلاطين آل عثمان أن فتح القسطنطينية لا يتم إلا من جهة أوروبا لكونها محاطة من جهة آسيا بالبحر، فلذلك عقدوا العزم على توسيع فتوحاتهم في شرق أوروبا، ثم نقلوا عاصمتهم إلى «أدرنه» بعد فتح جزء كبير من أوروبا، فأصبحوا يستطيعون حصار القسطنطينية من جميع جهاتها بعد أن صارت مملكة صغيرة في داخل إمبراطوريتهم الواسعة، فكانت هذه الأعمال الجهادية السابقة تمهيدًا لما قام به السلطان محمد الفاتح من فتح هذه المدينة.

---

(١) انظر كتاب «تاريخ الدولة العلية العثمانية» لمحمد فريد بك المحامي ص١١٣ - ١٥٩ وكتاب «تاريخ الدولة العثمانية» للدكتور على حسون ٨ - ٢١، وكتاب «السلطان محمد الفاتح» للدكتور عبد السلام فهمي ١١ - ٢٢، وكتاب «التاريخ الإسلامي» للدكتور أحمد شلبي ٥/ ٦٦٩ - ٦٧٦.

(٢) مسند أحمد ٤/ ٣٣٥.

ولما عزم السلطان الفاتح على فتح القسطنطينية زحف بجيش يبلغ خمسين ألفا، ثم سيطر على جميع منافذ المدينة حتى لا يصل إليها مدد من الخارج.

وقد عرض السلطان الفاتح على ملك الروم قسطنطين أن يسلم المدينة في مقابل سلامة جميع من فيها على أرواحهم وممتلكاتهم، فرفض قسطنطين ذلك، وكان ذلك في اليوم الخامس عشر من شهر جمادى الأولى من عام سبعة وخمسين وثمانمائة ٨٥٧هـ الموافق ١٤٥٣م.

ولما كان لابد من الحرب فإن السلطان أمر برمي أسوار المدينة بالمدافع، وكان الجيش التركي مزودًا بمدافع من أضخم وأحدث المدافع الموجودة في العالم آنذاك.

وقد خاطب الفاتح قادته بقوله: إن تم لنا فتح القسطنطينية تحقق فينا حديث رسول الله ﷺ ومعجزة من معجزاته، وسيكون من حظنا ما أشاد به هذا الحديث من التقدير، فأبلغوا أبناءنا العساكر فردًا فردًا أن الظفر العظيم الذي سنحرزه سيزيد الإسلام قدرًا وشرفا، ويجب على كل جندي أن يجعل تعاليم شريعتنا الغراء نصب عينيه فلا يصدر عن أحد منهم ما يجافي هذه التعاليم، وليجتنبوا الكنائس والمعابد ولا يمسوها بأذى، ويدعوا القساوسة والضعفاء والعجزة الذين لا يقاتلون.

وهذا الخطاب يبين لنا ارتباط الفاتح الوثيق بالدين واستمداده النصر من الله تعالى. وأنه كان يقاتل عن عقيدة دينية قوية، وقد أشاع هذه العقيدة في قادته وجنده حتى أصبحوا يقاتلون بمعنوية عالية، إلى جانب ما تزودوا به من سلاح مادي قوي، وإذا اجتمعت القوتان المعنوية والمادية حصل النصر بإذن الله تعالى.

خطط حربية ناجحة:

كان أقرب مكان للسيطرة على القسطنطينية من البحر من ناحية ميناء القرن الذهبي، وكان الروم يدركون خطورته فيما لو دخلت منه سفن المسلمين، فوضعوا في مدخله سلسلة حديدية ضخمة، وقد حاول المسلمين قطع هذه السلسلة فلم يستطيعوا لقوة الحامية المكلفة بالحراسة من الروم، ففكر السلطان الفاتح بخطة لنقل السفن من مضيق البوسفور إلى داخل القرن الذهبي عن طريق البر على مسافة ستة أميال تقريبًا، ولما وافق المستشارون على الخطة أمر الفاتح بتمهيد الأرض ومد ألواح

الخشب المدهونة بالزيت والشحم، ثم قام الجنود بسحب السفن عليها، فاستطاعوا أن يُنزلوا في القرن الذهبي سبعين سفينة في ليلة واحدة، وقد أذهلت هذه الخطة الأعداء وحطت من معنويتهم الحربية، حيث أصبح بإمكان سفن المسلمين أن تضرب الأعداء عن قرب وأن تشلَّ حركة الملاحة البحرية لديهم.

ومن الخطط الحربية التي استخدمها المسلمون، حفر الأنفاق لإدخال الجنود منها إلى المدينة، وكانوا كلما اكتشف الأعداء ذلك حفروا في مكان آخر، فكان ذلك مما جعل الأعداء في رعب دائم لاحتمال أن يفاجئهم المسلمون من أي مكان.

ومن الخطط الحربية المذهلة قيام المسلمين بصناعة برج خشبي مرتفع من ثلاثة طوابق، وقد فوجئ به الأعداء وهو يعلو أسوارهم وقد تحصن به عدد من المجاهدين الذين استعدوا لاقتحام سور المدينة من أعلاه، وقد قال المؤرخ البندقي «باربارو» عن هذا البرج الهائل: «لو اجتمع جميع نصارى القسطنطينية على أن يصنعوا مثل هذه القلعة لما صنعوها في شهر، وقد صنعها المسلمون الأتراك في ليلة واحدة، بل في أقل من أربع ساعات».

وهذا اعتراف من الأعداء آنذاك بتفوق المسلمين في الصناعات الحربية، وقد كان ذلك مكملا لتفوقهم في الروح المعنوية المبنية على تمسكهم بالدين الإسلامي الحنيف.

الهجوم الأخير:

حينما استنفذ السلطان الفاتح مقاصده في تحطيم معنوية الأعداء وهَدْم أجزاء من الأسوار خطط للهجوم العام من البر والبحر، فأمر بالهجوم من جميع الجهات وانطلق الجنود المغامرون نحو الأسوار وصعدوا على السلالم في محاولة للهبوط على المدينة بشكل مكثف، ولكنهم واجهوا مقاومة عنيفة من الأعداء، سواء من جهة البر أو البحر، واستطاع الأعداء أن يقلبوا بهم السلالم، وسقط عدد من المسلمين صرعى تحت الأسوار، ولكن ذلك لم يفتَّ في عزائم المسلمين، بل استمروا في الهجوم، وكان السلطان يدفع بالجنود إلى الأسوار بالتناوب، وكان ذلك يعطي المسلمين قوة حيث تواجه كل فرقة منهم جيش الأعداء وأفرادُه قد

أنهكوا من ضـراوة الحرب وعُنْف المـقاومـة، وكان السلطـان يقصـد بذلك تحطيم معنوية جـيش الأعداء حتى تضعف مقـاومتهم، وفي أثناء ذلك الهـجوم المتواصل استطاع أحد الجنود الأترك أن يقتل قائد الأعداء في المنطقة الشمالية مبارزة، وبمقتله انهارت معنويات فرقـته وولَّى أفرادها هاربين، فانتهز السلطـان هذه الفرصة فدفع بأفراد فـرقة الانكشارية المشهـورين بالشجاعـة والمغامرة إلى ذلك المكان فاندفـعوا كالسيل الجارف واستطاعوا دخول المدينة ورفعوا فوق أسوارها أعلام العثمانيين.

وفي أثناء ذلك أصيب جسـتنيان أبرز قادة الأعداء بجرح بـليغ ونُقِل بعيدًا عن ميدان المعركـة، أما الملك قسطنطين فإنه أصيب بالفزع والذَعـر الشديد حينما رأى جنود العثمانيين ينطلقون بعنف وسرعة نحو داخل المدينة، فنزل عن حصانه وخلع ملابسه القيصرية وصار يدافع بسيفه حتى قتل.

وفُتحت جميع أبواب المدينة بعد أن فرَّ حماتها وتم فتح هذه المدينة العريقة التي اسـتعـصت على جمـيع الغـزاة من قبل وذلك في عـام ٨٥٧هـ الموافق ١٤٥٣م، وتحقق في ذلك الأمير الشاب وجنوده بشارة النبي ﷺ وثناؤه العظيم[١].

فتح مدينة بلغراد:

بعد أن توفي السلطان محـمد الفاتح في عام ستة وثمـانين وثمانمائة، خلفه في الحكم ابنه بايزيد، ثـم تنازل عن الحكم لولده السلطان سليم عـام ثمـانيـة عشـر وتسعـمائة، فلما توفي خلفـه في الحكم ابنه سليمان القـانوني عام ستة وعـشرين وتسعمائة، وهو عاشر سلاطين آل عثمان.

وفي عهده تم فتح مدينة بلغراد، وكان سبب تسيير الجيش نحوها أن ملك المجر قتل السفـير الذي أرسله السلطان بطلب دفع الجزية التي كانت مـقررة قبل ذلك، فاستـشاط السلطان غضبًـا وأمر بتجهـيز جيش كبـير لمحاربة المجر وقاده بـنفسه، وأرسل أحد مشـاهير قواده وهو أحمـد باشا لمحاصرة مـدينة شابتس التي تقع إلى الشمال من بلغراد وذلك في شعبان عام سبعة وعشرين وتسعمائة ففتحها، ثم وجه

(١) انظر كتاب تاريخ الدولة العليـة / ١٦٠ - ١٦٥، وكتاب الدولة العثمانيـة/ ٢٢ - ٣٢، وكتاب «السلطان محمد الفاتح» / ٧٥ - ١٢٦.

السلطان ذلك الجيش لمساعدة الجيش الذي يحاصر بلغراد، وقد تم فتح هذه المدينة المشهـورة بعد دفـاع شديد، ثم أصبـحت بعد ذلك مـعقلاً للمـسلمين تنطلق منه الجيوش لفتح ما وراء نهر الدانوب(١).

وهكذا كـانت رايات المسلمين ترفرف وسط أوروبا، وهـي تحمل عـزة الإسلام وقوة دولته، ولولا ما حدث في تاريخ المسلمين من الحروب الداخلية التي أضعفت قوتهم لاكتسحت جيوشهم أوروبا كلها وغيرها من بلاد العالم.

فتح جزيرة رودس:

كانت جـزيرة رودس معقـلا حربيًا لأعـداء الدولة العثمـانية تلجأ إليـه سفنهم الحـربية، ولقـد حاول أسـلاف السلطان سليـمان القـانوني فتح هذه الجـزيرة فلم يتمكنوا لشدة اهتمام الدول الأوروبية بها وحمايتهم لها، ولقد كان الدافع للاهتمام بفتحـها أن تكون حلقة اتصال بين إسلامـبول ومصر ولكي لا تكون مركـزًا حربيًا للأعداء.

ولقد انتـهز السلطان سليمـان فرصة انشغـال ملوك أوروبا بحرب بينهم فجـهز جيشًا بحـريًا وآخر بريًا ليكون على الساحل المقابل للجزيرة، وقـبل الهجوم أرسل السلطان إلى رئيس الرهبان الذين كانوا مسـيطرين على الجزيرة يدعوهم إلى إخلاء الجزيرة مع ضمان عدم التعرض لأنفسهم وأموالهم، فلم يقبل رئيسهم هذا العرض فـأمر السلطان بـحصـارها، ولقد قـاوم أهلهـا بما عندهم من سـلاح ولكنهم لم يستطيـعوا الصمـود أمام المدافع العثـمانية، فـأرسل رئيسهم اثـنين من رهبانه إلى السلطان يطلب منه السـماح لهم بإخـلاء الجزيرة، وغـادروها إلى جزيرة مـالطة، وبذلك أصبحت جزيرة رودس جزيرة إسلامية تحت سلطان الدولة العثمانية(٢).

وهذا مثـل جيد في دراسـة واقع الأعداء، وانتـهاز الفـرص المناسبـة لتحـقيق المكاسب الحربية بأقل الخسائر، وهذا يحتاج إلى رصـد حربي دقيق واستعداد قوي بالرجال والسلاح لتحقيق الأهداف المطلوبة في الوقت المناسب.

---

(١) تاريخ الدولة العلية العثمانية/ ١٩٩ - ٢٠٢.

(٢) تاريخ الدولة العلية العثمانية/ ٢٠٣ - ٢٠٦.

إنقاذ تونس من النصارى:

قال الشيخ مرعي الحنبلي في كتابه «نزهة الناظرين» عند ذكر السلطان سليم ولد السلطان سليمان ما نصه: وكانت ولايته سنة أربع وسبعين وتسعمائة، وفي أيامه كان فتح حلق الوادي ببلد تونس المغرب بعد استيلاء النصارى عليها بسبب الاختلاف الواقع بين سلاطين المغرب وآل حفص فصار بعضهم يتقوى على بعض بالإفرنج وأطمعوهم في بلاد المسلمين فاستولوا عليها وتمكنوا منها وحصنوا الحصون وأحكموا القلاع بحيث أيس المسلمون من فتحها وصاروا تحت حكم الإفرنج وأخذوا مملكة تونس ووضعوا السيف في أهلها، فقتلوا الرجال وسبوا النساء والأولاد، فلما بلغ السلطان سليم ذلك أرسل مائتي غراب[١] مشحونة بالأبطال والمدافع وآلة الحرب وصحبة ذلك سنان باشا وقلج علي باشا، وكانت غزوة مشهورة ووقعة معدودة من أعظم غزوات بني عثمان يحتاج تفصيلها لمؤلف، فنصر الله المسلمين بعد أن قُتل منهم عشرة آلاف مع الحصار المديد والقتال الشديد. ومن العجائب أن الإفرنج كانوا أنشأوا هناك قلعة منيعة أقاموا في استحكامها وإتقان بنائها ثلاثا وأربعين سنة فافتتحها المسلمون بصحبة الوزير المذكور في ثلاثة وأربعين يومًا من أيام محاصرتها، وذلك في سنة إحدى وثمانين وتسعمائة، ثم خرّب الوزير القلاع والحصون ولم يبق لها رسم ووصلت البشائر للسلطان سليم، وكان في نفسه فتح إقليم الأندلس في ثاني سنة فلم يمهله الأجل رحمه الله. انتهى[٢].

هذا الخبر يبين لنا دور الدولة العثمانية في حماية العالم الإسلامي، فإنه مع بعد بلاد تونس عن عاصمة الدولة العثمانية فإن السلطان سليم قد أهمه أمرها لما بلغه استيلاء النصارى عليها، فأرسل لها جيشًا بحريًا قضى على وجود الأعداء فيها وأعادها إلى حكم المسلمين.

إن هذا الاهتمام الكبير من سلاطين آل عثمان ببلاد الإسلام يجعل الأعداء يترددون كثيرًا في الهجوم على أي بلد إسلامي وإن كان صغيرًا ولا قوة فيه، وهذا

---

(١) أي سفينة.

(٢) المختار المصون للدكتور محمد بن حسن موسى / ١٢٩٩ عن كتاب «نشر المثاني» للشيخ محمد القادري.

من مزايا وجــود الدولة الإسلاميــة الكبرى، فالأشــبال في العرين ضــعاف وليس بإمكانهم إنقاذ أنفــسهم، ولكن يوشك أن يعود الأسد إلى عرينــه فينتقم ممن أوقع الضرر بأشباله وإن بعد مكانه.

جهاد المتمردين في بلاد الأفلاق:

كان ميخال حاكما لبلاد الأفلاق مــن قبل السلطنة العثمانية، فخرج عن الطاعة وجمع جموعًا من النصارى وتمرد وعاث في بلاد العثمانيين في أوروبا، فأرسل له السلطان محمــد بن مراد بن سليم جيشًا بقيادة أحــد وزرائه، ولكن الأعداء ظفروا به وبجيشه فزاد الأعداء عتوا وتجبرًا.

وقد أشار عليه وزيره سنان باشــا بأن يسافر إلى الأعداء بنفسه، فخــرج بجيشه من دار خلافــته في شوال سنة أربع بعــد الألف، ووصل إلى قلعة في غــاية المنعة والتحصين، فنازلها بجنوده فــاشتد البلاء بمن فيها فــخرجوا طائعين، وسلموها في أواخر صفر سنة خمس وألف، ووصل خبر أخذها إلى ملك الأنكروس فقام وقعد وأرغى وأزبد لأنها كانت عندهم من القلاع المعتبرة، فكاتب ملوك النصارى يطلب الإمداد منهم بالعــساكر والذخــائر فجاؤوا إلى إمــداده بسبعــة جيوش يضــيق عنها الفضاء، وكان السلطان مــحمد سار بعسكره إلى القلعة التي بها المعــدن فبينما هو في أثناء المرحلة الثالثــة إذ دهمته النصارى من كل جانب وأحــاطوا به وكان عسكر الإسلام حــينئذ غير مــستعــد والنصارى في غاية الكثــرة جدًا بحيث إن جمــعهم المخذول لا يُحــصى، وكان يوم دَهْمــتهم يوم الخــميس ثاني شهــر ربيع الأول من السنة ووقع حرب عظيم في ذلك اليوم كله إلى أن دخل الليل فتــفرقوا، وأصبحوا يوم الجمعة مــتحاربين أيضًا واستعدت النصــارى أزيد من اليوم الأول فكانوا غرقى في الفولاذ ثم هجموا دفعة واحدة على المسلمين وفرقوهم بددًا ووصلوا إلى مخيم السلطان فطلب السلطان إليه معلمــه الخوجه سعد الدين وكان في صحبــته فحضر بين يديه وجعل يثبته، والسلطان يستنهض عســاكره الخاصة به ويستغيث بالله، فلم يكن بأسرع من أن قَوِيَ المسلمون وأدركهم بعض المنهــزمين ففرقوا شمل النصارى وأبادوهم ودخلوا بينهم والتحم القــتال، وتراجع جميع العســكر فكسروا النصارى وردّوهم على أعقابهم ووقع السيف فيهم وهم فــارّون حتى قتل بعضهم بعضًا من

الزحام وغيـره، ووهب الله تعالى له النصر والتأييد ولـم يسلم أحد من الكفار إلا من هرب، وغنم السلطان ومن معه غنيمة عظيمة، وأكثر ذلك كان على يد الوزير سنان باشا ابن جغال والوزير حسن باشا ابن محمد باشا، وأُحصِيَتْ قتلى المسلمين فكان الذي استشهد من القوّاد ما يقـرب من أربعمائة، ومن أصحاب الألوية المعبر عنهم في اصطلاح الروم بالصناجق بضعة عشـر رجلاً، ومن الأمراء الكبراء أربعة أنفار، ومـن العساكـر ما بين فـارس وراجل مالا يُحـصى، ووافق بعد الـظفر أن السلطان قتل من عسكره الفارّين جماعة كثـيرين وقبض على باقيهم وحقرهم غاية التحقير في منصرفه وعاقب بعض من فرّ بقطع علوفته[1] وضبط ملكه وماله لجهة بيت المال.

والحاصـل أن ما وقع له من هذه النصـرة لم يقع لأحد من مـلوك آل عثـمان، وذلك إنما هو بمحض لطف إلهي وإمـداد رباني غير مـتناه، ولقد حكى كثـير من السيّاح أن ملوك الفرنج تـطلق على هذا السلطان: «صاحب القرآن» وهذا الوصف إنما هو لمن بلغ في الشجـاعة المرتبة التي لا تُسامى، وأنهم على عـادتهم يصوّرون ملوك آل عثمـان فيقدمون هذا في التصـوير على كل الملوك وذلك كله بسبب هذه النصرة التي رُزِقها[2].

وبعد: فإن ما جرى في هذه المعركة من انتصار المسلمين كان على خلاف المعتاد في المعارك الحربية، فالسلطان محمد كان في جيش صغير بالنسبة لجيوش النصارى الكثيرة التي اجـتمعت من بلاد كثيرة، وداهمت المسلمين على غـرة، ولقد حصل في بداية المعـركة انهزام وتفـرق في جيش المسلمين أمـام هجوم النصـارى المركز، وهذا شيء طبيعي، ولكن الشيء الذي جرى على خلاف المعتاد أن ينتصر السلطان هو ومن ثبتوا معـه وهم قليل على عدو يفوقهم كثيرًا في العـدد والاستعداد، ولا تفسير لذلك إلا ما كان من لجوء السلطان إلى الله عز وجل واستغاثته به، وما كان من معلمـه سعد الدين الذي ظل يثبـته ويقوي عزيمتـه، فكان هذا السلاح المعنوي

---

(١) أي راتبه.

(٢) المختار المصون للدكـتور محمد بن حسن بن عقيل موسـى/ ١١٤٠ - ١١٤٣، عن كتاب «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» للشيخ فضل الله المحبي.

أقوى من كل ما أعـده الأعداء من جنود وذخائر، وإذا تذكرنا ما جاء في ترجـمته من أنه كان صالحًا عابدًا سـاعيا في إقامة الشعائر الدينية مـراعيًا لأحكام الشريعة، فإننا لا نستغرب أن يظفر بنصر الله تعالى وتأييده.

إن الجندي بحكم تكوينه الجسماني يملك طاقة كبيرة، ولكنه لا يستخدم - عادة - إلا قليلاً منها، وهذا القليل في الحرب يصرف جزءًا منه للدفاع عن نفسه فيكون جهـده الذي يبذله في الهجـوم بنسبة قليلة جـدًا، ولكن حينما يدخل في مـيزان المعركة عامل الإيمان بقضاء الله تعالى وقدره الذي يفرض على المسلم أن يؤمن بأنه لا يمكن أن يموت قبل حـلول أجله.. وحينما يدخل عـامل الإيمان بأن المسلم إنما ينتظر في جهاده إحـدى الغايتين الحسنيين: إما الظفر بالنصـر العزيز على الأعداء، وإما الظفر بالشهادة التي هي أسمى أمـاني المؤمنين.. حينما يدخل ذلك في ميزان القوى فإن الجندي الذي يحمل هذه المعاني السامية سيقاتل أعداءه بكل ما وهبه الله جل وعلا من طاقة، وبالتالي فإنه سيكـون معادلاً لعشرات الجنود ممن لا يحملون هذه المعاني.

وذلك إلى جانب ما يعتقد به المؤمن من أن الله تعالى يمد أولياءه المؤمنين المتقين بمدد من ملائكته الكرام عليـهم السلام، فهو حينمـا يلقى أعداءه لا ينظر إلى عدد أفراد جيشه، وإنما يكون فكره متجهًا نحو السماء بطلب المدد من الله تعالى.

وما جـاء في آخر هذا الخبـر من أن ملوك الفرنج كانوا يطلقـون على السلطان محمد بن مـراد بأنه صاحب القرآن دليل على اعتقـادهم بأنه قريب من الله تعالى وأن نصره عليهم في هذه المعركة لم يكن بجهود مادية وإنما كان بتأييد من الله جل وعلا لتطبيقه ما جاء في كتابه سبحانه.

وهكذا تم عرض أمثلة من جهـاد العثمانيين، ولم يكن المقصود اسـتيعاب ذلك ولا كتابة تـاريخ لهذه الدولة العظيمة، وإنما المقـصود بيان شيء من مواقـفهم في إعزاز الإسلام والجهاد في سبيله.

***

مواقف وعبر في
جهاد المسلمين
في بلاد السند والهند

الجهاد والفتوحات

فـــي

عهد الأمويين

نبذة عما سبق من الأحداث:

لقد كانت رغبة المسلمين في فتح بلاد السند منذ عهد عمر رضي الله عنه ولكن حال دون ذلك انشغال المسلمين بجهاد الدولتين العظميين آنذاك: دولة فارس والروم، إلى جانب قلة الموارد وكثرة عصابات اللصوص في تلك البلاد.

ففي عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بدأ الجهاد في السند والهند، ومن أخبار ذلك ما ذكره البلاذري من أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولّى على عمان والبحرين عثمان بن أبي العاص الثقفي في السنة الخامسة عشرة للهجرة، وأنه مضى إلى عمان ووجه أخاه الحكم إلى البحرين[1] وذكر أن عثمان بن أبي العاص قاد حملة بحرية إلى «تانه»، ووجه حملة أخرى بحرية إلى «بروص» بقيادة أخيه الحكم، وحملة بحرية ثالثة إلى «خور الديبل»[2] وذكر أنه لقي العدو فظفر، وأنه كتب إلى أمير المؤمنين عمر يعلمه ذلك، فكتب إليه: يا أخا ثقيف حملت دودا على عود، وإني أحلف بالله لو أصيبوا لأخذت من قومك مثلهم[3].

وهكذا غضب أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه على عثمان بن أبي العاص الثقفي لكونه أولاً غزا بلاد السند والهند بغير إذنه، ولكونه ثانيًا لا يرى الوقت مناسبًا لهذا الغزو حيث إن المسلمين لم يصلوا إلى تلك البلاد عن طريق البر، فهو يخشى على المسلمين أن يُقتطعوا ويهلكوا في البحر.

ولكن لما وصل الفتح الإسلامي إلى مشارف تلك البلاد أذن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بغزوها، وذلك في سنة ثلاث وعشرين، وفي ذلك يقول الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري فيما يرويه عن شيوخه.

---

(١) البحرين هي الأحساء كما تقدم.

(٢) ذكر الدكتور عبد الله الطرازي أن تانه يطلق عليها «تهانه» وأنها مدينة هندية قديمة على البحر في شمال مدينة بومباي الحالية، وذكر أن بروص يطلق عليها «بهروج» وأنها على ساحل الهند أيضًا، وذكر أن «خور الديبل» يحتمل أن تكون هي مدينة كراتشي الحالية وسيأتي ما يؤيد ذلك - موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ١٣١.

(٣) فتوح البلدان/ ٦٠٧.

قالوا: وقصد الحكَم بن عمرو التغلَبيّ لمُكْران، حتى انتهى إليها، ولحق به شهاب بن المخارق بن شهاب، فانضم إليه، وأمدّه سهيل بن عديّ، وعبد الله بن عبد الله بن عتبان بأنفسهما، فانتهوا إلى دُوَين النهر، وقد انفضّ أهل مكران إليه حتى نزلوا على شاطئه، فعسكروا، وعبر إليهم راسل ملكُهم ملك السند(1)، فازدلف بهم مستقبل المسلمين. فالتقوا فاقتتلوا بمكان من مكران من النهر على أيام، بعدما كان قد انتهى إليه أوائلهم، وعسكروا به ليلحق بهم أخراهم، فهزمهم الله وانهزم راسل وسُلِب، وأباح المسلمين عسكره، وقُتلوا في المعركة مقتلة عظيمة، وأتبعوهم يقتلونهم أيامًا، حتى انتهوا إلى النهر. ثم رجعوا فأقاموا بمكران. وكتب الحكم إلى عمر بالفتح، وبعث بالأخماس مع صحار العبدي، واستأمره في الفيلة، فقدم صحار على عمر بالفتح والمغانم، فسأله عمر عن مكران - وكان لا يأتيه أحد إلا سأله عن الوجه الذي يجيء منه - فقال: يا أمير المؤمنين، أرض سهلها جَبَل، وماؤها وشَل(2)، وتمرها دَقَل(3)، وعدوّها بطل، وخيرها قليل، وشرّها طويل، والكثير بها قليل، والقليل بها ضائع، وما وراءها شرّ منها، فقال عمر: أسَجّاعٌ أنت أم مخبر؟ قال: لا بل مخبر، قال: لا، والله لا يغزوها جيش لي ما أُطِعْتُ، وكتب إلى الحكم بن عمرو وإلى سهيل ألا يجوزَن مكران أحد من جنودكما، واقتصرا على ما دون النهر، وأمره ببيع الفيلة بأرض الإسلام، وقسم أثمانها على من أفاءها الله عليه.

وقال الحكم بن عمرو في ذلك:

لقد شبع الأرَاملُ غير فخرٍ ... بفيءٍ جاءَهُمْ من مُكُرانِ
أتاهم بعد مَسغَبةٍ وجهدٍ ... وقد صفر الشتاءُ من الدُّخان
فإني لا يذُمُّ الجيشُ فْعلي ... ولا سَيفْي يُذَمُّ ولا سناني(4) (5)

(1) ذكر الدكتور عبد الله الطرازي أن الطبري أخطأ في جعل «راسل» ملك السند، وذكر أنه حاكم ولاية سندية وأنه يطلق عليه نائب الملك، وأن ملك السند هو «جج» الذي تولى الملك من السنة الأولى للهجرة حتى سنة أربعين - موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية لبلاد السند والبنجاب ١/ ١٣٤

(2) الوشل الماء القليل

(3) الدقل أردأ التمر.

(4) في رواية ابن كثير ولا لساني وهو الظاهر لأن السيف هو السنان - البداية ٧/ ١٣٦.

(5) تاريخ الطبري ٤/ ١٨١.

فلما ولى عثمان بن عفان رضى الله عنه وولَّى عبد الله بن عامر بن كربز على العراق كتب إليه يأمره أن يوجه إلى ثغر الهند من يعلم علمه وينصرف إليه يخبره، فوجه حكيم بن جبلة العبدي، فلما رجع أوفده إلى عثمان فسأله عن حال البلاد فقال: يا أمير المؤمنين قد عرفتها وتَنَحَّرتُها، فقال: فصفها لي: قال: ماؤها وشَل، وثمرها دَقَل، ولِصهًا بطل، إن قل الجيش فيها ضاعوا، وإن كثروا جاعوا، فقال له عثمان: أخابر أَم ساجع؟ فلم يُغزها أحدًا(١).

يعني هل أنت قصدت السجع في الكلام أم أنك تريد معنى ما تقول، ولما تبين له أنه يخبره عن حقيقة ما رأى عزم على عدم غزو تلك البلاد، وقد تقدم كلام صحار العبدي في وصف تلك البلاد، وهو يشبه كلام حكيم العبدي وكونهما قد اتفقا في الوصف دليل على الخبرة الدقيقة.

ثم كانت محاولة في عهد على بن أبى طالب رضي الله عنه حيث توجه الحارث بن مرة العبدي في آخر سنة ثمان وثلاثين ومعه ألف مقاتل، وقد واجه عشرين ألفا من أهل القيقان في معركة دامية انتصر فيها المسلمون وأسروا آلافًا من الأعداء.

وهكذا رأينا ما قام به هذا الجيش من أعمال بطولية، حيث ثبتوا بشجاعة نادرة أمام جيش يبلغ ضعفهم عشرين مرة ومع ذلك لم يفروا وواصلوا القتال حتى نصرهم الله تعالى على عدوهم وظفروا بذلك العدد الكبير من الأسرى.

وهذا مثل يضاف إلى بطولات المسلمين العظيمة في الثبات واحتمال الشدائد.

ولكن هذا القائد قد استشهد هو وعدد من جيشه في معركة أخرى لقلة جيشه أمام جيش الأعداء وذلك في عام اثنين وأربعين(٢).

***

(١) فتوح البلدان للبلاذري /٦٠٧.

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب لعبد الله الطرازي ١/ ١٣٥ - ١٣٦ فتوح البلدان/ ٦٠٧ - ٦٠٨.

الجهاد في السند في عهد معاوية رضي الله عنه

كانت في هذا العهد محاولات أخرى لفتح بلاد السند وجرت فيها معارك بين المسلمين والكفار وقد تولى القيادة والإمارة على ما فتح من بلاد السند كل من:

راشد بن عمرو الجُدَيدي سنة ٤٢هـ.

عبد الله بن سوّار العبدي سنة ٤٣هـ.

المهلَّب بن أبي صفرة سنة ٤٤هـ.

عبد الله بن سوَّار العبدي مرة أخرى سنة ٤٥هـ.

سنان بن سلمة بن المحبَّق سنة ٤٨هـ.

راشد بن عمرو الجديدي مرة أخرى سنة ٤٨هـ.

سنان بن سلمة بن المحبق مرة أخرى سنة ٥٠هـ.

عباد بن زياد بن أبيه سنة ٥٣هـ.

المنذر بن الجارود سنة ٦١هـ.

حرِّي بن حرِّي الباهلي سنة ٦٢هـ.

وكان النصر في أكثر المواجهات الحربية حليف المسلمين، كما أنهم أصيبوا في بعضها[١].

ولقد سطر التاريخ مواقف عالية لبعض هؤلاء القادة، من ذلك ما ذكره البلاذري عن عبد الله بن سوار العبدي أنه كان سخيا، لم يوقد أحد نارًا غير ناره في عسكره، فرأى ذات ليلة نارًا فقال: ما هذه؟ فقالوا: امرأة نفساء يُعمل لها خبيص، فأمر أن يُطعم الناس الخبيص ثلاثًا[٢].

(١) انظر تاريخ خليفة بن خياط/ ٢٠٥ - ٢١٣. فتوح البلدان للبلاذري/ ٦٠٨ - ٦١١. شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي/ ١/ ٥٣.

(٢) فتوح البلدان/ ٦٠٨.

ومن ذلك ما ذكره خليفة بن خيــاط عن سنان بن سلمة بن المحبق قال: فحدثنا أبو اليمان النبال قال: غـزونا مع سنان «القيقان» فجاءنا قوم كثـير من العدو فقال سنان: أبشروا فأنتم بين خـصلتين: الجنة والغنيمة، ثم أخذ سبـعة أحجار وواقف القوم، قـال: إذا رأيتموني قد حـملت فاحملوا، فلـما صارت الشمس في كـبد السمـاء رمي بحجر في وجوه القـوم وكبر، ثم رمي بهـا حجرًا حجـرًا حتى بقي السـابع، فلمـا زالت الشمس عـند كبـد السـماء رمي بالسـابع ثم قـال: حم لا ينصرون، وكبَّر وحمل وحملنا معه فمنحونا أكتافهم فقتلناهم، وسرنا أربعة فراسخ فأتينا قومًا متحصنين في قلعة فقـالوا: والله ما أنتم قتلتمونا ولا قتلَنا إلا رجال ما نراهم معكم الآن علـى خيل بُلق، عليهم عـمائم بيض، فقـلنا: ذلك نصر الله، فرجـعنا والله ما أصـيب منا إلا رجل واحد فـقلنا لسنان: واقفت القـوم حتى إذا زالت الشمس واقعتهم؟ قال: كذلك كان يصنع رسول الله ﷺ(١).

وكون هذا القائد يتـذكر هذه السنة النبوية ويطبقها دليل علـى علمه وصلاحه، وهي سنة اختيارية يقدَّم العمل بها إذا لم تقتض مصلحة القتال غير ذلك.

وموضوع رمي الأحـجار لعله أراد بها وسيلـة انضباط للجيش حـتى لا يقدموا على القتال حتى يرمي الحجر السابع، والمقصود هو التكبير ولكن لعل بعض أفراد الجيش لا يسمعون التكبير بينما يرون رمي الأحجار.

وكون هذا الجيش نُصر بالملائكة عليـهم السلام دليل على صلاح القائد والجنود وأنهم قد بذلوا كل طاقتهـم في الاستعداد للمعركة والقـتال، ولكن الأعداء كانوا فوق إمكاناتهم فنصرهم الله تعالى بجـنود من عنده، والملائكة في القتال يقدر الله تعالى أن الكفـار يرونهم ليصابوا بالرعب والفشـل بينما لا يراهم المؤمنون لكي لا يتكلوا عليهم.

***

(١) تاريخ خليفة بن خياط/ ٢١٢ - ٢١٣.

الجهاد في السند في عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد

نظرًا لما حدث في البلاد الإسلامية من الاضطرابات بعد وفاة معاوية رضي الله عنه فإن الفتوحات الإسلامية قد توقفت في بلاد السند، وحينما استقرت أوضاع بلاد الإسلام في عهد عبد الملك بن مروان بدأ النشاط الجهادي في هذا الإقليم حينما تولى الحجاج بن يوسف إمرة العراق والمشرق.

ولاية سعيد بن أسلم الكلابي على السند:

ولَّى الحجاج بن يوسف سعيد بن أسلم بن زرعة الكلابي على إقليم مكران الذي تم فتحه من بلاد السند عام خمسة وسبعين، وكان الوضع فيها مضطربا حيث كان يسيطر عليها طائفة من العرب الذين تمردوا على الدولة الإسلامية وانضموا إلى «داهر» ملك السند وهم العلافيون، وكان يتزعمهم رجلان منهم هما معاوية ومحمد ابنا الحارث العلافي، وهم ينتسبون إلى علاف وهو ربان بن حلوان ابن عمران بن الحاف بن قضاعة، وقد استطاع سعيد بن أسلم أن يسيطر على البلاد، إلا أن العلافين خرجوا عليه وقتلوه واستطاع محمد ومعاوية العلافيان أن يسيطرا على الحكم في البلاد وذلك في عام ثمانية وسبعين(١).

ولاية مجَّاعة بن سعر التميمي:

ولَّى الحجاج بن يوسف مجاعة بن سعر التميمي على إقليم مكران عام تسعة وسبعين، وأسند إليه مهمة القضاء على العلافين وتثبيت حكم الإسلام في ذلك البلد واستئناف الجهاد لفتح السند، وبعث معه جيشًا قويًا، ولما أن علم العلافيون بقدومه تركوا البلاد وهربوا إلى داخل بلاد السند تحت حماية «داهر» ملك السند، ولما وصل مجاعة إلى مكران وفرغ من أمور توطيد الأمن بها توجه إلى «قندابيل» ففتح نواحي منها، ولكنه ما لبث أن توفي بعد عام من وصوله إلى بلاد السند(٢).

---

(١) فتوح البلدان/ ٦١١، الكامل في التاريخ ٤/ ٣٦ تاريخ خليفة بن خياط/ ٢٩٦، وانظر موسوعة التاريخ الإسلامية للطرازي ١/ ١٥٦.

(٢) فتوح البلدان/ ٦١١، تاريخ خليفة بن خياط/ ٢٧٨، وانظر موسوعة التاريخ الإسلامية ١/ ١٥٨.

ولاية محمد بن هارون النمري على مكران:

بعد وفاة مجاعة بن سعر ولَّى الحجاج بن يوسف على مكران محمد بن هارون ابن ذراع النمري، وذلك في عام ثمانين للهجرة.

وقد حدث في ولايته أن أهدى ملك جزيرة الياقوت(١) إلى الحجاج سفينة تحمل مجمـوعة من النساء المسلمات اللاتي وُلدن في تلك الجـزيرة ومات آباؤهن وكانوا تجارا، فـأراد بذلك التقرب إلى رجـال الدولة الإسلاميـة، فعرض لتلك السـفينة جمـاعة من اللصوص في بوارج قـرب مدينة الديبل، فأخذوا الـسفينة بما فيـها، فنادت امرأة منهن وكانت من بني يربوع: يا حجـاج، وبلغ الحجاج ذلك فقال: يا لبيك، فـأرسل إلى ملك السند «داهر» يسـأله تخلية النسـوة، فقـال: إنما أخذهن لصوص لا أقدر عليهم.

فبعث الحجاج جيشًا بقيادة عبيد الله بن نبهان السلمي لإنقاذ تلك النساء، ولكن هذا الجيش هزم وقتل قائده.

ثم بعث الحجاج جـيشًا آخر بقيادة بُدَيل بـن طَهْفة البجلي وكان شابًا شـجاعًا فدارت معركة دامـية من الصباح إلى المساء وكان فرس بديل يهـيج من هيبة الفيلة فربط عينيـه وقاتل بشجاعـة نادرة واستطاع بمفرده أن يقتل نحـو ثمانين رجلاً من العدو حتى استشهد وانهزم جيشه ووقع بقيتهم في الأسر حيث ضمَّهم ملك السند إلى سجناء الدَّيبل(٢).

***

---

(١) وتسمى جزيرة سرنديب وهي سيلان التي أصبحت تسمى سيرلانكا.

(٢) فتـوح البلدان/ ٦١١ - ٦١٢، موسوعة الـتاريخ الإسلامي لبلاد الـسـند والبنجاب للطرازي ١/ ١٦٢ - ١٦٣.

حملة محمد بن القاسم وفتح السند

لما بلغ الحجاج بن يوسف خبر أسر المسلمين في السند ونكبة الجيشين اللذين بعثهما استشاط غضبًا وحزن على مصير هذين الجيشين فأقسم على غزو السند بحملة كبيرة وكتب إلى الوليد بن عبد الملك يخبره بالأحداث المؤلمة في بلاد السند ويستأذنه في بعث جيش كبير لفتح السند وتخليص السجناء من المسلمين والمسلمات فوافق الوليد بعد تردد.

وجهز الحجاج جيشًا كبيرًا في عام تسعة وثمانين، صرف عليه أموالاً عظيمة وأسند قيادته لمحمد بن القاسم الثقفي(١)، وكان الحجاج قد عرف فيه الجد والشجاعة وحسن الإدارة، ولقد وُفِّق إلى حد كبير في إدارة ذلك الجيش ثم في إدارة شئون البلاد بعد فتحها كما سيتبين لنا من عرض فتوحاته وسيرة عمله الإداري.

وسار محمد بن القاسم من العراق في ستة آلاف بكامل تجهيزهم وقد أعد الحجاج له مددًا من شيراز فسار حتى وصل شيراز وانضم إليه ستة آلاف آخرون، فأرسل المنجنيقات والأسلحة الأخرى الثقيلة بحرًا مع بعض الجيش إلى ميناء الديبل بقيادة خريم بن عمرو وابن المغيرة وأمرهما أن يسبقاه إلى الديبل وسار هو عن طريق مكران(٢).

وهكذا رأينا كيف تجهز هذا الجيش بالأسلحة الثقيلة كالمنجنيقات التي أصبحت فيما بعد تسمى المدافع، وهذا دليل على تقدم المسلمين في الاستعداد الحربي، وسرعتهم في الاستفادة مما وجدوه من ذلك عند الأمم الأخرى، مع ما أضافوا إلى ذلك من ابتكارات جديدة.

---

(١) هو محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل الثقفي، يجتمع هو والحجاج في الحكم - الكامل في التاريخ ٤/ ١١١.

(٢) فتوح البلدان/ ١٦٢، الكامل في التاريخ ٤/ ١١١، موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب/ ١/ ١٦٤ - ١٦٧

هذا ولما وصل محمد بن القاسم إلى مكران انضم إليه وإليها محمد بن هارون النمري مع جيشه المكون من أربعة آلاف حيث أصبح جيش ابن القاسم ستة عشر ألفًا.

بعد ذلك قام ابن القاسم بفتح بعض المدن في أول السند حيث فتح قَنْزيور وأرمابيل تمهيدًا للهجوم على الدَّيبل التي تعتبر من أكبر مدن السند وميناء البلاد، ويرجِّح بعض الباحثين أنها هي مدينة كراتشي الحالية.

ثم سار بجيشه حتى وصل إلى الديبل وذلك في يوم الجمعة من شهر محرم عام ثلاثة وتسعين.

ووصلت في الوقت نفسه المراكب البحرية التي كان تحمل بعض الجنود والأسلحة الثقيلة، فأمر بحفر خندق حول الجيش وقام بتنظيم أموره حيث أنزل الناس على راياتهم، وَوُضعت المجانيق الثلاثة التي تَزَوَّد الجيش بها، وأهمها منجنيق يسمى «العَروس» يقوم على القذف به خمسمائة رجل، فحاصر المسلمون مدينة الديبل وجرت بينهم وبين أعدائهم مناوشات حربية.

ولما بدأ المسلمون بالهجوم بالمنجنيق على الحصن خرج منه رجل وطلب الأمان، فأعطاه ابن القاسم الأمان، فذكر لهم اعتقادًا سائدًا عندهم وهو أن بلادهم ستُفتَح على يد جنود الإسلام، وأن الأمان من ذلك بقاء العَلَم المثبت فوق المعبد وكان معبدهم عظيم الارتفاع وفوقه قبة عليها علم كبير يتدلَّى من الجهات الأربع.

فلما سمع ابن القاسم ذلك الكلام قرر الاستفادة من هذا الاعتقاد فوجه المنجنيق الضخم نحو ذلك المعبد، وأمر قائد المنجنيق جَعُوبَةَ السلمي بضرب ذلك العلَم ووعده بعشرة آلاف درهم جائزة له إذا أصاب الهدف، ولكن جعوبة اشترط أن يقطع من طول المنجنيق بقدر مترين، فقال محمد بن القاسم: إذا لم تنجح فقد ضاعت أهمية آلة المنجنيق، فقال جعوبة: إذا لم أُسقِط العلم ولم أكسر قبة المعبد فلتُقطَع يدي، وعندئذ وافق ابن القاسم على قطع المنجنيق بعد حصوله على الإذن من الحجاج، ثم صوَّب الرامي منجنيقه فانطلقت القذيفة الحجرية الأولى وأسقطت

العلم، ثم أطلق القـذيفة الثـانية فكسـر بها قـبة المعبـد، فعند ذلك هاج الـكفار وخرجوا فناهضهم المسلمون حتى هزموهم وردُّوهم.

وأمر ابن القاسم بالسلالم فـوضعت وصعد عليها الرجـال ففتحت عنوة وهرب عامل داهر عنها، واختط محمد بن القاسم للمـسلمين بها بيوتًا وبنى فيها مسجدًا وأنزلها أربعة آلاف من المسلمين(١).

وهكذا تم فتح حصن من أهم حصـون الكفار في ذلك البلد، وجَرَى في أثناء ذلك أمور تستحـق الوقوف عندها، منها التنويه بخبرة المسلمين الحـربية حيث كان جعوبة السلمي صـاحب المنجنيق واثقًا من إصابته الهدف إلى الحد الذي غـامر فيه على ذلك بقطع يده، وقـبل ذلك دقة خبـرته بآلته حيث اشـترط قطع مـترين من طول المنجنيق ليتكفل للقائد بإصابة الهدف.

فلله درُّهم ما أسرع تفاعلهم مع مكتشفات عصرهم!

وما أبرعهم في الاستفادة من قدراتهم في الوصول إلى معالى الأمور!!

لقد آمنوا بالإسلام حقًـا وصدقا ففجَّر هذا الدين طاقاتـهم ووجههم نحو العلو في الأرض على قـواعد الصـدق والعدل، وكـان لابد للوصول إلى هذا الـهدف العالي من اكتـساب جميع الخـبرات العسكرية والمدنية من حولهـم ثم التفوق على غـيـرهم في ذلك، وكـان لهم ما أرادوا فـكانوا أبرع من الأعـداء في استـخـدام الأسلحة التي توارثها الأعداء كابرًا عن كابر.

وهكذا تكون نهضة الأمم ورقيها نحو المعالي والتمكين في الأرض.

ومن الأمور التي تستحق الوقوف براعة القـائد محمد القاسم في اغتنام الفرص المؤدية إلى النجاح، فـما أن علم بعقيدة أولئـك الكفار القائمة على اعـتقاد حلول الهزيمة بهم مع زوال عَلَمهم الكبير حتى غيَّر خطته الحربية وبدأ بقصف ذلك العلَم والقبة التي تحمله ليهزمهم معنويًا قبل أن يواجههم عسكريًا.

---

(١) فتـوح البلدان ٦١٣ - ٦١٤، الكامل في التـاريخ ٤/ ١١١، موسـوعة التـاريخ الإسلامي لبـلاد السند والبنجاب ١/ ١٦٨ - ١٧١.

وهكذا يجب على القـادة أن يتلمسـوا مواطن الضعف عند الأعـداء ليوجـهوا ضرباتهم من خلال جوانب الضعف، فيـجتمع على الأعداء جانب الضعف الذي يهز مـعنوياتهم ويضعفـها إلى جانب قـوة المسلمين التي لا يقف أمامهـا أحد في الغالب.

ولقد كـانت هذه العقائد مصـدر إزعاج وضعف للكفار أمـام المسلمين الأقوياء بعقيدتهم الصافية القوية، فاستفاد المسلمون من ذلك فوائد عظيمة كما سبق لنا في عرض مواقف المسلمين مع الفرس والروم.

وأخيرًا وصـل محمد بن القـاسم إلى السجن الكبير الذي كـان ملك السند قد احتجز فيه جمعًا من المسلمين والمسلمـات، بعضهم من التجار ونسائهم، وبعضهم من أسرى الحرب، ونســاء فقدْنَ أولياءهن من التجـار الذين هلكوا في تلك البلاد وما حولها، فأفرج عنهم وتركهم فترة للراحة، ثم أعادهم إلى وطنهم الإسلامي، وحقق ابن القاسم في ذلك إجـابة الحجاج حينما قـال: يا لبيك، لنداء تلك المرأة المسلمة التي قالت من وراء القضبان: يا حجاج.

وهكذا كـان المسلمون أعـزَّةً باعتـزازهم بدينهم، واهتـمامـهم بأمور إخـوانهم المسلمين، فليس من شـأن المؤمن الحق أن ينام قـرير العين هادئ البـال، وأن ينعم بالطيبات والأمن والراحة وإخوانه المسلمون يقتَّلون ويشرَّدون ويعذبون، وتُمَلؤُ بهم السجون، وينالون فيها أنواع الإذلال والتعذيب.

ولقـد كـان الحـجـاج بن يوسف من قسـاة القلوب الذين اشـتـهـروا بالظلم والجبروت، ومع ذلك جهز تلك الجـيوش لإنقاذ المسلمين من أيدي أعدائهم، لأن المسلمين في ذلك الزمن لوعيـهم الديني يدركون أن إذلال الكفار للمسلمين يعـتبر إهانة للإسلام نفـسه، فـالمسارعة لإنقـاذ المسلمين تعتـبر إعزازًا للإسـلام بالدرجة الأولى، ورحمة بالمسلمين بالدرجة الثانية.

هذا ولقد توَّج ابن القاسم أعماله في فتح مدينة الديبل بالعفو عن المشرف على السجن لـمَّا شهد السجناء المسلمون بأنه كـان يعاملهم معاملة كريمة، فعفا عنه ابن القاسم من باب مـبادلة الإحـسان بالإحسـان، بالرغم من أن أوامر الحـجاج تنص

على قتله هو وأمثاله، إضافة إلى أنه فوض إليه الإشراف على الأمور المالية في مدينة الديبل.

وكان من نتيجة هذه المعاملة الكريمة من ابن القاسم أن ذلك السجَّان الدَّيبلي أعلن إسلامه[1]، وهذا مثل من الأمثلة الكثيرة في تاريخ المسلمين الأوائل التي يكون فيها إسلام الكفار بسبب معاملة المسلمين الكريمة لهم.

وإن ما قام به ابن القاسم من تفويض الأمور المالية إلى ذلك الرجل يعتبر لفتة إدارية عالية، تدلنا على ما كان يتمتع به ابن القاسم من خبرة دقيقة في معادن الرجال، فالرجل الذي كان يعامل أعداءه في الدين معاملة كريمة في السجن وهو قادر على ضد ذلك، ثم يسارع إلى اعتناق دين أعدائه لما أدرك أحقيته وسموه جدير بأن تُسند إليه مَهامُّ الأمور.

ووقفة أخيرة في هذه النقطة تدلنا على تمتع القادة المسلمين آنذاك بحرية التصرف، انطلاقًا من مبدأ «يرى الشاهد ما لا يرى الغائب» فالحجاج قد أمر بقتل المقاتلين والمشرفين على سجن المسلمين، ولكن هذا السجان قد شفع له كريم معاملته للمسلمين في السجن، فالاجتهاد وارد في الحكم في القضايا من منطلق دراسة الواقع.

فتح مدينة النَّيرون:

لما انتهى محمد بن القاسم من فتح الديبل اتجه إلى مدينة النيرون [حيدر أباد حاليًا] ونزل في مواضع من ضواحيها ولم يكن نهر السند يمر به فضاق الجنود من العطش حتى أمطرت السماء وامتلأت الخزانات بالمياه وشرب جنود الإسلام وحمدوا الله تعالى.

وهكذا قيض الله جل وعلا ذلك المطر لإنقاذ المسلمين وتقوية قلوبهم حتى يواجهوا أعداءهم بقوة ونشاط، وهذا مثل من كون الله تعالى مع أوليائه بنصره ومعونته لما يريد بهم من إظهار دينه وإعلاء كلمته في الأرض.

ووصل ابن القاسم بجيشه تلك المدينة بينما وصلت المؤن الثقيلة التي بعث بها مع بعض الجنود على السفن في نهر ساكره.

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ١٧١ - ١٧٢، فتوح البلدان ٦١٣ - ٦١٤.

وحاصر المسلمون تلك المدينة عدة أيام وكان واليها غائبًا، فلما قدم أبرز كتاب صلح بينه وبين الحجاج وفتح المدينة للمسلمين.

ثم حضر بهندركن والي المدينة إلى محمد بن القاسم ومعه الهدايا والتحف فأكرمه ابن القاسم واتَّخذه مستشارًا وولَّى على مدينته واليًا مسلمًا(١).

وهكذا كان ابن القاسم يعامل المسالمين معاملة كريمة ويستفيد من خبرة من يظهر النصح للمسلمين مع عدم الاعتماد عليه في القرارات النهائية، وتلك منقبة من مناقبه العظيمة التي جعلته يفتح ذلك الإقليم الواسع في وقت قصير، مع ما قام به من ترسيخ أقدام المسلمين هناك وبث الإسلام بين أبناء البلاد.

فتح إقليم سيوستان:

ثم اتجه ابن القاسم إلى إقليم سيوستان وبصحبته بهندركن الوالي النيروني وكان له أتباع بوذيون في ذلك الإقليم فاجتمعوا به وأخبروه بأنهم موافقون على ما جاء في رسالة الحجاج إليه من قوله «كل من طلب الأمان له الأمان» ولكن حاكم ذلك الإقليم رفض الصلح وهو بَجْهرا بن جندر ابن عم الملك داهر ملك السند، فحاصرهم ابن القاسم وصوَّب المجانيق نحو مدينتهم لمدة أسبوع ليلاً ونهارًا حتى شعر السكان بالضيق والخوف فتوقفوا عن القتال، ولما علم الأمير بأن السكان قد يئسوا من المقاومة هرب في المساء من الباب الشمالي وعبر النهر متجهًا إلى منطقة البودهية.

وبعد هروب الحاكم دخل محمد بن القاسم مدينة سيوستان فاتحًا وأعلن أهلها البوذيون منهم الطاعة وعيَّن نوابًا من أماكن متعددة وجمع الغنائم ما عدا ما يخص البوذيين الذين أعلنوا الطاعة.

ومما هو جدير بالذكر إسلام جماعة كبيرة من البوذيين على يد محمد بن القاسم من أهل جنه في سيوستان، وقصة إسلامهم مؤثرة حيث أرسلوا مندوبًا لهم إلى معسكر المسلمين لمعرفة أخبارهم، وحين وصل كان جنود الإسلام قد وقفوا في الصلاة في خشوع مهيب خلف إمامهم محمد بن القاسم فاندهش لمنظرهم، وأخبر

---

(١) الكامل في التاريخ ٤/ ١١١، موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ١٧٣.

قومـه بذلك، فقالوا: إذا كـان العرب هكذا يعبـدون الرب ويطيعونه ولا يتـركون صـلاتهم حتى في أخطر المـواقف وهم بهذا الشكل من الاجـتـماع فـلا يمكن لنا مقاومتهم وهذا دليل على صحة دينهم.

واختـاروا وفدًا من زعـمائهم أرسلوهم إلـى ابن القاسم وعـرضوا له طاعـتهم وأُعجـبوا بأخلاقه ومـعاملته فـأعلنوا إسلامهم، ثم عـادوا لقومهم فـدعوهم إلى الإسلام فأسلموا جميعًا[1].

وهكذا رأينا عظمة الصلاة وبركتها وتأثيرها القوي على مشاعر من يشاهد لأول مرة المصلين وهم يصلون، وخاصة إذا كانوا يصلون جماعة.

وإن من أهم عوامل التأثير في الصلاة ما تشـتمل عليه من الخشوع القلبي القائم على حضور القلب مع الله تعالى، والذي يترتب عليـه سكون الجوارح وخضوعها لله جل وعـلا، مِنْ وضَعْ اليد علـى اليد حـال القيـام والنظر الدائم إلى مـوضع السجود وعدم تحريك الأعضاء إلا بموجب حركات الصلاة.

وإن أبلغ ما في الصلاة من التأثير قيام الجماعة من المسلمين في صفوف منتظمة متساوية خلف إمام واحد، وتزيد عظمة هذه الجماعة ومنظرها المهيب حين يتضخم العدد فيصل إلى الألوف من المصلين كما هو الحال في تجـمعات الجيوش وتجمعات المدن الكبيرة.

وإن مما يزيد في إعـجاب الأعداء كـما هو مذكـور في الخبر كـون المسلمين لا يتنازلون عن صلاتهم الجماعية حتى في أحرج المواقف وهم واقفون أمام أعدائهم، وهذا يبين لنا حكمة من حِكَم شرعية صلاة الجماعة.

المعركة الفاصلة مع ملك السند:

استمر محمد بن القاسم يتـقدم ويفتح المدن صلحًا في غالب الأمر حتى وصل إلى جيش الملك داهر وكان بينهما نهر السند، فأرسل إليه ابن القاسم رسولاً يسمى الشامي ومـعه مترجم وهو قـبلة بن مهتـرائج الذي كان مشرفًـا على سجن الديبل وأسلم على يد محمد بن القاسم، فلما دخل على ملك السند لم يسجد له تعظيمًا

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ١٧٤ - ١٧٦.

حسب عادة أهل السند مع ملكهم، وكان الملك داهر يعرفه فغضب وقال: لو لم تكن رسولاً لقتلتك، فقال هذا الديبلي: نعم إنني الآن مسلم ولا يصح في الإسلام أن يسجد إنسان لإنسان وإنما السجود لله رب العالمين، وإن قتلتني فإن المسلمين ينتقمون لي.

ثم ذكر حديث رسول المسلمين الشامي للملك حيث ذكر له رسالة ابن القاسم إليه بتخييره بين أن يعبر النهر إلى المسلمين أو يتركهم يعبرون إليه بعد أن رفض الدخول في الإسلام ودَفْع الجزية(١).

وهكذا رأينا موقفًا عاليًا من ذلك الرجل الدَّيبلي الذي أسلم حديثًا حيث تفقه في الدين سريعًا فأدرك التقاليد الجاهلية التي تتعارض مع الإسلام وفهم توحيد الله سبحانه للعبادة والتعظيم فلم يسجد لذلك الملك كما يصنع قومه الكفار، ثم أظهر اعتزازه بانتمائه للمسلمين حيث أظهر التحدي لذلك الملك ببيان عزة المسلم وكرامته عند إخوانه حتى لو كان حديث عهد بالإسلام، هذه العزة التي من مظاهرها غضب المسلمين لإخوانهم وانتقامهم ممن اعتدى عليهم مهما كلفهم ذلك من أموال ومتاعب.

وهكذا كان المسلم آنذاك يظهر إسلامه بشخصية عالية وعزة متناهية حتى وهو بين أحضان الكفار وعند ملوكهم، وماذاك إلا لقوة المسلمين وظهور دولتهم على دول الباطل وعدم خضوعهم لأعداء الإسلام.

ولقد كان لهذه الصور القوية التي أبرزت عظمة الإسلام في نفوس المسلمين وقوة تأثيره على سلوكهم الأثر البالغ في جذب الناس إلى اعتناق هذا الدين الحنيف لما يَشْعر به المنتمي إليه من عزة وحصانة في الدنيا ومآل سعيد خالد في الحياة الآخرة.

وقد استشار ملك السند وزيره سياكر فنصحه بالموافقة على عبور المسلمين مسوِّغًا ذلك بانقطاع المُؤن والإمدادات عن المسلمين إذا عبروا النهر فيسهل القضاء عليهم، وكان في جيش داهر قوم من العرب من العُلافيِّين بقيادة محمد العلافي،

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ١٨٠، فتوح البلدان ٦١٤.

وهم عـرب تمردوا على دولة الإسلام ولحـقـوا بملك السند فكانوا يحـاربون معـه المسلمين، فاسـتشار داهر مـحمد العلافي فـأشار بعدم تمكين المسلمين من العـبور وعلل ذلك بأنهم أشـداء في الحـرب وأن لهم هدفين في القـتال إمـا النصر وإمـا الموت، وحيث إنهـم لا يفرون فمن الصـعب على أعدائهم هزيمتـهم، كمـا أشار بتسليط اللصوص عليـهم لنهب الغلات والمواشي والعلف من كل مكان قريب من المسلمين حـتى ينتشـر بينهم الجـوع والمرض فيـتفـرقوا ويسـهل عند ذلك قتـالهم وهزيمتهم.

وقد تحـيَّرَ الملك بين الرأيين فقـرر أن يترك الخيار لـلمسلمين في ذلك، ووقف بجيشه على الشاطئ الشرقي للنهر، وقرر محمد بن القاسم عبور النهر، وفي هذا الوقت وصل إليه خطـابان من الحجاج يأمـره فيهـما بالتجلد والشـجاعة وسـرعة العـبور من موضـع مناسب، ويطلب منه إرسال خـريطة للنهـر لدراستهـا وإبداء الرأي.

وفي الوقت نفسـه استعد الملك داهر فـوقف بجيشه على الشـاطئ الشرقي من النهر وأمر بعض قـواده بالمرابطة بالسفن في الجانب الذي يسهل منـه العبور ليُلجئ المسلمين إلى العبـور من المواضع الخطرة، وكان يريد القضاء عليـهم وهم في حال العبور.

وقـد توقف ابن القاسم عن الـعبـور لمواجهـة خطط ملك السند ولأن منطقـة سيوسان انتقـضت عليه فوجه أحد قادته بجيش لإعادة فتـحها حتى يكون الطريق من خلف الجيش الإسلامي في أمان.

ونظرًا لتأخـر ابن القاسم في العـبور ما يقـرب من خمسين يومًـا ولِمَاَ قامت به العصـابات من سحب المؤن والأعـلاف والأغذية من حول المسلمـين فقد أصـيبت خيول المسلمين بالمرض.

وقد اغتنم داهر ذلك الوضـع السيئ بالنسبة للمسلمـين فأرسل إلى ابن القاسم يعرض عليـه تقديم مساعدة غـذائية في مقابل أن ينسـحب المسلمون إلى الخلف، ولكن ابن القاسم رفض ذلك بشدة وكرر قولـته المشهورة بأنه لن يترك أرض السند قبل أن يرسل رأس داهر إلى الحجاج في العراق.

وهكذا كان قـادة المسلمين وجنودهم يتمـتعون بالصـبر على الشدائد ومـصابرة الأعداء حتى ينزل عليهم الفرج من الله تعـالى، ولقد نال المسلمون بالصبر الطويل نتـائج معـارك طالت مدتهـا واكتنفـتهـا الأهوال، وكان أبرز الفـوارق بينهم وبين أعدائهم أنهم أكثر منهم صبرًا على حر القتال واحتمال الشدائد.

وجاء الفرج من الله تعـالى حيث علم الحجاج بن يوسف بمـا وصلت إليه حال الجيش هناك فأسرع بإرسال ألفين من الخيـول العربية الأصيلة والمواد الغذائية والخلِّ المجفف في القطن المحلوج، وذلك للطعام والدواء.

كما أن الحجـاج قام برفع معنوية محمد بن القاسـم حتى لا يضعف أمام تلك الأهوال حيث عينَّه واليًـا على بلاد السند كلها وفوض إليه الأمور ليـتصرف كيف شاء، ولكنه في الوقت نفسـه حذره من الصلح وشجعه على عبـور النهر والقضاء على داهر مهما كلفه ذلك، وأشار عليه بأن يعبر النهر من منطقة «بت» حيث يقل العرض والماء ويسهل العبور، وذلك بعد دراسته لخارطة البلاد، ونصحه أيضًا ببناء جسر على الماء من القوارب لكسب الوقت في العبور ومجابهة الأخطار.

وهذا موقف يذكر للحجاج بن يوسف حيث كان وراء ذلك الانتصار الباهر في بلاد السند وفي غيرها من بلاد المشرق.

هذا وقد رتب محمـد بن القاسم الخطط الحكيمة لعبور الـنهر حيث كان يدرك جيـدًا أن خطة الملك داهر أن يقضي على جـيشه أثناء العـبور، فأرسل فـرقة من ستمائة فارس بقيادة سليمان بن نبهان القرشي نحو الحدود الغربية لمدينة راور حتى يمنع الأمير جيسيه ابن الملك داهر من التحرك وقت عبور الجيش، وأرسل فرقة من خمســمائة فارس لمراقـبة طريق منطقة كنداره لمنع وصول الإمـدادات لجيش داهر، وأمر فرقة ثالثة بقيادة كبار التكاكرة من أهل المنطقة للوقوف في جزيرة بَتّ للدفاع، وفرقة إلى جيبور قرب راور لمواجـهة جيش داهر في خليج يقع بين روار وجيبور، وأمر بَهَنْدركن الحاكم النيروني الذي اتخذه مسـتشارًا له بجمع الغلة وتوفير العلف للجيش استعدادًا للعبور.

بعد هذا الاحتياط الكافي قرر المسير نحو الشاطئ ثم العبور وأرسل أمام الجيش فِرَقًا استطلاعية، ووصل بجيشه إلى الشاطئ بأمان فأمر بإحضار المراكب ليعمل منها جسرًا يتم العبور عليه وكان قد أمر بتعبئتها بالرمال والأحجار لتثبت في النهر ثم أمر بتسميرها بالألواح الخشبية حتى تم عمل الجسر، ثم أمر الفِرقَ الفدائية بالتوجه بسفنهم إلى جهات متعددة لحماية الجيش أثناء العبور، وزحف الجيش الإسلامي فوق المراكب ليلاً بإتقان وسرعة وحذر حتى تم عبورهم إلى الشاطئ الشرقي.

كل ذلك والملك يغط في نومه في عاصمته، وكان قد انشغل باللهو والصيد ولعب الشطرنج اعتمادًا على نجاح خططه التي دبَّرها لإبادة المسلمين أثناء محاولات العبور التي يبدو أنها كانت صعبة للغاية لولا عناية الله تعالى ثم التدابير المحكمة التي خطط لها ابن القاسم ثم نفذها بتوجيه من الحجاج بن يوسف.

وما أن وصل المسلمون إلى الشاطئ الشرقي حى بادروا بالهجوم ليلا على قوات الملك داهر المرابطة فانزعجوا وانهزموا، وهرب قواد الملك إلى العاصمة وأخبروا الملك داهرًا بالخبر فانزعج لذلك وكاد يفقد وعيه(1).

وهكذا نجحت خطط المسلمين بقيادة أميرهم الشاب محمد بن القاسم الثقفي لاعتمادهم قبل كل شيء على الله تعالى وشعورهم القوي بالمسئولية المنوطة بهم وانصرافهم إلى الجد في كل أمورهم واغتنام كل الفرص المتاحة لهم، بينما فشلت خطط الملك داهر التي اعتمد فيها على مجرد الرأي والتدبير والخبرة الحربية، وقد حمله بُعده عن الله تعالى واعتماده الكامل على خططه.. حمله ذلك على الغرور والغفلة وإضاعة الفرص المناسبة حتى داهمه الجيش الإسلامي وهو في لهوه وغفلته.

ولما علم ملك السند داهر بما حل بذلك الجيش بعث جيشًا آخر بقيادة محمد العلافي وهو الذي سبق أن ذكرنا أنه وجماعة معه من العرب المتمردين على دولة الإسلام، فبعثه ملك السند لخبرته بقتال العرب، ولكنه ما أن واجه جيش المسلمين حتى رموه بالسباب وعيروه بالخيانة حتى انهزم وتقهقر إلى الوراء.

---

(1) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ١٨١ - ١٨٦، فتوح البلدان / ٦١٥، الكامل في التاريخ ٤/ ١١١.

فلما علم بذلك ملك السند أرسل جيشًا كبيرًا بقيادة ابنه الأمير جيسِيه فخرج بجيشه ومعه عدد من الفيلة المقاتلة، ووجه له ابن القاسم جيشًا بقيادة عبد الله بن علي الثقفي الذي حارب بشجاعة وقتل كثيرًا من جنود العدو وقام بهجوم خاطف على قلب الجيش السندي وحاصر القواد وقتل معظمهم، فهرب الأمير جيسِيه من المعركة وانتصر جيش الإسلام.

ولما علم الأمير «راسل البوذي» أحد كبار القادة والحاكم الجديد لمنطقة بَتّ أن الأمير جيسيه انهزم وفر هاربًا أدرك أن الغلبة للمسلمين، فأرسل مبعوثًا إلى محمد ابن القاسم بأنه يريد المبايعة والانضمام إليه، وطلب منه أن يرسل جيشًا صغيرًا لأخذه أسيرًا إليه في أثناء توجهه إلى الملك داهر حتى لا يلومه قومه، فخرج راسل من المدينة وولَّى والده عليها وطلب منه أن يستسلم للمسلمين إن قدموا عليه، وأرسل محمد بن القاسم جيشًا من الفرسان وأسروا راسل فعاهد على الولاء والعمل تحت راية الإسلام.

وهكذا استسلم حاكم هذه الولاية وعاهد على العمل مع المسلمين كما فعل ذلك قبله حاكم الولاية السابق وحكام آخرون، وهي ظاهرة غريبة لم تقع بهذا الشكل في سائر الفتوحات العالمية، وهذا راجع بالدرجة الأولى إلى ما كان يتمتع به حكام المسلمين وأمراؤهم في الغالب من العدالة والمواساة لمن تحت أيديهم من المسؤولين والرعية، وكان ابن القاسم مثالا لهذه الأخلاق الكريمة فاجتذب بسمو أخلاقه والتزامه بآداب الإسلام أولئك الأمراء، واستفاد من خبرتهم في بلادهم كثيرًا حيث ضمهم إلى جيشه وجعلهم مستشارين.

وأمر آخر لعله كان دافعًا لهذا التوجه بهذا الشكل الظاهر من أولئك الأمراء، وهو كونهم جميعًا يعتنقون الديانة البوذية بينما كان داهر برهمي المذهب، وكان البراهمة يعيشون في كبر وخيلاء ويحتقرون الناس من حولهم ويعتقدون أنهم آلهة وأن الناس عبيد لهم، فولَّد ذلك في نفوس الناس كراهية لهم وحقدًا عليهم، فلما سنحت الفرصة للأمراء البوذيين للتخلص منهم اغتنموا ذلك ورأوا في المسلمين خير بديل عنهم لما رأوا فيهم السماحة والعدل والتواضع على خلاف ما ألفوه من البراهمة.

واغتنم ابن القاسم هذه الفرصة فمنح هؤلاء ثقة كبيرة وأكرمهم وأشعرهم بوجودهم كأمراء لهم مكانتهم بين قومهم فأفاد الجهاد الإسلامي فائدة كبرى بكسب رأي هؤلاء وخبرتهم ومساندتهم جيش المسلمين بالجنود والعتاد الحربي.

بعد ذلك استعد ابن القاسم لقتال الملك داهر، فانتقل إلى موضع يقال له نارائي ومعه الأمير راسل والأمير موكه، وكان الملك داهر يعسكر في موضع قريب منه يقال له قاجيجاق وكانت بينهما بحيرة، وقد أشار راسل بضرورة عبور البحيرة وأحضر القوارب، ونقل عليها الجنود في ظلام الليل إلى داخل خليج هناك، ثم تقدموا قليلاً نحو مدينة جيبور حتى وصلوا عند نهر دوهاواه الذي تقع عليه قرى كثيرة، فعسكروا هناك ليسهل القيام بالهجوم على الملك داهر من الأمام والخلف.

وعلم داهر بوصول المسلمين إلى جيبور فترك أسرته في قلعة راور وتحرك بجيشه ووقف على بعد فرسخ من المسلمين، وتقدم محمد بن القاسم ووقف على بعد نصف فرسخ، واستعد الجيشان للحرب المصيرية.

وبدأت الحرب بتقابل فرق من الجيشين لمدة أسبوع، بدأت بعدها الحرب الشاملة التي انتهت بعد ثلاثة أيام بانتصار المسلمين وكان النصر في جميع تلك اللقاءات لجيش المسلمين.

ولما رأى الملك داهر تلك النتائج السيئة لجيوشه قرر أن يخوض المعركة النهائية بنفسه، فجمع قواته كلها التي بلغت مائة وعشرين ألفا يقودها خمسة آلاف فارس من أبناء الأمراء والقواد المشهورين، ومعهم عشرة آلاف فارس بكامل تجهيزهم وثلاثون ألفًا من المشاة المجهزين بالدروع والسهام والرماح إلى جانب عشرات الألوف من أفراد القبائل المختلفة، يتقدمهم مائة من الفيلة الرهيبة التي كانت أخطر ما يواجهه المسلمون من سلاح الأعداء.

ونظَّم ابن القاسم جيشه فجعل على المقدمة عطاء بن مالك القيسي مع جيشه من الفرسان، وجعل جهم بن زحر البجعي مع جيشه من الفرسان على الميمنة، وجعل ذكوان بن علوان البكري على الميسرة ونباتة بن حنظلة الكلابي في المؤخرة، وبقي هو في القلب ومعه محرز بن ثابت وبعض القواد من العرب والسند، وأعلن في الجيش بأنه إذا قُتل في الميدان فالقيادة العليا لمحرز بن ثابت.

وبدأت المعركة فتقدم محرز بن ثابت بفرقته من القلب فاستشهد وتقهقرت فرقته، وكذلك تقدمت فرقتان فانهزمتا بسبب الهجوم الشرس من الفيلة[1].

هذا وقبل الحديث عن المعركة فإنه لابد من الإشادة بموقف محرز بن ثابت الذي ولاه محمد بن القاسم قيادة الجيش من بعده فيما لو استشهد.

وإذا نظرنا إلى الموضوع من الناحية الدنيوية التي يتسابق الناس فيها على التسلق نحو درجات المجد والشهرة وما يتبع ذلك من الحصول على الأموال والتمتع بطيبات الحياة.. إذا نظرنا إلى ذلك فإن الحال تقتضي أن يحاول هذا القائد البديل أن يحمي نفسه من بأس الأعداء بمجموعة من الحراس حتى يُبقي على حياته ليتبوأ ذلك المنصب المرتقب، ولكن المسلمين الصادقين من أمثال محرز بن ثابت تهون عليهم أنفسهم وحياتهم الدنيا بما فيها من مجد ورفعة في سبيل إعزاز الدين وإعلاء كلمة الله تعالى، فلذلك كان أول مغوار فدى أمته بنفسه حتى خرَّ صريعًا تحت أقدام الفيلة وخيول الأعداء، فلله دَرُّهم ما أكبر همتهم وما أبعد غايتهم!

ولما رأى محمد بن القاسم ما أصاب بعض المسلمين من الانهزام والتقهقر أمام جيش الفيلة ناداهم بأعلى صوته وحثهم على الصبر والجهاد فقاموا بحملة قوية على الجيش السندي وقتلوا تسعة من الفيلة فتشجعوا بذلك، وأخذ الكفار يتقهقرون إلى الخلف حتى توقف القتال عند المساء.

وانتهى اليوم الأول من هذه المعركة الكبرى، وقد أبلى المسلمون بلاءً حسنًا وأخذوا فيه خبرة كافية عن سلاح الأعداء وقوتهم وتخطيطهم الحربي.

ولقد كان لابن القاسم موقف يذكر حيث كان رابط الجأش ثابت الجنان بالرغم من صغر سنه، فلم يتزعزع حينما رأى المسلمين يتفرقون ويتضعضعون أمام الفيلة، بل ثبت وناداهم بقوة ليجتمعوا وليبذلوا طاقتهم في قتال عدوهم.

وإنَّ توفر هذه المقدرة الفائقة عند ابن القاسم.. من الشجاعة الفائقة ودقة التخطيط وحسن التدبير والثبات عند المواقف الصعبة مع أنه كان في سن الشباب دليل واضح على تفوق المسلمين في مجال التربية، وأنهم كانوا يهتمون بتأهيل

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ١٨٧ - ١٩٠، فتوح البلدان/ ٦١٥.

أبنائهم منذ الصغر للمجالات التي ينَشدُون تفوقهم فيها، إذ أن مثل هذه المقدرة لا تتوفر في سن مبكرة بغير الإعداد التربوي الجاد المنظم.

ولقد كان جديرًا بقول الشاعر فيه:

إن السماحة والمروءة والندى ... لمحمد بن القاسم بن محمد

ساس الجيوش لسبع عشرة حجة[1] ... يا قُربَ ذلك سُؤددًا من مولد

كان هذا اليوم الأول من المعركة يوافق يوم الأربعاء التاسع من رمضان المبارك من عام ثلاثة وتسعين للهجرة كما ذكر المؤرخون.

وفي يوم الخميس الموافق للعاشر من رمضان استُؤنفت المعركة بين الطرفين، وقد حصل تغيير لبعض مواقع القادة من الجانبين حسبما تقتضيه ظروف المعركة.

ولقد كان مما خرج به الأعداء في اليوم الأول أنهم أدركوا خطورة سلاح الفيلة على المسلمين فعزموا على تركيز هجومهم بالفيلة في اليوم الثاني، كما أن المسلمين أدركوا ذلك فعزموا على توجيه اهتمامهم في القضاء على تلك الفيلة، وكان مع المسلمين ثلاثة منجنيقات يحركها ويرمي بها تسعمائة من الرماة، فقسم ابن القاسم هؤلاء إلى ثلاث فرق وأمرهم بأن يشعلوا النيران وأن يوجهوا قذائفهم المشتعلة بالنفط نحو الفيلة والمجموعات التي تقودها.

وبدأ المسلمون يومهم ذلك بعد صلاة الفجر بسماع خطبة حماسية ألقاها قائد المسلمين الشاب، حثهم فيها على النصر والثبات ومواصلة القتال مهما كانت الظروف، وذكَّرهم بالله تعالى وما أعده لعباده المؤمنين الصابرين.

وبدأت المعركة بهجوم فرقة من مائتي فارس من المسلمين بقيادة نبهان أبو فقيه القشيري، وتقدم لها فرقة من السند فانهزموا أمام المسلمين وقُتل كثير منهم، وكانت بداية طيبة رفعت معنوية المسلمين.

وتلا ذلك اشتباك بين فرق من الجيشين، وبدأ الرماة بالقذف بالسهام المشتعلة بالنفط من المجانيق على قلب الجيش السندي الذي تصدَّرتْه الفيلة، فحصل للسند

---

(١) أي لسبع عشرة سنة، وذلك محمول على ابتداء أمر إمارته وقيادته حيث تولى إمارة خراسان عام ثلاثة وثمانين للهجرة.

فـزع واضطراب، وتفرَّقَ جـمعُـهم قليـلاً حتى تمكـن المسلمون من الدخـول في جيشهم.

وكان أحد قادة المسلمين وهو «الشجاع الحبشي» قد أقسم أن لا يذوق الطعام إلا إذا هجم على فيل داهر، وكـان قائد الفيلة، وهو فيل ضـخم أبيض اللون، فربط الحبشي عينـي فرسه حتى لا يهيج من الفيلة وهجم على الفـيل الأبيض وجرحه، فهاج وتأثرت بذلك بقـية الفيلة وأخذت تصيح وتميل شـمالاً ويمينًا وأحدثت خللا في توازن الجيش، ولكن داهر اسـتطاع أن يرمي الحَبَشي بسـهم قاتل فوقع شهـيدًا رحمه الله تعالى[1].

وهكذا قام هذا الفدائي المسلم بعمل يقربه من الله تعالى وأقدم على عمل يرجو فيه الشهادة والإثخان في العدو ونصْر المسلمين فتحقق له ما أراد.

وهذا من النماذج الكثيرة التي لا تتوفر لدى غير المسلمين إلا بنسبة قليلة وبدافع من تعويض مادي كبير أو منصب رفيع يرجو فيـه صاحبه أن يُحظَى بالنجاة ليتمتع بذلك العوض، وهذا الرجـاء يُضعف من مقدرة الفـدائي وإقدامه كثـيرًا لأن الهمَّ الكبير الذي يستولي عليه هو أن يدافع عن نفسه حتى يظفر بالحياة التي علَّق عليها الآمال السـعيدة، بينمـا يندفع المسلم بكل طاقته في الهـجوم لعله يظفر بالشـهادة ليُحظَى بالحياة السعيدة في الآخرة، حيث يعلق عليها كل آماله السعيدة، وفرق كبير بين من يقاتل ليُقْتَل وبين من يقاتل ليبقَى على قيد الحياة.

وهكذا كانت جيـوش المسلمين في ذلك العصر الذهبي إلى جـانب كونها تضم القادة الأكفـاء الذين يقدِّرون الكفاءات ويستشـيرون أهل الرأي ويعيشون قضـيتهم بكل أحاسيسـهم فإنها كانت تضم الجنود المخلصين الذين جعلوا قضـيتهم الكبرى هي نصر الإسلام والمسلمين وإغاظة الأعداء ودحر الجبابرة والظالمين.

وفي أثناء القتال توجهت طائفة من قواد السند وجنودهم نحو محمد بن القاسم طالبين الأمان فأعطاهم الأمان وأعلنوا إسلامهم أمـامه، وكانت هذه أول مجموعة كبيرة من أتباع الديانة البرهمية من قواد الملك داهر وجنوده تدخل الإسلام برغبتها

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ١٩٢ - ١٩٤، فتوح البلدان/ ٦١٥.

في أيام الفتوحـات، وقد عرض هؤلاء القواد والجند على محـمد بن القاسم خطة عسكرية ليثبـتوا صحة إيمانهم وولائهم، بأن يأذن لهم أن يقوموا بمهاجـمة مؤخرة جيش داهر علـى غفلة على أن يقوم الجـيش الإسلامي في الوقت نفـسه بهـجوم شامل من الأمام، ووافق مـحمد بن القاسم على الخطة، وجـعل مروان بن أشحم اليمني، وتميم بن زيد القيسي عليهم، فَفَاجأُوْا العدو بالهجوم الخاطف العنيف من الخلف، وكذلك من الأمـام، فأذهلوهم بذلك وقُـتل كثيـر من جيـشهم فهـاجوا وحميت المعركة[1].

وهذا مثل من أمثلة كثيـرة تدل على عزة المسلمين وقوة تأثيرهم على أعدائهم، فإن هؤلاء انفـصلوا عن جيش قومـهم، ولم يكتفـوا بمجرد الانضمـام إلى جيش المسلمين بل أعلنوا إسلامـهم وبرهنوا على صحة عـقيدتهم بالخطة الحربيـة الرائعة التي اقـترحـوها على قـائد المسلمين، وهذا دليل واضح على أن الدافع لهم كـان إعجابهم بالإسلام وصدق توجههم نحوه، إذ لو كان الدافع مجرد عداء بينهم وبين قومهم لاكتفوا باللجوء إلى جيش المسلمين أو إعلان الانضمام إليهم في القتال ولم يتخطوا ذلك إلى التخلي عن دينهم والدخول في دين الإسلام.

وكان من آثار ثبات المسلمين الرائـع وما قام به بعضهم من مواقف فـدائية، وما تم من إسلام بعـض أهل السند وانضمامـهم إلى جيش المسلمـين. . كان من آثار ذلك أن جيش السـند أخَذَتْهم الحمـية فـشدَّدوا هجومـهم على المسلمين من كل جانب، وحملوا حملة جمـاعية في محاولة مستميتـة لكسب نهاية المعركة، وكان لتلك الحملة المركزة أثر في اضطراب جيش المسلمين بعض الوقت، فلما رأى ذلك قائد المسلمين مـحمد بـن القاسم الثقـفي نادى أبطال المسلمين وقادتهم بأسـمائهم حتى اجتمـعوا ثم علت أصواتهم بالتكبير حتى مـلأت الآفاق وكانت على الأعداء كالصواعـق المرسلة ففزع الجيش السندي وتحـيروا، وحمل عليهم المسلمـون حملة صادقة حتى قـتلوا عددًا كبيرًا من جنود العدو وقـادتهم وبعض الفيلة حتى لم يبق مع داهر من فرسانه من أبناء الأمراء والقادة الكبـار إلا ألفًا من خمسة آلاف، وهو دليل على قوة إثخان المسلمين بجيش عدوهم.

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ١٩٣ - ١٩٤، فتوح البلدان/ ٦١٥.

وفي الوقت الذي اشتـدت فيه حملة المسلـمين أمر ابن القاسم رماة المنجنيـقات بأن يصَوِّبوا سـهام النار المشـتعلة بالنفط نحو هـودج فيل داهر، فأصـيب الهودج بالحريق، وعطش الفيل من الحرارة فاتَّجه به داهر نحـو النهر ليسقيه وليطفئ النار، وكان حوله بعض القـادة لحمايته، فطاردهم المسلمون وأمـطروهم بوابل من السهام ثم اشتبكوا معـهم في قتال شديد، ونزل داهر من فيله وقاتل حـتى قتله عمرو بن خالد الكلابي، وأسرع بعض قـادة السند فأخفوا جثـته في خليج راور، ثم توقف القتال عند المساء بانتصار حاسم للمسلمين(١).

فتح مدينة راور:

بعد انتهاء المعركة الفاصلـة مع جيش السند ومقتل ملكهم داهر توجه المسلمون بقيادة محمد بن القاسم لفتح مدينـة راور التي جرت حولها تلك المعركة الحاسمة، وقد دخلها المسلمون إلا أن قلعـتها بقيت محصنة بفرقة كـبيرة من الجيش السندي وعلى رأسها الأمير جيسيه ولي العهد، وقد قرر جيسيه مواصلة القتال، لكنه أخيراً قبل مشورة وزيره سـياكر ومحمد العلافي بترك القلعـة والسير إلى مدينة برهمناباد لقوة تحصينها، وقررت زوجة الملك داهر «بائي» الـبقاء في القلعة مع النساء وفرقة من القادة والجيش للدفاع عنها.

وقد توجه مـحمد بن القاسم إلى القلعة فـرفض أهلها التسليم، فأمـر بضربها بالمنجنيقات، وقـسم جيشه قسـمين: قسم يقاتل بالنهار بالسهـام والرماح، وقسم يقاتل بالليل بالقذائف الحجرية والنارية من المنجينقات حتى هدمت الأبراج.

ولما رأت الملكة «بائي» أن المسلمين كـادوا يفتـحون القـلعة جـمعت الأمـيرات وأحرقن أنفـسهن بالنار ليلحـقن بأزواجهن تطبيـقًا للتقـاليد الدينيـة السائدة بتلك البلاد.

وتم فتح القلعـة ودخلها محـمد بن القاسم وكـان بها ستة آلاف جندي فـأمر بقتلهم لرفضهم الاستسلام(٢).

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ١٩٤ - ١٩٦،وانظر البادية والنهاية باختصار ٩/ ٩٢.

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي ١/ ١٩٦، فتوح البلدان ٦١٦

وفي هذا الخبر مثل من تأثير العقائد الجاهلية على أصحابها بالهلاك والخسران في الدنيا والآخرة، فهؤلاء النسوة اللاتي أحرقن أنفسهن قد تعجلن عذاب النار في الدنيا، ولو كان في اعتقادهن أنهن إن فعلن ذلك سيخلدن في الآخرة في نار جهنم وأنهن لو دخلن في الإسلام سيخلدن في جنات النعيم وينجون من عذاب النار لسارعن إلى الدخول في الإسلام.

فالعقل الرشيد السليم يهدي صاحبه إلى سعادة الدنيا والآخرة، فالذين دخلوا في الإسلام على يد ابن القاسم أصبحوا أمراء وقادة في بلادهم، وهذا من سعادة الدنيا، مع ما ينتظرون من السعادة العظمى في الآخرة.

أما الذين وقفوا ضد دعوة الحق وحاربوا دعاته فقد باؤوا بالخسران والهلاك بأنواع القتل في الدنيا وسيبوؤن في الآخرة بالخلود في نار جهنم.

فتح بهرور ودهليلة:

تحرك محمد بن القاسم من راور متوجهًا إلى برهمناباد التي تحصن بها جيسيه، وكان عليه أن يفتح مدينتين محصنتين في طريقه إلى برهمناباد وهما بهرور ودهليلة.

فقد توجه أولاً إلى مدينة بهرور وهي على بعد فرسخ من برهمناباد وفيها نحو خمسة عشر ألف جندي، فحاصرها وقاومه أهلها أيامًا فرماها المسلمون بالقذائف الحجرية والنارية من المنجنيقات حتى هدمت جدرانها وأبوابها وقتل معظم من فيها فدخلها محمد بن القاسم، وولى عليها حاكمًا من المسلمين.

ثم سار إلى مدينة دهليلة وكان بها نحو ستة عشر ألف جندي فحارب أهلها بشدة حتى هرب حاكمها الأمير ديوراج وهو ابن عم داهر ومعه بعض سكانها في الليل نحو بلاد الهند، فاستولى عليها المسلمون، وولي عليها ابن القاسم نوبة بن هارون كما فوض إليه الإشراف على حركة السفن في تلك المنطقة(١).

انضمام الوزير سياكر إلى المسلمين:

قبل فتح برهمناباد كان محمد بن القاسم قد بعث برسائل إلى الأمراء والوزراء يدعوهم فيها إلى الإسلام أو الطاعة مع ضمان الأمان لمن أجاب إلى ذلك، فلما

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ١/ ٢٠٠ - ٢٠١..

علم بذلك «سياكر» وزير الملك داهر بعث رجـلاً إلى محمد بن القاسم وطلب منه الأمان، فأعطاه ذلك، وحضر الوزير إليه ومعه بقية النسوة المسلمات اللاتي كن قد استغثن بالحجاج، فاستقبله محمد بن القاسم بكل تكريم وأهدى إليه هدايا ثمينة، وفوض إليه مهمة الوزارة وصار يستشيره في أمور الدولة والمهمات الحربية[1].

هذا وإن ما حدث من انضـمام هذا الوزير إلى جيش المسلمين مع رفـعة منزلته في دولته ومـا حدث من انضمـام بعض أمراء السند كـما تقدم يدلنا على أهمـية مكارم الأخلاق في سـياسة الأمم، فـقد كان محـمد بن القاسم يتـصف بالحكمة والعدالة وتقـدير وجهاء البـلاد، وإنزال الناس منازلهم، ولقد كان لهـذه الأخلاق الكريمة أثر في اجتذاب زعماء السند إلى الإسلام، ولا ينبغي لنا مع ذلك أن نغفل جانب القوة، فإن ظهور قوة المسلمين يجعل زعـماء البلاد يخضعون لعزتهم ويتيح الفرصة لعقولهم كي تفكر تفكيرًا سليمًا في مستقبل أمرهم وأمر بلادهم، وإذا كان هؤلاء الزعمـاء يرون أن قائد أعـدائهم قد قرَّب سـاسة بلادهم الذين دخلوا مـعه وأسند إليهم المناصب المهمة فإن هؤلاء الزعماء لن يفقدوا بإسلامهم مناصبهم التي هي العائق الـكبير بينهم وبين الإسـلام، والتي من أجلها يحـملون جنودهم على حروب لا يعلمون ما هو مصيرها.

فتح إقليم برهمناباد:

تولى الأمر بعـد داهر ابنه جيسيـه وهو رجل سياسي شـجاع ولذلك اهتم ابن القاسم بالقـضاء عليه حـتى لا يعود إلى حكم بلاد السند وقد كـان جيسيـه أخذ بمشورة مسـتشاريه فانتقل إلى بلدة برهمناباد لوجـود حصن منيع فيها فـتحصن به وجمع إليه قواته من أنحاء السند، وكان معه في ذلك التجمع ستة عشر ألف قائد ومعهم عشرات الآلاف من الجنود.

وقـد استـفاد قـادة السند من تجاربهم مـع المسلمين في الحرب فـرأوا أنه ليس بإمكانهم مهمـا بلغ عددهم أن يقاوموا المسلمين في الصحراء وجـهًا لوجه، فكان من تخطيطهم أن يتحصنوا بذلك الحصن المنيع وأن يُخرجـوا فرقًا كبيرة من الجيش لقتال المسلمين فإذا انهزموا لجَأُواْ إلى الحصن.

---

(١) المرجع السابق / ٢٠١ - ٢٠٢.

ولما علم بذلك ابن القاسم سار بجيشه حتى وصل قرب تلك المدينة، وأرسل رسولاً إلى الأمير جيسيه وأهالي برهمناباد يدعوهم إلى الإسلام أو الاستسلام مع دفع الجزية وإلا فإنه سيقاتلهم بشدة، فرفض جيسيه ذلك وقرر الحرب، وعندئذ أمر محمد بن القاسم بحفر الخنادق، ووزع الجيش إلى فرق ووحدات استعداداً للقتال.

ثم بدأت المعارك فكانت تخرج فرقة كبيرة من الجيش السندي مكونة من أربعين ألف جندي فيواجهها الجيش الإسلامي ثم تعود منهزمة عند المساء إلى المدينة فتتحصن بها، واستمرت المعارك على هذه الطريقة لمدة شهرين، ثم توقف القتال بين الطرفين لأن جيش السند قرر التحصن داخل المدينة.

ولقد ساءت حال الجيش الإسلامي لطول مدة الحصار وقلة الموارد الغذائية، فأرسل ابن القاسم إلى الأمير موكه بن بسايه حاكم منطقة بَتّ يستشيره في الأمر فأجاب بضرورة طلب قوات أخرى حتى يضطر الأمير جيسيه إلى الجلاء عن تلك المنطقة.

وقد أخذ ابن القاسم بهذا الرأي فكتب إلى نوابه من الأمراء المسلمين على المناطق المفتوحة لِيَمُدُّوْا الجيش الإسلامي بالعدد الكافي من الجنود، ووفد عليه أولئك الأمراء وعلى رأسهم حاكم منطقة بتّ، فلما رأى الأمير جيسيه الجيوش قادمةً لإمداد الجيش الإسلامي أصابه الرعب وانسحب من تلك المدينة بأسرته وذهب إلى منطقة جيتور على الحدود الهندية، بينما افترق عنه محمد العلافي العربي المتمرد على دولة الإسلام الذي سبق ذكره هو ومن معه من العرب فاتجهوا نحو بلاد كشمير.

وهكذا شتت الله تعالى شمل الأعداء حيث أوقع في قلوبهم الرعب وخالف بين آرائهم.

ومن المواقف التي نلاحظها في هذه المعارك مقدرة المسلمين الفائقة على الصبر على الشدائد ومصابرة الأعداء بالرغم من كون الأعداء متحصنين في بلادهم المنيعة.

ومن تلك المواقف مقدرة محمد بن القاسم العالية في كسب القلوب واكتساب الأنصار من غير المسلمين وعدم الاعتداد بالرأي حيث استشار حاكم منطقة بتّ السندي وأخذ برأيه فكان ذلك سببًا في جلاء أعدائه وتفرقهم، وقد كان ما اشتهر به ابن القاسم من العدل والحكمة ودماثة الخلق سببًا مباشرًا لذلك الولاء الذي تم بينه وبين حكام السند الذين خضعوا لحكم الإسلام.

وبعد خروج جيسيه من مدينة برهمناباد تم فتحها وإخضاعها لحكم المسلمين وقام ابن القاسم بتنظيم أمورها بما يتفق مع حكم الإسلام، وكان رحيمًا عادلاً مع الأهالي الذين لا يحملون السلاح ضد المسلمين.

وبعد أن تم فتح هذه المدينة المحصنة بقي محمد بن القاسم فترة من الزمن يقوم بتنظيم أمور البلاد الإدارية، فعين حكامًا من المسلمين العرب على مناطق السند وكان اختياره لأولئك الأمراء مبنيّا على كفاءتهم الإدارية والحربية مع النظر إلى احتياج البلاد لتلك الكفاءات حسب تنوعها، ولذلك كان ينقل بعض الأمراء إلى مناطق يرى أنها أحوج إليهم من مناطقهم الأولى(١).

ولا شك أن توفر الرجال الأكفاء مع ابن القاسم كان له الأثر الكبير في نجاحه في أعماله الحربية وأعماله الإدارية، إلى جانب ما تحلى به هذا القائد من الحكمة ورجاحة العقل وحسن التدبير، فاستطاع بهذه الأخلاق العالية أن يوجه طاقات الرجال الأكفاء معه بتعيين الرجل المناسب في المكان المناسب.

احتواء القبائل المتوحشة:

ولما انتهى من تنظيم أمور البلاد الإدارية تفرغ للتفكير في القبائل المتوحشة مثل قبيلة الزط التي انصرف أفرادها للأعمال اللصوصية حيث كانوا يخيفون الآمنين ويقطعون السبل فاستشار في أمرهم كلاً من الوزير السندي سياكر وموكه حاكم منطقة بتّ فذكرا له أن هذه القبائل لا يمكن أن تخضع إلا بالقوة وأن حكام السند كانوا يعاملونهم بالقسوة والإذلال وكانوا يلزمونهم بلباس معين حتى يحذر الناس

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ٢٠٢ - ٢٠٥، فتوح البلدان للبلاذري/ ٦١٦، الكامل لابن الأثير ٤/ ١١٢.

منهم، وكانوا إذا قبضوا على أحدهم متلبسًا بالسرقة حكموا عليه وعلى جميع أفراد أسرته بالحرق.

ولما سمع ذلك منهم ابن القاسم أخذ تلك القبائل مؤقتًا بالحزم، وأمَّر عليهم أفضل قادته وهو خريم بن عمرو المدني المعروف بالتقوى والشجاعة والسياسة، ثم بدأ يضم أفراد هذه القبائل مع الجيوش الإسلامية، فلما رأوا كرم الوفادة وحسن المعاملة ارتفع مستواهم الفكري ودخل كثير منهم في الإسلام وتحسنت أخلاق من بقي منهم، ولم يبق على الطباع الشرسة والوحشية إلا الذين اعتصموا بمناطقهم ولم يختلطوا مع المسلمين(١).

وهذا موقف يذكر لمحمد بن القاسم وقادته العظماء وعلى رأسهم خريم بن عمرو المدني الذي أوصى الحجاج محمد بن القاسم بأن يلازمه دائمًا، لفضله ودهائه وشجاعته، حيث تحوَّل كثير من أفراد هذه القبائل المتوحشة إلى أعلى المستويات الحضارية، فدخل أكثرهم في الإسلام، ومن لم يدخلوا فيه تأثروا بأخلاق المسلمين ومعاملتهم الكريمة ونبذوا ما كانوا ألفوه من العادات الرذيلة.

فتح مدينة أرور:

بعد أن قام محمد بن القاسم الثقفي بفتح برهمناباد الحصينة وبعد أن أخضع القبائل السندية المتمردة كتب إلى الحجاج بن يوسف بذلك فأمره بالتوجه نحو عاصمة السند أرور ثم إلى مدينة الملتان لأنهما من أقوى القواعد الحربية في البلاد وهما مقر عظماء السند.

وقد توجه ابن القاسم بجيشه نحو العاصمة في محرم من عام أربعة وتسعين وفي طريقه إليها فتح مدن منهل وهراور وبسمد وساوندري وقد صالح أهل هذه المدن وأسلم بعض أهلها.

ووصل ابن القاسم بجيشه إلى العاصمة أرور وعسكر على بعد ميل من قلعتها المحصنة، وكان أميرها قوفي بن داهر قد حصنها تحصينًا قويًا وشجع قواده وجنده على الحرب.

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ٢٠٢ - ٢٠٨.

وقد بدأت الحرب واستمرت أيامًا إلا أن ابن القاسم اختصر الطريق على المسلمين، وذلك أن المسلمين لما فتحوا مدينة برهمناباد وقعت الأميرة «لادي» إحدى زوجات الملك داهر في الأسر فأكرمها المسلمون، فلما كان حصار مدينة أرور العاصمة أرسلها ابن القاسم مع رجال من السند إلى باب المدينة فاجتمع بها بعض زعمائها فأخبرتهم بأنها أرملة داهر وأن الملك قد قتل مع قواده المشاهير، والباقون استسلموا، وأشارت عليهم بأن يستسلموا للعرب وأن يصالحوهم.

فلما سمع أهل تلك المدينة بمقتل ملكهم وبما يتصف به المسلمون بقيادة ابن القاسم من العدل والتسامح والقوة قرروا قبول الصلح، ولما علم بذلك الأمير قوفي قرر الفرار مع أسرته ليلاً إلى مدينة جيبور على الحدود الهندية ليبقى مع أخويه جيسيه ودكيه.

وفتح أهل أرور الأبواب ودخلها ابن القاسم صلحا، وهكذا نجحت سياسة ابن القاسم في محاولة تأليف قلوب زعماء السند حيث استفاد منهم كثيرًا في إقناع قومهم بالصلح وتجنب القتال كما استفاد من خبرتهم الحربية حيث كان يستشير بعضهم في أموره المهمة.

هذا وقد بقي ابن القاسم بعض الوقت ينظم أمور عاصمة السند الإدارية، وقد عين «رواح بن أسد» حاكمًا عليها وعين على شؤون القضاء موسى بن يعقوب بن طائي الثقفي وبنى فيها مسجدًا جامعًا، وقد كان تجاوب أهلها سريعًا مع الإسلام حيث أسلم بعض سكانها آنذاك[(١)].

فتح مدينة «باتيه»:

بعد ذلك اتجه محمد بن القاسم لمدينة «باتيه» وكان حاكمها «ككسه» ابن عم الملك داهر، وقد اشترك معه في المعركة الأخيرة، ثم عاد إلى «باتيه» ولما علم بقدوم محمد بن القاسم أرسل إليه مندوبه واستقبله بالهدايا والضمانات والرهائن وعرض الصلح معه، فقبل محمد بن القاسم ذلك منه، وكان ككسه حكيمًا فاتخذه محمد بن القاسم مستشارًا له كما فوض إليه الأمور المالية في بلاده، وقدمه

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ٢١١ - ٢١٣، فتوح البلدان/ ٦١٧، الكامل في التاريخ ٤/ ١١٢

على جميع قادة السند الذين كانوا معه، وقد أخلص هذا الأمير للمسلمين ثم دخل في الإسلام على يد محمد بن القاسم، وكان بينهما ثقة كبيرة وانتفع المسلمون به في حروب السند الأخيرة(١).

وهكذا مازلنا نجد أمثلة حية لهذه الظاهرة التي تميزت بها فتوح بلاد السند حيث أقدم على الإسلام عدد من زعمائها وأهلها وبقي عدد من زعمائها مخلصين للمسلمين حتى مع بقائهم على دينهم.

وهذا شاهد واضح على أن سلاح القوة الذي ظهر به المسلمون ما هو إلا مفتاح يَلِجُون منه بلاد الكفر والضلال، أما مفاتيح القلوب فقد كانت بالخشوع المهيب بين يدي الله عز وجل الذي كان يظهره المسلمون في الصلاة وخاصة صلاة الجماعة، وفي الأخلاق العالية والمعاملة الكريمة التي كان المسلمون يتحلون بها حتى مع أعدائهم، فبينما نجد الأعداء يتمنون أن يقع المسلمون بين أيديهم ليحرقوهم، إذا بهم يقفون أمامهم مشدوهين حيارى قد أُخِذت قلوبهم مما يرون من سمو المسلمين وعظمتهم سواء في علاقتهم مع ربهم أَو مع الناس، ثم لا يلبثون طويلاً حتى يُعلنوا انتماءهم للإسلام الذي لامَسَ شغاف قلوبهم ووافق فطرتهم وأجاب على أسئلتهم المحيرة التي كانت قبل ذلك تصطدم بِجُدر الوثنية المصمتة التي لا تحِير جوابًا ولا تحل إشكالاً.

فتح مدينة «اسكلنده»:

ثم اتجه ابن القاسم إلى مدينة «اسكلنده» وهو في طريقه إلى الملتان في إقليم البنجاب، واصطحب معه الأمير السندي «ككسه» وكانت مدينة اسكلنده محصنة للغاية وأهلها قد استعدوا للحرب، فخرج أهلها لقتال المسلمين، فوجه إليهم ابن القاسم الجيش بقيادة زائدة بن عميرة الطائي ومعه الأمير ككسه، واشتدت المعركة بين الطرفين إلى أن انهزم أهل اسكلنده وتحصنوا بقلعتهم فلجأ المسلمون إلى سلاحهم الثقيل حيث قذفوا القلعة بأحجار المجانيق والسهام المشتعلة لمدة أسبوع، حتى نقصت الغلة في جيش السند وهرب حاكم المدينة إلى حصن «سكه» بقرب

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ٢١٣.

الملتان، فدخل محمد بن القاسم المدينة ودارت معركة داخلها فقُتل كثير من جنود السند ووقع آخرون أسرى، وأعطى ابن القاسم الأمان لعامة الناس، ثم ولَّى على المدينة عقبة بن مسلمة التميمي(١).

فتح قلعة سكه:

ثم اتجه الجيش الإسلامي بقيادة محمد بن القاسم إلى قلعة «سكه» وهي قلعة حربية ليس فيها إلا الجنود ويحكمها الأمير «بجهرا» وقد وقعت فيها بين المسلمين والسند معارك دامية استمرت سبعة عشر يومًا، واستشهد فيها عشرون قائدًا من قادة المسلمين وخمسة عشر ومائتان من جيش المسلمين، وقد حزن ابن القاسم حزنًا شديدًا على أولئك الشهداء وخاصة القادة فأقسم أن يهدم تلك القلعة، وقد هرب أميرها بجهرا إلى الملتان، فاستولى محمد بن القاسم على القلعة وأمر بهدمها وقتل من بقي فيها من الجنود(٢).

وهذا مثل يصور لنا المعاناة الشديدة التي واجهها المسلمون الأوائل وهم يفتحون تلك البلاد المنيعة، والضحايا التي قدموها في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى ونشر الإسلام في الأرض، فعلى أشلاء أولئك الشهداء في أنحاء المعمورة، وبدمائهم الزكية التي روَّوا بها أرضها قامت بعد ذلك البلاد الإسلامية التي لا يزال أهلها أو أكثرهم يعبدون الله تعالى.

فهل يتذكر الخلف المعاصرون ما قام به أسلافهم الأماجد من الجهود الجبارة في تحويل تلك الممالك الوثنية إلى أوطان إسلامية تخفق فوقها راية التوحيد، فيحافظوا على وجود الإسلام القوي فيها؟

لعلهم يتذكرون، ولعلهم بعد ذلك يفعلون.

فتح مدينة الملتان:

زحف محمد بن القاسم الثقفي بالجيش الإسلامي نحو مدينة الملتان عاصمة إقليم البنجاب، والتقوا بجيش السند بقيادة الأمير «كندا» حاكم الملتان ومعه الأمير

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ٢١٤.
(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ٢١٤، فتوح البلدان/ ٦١٧.

بجهرا حاكم قلعة سكه الذي فرَّ منها واستمر القتال بعنف لمدة يومين سقط فيها كثير من القتلى، ثم استخدم المسلمون سلاحهم الثقيل حيث رموا تلك المدينة بالمجانيق لمدة شهرين على فترات متقطعة، ونفدت المواد الغذائية(١).

يقول البلاذري: فأبلى زائدة بن عميرة الطائي وانهزم المشركون فدخلوا المدينة، وحصرهم محمد، ونفدت أزواد المسلمين فأكلوا الحُمُر، ثم أتاهم رجل مستأمن فدلَّهم على مدخل الماء الذي منه شربهم وهو ماء يجري من نهر بسمد فيصير في مجتمع له مثل البركة في المدينة وهم يسمونه البلاح، فغوَّره، فلما عطشوا نزلوا على الحكم، فقتل محمد المقاتلة، وسبَى الذرية وسبى سدنة البُدّ - يعني الصنم - وهم ستة آلاف(٢).

وهكذا كان بلاء المسلمين عظيمًا وانتصاراتهم متوالية في كل معركة يخوضونها مع الأعداء، ولم يكن يحدُّ من قوتهم واندفاعهم إلا الأسوار الضخمة والحصون المنيعة، وهذه قد استخدموا لها المجانيق ونحوها، ولكن قد تكون هناك بعض العوائق تحول دون وصول هذا النوع من السلاح كما هو الحال في مثل هذا البلد وبلدة برهمناباد وهما من أعظم تلك البلاد تحصينًا.

ولقد قيض الله للمسلمين في حصارهم للملتان هذا الرجل الذي دلَّهم على عورة بلاده حيث يتسرب إليهم ماء الشرب عبر مسارب خفية، فكان قطع ذلك الماء وسيلة ناجعة إلى إلجاء أهل ذلك البلد على النزول على حكم المسلمين.

ولربما كان من المناسب أن نعود إلى تحليل هذه الظاهرة العجيبة حتى لا يظن بعض الناس أن هؤلاء الذين قدموا الخدمات الجليلة للمسلمين ليسوا إلا أناسًا نفعيين يسعون لتأمين مصالحهم الخاصة، والحقيقة أن هذه الظاهرة ناتجة عن إعجاب أولئك القوم بالإسلام وميلهم إلى المسلمين وما يرجونه من الخلاص على أيديهم من قهر الولاة وظلمهم لما اشتهر به المسلمون آنذاك من العدل والرحمة والمواساة، ومما يدل على ذلك استمرار المشهورين من هؤلاء على الولاء للمسلمين ودخول كثير منهم في الإسلام.

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ٢١٥.
(٢) فتوح البلدان/ ٦١٧.

وبعد فتح الملتان جاء الخبر بوفاة الحجاج بن يوسف، فرجع محمد ابن القاسم إلى عاصمة السند «أرور» وتلقى تعازي الناس حيث كان الحجاج ابن عمه ووالد زوجته.

فتح إقليم الكيرج:

بعد فترة من الراحة خرج محمد بن القاسم بالجيش إلى إقليم الكيرج على حدود الهند حيث لجأ إليها الأمير جيسيه الذي كان ابن القاسم يعتبر بقاءه خطرًا على مستقبل المسلمين في السند، وجرت هناك معارك حامية بين المسلمين وأهل كيرج قُتل فيها حاكمها دوهر وفي ذلك يقول الشاعر:

نحن قتلنا داهرًا ودوهرا   والخيل تردي منسرا فمنسرا

وسقطت المدينة بيد المسلمين(١).

نهاية محمد بن القاسم:

اتجه ابن القاسم إلى مدينة قنوج التي رفض حاكمها قبول الإسلام والاستسلام. ولما كاد ابن القاسم أن يصل إلى قنوج التي تعتبر آخر بلاد السند جاء الأمر من الخليفة سليمان بن عبد الملك بعزله والقدوم إلى العراق(٢)، حيث توفي الوليد بن عبد الملك وخلفه سليمان بن عبد الملك الذي قام بعزل جميع الولاة الذين أيدوا الوليد في سعيه لنقل الخلافة من سليمان إلى عبد العزيز بن الوليد، وحيث لم يتم ذلك وآل الأمر إلى سليمان فقد أقدم على عزل أولئك الولاة من غير نظر إلى ما يترتب على ذلك من ضرر على المسلمين وعلى دعوة الإسلام.

وبعزل محمد بن القاسم توقف الجهاد في بلاد السند، بل إن بعض مناطقها قد انتقضت بعد ذلك على حكم المسلمين.

ومما زاد الأمر سوءًا بالنسبة لابن القاسم أن سليمان بن عبد الملك ولَّى على العراق صالح بن عبد الرحمن وكان بينه وبين الحجاج عداء قديم حيث كان

---

(١) فتوح البلدان/ ٦١٨، موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ٢١٩.

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي لبلاد السند والبنجاب ١/ ٢١٩ - ٢٢، فتوح البلدان/ ٦١٨.

الحجاج قد قتل أخاه آدم بن عبد الرحمن لكونه يرى رأي الخوارج، فانتقم صالح من أقارب الحجاج الذين منهم محمد بن القاسم، فقد ولَّى صالح بن عبد الرحمن على السند يزيد بن أبي كبشة وأمره بأن يقيد محمد بن القاسم وأن يرسله إلى العراق، ففعل ذلك واستسلم ابن القاسم طاعة لأولي الأمر بالرغم من شعبيته الكبيرة في بلاد السند وكثرة جنوده حيث بلغ عددهم خمسين ألفًا من العرب والسند.

وحُمل ابن القاسم إلى العراق مقيدًا وأدخله صالح بن عبد الرحمن في سجن واسط، ولقد كان تأثره من تلك المعاملة القاسية شديدًا وحزنه بالغًا حيث قال في ذلك:

فَلَئِنْ ثويت بواسط وبأرضها ... رَهْنَ الحديد مكبَّلا مغلولا
فَلَرُبَّ قينة فارس قد رُعتُها ... ولرب قِرنٍ قَدْ تركت قتيلا

وقال أيضًا:

لو كنت أجمعت الفرار لوُطِّئت ... إناث أُعِدَّت للوغى وذكور
وما دخلتْ خيل السكاسك أرضنا ... ولا كان من عكٍّ عليّ أمير
ولا كنت للعبد المزوني تابعا ... فيالك دهر بالكرام عثور

وقد عذبه صالح في رجال من آل أبي عقيل الثقفيين حتى قتلهم(١).

وهكذا قُتلِ هذا الشاب على يد هذا الوالي الظالم الذي أخذ بجريرة الحجاج كل من ينتسبون إلى جده أبي عقيل على عادات الجاهلية.

وأفَلَ هذا النجم الساطع الذي أضاء سماء بلاد السند بقوة وسرعة فائقة بعد أن قام بتلك الأعمال الجهادية العظيمة وأرسى قواعد الدولة الإسلامية في بلاد السند.

لقد كان محمد بن القاسم ناجحًا في الأعمال الحربية والأعمال الإدارية، فقد نجح في كل حروبه التي قادها ونجح في إدارته لتلك البلاد الواسعة التي حكمها، واستقطب محبة وإعجاب قادة المسلمين الذين كانوا تحت إدارته وقادة السند الذين أعلنوا الولاء له طوعًا وقدموا له خدمات كبيرة في أعماله الجهادية والإدارية.

---

(١) فتوح البلدان/ ٦١٨ - ٦١٩.

ولقد كان محمد بن القاسم بارعًا جدًا في استمالة زعماء الكفار حيث كان يقدرهم ويلاطفهم ويبقي على سيادتهم في أقوامهم..

وكان لهذه السياسة البارعة أثر كبير في ولاء عدد منهم لدولة الإسلام ودخول بعضهم مع أقوامهم في الدين الإسلامي.

ولقد بلغ من نتائج هذه السياسة الحكيمة أن استطاع محمد بن القاسم أن يضم إلى جيشه أكثر من ثلاثين ألفًا من جنود السند مع قادتهم حتى بلغ جيشه في آخر معركة خاضها خمسين ألفًا.

وفي تقديري أنه لو استمر في القيادة مع دعم دولة الإسلام له لاستطاع أن يفتح جميع بلاد الهند ولخضع له ملوكها.. ولكنْ قاتل الله السياسة الهوجاء واتِّباع الهوى وتغليب المصلحة الخاصة على مصلحة المسلمين العامة.

فلقد كان الهمُّ الكبير الذي يحمله سليمان بن عبد الملك أن ينتقم من ولاة أخيه الوليد الذين كان لهم معه مواقف غير مرضية من غير أن ينظر مصلحة المسلمين العامة ومصلحة دولة الإسلام.

ولهذا الغرض اختار الولاة الذين يندفعون اندفاعًا أهوج نحو تحقيق هذا الغرض، وكان ابن القاسم من ضحايا هذا الانحراف السياسى. بل كانت الدولة الإسلامية ومستقبل دعوة الإسلام من ضحايا ذلك. فرحم الله ابن القاسم وجزاه خيرًا على ما قدم للإسلام والمسلمين.

***

الجهاد في السند في عهد هشام بن عبد الملك

بعد أن توفي أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك في يوم السبت من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين للهجرة انتقلت الخلافة إلى أخيه أمير المؤمنين سليمان، ثم إلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، وذلك في يوم الجمعة لعشر مضين من صفر سنة تسع وتسعين، ثم إلى أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك في يوم الأربعاء لليال بقين من شهر رمضان سنة إحدى ومائة، ولم يكن في تلك العهود جهاد بارز في السند(١)، غير أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله كان له جهد واضح في دعوة زعماء الكفار إلى الدخول في الإسلام، وقد أجابه إلى ذلك بعضهم وولى بعض هؤلاء على بلادهم كما هو مذكور في بيان مواقفه.

وحينما آلت الخلافة إلى أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك بن مروان في أواخر شهر شعبان من سنة خمس ومائة(٢) نشطت حركة الجهاد في السند بهدف تثبيت الأوضاع فيها وإخضاع بعض الولايات الهندية المجاورة التي كانت من عوامل عدم استقرار الأوضاع في السند.

ولاية الجنيد بن عبد الرحمن المُرِّي:

في سنة سبع ومائة تولى الجنيد بن عبد الرحمن المري بلاد السند، وهو رجل سياسي كبير وقائد بصير، وكانت السند قد عظمت بها الفتن والقلاقل وقلَّ بها الأمن، وعظم سلطان الأمير جيسيه الذي كان قد استولى على منطقة برهمناباد وأقره عليها أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لما دخل في الإسلام.

ولما وصل الجنيد إلى بلاد السند قام بجولة في مناطقها فلما وصل إلى منطقة برهمناباد رفض جيسيه أن يسمح له بدخولها قائلاً: إني قد أسلمت وولاني الرجل الصالح(٣) بلادي، ولست آمنك، فأعطاه رهنًا وأخذ منه رهنًا بما على بلاده من

---

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٤٩٥، ٥٥٠، ٥٧٤.

(٢) المرجع السابق ٧/ ٢٥.

(٢) يعني عمر بن عبد العزيز.

الخراج، وخاف جيسيه من هجوم الجنيد عليه فاستعد له واستعان بحكام إقليم كجرات من بلاد الهند، وكان كل واحد من القائدين يراقب تحركات الآخر إلى أن وقعت بين الجيشين معركة انهزم فيها جيش جيسيه ووقع هو في الأسر فقتله الجنيد.

ثم قام الجنيد بعد ذلك بإخضاع مدينة الكيرج وكان محمد بن القاسم قد فتحها ثم انتقضت على دولة الإسلام وأراد حاكمها الاستقلال كما فعل جيسيه، فسار إليها الجنيد بجيشه وجرت بين الجيشين معركة دامية انهزم فيها حاكم الكيرج وتحصن بالمدينة، فأمر الجنيد بن عبد الرحمن باستخدام المنجنيقات بالقذائف النارية والحجرية فقذف المسلمون بها واستخدموا آلة حربية تسمى كباش وهي آلة من خشب وحديد يجرونها بنوع من الخيل فيدق بها الحائط فينهدم، فدكوا بها حائط المدينة حى انثلم، فدخلوا المدينة وقاتلوا أهلها بشدة حتى هزموهم، وهرب حاكمها واستسلم أهلها.

ولما انتهى الجنيد من إخضاع منطقة السند جهز جيشًا كبيرًا لإخضاع مناطق الهند المجاورة التي كانت تمد المتمردين في السند، ففتح عددًا من المدن منها مرمد ومندل ودهنج وبنجاسر عاصمة إقليم كجرات الشمالية.

وعلم الجنيد بأن الكجراتيين يعدون العدة لحربه في مدينة بروص (بهروج) فتوجه إلى هناك وحارب أهلها وفتح المدينة ثم توجه نحو مدينة ماليه (مالوه) وفتحها كما فتح مدينة أرنين (أجين) ومدينة بهرمد(١).

وهكذا قام الجنيد بن عبد الرحمن المري بإخضاع بلاد السند وإقليم كجرات من بلاد الهند بنجاح وسرعة، وعادت الحياة إلى بلاد السند بالطمأنينة والأمن.

ولاية الحكم بن عوانة الكلبي:

لم يستمر الأمن والاستقرار في السند طويلاً حيث تم نقل الجنيد بن عبد الرحمن إلى ولاية خراسان لاحتياج الدولة الأموية له هناك، وذلك في سنة

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ١/ ٢٣٢ - ٢٣٨، فتوح البلدان للبلاذري/ ٦٢٠ - ٦٢١، الكامل في التاريخ ٤/ ١٣٤.

إحدى عشرة ومائة، فتولى إمرة السند بعده تميم بن زيد العتبي ولم يكن في مثل كفاءة الجنيد فاضطربت أحوال البلاد وقامت الفتنة بين أهل السند والعرب وبين العرب أنفسهم، ولما أوشكت البلاد على نشوب حرب داخلية قرر تميم مغادرة البلاد إلى العراق، وقد مات في الطريق، وعلم والي العراق خالد بن عبد الله القسري بذلك فولّى على السند الحكم بن عوانة الكلبي سنة اثنتي عشرة ومائة، وقدم الحكم إلى السند وهي في ذلك الوضع المضطرب، فسار سيرة حسنة وأحيى الجهاد، وكان من عوامل نجاحه اختياره عمرو بن محمد بن مسلم الثقفي نائبًا عنه، لأن عمرًا محبوب في السند لشهرة أبيه فاتح السند، وقد أسند إليه الحكم قيادة الجيش، فتحرك عمرو بالجيش لإخماد الفتن، فرجع من جولته منتصرًا واستقرت الأوضاع في السند ورضي أهلها بولاية الحكم.

ولقد بقي الحكم في إمارة السند حتى عام اثنين وعشرين ومائة، حيث خرج على رأس جيش لإخماد الفتن التي ثارت في بعض مناطق السند وفي صحبته عمرو بن محمد بن القاسم فاستشهد الحكم وانتصر جيشه على الأعداء(١).

ولاية عمرو بن محمد بن القاسم:

بعد استشهاد الحكم بن عوانة ولّى والي العراق يوسف بن عمر على السند عمرو بن محمد بن القاسم الثقفي، فكان من أعماله بناء مدينة المنصورة لتكون حصنًا للمسلمين عند أى هجوم من الأعداء، وقد أفاد ذلك حيث هجم أحد ملوك الهند المجاورين للسند على تلك المدينة لما أحسَّ بقلة جيش المسلمين المرابط فيها، فتحصن بها المسلمون لعدم مقدرتهم على قتال ذلك الجيش المهاجم، وطلب عمرو المدد من والي العراق فأمده بأربعة آلاف مقاتل، فقرر عمرو مهاجمة الجيش الهندي وجعل على مقدمته معن بن زائدة الشيباني، وهجموا ليلا على الجيش الهندي فانتصر المسلمون وقتل الكثير من الجيش الهندي، ووقع ملكهم في الأسر ولكن المسلمين لم يعرفوه، فأنقذه جنوده ولاذوا جميعًا بالفرار وتركوا وراءهم أموالهم والأسرى الذين أسرهم المسلمون(٢).

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي ١/ ٢٣٨ - ٢٤٤، فتوح البلدان/ ٦٦٢ - ٦٢٣، تاريخ خليفة بن خياط/ ٣٥٤، الكامل في التاريخ/ ١٣٥.

(٢) تاريخ اليعقوبي ٢/ ٣٢٤.

الجهاد والفتوحات
فـــي
عهد العباسيين

الجهاد في الهند في عهد المهدي

لم يكن فيما بعد عهد هشام بن عبد الملك أخبار مهمة عن مواقف المسلمين الجهادية في بلاد السند، حيث اشتغل المسلمون بالخلافات والقتال فيما بينهم حتى آلت الخلافة إلى العباسيين فاشتغلوا بتوطيد حكمهم ومقاومة الفتن الداخلية طيلة عهد أبي عبدالله السفاح وأبي جعفر المنصور.

وبعد وفاة أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور بويع بالخلافة لولده المهدي محمد بن عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس رضي الله عنهما، وذلك في يوم الخميس لإحدى عشرة بقيت من ذي الحجة من سنة ثمان وخمسين ومائة[١].

وقد ذكر الإمام أبو جعفر الطبري في حوادث سنة تسع وخمسين ومائة أن المهدي وجه عبدالملك بن شهاب المسمعي في البحر إلى بلاد الهند، وفرض معه لألفين من أهل البصرة من جميع الأجناد وأشخصهم معه، وأشخص معه من المطَّوعة الذين كانوا يلزمون المرابطات ألفًا وخمسمائة رجل، ووجه معه قائدًا من أبناء أهل الشام يقال له ابن الحباب المذحجي في سبعمائة من أهل الشام، وخرج معه من مطَّوعة أهل البصرة بأموالهم ألف رجل، فيهم -فيما ذكر- الربيع بن صبيح، ومن الأسواريين والسبابجة[٢] أربعة آلاف رجل، فولَّى عبدالملك بن شهاب المنذرَ بن محمد الجارودي على الألف رجل المطَّوعة من أهل البصرة، وولى ابنه غسان بن عبد الملك الألفي رجل الذين من فرض البصرة، وولي عبدالواحد بن عبدالملك الألف والخمسمائة الرجل من مطَّوعة المرابطات، وأفرد يزيد بن الحباب في أصحابه فخرجوا، وكان المهدي وجه لتجهيزهم حتى شخصوا أبا القاسم محرز بن إبراهيم، فمضوا لوجههم حتى أتوا مدينة باربند[٣] من بلاد الهند في سنة ستين ومائة[٤].

---

(١) تاريخ الطبرى ٨/ ١٠٨.

(٢) ذكر الطرازي أنهم من السند - موسوعة التاريخ الإسلامي ١/ ٢٦٤.

(٣) ذكر الطرازي أن أصلها بهاربوت وهي ميناء صغير يقع على بعد سبعة أميال من ميناء بهروج (بروص) - المرجع السابق ١/ ٢٦٤.

(٤) تاريخ الطبري ٨/ ١١٦-١١٧.

وذكر المؤرخ ابن الأثير أنهم نازلوا أهل تلك المدينة وحاصروها من نواحيها، وحَرَّض الناس بعضهم بعضا على الجهاد وضايقوا أهلها ففتحها الله عليهم عنوة، وأن أهلها احتموا بالبدِّ وهو الصنم الذي لهم فأحرقه المسلمون عليهم فاحترق بعضهم وقُتل الباقون، واستشهد من المسلمين بضعة وعشرون رجلا[1].

***

(١) الكامل في التاريخ ٥/ ٥٥.

جهاد محمود بن سبكتكين في بلاد الهند

قبل الحديث عن جهاد هذا البطل الكبير والقائد البصير فإنه يحسن بنا تقديم نبذة موجزة عن حياته وعن دولته الفتية القوية التي استولى بها على معظم أقطار الهند وقضى بها على معظم ملوكهم.

فهو السلطان أبو القاسم محمود بن ناصر الدولة سبكتكين، لقَّبه أمير المؤمنين القادر بالله بعدما جعله سلطانًا بعد موت أبيه «يمين الدولة وأمين الملة» فاشتُهر بذلك.

تولى أبوه إمارة «غزنة»(١) من قِبَل السامانيين بعدما مات حاكمها أبو إسحاق ابن البكتين، وكان سبكتكين أبرز رجاله، فاجتمعت كلمة مُقَدَّمي تلك الإمارة على تأمير سبكتكين لشهامته وشجاعته.

وقد آل الأمر إلى ابنه محمود بعد موته بعد نزاع كان مع أخيه إسماعيل، وقد قام محمود بتوسيع نطاق دولته حيث استولى على خراسان وانتزعها من يد السامانيين سنة تسع وثمانين وثلاثمائة، فقويت بذلك دولته، وأصبح أمراء خراسان من أركان دولته وجيشه وشاركوه في فتوحاته.

ثم إن بلاد سجستان دخلت في طاعته سنة ثلاث وتسعين بدون قتال، وذلك بدخول قوادها وولاة أمرها تحت سلطانه.

وقد فرض على نفسه غزو بلاد الهند كل عام.

ذكر ذلك ابن خلكان ثم قال: ولم يزل يفتح في بلا الهند حتى انتهى إلى حيث لم تبلغه في الإسلام راية، ولم تُتْلَ به قط سورة ولا آية.

وقد توفي رحمه الله سنة إحدى أو اثنتين وعشرين وأربعمائة(٢).

---

(١) هي عاصمة إقليم زابلستان، ويقع هذا الإقليم بين خراسان والهند - معجم البلدان ٤/ ٢٠١.
(٢) وفيات الأعيان ٥/ ١٧٥ - ١٨١.

وذكر الحافظ ابن كثير أنه سار في رعاياه سيرة عادلة وقام في نصر الإسلام قيامًا تامًا، قال: وفتح في بلاد الكفار من الهند فتوحات هائلة، لم يتَّفق لغيره من الملوك، لاقبله ولا بعده، وكسر من أصنامهم شيئًا كثيرًا(١).

جهاده مع جيبال ملك الهند:

يقول المؤرخ العلامة أبو الحسن على بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير: في هذه السنة [يعني سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة] أوقع يمين الدولة محمود بن سبكتكين بجيبال ملك الهند وقعة عظيمة، وسبب ذلك أنه لما اشتغل بأمر خراسان وملكها وفرغ منها ومن قتال خلف بن أحمد، وخلا وجهه من ذلك أحب أن يغزو الهند غزوة تكون كفارة لما كان منه من قتال المسلمين، فثَنَى عنانه نحو تلك البلاد فنزل على مدينة برشور، فأتاه عدو الله جيبال ملك الهند في عساكر كثيرة، فاختار يمين الدولة من عساكره والمُطَّوعة خمسة عشر ألفا، وسار نحوه فالتقوا في المحرم من هذه السنة، فاقتتلوا، وصبر الفريقان، فلما انتصف النهار انهزم الهنود وقُتِل فيهم مقتلة عظيمة، وأُسر جيبال ومعه جماعة كثيرة من أهله وعشيرته، وغنم المسلمون منهم أموالا جليلة وجواهر نفيسة، وأُخذ من عنق عدو الله جيبال قلادة من الجوهر العديم النظير، قوِّمت بمائتي ألف دينار، وأُصيب أمثالها في أعناق مقدَّمي الأسرى(٢).

وإن ما شعر به محمود بن سبكتكين من ارتكاب الذنب في قتال حكام الدويلات المجاورة من المسلمين يدل على اتصافه بشيء من الورع والخشية، ولعل الله تعالي أن يكفر عنه عمله هذا بجهاده الطويل ضد الكفار وتحطيم الآلاف من الأصنام ودخول الآلاف من الكفار في الإسلام على يديه.

وما جاء في هذا الخبر من وصف ذلك الحاكم الهندي وحاشيته من التحلي بالجواهر النفيسة الغالية يدل على ما كانوا يعيشون فيه من حياة الترف والبذخ الذي يقوم غالبًا على ظلم المستضعفين فما أغنى عنهم ذلك شيئًا ولا كثرة جنودهم وعتادهم لما حلَّت بهم نقمة الله تعالى على يد جنوده المجاهدين.

---

(١) البداية والنهاية ١٢/ ٣٢.

(٢) الكامل في التاريخ ٧/ ٢١٣.

جهاده مع بيدبا صاحب كواكير:

ذكر ابن الأثير أن السلطان محمود بعد أن غزا الملتان سار عنها إلى قلعة كواكير، وكان صاحبها يعرف بِبَيْدَا، وكان بها ستمائة صنم، فافتتحها وأحرق الأصنام، فهرب صاحبها إلى قلعته المعروفة لكالنجار، فسار خلفه إليها، وهو حصن كبير يسع خمسمائة ألف إنسان، وفيه خمسمائة فيل وعشرون ألف دابة، وفي الحصن ما يكفي الجميع مدة، فلما قاربها يمين الدولة وبقي بينهما سبعة فراسخ رأى من الغياض المانعة من سلوك الطريق مالا حدَّ له، فأمر بقطعها، ورأى في الطريق واديًا عظيم العمق بعيد القعر، فأمر أن يطم منه مقدار يسع عشرين فارسًا فطموه بالجلود المملوءة ترابا، ووصل إلى القلعة فحصرها ثلاثة وأربعين يوما، وراسله صاحبها في الصلح فلم يجبه، ثم بلغه عن خراسان اختلاف فصالح ملك الهند على خمسمائة فيل وثلاثة آلاف مَنٍّ من الفضة[(١)].

وهذا الخبر فيه مثل من الصعاب والمشاقِّ التي كان يواجهها يمين الدولة محمود ابن سبكتكين في جهاده في بلاد الهند واجتهاده في هدم معالم الشرك التي أهمها الأصنام.

جهاده في بلاد الغور:

وذكر ابن الأثير أيضًا غزو يمين الدولة محمود بن سبكتكين بلاد الغور فقال: بلاد الغور تجاور غزنة، وكان الغور يقطعون الطريق ويخيفون السبيل وبلادهم جبال وعرة ومضايق غَلقَة، وكانوا يحتمون بها ويعتصمون بصعوبة مسلكها، فلما كثر ذلك منهم أنفَ يمين الدولة محمود بن سبكتكين أن يكون مثل أولئك المفسدين جيرانه وهم على هذه الحال من الفساد والكفر، فجمع العساكر وسار إليهم وعلى مقدمته التونتاش الحاجب صاحب هراة، وأرسلان الجاذب صاحب طوس، وهما أكبر أمرائه، فسارا فيمن معهما حتى انتهوا إلى مضيق قد شُحن بالمقاتلة، فتناوشوا الحرب وصبر الفريقان، فسمع يمين الدولة الحال فجدَّ في السير إليهم، وملك عليهم مسالكهم فتفرقوا وساروا إلى عظيم الغورية المعروف بابن سوري، فانتهوا إلى مدينته التي تُدْعَى آهنكران فبرز من المدينة في عشرة آلاف مقاتل، فقاتلهم المسلمون إلى أن

---

(١) الكامل في التاريخ ٧/ ٢٢٨.

انتصف النهار، فرأوا أشجع الناس وأقواهم على القتال، فأمر يمين الدولة أن يولوهم الأدبار على سبيل الاستدراج ففعلوا، فلما رأى الغورية ذلك ظنوه هزيمة فاتبعوهم حتى أبعدوا عن مدينتهم، فحينئذ عطف المسلمون عليهم ووضعوا السيوف فيهم فأبادوهم قتلا وأسرا، وكان في الأسرى كبيرهم وزعيمهم ابن سوري، ودخل المسلمون المدينة وملكوها وغنموا ما فيها، وفتحوا تلك القلاع والحصون التي لهم جميعها، فلما عاين ابن سوري ما فعل المسلمون بهم شرب سمّا كان معه فمات، وخسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين، وأظهر يمين الدولة في تلك الأعمال شعار الإسلام وجعل عندهم من يعلمهم شرائعه، وعاد[1].

وهكذا كان يمين الدولة محمود بن سبكتكين مغامرًا جسورًا حينما سار بجيشه إلى أولئك القوم الأشداء الذين قد امتنعوا بجبالهم الوعرة وحصونهم المنيعة، ولقد وُفق بقادة وجنود طائعين فدائيين حيث قاموا بتلك المهمة الصعبة.

كما أنه وُفق في خطته الحربية التي أظهر فيها التراجع خدعة لأعدائه ثم كر عليهم بعدما أبعدوا عن حصونهم ففاجأهم بما أذهلهم وحط من قواهم فتفرقوا وانهزموا.

وإن من مواقفه العالية اهتمامه بدعوة أولئك القوم إلى الإسلام، وتكليف من يعلمونهم شرائعه.

جهاده في وسط الهند:

من مواقف السلطان يمين الدولة محمود بن سبكتكين الجهادية، ما ذكره ابن الأثير في حوادث سنة أربع وأربعمائة قال: في هذه السنة سار يمين الدولة إلى الهند في جمع عظيم وحشد كثير، وقصَدُوا سِطَةَ البلاد من الهند فسار شهرين حتى قارب مقصده ورتب أصحابه وعساكره، فسمع عظيم الهند به فجمع من عنده من قواده وأصحابه، وبرز إلى جبل هناك صعب المرتقى ضيق المسلك فاحتمى به وطاول المسلمين، وكتب إلى الهنود يستدعيهم من كل ناحية، فاجتمع عليه منهم كل من يحمل سلاحا، فلما تكاملت عدته نزل من الجبل، وتصافَّ هو والمسلمون واشتد القتال وعظم الأمر، ثم إن الله تعالى منح المسلمين أكتافهم فهزموهم وأكثروا القتل فيهم، وغنموا ما معهم من مال وفِيَلة وسلاح وغير ذلك.

---

(١) الكامل في التاريخ ٧/ ٢٥٣.

وُجِد في بيت بُدٍّ عظيم[١] حجر منقور، دلَّت كتابته على أنه مبني منذ أربعين ألف سنة، فعجب الناس لقلة عقولهم[٢].

وهكذا انتصر المسلمون على ذلك الحاكم الهندى على الرغم من كونه قد أحكم أمره حينما لجأ إلى ذلك الجبل، ثم جمع جنده واستنجد بكل من حوله حتى كوَّن جيشًا عظيما، ولكنهم لم يثبتوا أمام عزم المسلمين القوي وصبرهم الشديد.

جهاده في بلاد تانيشر:

ثم ذكر ابن الأثير في حوادث سنة خمس وأربعمائة أنه قد ذُكر ليمين الدولة أن بناحية تانيشر فيلةً من جنس فيلة الصيلمان الموصوفة في الحرب، وأن صاحبها غَالٍ في الكفر والطغيان والعناد للمسلمين، فعزم على غزوه في عقر داره، وأن يذيقه شربة من كأس قتاله، فسار في الجنود والعساكر والمتطوعة فلقى في طريقه أودية بعيدة القعر وعرة المسالك وقفارًا فسيحة الأقطار والأطراف، بعيدة الأكناف، والماء بها قليل، فلقوا بها شدة وقاسوا مشقة، إلى أن قطعوها، فلما قاربوا مقصدهم لقوا نهرًا شديد الجَرْية صعب المخاضة، وقد وقف صاحب تلك البلاد على طرفه يمنع من عبوره، ومعه عساكره وفيلته التي كان يُدِلُّ بها، فأمر يمين الدولة شجعان عسكره بعبور النهر وإشغال الكفار بالقتال ليتمكن باقي العسكر من العبور، ففعلوا ذلك وقاتلوا الهنود، وشغلوهم عن حفظ النهر حتى عبر سائر العسكر في المخاضات وقتلوهم من جميع جهاتهم إلى آخر النهار، فانهزم الهنود وظفر المسلمون وغنموا ما معهم من أموال وفيلة، وعادوا إلى غزنة موفورين ظافرين[٣].

وهذا الخبر يشتمل على خطة حربية ناجحة خطط لها يمين الدولة ونجح في تنفيذها، حيث أشغل الجيش الهندي بطائفة من جيشه ليتمكن بقية الجيش الإسلامى من عبور النهر، فعبروا وطوقوا الكفار من كل الجهات، ولقد كان أولئك الجنود المنتخبون لإشغال الكفار في غاية الشجاعة والتضحية حيث فَدَوا بقية الجيش الإسلامي بأنفسهم، وتلقوا الضربات الأولى التي تكون هي أشد القتال وأعنفه.

---

(١) البد بضم الباء وتشديد الدال المضمومة هو الصنم.

(٢) الكامل في التاريخ ٧/ ٢٧٠-٢٧١.

(٣) الكامل في التاريخ ٧/ ٢٧٢.

جهاده في بلاد قشمير وما حولها:

وذكر ابن الأثير أيضًا في حوادث سنة سبع وأربعمائة أن يمين الدولة غزا بلاد الهند، عازمًا على غزو قشمير، إذ كان قد استولى على بلاد الهند ما بينه وبين قشمير، وأتاه من المتطوعة نحو عشرين ألف مقاتل، مما وراء النهر وغيره من البلاد، وسار إليها من غزنة ثلاثة أشهر سيرًا دائما، وعبر سيحون وجيلوم، وهما نهران عميقان شديدا الجرية، فوطئ أرض الهند وأتاه رسل ملوكها بالطاعة وبذل الإتاوة، فلما بلغ درب قشمير أتاه صاحبها وأسلم على يده وسار بين يديه إلى مقصده، فبلغ ماء جون في العشرين من رجب، وفتح ما حولها من الولايات الفسيحة والحصون المنيعة، حتى بلغ حصن هَوْدَب وهو آخر ملوك الهند، فنظر هودب من أعلى حصنه فرأى من العساكر ما هاله وأرعبه، وعلم أنه لا ينجيه إلا الإسلام، فخرج في نحو عشرة آلاف ينادون بكلمة الإخلاص طلبًا للخلاص، فقبله يمين الدولة وسار عنه إلى كَلْجَنْد، وهو من أعيان الهند وشياطينهم، وكان على طريقه غياض ملتفة لا يقدر السالك على قطعها إلا بمشقة، فسيَّر كلجند عساكره وفيوله إلى أطراف تلك الغياض يمنعون من سلوكها، فترك يمين الدولة عليهم من يقاتلهم وسلك طريقًا مختصرة إلى الحصن من خلفهم فلم يشعروا به إلا وهو معهم، فقاتلهم قتالا شديدًا فلم يطيقوا الصبر على حد السيوف فانهزموا، وأخذهم السيف من خلفهم، ولقوا نهرًا عميقًا بين أيديهم فاقتحموه فغرق أكثرهم، وكان القتلى والغرقى قريبًا من خمسين ألفا.

وعمد كلجند إلى زوجته فقتلها ثم قتل نفسه بعدها وغنم المسلمون أمواله وملكوا حصونه.

ثم سار [يعني يمين الدولة] نحو بيت متعبَّد لهم وهو من مهرة الهند، وهو من أحصن الأبنية، على نهر، ولهم به من الأصنام كثير، منها خمسة أصنام من الذهب الأحمر مرصعة بالجواهر، وكان فيها من الذهب ثلاثمائة وتسعون ألفا وستمائة ألف مثقال، وكان بها من الأصنام المصوغة من النقرة نحو مائتي صنم، فأخذ يمين الدولة ذلك جميعه وأحرق الباقي.

وسار نحو قنوج وصاحبها راجيبال، فوصل إليها في شعبان، فرأى صاحبها قد فارقهـا وعبر الماء المسمى كَنَكْ، وهو مـاء شريف عندهم، يرون أنه من الجنة وأن من غرَّق نفسه فـيه طهر من الآثام، فأخذها يمين الدولة وأخذ قلاعهـا وأعمالها، وهي سَبْع على الماء المذكور، وفيها قريب من عشرة آلاف بيت صنم، يذكرون أنها عُملت من مائتي ألف سنة إلى ثلاثمائة ألف كذبًا منهم وزورا، ولما فـتحها أباحها عسكره[1].

وإننا نلاحظ من هذا العرض وما سـبقه كثرة الأصنام في الهند إلى حـد كبير، كما نلاحظ إغراقًـا من زعمائها وحاشيتـهم في الترف والزينة، فكان لهم بالمرصاد بطل الإسلام يمين الدولـة محمـود بن سبكتكين الذي قضـى على ما جمـعوه من زخارف الدنيا وسلب منهم ذلك وتقوى به على الجهاد في سبيل الله تعالى، واذال في مدة قصيرة ما بناه مضللوهم من الأصنام على مدى آلاف السنين.

وهكذا يتبـوأ المسلمون أعمال الإصـلاح والتطهير عن طريق الجهـاد الإسلامي العظيم.

جهاده في مملكة كجورامة:

ومن مواقف السلطان يمين الدولة مـحمود بن سبكتكين الجهـادية ما ذكر المؤرخ ابن الأثير في حـوادث سنة تسع وأربعمائة. قـال: في هذه السنة سار يمين الدولة إلى الهند غازيا، واحتشد وجمع واستعد وأعد أكثر مما تقدم.

وسبب هذا الاهتمـام أنه لما فتح قنوج وهرب صاحبـها «رآي قنوج» منها أرسل بيدا اللعين - وهو أعظم ملوك الهند مملكة وأكثر جيشـا وتُسمى مملكته كجورامة - أرسل رسلاً إلى رآي قنوج - واسمه راجيبـال - يوبخه على انهزامه وإسلام بلاده للمسلمين، وطال الكلام بينهـما، وآل أمرهما إلى الاخـتلاف، وتأهب كل واحد منهما لصاحـبه وسار إليه، فالتقوا واقـتتلوا، فقتل راجيبـال وأتى القتل على أكثر جنوده، فازداد بيـدا بما اتفق له شرًا وعتـوا وبُعْدَ صيتٍ في الهند وعلوًا، وقـصده بعض ملـوك الهند الذي ملك يمين الـدولة بلاده وهزمـه وأباد أجنـاده وصـار في

(١) الكامل في التاريخ ٧/ ٢٨٢ - ٢٨٣.

جملته وخدمه، والتجأ إليه فوعده بإعادة ملكه وحفظ ضالته عليه، واعتذر بهجوم الشتاء وتتابع الأنداء(١).

فنمت هذه الأخبار إلى يمين الدولة فأزعجته وتجهز للغزو وقصد بيدا وأخْذَ ملكه منه، وسار من غزنة وابتدأ في طريقه بالأفغانية وهم كفار يسكنون الجبال ويفسدون في الأرض ويقطعون الطريق بين غزنة وبينه -فقصد بلادهم وسلك مضايقها وفتح مغالقها وخرب عامرها، وغنم أموالهم وأكثر القتل فيهم والأسر، وغنم المسلمون من أموالهم الكثير.

ثم استقل على المسير، وبلغ إلى مكان لم يبلغه فيما تقدم من غزواته، وعبر نهر كَنَك، ولم يعبره قبلها، وجدَّ به السير فأتاه في الطريق خبر ملك من ملوك الهند يقال له «بروجيبال» قد سار من بين يديه مُلتجِأ إلى بيدا ليحتمي به عليه، فطوى المراحل فلحق ببروجيبال ومن معه رابع عشر شعبان، وبينه وبين الهنود نهر عميق، فعبر إليهم بعض أصحابه وشغلهم بالقتال، ثم عبر هو وباقي العسكر إليهم، فاقتتلوا عامة نهارهم، وانهزم بروجيبال ومن معه، وكثر فيهم القتل والأسر، وأسلموا أموالهم وأهليهم فغنمها المسلمون، وأخذوا منهم الكثير من الجواهر، وأخذوا ما يزيد على مائتي فيل، وسار المسلمون يقتصون آثارهم، وانهزم ملكهم جريحا وتحير في أمره، وأرسل إلى يمين الدولة يطلب الأمان فلم يؤمِّنه، ولم يقنع منه إلا بالإسلام، وقُتِل من عساكره مالا يُحصَى، وسار بروجيبال ليلحق ببيدا، فانفرد به بعض الهنود فقتله.

فلما رأى ملوك الهند ذلك تابعوا رسلهم إلى يمين الدولة يبذلون له الطاعة والإتاوة.

وسار يمين الدولة بعد الوقعة إلى مدينة باري، وهي من أحصن القلاع والبلاد وأقواها، فرآها من سكانها خالية، وعلى عروشها خاوية، فأمر بهدمها وتخريبها وعشر قلاع معها متناهية الحصانة، وقتل من أهلها خلقًا كثيرا.

وسار يطلب بيدا الملك فلحقه وقد نزل إلى جانب نهر، وأجرى الماء من بين يديه فصار وحلا، وترك عن يمينه وشماله طريقًا يبسا يقاتل منه إذا أراد القتال

(١) لعله أراد الأمطار.

وكان عدة من معه ستةً وخمسين ألف فارس وأربعة وثمانين ألف راجل، وستةً وأربعين وسبعَمائة فيل، فأرسل يمين الدولة طائفة من عسكره للقتال، فأخرج إليهم بيدا مثلهم، ولم يزل كل عسكر يمد أصحابه حتى كثر الجمعان واشتد الضرب والطعان، فأدركهم الليل وحجز بينهم.

فلما كان الغد بكَّر يمين الدولة إليهم فرأى الديار منهم بلاقع، وركب كل فرقة منهم طريقًا مخالفًا لطريق الأخرى، وخزائن الأموال والسلاح بحالها، فغنموا الجميع، واقتفوا آثار المنهزمين، فلحقوهم في الغياض والآجام وأكثروا فيهم القتل والأسر، ونجا بيدا فريدا وحيدا، وعاد يمين الدولة إلى غزنة منصورا(١).

وهذا الخبر يبين لنا دقة رصد المسلمين الحربي، حيث عرف يمين الدولة عن تحركات ملوك الهند نحو التحالف مع الملك بيدا بالرغم من بُعْد المسافة، كما يدل على ضعف ملوك الهند في ذلك، حيث لم يعلم الملك بروجيبال عن تحرك المسلمين إلا بعد أن قابلوه أو قربوا منه، كما أن في هذا الخبر مثلاً من شجاعة أبطال المسلمين حيث عبَر النهر إلى جيش الهند بعضُ أصحاب يمين الدولة، فشغلوهم بالقتال حتى عبر بقية جيش المسلمين، كما أن في هذا الخبر أمثلةً واضحة من سلاح الرعب الذي نصر الله تعالى به المسلمين، وأبرز ذلك هروب ملك الهند بيدا الذي جمع من السلاح والجنود مالم يجمعه الملوك قبله، فلما رأى ضراوة قتال المسلمين أصيب بالرعب وأيقن بالهزيمة، فاغتنم فرصة ظلام الليل ليهرب هو وجيشه في كل ناحية.

جهاده في بلاد أخرى:

من أخبار هذا المجاهد الكبير يمين الدولة محمود بن سبكتكين ما ذكره الحافظ ابن كثير في حوادث سنة عشر وأربعمائة أنه غزا مدينة في الهند فيها ألف قصر مَشِيدْ وألف بيت للأصنام، وفيها من الأصنام شيء كثير، ومَبْلغ ما على الصنم من الذهب ما يقارب مائة ألف دينار، ومبلغ الأصنام من الفضة زيادة على ألف صنم، وعندهم صنم معظم يؤرخون له وبه -بجهالتهم- ثلاثمائة ألف عام، وقد

(١) الكامل في التاريخ ٧/ ٣٠١- ٣٠٢.

سَلَب ذلك كلَّه محمود بن سبكتكين وذكر أن عدد القتلى من الهنود خمسون ألفا، وأسلم منهم عشرون ألفا(١).

وذكر العالـم المؤرخ ابن الأثير أن ابن سبكتكين غزا الهند في سنـة أربع عشرة وأربعمائة، فـأوغل فيها فغنم وقتل، حـتى وصل إلى قلعة على رأس جبل منيع، ليس له مصعد إلا من موضع واحد، وهي كبيرة تسع خلقا، وبها خمسمائة فيل، وفي رأس الجبل من الغلاَّت والمياه وجميع مـا يحتاج الناس إليه، فحصرهم وأدام الحصار وضـيق عليهم واستمـر القتال، فقُـتل منهم كثير، فلمـا رأوا ما حلَّ بهم أذعنوا له وطلبوا الأمان، فأمَّنهم وأقر مُلكهم فيها على خراج يأخذه منهم(٢).

جهاده في سُومَنَات :

من أبرز مـواقف السلطان محـمود الجـهاديـة قضـاؤه على أعظم أصنام الهند «سومنات»، وفي خـبر ذلك يقول المؤرخ ابـن الأثير في حوادث سنة ست عـشرة وأربعمائة: في هذه السنة فتح يمين الدولة في بلاد الهند عدة حصون ومدن، وأخذ الصنم المعروف بسومنات، وهذا الصنم كان أعظم أصنام الهند، وهم يحجُّون إليه في كل ليلة خسوف فيجتمع عنده ما ينيف على مائة ألف إنسان، وتزعم الهنود أن الأرواح إذا فارقت الأجـساد اجتمـعت إليه على مذهب التناسخ، فـينشئها فـيمن شاء، وأن المدَّ والجزر الذي عنده إنما هو عـبادة البحر على قدر استطاعـته، وكانوا يحملون إليه كل علْق نفيس، ويعطون سدنتـه كل مال جزيل، وله من الموقوف ما يزيد على عشرة آلاف قرية، وقد اجتـمع في البيت الذي هو فيه من نفيس الجوهر مالا يحصى قيمته.

ولأهل الهند نهر كبير يسمي كَنَكْ يعظمونه غاية التعظيم، ويُلقون فيه عظام من يموت من كبـرائهم، ويعتـقدون أنها تسـاق إلى جنة النعيم، وبين هـذا النهر وبين سومنات نحو مائتي فرسخ، وكان يُحـمل من مَائه كل يوم إلى سومنات ما يغسل به. ويكون عنده من البـرهميين كل يوم ألف رجل لعبـادته وتقديم الوفـود إليه، وثلاثمائـة رجل يحلقون رؤوس زواره ولحاهم، وثـلاثمائة رجل وخمـسمـائة أَمَة يغنون ويرقصون على باب الصنم، ولكل واحد من هؤلاء شيء معلوم كل يوم.

(١) البداية والنهاية ١٢/ ٨-٩.
(٢) الكامل في التاريخ ٧/ ٣١٥.

وكان يمين الدولة كلما فتح من الهند فتحًا وكسر صنمًا يقول الهنود: إن هذه الأصنام قد سخط عليها سومنات، ولو أنه راض عليها لأهلك من قصدها بسوء، فلما بلغ يمين الدولة عزم على غزوه وإهلاكه ظنا منه أن الهنود إذا فقدوه ورأوا كذب ادعائهم الباطل دخلوا في الإسلام، فاستخار الله تعالى وسار من غزنة عاشر شعبان من هذه السنة في ثلاثين ألف فارس من عساكره سوى المتطوعة، وسلك سبيل الملتان فوصلها منتصف شهر رمضان.

وفي طريقه إلى الهند بَرِّيَّة قفر لا ساكن فيها ولا ماء ولا ميرة، فتجهَز هو وعسكره على قدرها، ثم زاد بعد الحاجة عشرين ألف جمل تحمل الماء والميرة وقصد «أنهلوارة»، فلما قطع المفازة رأى في طرفها حصونًا مشحونة بالرجال، وعندها آبار قد غوروها ليتعذر عليه حصرها، فيسرَّ الله تعالى فتحها عند قربه منها بالرعب الذي قذفه في قلوبهم، وتسلَّمها وقتل سكانها وأهلك أوثانها، وامتاروا منها الماء وما يحتاجون إليه.

وسار إلى أنهلوارة فوصلها مستهل ذي القعدة، فرأى صاحِبَها المدعوَّ «بهيم» قد أجفل عنها وتركها وأمعن في الهرب، وقصد حصنًا له يحتمي به، فاستولى يمين الدولة على المدينة.

وسار إلى «سومنات» فلقى في طريقه عدة حصون فيها كثير من الأوثان شبه الحُجَّاب والنقباء لسومنات، على ماسوَّل لهم الشيطان، فقاتل من بها وفتحها وخرَّبها وكسر أصنامها، وسار إلى سومنات في مفازة قفرة قليلة الماء، فلقى فيها عشرين ألف مقاتل من سكانها لم يدينوا للملك، فأرسل إليهم السرايا فقاتلوهم فهزموهم وغنموا أموالهم، وامتاروا من عندهم وساروا حتى بلغوا «دبولواره» وهي على مرحلتين من سومنات، وقد ثبت أهلها ظنّا منهم أن سومنات يمنعهم ويدفع عنهم، فاستولى عليها وقتل رجالها وغنم أموالها.

وسار عنها إلى سومنات فوصلها يوم الخميس منتصف ذى القعدة، فرأى حصنًا حصينا مبنيًا على ساحل البحر، بحيث تبلغه أمواجه، وأهله على الأسوار يتفرجون على المسلمين واثقين أن معبودهم يقطع دابرهم ويهلكهم.

فلما كان الغد -وهو الجمعة- زحف وقاتل من به، فرأى الهنودُ من المسلمين قتالا لم يعهدوا مثله، ففارقوا السور فنصب المسلمون عليه السلاليم، وصعدوا إليه، وأعلنوا بكلمة الإخلاص، وأظهروا شعار الإسلام، فحينئذ اشتد القتال وعظم الخطب، وتقدم جماعة الهنود إلى سومنات فعفَّروا له خدودهم وسألوه النصر، وأدركهم الليل فكف بعضهم عن بعض.

فلما كان الغد بكَّر المسلمون إليهم وقاتلوهم، فأكثروا في الهنود القتل وأجلوهم عن المدينة إلى بيت صنمهم سومنات، فقاتلوا على بابه أشد قتال، وكان الفريق منهم بعد الفريق يدخل إلى سومنات فيعتنقونه ويبكون ويتضرعون إليه، ويخرجون فيقاتلون إلى أن يُقتلوا، حتى كاد الفناء يستوعبهم فبقي منهم القليل فدخلوا البحر إلى مركبين لهم لينجوا فيهما، فأدركهم المسلمون فقتلوا بعضًا وغرق بعض.

وأما البيت الذي فيه سومنات فهو مبني على ست وخمسين سارية من الساج المصفح بالرصاص، وسومنات من حجر، طوله خمسة أذرع، ثلاثة مدورة ظاهرة وذراعان في البناء، وليس بصورة مصورة، فأخذه يمين الدولة فكسره وأحرق بعضه وأخذ بعضه معه إلى غزنة فجعله عتبة الجامع.

وكان بيت الصنم مظلمًا وإنما الضوء الذي عنده من قناديل الجوهر الفائق، وكان عنده سلسلة ذهب فيها جرس وزنها مائتا مَنّ، كلما مضى طائفة معلومة من الليل حُرّكت السلسلة فيصَوِّت الجرس فيقوم طائفة من البرهميين إلى عبادتهم، وعنده خزانة فيها عدة من الأصنام الذهبية والفضية، وعليها الستور المعلَّقة المرصعة بالجوهر كل واحد منها منسوب إلى عظيم من عظمائهم.

وقيمة ما في البيوت يزيد على عشرين ألف ألف دينار فأخذ الجميع، وكانت عِدَّة القتلى تزيد على خمسين ألف قتيل(١).

وبعد، ففي هذا الخبر مواقف وعبر منها:

أولا: إقدام محمود بن سبكتكين على قطع تلك المسافات البعيدة المشتملة على الصحارى المهلكة التي لا ماء فيها ولا طعام، ولقد كان يعلم خطورة قطع تلك

(١) الكامل في التاريخ ٧/ ٣٢٠-٣٢١.

الصحاري، فاستعد لها الاستعداد الكافي، وإذا عرفنا أن استعداده الاحتياطي عشرون ألف جمل يَحْمِل الماء والطعام فإننا نعرف ضخامة العتاد الذي أعده يمين الدولة لتلك الرحلة الجهادية الشاقة.

ثانيًا: حرص يمين الدولة على نشر الإسلام، فقد كان سفره ذلك وتحمُّله تلك المشاقَّ العظيمة للقضاء على ذلك الصنم الكبير، من أجل أن يدرك الهنود أنه ليس هناك آلهةٌ مع الله تعالى ينصرون عابديهم أو ينفعونهم، فيدفعهم ذلك إلى الإسلام.

ثالثًا: نَصْر الله تعالى أولئك المجاهدين بسلاح الرعب واضح في عدة مواطن، وهذا دليل على صلاح ذلك الجيش وصدق نية أفراده.

رابعًا: فى تلك المعركة الفاصلة حَوْل أكبر أصنام الهند اجتمع عباد الله تعالى الذين يعبدونه ويستلهمون منه النصر والتأييد مع عباد ذلك الصنم الذين يعبدونه ويطلبون منه النصر والتأييد، وكان في يقينهم أن من احتمى بذلك الصنم لا يُغلَب، بل كانوا يظنون أنهم ليسوا بحاجة إلى أن يدخلوا مع العدو المهاجم في معارك، لاعتقادهم بأن تلك الساحاتِ ستكون مقبرة للغزاة بمجرد غضبةٍ من ذلك الصنم، ولذلك وقفوا على الأسوار يتفرجون على المسلمين انتظارا منهم لتلك اللحظة التي يتحوَّلون فيها إلى حطام مبدَّد وركام ملبَّد.

فإذا بهم يرون من المسلمين قتالا منعدم النظير، وإذا بهم يشاهدونهم وهم يصعدون إلى السور وهم يكبِّرون الله جل وعلا ويوحدونه.

وعاد الكفار أدراجهم يعانقون صنمهم ويطلبون منه النصر والحماية، ولكن لا حياة لمن تنادي.

إنه لعجب أن ينحدر الفكر البشري فيتوقع أن صنمًا من الجماد يستطيع نصره وإنقاذه، ولقد كانت تلك العقيدة الساذجة مشتركة بين أمم العالم قبل الإسلام، فزالت تلك العقيدة بدخول الناس في الإسلام، ولكنها بقيت في بلاد الهند آنذاك حيث لم يصل الفتح الإسلامي إلا إلى أطرافها الغربية.

إن أى عاقل يتصور هذا الموقف يدرك الفرق الشاسع بين قوم يستلهمون النصر من حجر، وقوم يستلهمونه من خالقهم وخالق أعدائهم وخالق كل شيء جل وعلا.

ولقد ظهر الحق وزهق الباطل حينما انتصر عباد الله سبحانه على عباد الأصنام، وخسر أولئك الكفار دنياهم وآخرتهم، كما خسر عُبَّاد الأصنام من قبلهم.

خامسًا: حطَّم ذلك القائد الكبير يمين الدولة أكبر أصنام الهند وما حوله من الأصنام، كما حطَّم قبل ذلك آلاف الأصنام، ولم يمرَّ عليَّ أن قائدًا مسلمًا حطم من الأصنام بقدر ما حطم السلطان محمود بن سبكتكين، ويكفي مثالا على ذلك أنه لما فتح بلاد قنوج وجَدَ بها ما يقرب من عشرة آلاف صنم فأبادها كما تقدم، وهذه منقبة عظيمة لهذا القائد الكبير.

ولفتة جليلة حينما حمل السلطان محمود جزءًا من صنم الهند الكبير «سومنات» فجعله عتبة لباب المسجد الجامع في غزنة، وكأنه أراد أن يقول للناس: هذا الصنم الذي يعبده ويقدسه مئات الألوف من البشر هو الذي نطؤه نحن بأقدامنا، وهذه صورة معبرة من إذلال الكفر وأهله.

سادسًا: لقد مَنَّ الله تعالى على يمين الدولة بتلك الانتصارات المذكورة لكونه جمع بين القوتين: المادية والمعنوية، فهو لم يهمل الأسباب المادية، بل أعد كل ما تمكن منه من السلاح والعتاد والجنود المدربين، إلى جانب اهتمامه بشكل أبلغ بالقوة المعنوية، حيث كان متوكلا على الله تعالى رافعًا شعار توحيده، يستلهم منه النصر والتأييد، وقبل ذلك كان مستقيمًا عادلا في حكمه.

من مواقفه في الإصلاح والعدل:

ومن مواقفه في الإصلاح والعدل ما ذكره الحافظ ابن كثير بقوله: وبنى على جيحون جسرا تعجز الملوك والخلفاء عنه، غرم عليه ألفي ألف دينار، وهذا شيء لم يتفق لغيره.

قال: وكان عـادلا جيدا، اشتكى إليه رجل أن ابن أخت الملـك يهجم عليه في داره وعلى أهله في كل وقت، فيخرجه من البـيت ويختلي بامرأته، وقد حار في أمره، وكلما اشتكاه لأحد من أولي الأمر لا يجسر أحد عليه خوفًا وهيبة للملك، فلما سمع الملك ذلك غضب غضبًـا شديدًا وقال للرجل: ويحك متى جاءك فأتني فأعلمني، ولا تسمعن من أحـد منك من الوصول إلى، ولو جاءك في الليل فأتني فأعلمني، ثم إن الملك تقدم إلى الحجـبة وقال لهم: إن هذا الرجل متى جاءني لا يمنعه أحد من الوصول إلى من ليل أو نهار، فذهب الرجل مسرورًا داعيًا، فما كان إلا ليلة أو ليلتان حتى هجم عليه ذلك الشاب فـأخرجه من البيت واختلى بأهله، فذهب باكيًا إلى دار الملك فقيل له إن الملك نائم، فقال: قد تقدم إليكم أن لا أمنع منه ليلا ولا نهارًا، فنبهوا الملك فخرج معـه بنفسه وليس معه أحد، حتى جاء إلى منزل الرجل فنظر إلى الغلام وهو مع المرأة في فراش واحد، وعندهما شمعة تَقِدُ، فتقدم الملك فأطفأ الضوء ثم جـاء فاحتز رأس الغلام وقال للرجل: ويحك الحقني بشربة مـاء، فأتاه بهـا فشرب ثم انطـلق الملك ليذهب، فقـال له الرجل: بالله لِمَ أطفأت الشمعة؟ قال: ويحك إنه ابن أختي، وإني كرهت أن أشاهده حالة الذبح، فقال: ولِمَ طلبت الماء سريعًا؟ فـقال الملك: إني آليت على نفسي منذ أخبرتني أن لا أطعم طعامًا ولا أشرب شرابًا حتى أنصرك، وأقوم بحقك، فكنت عطشانًا هذه الأيام كلها، حتى كان ما كان مما رأيت. فدعا له الرجل وانصرف الملك راجعًا إلى منزله، ولم يشعر بذلك أحد[1].

فهـذا الخبـر يدلنا على كمـال اتصاف السلطـان محمـود بن سبكتكين بـالعدل وإنصاف المظلومين من ظالميهم، فحـينما سمع بهذه الشكوى من ذلك المتظلم اهتم كثـيرًا وقام بالبحث والتـحري بنفسه، فلم تغـلبه العاطفة نحـو أقاربه على الحكم بالحق الذي دفعه إليه إيمانه الراسخ. . لم تغلبه من إقرار العدالة وإنصاف المظلومين وإن كانوا من عامة الناس، وعقابِ الظالمين وإن كانوا من أقرب أقاربه.

لقد تأثر كثيـرًا من إقدام ابن أخته على تلك الجريمة النكراء منتهزًا فـرصة قرابته منه، فمنع نفسه الطعام والشراب حتى ينصف المظلوم ويرد الظالم.

---

(١) البداية والنهاية ٢/ ٣٢- ٣٣.

وإن اتصاف هـذا السلطان بالعدل وإنكار المنكر والتـخلق بمكارم الأخـلاق كان سببًا في انتصاراته العظيمة على الأعـداء، وبلوغه في الفتوحات حدا لم يصل إليه غيـره، لأن من خضع لشريعـة الله تعالى وطبقـها على نفـسه وعلى من هم تحت ولايته ينال معية الله جل وعلا بالحفظ والنصر والتأييد.

أما إصلاحاته التي ذكر منها ابن كثـير بناء ذلك الجسر العظيم، فإنها تدل على اهتمامه بأمور رعيـته ورحمته بهم، ورغبته الصادقة في الأعـمال الصالحة، رحمه الله رحمة واسعة.

***

جهاد مسعود بن محمود وابناه مودود وإبراهيم في بلاد الهند

١- ذكر المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة خمس وعشرين وأربعمائة أن السلطان مسعود بن محمود بن سبكتكين سار بجيشه إلى بلاد الهند، وقصد قلعة سرستي، وهي من أمنع حصون الهند وأحصنها فحاصرها، وقد كان أبوه حاصرها غير مرة لم يتهيأ له فتحها، فلما حاصرها مسعود راسله صاحبها وبذل له مالاً على الصلح فأجابه إلى ذلك، وكان فيها قوم من التجار المسلمين فعزم صاحبها على أخذ أموالهم وحملها إلى مسعود من جملة القرار الذي عليه، فكتب التجار رقعة في نشابة ورموا بها إليه يعرفونه فيها بضعف الهنود بها وأنه إن صابرهم ملكها، فرجع عن الصلح إلى الحرب، وطم خندقها بالشجر وقصب السكر وغيره، وفتح الله عليه، وقتل كل من فيها وسبى ذراريهم، وأخذ ما جاورها من البلاد[١].

٢- ذكر المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة خمس وثلاثين وأربعمائة أنه اجتمع ثلاثة ملوك من ملوك الهند وقصدوا «لهاوور»[٢] وحصاروها، فجمع مقدم العساكر الإسلامية بتلك الديار من عنده منهم وأرسل إلى صاحبه مودود بن مسعود بن محمود بن سبكتكين يستنجد به، فسير إليه العساكر، فاتفق أن بعض أولئك الملوك فارقهم وعاد إلى طاعة مودود، فرحل الملكان الآخران إلى بلادهما، فسارت العساكر الإسلامية إلى أحدهما ويعرف بدوبال هربانه فانهزم منهم، وصعد إلى قلعة له منيعة هو وعساكره وكانوا خمسة آلاف فارس وسبعين ألف راجل، وحاصرهم المسلمون وضيقوا عليهم وأكثروا القتل فيهم، فطلب الهنود الأمان على تسليم الحصن، فامتنع المسلمون من إجابتهم إلى ذلك إلا بعد أن يضيفوا إليه باقي حصون ذلك الملك التي لهم، فحملهم الخوف وعدم الأقوات إلى إجابتهم إلى ما طلبوا، وتسلموا الجميع وغنم المسلمون الأموال، وأطلقوا ما في الحصون من أسرى المسلمين وكانوا خمسة آلاف رجل.

(١) الكامل في التاريخ ٨/ ٥-٦.

(٢) لعلها مدينة لاهور الحالية.

فلما فرغوا من هذه الناحية قصدوا ولاية الملك الثاني واسمه ثابت بالْري فتقدم إليهم ولقيهم واقتتلوا قتالا شديداً، وانهزمت الهنود، وانجلت المعركة عن قتل ملكهم وخمسة آلاف قتيل وجريح، وأُسِرَ ضعفاؤهم، وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم ودوابهم.

فلما رأى باقي الملوك من الهند ما لقي هؤلاء أذعنوا بالطاعة، وحملوا الأموال وطلبوا الأمان والإقرار على بلادهم فأجيبوا إلى ذلك[١].

٣- ذكر المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة أن السلطان إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين غزا بلاد الهند فحاصر قلعة «أجود» وهي على مائة وعشرين فرسخًا من «لهاوور» وهي قلعة حصينة في غاية الحصانة كبيرة تحوي عشرة آلاف رجل من المقاتلة، فقاتلوه وصبروا تحت الحصار، وزحف إليهم أكثر من مرة فرأوا من شدة حربه ما ملأ قلوبهم خوفًا ورعبا، فسلموا القلعة إليه في الحادي والعشرين من صفر.

ثم ذكر أنه فتح قلعة روبال وموضعين آخرين يقال لاحدهما «دره نوره» والآخر «وره» وكان النصر حليفه في كل تلك الحروب[٢].

وهكذا قام السلطان مسعود بن محمود بن سبكتكين بإكمال ما بدأه أبوه وثبت حكم المسلمين في الهند، وكذلك ما قام به ابناه مودود وإبراهيم، وهذا الحكم الإسلامي في بلاد الهند الذي امتد تلك السنوات الطويلة مكن لوجود الإسلام في الهند حيث استمر بعد ذلك دخول الهنود في الإسلام وقيام الحكم الإسلامي فيها.

***

(١) الكامل في التاريخ ٨/ ٢٨.

(٢) الكامل ٨/ ١٢٧.

الجهاد والفتوحات
بعد العباسيين

جهاد السلطان محمد شاه البهمنيّ

هو محمد بن الحسن البهمنيّ، السلطان المجاهد في سبيل الله. قام بالملك بعد والده سنة تسع وخمسين وسبعمائة بأرض دكن، وافتتح أمره بالعدل والسخاء، وسار إلى بلاد تلكانه سنة ثلاث وستين، فقاتل أهلها وغنم من الذهب والجواهر الثمينة مالا يحصى، وعاد إلى كَلبركَه، ثم صار في سنة أربع وسبعين إلى تلك البلاد، ولما عرف صاحبها عجزه عن المقاتلة أرسل إليه يطلب المصالحة على مال يؤديه، فأبى محمد شاه ثم أجابه إلى ذلك على ثلاثمائة فيل ومائتي فرس وثلاثة عشر مائة هَنّ وبلدة كَولكنده، فأرسل إليه كل ذلك صاحبها وأرسل إليه سريرًا مرصعًا من الذهب والجواهر، فرجع إلى كَلبركَه وأرسل خُمس الغنائم إلى الشيخ سراج الدين الجنيدي ليفرقها على من يستحقها من السادة والمشايخ.

وفي تلك السنة قدم إليه صاحب بيجانكَر وأخذ قلعة مدكل عنوة وقتل ثمانمائة من المسلمين ممن كانوا فيها، فلما سمع محمد شاه اشتعل غضبًا وحلف أنه يقتل من الوثنيين مائة ألف في قصاص المقتولين، ثم جعل ولده المجاهد وليَّ عهده وأوصى إليه وسار بتسعة آلاف فارس إلى صاحب بيجانكَر وكان معه ثلاثون ألف فارس وتسعمائة ألف راجل[1]، ونهر كشنه كان عظيمًا كثير الزيادة لا يخطر على قلب أحد أن محمد شاه يقدر على عبوره، وأيده الله سبحانه على العبور، فأقام على شاطئه، وألقى الله تعالى الرعب في قلب صاحب بيجانكَر فهابه وبعث الأحمال والأثقال كلها إلى بيجانكَر، وأقام بمعسكره ليستشير أصحابه في الحرب، فإن رضوا بالحرب حاربوه وإلا يذهب إلى بيجانكَر ويتحصن بها، والأحمال التي بعثها إلى بيجانكَر لم تتجاوز ميلين لشدة الوحل ذلك اليوم، فلما سمع محمد شاه أنه ينتهز الفرصة للفرار بكّر إليه بعساكره، فتركوا الفيلة والأموال وما كان معهم من الأحمال وفروا إلى قلعة أودني فأقام محمد شاه في معسكره وقبض على أمواله وأمر بالقتل، فقتل من الوثنيين في ذلك اليوم سبعين ألفًا من الرجال

(١) هكذا جاء هذا الرقم في الخبر، ولعل فيه خطأ أو مبالغة من الراوي.

والنساء والولدان من غير تفريق، وحصل له من المغانم ألفان من الفيلة وثلاثمائة من عجلات المدافع وسبعمائة من الأفراس.

ثم سار إلى مدكل وأقام بها، ولما انقضت أيام المطر قصد قلعة أودني، فلما سمع صاحب بيجانكر استخلف بها ابن أخيه وذهب إلى ناحية من نواحي بلاده، فسار محمد شاه إلى بلاد بيجانكر مع المقاتلة، وأرسل الأحمال والأفيال إلى كَلبركَه وقصد معسكر صاحبها، فبعث إليه صاحب بيجانكر مقدم عساكره بأربعين ألف فارس وخمسمائة ألف راجل، وكان عساكر محمد شاه خمسة عشر ألف فارس وخمسين ألف راجل مع ما لحق به من بعض عساكر الأمراء بعد خروجه عن كَلبركَه، فالتقوا واقتتلوا وانهزم الوثنيون، وأكثر محمد شاه في القتل فلم ينج منهم إلا القليل النادر، وأقام بها سبعة أيام.

وسار محمد شاه في أثر صاحب بيجانكَر وحاصرها وضيق على أهلها وأدام الحصار إلى شهر كامل، ثم دبر الحيلة وتمارض وأمر برجوع العساكر من بيجانكَر، فلما سمع المشركون ذلك طمعوا في قتلهم ونهب أموالهم، فخرج صاحب بيجانكَر من القلعة وتعقب المسلمين حتى وصل إلى ماء تمهندره وعبرها ووصل إلى أرض قفراء، فقام محمد شاه من فراشه وجلس للناس وقت المساء وقويت عساكره برؤيته فأمرهم أن تجهزوا للحرب، وسار بعساكره في الليل إلى معسكر المشركين وكانوا مشتغلين بالرقص والغناء، ولم يعلموا بمجيئه إلا حين وقف على رؤوسهم في البكرة، فاختلت حواسهم وفر كل واحد منهم إلى ناحية من نواحي الأرض وتركوا جميع ما لهم من الأموال والأحمال، وأمر محمد شاه بقتلهم فقتل منهم حينئذ عشرة آلاف، وغنم محمد شاه أموالاً طائلة، ثم تعقبهم إلى أربعين ميلاً من بيجانكر وقتل وغنم، فاضطروا إلى الصلح وأرسل كشن راي إلى محمد شاه يطلب الصلح على مال يؤديه عاجلاً، فرجع محمد شاه إلى كَلبركَه واشتغل بمهمات الدولة، واستقل بالملك سبع عشرة سنة وتسعة أشهر[1].

فى هذا الخبر مواقف جهادية عالية منها:

(١) المختار المصون للدكتور محمد بن حسن بن عقيل/ ١٢٩٩-١٣٠١ نقلا عن الإعلام بما في تاريخ الهند من الأعلام الحي الندوي.

١- جرأة السلطان محمد شـاه على ملاقاة جيش يتكون من ثلاثين ألف فارس وتسعـمائة ألف راجل -كـما جاء في الرواية- بتـسعـة آلاف فارس، وهذا الرقم المذكور لجيش الأعداء قد يكون فيه مبالغة، ولكنه يدل على أن جيش الأعداء كان كبيرًا وأن الفارق بين الجيشين كبير جدًا، وهذا يدل على جسارة عظيمة، وشجاعة عاليـة، واختيار جـيد للجنود، ولا شك أن الروح المعنوية لجـيش المسلمين كانت عالية جدًا، وما ذلك إلا من قوة تمسكهم بالإسلام، حيث كان لعلماء الدين آنذاك دور كبير في تربية الأمة على الاستقامة والإخلاص.

٢- إقدام السلطان مـحمـد شاه على عبـور نهر كشنه مـع كثافـة وزيادة مائه، بحيث يغلب على الـظن -حسب المعتاد- عـدم القدرة على العبـور، وذلك -بعد توفيق الله تعالى- شاهد علي شدة الإقدام وقوة الحماس عند المسلمين، ولعل هذا الإقدام الشديد الذى يـصل إلى حد المغامرة كان سـببًا من أسبـاب إصابة الأعداء بالرعب من المسلمين.

٣- دقة رصد السلطان محمد شاه، حيث علم بما يدور في معسكر الأعداء من المشاورة على الإقدام على قتال المسلمين أو التـحصن بمدينة «بيجانكر»، ثم ما كان عليه هذا السلطان من الحزم واغتنام الفرص المناسبة، حيث أقدم على قتال الأعداء مع أول النهار قبل أن ينسـحبوا وكانوا في حال تـردد وانهزام معنوي، فكان ذلك ممهـدا لهزيمتـهم عـسكريا، حيث لاذوا بالـفرار وتركـوا فِيلَـتهم التي كـانت هي أسلحتهم الثقيلة وتركوا أموالهم، وأكثـر المسلمون من القتل فيهم وهم منهزمون، وكون المسلمين قتلوا بعض نساء العدو وأطفالهم مخالفة شرعية حيث لا يجوز قتل النساء والصبيان إلا إذا شاركوا في القتال، ولعلهم كانوا قد شاركوا، أو لعل ذلك صدر من بعض جنود المسلمين جهلا منهم بالحكم الشرعي في ذلك.

٤- لم يكتف السلطان مـحمـد شاه بهذا النـصر المؤزر على أعدائـه، بل سار خلفهم ليقضي على ما تبقى من قوتهم حتى لا يفكروا بغزو المسلمين مرة أخرى، وقد اعتبـر أن الخطر على المسلمين مازال باقيًا مادام رأس أعـدائه قائمًا على حكم بلاده، فسار إليه حـتى حاصر عاصمة ملكه «بيجانـكر»، وهذا التصميم منه على إنهاء ملك تلك البلاد دليل على خبرته الحربية والإدارية.

٥- في المعـركة الأخـيرة مع عـدوه اسـتعـمل الخداع الحـربي حـينما حـالت التحصينات القوية والجدر السـميكة بينه وبين عدوه، حيث أظهر أنه مريض ورجع إلى بلاده، وجازت هذه الخدعـة على أعدائه فخرجوا يـتعقبون المسلمين ليـوقعوا بهم، فلمـا وصلوا إلى المكان الملائم للحـرب نهض السلطان مـحمـد من فراشـه وصار يزاول مهامـه القيادية بقوة وحزم، ثم داهم الكفار وهم غـارقون في لهوهم فأوقع بهم فلم يكن لهم مقاومة، بل فروا وتركوا أمتعتهم.

وهكذا انتـهت هذه المعارك المثـيرة بـين السلطان محـمد شـاه وعدوه صـاحب «بيجانكر» بانتصار حاسم للمسلمين في جميع تلك اللقاءات.

***

جهاد السلطان محمود بن محمد الكجراتيّ

هو السلطان العادل المجاهد أبو الفتح سيف الدين محمود بن محمد بن أحمد الكَجراتي المشهور بمحمود بيكره.

كان من خيار السلاطين، ولد بكَجرات سنة تسع وأربعين وثمانمائة، وقام بالملك بعد داود شاه سنة اثنتين وستين وثمانمائة وكان يومًا مشهودًا، واستقل بالملك خمسًا وخمسين سنة، وفتح قلعة باردو وفتح قلعة كرنال وكانت من أمنع قلاع الهند، وأنشأ مدينة في سفح الجبل وسماها مصطفى آباد وجعلها دار المملكة.

وفتح قلعة بيت ودوارْكا وفيها صنم من أشهر أصنام المشركين في الهند، يحجون إليه ويرون من العبادة تكلف المشاق في الوصول إليها، حتى إن منهم من ينبطح على وجهه ويمد يديه أمامه ويقف ثم يضع قدمه على منتهى يده وينبطح ويمد يده ويقف، وهكذا يقطع الطريق إليها ولو من مسافة أشهر، فملكها سنة خمس وثمانين وثمانمائة، وسار إلى جانبانير وحاصر قلعتها، وكانت قلعة حصينة متينة على قلة جبل[1] لاتكاد تفتح، فضيق في الحصار وحاصرها مدة طويلة حتى فتحها سنة تسع وثمانين وثمانمائة[2].

وهكذا قضى السلطان محمود بن محمد الكجراتى على ذلك الصنم الذي يعظمه الوثنيون في الهند ويحجون إليه، ويتكلفون المشاق في بلوغه، وإن القضاء على الأوثان من أهم الوسائل الناجحة في الدعوة إلى التوحيد، لأن الأصنام هي أكبر العوائق التي تحول بين العقل والطموح نحو المعاني السامية التي يدعو إليها الإسلام، فإذا أزيلت ولم يحدث لمن أزالها ضرر فإن الناس من عابديها يفهمون بأنها لا قيمة لها في الضرر والنفع، فيصبحون بعد ذلك مهيئين لقبول دعوة التوحيد.

---

(١) رأس جبل.

(٢) المختار المصون للدكتور محمد بن حسن بن عقيل موسى/ ٨٧٧، نقلا عن «الإعلام بما في تاريخ الهند من الأعلام» للشيخ عبدالحي الندوي الحسني.

ومن مآثره الجميلة قيامه بالعدل والإحسان وإنفاذ أمر الشرع في السياسة، ومما يحكى عنه في ذلك أنه بلغه عن بهاء الملك بن علاء الملك ألف خان سهراب أنه قتل سلاحداراً[1] له، فطلبه، فلاذ بعماد الملك وعضد الملك واستجار بهما، فلم يجدا لخلاصه سبيلاً سوى نسبة القتل إلى غيره، فأرضيا شخصين على ضمان الخلاص لهما، وبعد الإقرار به سَعَيا في الدية وكانا عولا عليها في الخلاص فلم تقبل الدية ومضى الحكم بقتلهما وخلص بهاء الملك، وبعد يسير وقف محمود شاه على حقيقة الحال وتعب إلى الغاية وجلس للقضاء وأمضى في الملكين حكم القصاص، ولم يمنعه كونهما من عظماء ملوكه الخاصة به من أن يعمل بالشريعة[2].

وهذا التصرف من هذا السلطان يدل على قوة إيمانه بالإسلام وخشيته من الله تعالى، فإن مما ينظر إليه الساسة في تثبيت سيادتهم مداراة رؤوس مراكز القوي في دولهم، وإن أضر ذلك بعامة الناس، وهذا عمل أهل الدنيا لأنهم ينظرون إلى تثبيت السلطة من غير نظر إلى الحساب في الآخرة، أما أهل الآخرة فإنهم ينظرون إلى النجاة من المسؤولية أمام الله تعالى يوم القيامة، وهذا يتطلب منهم أن يحكموا بالعدل حتى مع الكبراء، وإذا كانت العدالة قد تفقد المسؤول دعم بعض مراكز القوى فإنها تمنحه دعم الألوف من الرعية الذين يتمتعون بعدله، كما كانت حال هذا السلطان الذي بقي في السلطة خمسًا وخمسين سنة.

ومن مكارمه أنه استقل بالملك خمسًا وخمسين سنة وجاهد في الله حق الجهاد ووسع حدود ملكه إلى مالوه وإلى بلاد السند، ولكنه في تلك المدة الطويلة لم يطمح إلى بلاد المسلمين ولم يستشرف لها قط، وإذا استولى القويّ منهم على الضعيف قام بنصرة الضعيف، كما وقع له في سنة ست وستين وثمانمائة إذ وصل إليه حاجب نظام شاه البهمنيّ صاحب دكن يخبره أن محمود شاه الخلجيّ صاحب مالوه خرج إليه بعساكره، فعطف السلطان عنانه من الصيد وتوجه إلى سلطان يُورْ بِمَنْ حضر معه، وأمر الوزير أن يلحقه بالعسكر، ولما نزل بسلطان يور قدم حاجب

(١) أي حافظ الأسلحة ومتوليها.

(٢) المختار المصون/ ٨٧٨، عن «الإعلام بما في تاريخ الهند من الأعلام».

آخر يخبر بالحرب وأنه حاصر دار ملكه بيدر، فنهض السلطان من سلطان يور، ولما كان منزله تهالنير قدم حاجب آخر يخبر برجوع الخلجيّ، وذلك لأنه سمع بوصول محمود شاه الكجراتي فترك بيدر ورجع إلى مندو، وكذلك في سنة سبع وستين وثمانمائة وصل حاجب نظام شاه يخبر أن الخلجيّ خرج بتسعين ألف فارس إلى حدود نظام شاه، فنهض السلطان مع الحاجب وبلغ الخلجي ذلك بفتح آباد من أعمال تلنكَانه فرجع إلى دار ملكه، فكتب السلطان إلى محمود شاه الخلجيّ ما معناه: ليس من المروءة قصد طفل لم يبلغ الحلم وقد التزمت حفظ ملكه إلى أن يبلغ مبلغ الرجال، فإن دخلت في حده خرجت إلى حدك وفيما يليك من جهات الكفر ما يغني عنه ويرفع درجتك بالجهاد.

وإذا انتهيت إلى السلا مة في مداك فلا تجاوز

وكذلك لما بلغ محمود شاه سنة سبع وسبعين وثمانمائة خروج النوتك القواسه على سلطان السند بلغ عددهم أربعين ألفا، وهي طائفة بحرية تسكن الجزر بنواحي السند، لا تجتمع على طاعة أحد، إنما هي من لصوص البحر، فنهض من مصطفى آباد يسير كل يوم ستين فرسخًا، فلما قرب من السند تفرقوا، فتوقف السلطان بمنزله إلى أن وصل رسول ملك السند برسالة تتضمن شكره، فرجع إلى دار ملكه، وكذلك لما بلغه أن جماعة من الأمراء تغلبت في خانديس واختل بها نظام الملك نهض إلى برهانيوز بعساكره، وولى عليها عالم خان بن أحسن خان الفاروقي أحد وارثي المملكة، ولقبه أعظم همايون عادل خان، وكان ابن بنته، وذلك في سنة أربع عشرة وتسعمائة.

ومن ذلك أنه لما توفي محمود شاه الخلجي سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة وبلغ وفاته ترحم عليه فعرض عليه بعض أرباب الرأي الخروج إلى مندو، فأجابه: ليس من الفتوة اجتماع مصيبتين في وقت واحد على أهل بيته: فقد ذاته، وخلل جهاته.

ومن ذلك أنه لما سمع سنة ست وتسعمائة أن ناصر الدين شاه الخلجي سم أباه غياث الدين الخلجي خرج إلى مندو وقصد تأديبه لا ملكه، وبينما كان ينهض تواترت الرسل من ناصر الدين ببراءة ذمته فتركه، وفي كلها مفخرة عظيمة له[1].

---

(١) المرجع السابق/ ٨٧٨ - ٨٧٩.

وبعد: فهذه أخبار عالية عن السلطان محمود بن محمد الكجراتي في الزهد في الجاه، والعفة عن دماء الناس وأموالهم، فقد عاش الأمراء المسلمون من حوله خمسًا وخمسين سنة بسلام، ونَعِمَت الهند بشيء من الاستقرار السياسي الذي ينتج عنه تمتع الناس بنعمة الأمن، حيث كان لا يعتدي على الإمارات الإسلامية التي حوله، ولا يترك القوي من أولئك الأمراء يعتدي على الضعيف، وهذه خصلة حميدة وسياسة عالية، ولقد سبق بذلك هيئة الأمم في مهمتها السياسية العالمية، ولكن بشكل مصغر اقتصر على الإمارات الإسلامية في الهند، ولقد كان انطلاقه في هذه السياسة من واجبه الإسلامي، حيث جاء في الإسلام وجوب نصر المظلوم على الظالم، انطلاقًا من قول الله عز وجل: ﴿**وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ [الحجرات: ٩، ١٠].

وقول رسول الله ﷺ: «**انصر أخاك ظالما أو مظلوما، فقال رجل:** يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوما، أفرأيت إن كان ظالما كيف أنصره؟ **قال: تحجزه -أو تمنعه- من الظلم فإن ذلك نصره**» أخرجه الإمام البخارى من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه(١).

***

(١) صحيح البخاري، رقم ٦٩٥٢، الإكراه (١٢/ ٣٢٣).

جهاد السلطان بابر

هو السلطان بابر بن عمر بن أبي سعيد بن ميران شاه بن تيمور التيموري.

تولى السلطان في «أندجان» من بلاد ما وراء النهر في عام تسعة وتسعين وثمانمائة وله اثنتا عشرة سنة، ثم وسع سلطنته فاستولى على أفغانستان وبعض الهند.

وشعر أحد أمراء الهند الوثنيين القدامى بخطر قيام حكومة يحكمها المسلمون الغزاة الوافدون من الخارج، وإفلات الأمر من يدهم، وهو الأمير «رانا سانكًا» حاكم «جتور»، وكان قائدًا باسلاً محنكًا، فعبأ جيشًا كبيرًا، واتفق معه من الأفغان من كان منتصرًا للأسرة اللودهية الأفغانية التي انتزع منها «بابر» الحكم، فتألف بذلك نحو مائتي ألف محارب، وتوجه الجيش إلى «أكَره» وتوجه «بابر» بجيشه وهو يتألف من اثني عشر ألف جندي، وذلك في جمادى الأولى سنة ثلاث وثلاثين وتسع مائة للهجرة، واستقر في موضع يسمى «كانوه» أو «خانوه».

كاد الوهن يدب إلى جيش «بابر» فقام في الجيش وأعلن توبته عن تعاطي الخمر الذي كان معتادًا له، واستحلف قادة الجيش على الصمود حتى يقضى الله فى شأنهم وحميت المعركة واستعر القتال، وكان الفتح للجيش الإسلامي، وقتل من الجيش المنافس من لا يأتي تحت العد والحصر، وكان فتحًا حاسمًا قضى بقيام حكومة مسلمة، على رأسها الأسرة المغولية من أحفاد بابر دامت أكثر من ثلاثة قرون، حتى انتزعها منها الإنجليز في سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف، وكانت هذه الحرب المقررة لمصير المسلمين السياسيّ في الهند في ثلاث وثلاثين وتسع مائة[1].

في هذا الخبر بيان علو همة السلطان بابر، حيث شملت إمارته بلاد ما وراء النهر وأفغانستان والهند، وفي المعركة المذكورة التي كانت بينه وبين ملك الهند يظهر مثل من عظمة المسلمين الحربية، ومقدرتهم القتالية الفائقة، حيث انتصر

(١) المختار المصون/ ٨٤٣ - ٨٤٤، عن الإعلام بما في تاريخ الهند من الأعلام.

السلطان بابر بجيشه الذي لا يتـجاوز اثني عشر ألف على ملك الهند الذي يتكون جيشه من مـائتي ألف، وإذا عرفنا أن وسائل القتال آنذاك مشتـركة بين المتحاربين، وأنه ليس هناك تفوق ظاهر في السـلاح لأحد الفريقين المتقاتـلين فإننا ندرك مدى القوة المعنوية التي يتمتع بها المسلمون.

وفي هذا الخبر إشارة إلى إدراك هذا السلطان بأن النصر الحقيقي هو من عند الله تعالى، وأن عباده المسلمين ليسوا أهلا لنصره وهم يرتكبون المعاصي، فكان منه أن أعلن توبته عن شرب الخـمر، وهذا يعني أنه في تلك الحال كان في إقـبال شديد على اللجوء إلى الله جل وعلا والتوكل عليه.

وفي هذا الخـبر بيـان أن المسلمين في الهند قـبل حكم هذا السلطان كـانوا في ضعف شـديد وأن ملوك الهند الوثنيين قد ظهروا عليـهم، فكان قدومه وانتـصاره إعزازًا لوجود المسلمين في الهند، وسببًا في دوام دولتهم فيها أكثر من ثلاثة قرون، ولهذا كانت هذه المعركة مصيرية حسمت واقع السلطة على الهند لصالح المسلمين.

***

جهاد السلطان عالمكير

هو الإمام المجاهد أبو المظهر محيي الدين محمد أورنكك زيب عالمكير بن شاهجهان.

ولد سنة ثمان وعشرين وألف في أيام جده جهانكير بن أكبر شاه، ونشأ في مهد السلطة، وتولى الإمارة سنة ثمان وستين وألف، فافتتح أمره بالعدل والإحسان ورفع المظالم والمكوس.

فتح الفتوحات العظيمة وساس الأمور وأحسن إلى الرعية وصرف أوقاته في القيام بمصالح الناس، وكلما فتح بلادا شرع في فتح أخرى حتى لحقت حدود مملكته في الجهة الشمالية إلى حدود خيوا وبخارى، وفي الجهة الجنوبية إلى البحر المحيط الهندي، وفي الجهة الغربية إلى سومنات على شاطئ بحر الهند وفي الجهة الشرقية إلى بوري منتهي أرض أريسه.

وكان ماهرًا بالرمي والطعن والضرب والفروسية وغيرها من الفنون الحربية، وكان شجاعًا مقدامًا باسلاً لا يظهر له في الهيجاء فزع ولا جزع ولا طيش ولا خفة، بل من رآه ظن أنه قد جاء من بعض المتنزهات وهو قد خرج من معركة تطير لها العقول وتشيب لها الولدان.

وكان مشهوراً بالشجاعة منذ صغره، فقد جاء من أخباره أن والده شاهجهان كان يومًا يتفرج في البرج المشرف على نهر «جَمَنْ» على مصارعة الأفيال التي كانت في عرصة القلعة فيما بينها وبين النهر، والأفواج كانت قائمة بين ظهرانيها وخلق كثير يتفرجون عليها في تلك العرصة، وكان عالمكير أيضًا في ذلك الزحام وهو يومئذ في الرابعة عشرة من عمره وكان على فرس على جري العادة، فإذا بفيْلة قد ثارت وقصدت الأفواج، ففر الناس كلهم من بين يديها إلا عالمكير فإنه ثبت على مقامه، فتوجهت إليه الفيلة ولفَّت فرسه بخرطومها، وصرع عالمكير من صهوة الفرس، ثم قام وسل السيف عليها، ثم جاء الناس ودفعوها بالضرب

والطعن وإيقاد النار وغير ذلك، وهذه مفخرة عظيمة في الثبات والعزيمة قلَّ أن توجد في أبناء الملوك في تلك السن.

ومن مآثره أنه نصب الجزية على الكفار بعد أن لم تكن، وتم له ذلك مع أنه لم يتم لأحد من أسلافه.

ولقد اشتهر بالعبادة والزهد وكان ذلك من أسباب تفوقه في الجهاد، فقد حفظ القرآن الكريم بعد توليه السلطة، وكان يداوم على الطهارة بالوضوء، ويحافظ على الأذكار والأدعية المأثورة عن النبي ﷺ والصلاة في الليل وكان يصلي بالناس صلاة التراويح.

وقد وُصِف بالملك العادل الزاهد، وبلغ من الزهد مبلغًا أناف فيه على ابن أدهم، فإنه مع سعة سلطانه يأكل في شهر رمضان رغيفًا من خبز الشعير من كسب يمينه.

وكان له اهتمام جيد بالعلم، ومن اهتمامه بعلم الحديث أنه ألف كتاب «الأربعين» قبل أن يتولى السلطة، ثم ألف كتابًا آخر بعد الولاية جمع فيه أربعين حديثًا وترجمها إلى الفارسية وعلق عليهما الفوائد النفيسة، وكانت له مهارة تامة بالفقه، ويُضرب به المثل في استحضار المسائل الجزئية، وقد صنف العلماء بأمره «الفتاوى الهندية» في ستة مجلدات كبار، فاشتهرت في الأقطار الحجازية والمصرية والشامية والرومية، وعم النفع بها وصارت مرجعًا للمفتين، وقد أنفق على جمعها مائتي ألف من النقود.

وكان ماهرا في الإنشاء والترسل، لم يكن له نظير في زمانه في ذلك، وقد جمع شيئًا منها كثيرا أبو الفتح قابل خان التَّتوي في «آداب عالمكيري» وعناية الله خان في «الكلمات الطيبات» و«الرقائم الكرائم».

ومن مآثره أنه كان سخيًا يبذل على الفقراء وأهل الحاجة العطايا الكبيرة ويسامحهم في الغرامات، ومن ذلك أنه أبطل ثمانين نوعًا من الضرائب في سنة تسع وستين وألف، وكانت تُدِرُّ عليه ثلاثين لَكًّا في كل سنة[1].

(١) أي ما يعادل ثلاثة ملايين.

ومن ذلك أنه بذل أموالا طائلة في إصلاح الشوارع والطرق في نواحي الهند وأفغانستان، وحفر الآبار وأجرى العيون وأسس الجسور والرباطات وغير ذلك.

كما أنه اهتم بالمساجد، فبنى مساجد كثيرة وعمر القديمة منها، وجعل الأرزاق للأئمة والمؤذنين، وجعل الرواتب للمساجد لتأمين ما تحتاج إليه من بسط وسرج وغير ذلك.

وكان مقتصدا في الخيرات غير مسرف في المال، فإنه كان لا يعطي الشعراء ولا أهل الغناء خلافًا لأسلافه فإنهم كانوا يسرفون في ذلك، وكان إذا أعطى العلماء يشترط أن يكون ذلك في مقابل التدريس والإفادة، وإذا بعث الأموال إلى الحرمين الشريفين -زادهما الله تشريفا- يشترط بأن تعطى لأهل الحاجة، ولذلك كان الناس ينسبونه إلى البخل وحاشاه من ذلك.

ولم يزل على سيرته الحميدة حتى توفي بدكن سنة عشر ومائة وألف، رحمه الله تعالى[(١)].

***

(١) المختار المصون ١٣٧٠-١٣٧٨ عن «الإعلام بما في تاريخ الهند من الإعلام» بتصرف.

جهاد السلطان أحمد شاه الدرانيّ

هو أحمد شاه بن زمان خان الدرانيّ المعروف بالأبداليّ، نسبة إلى قبيلة كان أبوه أميرًا عليها، وهو أفغانيّ الأصل ومؤسس الدولة الأفغانية بقندهار.

ولد سنة ١١٣٦هـ، ولما توفي أبوه قبض حسين شاه صاحب قندهار عليه وأسره عنده، فلما غزا نادر شاه قندهار سنة ١١٥١هـ أطلق أحمد شاه من أسره، ووجهه إلى بلاد فارس، وجعله على فرقة من الفرسان واستأثر به وتفرس فيه النجابة والنبوغ، وكان معه عند غزوه للهند سنة ١١٥١هـ، وتوسم فيه نظام الملك مؤسس الدولة الآصفية في حيدر آباد آثار الرشد والعظمة، وتنبأ بأنه سيكون في يوم من الأيام ملكًا كبيرًا، ولما قتل نادر شاه حاول أحمد شاه أن يأخذ ثأره وبذل جهده فلم يساعده القدر لكثرة جيوش الفرس وقوتهم، فلجأ إلى معاقل الجبال في بلاد قومه الأفغانيين ونشر راية الاستقلال وجرى تتويجه في جامع قندهار سنة ١١٦٠ هـ ولقب نفسه «أحمد شاه» و«در دوران» فاجتمع إليه كثير من الأمراء بقبائلهم العديدة، وبذل فيهم أموالاً كثيرة، وأحسن صلتهم، فغزا بهم الجهات المجاورة لمملكته، فاستولى على تلك الولايات، وعلى قسم من مملكة الفرس، وجعل مركز سلطته قندهار، ثم اجتاز إلى أراضي الهند وداس أرض بنجاب وكشمير، وغزا الهند عدة مرات بين ١١٦١ هـ و١١٧٠ هـ، وتوغل في البلاد حتى وصل إلى دهلي سنة ١١٧١ هـ، وصاحبها حينئذ عزيز الدين عالمكَير الثاني ووزيره عماد الملك الذي نصبه، وكان داخله الحسد لامتداد سطوة وزيره المذكور، وحاول كسر شوكته، فلجأ عزيز الدين إلى أحمد شاه واستماله إليه ووافقه على أفكاره فحمله على أن يبقي له السلطة ودخل أحمد شاه دهلي واستباح غنائمها وولّي ابنه تيمور شاه علي بنجاب بعد أن أقام شهرًا في دهلي، وزوج ابنه بابنة صاحب الهند.

ثم خرج من دهلي بعد أن استخلفه عليها، فلما خرج قام الوزير فطرده من دهلي وقتل سلطانه وأقام مكانه محيي السنة بن كام بخش بن عالمكَير الأول فاهتبلت «المرهتة»[1] الفرصة وطردوا الأولياء وأقاموا أولياء من الهنود فجرد أحمد

(١) قوم من كفار الهنود.

شاه عساكره سنة ١١٧٣ هـ وقصدهم، فمضت عليهم سنة هو في التأهبات الحربية والمقاتلات الخفيفة إلى أن تحصن المرهتة في بعض الحصون المنيعة فحاصرهم أحمد شاه وأكرههم على القتال، فانتشبت الحرب وكـان يومًا مشهودًا، قاتلت فيه المرهتة قتالاً شـديدًا وأبلوا بلاءً حسنا، وقد رأى أحمـد شاه باب الفرج غيـر أنهم أطبقوا عليه من كل جـانب، وضيقـوا على عساكره وبذلوا الجـهد في المقاتلة فـانكسرت عسـاكر أحمـد شاه واستولى المرهتـة على دهلي وأسروا العـائلة الملكية بجملتـها واستولوا على كـل المجوهرات، غير أن أحمـد شاه جدد القتال، فـكانت المعركة الحاسـمة في ساحة بانـي بت في سنة ١١٧٤ هـ، واجتمـعت الجيوش الإسلامـية تحت رايته فظفر في هذه الـواقعة بالمرهتة وقتل منهم مـقتلة عظيمة، قتل فـيها من المرهتة ثمانية وعشرين ألفا، وأسر اثنين وعشرين ألفا، وفي تلك الأثناء خرج عليه خارجة من لاهور، فسار إليها وانقض على المتمـردين بجموعه فهزمهم أقبح هزيمة وفتح للأفـغانيين طريق كشـمير، وتوفي أحـمد شاه سنة ١١٨٦ هـ بقـرب مدينة قندهار.

كان أحمد شاه من كبار القـادة العسكريين ومؤسسي الحكومات الذين نبغوا في منتصف القرن الثاني عـشر الهجري، قد جمع شمـل الأفغان، ونظمهم في سلك واحد، وضبط البلاد، وحفظ الثغور، وسن القـوانين العادلة، وأقام الحسبة، وكان جامعًا بين صفات الفروسيـة ومكارم الأخلاق والنبل، محبًا للعلوم والآداب، أليفًا ودودًا، وقورًا مهيـبًا إذا كان على منصة الحكومة، متواضـعًا بعيدًا عن التكلف في غير هذا الوقت، مـتدينًا حريصًا على صـحبة العلماء والصالحـين، مكرمًا للسادة والمشايخ، يذاكرهم في الأمـور الدينية، والمسائل العلميـة، رحيمًا كثيـر العفو عن الأعداء، كـارهًا للقسوة مـحبّـا للمساواة، منح الحـرية الدينية لجـميع الطوائف، وشجع على النكاح الثاني للأيامى، الذي كان يكرهه الأفغان ويتعيرون منه، حمل العلماء والمؤلفين على وضع كتب في تاريخه، وتسجيل وقائعه وأيامه، وكان كاتبًا يؤلف، ويتمنى أن يصل إلى درجة الولاية.

ومن أشهر مآثره وأعظمها أنه هزم المرهتة الذين شكلوا أكبر خطر على الحكومة الإسـلاميـة في الهند وعلى الكـيان الإسـلامي هزيمة منكرة، لم تقم لـهم قائمـة

بعدها، وكان في توجهه إلى الهند لحماية المسلمين سهم كبير لشيخ الإسلام وليّ الله بن عبدالرحيم الدهلوي، الذي حث الأمير نجيب الدولة على دعوته إلى الهند، وكان -لو بقي في الهند- تاريخ آخر للمسلمين فيها، ولكنه كان مرتبطًا ببلاده ومصالحها، لا يحب أن يعيش بعيدًا عن مركز سلطته وقوته، فعاد إلى قندهار على أثر الفتح العظيم، فاضطربت الأحوال في الهند، ولم يستطع المسلمون أن ينتفعوا بهذا الفتح طويلاً لضعف القيادة، وتفرق الكلمة، فكان ما كان، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا(١).

وبعد: فهذه صفحات من جهاد السلطان الكبير أحمد شاه الدراني، والذي يلفت النظر هو معاركه مع كفار الهند «المرهتة» الذين انتهزوا فرصة الخلاف بين زعماء المسلمين فهجموا على البلاد وانتزعوا السلطة، وأفسدوا في الأرض، وإننا لنلاحظ أن السلطان أحمد شاه لما أخفق في قتالهم في المرة الأولى لم ييأس بل عاود الكرة بعد ذلك وهو يعلم أن مسلمي الهند لا طاقة لهم بهم، لأنهم محاربون مهرة ويدافعون عن عقائدهم الباطلة، وقد وفق في المرة الثانية بالقضاء عليهم توفيقًا عظيما، حيث لم تقم لهم بعد تلك المعركة قائمة، وأنقذ دولة الإسلام في الهند، وهو يعتبر من المجاهدين الكبار الذين أبقوا دولة الإسلام في الهند مدة أطول.

ولا ننسى دور العلامة المشهور ولي الله بن عبدالرحيم الدهلوي، الذي كان سببًا في قدوم السلطان أحمد شاه لجهاد الكفار، حيث كان يعلم بأنه هو الذي يستطيع التغلب عليهم.

***

---

(١) المختار المصون / ١٣٥٦ - ١٣٥٨، عن «الإعلام بما في تاريخ الهند من الإعلام».

مـواقـف وعبر
فـــي
فتـوح المغـــرب

١- فتوحات عبدالله بن سعد

كانت الفتوحـات في أفريقية قد توقفت في عهد عـمر رضي الله عنه بعد فتح مصر حيث لم يأذن لعمرو بن العاص رضي الله عنه بالتوغل بجيوش المسلمين قبل رسوخ حكمهم وقوتهم في مـصر، واكتفى عمرو بتأمين حدود مـصر من الناحية الغربية حيث فتح برقة وزويلة من بلاد ليبيا والنوبة من بلاد السودان بقيادة عقبة بن نافع الفهري.

ولما تولى الخلافة عثمان رضي الله عنه ولَّى على مـصر عبدالله بن سعد بن أبي السرح، وكان عبدالله مـشاركًا في فتوح مصر حيث كان على مـيمنة جيش عمرو بن العاص وولاه عمر بـن الخطاب على صعيد مصر مع عـمرو بن العاص، وكان عمرو يـبعثه في بعض الغـزوات، فاكتسب خـبرة واسعة بتلك البـلاد، فلما ولاه عثمان علي مصـر وما وراءها استاذنه في غزو أفريقيا من ناحية الغـرب، فاستشار عثمان أهل الشورى من أصحاب رسـول الله ﷺ فأشار أكثرهم عليه بالإقدام على ذلك، وقد سار عـبدالله بن سعد بجيش قوامـه عشرون ألفًا وانضم إليه عـقبة بن نافع الذي كان مرابطًا في لـيبيا، وجرت الموقعـة الكبرى بين المسلمين والروم ومن معهم من البربر وكان الروم بقيادة جرجير، وانتصر المسلمون عليهم كما تقدم.

واستـمر عـبدالله بن سعـد في غزواته وفـتوحـه حتى أتم فتـح المغرب الأدنى [تونس] إلى أن توقف الجهاد بسبب الفتنة الكبرى التي كـان فيها قتل عثمان رضي الله عنه(١).

***

---

(١) الكامل لابن الأثيـر ٣/ ٣٤، النجوم الزاهدة لابن تَغْـري بَرْدي ١/ ٧٩ وانظر قادة فـتح المغرب العـربي لمحمود شيت خطاب ١/ ٥٤.

٢- فتوحات معاوية بن حُدَيج

كان أحد القادة في فتوح أفريقيا معاوية بن حُدَيج السكوني الكندي الذي اتخذ مقرا للمسلمين في تونس وثبَّت وجود المسلمين فيها، وذلك في عام أربعة وثلاثين للهجرة، ثم فتح مدينة بنزرت عام واحد وأربعين.

قال ابن عذاري: وفي سنة ٤٥ غزا مُعاوية بن حديج الكندي إفريقية، وكانت حربًا كلَّها. قال الطبري: وذلك أن حُباحبة الرومي قدم على معاوية بن أبي سفيان، فسأله أن يبعث معه جيشًا إلى أفريقية، فوجَّه مُعاوية بن حُدَيج في عشرة آلاف مقاتل. فسار حتى انتهى إلى الإسكندرية، فاستعمل عليها حباحبة الرومي. ومضى ابن حديج حتى دخل أفريقية. وكان معه عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعن أبيه وعبدالله بن الزبير رضي الله عنه وعن أبيه! وعبدالملك بن مروان ويحيى بن الحكم بن العاص، وغيرهم من أشراف قريش، فبعث ملك الروم إلى أفريقية بطريقًا يقال له نجفور في ثلاثين ألف مقاتل فنزل الساحل فأخرج إليه معاوية بن حديج عبدالله بن الزبير في خيل كثيفة، فسار حتى نزل على شرف عال، ينظر منه إلى البحر، بينه وبين مدينة سوسة اثنا عشر ميلا، فلما بلغ ذلك نجفورًا، أقلع في البحر، منهزمًا من غير قتال. فأقبل ابن الزبير حتى نزل على باب سوسة، فوقف على البحر، وصلى بالمسلمين صلاة العصر، والروم يتعجبون من جُرأته، فأخرجوا إليه خيلاً، وابن الزبير مُقبلٌ على صلاته، لا يهولُه خبرُها، حتى قضى الصلاة، ثم ركب، وحمل على الروم بمن معه، فانكشفوا منهزمين، ورجع ابن الزبير إلى معاوية بن حديج وهو بجبل القَرْن(١).

وهكذا رأينا ذلك الزعيم الأفريقي يأتي إلى أمير المؤمنين ويطلب منه توجيه جيش لفتح أفريقية وتخليصها من ظلم الروم، وهذا أثر من آثار العدالة الإسلامية، والمعاملة الكريمة التي عامل بها المسلمون أبناء البلاد التي فتحوها، فصار أعداؤهم الذين غزوهم عونًا لهم على عدوهم المشترك، دولة الروم، وما

(١) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ١/ ١٦، وجبل القرن في تونس وحوله أنشأ معاوية بن حديج مدينة القيروان.

كان هناك من سبب لتفضيل حماية المسلمين إلا ما كانوا يتمتعون به من العدالة والأمانة والوفاء.

وفي هذا الخبر موقف لعبدالله بن الزبير رضي الله عنهما، حيث لم يفزع من مجيء جيش الروم وهو يصلي بالناس، بل أتم صلاته بطمأنينة، وهذا دليل على شجاعته وقوة خشوعه وحضور قلبه مع الله تعالى، وقداشتهر بأداء الصلاة الكاملة.

وقد أصيب الروم بالرعب والذهول من هذا المشهد الغريب، وكان ذلك من أسباب انهزامهم حينما حمل عليهم ابن الزبير بالجيش الإسلامي.

وأخرج ابن عبدالحكم من خبر عثمان بن صالح قال: فانتهى -يعني معاوية بن حديج- إلى قونية وهي موضع مدينة قيروان، ثم مضى إلى جبل يقال له: القرن، يعسكر إلى جانبه، وبعث عبدالملك بن مروان إلى مدينة يقال لها: جلولاء في ألف رجل فحاصرها أياما، فلم يصنع شيئًا فانصرف راجعا، فلم يسر إلا يسيرا حتى رأى في ساقة الناس غبارا شديداً، فظن أن العدو قد طلبهم فكرَّ جماعة من الناس لذلك، وبقي من بقي على مصافهم، وتسرع سرعان الناس، فإذا مدينة جلولاء قد وقع حائطها، فدخلها المسلمون وغنموا ما فيها. وانصرف عبدالملك إلى معاوية بن حديج، فاختلف الناس في الغنيمة فكتب في ذلك إلى معاوية بن أبي سفيان. فكتب أن العسكر ردء للسرية، فقسم ذلك بينهم، فأصاب كل رجل منهم لنفسه مائتي دينار، وضرب للفرس بسهمين، ولصاحبه بسهم، قال عبدالملك: فأخذت لفرسي ولنفسي ستمائة دينار، واشتريت بها جارية[(١)].

ولم تقتصر جهود معاوية بن حديج على الغزو البَرِّي فقد وجه حملة بحرية بقيادة عبدالله بن قيس إلى جزيرة صقلية، وفي ذلك يقول ابن عذاري: وأغزي معاوية بن حديج جيشا في البحر إلى صقلية في مائتي مركب فسبَوا وغنموا، وأقاموا شهرا ثم انصرفوا إلى أفريقية بغنائم كثيرة ورقيق وأصنام منظومة بالجوهر، فاقتسموا فيئهم، وبعث ابن حديج بالخمس إلى معاوية بن أبي سفيان[(٢)].

---

(١) فتوح مصر وأخبارها لابن عبدالحكم/ ١٣١-١٣٢، وانظر البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ١٨/١.

(٢) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ١/ ١٦ - ١٧.

٣- فتوحات عقبة بن نافع الأولى

أما الرجل الذي اقترن باسمه فتح بلاد المغرب ونال في ذلك شهرة واسعة فهو عقبة بن نافع الفهري القرشي، وهو من مواليد العهد النبوي واختُلف في صحبته، وقال ابن الأثير: لاتصح له صحبة[١].

وقد بدأ جهاده في فتوح مصر مع عمرو بن العاص رضي الله عنه، واكتسب خبرة حربية عالية من صحبته لعمرو الذي كان يُعِدُّه للمهمات الحربية.

وقد بعثه عمرو على رأس جيش من المسلمين إلى «زويلة» وذلك في سنة إحدى وعشرين، فأصبح ما بين برقة وزويلة من بلاد ليبيا سلمًا للمسلمين.

وفي هذه السنة بعثه عمرو إلى بلاد النوبة جنوب مصر، فالتقى المسلمون مع أهلها في قتال شديد، ثم انصرف عقبة عنهم، وبذلك كان أول من مهَّد لفتح بلاد النوبة من المسلمين.

كما أنه شارك في بعض غزوات أفريقيا تحت إمرة عبدالله بن سعد بن أبي السرح.

ومما يُذكر له رباطه مع جيشه في برقة عدة سنوات لحماية دولة الإسلام من الغرب، وأصبحت تلك البلاد قاعدة لفتح البلاد الأفريقية، وقد قام آنذاك بعدة غزوات بَرِّية وبحرية لتأمين البلاد وتأديب بعض المتمردين الذين ينقضون العهد[٢].

مغامرات في جوف الصحراء:

من غزوات عقبة بن نافع المثيرة ما قام به من الغارة على بعض بلدان الصحراء الكبرى، وفي ذلك يقول عبدالرحمن بن عبدالحكم فيما رواه عن الليث بن سعد: ثم خرج إلى المغرب بعد معاوية بن حديج عقبة بن نافع الفهري سنة ست وأربعين، ومعه بسر بن أبي أرطاة، وشريك بن سمي المرادي، فأقبل حتى نزل بمغمداش من سِرْت قال: وبلغه أن أهل ودَّان قد نقضوا عهدهم، ومنعوا ما كان

(١) أسد الغابة ٣/ ٤٣٠.
(٢) انظر قادة فتح المغرب العربي ٩٤-٩٥.

بسر بن أبي أرطأة فرض عليـهم. وكان عمرو بن العاص قد بعث إليـها بُسرًا قبل ذلك، وهو محاصر لأهل طرابلس فـافتتحها. فخلف عقبـة بن نافع جيشه هنالك واستخلـف عليهم عمر بن علي القـرشي وزهير بن قيس البلوي. ثم سار بـنفسه وبمن خلف معـه أربعمائة فـارس وأربعمائة بعيـر وثمانمائة قربة. حـتى قدم ودان فافتتحها.

وأخذ ملكهم فجدع أذنه. فقال: لِمَ فعلت هذا بي وقـد عاهدتني؟ فقال عقبة: فعلت هذا بك أدبًا لك، إذا مسست أذنك ذكرته، فلم تحارب العرب.

قال: ثم سألهم عقبة: هل من ورائكم أحد؟ فقيل له: جَرْمه. وهي مدينة فزَّان العظمي. فـسار إليـها ثمـاني ليال مـن ودان. فلما دنا منهـا أرسل فدعـاهم إلى الإسلام، فأجابوا فنزل مـنها على ستة أميال، وخرج ملكهـم يريد عقبة. وأرسل عقبـة خيلا فحالت بين ملكـهم وبين موكبه، فأمـشوه راجلا حتى أتى عقـبة وقد لغب. وكان ناعـما فجـعل يبصق الدم. فقـال له: لِمَ فعلت هذا بي وقـد أتيتك طائعا؟ فقال عقبة: أدبًا لك إذا ذكرته لم تحارب العرب.

قال: ثم مضى عـلى جهته من فوره ذلك إلـى قصور فزان، فافـتتحهـا قصرا قصرا، حتى انتهى إلى أقصـاها، فسألهم هل من ورائكم أحد؟ قالوا: نعم. أهل خاوار، وهو قصر عظيم على رأس المفازة، في وعورة على ظهر جبل، وهو قصبة كوار، فسار إليهم خمس عشرة ليلة، فلمـا انتهى تحصنوا. فحاصرهم شهرا. فلم يستطع لهم شـيئًا، فـمضى أمامـه على قصور كـوار فافتتـحها، حـتى انتهى إلى أقصاها، وفيـه ملكها، فأخذه فقطع أصبعه. فـقال: لم فعلت هذا بي؟ قال: أدبًا لك إذا أنت نظرت إلى أصبعك لم تحارب العرب.

قال: فسألهم هل من ورائكم أحد؟ فقال الدليل: ليس عندي بذلك معرفة ولا دلالة. فانصرف عقبة راجعـا، فمر بقصر خاوار، فلم يعرض له، ولم ينزل بهم، وسار ثلاثة أيام. فـأمنوا، وفتحـوا مدينتهم، وأقـام عقبـة بمكان اسمه اليـوم ماء فرس، ولم يكن به مـاء، فأصابهم عطش شديد أشـفى منه عقبة وأصـحابه على الموت، فصلى عقبة ركعتين. ودعا الله. وجعل فرس عقبة يبحث بيديه في الأرض حتى كشف عن صفـاة فانفجر منها الماء، فجعـل الفرس يمص ذلك الماء، فأبصره

عقبة، فنادى في الناس أن احتفروا فحفروا سبعين حسيا، فشربوا واستقوا فسمى لذلك ماء فرس. ثم رجع عقبة إلى خاوار، من غير طريقه التي كان أقبل منها، فلم يشعروا به حتى طرقهم ليلا، فوجدهم مطمئنين. قد تمهدوا في أسرابهم. فاستباح ما في المدينة من ذرياتهم، وأموالهم، وقتل مقاتلتهم. ثم انصرف راجعا، فسار حتى نزل بموضع زويلة اليوم، ثم ارتحل حتى قدم على عسكره بعد خمسة أشهر، وقد جمَّت خيولهم وظهرهم، فسار متوجهًا إلى المغرب وجانب الطريق الأعظم، وأخذ إلى أرض مزاتة، فافتتح كل قصر بها، ثم بعث خيلا إلى غدامس، فافتتحت غدامس، فلما انصرفت إليه خيله سار إلى قفصه، فافتتحها وافتتح قصطيلية[1].

وهكذا كان عقبة على رأس هذه الحملة المغامرة وكان بإمكانه أن يبعث قائدًا غيره وأن يبقى مع جيشه في أمان، ولكنه كان من قوم يتسابقون إلى المعالي، حيث ساعات الأنس والراحة عندهم بين صليل السيوف وصهيل الخيول وقطع الفيافي، فهو لا يبرُّ غيره بعمل تهواه نفسه وينتظر من ورائه رضوان الله تعالى والسعادة الأخروية.

أما مسوغ هذه المغامرة بهذا العدد القليل فهو كون الجيش الخفيف أسرع تحركًا في الصحراء، ولكون البلاد الصحراوية تخلو عادة من التجمعات الكبيرة، ويصعب الإمداد فيها لبعد المسافات.

وهكذا كان عقبة بن نافع ناجحًا في تخطيطه الحربي كما كان ناجحًا في سياسته الإدارية، وإن أهم عوامل نجاحه قربه من الله تعالى واعتماده عليه في تفريج الكربات وتذليل الصعوبات.

إنشاء مدينة القيروان:

لما انتهى عقبة بن نافع من غزواته المذكورة أراد أن يتخذ للمسلمين مكانًا يستقرون فيه لا يشركهم فيه غيرهم، ليكون أمانًا لهم، ولينطلقوا منه في أعمالهم الجهادية، وفي ذلك يقول إبراهيم بن القاسم فيما ذكره ابن عذاري: ووصل عقبة

---

(١) فتوح مصر وأخبارها ١٣٢ - ١٣٣ باختصار.

ابن نافع الفهري إلى أفريقية في عشرة آلاف من المسلمين، فافتتحها، ودخلها، ووضع السيف في أهلها، فأفنَى من بها من النصارى. ثم قال: إن أفريقية، إذا دخلها إمامٌ، أجابوه إلى الإسلام، فإذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر! فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتَّخذوا بها مدينة تكون عزّاً للإسلام إلى آخر الدهر، فاتفق الناسُ على ذلك، وأن يكون أهلها مرابطين، وقالوا: نقرُب من البحر ليتم لها الجهاد والرباط، فقال عُقبة: إني أخاف أن يطرُقها صاحبُ القسطنطينية بغتةً فيملكها ولكن اجعلوا بينها وبين البحر مالا يُدركها صاحبُ البحر إلا وقد عُلم به، وإذا كان بينها وبين البحر مالا يُوجب فيه التقصيرَ للصلاة(١)، فهم مرابطون، فلما اتفق رأيهم على ذلك قال: قربوها من السَّبْخة فإن دوابكم الإبل، وهي التي تحمل أثقالكم، فإذا فَرَغْنَا منها لم يكن لنا بُدٌّ من الغزو والجهاد، حتى يفتح الله لنا منها الأوَّل فالأوَّل، وتكون إبلُنا على باب قصرنا في مَراعيها، آمنةً من عادية البربر والنصارى.

قال: وفي سنة إحدى وخمسين شرع عُقبة في ابتداء بناء مدينة القَيْرَوان، وأجابه العَرَب إلى ذلك. ثم قالوا: إنك أمَرْتَنا بالبناء في شعار وغياض(٢) لا تُرام. ونحن نخاف من السباع والحيَّات وغير ذلك! وكان في عسكره ثمانية عشر رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ، وسائرهم من التابعين. فدعا الله -سبحانه- وأصحابه يؤمنون على دُعائه، ومضى إلى السبخة وواديها، ونادى: أيتها الحيَّات والسباع نحن أصحاب رسول الله ﷺ. فارحلوا عنَّا فإنَّا نازلون ومن وجدناه بعد هذا قتلناهُ، فنظر الناس بعد ذلك إلى أمر مُعْجب، من أنَّ السباع تخرج من الشّعْرَاء(٣) وهي تحمل أشبالها سمعًا وطاعةً، والذِّئب يحمل جرْوَه، والحيَّة تحمل أولادها. ونادى في الناس: كُفُّوا عنهم، حتى يرحلوا عنها، فخرج ما فيها من الوحش والسباع والهوامّ والناسُ ينظرون إليها، حتى أوجعهم حرُّ الشمس، فلمَّا لم يروا منها شيئًا، دخلوا، فأمرهم أن يقطعوا الشجر، فأقام أهل أفريقية بعد ذلك أربعين عامًا لا يرون بها حيَّةً، ولا عَقْربًا، ولا سَبعًا. قال: فاختطَّ عُقبة أوَّلا دار

(١) يعني أن تكون أدنى من المسافة التي تقصر فيها الصلاة.

(٢) الشعار الشجر الملتف، والغياض الأراضي التي يجتمع فيها الماء فينبت فيها الشجر.

(٣) أي من الشجر.

الإمارة، ثم أتى إلى موضع المسجد الأعظم فاختطَّه، ولم يُحدث فيه بناء. وكان يصلي فيه وهو كذلك فاختلف الناس عليه في القبلة وقالوا: إن جميع أهل المغرب يضعون قبلتهم على قبلة هذا المسجد فأجهد نفسك في تقويمها، فأقاموا أيَّامًا ينظرون إلى مطالع الشتاء والصيف من النجوم ومشارق الشمس، فلمَّا رأى أمرهم قد اختلف بات مغمومًا، فدعا الله -عز وجل- أن يُفَرج عنه. فأتاه آت في منامه فقال له: إذا أصبحت فخذ اللواء في يدك، واجعله على عُنُقك. فإنك تسمع بين يديك تكبيرًا لا يسمعه أحدٌ من المسلمين غيرك. فانظر الموضع الذي ينقطع عنك فيه التكبير فهو قبلتك ومحرابك، وقد رضي الله لك أمر هذا العسكر وهذا المسجد وهذه المدينة، وسوف يعز الله بها دينه، ويذلُ بها من كفر به، فاستيقظ من منامه وهو جزعٌ، فتوضأ للصلاة وأخذ يصلي وهو في المسجد ومعه أشرافُ الناس، فلما انفجر الصبح وصلى ركعتي الصبح بالمسلمين إذا بالتكبير بين يديه، فقال لمن حوله: أتسمعون ما أسمع؟ فقالوا: لا، فعلم أنَّ الأمر من عند الله فأخذ اللواء فوضعه على عُنُقه، وأقبل يتبع التكبير حتى وصل إلى موضع المحراب فانقطع التكبير فركز لواءه، وقال: هذا محرابكم فاقتدى به سائر مساجد المدينة.

ثم أخذ الناس في بناء الدُّور والمساكن والمساجد وعمرت، وشد الناسُ إليها المطايا من كل أفُق وعظم قدرها. وكان دورها ثلاثة عشر ألف ذراع وستمائة ذراع حتى كمل أمرُها.

وكان عقبة خير والٍ وخَيْرَ أميرٍ، مُسْتَجَاب الدعوة(١).

وإننا أمام هذا الخبر نلاحظ عددًا من المواقف والعبر، فمن ذلك:

أولا: أن عقبة بن نافع -رحمه الله تعالى- قد أصاب الرأي السديد حينما اتخذ مكانا آمنا يكون مأوى للمجاهدين المرابطين، ومن تحت حراستهم من الذراري والمتاع.

وفي الاحتياطات الأمنية التي ذكرها في مسوغ إبعاد المكان عن البحر دلالة على عمق إدراكه الحربي، وتخطيطه لمواجهة العدو حتى لا يؤخذ المسلمون على غرَّة.

---

(١) البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب ١/ ١٩ - ٢١. وانظر تاريخ الطبري ٥/ ٢٤٠، والكامل لابن الأثير ٣/ ٢٣٠ وفتوح مصر لابن عبدالحكم/ ١٣٣.

وفي حرص بعض أفراد ذلك الجيش على القرب من البحر مع خطورة ذلك دلالة على صدق إيمانهم وقوة تقواهم حيث كانوا يرجون ثواب المرابطين على البحر لمواجهته المباشرة للعدو.

ولكن القائد الذي يشعر بمسئوليته عمن تحت ولايته كما يشعر بمسئوليته عن مستقبل الإسلام ودولته لا يندفع مع حماس بعض أقوياء الإيمان، بل ينظر لمواضع خَطْوِه ونتائج عمله قبل الإقدام، وكون طائفة من الجيش يقبلهم الله تعالى شهداء عنده خير كبير لهم، وهذا من أزكى ما يتنافس فيه السابقون، ولكن يجب على القائد قبل ذلك أن ينظر إلى الأمور التي تقوِّي دولة الإسلام وتُظهر عزَّة المسلمين، في الوقت الذي يحرص فيه على كيد الكفار والنكاية بهم، وحيث إن استشهاد طائفة من المسلمين يضعف من شأنهم ويقوي جانب أعدائهم، ويجرِّؤهم على المسلمين فإن قصد الشهادة وإن كان نبيلاً لا يجوز للقادة أن يتخذوه هدفًا لهم، ولكن إذا وقع ضرورةً فإن من واجب القادة أن يغتنموه في رفع معنويات الجنود ودفعهم إلى النكاية بالأعداء.

ومع هذه الملاحظة المهمة فإننا نجد عقبة لا يكسر ما في نفوس هؤلاء المتحمسين من هذه الرغبة السامية نحو الحصول على ثواب المرابطين في نحر العدو، بل يجمع لهم بين الأمرين: اتخاذ المكان الآمن من مفاجآت العدو، مع قربه من البحر إلى الحد الذي لا يعتبر مسافة قصر، وهذا يجعلهم جميعًا من المرابطين في سبيل الله تعالى.

وإن هذا التصرف الحكيم يعطينا فكرة عما كان يتمتع به عقبة من بُعد النظر، مع الإبقاء على معنوية أفراد الجيش، والحفاظ على بروز شخصيتهم، حتى يكون عطاؤهم في الجهاد مفتوحا، لا تحده العوائق، ولا تضعفه المثبطات.

ثانيًا: فيه عبرة بليغة فيما حدث من عقبة حينما نادى تلك الوحوش والدواب فاستجابت له وغادرت ذلك المكان، وهذه كرامة من الله تعالى يكرم بها أولياءه لما يريد بهم من نصر الإسلام ونشره في الأرض، حيث أسمع تلك الدواب كلام عقبة وأوقع في قلوبهم الخوف منه، وقدَّر لها أن تسمع وتطيع كما لو كانت ذات عقل وإدراك.

وقد رأى ذلك قَبِيلٌ كثير من البربر فأسلموا، كما ذكر ابن الأثير في روايته[1].

هذا وقد حمل بعض المحققين هذا الخبر على أنه من الأساطير التي نسجها الرواة حول عقبة، وعللوا هذا الخبر بأن تلك الدواب فزعت لما سمعت ضجيج الجيش الإسلامي فحملت أولادها وولَّت هاربة.

وهذا التأويل من عجائب بعض المحققين حيث يُغفلون تفكيرهم الصحيح من أجل ردِّ مالا يؤمن به العقل المجرد، كما أنهم يستغفلون المؤرخين الذين رووا هذه الحادثة وأمثالها على أنها من الأمور الخارقة للعادة، ويتهمونهم بالسذاجة لتحويلهم الوقائع المعتادة في حياة الناس إلى ما يشبه الأساطير، فإن التفكير الصحيح يرى أن التأويل الذي اعتمدوه لا ينسجم مع العقل السليم، لأن الوحوش والدواب البرية إذا تعرضت للفزع تأوي إلى جحورها الآمنة لتستخفي بها ولا تلجأ إلى الهرب حتى لا تتعرض للأذى مما فزعت منه، ثم إنه لو حصل خلاف الغالب من المعتاد فهربت تلك الدواب من أمر عادي وهو فزعها من الجيش لم يكن هناك ما يدعو إلى عجب البربر وانبهارهم الذي حملهم على الدخول في الإسلام من أجل ذلك، ولم يكن في ذلك ما يحمل طائفة من المؤرخين على رواية هذه الحادثة الغريبة.

وقد جاء في إحدى روايات ابن عبدالحكم عن الليث بن سعد قال: فحدثني زياد بن العجلان: أن أهل أفريقية أقاموا بعد ذلك أربعين سنة ولو التُمسَتْ حية أو عقرب بألف دينار ما وُجدت.

ثالثًا: عبرة أخرى في تلك الرؤيا التي رآها عقبة بن نافع في أمر تحديد القبلة وما تلا ذلك من سماعه التكبير الذي لم يسمعه من حوله، وهذه كرامة أخرى لهذا الولي الصالح فرج الله تعالى بها عن المسلمين كربة كانوا يعانون منها من عدم مقدرتهم على تحديد القبلة بدقة، وهذا هو أحد المقاصد التي تظهر فيها الكرامات على أيدي أولياء الله الصالحين، وقد كان عقبة مستجاب الدعوة، فاستجاب الله تعالى دعاءه في تفريج همه وهموم المسلمين في هذا الأمر.

---

(١) الكامل ٣/ ٢٣٠.

٣- فتوحات أبي المهاجر

أبو المهاجر هو دينار مولى مسلمة بن مُخَلَّد الأنصاري، وكان معاوية بن أبي سفيان قد ولَّى على مصر مسلمة بن مخلد، وكان أبو المهاجر قد تعلم من مسلمة كثيرًا من أمور الحرب والإدارة، ورأى فيه كفاءة فولاه على أفريقية التي كانت تطلق على البلاد التي تقع غرب مصر، وكان مركزها القيروان في تونس، وكان ذلك في عام خمسة وخمسين للهجرة، وعَزَل عنها عقبة بن نافع الفهري بعد ولايته الأولى.

ومن مواقف أبي المهاجر الجهادية أنه قاد الجيش الإسلامي إلى «قِرطاجَنَّة» عاصمة الروم في شمال أفريقية[١] فحاصرها وتحصن الروم بأسوارها العالية، فشدد عليهم أبو المهاجر الحصار، ولما علموا بأن المسلمين لن يبرحوا حتى يحققوا هدفهم بفتح قرطاجنة طلبوا الصلح، فصالحهم أبو المهاجر على أن يُخلوا له جزيرة «شريك»[٢] التي كان الروم يتخذونها مركزًا لحشد جيوشهم فيها قبل مهاجمة المسلمين.

وقد أشاد اللواء الركن محمود شيت خطاب بهذا الصنيع من أبي المهاجر واعتبر ذلك تخطيطًا حربيًّا عاليا حيث كسب المسلمون موقعًا مهمًا يستطيعون من خلاله أن يراقبوا تحركات الروم[٣].

ومن مواقفه أنه أول من أقام مرابطًا بجيشه لمدة سنتين في مدينة «مَيْلة» بين المغرب الأدنى والأوسط، وذلك بعد أن فتحها، وكان القواد قبله يغيرون ويفتحون البلاد ثم يرجعون، وقد قام بجهود طيبة خلال تلك المدة في نشر الإسلام بين البربر.

وكانت الزعامة في المغربين الأوسط والأقصى لقبيلة «أوْرْبَه» من البربر وكان زعيمها «كسيلة بن لمزم» وكان البربر يجلونه ويحبونه، فلما رأى أبا المهاجر قد

---

(١) وهي مدينة قديمة على ساحل البحر الأبيض بينها وبين تونس اثنا عشر ميلا -معجم البلدان ٧/ ٥٢.
(٢) وهي واقعة بين سوسه وتونس كما في معجم البلدان وذكر محمود شيت خطاب أنها شبه جزيرة.
(٣) قادة فتح المغرب ١/ ١٣٩.

رابط في ميلة علم أنه لابد أن يسير لافتتاح المغرب الأوسط والأقصى، فصار يجمع الجيوش لصد المسلمين فاجتمع له جيش من البربر والروم.

وسمع أبو المهاجر بجمعه فسار إليه في مكان عسكره بتلمسان والتقى الجيشان هناك، ودارت بينهما معركة حامية، انتصر فيها المسلمون، وأُسِرَ كسيلة فحُمِل إلى أبي المهاجر فأحسن إليه وقربه وعامله معاملة الملوك، وأظهر كسيلة الإسلام فاستبقاه أبو المهاجر واستخلصه(١).

وفي هذا الخبر دلالة على نجاح أبي المهاجر في القيادة الحربية حتى استطاع التغلب على ذلك الخصم المطاع الذي اجتمع له الروم والبربر.

ثم إن فيه دلالة على اهتمامه بالدعوة إلى الإسلام حيث اهتم بإسلام ذلك الزعيم البربري، وبإسلامه يمكن أن ينجذب قومه إلى الإسلام، كما أنه يدل على نجاحه في الدعوة حيث استخدم في ذلك الجانب الأخلاقي، وذلك بحسن التعامل وإكرام الزعماء المتبوعين تألفًا لقلوبهم وقلوب أقوامهم.

ومما يذكر لأبي المهاجر أنه أول أمير للمسلمين وطئت خيله المغرب الأوسط.

وبعد هذه الرحلة الناجحة في الدعوة والجهاد عاد أبو المهاجر إلى القيروان، ولما تولى يزيد بن معاوية الخلافة عزل أبا المهاجر عن ولاية أفريقية وأعاد إليها عقبة بن نافع الفهري، وقام عقبة برحلته الجهادية الطويلة كما سيأتي.

وكان بصحبته أبو المهاجر، وكان أبو المهاجر يسدي إليه النصائح القيمة في مجال الإدارة والحرب على الرغم مما حدث بينهما من الجفوة، ومن أبرز هذه النصائح إشارته عليه بإكرام زعيم البربر القوي كسيلة، ومحاولة تأليفه ليبقى على الإسلام وكان قد أسلم على يد أبي المهاجر، ولكن عقبة أهان ذلك الزعيم، حيث أمره يومًا أن يسلخ شاة بين يديه، فدفعها كسيلة إلى غلمانه، فأراده عقبة على أن يتولاها بنفسه وانتهره، فقام إليها كسيلة مغضبا وجعل كلما دس يده في الشاة مسح بلحيته، وبلغ ذلك أبا المهاجر فبعث إليه ينهاه ويقول: كان رسول الله ﷺ يتألف جبابرة العرب وأنت تعمد إلى رجل جبَّار في قومه وبدار عزه حديث عهد بالشرك فتفسد قلبه؟ توثَّق من الرجل فإني أخاف فتكه.

---

(١) فتوح مصر/ ١٣٣ - ١٣٤، قادة فتح المغرب ١/ ١٣٩.

فتهاون به عقبة، فلما انصرف من غزوه نكث البربر ما كانوا عليه وأقبلت النُّفرة إلى عقبة، فقال له أبو المهاجر: عاجلْه قبل أن يجتمع أمره.

واغتنم كسيلة فرصة انفراد عقبة في بعض جيشه كما سيأتي فقال عقبة لأبي المهاجر: الحق بالقيروان وقم بأمر المسلمين وأنا أغتنم الشهادة، فقال أبو المهاجر: وأنا اغتنم الشهادة مثلك، فكسر كل واحد منهما غمد سيفه وكسر المسلمون أغماد سيوفهم وقاتلوا حتى قتلوا(١).

ومن هذا الخبر يتبين لنا تفوق أبي المهاجر من ناحية السياسة والإدارة، فإنه قد خاض معركة كبرى واحدة دوخ بها الروم والبربر، وخضع له البربر، ودخل بعض زعمائهم في الإسلام وأبرزهم كسيلة، ودخل كثير من قومهم في الإسلام، ووفر أبو المهاجر بذلك جهوداً كبيرة لابد من بذلها في فتح بلاد المغرب لو بقي أولئك البربر على كفرهم.

ولا شك فى أن عقبة حينما أهان ذلك الزعيم البربري لم يكن يعتقد بصحة إسلامه، إذ أن عقبة كان في غاية التواضع للمسلمين وكان اجتهاده يقضي بمحاولة إذلال ذلك الرجل حتى يتحطم طغيانه وتهون مكانته في نفوس قومه فلا يستطيع بعد ذلك أن يستنفرهم لحرب ضد المسلمين.

ولكنه أخطأ في اجتهاده لأن قوم ذلك الرجل كانوا حديثي عهد بإسلام، ولم يدخلوا فيه عن قناعة وإنما من باب الاستسلام والخضوع للأقوى.

ولم يكن وضع كسيلة في تظاهره بالإسلام خافيا على أبي المهاجر، وإنما قبل منه ظاهر أمره واستبقاه في جيشه ليأمن شره، ثم لعل إسلامه الظاهري يتحول إلى إيمان باطني مع مخالطة المسلمين ومعاملتهم الكريمة، وكلام أبي المهاجر السابق يدل على ذلك حيث شبَّه كسيلة بجبابرة العرب الذين كان رسول الله ﷺ يتألفهم للإسلام، وحيث قال لعقبة بعدما جرى منه ما جرى: توثَّق من الرجل فإني أخاف فتكه.

---

(١) قادة فتح المغرب ١/ ١٣٧ - ١٤٢ عن الاستقصاء ١/ ٧١ - ٧٢، رياض النفوس ١/ ٢٦-٢٧ وانظر النجوم الزاهرة ١/ ١٥٨ - ١٥٩.

ومهمـا كان لظن عقبـة فيه من احتمـال في عدم الصدق في الولاء فإن كـسبه وبقاءه في جيش المسلمين وتحت سلطتهم أولى بكثير من معاداته وإتاحة الفرصة له لضـرب المسلمين من مكامن الخطـر، وهو الذي صحـبـهم وحـاز على شيء من ثقتهم.

وسيتبين لنا في مواقف فتوح السند المكاسب الكبيرة التي حصل عليها المسلمون من حسن تصرف مـحمد بن القاسم في مـعاملة زعماء تلك البـلاد، حيث أصبح من دخل منهم في الإسلام أو حالف المسلمين سندًا قويًا لجيش المسلمين.

ومن موقف عقبـة المذكور تظهر لنا نتيجة مهمـة من نتائج العمل بسنن الإسلام التي من أهمهـا العمل بالشـورى وأخذ رأي أهل الحل والعـقد خاصـة في الأمور المهمة.

وعلى أي حال فإن كلا القائدين كان مجتـهدًا في تصرفه ولا يظن بواحد منهما أنه كان يعـمل لصالح نفسـه أو لصالح عشـيرته وإنما كان رائدهمـا النظر لمصلحة الإسلام والمسـلمين، ولكن كان اجـتهاد أبي المهـاجر أوفق إلى الصـواب في هذه القضية. رحمهما الله وأجزل مثوبتهما.

***

٤- فتوحات عقبة الثانية

بعد اكتمال بناء القيروان عام خمسة وخمسين عُزِل عقبة بن نافع عن ولاية أفريقية، ثم أُعيد إليها عام اثنين وستين، فقام برحلته الجهادية المشهورة التي قطع فيها ما يزيد على ألف ميل من القيروان في تونس إلى ساحل المحيط الأطلسي في المغرب.

خرج عقبة بأصحابه الذين قدم بهم من الشام وعددهم عشرة آلاف إلى جانب عدد كبير انضم إليهم من القيروان، واستخلف على من بقي زهير بن قيس البلوي، ودعا بأولاده قبل سفره وقال لهم: إني قد بعت نفسي من الله عز وجل فلا أزال أجاهد من كفر بالله - ثم قال - يا بنيَّ أوصيكم بثلاث خصال فاحفظوها ولا تضيعوها: إياكم أن تملئوا صدوركم بالشِّعر وتتركوا القرآن، فإن القرآن دليل على الله عز وجل، وخذوا من كلام العرب ما يهتدي به اللبيب ويدلكم على مكارم الأخلاق، ثم انتهوا عما وراءه، وأوصيكم أن لا تُداينوا ولو لبستم العباء فإن الدَّين ذُلٌّ بالنهار وهمٌّ بالليل، فدعوه تَسلمْ لكم أقداركم وأعراضكم وتَبْقَ لكم الحرمة في الناس ما بقيتم، ولا تقبلوا العلم من المغرورين المرخِّصين فيجِّهلوكم دين الله ويفرقوا بينكم وبين الله تعالى، ولا تأخذوا دينكم إلا من أهل الورع والاحتياط فهو أسلم لكم، ومن احتاط سلم ونجا فيمن نجا. - ثم قال -: عليكم سلام الله وأُراكم لا ترونني بعد يومكم هذا - ثم قال -: اللهم تقبَّل نفسي في رضاك واجعل الجهاد رحمتي ودار كرامتي عندك.

وهكذا ما أن وطئت أقدام عقبة أرض القيروان حتى عزم على الخروج للجهاد غير هياب ولا متردد، ومما يدل على مبلغ حبه للجهاد وهُيامه به قوله في وصيته لأولاده «إني قد بعت نفسي من الله عز وجل فلا أزال أجاهد من كفر بالله»، فهو قد باع نفسه من الله عز وجل، واشتاق إلى الثمن العظيم الغالي ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا**

عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

فجعل عمله الذي نذر حياته لأجله هو الجهاد، ونصب أمام عينيه الهدف السامي، وهو إعلاء كلمة الله تعالى في الأرض.

وكأن السنوات الثمان التي حيل فيها بينه وبين الجهاد كانت سجنًا طويل الليالي عظيم الأثقال.. حتى إذا أُفرج عنه وصارت إليه القيادة سارع إلى حشد القوى والخروج في سبيل الله تعالى.

فماذا سننتظر من رجل قيادي وجهادي من الدرجة الأولى وقد مُكِّن من ممارسته هوايته العظمى بعد الحبس الطويل؟ إنه سيسخِّر كل طاقاته التي وهبها الله له من أجل بلوغ غايته السامية.

ولقد وُفق عقبة بجنود يحبون فيه روح المغامرة والجهاد المتواصل، فبذلوا من طاقاتهم ما يُرضي طموحه وشوقه إلى الإنجاز السريع والعطاء المثمر.

وإننا لنجد في وصيته المذكورة لأولاده فوائد جليلة، فقد أوصاهم بثلاث وصايا:

الوصية الأولى: الاهتمام بانتقاء العلم واختيار أطيبه، وذلك بالاهتمام أولاً بالقرآن الكريم، حيث إنه الكتاب الذي يدل على الله عز وجل، وما أبلغه من وصف يهدي إلى بلوغ الهدف السامي الذي يسعى إليه كل مؤمن، وهو ابتغاء رضوان الله تعالى ونعيمه، ولا شك أن سنة رسول الله ﷺ مما يدخل في مقاصد القرآن الكريم لقوله تعالى ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ [الحشر: ٧].

ثم انتقاء الطيب من كلام العرب الذي يرشد إليه العقل السليم ويحث على مكارم الأخلاق.

الوصية الثانية: البعد عن الاستدانة ولو دفع إليها الفقر لأن الدَّين ذلٌّ بالنهار حيث يدفع المَستدينَ إلى بعض مواقف الذل أمام الدائن ومن لهم علاقة به، وهمٌّ بالليل حيث يخلو المستدين إلى نفسه فيتذكر حقوق الناس عليه.

الوصية الثالثة: التحري في تلقي العلم، وذلك باختيار العلماء الربانيين أهل الورع والتقوى، والبعد عن العلماء المغرورين أهل الدنيا والجاه، فإنهم يزيدون المتعلم جهلاً حيث يبعدونه عن حقيقة العلم وثمرته وهي تقوى الله عز وجل.

ونجد عقبة في نهاية وصيته لأولاده يسلِّم عليهم سلام المودع، مما يدل على استماتته في سبيل الله تعالى، ثم يقول: «اللهم تقبَّل نفسي في رضاك، واجعل الجهاد رحمتي ودار كرامتي عندك».

وبهذا الاهتمام الكبير نجح عقبة بن نافع رحمه الله في فتوحاته حيث جعل الجهاد قضيته الكبرى في هذه الحياة.

وقد سار عقبة في جيش عظيم حتى انتهى إلى مدينة «باغاية» لا يدفعه أحد، والروم يهربون من طريقه يمينًا وشمالاً، فحاصرها وقد اجتمعوا بها وقاتلهم قتالاً شديدًا، فانهزموا عنه وقَتل فيهم قتلاً ذريعًا، وغنم منهم غنائم كثيرة، واحتمى المنهزمون داخل أسوار المدينة، فكره المقام عليهم.

ورحل عقبة فنزل على «تلمسان» وهي من أعظم مدائنهم فانضم إليها من حولها من البربر والروم، فخرجوا إليه في جيش ضخم، والتحم القتال، وثبت الفريقان حتى ظن المسلمون أن في تلك المعركة فناءهم ولكن الله منَّ عليهم بالصبر، فكانوا في ذلك أشدَّ وأصبر من أعدائهم فهاجموا الروم هجومًا عنيفًا حتى ألجئوهم إلى حصونهم فقاتلوهم إلى أبوابها وأصابوا منهم غنائم كثيرة.

واستمر عقبة في سيره نحو المغرب الأقصى حتى وصل بلاد الزَّاب فسأل عن أعظم مدينة في بلاد الزاب فقيل له «أَرَبَه» وهي دار ملكهم وكان حولها ثلاثمائة وستون قرية كلها عامرة، فامتنع بها من كان هناك من الروم وأهل المدينة وهرب بعضهم إلى الجبال، فاقتتل المسلمون مع أهل تلك المدينة فانهزم أهل تلك البلاد وقُتل كثير من فرسانهم.

ورحل عقبة إلى «تاهرت» فاستغاث الروم بالبربر فأجابوهم ونصروهم.

وقام عقبة في الناس خطيبًا فقال بعدما حمد الله وأثنى عليه: أيها الناس إن أشرافكم وخياركم الذين رضي الله تعالى عنهم وأنزل فيهم كتابه بايعوا رسول الله

ﷺ بيعة الرضـوان على من كفر بالله إلى يوم القيامة، وهم أشـرافكم والسابقون منكم إلى البيعة، باعوا أنفسهم من رب العـالمين بجنته بيعة رابحة، وأنتم اليوم في دار غربة، وإنما بايعتم رب العالمـين، وقد نظر إليكم في مكانكم هذا، ولـم تبلغوا هذه البلاد إلا طلبًا لرضاه وإعزازًا لدينه، فأبشروا فكلما كثر العدو كان أخزى لهم وأذل إن شاء الله تعالـى، وربكم عز وجل لا يُسلمكم، فالْقوهم بقـلوب صادقة، فإن الله عـز وجل جعلكم بأسه الذي لا يُردّ عن القـوم المجرمين فقـاتلوا عدوكم على بركة الله وعونه، والله لا يرد بأسه عن القوم المجرمين.

وهذه خطبة عظـيمة تدل على أن عـقبة بن نافع رضـي الله عنه قد اعتـمد في حروبه على السـلاح الأعظم الذي فيه سر انتصـارات المسلمين الباهرة.. ألا وهو التوكل على الله تعـالى، واستحـضار عظمـته وجلاله، ومـعيتـه لأوليائه المؤمنين بالنصر والتأييد، فهو لا يبالي بجيوش الأعداء مهما كثرت، وإنما الذي يهتم به أن يتأكد جيدًا من أن هذا السلاح المعنوى الفعال قـد توفر في جيشه، وحينما يضمن ذلك فإنه يرحب باجـتماع جـيوش الأعداء ليكون ذلك أسـرع في هلاكهم وتمزيق جمعهم على يد أولياء الله الصالحين.

وما أعظم شَبَـه عقبة بخالد بن الوليـد رضي الله عنه، الذي كان يُسَرُّ ويداخله شعور بالقوة والتعاظم - من غير غـرور ولا استهانة - كلَّما تضخَّم جيش الأعداء وتعددت عناصـره، وكأن عقـبة قد تأسى به واتخـذه له قدوة في القيـادة والإقدام الذي لا يعرف التردد والسآمة.

وهو في إقدامه واندفاعـه يدرك أن جنود الإسلام الصادقين هم بأس الله تعالى المسلَّط على أعدائه الكفار، والله تعالى لا يُرَدُّ بأسه عن القوم المجرمين.

إن شعوره الدائم بأن المجاهدين المسلمين هم سيف الله تعالى وبأسه الموجَّه ضد أعدائه يجعله عظيم الثقة بنصر الله تعالى وحسن الظن به.

ولقد مـرت علينا في معـركة الأحزاب ومـؤتة واليرموك وغـيرها أمـثلة رائعة لارتفـاع نسبـة اليقين لدى الصـحـابة رضي الله عنهم، إلى الحد الذي أصـبحـوا يشـعرون فـيه بقـوة ارتباطهـم بالله تعالى وعـمق توكلهم عليـه ورجائهم لنصـره

وتأييده، حيث تضخم في حسهم وشعورهم هذا السلاح المعنوي الفعال، وأصبح السلاح المادي أمرًا ثانويًا مكملاً.

ولفرط إحساسهم بفعالية هذا السلاح المعنوي، وقوة إدراكهم لضرورته فإنهم كانوا شديدي الحساسية من مخالفة أوامر الله تعالى، يحاسبون أنفسهم حسابًا شديدًا، وينكرون على الغافلين الذين لا يتنبهون لأهمية ذلك، ويأخذهم قادتهم غالبًا بالحزم والمتابعة المتواصلة في هذا المجال.

والتْقَى المسلمون بأعدائهم في مدينة «تاهرت» وقاتلوهم قتالاً شديدًا، فاشتد الأمر على المسلمين لكثرة عدوهم، ولكنهم انتصروا أخيرًا، وانهزم أعداؤهم من الروم والبربر، وقُتل منهم عدد كبير، وغنم منهم المسلمون أموالهم وسلاحهم.

وهكذا نصر الله تعالى المسلمين في هذه المعركة وما سبقها من معارك مع عدم التكافؤ في العدد والقوى مع أعدائهم لتفوق المسلمين في السلاح المعنوي إلى حد لا يمكن أن تُجرى فيه نسبة مع الأعداء لخواء الأعداء من ذلك السلاح.

ومازال عقبة يسير من نصر إلى نصر رغم قوة أعدائه وكثرتهم وكونه غريبًا في بلادهم مع بعده عن قاعدته «القيروان» حتى وصل إلى المحيط الأطلسي فقال: «يا رب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهدًا في سبيلك» ثم قال: اللهم اشْهَدْ أني قد بلغت الجهود، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بالله حتى لا يُعبد أحد من دونك».

ثم وقف ساعة، ثم قال لأصحابه: ارفعوا أيديكم، ففعلوا، فقال: اللهم إني لم أخرج بطرًا ولا أشرًا وإنك لتعلم أنما نطلب السبب الذي طلبه عبدك ذو القرنين وهو أن تُعبد ولا يُشرك بك شيء، اللهم إنا معاندون لدين الكفر، ومدافعون عن دين الإسلام، فكن لنا ولا تكن علينا يا ذا الجلال والإكرام، ثم انصرف راجعًا(١).

---

(١) الكامل لابن الأثير ٣/٣٠٨ - ٣٠٩، البيان المُغرب لابن عذاري ١/٢٣ - ٢٧، قادة فتح المغرب العربي للواء الركن محمود شيت خطاب ١/١٠٨ - ١٢٠.

وهكذا نجد عقبة بن نافع القائد المجاهد، وقد عشنا معه في مغامراته وتنقلاته السريعة التي قطع بها أكثر من ألف ميل وخاض عددًا من المعارك الضارية كان النصر فيها حليفه، حيث استمر يفتح البلاد ويُرهب الكفار ويظهر عزة الإسلام، ويحرر عقول الناس حتى يفهموا دعوة الإسلام.

وندرك من قوله المذكور مدى هُيامه بالجهاد وشعوره بالمسؤولية الكبرى التي حملها على عاتقه نحو تبليغ الإسلام وتقوية دولته والقضاء على دُول الكفر التي حجبت نور الإسلام عن شعوبها.

فهو يقف على البحر المحيط ويعلم آنذاك أنه نهاية المعمور من الأرض من ناحية المغرب، ثم نجده يُشهد الله تعالى على أنه قد بلغ المجهود الذي تحت مقدرته، وهذه الشهادة تُشعرنا بمدى ارتباط عقبة بالله تعالى، وأنه لم يكن يسير خطوة إلا وهو يستلهم التوفيق منه جل وعلا ويطلب رضوانه.

وهذا الكلام يدل على وضوح الهدف من الجهاد عند عقبة حيث بيَّن أن الحد الذي يقف عنده الجهاد، أن يزول الشرك من الأرض، وأن لا يُعبد إلا الله جل وعلا وحده، وما دام الشرك قائمًا فإن الجهاد لابد أن يكون موجودًا، فالجهاد إذًا هو جهاد الدعوة إلى الله تعالى، وذلك بإزالة الطغيان البشري وإخضاع دول العالم لحكم الإسلام كي يكون فهم الإسلام واعتناقه متيسرًا لكل الناس.

نهاية عقبة بن نافع:

قفل عقبة بن نافع من رحلته الطويلة في الغزو راجعًا إلى القيروان من المغرب الأقصى، ولما صار قريبًا من منطقة القيروان أرسل غالب جيشه على أفواج إلى القيروان، وبقي هو على رأس الفوج الأخير، ومعه ما يقرب من ثلاثمائة من الفرسان من الصحابة والتابعين.

وكان من عادة عقبة أنه يكون في مقدمة الجيش عند الغزو ويكون في الساقة عند قفول الجيش، فهو بذلك يعرض نفسه لخطر مواجهة العدو دائمًا، وإن هذه التضحية الكبيرة جعلته محبوبًا لدى أفراد جيشه بحيث لا يعصون له أمرًا ويتسابقون على التضحية اقتداءً به، وهذه الصفة تعتبر من أهم عوامل نجاح القائد والإداري في أي عمل يتوجه إليه.

ولما علم الروم بانفراد عـقبة بهذا العدد القليل من جـيشه انتهـزوا هذه الفرصة لمحاولة القضاء عليه، وهم يدركون أن وجوده القوي يعتبر أهم العوامل في تماسك المسلمين وبقاء قوتهم، فـتآمروا عليه مع كسيلة البـربري فجمعوا لعقـبة وأصحابه جمعًا لا قِبَلَ لهم به.

وفي هذا الوقت الذي أدرك فيه عقبة حصول الشهادة له ولجنده تظهر البطولات الكبيرة، والتطبـيق الحيّ لتوجيهات الإسلام العـالية نحو التضحـية وفداء الإسلام بالنفوس.

فقد كان بإمكان عقـبة أن يتسلل مع رفقة قليلة من جيشه ليلحق بجـيشه الكبير في القيروان، ولكنه آثر بهـذه الفرصة أبا المهاجر الذي كان واليًا عـلى أفريقية في الوقت الذي عُزل فـيه عقبـة عن الولاية، وكان عقبـة قد اصطحبه مـعه في تلك الغزوات، فلما شاهد عـقبة الموقف الذي يغلب على الظن فيه اسـتئصال المسلمين بالكامل قال لأبي المهاجر: «الحَقْ بالمسلمين وقم بأمرهم وأنا أغتنم الشهادة».

وعقبة بهذا الكلام قد لاحظ أمرين مهمَّين عنده: أولهما أن يولي على المسلمين في القـيروان من يقـوم بشـؤونهم، وقد رأى أن أولى الـناس بذلك أبا المهاجـر، والأمر الثاني اغتنام فرصة الشـهادة التي طالما انتظرها ببالغ الشوق، وقد لاحت له بوادرها في ذلك اليوم.

ولكن أبا المهاجر يرد عليه بقوله: «وأنا أيضًا أريد الشهادة».

وهكذا كان أبو المهاجر نموذجًا آخر من تلك النماذج الفريدة من الرجال، الذين هانت عليهم الحياة الدنيا، واسـتولى على قلوبهم حب الآخرة وكسب رضوان الله تعالى.

ومن هذا المنطلق أقدم عقـبة ومعه عدد قليل على مـعركة غير متكافـئة، وكان بإمكان بعضهم الفرار، ولكنهم ثبتوا ثبات الأبطال حـتى استشهدوا جميعًا في بلاد «تهوذة» من أرض الزاب.

ويَذكر المؤرخون أن قـبور هؤلاء الشهداء معـروفة في ذلك المكان وأن المسلمين يزورونها(١).

---

(١) الكامل لابن الأثير ٣/ ٣٠٩، البيان المُغرب ١/ ٢٨، قادة فتح المغرب العربي ٢/ ١١١.

إنه موقف عظيم من مواقف الثبات، ومفخـرة كبرى يعتز بها المسلمون، حيث لا يوجد في تاريخ أعـدائهم أن جيشًـا بأكمله يثبت في القـتال حتى يُقتل جـميع أفراده، إذ أن المشـكلة الكبرى التي يواجـهها قادة الأعداء ويـضعون لهـا الحلول المتعددة هي لجوء أكثرهم إلى الفرار حينما تميل الكفة لصالح المسلمين كما مر علينا في مواقف كثيرة.

ولا شك أن هذا الموقف العالى من الثبات قد برهن للأعداء عن صدق المسلمين في دينهم، وعلو مسـتواهم في الثـبات والصـبر، وذلـك يجعلهم يتـرددون في مواجهتهم فيما لو كان عددهم أكبر من ذلك.

وإن مما هو مقرر في نظام الحروب أن المقاتل المـستقتل الذي يريد الموت لا يُقتل حتى يَقتل عددًا من الأعـداء على قدر شجاعته وقوته، لأن طاقتـه الكاملة موجهة للإثخان في العدو، بحيث يلغي من حسابه الدفاع عن النفس، وهذا يدلنا على أن هؤلاء الثلاثمـائة تقريبًا قـد قتلوا أضعـافهم من الأعداء في تلك المعـركة، ولكن الأعداء كانوا مصرِّين على القضاء عليـهم لما يتوقعونه من المكاسب الكبيرة لهم في ذلك.

ولقد كان استشهاد عقبـة بن نافع ومن معه في عام ثلاثة وستين للهجرة وعمره آنذاك في حدود أربع وسـتين سنة، وبهذا ندرك مـبلغ القوة التي كـان يتمـتع بها أسلافنـا حيث قام بتـلك الرحلة الشاقـة وخاض تلك المعـارك الهائلة وقـد جاوز الستين من عمره.

وهكذا استُشهد هذا القائد العظيم بعد جهاد دام أكثر من أربعين عامًا قضاها في فتوح شمال أفريقيا، ابتداءً بمصر وانتهاءً بالمغرب الأقصى.

وكان قائدًا بارعًا وإداريًا نـاجحًا، استطاع بأخلاقه وحكمتـه وحزمه أن يكسب قلوب أتباعه وأن يُوجههم توجيهًا سليمًا نحو الجهاد وإعزاز الإسلام.

***

٥- فتوحات زهير البلوي

لما تم لكسيلة البربري القضاء على عقبة بن نافع ومن معه زحف بجيشه على القيروان، وفي ذلك يقول ابن عذاري: وفي سنة أربع وستين دخل كُسَيلة البُرْنُسي مدينة القيروان، وانتزعها من أيدى المسلمين في محرم، وذلك أنه اجتمع معه جميع أهل المغرب، وزحف إلى القيروان، فعظم البلاء على المسلمين. فقام زُهَير ابن قيس خطيبًا في الناس، فقال: «يا معشر المسلمين إن أصحابكم قد دخلوا الجنة، وقد منَّ الله عليهم بالشهادة فاسلكوا سبيلهم ويفتح الله لكم دون ذلك، فقال حنشٌ الصنعاني: لا والله ما نقبل قولك، ولا لك علينا ولايةٌ، ولا عَمَلَ أفضلَ من النجاة بهذه العصابة من المسلمين إلى مشرقهم، ثم قال : «يا معشر المسلمين من أراد منكم القفول إلى مشرقه فليتبعنى، فاتبعه الناس، ولم يبق مع زهير إلا أهل بيته، فنهض في أثره ولحق بقصره ببرقة، فأقام مُرابطًا إلى دولة عبد الملك ابن مروان.

وأقبل كسيلة البُرنُسي بعساكره. فلما قرب من القيروان، خرج من كان فيها هاربين، إذ لم يكن لهم طاقةٌ بقتاله لعظيم ما اجتمع عنده من البربر والروم، فأمَّن كسيلة من بقى بالقيروان من المسلمين، وأقام بالقيروان أميرًا على سائر أفريقية والمغرب، وعلى من فيه من المسلمين إلى أن وُلِّي الخلافة عبد الملك بن مروان.

قال: وفي سنة خمس وستين من الهجرة وُلِّي عبد الملك بن مروان. فلمَّا اشتدَّ سلطانه واجتمع أكابر المسلمين عليه سألوه تخليص أفريقية ومن بها من المسلمين من يد كسيلة اللعين فقال: لا يصلح للطلب بدم عقبة من الروم والبربر إلا من هو مثلُهُ دينًا وعقلاً، فاستشار مع وزرائه فاجتمع رأيهم على تقديم زهير بن قيس البلوي، وقالوا: هذا صاحبُ عقبة، وأعلمُ الناس بسيرته وتدبيره وأولاهم بطلب دمه، فوجه عبد الملك إلى زهير وهو ببرقة يأمره بالخروج على أعِنَّة الخيل إلى أفريقية، ليستنقذ من بالقيروان. فكتب إليه زهير يعرفه بكثرة من اجتمع على كسيلة من البربر والروم، فأمدَّه عبد الملك بن مروان بالخيل والرجال والأموال،

وحشد إليه وجوه العرب وبعثهم إليــه. فوفدت الجيوش على زهير، وتسرَّع الناس معه إلى أفريقية.

قال: وفي سنة تــسع وستين أقبل زهيــر بن قبس البلوي في عــسكر عظيم إلى أفريقية. فبلغ كــسيلة بن لمزم قدومه إليه وعزمه عليه. فــجعل لا يهابه ولا يخاف منه. وكــان كــسيلة في خلق عظيم من البــربر والروم، أضــعــاف مــا مع زهيــر مُضــاعفة. فــدعا كسيلة أشراف البربر وقــال لهم: إني رأيت أن أرحل عن هذه المدينة فإن بها قــومًا من المسلمين لهم علينا عهودٌ. ونحن نخاف إن أخــذنا القتال مــعهم أن يكونــوا علينا، ولكن ننزل على مــوضع ممس[1] وهي على الماء. فــإن عسكرنا خلقٌ عظيم، فإن هزمناهم إلى طــرابلس قطعنا آثارهم، فيكون لنا الغرب إلى آخر الدهر وإن هزمونا كان الجبل منَّا قريبًا والشعْراء[2] فنتحصن بهما.

قال: ولمَّا رحل كســيلة عن القيروان، نزل عليها زهــير بن قيس ثلاثة أيام ولم يدخلها، وفــي اليوم الرابع رحل عنها حــتى أشرف على عــسكر كســيلة في آخر النهار، فــأمر الناس بالنزول. فلما أصــبح وصلى زحف إليه، وأقبل كــسيلة ومن معه فــالتقى الجمــعان، والتحم القتــال بين الفريقين، ونزل الضرُّ وكثــر القتل في الفريقين، حتى يئس الناس من الحياة. فلم يزالوا كــذلك حتى انهزم كسيلة وقتل. ومضى الناس فــي طلب البربر والروم، فلحــقوا كثــيرًا منهم وقتــلوهم وجدُّوا في طلبــهم إلى وادي ملوية بالغــرب، ففي تلك الوقــعــة ذهب رجال الروم والبــربر المشركين، وقُــتل ملوكهم وأشرافــهم وفرسانــهم. ثم انصرف زهير إلى القــيروان فأوطنها. ففزع منه أهل أفريقية، واشتد خوفهم، فلجؤوا إلى الحصون والقلاع[3].

في هذا الخبر مواقف منها:

أولاً: موقف جــهادي مــشرف من زهيــر بن قيس البلــوي، حيث دعا جــيش المسلمين إلى جهاد كسيلة البربري، والحقيقة أن الجيش الإسلامي الذي فتح به عقبة

(١) هي مدينة في الجزائر في الجنوب الشرقي لجبال أوراس. (٢) يعني الشجر الملتف.

(٣) البيان المغــرب لابن عذاري ١/ ٣٠ - ٣٣، الكامل لابن الأثير ٣/ ٣٠٩، وانظر قادة فــتح المغرب العربي ١/ ١٥١ - ١٥٧.

ابن نافع المغرب موجود في القيروان ولم يفقد منه إلا عقبة والذين استشهدوا معه، فكان الوضع المقبول أن ينهض المسلمون هناك لجهاد عدوهم، ولكن أكثرهم أطاع حنش الصنعاني الذي دعاهم إلى العودة إلى المشرق.

ومن تحليل ذلك الواقع يتبين لنا أن عودة ذلك الجيش كانت بسبب القلاقل والاضطرابات التى سادت دار الإسلام آنذاك، حيث ثار أهل المدينة على يزيد بن معاوية، وبايع أهل مكة عبد الله بن الزبير وخرج الحسين إلى العراق فكانت حادثة مقتله، ثم استطاع ابن الزبير بعد موت يزيد أن يستولى على الحجاز والعراق، ولعل حنش الصنعاني رأى أن المشاركة في إصلاح دولة الإسلام من داخلها أولى من الجهاد فى أطراف دولة الإسلام، ومن أدلة ذلك أنه انضم إلى ابن الزبير لما رأى أنه أحق بالخلافة، ولا يُظَن به ولا بأولئك المجاهدين أنهم تركوا ساحة الجهاد تفضيلاً للراحة وهروبًا من لقاء العدو وهم الذين كانوا يتحرقون شوقًا إلى الجهاد.

ثانيًا: أبان المسلمون للروم والبربر أن انشغال دولة الإسلام عنهم تلك السنوات بالحروب الداخلية لا يعني أن المسلمين قد تخلوا عن جهاد الأعداء والسعي في نشر الإسلام.

وكان زهير البلوي رجل الموقف حيث قضى على دولة قوية من الروم والبربر.

ولقد أظهر المسلمون في هذه المعركة تفوقهم العالي في الصبر على حر القتال، حيث كان القتال متكافئًا بين الطرفين، نظرًا لأن الروم والبربر يعتبرونها معركة مصير، فكانت نتيجة المعركة لصالح المسلمين الذين هم أقوى احتمالاً وأشد تجلدًا.

نهاية زهير البلوي وأصحابه:

عاد زهير إلى القيروان بعدما وطد أقدام المسلمين في تلك المنطقة، وحينما أَمِنَ على وضع المسلمين في القيروان سار ببعض الجيش إلى برقة، وكان يخشى عليها من هجوم الروم حيث لم يترك بها إلا حامية صغيرة.

وقد حصل ما كان يخشى منه زهير حيث أغار الروم على برقة ونهبوا أموالها وسبوا بعض رجالها، ووصل زهير إلى برقة والروم ينقلون الأسرى من المسلمين إلى مراكبهم، فاستغاث به المسلمون فأسرع إلى نجدتهم على غير استعداد منه للقاء

العدو، وكان جيشه متعبًا من السفر فلم يستطيعوا مقاومة الروم، ومع وقوعهم في هذا الظرف السيئ فإنهم ثبتوا للروم رغم قلتهم وكثرة أعدائهم حتى استشهد زهير وأصحابه(١).

وهكذا وقع زهير البلوي في الوضع نفسه الذي وقع فيه عقبة بن نافع الفهري حيث باغتهما العدو على غير استعداد منهما فكانت النتيجة الظفر بالشهادة، وإن كان ذلك قد أثر على وضع المسلمين في أفريقية.

وبهذا انتهى جهاد زهير بن قيس البلوي، التقي العابد والقائد الشجاع، بعدما أزال طغيان البربر والروم في شمال أفريقيا فرحمه الله تعالى رحمة واسعة.

ولعل الذي شجع الروم على الهجوم على برقة - إضافة إلى انشغال زهير بالجهاد في المغرب - ما حدث في دار الإسلام من فتن داخلية، حيث كانت الحرب قائمة - آنذاك - بين عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما، وعبد الملك بن مروان.

* * *

(١) الكامل لابن الأثير ٣/٣٠٩ - ٣١٠، البيان المغرب لابن عذارى ١/٣٣.

٦- فتوحات حسان بن النعمان

ذكر ابن عذاري أن عبد الملك بن مروان ولاه على أفـريقية، وقدمه على عسكر فيه أربـعون ألفًا، وقال له: إني قـد أطلقت يدك في أموال مصر فـأعط من معك ومن ورد عليك، وأعط الناس، واخرج إلى بلاد أفريقية على بركة الله وعونه.

فتح قرطاجَنَّة(١):

قال ابن عذاري: قدم أفريقية في عسكر عظيم، فلم يدخل المسلمون قطُّ أفريقية بمثل ما دخلها حسـان بن النعمان، فلما حصل بالقيروان، سـأل أهل أفريقية: من أعظم الملوك بها قدرًا؟ فقالوا: صاحب قرطاجنة دار ملك أفريقية فسار حسان حتى نزل عليها. وكـان بها من الروم خلقٌ لا يُحصى كثرةً. فخـرجوا إليه مع ملكهم، فقاتلهم حسان حتى هزمهم، وقتل أكثـرهم، ثم نازلها حتى افتتحها، وهي كانت دار الملك بأفريقية.

فلما قدم حسـان إليها، وقتل فرسانها ورجالهـا، اجتمع رأي من بقي بها على الفرار منها. وكانت لهم مراكب كثـيرة، فمنهم من مضى إلى صقلية، ومنهم من مضى إلى الأندلس. فلما انصرف عنها حسـان وعلم أهل بواديها وأقاليمها هروب الملك عنها بادروا إليها فدخلوها. فرحل إليها حسان ونزل عليها فحاصرها حصاراً شديدًا حـتى دخلها بالسيف. فـقتلهم قتلاً ذريعًـا، وسباهم ونهـبهم. وأرسل لمن حواليها فاجـتمعوا إليه مسارعين خوفًـا من عظيم سطوته، وشدة بأسه. فلما أتوه ولم يبق منهم أحـدٌ أمرهم بتـخريب قرطاجنة وهدمـها. فـخربوها حـتى صارت كأمس الغابر. ثم بلغه أن النصارى اجتـمعوا وأمدهم البربر بعسكر عظيم في بلاد صطفورة، فرحـل إليهم حسان حتى لقـيهم. وقاتلهم حتى هزمـهم، وقتل الروم والبربر قـتلاً ذريعًا، وحـمل عليهم أعنة خيله، فـما ترك من بلادهم موضـعًا إلا وطئه. ولجأ الروم هاربين خائفين إلى مدينة باجـة فتحصنوا بها، وهرب البربر إلى إقليم بونة. وانصرف حسان إلى القيروان.

---

(١) ذكر ابن عذاري أنها مدينة عظيمة وأنها من مدينة تونس على اثني عشر ميلاً.

معركة المسلمين الأولى مع الكاهنة:

قال ابن عذاري: لَمَّا دخل حسان القيروان، أراح بها أيامًا. ثم سأل أهلها عمن بقي من أعظم ملوك أفريقية ليسير إليه فيبيده أو يُسلم، فدلوه على امرأة بجبال أوراس يقال لها الكاهنة، وجميع من بأفريقية من الروم منها خائفون، وجميع البربر لها مطيعون: فإن قتلتها دان لك المغرب كله ولم يبق لك مضادٌ ولا معاندٌ، فدخل بجيوشه إليها. وبلغ الكاهنة خبره فرحلت من الجبل في عدد لا يُحصى، ولا يبلغ بالاستقصاء وسبقته إلى مدينة باغاية. فأخرجت منها الروم، وهدمتها، وظنت أن حسانًا يريد مدينة ليتحصن بها منها. فبلغ خبرها حسانًا فنزل بوادي مسكيانة. فرحلت الكاهنة حتى نزلت على الوادي المذكور. فكان هو يشرب من أعلى الوادي، وهي من أسفله. فلمَّا توافت الخيل دنا بعضهم من بعض، فأبى حسان أن يقاتلها آخر النهار. فبات الفريقان ليلتهم على سروجهم. فلمَّا أصبح الصباح التقى الجمعان، فتقاتلوا قتالاً لم يسمع بمثله، وصبر الفريقان صبرًا لم ينته أحدٌ إليه، إلى أن انهزم حسان بن النعمان ومن معه من المسلمين. وقتلت الكاهنة العرب قتلاً ذريعًا، وأسرت ثمانين رجلاً من أعيان أصحابه. وسُمِّيَ ذلك الوادي وادي العذارى. واتبعته الكاهنة حتى خرج من عمل قابس. فكتب حسان إلى أمير المؤمنين عبد الملك يُخبره بذلك، وأن أمَمَ المغرب ليس لها غايةٌ ولا يقف أحدٌ منها على نهاية، كلما بادت أمةٌ خلفتها أممٌ، وهي من الجهل والكثرة كسائمة النعم. فعاد له جوابُ أمير المؤمنين يأمره أن يقيم حيثما وافاه الجواب، فورد عليه في عمل برقة. فأقام بها وبنى هنالك قصورًا تُسمى إلى الآن بقصور حسان.

وملكت الكاهنة المغرب كله بعد حسان خمس سنين. فلما رأت إبطاء العرب عنها، قالت للبربر: إن العرب إنما يطلبون من أفريقية المدائن والذهب والفضة، ونحن إنما نريد منها المزارع والمراعي، فلا نرى لكم إلا خراب بلاد أفريقية كلها، حتى ييئس منها العرب، فلا يكون لهم رجوعٌ إليها إلى آخر الدهر، فوجهت قومها إلى كل ناحية، يقطعون الشجر، ويهدمون الحصون، فذكروا أن أفريقية كانت ظلاً واحدًا من طرابلس إلى طنجة، وقُرى متصلة، ومدائن منتظمة، حتى لم يكن في أقاليم الدنيا أكثر خيرات، ولا أوصل بركات، ولا أكثر مدائن

وحصونًا من إقليم أفريقية والمغرب، مسيرة ألفي ميل في مثله. فخربت الكاهنة ذلك كله، وخرج يومئذ من النصارى والأفارقة خلقٌ كثيرٌ، مُستغيثين مما نزل بهم من الكاهنة، فتفرقوا على الأندلس وسائر الجزر البحرية.

وكانت الكاهنة، لما أسرت ثمانين رجلاً من أصحاب حسان، أحسنت إليهم، وأرسلت بهم إلى حسان، وحبست عندها خالد بن يزيد. فقالت له يومًا: ما رأيت في الرجال أجمل منك ولا أشجع! وأنا أريد أن أرضعك، فتكون أخًا لولدي! وكان لها ابنان أحدهما بربريٌ والآخر يونانيٌ. وقالت له: نحن جماعة البربر لنا رضاعٌ: إذا فعلناه نتوارث به، فعمدت إلى دقيق الشعير، فَلَتَّتْهُ بزيت، وجعلته على ثَدْيَيْها. ودعت ولديها، وقالت: كُلا معه على ثَدْيَيَّ، ففعلا، فقالت: قد صِرتم إخْوَةً(1).

وقد علل اللواء الركن محمود شيت خطاب انهزام المسلمين رغم كثرتهم بأسباب من أقربها أن المسلمين اغتروا بكثرتهم واحتقروا عدوهم خاصة وأنهم بقيادة امرأة منهم وهي الكاهنة، فلم يبذل المسلمون ما يلزم لتلك المعركة من جهد وطاقة بينما استمات أعداؤهم حيث جعلوا تلك المعركة معركة حياة أو موت(2).

وأهم من ذلك إن كان هذا هو الدافع للهزيمة ما يترتب عليه من تخلف معية الله تعالى لعباده بالنصر والتأييد إذا اغتروا بكثرتهم وغفلوا عن ذكر الله جل وعلا واستمداد النصر منه، فيصبح المسلمون هم وأعداؤهم في ميزان معنوي واحد لتخلف نصر الله تعالى عن الجميع، وتبقى بعد ذلك الموازين المادية، وقد تفوق فيها الأعداء في تلك المعركة.

معركة المسلمين الثانية مع الكاهنة:

قال ابن عذاري: ثم إن حسانًا توافت عليه فرسان العرب ورجالها من قِبَل أمير المؤمنين عبد الملك. فدعا حسان عند ذلك برجل يثق به، وبعثه إلى خالد بن يزيد بكتاب. فقرأه وكتب في ظهره: إن البربر متفرقون. لا نظام لهم ولا رأيَ عندهم فاطو المراحل، وجد في السير وجعل الكتاب في خبزة وجعلها زادًا للرجل،

(1) البيان المغرب ١/ ٣٤ - ٣٧، وانظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ٤/ ٣١ - ٣٢.
(2) قادة فتح المغرب ١/ ١٨٥.

ووجهه بها إلى الأمير حسان. فلم يغب عن خالد بن يزيد إلا يسيرًا حتى خرجت الكاهنة ناشرةً شعرها، تضرب صدرها، وتقول: يا ويلكم! يا معشر البربر! ذهب مُلْكُكم فيمـا يأكله الناس فافترقوا يمـينًا وشمالاً يطلبون الرجل، فستره الله تعالى حتى وصل حسـانًا، فكسر الخبزة وقرأ الكتـاب الذي كتبه إليه خالد، فـوجده قد أفسدته النارُ. فقال له حسان. ارجع إليه، فقال الرجل: إن المرأة كاهنةٌ: لا يخفى عليها شيء من هذا[1]. فرحل حسان بجنوده إليهـا. وبلغ الكاهنة خبره، فرحلت من جبل أوراس في خلق عظيم. ورحل إليها حـسان. فلما كان في الليل، قالت لابنيها: إني مقـتولةٌ، وأعلمتهم أنها رأت رأسها مقطوعًـا موضوعًا بين يدي ملك العـرب الأعظم الذي بعث حسـانًا. فقـال لهـا خالد: فـارحلي بنا وخلي له عن البلاد، فامتنعت، ورأته عارًا لقومها. فقال لها خالد وأولادها: فما نحن صانعون بعدك؟ فـقالت: أما أنت يا خـالد فستُـدرك ملكًا عظيمًا عـند الملك الأعظم وأما أولادي فيـدركون سلطانًا مع هذا الـرجل الذي يقتلني ويعـقدون للبـربر عِزًّا، ثم قالت: اركـبوا واسـتأمنوا إليـه، فركب خـالد وأولادها في الليل، وتوجـهوا إلى حسان. فأخـبره خالدٌ بخبرها، وأنها علمتْ قتلـها، وقد وجهت إليك بأولادها. فوَكَّل بهما مـن يحفظهما، وقدَّم خالدًا على أعنة الخـيل. وخرجت الكاهنة ناشرة شعرها فقـالت: انظروا ما دهمكم فإني مقتولةٌ. ثم التحم القـتال، واشتد الحرب والنزال. فانهزمت الكاهنة، واتبعها حسان حتى قتلها.

وكان مع حسان جماعةٌ من البـربر استأمنوا إليه. فلم يقبل أمانهم إلا أن يعطوه من قبـائلهم اثني عشـر ألفًا يجاهدون مع العـرب. فأجابوه وأسلـموا على يديه. فعـقد لولدي الكاهنة، لكل واحـد منهما على سـتة آلاف فارس، وأخـرجهم مع العرب يجولون في المغرب يقاتلون الروم ومن كفر من البربر. وانصرف حسان إلى مدينة القيروان، بعدما حسن إسلامُ البـربر وطاعتهم، وذلك في شهر رمضان سنة اثنتين وثمانين. وفي هذه السنة اسـتقامت بلاد أفريقـية لحسان بن النعـمان، فدوَّن الدواوين، وصالح على الخـراج، وكتبه على عـجَم أفريقية وعلى من أقـام معهم على دين النصرانية[2].

(١) وجاء في رواية ابن الأثير: فعاد إلى خالد فكتب إليه كما كتب أوَّلاً وأودعه قربوس السرج.

(٢) البيان المغرب ١/ ٤٣ - ٣٨، وانظر الكامل فى التاريخ لابن الأثير ٤/ ٣١ - ٣٣.

في هذا الخبر مواقف وعبر، فمن ذلك: **أولاً**: ما قام به خالد بن يزيد القيسي من الكتابة إلى حسان بن النعمان وجعله ذلك الكتاب في خبزة ثم في قربوس السرج.

وهذا التصرف من خالد بن يزيد يدلنا على شدة حزمه واحتياطه للأمر حتى لا يقع كتابه بيد أحد جواسيس الكاهنة فتفسد خطة المسلمين ويتعرض هو وبقية أسرى المسلمين للأذى والقتل من تلك الحاكمة الجبارة.

وقد أفاد في هذا الكتاب أن أهم عنصر من عناصر القوة لدى الكاهنة قد زال عنها وهو اجتماع قبائل البربر عليها حيث إنهم متفرقون وأن نظامهم قد اختل وأصبحت الفرصة مناسبة للقضاء على قوة أولئك البربر.

ثانيًا: في سياسة تلك المرأة الكاهنة الهوجاء عبرة، فإنها فقدت سمعتها شيئًا فشيئًا حيث أساءت معاملة أهل تلك البلاد وظلمت وتجبَّرت، ثم خطر ببالها أن العرب إنما يريدون البلاد لما فيها من عمران وأموال فأمرت أتباعها بهدم العمران وقطع الأشجار حتى أحالت المدن العامرة إلى خراب، فكان ذلك وبالاً عليها حيث انقلب عليها أهل البلاد وأصبحوا يتمنون عودة المسلمين ليخلِّصوهم من ظلمها.

وهكذا هيأ الله للمسلمين الظروف الملائمة والممهدة للقضاء على ذلك العدو المتمكن، وهذا يدلنا على أن المسلمين لم ينتصروا لمجرد قوتهم وشجاعتهم وإنما كان العامل الأول في انتصاراتهم المتوالية هو ما اشتهروا به من العدل والأمانة والرحمة وسائر مكارم الأخلاق التي جعلت الشعوب المغلوبة على أمرها تتمنى قدوم المسلمين عليهم ليخلصوهم من بطش الظالمين وقهرهم.

ثالثًا: مما حدث بعد هذه المعركة من الحوادث المشتملة على مواقف حميدة أن جماعة من زعماء البربر جاؤوا إلى حسان بن النعمان مستأمنين فقبل أمانهم بشرط أن يعطوه اثني عشر ألفًا من قبائلهم يجاهدون مع المسلمين، فأجابوه وأسلموه على يديه، وأحضروا له ذلك العدد، فولَّى ولَدَي الكاهنة على ذلك الجيش.

---

(١) البيان المغرب ١/ ٣٤ - ٣٨، وانظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ٤/ ٣١ - ٣٣.

٧- فتوحات موسى بن نُصَير

لقد آل أمر المغرب بعد حسان بن النـعمان الأزدي إلى آخر قادتها الفاتحين وهو مـوسى بن نصيـر اللخمي، وذلك في أوائـل سنة ست وثمانين تقـريبًا، وكـانت ولايته من قِبَل أمير مصر عبد العزيز بن مروان.

ولما أكمل موسـى بن نصير استعـداد جيشه توجـه من مصر إلى أفريقـية وقام خطيـبًا في جـيشـه وكان مما قـاله: «إنما أنا رجل كأحـدكم فمن رأى مني حـسنة فليحـمد الله تعالى، وليـحضّ على مثلها، ومن رأى مـني سيئة فـلينكرها، فإني أخطئ كما تخطئون، وأصيب كما تصيـبون، وقد أمر الأمير أكرمه الله تعالى لكم بعطاياكم وتَضعيفها ثلاثًا، فخذوها هنيئًا مريئًا، ومن كانت له حاجة فليرفعها إلينا وله عندنا قضاؤها على ما عـزّ وهان، مع المواساة إن شاء الله تعالى ولا حول ولا قوة إلا بالله»(١).

وهذه خطبة عظيمة قدَّمها موسى بن نصير بين يدي ولايته أمام جنده، وقد قرر فيهـا قواعد العدل التي بها تسـتقر أمور الولايات، ويَعرف بهـا الجنود والرعية أن الأمير سيسير بالعدل بين الناس، والإنصاف حتى من نفسه.

وإذا استقرت أمور الناس على العدل فإنهم يستخرجون كل ما لديهم من مقدرة في العـمل، فيصـبح الواحد منـهم عن عشرة أو أكـثر ممن لا يُبـرزون إلا بعض طاقاتهم.

إن إظهار العدل والالتزام بـتطبيقه هو أول علامات نجاح المسـؤول لأنه بالتمثل بهذا المبـدأ يضمن جنودًا مخلصين له ولقـضيتـه، كما أنه يضـمن خلو عمله من المشكلات والمآزق التي تنتج غالبًا من تفضيل الأدنى على الأعلى، وإبراز أصحاب القدرات الضعـيفة والكفاءات القليلـة مع تجاهل أصحاب الكفاءات العـالية الذين يبذلون طاقات كبيرة في العمل.

(١) قادة فتح المغرب ١/ ٢٢٨ عن الإمامة والسياسة ٢/ ٦١ - ٦٢.

ولقد كان موسى بن نصير موفقًا حينما وجه جنده إلى تقويم أعماله التي يقوم بها، ثم القيام بحمد الله تعالى على الحسنات، والنصيحة للقائد بالإكثار منها والمداومة عليها، وإنكار السيئات وبيان الأخطاء.. وذلك أن الإشادة بالحسنات والتذكير بها مما يدفع المسئول إلى مضاعفتها والالتزام بها، وبيان الأخطاء في حينها مما يدفع المسؤول إلى تصحيحها والحذر من تكرارها.

إن الأخطاء إذا تُركت فلم تعالج في أول حدوثها فإنها تترك آثارًا سيئة، وقد يترتب عليها أخطاء أخرى، وقد تتكرر إذا لم يتنبه لها المسؤول أو ينبهه لها ناصح مخلص.

جهود ابن نصير في إخضاع المتمردين:

ما أن وصل موسى بن نصير إلى القيروان حتى وجّه ثلاث سرايا لإخضاع المتمردين من البربر، وحيث إنه لم يواجه منهم تجمعًا كبيرًا فإنه اكتفى بإرسال هذه السرايا، وفي ذلك كسب للوقت حيث عاد قادة تلك السرايا بالنصر والغنائم، وكان أهمَّ هذه المواقع التي أخضعها جبلُ «زغوان» الذي كان منيعًا وكان البربر يلجئون إليه.

ولما تم إخضاع المغرب الأدنى وجَّه ألف فارس إلى قبيلتي هوَّاره وزناتة من البربر في المغرب الأوسط فأغاروا عليهم وقتلوا منهم وسبوا، ثم عرضوا الصلح فصالحوهم، وكذلك صالح موسى قبيلة كتامة.

ثم هاجم موسى قبيلة صنهاجة وهي من القبائل المتمردة، فقتلهم قتل الفناء وسبَى منهم كثيرًا.

أما أهل سجومة الذين سبق أن أوقعوا بالمسلمين على غرة منهم وقتلوا عقبة بن نافع ومن معه فقد غزاهم موسى بعشرة آلاف، وأعطى اللواء ابنه مروان، حتى إذا كان بمكان يقال له «سجن الملوك» خلَّف الأثقال وتجرد في الخيول حتى انتهى إلى نهر يقال له: «نهر ملويه» فقطع النهر، فلما وصل إليهم وجدهم قد تأهبوا له فاقتتلوا قتالاً شديدًا في جبل شديد لا يوصل إليهم إلا من أبواب معلومة، وبعد

قتال استمر ثلاثة أيام انهزم أهل سجومة ففتح المدينة وقتل ملوكها، وأمر أولاد عقبة بن نافع (عياضًا وعثمان وأبا عبيدة) أن يأخذوا حقهم من قَتَلَة أبيهم فقتلوا من أهل سجومة ستمائة من كبارهم.

هذا وإن انتصار المسلمين على أهل تلك المدينة مع كونهم في جبل منيع لا يوصل إليه إلا من أبواب معلومة يعتبر مثالاً على تفوق المسلمين الباهر من الناحية العسكرية.

وهكذا أخضع موسى قبائل البربر التي شقت عصا الطاعة بعد مسير حسان بن النعمان إلى المشرق، وكذلك أخضع القبائل التي لم تكن خضعت بَعْدُ للمسلمين.

فتح مدينة طنجة:

ثم سار موسى يفتح المدن ويُخضع القبائل حتى دانت له بلاد المغرب كلها، ولم يبق أمامه إلا منطقة «طنجة» وكانت تخضع للأمير الرومي جوليان. فزحف نحوها موسى وجعل على مقدمته مولاه طارق بن زياد ومازال يقاتل البربر ويفتح المدائن حتى بلغ مدينة طنجة، فلما دنا منها بث السرايا لإخضاع ما حولها من البلاد، وحاصر طنجة حتى افتتحها ونزلها وهو أول من نزلها واختط فيها من المسلمين فأسلم أهلها وجعلها محط إقامة للمسلمين كالقيروان.

أعمال ابن نصير الإصلاحية:

عاد موسى بن نصير إلى القيروان بعدما نشر الإسلام في البربر، وقد أبقى عندهم من يعلِّمهم الإسلام ويقرئهم القرآن ويفقههم في الدين، وولى على طنجة وأعمالها مولاه طارق بن زياد وترك عنده تسعة عشر ألفًا من البربر بالأسلحة والعدة الكاملة، وكانوا قد أسلموا وحسن إسلامهم.

ولم يبق من بلاد المغرب بيد الكفار إلا منطقة (سبتة) التي كانت في مواجهة الأندلس فكان أهل الأندلس، يمدونها بالمؤن والسلاح حتى استطاع أهلها أن يصمدوا أمام المسلمين فتركها موسى بن نصير لجولة قادمة، ولكن كان قد أمِن

على بلاد المغرب من حولها في طنجة حيث أبقى طارق بن زياد ومعه ذلك الجيش الكبير من البربر والمسلمين(١).

وهكذا تبين لنا ما قام به موسى بن نصير من الأعمال الجهادية في بلاد المغرب بأجزائه الثلاثة الأدنى وهو بلاد تونس والأوسط وهو الجزائر والأقصى وهو المغرب حاليًا تقريبًا، وتم ذلك في وقت قليل نسبيًا لأن القادة السابقين من عهد عقبة بن نافع إلى عهد حسان بن النعمان قد مهدوا لذلك وفتحوا أكثر هذه البلاد، ولكن البربر كانوا كلما فارقهم قائد قوي اغتنموا الفرصة فنقضوا عهودهم، وكذلك كان الروم يغتنمون عهود الضعف للمسلمين وانشغالهم بمشكلاتهم الداخلية فيعودون إلى احتلال البلاد مرة أخرى.

لكن موسى بن نصير في الفتح الأخير قد قضى على هذا الوضع المضطرب حيث أبقى حاميات قوية من العرب ومسلمي البربر، كما قام بتطهير بعض الأوكار القريبة التي كان القادة العرب يتركون البربر فيها لمناعتها مثل جبل «زغوان» في تونس، كما أنه أسس قاعدة حربية مهمة في أقصى المغرب وذلك في طنجة حيث أبقى فيها طارق بن زياد في جيش كبير، وبقي هو في القيروان في تونس فلم تطمع أي قبيلة من البربر في الانتقاض على المسلمين بعد ذلك، إلى جانب أنه قام بتكثيف الجهود في الدعوة الإسلامية بين البربر حتى تحولوا إلى جنود مخلصين للإسلام ودولته.

لقد كان طغاة تلك البلاد وأصحاب الأهواء المنحرفة يغتنمون فترات الضعف وانتقاض سيادة المسلمين ليقوموا بدعوة العامة وجمعهم، فتتحول البلاد إلى حالة من الفوضى والاضطراب ويحاول الأقوياء انتهاب الضعفاء، ولكن ما أن يأتي قائد مسلم قوي حتى يفيء إليه العقلاء طلبًا لتخليص البلاد من تلك الحال السيئة، ولذلك كان هؤلاء خير معين لحسان بن النعمان حينما عاد مرة أخرى ليطهر البلاد من حكم الطغاة المفسدين في الأرض فتمكن بمعونتهم من تخليص البلاد من طغاة البربر والروم كما سبق.

(١) البيان المغرب ١/ ٤٠ - ٤١، الكامل في التاريخ ١١٢/٤. وانظر قادة فتح المغرب ٢٢٨/١ - ٢٣٧.

ثم فرح هؤلاء العقلاء بمجيء موسى بن نصير لِمَا رأوا فيه من الحزم والعزم القوي والعدل الشامل فيسَّروا له مهمة تطهير البلاد من أوكار الهدم والتدمير.

ثم لما زال حكم الطغاة سارع البربر إلى الدخول في الإسلام حتى تكوَّن منهم جيوش قوية كانت خير معين للعرب في حماية تلك البلاد من طغاة البربر والروم، حيث لم يكن بإمكان العرب لقلتهم أن يبسطوا نفوذهم على شمال أفريقيا، تلك المنطقة الواسعة فكانوا قبل انتشار الإسلام بين البربر كلما أخضعوا منطقة انتقضت عليهم مناطق أخرى.

وكان من حسنات موسى بن نصير إسراعه في تكوين جيوش من مسلمي البربر وحسن اختياره للقادة منهم من أمثال طارق بن زياد الذي طار ذكره بعد ذلك في فتح الأندلس.

لقد استطاع ابن نصير بمعونة من معه من القادة والدعاة أن يحوِّلوا بتوفيق الله أولئك التائهين الذين كانوا يصرفون طاقتهم في تأمين شهواتهم الدنيوية إلى مجاهدين يحملون بأفكارهم الهدف الأعلى الذي يقاتلون من أجله وهو إعلاء كلمة الإسلام، ثم إنهم لم يُحرَموا مع العمل لهذا الهدف من الحصول على ما يريدون من الدنيا بالغنائم المباحة التي يصرفونها فيما يرضي الله تعالى.

وهكذا يستطيع القائد المسلم الذي نور الله بصيرته أن ينتزع من الطغاة الذين يتزعمون الناس أعداداً هائلة من الشباب الذين كانوا يعملون من غير هدف إلا الخضوع لتوجيهات هؤلاء الأبالسة الذين يغتنمون نداء الشهوات لدى هؤلاء الشباب فيحققون لهم بعض ما يريدون في مقابل سيادة الفوضى وترويع الآمنين، وقصر الفكر على متطلبات الحياة الدنيا والغفلة عن الآخرة.

لقد استطاع ابن نصير وأمثاله من القادة العظماء بالتزامهم بالهدف الإسلامي واستقامتهم على المنهج الرباني أن يحرروا أولئك العبيد من رقِّ عبودية الطغاة المتجبرين، وأن يحولوهم إلى جنود يبذلون طاقتهم في عملية التحرير هذه ليحرروا أقوامًا آخرين، مازالوا يرزحون تحت نير العبودية الخانقة، بدلاً من أن يبذلوا طاقتهم في الإغارة على الآمنين وقطع السبل وإشاعة الفوضى والاضطراب في حياة البشر،

فتحـول المغرب كله في الأخير إلى قـاعدة انطلاق كبرى نحو فـتح الأندلس ونشر الإسلام فـيها ونقل أفرادها من عـبودية البشـر إلى عبودية رب البشـر جل جلاله، بعدما كـان المغرب مسْرَحًا للغـارات الهمجية التي لا هدف لهـا إلا تأمين متطلبات هذه الحياة الفانية، وإرضاء الطغاة الظالمين الـذين انتهكوا حقوق البشر، وسلبوا من الإنسان حرية التفكير، وحوَّلوا أفراد مجتـمعهم إلى قطاعات من العبيد تفكر حيث يصوغ لـها التفـكير زعمـاؤها، وتنطلق في السلوك حـيث يرسم لها خطة الـعمل كبراؤها، من غير هدف أعلى يحكم تصرفات القادة والجنود.

جهود ابن نصير في الجهاد البحري:

هذا وإلى جانـب ما قام به مـوسى بن نصيـر من إخضـاع بلاد المغرب فـإنه توجه باهتمامه إلى الجهاد البحري حيث أكمل العمل الذي بدأ به حسان بن النعمان من إعداد مصنع كبير لبناء السفن في تونس وإصلاح الميناء فيها، ثم أمر بصناعة مائة مركب.

وبعد الانتهاء من إعداد المراكب وجَّه حملة بحرية بقيادة ابنه عبد الله إلى جزيرة «صقلِّية» فافتتح مدينة فيها وعاد سالمًا غانمًا.

كما أنه بعث عـياش بن أَخْيَل إلى «صقليـة» فأصاب مدينة «سـرقوسة» وبعث أيضًا عبد الله بن مرة إلى جزيرة «سردانية» فافتتح مدائنها.

وكذلك جهز موسى ولده عبد الله إلى جـزيرتي «ميورقه» و«منورقه» في البحر الأبيض بين صقلية والأندلس فافتتحهما[(١)].

وهكذا كان موسى بن نصير موفـقًا حينما قام ببناء ذلك الأسطول والشروع في غزو جزر البحر حتى يقطع الطريق على الروم الذي كانوا دائمًا يهددون أمن شمال أفريقيا، وبهـذه الغزوات البحرية الناجحة وبالقضـاء على معاقل الروم في ساحل البحر الأبيض انقطعت حملات الروم التي سبق ذكر شيء منها.

ولقد كان هذا الاهتمام بالغزو البحري وما تم من النجاح فيه ممهدًا للغزو الأكبر والفتح الأعظم الذي تم في الأندلس بعد ذلك.

---

(١) قادة فتح المغرب ١/ ٣٨ - ٤٠ نقلاً عن الإمامة والسـياسة ٢/ ٧٠ - ٧١ النجوم الزاهرة ١/ ٢١٦، العبر ١/ ١٠٤، شذرات الذهب ١/ ٩٨، البداية ٩/ ٧٧.

مواقـف وعـبر
فـي
فتـوح الأنـدلـس

جهاد طريف بن مالك

كان مما هيأه الله تعالى للمسلمين أنه كان بين جـوليان حاكم مدينة «سبتة» وبين لُذريق حاكم الأندلس عداوة ومنافسة، فأرسل جـوليان إلى موسى بن نصير رسالة يعرض فيها تسليم مدينة سبتـة ويدعوه لفتح الأندلس، وقد صادف ذلك رغبة في نفس موسى وطموحًا منه لنشر الإسلام في تلك البلاد.

كتب مـوسى إلى الوليد بن عبـد الملك يخبره بما جـرى بينه وبين حاكم سبـتة ويستأذنه في غزو الأندلس، فكتب إليه الوليـد: بأن يختبرها بالسرايا وأن لا يغرر بالمسلمين، فبـعث موسى عند ذلك رجلاً من البـربر وهو طريف بن مالك ويكنى بأبي زرعة في مائة فارس وأربعمائة راجل، فجاز البحر في أربعة مراكب حتى نزل ساحل البحر في الأندلس فيمـا يحاذى «طنجة» وهو الذي عُرف بعد ذلك بجزيرة طريف فأغار منها عـلى ما يليها حتى بلغ مدينة «الجـزيرة الخضراء» ورجع سالمًا، وذلك سنة إحدى وتسعين للهجرة.

وقد كانت هذه الرحلة استطلاعية لمعرفة قوة العدو وطبيعة البلاد.

* * *

فتوحات طارق بن زياد

في رجب سنة اثنتين وتسعين للهجرة جهز موسى جيشًا من العرب والبربر يبلغ سبعة آلاف بقيادة طارق بن زياد، وقد استفاد المسلمون من المعلومات التي أتى بها طريف بن مالك حيث سار طارق بجيشه من سبتة حتى نزل بالجبل المقابل لها والذي سمي فيما بعد «جبل طارق»، بينما سار طريف قبل ذلك من طنجة ونزل فيما يقابلها حيث سمي جزيرة طريف، ثم اتجه شرقًا نحو جبل طارق، ولعله رأى أنه أفضل مكان لنزول الجيش الإسلامى لمناعته وقربه من سبتة مركز الانطلاق.

وقد سار طارق بالدفعة الأولى من جيشه على السفن الأربع، ووجد عند الساحل بعض الروم وقوفًا فمنعوا المسلمين من النزول، فلم يقاومهم لأنه قصد الدخول بسرِّية حتى يتم اجتماع جنده ويتأهب للقاء عدوه فعدل إلى مكان آخر فيه وعورة فقام هو وجنده بتسهيله حتى نزلوا ولم يعلم بهم أهل البلاد، ثم استقر في الجبل الذي رآه مكانًا ملائمًا للحرب ورجعت السفن تنقل بقية الجيش حتى توافَى جميع أصحابه عند الجبل وذلك في شعبان من سنة اثنتين وتسعين.

وقبل أن أذكر ما قام به طارق بعد ذلك فإنني أحب أن أشيد بهذه الخطة الحربية الممتازة التي سار عليها طارق بتوجيه موسى بن نصير حيث استطاع اختيار المكان الملائم للتحصن من الأعداء حتى يتم اجتماع الجيش كله، إذ أن هناك احتمالاً كبيرًا أن يهاجم الأعداء جيش المسلمين قبل تكاملهم، فوجودهم في ذلك الجبل يعطيهم مقدرة على الدفاع عن أنفسهم، ثم إن مما يُشاد به مقدرة طارق وجيشه على التكتم عن الأعداء حيث دخلوا ولا يعلم الأعداء أنهم محاربون، ثم مازالوا يتجمعون في ذلك الجبل حتى كمل عددهم من غير أن يشعر به عدوهم مع أن تلك المنطقة كان بها أمير من قبل لذريق ومعه جيش معدٌّ لحماية تلك المنطقة.

ثم سار طارق منحدرًا نحو الجزيرة الخضراء، وقد جرت بينه وبين القوط[1] مناوشات حربية انتصر فيها المسلمون، وكان قائد الروم «تُدْمير» الذي كان واليا

(١) القوط اسم لسكان الأندلس آنذاك.

على تلك المنطقة، وقد كتب إلى «لُذريق» يعلمه بأن قومًا لا يدري من أهل الأرض أم من أهل السماء قد وطئوا إلى بلادنا وقد لقيتهم فلتنهض إليَّ بنفسك.

وهكذا وصف المسلمين بوصف يدل على فزعه منهم، وأن قدومهم كان مفاجأة كبرى له، وكونه يتشكك في حقيقة أمرهم هل هم من أهل الأرض أم من أهل السماء، يدلنا على ما كان يتمتع به أولئك الغزاة المسلمون من حيوية وثابة واندفاع عارم أذهل القوط وجعلهم في حيرة من أمرهم.

إن أولئك الكفار لم يألفوا ذلك الهجوم الصاعق والارتماء المتفاني في أحضان الموت فشكُّوا في كون أولئك المهاجمين من جنس البشر العاديين.

المعركة الفاصلة مع حاكم الأندلس:

لما علم حاكم الأندلس لُذريق بزحف المسلمين بدأ يجهز جيشًا كبيرًا ليزحف به نحو الجنوب، وعلم طارق بأخبار هذا التجمع الكثيف، - وهذا يدل على دقة رصد المسلمين لتحركات أعدائهم - فكتب إلى موسى بن نصير يخبره بذلك ويستمده، فأرسل إليه قرابة خمسة آلاف مجاهد بقيادة طريف بن مالك، حملتهم سفن المسلمين، وكان موسى بن نصير مذ وجّه طارقًا أخذ في عمل السفن حتى صارت معه سفن كثيرة، فحمل إليه خمسة آلاف، فتوافى المسلمون عند طارق اثني عشر ألفًا.

وقد جمع لذريق جيشًا كبيرًا هو ما بين مائة ألف وأربعين ألفًا حسب اختلاف الروايات، وقد كانوا مغرورين بكثرتهم وقوة استعدادهم حتى إنهم حملوا معهم الحبال على دواب خاصة لكتاف أسرى المسلمين.

واستعد الفريقان للقتال، وكان أكثر جيش طارق رَجَّالةً حيث لم يكن معهم من الخيول إلا القليل بينما كان جيش القوط يملكون الكثير منها[1].

هذا وقد قال المؤرخ أحمد بن محمد المقَّري في بيان أحداث هذه المعركة وما بعدها:

---

(١) انظر نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقَّري ١/ ٢٢٤ - ٢٤٢. وانظر التاريخ الأندلسي للدكتور عبد الرحمن الحجِّي/ ٤٧ - ٦٧.

وقال الرازي: كانت الملاقاةُ يوم الأحد لليلتين بقيَتَا من شهر رمضان، فاتصلت الحربُ بينهم إلى يوم الأحد لخمس خَلَون من شوال بعد تتمة ثمانية أيام، ثم هزم الله المشركين، فقتل منهم خلق عظيم، أقامت عظامُهم بعد ذلك بدهر طويل ملبسة بتلك الأرض، قالوا: وحاز المسلمون من عسكرهم ما يجلُّ قدره، فكانوا يعرفون كبار العجم وملوكهم بخواتم الذهب يجدونها في أصابعهم ويعرفون من دونهم بخواتم الفضة، ويميزون عبيدهم بخواتم النحاس، فجمع طارق الفْيءَ وخَمَّسَه، ثم اقتسمه أهله على تسعة آلاف من المسلمين سوى العبيد والأتباع، وتسامع الناس من أهل برّ العُدْوَة[1] بالفتح على طارق بالأندلس وسَعَة المغانم فيها، فأقبلوا نحوه من كل وَجْه، وخَرَقُوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقُشْر[2]، فلحقوا بطارق، وارتفع أهل الأندلس عند ذلك إلى الحصون والقلاع، وتهاربوا من السهل، ولحقوا بالجبال[3].

وهكذا عَرَضَتْ كتب التاريخ هذه المعركة عرضًا موجزًا جدًا بينما كانت معركة كبيرةً وحاسمة حيث فتحت الباب للمسلمين ليتوغلوا بعد ذلك في فتح الأندلس دون مقاومة كبيرة إلا في معارك محدودة.

ولا شك أن تضحيات كبيرة قد قدمها المسلمون خلال تلك الأيام الثمانية التي ظنوا فيها فناءهم كما جاء في بعض الروايات، كما أنهم قد توجهوا في تلك المعركة بإخلاص وروح معنوية عالية غطَّت على جميع جوانب النقص الكثيرة بالمقَارنة بأعدائهم، وإن أبلغ وصف لشجاعة هؤلاء المجاهدين المذهلة، وإقدامهم الذي لا تَحدُّ منه العقبات ولا تقف دونه السدود قول حاكم تلك الولاية في وصفهم «لا يُدرَى أَمِنْ أهل الأرض أم من أهل السماء» وإذا كان لا يدري فإننا نقول: بل هم قدر الله تعالى النافذ وقضاؤه الذي لا يرد.

ومما يؤسف له أن كتب التاريخ لم تسجل أحداث هذه المعركة الكبيرة إلا في بضعة أسطر، ولقد كنَّا نود أن نعرف الأحداث اليومية لتلك المعركة وما جرى فيها من تضحيات ومواقف عالية من الصمود.

---

(١) يعني في المغرب الأقصى. (٢) القشر الزورق الصغير.

(٣) نفح الطيب ١/٢٤٣، وانظر البيان المغرب لابن عذاري المراكشي ٢/٨.

لقد كان المسلمون مقْدِمين على خوض تلك المعركة الهائلة وهم فعلاً يتصورون إحدي الحسنيين.. فإما شهادة ينالون بها المقامات العليا في الآخرة وإما نصر ينالون به المقام الرفيع في الدنيا إلى جانب ما أعده الله تعالى في الآخرة، فلذلك كان قتالهم قتال المستميت وأصبحت طاقتهم أعلى بكثير من طاقة أعدائهم، وصبرهم على الشدائد أشد بكثير من صبر أعدائهم، فكانت لهم نهاية المعركة.

هذا ولم يكن موسى بن نصير وهو المسؤول الأول عن ذلك الفتح بمعزل عن أحداث هذه المعركة وما بعدها، بل كان شديد الاهتمام بأمر أولئك المجاهدين، فكان إلى جانب ما قام به من إمدادهم بالجنود معهم بدعائه وتضرعه إلى الله تعالى، كما قال ابن الكردبوس: «وكان موسى بن نصير حين أنفذ طارقًا مُكبّا على الدعاء والبكاء والتضرع إلى الله تعالى والابتهال إليه في أن ينصر جيش المسلمين، وما عُلِم أنه هُزِم له جيش قط»(١).

وهذا يدلنا على صفة من صفات موسى بن نصير المهمة التي كانت وراء انتصاراته العظيمة، وهي قوة صلته بالله تعالى وشعوره الصادق بأن النصر بيد الله سبحانه وإن اختلفت موازين التكافؤ في المعركة.

فتح عدد من مدن الأندلس:

قال المقري: ثم أقبل طارق حتى نزل بأهل مدينة شَذُونة، فامتنعوا عليه، فشدَّ الحصر عليهم حتى نهكهم وأضرّهم، فتهيأ له فتحها عَنْوة، فحاز منها غنائم، ثم مضى منها إلى مُدَوَر، ثم عطف على قَرْمُونة. فمر بعينه المنسوبة إليه، ثم مال على إشبيلية فصالحه أهلها على الجزية، ثم نازل أهل أستجة وهم في قوة ومعهم فل عسكر لذريق، فقاتلوا قتالاً شديدًا حتى كثر القتل والجراح بالمسلمين، ثم إن الله تعالى أظهر المسلمين عليهم، فانكسروا، ولم يلق المسلمون فيما بعد ذلك حربًا مثلها، وأقاموا على الامتناع إلى أن ظفر طارق بالعلج صاحبها، وكان مغترًا سيئ التدبير، فخرج إلى النهر لبعض حاجاته وحده، فصادف طارقًا هناك قد أتى لمثل ذلك، وطارق لا يعرفه، فوثب عليه طارق في الماء، فأخذه وجاء به إلى العسكر،

(١) التاريخ الأندلسي/ ٦٧، عن تاريخ الأندلس لابن الكردبوس/ ٤٦ - ٤٧.

فلما كاشَفَه اعترف له بأنه أمير المدينة، فصالحه طارق على ما أحَبَّ، وضرب عليه الجزية، وخلَّى سبيله، فوفى بما عاهد عليه.

إلى أن قال: ففرَّق طارق جيوشه معهم من أستجة، فبعث مغيثًا الرومي مولى الوليد بن عبد الملك إلى قرطبة، وكانت من أعظم مدائنهم، في سبعمائة فارس، لأن المسلمين ركبوا جميعًا خيل العجم، ولم يبق فيهم راجلٌ، وفضلت عنهم الخيلُ، وبعث جيشًا آخر إلى مالقة، وآخر إلى غرناطة مدينة إلبيرة، وسار هو في معظم الناس إلى كورة جيان يريد طليطلة، وقد قيل: إن الذي سار لقرطبة طارق بنفسه، لا مغيث، قالوا: فكمنوا بعُدوة نهر شقندة في غيضة أرز شامخة، وأُرسلت الأدلاء فأمسكوا راعيَ غنم فسُئل عن قرطبة فقال: رحل عنها عظماء أهلها إلى طليْطلة، وبقي فيها أميرها في أربعمائة فارس من حماتهم مع ضعفاء أهلها، وسئل عن سورها فأخبر أنه حصين عال فوق أرضها إلا أنه فيه ثغرة[1] ووصفها لهم، فلما أجنهم الليل أقبلوا نحو المدينة ووطأ الله لهم أسباب الفتح بأن أرسل السماء برذاذ أخفى دقدقة حوافر الخيل، وأقبل المسلمون رويدًا حتى عبروا نهر قرطبة ليلا، وقد أغفل حرس المدينة احتراس السور، فلم يظهروا عليه ضيقًا بالذي نالهم من المطر والبرد، فترجل القوم حتى عبروا النهر وليس بين النهر والسور إلا مقدار ثلاثين ذراعًا أو أقل، وراموا التعلق بالسور فلم يجدوا متعلقًا، ورجعوا إلى الراعي في دلالتهم على الثغرة التي ذكرها، فأراهم إياها، فإذا بها غير متسهلة التسنُّم، إلا أنه كانت في أسفلها شجرة تين مكنت أفنانها[2] من التعلق بها، فصعد رجل من أشداء المسلمين في أعلاها، ونزع مغيث عمامته فناوله طرفها، وأعان بعض الناس بعضًا حتى كثروا على السور، وركب مغيث ووقف من خارج، وأمر أصحابه المرتقين للسور بالهجوم على الحرس، ففعلوا، وقتلوا نفرًا منهم، وكسروا أقفال الباب، وفتحوه، فدخل مغيث ومن معه وملكوا المدينة عنوة، فصعد إلى البلاط منزل الملك ومعه أدلاؤه، وقد بلغ الملك دخولهم المدينة، فبادر بالفرار عن البلاد في أصحابه، وهم زهاء أربعمائة، وخرج إلى كنيسة بغربي

---

(١) ثغرة: مكان يمكن الدخول منه.

(٢) أفنانها: أغصانها.

المدينة، وتحصن بها، وكان الماء يأتيها تحت الأرض من عين في سفح جبل، ودافعوا عن أنفسهم، وملك مغيث المدينة وما حولها.

قال: وأما من وُجِّه إلى مالَقَة فإنهم فتحوها، ولجأ عُلُوجها إلى جبال هنالك ممتنعة، ثم لحق ذلك الجيش بالجيش المتوجه إلى إلبيرة، فحاصروا مدينتها غرناطة، فافتتحوها عنوة.

قال: ومضى الجيش إلى تدمير، وتدمير: اسم العلج صاحبها، سميت به واسم قصبتها أريولة، ولها شأن في المَنَعة، وكان ملكها علجًا داهية، وقاتلهم مضحيًا، ثم استمرت عليه الهزيمة في فُحصها، فبلغ السيف في أهلها مبلغًا عظيمًا أفنى أكثرهم ولجأ العلج إلى أريولة في يسير من أصحابه لا يغنون شيئًا، فأمر النساء بنشر الشعور وحمل القصب والظهور على السور في زي القتال متشبهات بالرجال، وتصدر قدَّامهن في بقية أصحابه يُغالط المسلمين في قوته على الدفاع عن نفسه، فكره المسلمون مراسه[١] لكثرة من عاينوه على السور، وعُرضوا على السور، وعرضوا عليه الصلح، فأظهر الميل إليه، ونكَّر ذيَّه، فنزل إليهم بأمان على أنه رسول، فصالحهم على أهل بلده، ثم على نفسه، وتوثق منهم، فلما تم له من ذلك ما أراد عرفهم بنفسه، واعتذر إليهم بالإبقاء على قومه، وأخذهم بالوفاء بعهده، وأدخلهم المدينة، فلم يجدوا فيها إلا العيال والذرِّية، فندموا على الذي أعطوْه من الأمان، واسترجحوه[٢] فيما احتال به، ومضوا على الوفاء له، وكان الوفاء عادتهم، فسلمت كورة تُدْمير من مَعَرَّة المسلمين[٣] بتدبير تُدْمير، وصارت كلها صلحًا ليس فيها عَنْوة، وكتبوا إلى أميرهم طارق بالفتح، وخلفوا بقصبة البلد رجالاً منهم، ومضى معظمهم إلى أميرهم لفتح طُليطلة[٤].

وهكذا سار طارق وقواده يفتحون تلك البلاد بسرعة مذهلة وبدون مقاومة كبيرة.

---

(١) مراسه - بكسر الميم - معالجة شأنه بالقتال ومعاناة ذلك.

(٢) استرجحوه: عدُّوه راجح العقل حسن التدبير.

(٣) أي إيذاؤهم لهم.

(٤) نفح الطيب ١/٢٤٣ - ٢٤٥، وانظر البيان المغرب ٢/٩ - ١٠.

لقد كان أهل الأندلس كسائر البلدان المتحضرة يعيشون آنذاك تحت حكم طغاة متجبرين، وكان أولئك الطغاة يتصارعون على الحكم من أجل امتصاص خيرات البلاد والتجبر على الناس وتحويل المستضعفين إلى مستعبدين أذلاء، فكان أهل البلاد يتمنون الخلاص من أولئك المتجبرين، ولعلهم سمعوا بما ناله أهل المغرب على يد المسلمين الفاتحين من أمن ورخاء وعدالة، فأصبحوا يتمنون الخلاص من طغاتهم على أيدي المسلمين، ولذلك وجدناهم يفتحون لهم صدورهم قبل أن يفتحوا لهم بلادهم ويسارعون في تقديم الولاء لهم، ويَخْذلون حكامهم الذين عانوا منهم الأمَرَّين، ولقد انتشر الإسلام سريعًا على إثر انتشار المسلمين في الأندلس فكانت أخلاق المسلمين وعدالتهم وتفانيهم في خدمة دينهم وترفُّعُهم عن الدنيا مفتاح قلوب أهل تلك البلاد.

وفي خبر تدمير ومعاملة المسلمين لصاحبها منقبة عالية للمسلمين حيث وفَى المسلمون بعهدهم لذلك الحاكم الأندلسي مع سبق خديعته إياهم، وذلك لشدة اهتمامهم بالوفاء بالعهد الذي ظلوا طيلة فتوحاتهم في الشرق والغرب مشهورين به، ومن المؤكد أن سمعتهم العالية في ذلك قد انتقلت من المغرب إلى الأندلس وإلا فإنه من المستبعد أن يغامر ذلك الحاكم بنفسه حيث خرج للتفاوض مع المسلمين ثم عرَّفهم بنفسه بعد تمام الصلح.

إنه في حساب الربح والخسارة من الناحية الحربية قد يقال إن المسلمين قد خسروا بهذا الصلح سبع مدن لم يكن فيها إلا قوة ضعيفة للأعداء وأنه كان بإمكان المسلمين أن يستأصلوا أعداءهم وأن يستولوا على تلك المدن بما فيها من متاع الدنيا، ولكن المسلمين في حساب الإسلام قد كسبوا مكسبًا عظيمًا حيث تقدموا شوطًا عاليًا في الرقي الأخلاقي الذي يعتبر من أهم مقومات الدعوة الإسلامية.

ولا شك أن هذا السلوك الحميد وأمثاله مما يفسَّر به سرعة دخول أهل تلك البلاد في الإسلام، وتحوُّلُهم إلى جنود يخدمون الإسلام ويقيمون صرح دولته في بلادهم.

* * *

فتوحات موسى بن نصير

أما بقية فتوح الأندلس فقد شارك فيها موسى بن نصير أمير المغرب، وهو الذي بعث طارق بن زياد لفتح الأندلس.

وقد كان موسى بن نصير قد أشفق على وجود المسلمين في الأندلس حيث توغل طارق في الفتح شمالاً وبقي شرق البلاد وغربها لم يُفتح فخشي أن يطوقه الأعداء، وجاء في بعض الروايات أن طارقا كتب إلى موسى يستمده لما خشي من إحاطة الأعداء به.

وقد عَبَر موسى مضيق جبل طارق في جيش قوامه ثمانية عشر ألفا وذلك في رمضان من عام ثلاثة وتسعين للهجرة، واستخلف ابنه عبد الله على أفريقية.

وبعد وصوله إلى الجزيرة الخضراء استشار مستشاريه في خطة الفتح وذلك في المسجد الذي بناه هناك وهو الذي عرف بمسجد الرايات لكثرة الرايات في ذلك الجيش، وبعد هذه الشورى اتجه إلى الشمال الغربي من الأندلس وذلك لحماية الفتح الإسلامى مما يبيِّته له الأعداء ولفتح بلاد لم يصل إليها الفتح الإسلامى، ففتح مدينة شذونة ثم اتجه إلى قرمونة وكانت من أشد مدن الأندلس تحصينا وقد حاصرها المسلمون وأبى أهلها أن يستسلموا، وكان في معية موسى جماعة من حلفائه من أتباع يوليان حاكم سبتة فأخبروه أن هذه المدينة لا تفتح إلا بحيلة، فوجَّه إليها جماعة يوليان وطرقوا بابها على أنهم فلول من جيش البلاد.

وسار خلفهم موسى بخيله، ففتحوا لهم الباب وهجم عليهم المسلمون فقتلوا الحرس واستولوا على المدينة.

وهكذا تم فتح تلك المدينة بجهود يسيرة بتوفيق الله تعالى ثم بسداد الرأي وحسن التدبير من قائد المسلمين.

ثم توجه موسى بجيشه إلى أشبيلية وهي من أعظم مدن الأندلس وكانت عاصمة البلاد قبل ملك القوط، فلما ملكوا البلاد نقلوا العاصمة إلى طليطلة، وقد حاصر المسلمون أشبيلية عدة أشهر ثم فتحها الله لهم(١).

---

(١) نفح الطيب ١/٢٥١ - ٢٥٣، وانظر البيان المغرب ٢/١٣ والتاريخ الأندلسي/٦٧ - ٧٤.

وقد اتجه موسى بن نصير بعد ذلك إلى مدينة «ماردة» التي كانت من أشد مدن الأندلس تحصينًا، حيث إن عرض سورها اثنا عشر ذراعًا وارتفاعه ثمانية عشر ذراعًا، ولحصانتها فإن فلول جيش القوط المنهزمة قد لجأت إليها، فتجمع فيها جيش قوي، وقد حاصرها موسى عدة شهور دون جدوى، ولكن موسى لم ييأس حيث استخدم دبابة من صنع المسلمين آنذاك حمل فيها الجنود إلى السور فبدؤوا ينقبون في السور لإحداث ثغرة فيه، فلما استطاعوا المضي فيه قليلاً ثار عليهم جنود العدو فاستشهد المسلمون تحت الدبابة فسُمِّي ذلك البرج برج الشهداء.

وبالرغم من عدم وصول المسلمين إلى ما يريدون من فتح السور فإن أهل البلاد وافقوا على الصلح لما رأوا من إصرار المسلمين على حصارهم(١).

هذا وإن في هذا الخبر دلالة على تفوق المسلمين من الناحية المادية حيث استطاعوا صناعة الدبابات حسب الإمكانات المتاحة لهم في ذلك الوقت، فلم يكتفوا بقوتهم المعنوية الفائقة بل أضافوا إليها الاستعداد الحربي القوي المناسب لعصرهم.

ومن الملاحظ سهولة فتح الأندلس وأن بعض تلك الفتوحات كانت عن طريق الصلح، وذلك لأن القوط قد تشتتوا وزالت دولتهم وهم الذين كانوا يتحمسون للقتال ويدافعون عن دولتهم، أما عامة أهل الأندلس فقد شعروا بالأمن والطمأنينة والعدالة بوجود المسلمين فكانت مقاومتهم إياهم ضعيفة، ولكن مع هذا فلا شك أن المسلمين قد عانوا مشقة من السفر المتواصل والإقدام على مغامرات مجهولة النتائج وفي بلاد يَقْدمونها لأول مرة ويجهلون دروبها ومفاجآتها.

هذا وقد عرضَتْ كتب التاريخ أخبار هذه الفتوح بإيجاز شديد لا يبين إلا قليلاً من مواقف المسلمين التي لا شك أنها كانت عالية وقيمة بناء على ما نتج عنها من سرعة استتباب الأمن وانتشار الإسلام وسرعة اندماج أهل البلاد مع الفاتحين.

إن جهودًا كبيرة قد بُذلت في الدعوة إلى الإسلام كان لها الأثر في كل هذه النتائج، وإن من أبرز هذه الجهود القدوة الحسنة والتمثيل الصادق للإسلام،

---

(١) نفح الطيب ١/ ٢٥٢، وانظر البيان المغرب ٢/ ١٤ والتاريخ الأندلسي/ ٧٤.

وخاصة من القادة والأمراء، الذين كانوا على جانب كبير من فهم الإسلام والرغبة الصادقة في نشره والحكم به بين الناس.

هذا ومما ينبغي الإشادة به أن هذه الفتوحـات الكبيرة المتواصلة جرت من موسى ابن نصيـر وقد جاوز الخامـسة والسبعـين من عمره، ومع ذلك فإنه كـان في همة الشـباب وحـيويتـهم حتى إنه قـد عزم في نـهاية فـتح الأندلس على فتح البـلاد الأوروبية وغزو القسطنطينية من الغـرب لولا أن الوليد بن عبد الملك أمره بالتوقف والقدوم إلى دمشق وشدَّد عليه في ذلك.

ومما يدل على صلاحـه أنه دعا الله تعالى أن يرزقه الشـهادة أو يموت في المدينة فأجاب الله دعاءه، حيث مات فـي المدينة وهو ذاهب إلى الحج برفقة أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك عام سبعة وتسعين وعمره ثمان وسبعون سنة أو يزيد[1].

* * *

(١) التاريخ الأندلسي ١٢٧ عن نفح الطيب ١/ ٢٨٣، معالم الإيمان ١/ ٢٠١، رياض النفوس ١/ ٧٨.

جهاد ولاة الأندلس في أواخر العهد الأموي

لما تولى إمارة الأندلس السمحُ بن مالك الخولاني عام مائة كان له نشاط واسع في الجهاد في جنوبي فرنسا، وكان بينه وبين أهلها معارك عديدة، منها معركة بين المسلمين وحاكم «أقطانية» وقد اشتد فيها القتال واستُشهد فيها عدد كثير من المسلمين منهم الوالي السمح بن مالك الخولاني. وذلك في يوم التروية أو عرفة سنة اثنتين ومائة.

ولما تولى إمرة الأندلس عنبسة بن سحيم الكلبي في صفر عام ثلاثة ومائة استأنف الجهاد في جنوبي فرنسا خلف جبال البُرْت، وقد توغل في بلاد الفرنجة واستشهد سنة سبع ومائة[١].

معركة بلاط الشهداء:

تولى إمرة الأندلس عبد الرحمن الغافقي في شهر صفر من عام اثني عشر ومائة، وقد واصل حركة الجهاد الإسلامي خلف جبال البرت وتوغل في فرنسا، وكانت له مع الإفرنج مواقع كثيرة، إلى أن غزاهم في عام خمسة عشر ومائة، وكان الإفرنج قد استعدوا للمسلمين بجيش كبير مجموعٍ من عدة دولٍ أوروبية بقيادة شارل مارتل، وقد التقى المسلمون بأعدائهم في شهر رمضان المباركٍ من ذلك العام، واستمرت المعركة حوالي عشرة أيام، وكانت نهايتُها استشهاد قائد المسلمين. عبدالرحمن الغافقي وعدد كبير من جيشه، وقد سُمِّيت المعركة لذلك «بلاطَ الشهداء».

كانت هذه المعركة حاسمةً بين المسلمين والنصارى حيث تعثَّر الجهاد الإسلامي بعدها، وكانت نتيجتها خسارةً كبرى لأوروبا حيث حُرِمَتْ من نور الإسلام وحضارة المسلمين، ولذلك اعتبرها الكُتَّاب الغربيون المنصفون نكبةً كبيرة أصابت أوروبا وضربةً عنيفة حرَمَتْها من الحضارة المنيرة وكرامة الإنسان[٢].

وهكذا وصلت إلينا أحداث هذه المعركة الكبيرة وما سبقها من معارك بشكل موجز مقتضب، ولا شك أن وراء استشهاد هذا العدد الكبير من المسلمين أحداثٌ ضخمة ومواقف عالية.

---

(١) نفح الطيب للمقري ٢١٩/١ - ٢٢٠، التاريخ الأندلسي للدكتور عبد الرحمن الحجي/ ١٨٥ - ١٩١.
(٢) نفح الطيب ١٤/٤ - ١٥، التاريخ الأندلسي / ١٩٣ - ٢٠٣.

جهاد الدولة الأموية الأندلسية

من مواقف عبد الرحمن الداخل

بعد أن تم القضاء على الدولة الأموية في العالم الإسلامي وخلَفتها الدولة العباسية، استطاع أحد شباب بني أمية أن يفرَّ من قبضة العباسيين وأن يُكَوِّن له دولة في الأندلس لا تخضع لدولة العباسيين، وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، وقد دخل الأندلس في سنة ثمان وثلاثين ومائة فأقام فيها دولة لبني أمية بعد حروب بينه وبين معارضيه، ويعرف بعبد الرحمن الداخل لدخوله الأندلس(١).

ولقد كان عهد عبد الرحمن الداخل عهد حروب داخلية بينه وبين المناوئين له، وقد تمكن بعد صراع مرير طويل من القضاء عليهم جميعا، وقد كان يتمتع بالشجاعة والصبر والدهاء، ولقد كان لكفاءته القيادية أثر واضح في نجاحه، ولما كان ليس من منهج هذا الكتاب الخوض في المعارك التي جرت بين المسلمين فإنني لم أتعرض للكتابة عنها، غير أني سأذكر شيئًا عن الحرب التي كانت بينه وبين أحد مناوئيه وهو سليمان بن يقظان الكلبي لأن سليمان هذا قد استعان على عبدالرحمن الداخل بملك الإفرنج شرلمان، وبهذا يكون سليمان الكلبي قد خان الأمانة ومكن لأعداء الإسلام من بلاد المسلمين.

وفي بيان هذه الحرب يقول الدكتور محمد السيد الوكيل:

رأى شرلمان أن الفرصة سانحة لغزو الأندلس، وكان هذا هو حلمه الذي كان يحلم به وبخاصة وأنه قد أنهى فتوحاته في أوروبا، بإخضاع السكسون، وليس عليه إلا أن يحقق حلمه، في إقامة إمبراطورية بإخضاع الأندلس.

عبرت جيوش شرلمان جبال البرانس، واستولى على مدينة بَمْبَلُونة، واستمر في زحفه على مدينة سرقسطة، ولكنه وجدها وقد أغلقت أبوابها في وجهه، حيث

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٤/ ٣٦٢ - ٣٦٣، البيان المغرب ٢/ ٤٧.

أحسَّ سكانها بقيادة الحسين بن يحيى، بخيانة سليمان بن يقظان، وأنه يريد أن يسلم المدينة إلى شرلمان ملك الفرنجة.

كان شرلمان يحلم بطرد المسلمين من الأندلس، وكان يمني نفسه بتحقيق هذا الحلم، حتى واتته الفرصة، فخرج في ربيع ١٦٣هـ - ٧٧٨م وكان يعتقد أن مدينة سرقسطة ستفتح له أبوابها، ولكنه وجدها قد أغلقت أبوابها، وتحصن بها أهلها، إما رغبة من حسين بن يحيى في الانفراد بحكم المدينة أو غضبًا منه على سليمان، لأنه خان الأمانة، ولم يرع حق عبد الرحمن الذي ولاه على المدينة.

واضطر شرلمان إلى محاصرة سرقسطة، ولكن الحصار قد طال، حتى يئس شرلمان من فتحها، وإذا أضفنا إلى ذلك أن أنباء قد وصلت شرلمان، تحمل إليه أنباء اضطراب قد وقع في بلاده مما اضطره إلى رفع الحصار عن سرقسطة، وعاد إلى بلده وهو يحمل معه سليمان بن يقظان، لأنه أخل بوعده، ولم يسلِّمه المدينة كما وعده.

انسحب شرلمان عائدًا بخيبة الرجاء، ولما وصل مدينة بمبلونة سحب منها حاميتها التي كان قد تركها فيها بعد الفتح، وهدم أسوارها، وكان الأمير عبد الرحمن الداخل قد استعد للانتقام من شرلمان، فحرض عليه قبائل البشكُنس، وتعاونت هذه القبائل مع المسلمين، وأبناء سليمان الذين كانوا يحاولون إنقاذ أبيهم.

وكانت المفاجأة المفزعة لجيش شرلمان في ممرات جبال البرانس الضيقة، حيث انقضَّت عليه الجيوش بالسهام والحجارة، حتى قضوا على مؤخرة هذا الجيش الذي جاء به ليفتح الأندلس قضاءً تامًا، وقُتل كثير من قواده العظام، وقتل كذلك قائده ورفيق حياته (رولان) واشتد حزن شرلمان على هذا القائد، وكان مقتل هذا القائد موضوعًا لأنشودة من شعر الملاحم الفرنسي، تعرف بأنشودة رولان.

وفي أثناء المعركة تمكن ولدا سليمان بن يقظان من إنقاذه وتخليصه من يد الملك شرلمان، ورجعا به إلى سرقسطة.

وكانت هزيمة شرلمان هذه درسًا قاسيًا، وتجربة جانبها الصواب، حيث حاول تجربة حظه في فتح بلاد إسلامية، فباء بالفشل، ورجع بخيبة الأمل(١).

وهكذا استعمل عبد الرحمن الداخل دهاءه فسلط القبائل المجاورة لجبال البرانس ونظمهم مع المسلمين ليقوموا بهجوم مباغت لجيش شرلمان من مجاهل تلك الجبال فأبادوا كثيرًا من جيشه، فكانت تلك الحرب أنجح من المواجهة ولم تكلف المسلمين خسائر.

وفي هذه المعركة عبرة فيما حصل لسليمان بن يقظان الذي خان الأمانة وتحالف مع الأعداء فقد فشل في تلك المحاولة وأصبح أسيرًا لدى من تحالف معه، ثم اضطر ابناه إلى أن ينضما بجيشهما لجيش عبد الرحمن الداخل ليخلصا أباهما من الأسر، وهكذا تمكن عبد الرحمن من تسليط أعدائه على أعدائه حتى ظفر بعدوه الكبير شرلمان.

رأي أبي جعفر المنصور بعبد الرحمن الداخل:

نظرًا لما حققه عبد الرحمن الداخل من إقامة دولة أموية في الأندلس والقضاء على جميع مناوئيه مع أنه كان طريد العباسيين من قطر إلى قطر فإنه قد نال إعجاب أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور وأثنى عليه على الرغم من العداء القائم بين العباسيين والأمويين، فقد ذكر أبو عبد الله محمد بن عذاري المراكشي أن أبا جعفر المنصور قال يومًا لبعض جلسائه: أخبروني عن صقر قريش من الملوك! قالوا: ذاك أمير المؤمنين الذي راض الملوك وسكن الزلازل وأباد الأعداء وحسم الأدواء.

قال: ما قلتم شيئًا، قالوا: فمعاوية؟ قال: لا، قالوا: فعبد الملك بن مروان، قال: ما قلتم شيئًا، قالوا: يا أمير المؤمنين فمن هو؟

(١) الأمويون بين الشرق والغرب ٢/ ١٤٢ عن كتاب تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس وكتاب الأمويون أمراء الأندلس.

قال: صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية، الذي عبر البحار وقطع القفر، ودخل بلدًا أعجميًا منفردًا بنفسه، فمصَّر الأمصار وجند الأجناد، ودوَّن الدواوين، وأقام ملكًا عظيمًا بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة شكيمته.

إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان، وذلَّلا له صعبه، وعبد الملك ببيعة أُبرم عقدها، وأمير المؤمنين يطلب عِتْرته واجتماع شيعته، وعبد الرحمن منفرد بنفسه مؤيد برأيه مستصحب لعزمه، وطد الخلافة بالأندلس، وافتتح الثغور وقتل المارقين وأذل الجبابرة الثائرين.

فقال الجميع: صدقت والله يا أمير المؤمنين(١).

وقد توفي عبد الرحمن الداخل بعد أن أقام دولة قوية في الأندلس سنة اثنتين وسبعين ومائة، وخلَفه ابنه هشام على إمارة الأندلس(٢).

* * *

(١) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ٢/ ٦٠.

(٢) الكامل في التاريخ ٥/ ٨٣، البيان المغرب ٢/ ٤٧.

مواقف هشام بن عبد الرحمن
في الأعمال الجهادية والإصلاحية

مواقفه الجهادية:

من ذلك ما ذكره ابن عذاري من أن أمير الأندلس هشام بن عبد الرحمن جهز جيشًا بقيادة أبي عثمان عثمان بن عبيد الله بن عثمان إلى بلاد أَلَبَة والقلاع، وأنه لقي بها أعداء الله بجموعهم متوافرين فهزمهم الله على يديه، وقُتلوا في السهل والوعر وكان عدد قتلى الأعداء أكثر من تسعة آلاف وذلك في عام ستة وسبعين ومئة.

ثم ذكر أنه في هذه السنة جهز جيشًا بقيادة يوسف بن بخت إلى جِلِّيقيَّة فالتقى ببرمود الكبير قائد الأعداء في تلك الناحية، وأنه جرت بينهم معركة انهزم فيها عدو الله وغنم المسلمون عسكره، وبلغ عدد قتلى الأعداء عشرة آلاف سوى من قتلوا بعد المعركة.

ثم ذكر أنه في سنة سبع وسبعين ومائة بعث جيشًا بقيادة عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث وذلك في فصل الصيف إلى أرض الروم التي تقع شمال الأندلس، وأنه بقي شهوراً يقاتل الأعداء ويخرب الحصون، ثم أوقع بمدينة أربونة، وكان فتحًا عظيمًا مشهوراً، بلغ فيه خمس السبي خمسة وأربعين ألفًا من الذهب العين.

ثم ذكر ابن عذاري أنه في سنة تسع وسبعين ومائة أغزى الإمام هشام بن عبدالرحمن عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث بالصائفة، حتى انتهى إلى مدينة أسترقة داخل جليقية. فبلغه أن إذفُونش قد حشد بلاده، واستمد البشكنش وأهل تلك النواحي التي تليه من المجوس وغيرهم، وأنه عَسْكَرَهم ما بين حيز جليقية والصخرة، وأنه أذن لسكان السهل بالتفرق في شواهق جبال السواحل. فقدَّم عبد الكريم فَرَج بن كنانة في أربعة آلاف فارس، ثم رحل في إثره، فألفى أعداء الله، فواضعهم الحرب حتى هزمهم الله، فقتل حماتهم، وأسر جماعة منهم، ثم أمر

بعد انحلال الحرب بقـتلهم، وبث الخيل في القرى، فانتسفت جميـع ما أَلْفَتْه من زروعهم، وخربت مـا مرت عليه من عمارتهم. وتقـدم بعد ذلك إلى وادٍ يُقال له كُوثيَّـة، فلقي به غُنْدُماره وهو في ثلاثة آلاف فارس فـقاتله حتى انهـزم عسكره، وأخذ غُنْدُماره أسيرًا، وقُتل من أصحابه عددٌ كـثيرٌ. وأصاب العسكر جميع ما في تلك الناحية. وتـقدم مستنجزًا لإذفـونش، فلما بلغه قصده إليـه تنحَّى عن الجبل الذي كـان فيه منـحازًا عنه إلى حـصن له، كان قـد بناه وأتقنه على وادي نلُون، فتقـرب منه عبد الكريم مُقْتـفيًا لأثره، لا يمر بمنزل فيمـا بينه وبينه إلا حرَّقه، ولا بمال إلا أصـابه، حتى أطل على الحـصن فـانتقل منـه إلى حصن مُلكه. واحـتل عبدالكريم بالحـصن الذي انتقل منه، فألفى فيه الأطعمـة وضروب الذُّخر، وبعث في اليوم الثاني من حلوله به فَرَج بن كنانة، في عشرة آلاف فارس، يقفو أثره، فلما قرب منه، انهزم عنه وأسلم جميع عُدَّته وذخره، فغنم المسلمون جميع ذلك(١).

وهذا الاهتمام الجيـد من الأمير هشام بن عبد الرحمن يدل عـلى عنايته بحماية الدولة الإسلامية وسـعيه في إقرار الأمن للمسلمين، فإن الاستسـلام لحياة الركود وتعطيل الجهاد يجعل الأعداء يطمـعون في الإغارة على بلاد المسلمين ويأخذونهم على حين غـفلة منهم، أما إذا كـانت ذكريات جـهاد المسلمين مـاثلة في أذهانهم فإنهم يرغبون في السلامة ولا يفكرون في غزو بلاد المسلمين.

مواقفه الإصلاحية:

من أمثلة عدله ورغبته في الإصلاح ما ذكره ابن عذاري في ترجمته قال: وكان هشام يبعث إلى الكُوَر قـومًا عدولاً يسألون الناس عن سير العـمال، ثم ينصرفون إليه بما عندهم، فيقع نظره بهدم ما تكشفه المحنة له منهم. واعترض له يومًا متظلمٌ من أحد عـماله، فبـدر إلى الشاكي من رجال العـامل من ترخاه شفـقة منه على العامل. فـبعث إلى الشـاكى وقال له: احلف على كل مـا ظلمك فيه، فـإن كان ضربك، فاضربه، أو هتك لك سترًا، فـاهتك ستره، أو أخذ لك مالاً، فخذ من ماله مثله، إلا أن يكون أصاب منك حـدًا من حدود الله! فجعل الرجل لا يحلف

(١) البيان المغرب ٢/ ٦٣ - ٦٥.

على شيء إلا أُقيد منه. فكان زجره هكذا لعماله أبلغ فيهم من النكال والأدب. وكان كريمًا عادلاً فاضلاً متواضعًا عاقلاً، لم تُعرف منه هفوةٌ في حداثته، ولا زلةٌ في أيام صباه. ومن كرمه أنه كان يصُرُّ أموالاً في صُرر، ويخرج بها بين المغرب والعشاء يتفقد المسجد، فإذا وجد واحدًا يصلي في مسجد أو لا يصلي وضع بين يديه صرةً، حتى كثرت عمارة المساجد.

وكان - رحمه الله! - قد نظر في بنيان قنطرة قُرْطُبة، وأنفق في إصلاحها أموالاً عظيمة. وتولى بناءها بنفسه، وتعطى الأجرة بين يديه. قال ابن وضاح: لما بنى هشام القنطرة، تكلم بعض الناس فيه، وقالوا: إنما بناها لتصيُّده ونُزهته! فحلف حين بلغه ذلك ألا يجوز عليها إلا لغزو أو مصلحة.

قال القاضي أبو معاوية: أدركتُ صدرًا من الناس يحكون أن أيام هشام هذا كانت من الدَّعة والعافية والهدوء بحيث لم يُعلم لها مثلٌ. وكان يحضر الجنائز، ويزاحم فيها، كأنه أحد من الناس، تواضعًا.

وكان لبعض رجال هشام خصومةٌ في دار عند القاضي مُصعب بن عمران، فسجَّل عليه القاضي فيها وأخرجه منها، فنهض الرجل إلى هشام، وقال له: إن القاضي سجَّل عليَّ في داري التي كنت أسكنها، وأخرجني عنها! فقال له هشام: وماذا تُريد مني؟ والله لو سجَّل عليَّ القاضي في مقعدي هذا، لخرجت عنه! انقيادًا منه للحق، رحمة الله عليه![1].

فهذه أمثلة من اهتمام الأمير هشام بن عبد الرحمن بالدعوة والإصلاح والعدل، وإذا قرنت هذه الاهتمامات مع الاهتمام بالجهاد كان في ذلك ضمان لقوة الدولة الإسلامية وبقائها.

* * *

(١) البيان المغرب ٢/٦٦.

مواقف الحكم بن هشام الجهادية والإصلاحية

مواقفه الجهادية:

تولى الإمرة بعد أبيه هشام الذي توفي في عام ثمانين ومائة، وقد كانت له مواقف جهادية، فمن ذلك ما ذكره المؤرخ ابن عذاري قال: وفي سنة ثلاث وتسعين ومائة خرج رذريق صاحب إفرنجة إلى جهة طرطوشة فأغزى الحكم ابنه عبد الرحمن في جيش كثيف، وكتب إلى عمروس وعبدون عاملي الثغر بالغزو معه بجميع أهل الثغر، فتقدم عبد الرحمن بالجنود وتوافت عليه الحشود وحفَّت به المطَّوعة، فألْفَوا الطاغية خارجًا إلى بلاد المسلمين، ودارت بينهم حروب شديدة ثبَّت الله فيها أقدام المسلمين فانهزم المشركون، وكانت فيهم مقتلة عظيمة، ففني أكثرهم.

وقال أيضًا: وفي سنة أربع وتسعين ومائة غزا الحكم إلى أرض الشرك. وكان السبب في هذه الغزاة أن عباس بن ناصح الشاعر كان بمدينة الفَرَج (وهي وادي الحجارة). وكان العدوُّ بسبب اشتغال الحَكَم بماردة وتوجيه الصوائف إليها مدة من سبعة أعوام قد عظمت شوكته، وقوى أمرُه. فشنَّ الغارات في أطراف الثغور، يسبي ويقتل. وسمع عباس بن ناصح امرأة في ناحية وادي الحجارة، وهي تقول: واغوثاه يا حكَم! قد ضيعتنا وأسلمتنا واشتغلت عنَّا، حتى استأسد العدوُّ علينا! فلما وفد عباس على الحكم، رفع إليه شعرًا يستصرخه فيه، ويذكر قول المرأة واستصراخها به، وأنهى إليه عباس ما هو عليه الثغر من الوهن والْتِيَاث الحال. فرثى الحكم للمسلمين، وحمِيَ لنصر الدين، وأمر بالاستعداد للجهاد، وخرج غازيا إلى أرض الشرك، فأوغل في بلادهم، وافتتح الحصون، وهدم المنازل، وقتل كثيرًا، وأسر كذلك، وقفل على الناحية التي كانت فيها المرأة، وأمر لأهل تلك الناحية بمال من الغنائم، يصلحون به أحوالهم ويفدون سباياهم، وخصَّ المرأة وآثرها، وأعطاهم عددًا من الأسرى عونًا. وأمر بضرب رقاب باقيهم، وقال لأهل

تلك الناحيــة وللمرأة: هل أغاثكــم الحَكَم؟ قالوا: شفــا والله الصُّدُورَ، ونكى في العدوّ، وما غفل عنَّا إذ بلغه أمْرُنا! فأغاثه الله وأعزَّ نصره!

ثم ذكـر في حوادث سنة تسع وتسـعين ومائة أن الحكـم أغزى عــمَّه عــبد الله البلنْسيَّ الغزوة الشنيـعة المشهورة، وكـانت ببرشلونة: ألفى المشركين قـد حلُّوا بها يوم احتلاله، وكان يوم الخميس، فأراد من معــه مناشبة الحرب، وتشوفوا للقتال، فمنعهم حتى إذا كـان في اليوم الثاني، وهو يوم الجمعة وقت الزوال، أمر بتـعبئة الكتائب، ونَصَبَ الرُّدود، وقـام فصلى ركعـتين، ثم نادى في الناس، وركب هو ومن معــه، وناهض أهل الشرك، وما أحسبه فعل ذلك إلا فـقهًا وعلمًا وتأسـيًا بحديث النبي ﷺ حـيث أمر بالقتال في تلك السـاعة، فإنَّ فيـها تهبُّ الأرواح، وتفتح أبواب الجنة، وتستجاب الدعوات. فمنحهم الله أكتاف المشركين، وانهزموا. وقتل عامتــهم، وفرَّق جمعهم. فلما أقلع عن القـتال وانجلتْ الحرب، نصب قناةً طويلةً، فأثبـتت في الأرض، وأمر بالرُّؤوس، فـجُمعت وطُرحـت حَوَاليهـا حتى غابت القناةُ فيها ولم تظهر.

ثم ذكر في حوادث سنة مائتين أن الحكم أغزى وزيره عبد الكريم بن مغيث إلى بلاد المشركين، فدخلهـا وتوسطها، وأهلك معائشـها ومرافقهـا، وحطم زُروعها، وهدم منازلها وحـصونها، حتـى استوفى جمـيع قرى وادي أرون. فحشـدت إليه الطاغية - دمرها الله - وانجلبت النصرانية من كل مكان، وأقبلت الجموع، ونزلت بعدوة نهر أرُون، وصار النهر حاجـزًا بينهم وبين المسلمين. فلما أصبح نهض عبد الكريم بمن معه إلى مخائض الوادي، ونهض أعــداء الله إليهم، فقاتلوهم على كلّ مخاضــة منها، فجالدهم المسلمــون عليها مجـالدة الصابرين المحتسـبين، واقتحم أعداء الله النهر إليــهم، فاقتتلوا على مخـاضته، ثم حمل المسلمــون عليهم حملة صادقةً، فأضغطوهم في المضايق، وأدخلوهم على غـير طريق، فأخذتهم السيوف والطعن بالرماح والغرق في المياه، فقتـل من المشركين عددٌ عظيمٌ لا يُحصى كثرة، ومات أكـثرهم بالتـردي ودرس بعضــهم بعضــا، وصاروا بعد المطاعـنة والمجالدة بالرماح والسـيوف إلى القـذف بالحجارة، وأكـثروا الحُرَّاس بالمخـائض، ووعروها بالخشب، وحفـروا الحفائر، وخندقوا الخنادق. ونزلت الأمطار، وكان قـد فرغ ما

كان لأعـداء الله من المرافق، وضاقت الحـال أيضًا بالمسلمين، فـقفل عـبد الكريم ظافرًا لسبع خلون من ذي القعدة(١).

في هذه الأخبـار مثل من اهتمـام أمير الأندلـس الحكم بن هشام بأمر الجـهاد وحماية دار الإسلام.

وفي خبر المرأة التي استغاثت بالحكم مـثل من الغرب يشبه ما جرى في الشرق من تلك المرأة التي استغاثت بأمير المؤمنين المعتصم بالله العباسي، ولقد اشتهر خبر المعتصم ولم يشتـهر خبر الحَكَم لسهولة تداول تاريخ المشـرق، ولقد قام كل واحد من الأميرين بالجهاد وإغاثة المرأة التي استغاثت به.

وهكذا يتحفنا تاريخ قادة المسلمين بالروائع الجهادية في المشرق والمغرب، حيث يرى أولئك القادة أن سعادتهم الروحية ليست في التقلب في نعيم الدنيا، وإنما هي في إغـاثة الملهـوفين وإنقـاذ المكروبين وإعـزاز الإسـلام والمسلمين وإذلال الكفـر والكافرين.

من مواقفه الإصلاحية:

من أخبار اهتمـامه بالعدل ما ذكره ابن عذاري في ترجمـته قال: كان الحكم - رحمه الله - شديد الحـزم، ماضي العزم، ذا صولة تُتَّقَى. وكان حـسن التدبير في سلطانه، وتولية أهل الفضل والعدل في رعيته، وكان مبسوط اليد، وكان له قاض كفـاه بورعه وعلمه وزهده، فمـرض مرضًا شـديدًا، فاغتم الحَكَم لمرضه، فـذكر بعض خاصـته أنه أرق ليلةً أرقًا شـديدًا، وجعل يتـململ على فراشه، فـقيل له: أصلح الله الأميـر! ما الذي عرض؟ فـقال: ويْحكُم! إني سمـعت في هذه الليلة نادبةً، وقاضينا مـريضٌ، وما أراه إلا وقد قضى نحبـه. فأين لي بمثله، ومن يقوم بالرعية مقامه؟ فمات القـاضي في تلك الليلة وهو المُصعب بن عمران قاضي أبيه. فولى بعده محمد بن بشير.

فكان أقصـد الناس إلى حق، وأبعدهم من جور، وأنفـذهم بحكم. ورفع إليه رجل من أهل كورة جيان أن عـاملاً للحكم اغتصبه جـاريةً، وصيرها إلى الحكم،

(١) البيان المغرب ٢/ ٧٢ - ٧٥.

فوقـعت من قلب الحكم كل موقع، فـأثبت الرجل أمره عند القاضـي، وأتاه ببينة تشهد على معـرفة ما تظلم منه وبملكه للجارية وبمعرفتـهم بها، فأوجبت السُّنَّةُ أن تحضر الجارية، فاستأذن القـاضي على الحكم، فأذن له، فلما دخل عليه، قال له: أيها الأمـير! إنه لا يتم عـدلٌ في العامـة دون إقامتـه في الخاصة! وحـكى له أمر الجارية، وخيره بين إبرازها للبينة ليشهد على عينها أو عزله، فقال له الحكم: أوَلا أدعوك إلى خيـر من ذلك! تبتاع الجارية من صاحبـها بأبلغ ما يطلب فيهـا. فقال القاضي: إنَّ الـشهود قـد شهدوا مـن كورة جيـان، وأتى الرجل يطلب الحق في مظانه، فلما صار ببابك، تصرفـه دون إنفاذ الحق له، ولعل قائلاً يقول: باع ما لا يملك بيع مقـهور، فلمـا رأى عزمه على ذلك، أمـر بإخراج الجارية من قـصره، فشهد الشهودُ عنده على عينها، وقضى بها لصاحبها.

قـال: وكان هذا القـاضي مـحمـد بن بشـير، إذا خـرج للمـسجـد، وجلس للأحكام، جلس في رداءٍ معُصْفَر، وشعـر مفرَّق، فإذا طُلب ما عنده وُجِد أفضل الناس وأورعهم.

وكان الحكم يقول: ما تحلَّى الخلفاءُ بمثل العدل![1].

وهكذا يضرب الحكم مثالاً من أروع الأمثلة على الاهتمام بتعيين القضاة الأكفاء ويخضع لتطبيق الحق حـينما يتوجه عليه، ويشيد بالخلفـاء الذين يتحلون بالعدل، وهذه أفعـال وأقوال حمـيدة، وخـاصة حينمـا تصدر ممن هم في أعلى قـمة من المسؤوليـة في بلادهم، وهي إلى جانب كـونها من المُثل العـالية التي تربَّى عليـها هؤلاء الأمراء في ظل تطبـيق الإسلام فإنهـا من التجارب السـياسيـة التي توارثها الساسة وعرفوا أن بها صلاح الدول والشعوب.

وفي هذا الخبـر موقف جليل للقاضي محـمد بن بشير حـيث أصر على الحكم بالعدل وإنفـاذ الحق حتى على الحـاكم، وهو موقف يضـاف إلى مواقف القـضاة العالية التي أقروا فيها العدالة وحفظوا للأمة الإسلامية أمنها وقوتها.

* * *

---

(١) البيان المغرب ٢/ ٧٨ - ٧٩.

مواقف عبد الرحمن الناصر الجهادية

هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم.

تولى إمرة الأندلس بعد موت جده عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم وذلك في عام ثلاثمائة(١).

كان له غزوات كثيرة ضد النصارى، قاد بعضها بنفسه وأسند قيادة بعضها لقادته، وسأعرض نماذج من أبرز الغزوات التي تمت في عهده باختصار، فمن ذلك:

غزوة مُطُونية:

وكانت في العام السادس والثلاثمائة حيث جهز أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر حملة بقيادة حاجبه بدر بن أحمد إلى دار الحرب، وكان سبب ذلك أن النصارى تطاولوا على من بجوارهم من أهل الثغور من المسلمين لما انقطعت الغزوات الصيفية لبلادهم، فخرج إليهم الجيش الإسلامي بعدما تجمعت أمداده من أنحاء البلاد في يوم الثلاثاء لخمس بقين من شهر محرم، وقد تجمع الأعداء وحشدوا قواتهم، فجرت بينهم وبين المسلمين معركة حامية انتصر فيها المسلمون وشفى الله صدورهم من أعدائهم، وقتل من الأعداء عدد كبير وأسر منهم كذلك، وكان الفتح يوم الخميس لثلاث خلون من ربيع الأول ويوم السبت لخمس خلون من ربيع الأول(٢).

غزوة بلدة:

وفي شهر ذي الحجة من عام ستة وثلاثمائة غزا الناصر لدين الله بنفسه مدينة بلدة، وقد مر في طريقه بحصن دوش أمانتش فنازله وحاربه حتى افتتحه، ثم نهض إلى مدينة بلدة فحاصرها يوم الثلاثاء لليلة بقيت من ذي الحجة، فنزل من كان بها من المسلمين وذكروا أنهم كانوا مغلوبين على أمرهم فأمَّنهم الناصر وقاتل

(١) الكامل في التاريخ ٦/ ١٤٣.

(٢) البيان المغرب ٢/ ١٧٢ بتصرف.

الكفار في المدينة حتى أظفره الله بهم فقُتلوا عن آخرهم وملك المسلمون المدينة، واستولوا على بعض الحصون المجاورة(١).

غزوة مُوِيش:

وفي سنة ثمان وثلاثمائة غزا أمير المؤمنين الناصر دار الحرب، حيث خرج من قرطبة يوم السبت لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر المحرم، وبعد أربعة أيام ورد عليه كتاب فتح من عامله على مدينة الفرج يذكر فيه أن المشركين من أهل جليقية أتوهم في جمع كثير وأن الله تعالى منحهم أكتاف الكفرة فقتلوا وأسروا كثيرًا منهم فاستبشر الناصر وتفاءل باسم المحلة التي كان فيها يوم أن ورد عليه كتاب النصر وهي مخاضة الفتح.

وقد استمر الناصر في مسيره نحو بلاد العدو وأظهر التوجه إلى الثغر الأقصى ثم عرج بالجيش إلى طريق آلبة والقلاع، ثم بعث سعيد بن المنذر الوزير في سرية إلى حصن وُخْشُمة فأغذَّ السير حتى قرب من الحصن، وسرَّح الخيل يمنة ويسرة، والمشركون في سكون وغفلة، إذ كان أميرهم قد كاتب أمير المؤمنين مكايدًا له بمحاولة إبعاده عن بلاده بمواعيد وعدها من نفسه فأظهر أمير المؤمنين الناصر قبول ذلك منهم وأضمر الكيد بهم فغشيتهم الخيل المغيرة على حين غفلة فأصابوا مواشيهم ودوابهم فغنموها ورجعوا إلى العسكر سالمين، ثم كان هجوم الجيش على ذلك الحصن ففرَّ منه الكفار وأخلوه وذلك في صباح الجمعة لاثنتي عشرة ليلة بقيت من صفر.

ثم رحل أمير المؤمنين الناصر إلى حصن قاشترمورش وهو قاعدة الكفار هناك والموضع الذي كانوا يغيرون منه على المسلمين، فلما رآهم أعداء الله أخلوا الحصن وخرجوا هاربين، فدخله المسلمون وغنموا جميع ما فيه، وخربوا حصن القُبِلَّة المجاور له.

ثم ارتحل الناصر بالمسلمين إلى مدينة قُلُونية وكانت من أمهات مدنهم فاستولوا على ما حولها ثم وجدوها خالية قد شرد عنها أهلها إلى الجبال المجاورة لهم، فغنم المسلمون جميع ما أصابوا فيها.

---

(١) البيان المغرب ٢/ ١٧٣ بتصرف.

ثم ارتحل الناصر لخمس بقين من صفر إلى ثغر تطيلة لنجدة المسلمين بها حيث كان زعيم النصارى «شانُجه» قد ضايقهم وأخافهم، فسار بالمسلمين برفق لئلا يشق عليهم لاتصال سفرهم حتى وصل إلى تطيلة، ثم قدَّم الخيل مع محمد بن لُبّ عاملها إلى حصن قَلهُرَّة الذي اتخذه شانجه للإغارة على أهل تطيلة، فلما قصدته الخيل أخلاه من كان فيه واستولى عليه المسلمون، وبقى الناصر يومين حتى خربه وغنم ما فيه واستولى على ما حوله.

ثم رحل بالجيوش يوم الأحد لأربع خلون من ربيع الأول قاصداً زعيم النصارى «شانجه»، فخرج شانجه من حصن أرنيط بجيشه وتعرض لمقدمة جيش المسلمين فتبادر إليه الشجعان فانهزم الكفار وركبتهم الخيل، فقتل من الكفار من قتل وفر بقيتهم إلى الجبال، وحاز المسلمون كثيراً من رؤوس قتلى المشركين وتلقَّوا بها أمير المؤمنين الناصر ولم يكن له علم بالمعركة.

وورد الخبر على الناصر باجتماع أرذون وشانجه واستمداد بعضهما ببعض طامعين في اعتراض مقدمة جيش المسلمين أو قطع ساقتهم، فأمر الناصر بتعبئة العساكر وضبط أطرافها، ثم نهض بهم موغلاً في بلاد الأعداء، فأشرفوا من الصخور والجبال المنيعة وتعرضوا لأطراف جيش المسلمين، وجعلوا يتصايحون ويولولون ليضعفوا من قلوب المسلمين، فأمر الناصر بالنزول وإقامة الأبنية، فلما نزل الأعداء من الجبال قاتلهم المسلمون فهزموهم وساروا خلفهم يقتلون من أدركوا منهم حتى حجز الظلام بينهم، ولجأ عند الهزيمة أكثر من ألف من الأعداء إلى حصن مويش فأحاط به المسلمون من جميع جهاته وحاربوا من لجأ إليه حتى فتحوه وأخرجوا جميع من فيه وقتلوهم، واستولوا على ما فيه وما حوله(١).

غزوة طُرُّش:

وفي يوم السبت الثامن من محرم سنة تسع وثلاثمائة خرج أمير المؤمنين الناصر إلى «كورة رية» حتى نزل على حصن «طرش» وكان النصارى قد اجتمعوا فيه وتحصنوا به فحاصرهم المسلمون من جميع الجهات ونصبوا المنجنيقات على

---

(١) البيان المغرب ٢/ ١٧٥، بتصرف.

المرتفعات القريبة منه، وكان الأعداء يبرزون في أول الأمر للقتال حتى مزقتهم الحرب وقل عددهم فأغلقوا الحصن على أنفسهم، فاستمر المسلمون في حصارهم حتى أخذهم الجهد وأشفقوا من الهلاك فخاطبوا أمير المؤمنين ضارعين إليه في تأمينهم على أن يسلموا الحصن ويخرجوا عنه، فأجابهم إلى ذلك، فدخله المسلمون وخرج منه النصارى، ثم هُدم وأُلقيت أحجاره في النهر، وبُني في موضع الكنيسة مسجد جامع(١).

غزوة مُنْت رُوبي:

وفي يوم السبت لعشر خلون من المحرم عام عشرة وثلاثمائة خرج أمير المؤمنين الناصر لغزو كورة ألبيرة، وسار حتى نزل على حصن منت روبي، وكان جبلاً منيعًا بعيد المرام، وكان العجم قد لاذوا به، وهو متوسط بين كورة ألبيرة وكورة جيان وعلى طريق بجانة، فكان من سلك تلك السبيل من وارد أو صادر لا يسلم من عادية أهل ذلك الحصن، وكانوا يسفكون الدماء ويسلبون الأموال، فأقام عليهم الأمير الناصر خمسة وثلاثين يومًا محاصرًا حتى أباد كثيرًا منهم، ثم أبقى على الحصن من جنوده من استمر على محاصرتهم، وتقدم إلى حصون قريبة في ألبيرة ورية فحارب أهلها وأبقى من قادته من يحاصرونها، حتى ضعف الأعداء ولم يبق لهم وجود يضر بالمسلمين(٢).

غزوة بَنْبَلونة:

وفي يوم السبت لأربع عشرة ليلة بقيت من المحرم سنة اثنتي عشرة وثلاثمائة خرج أمير المؤمنين الناصر لدين الله لغزو بنبلونة، وقد سار في عسكر كبير حتى دخل ثغر تطيلة فانضم إليه جنود من أهل ذلك الثغر، ثم دخل بلاد المشركين يوم السبت لأربع خلون من ربيع الآخر فنزل من أول بلادهم على حصن قَلَهُرَّة، وكان زعيم النصارى «شانجه» قد أخلاه، فأمر الناصر بهدمه، ثم انتقل إلى بيطرة آلْتَه، وكانت هناك حصون مانعة فأخلاها الأعداء، ولجأ بعضهم إلى غيرانٍ في شفير

---

(١) البيان المغرب ٢/ ١٨٠، بتصرف.

(٢) المرجع السابق ٢/ ١٨٢ بتصرف.

جرف على النهـر، فلم يزل المسلمون يتعلـقون إليهم فيـها ويتسـورون عليهم من أعاليها حتى فتح الله عليهم فقتلوا الرجال وسبوا الذراري وغنموا الأمتعة.

ثم انتقل الناصر بعد ذلك إلى عدد من حصون الأعـداء فاستولى عليها، وعزم على الدخول إليـهم في عقر دارهم فـدخل في مواضع لم يدخلها المسلمـون قبل ذلك حتى نزل بقرية بَشْكُونشة التي ينسب إليها «شانجه»، فجمع هذا القائد جنوده واستمـد بالنصارى من كل مكان، فأمر الناصر بالتـعبئة والاستعـداد للحرب واثقًا بالله - عز وجل - ومتوكلاً عـليه، فسلك بجيشه بين جبال شـامخة، ورجا أعداء الله اقتطاع بـعض جيش المسلمين وهبطوا من الجـبال فـدارت بينهم وبين المسلمين مناوشة يسيرة، ثم نهض المسلمون إلى أعدائهم نهـوض الأسود فعبروا النهر إليهم وصمموا بالحـملة عليهم حتى اقتلعوهم عن موضعـهم وهزموهم حتى اضطروهم إلى مرتقًى وعر فاقـتحم المسلمون عليهم وسهل الله لهم وعره فـقتلوا جملة منهم وغنموا كثيـرًا من أموالهم، وانصرفوا سالمين لم يصب منهم غـير عدد قليل فازوا بالشهادة[1].

وبعد فهـذه أمثلة من الغزوات التي قام بهـا أمير المؤمنين عبـد الرحمن الناصر لدين الله، وهذه الأمثلة تبين لنا الجهود الكبـيرة التي بذلها حكام الأندلس وقادتهم وجنودهم في سبيل الدفاع عن الإسلام والمسلمين وتثـبيت الدولة الإسلامية، ومن هذه الأمثلة وغيرها ندرك أن ما اشتـهر عن حكام الأندلس من أنهم كانوا يتقلبون في أنواع من النعيم ليس على إطـلاقه، بل إن ذلك الرخاء والنعيم لم يتـوفر لهم إلا في ظل رايات الجهاد الخفاقة التي اندحر بها الأعداء واستسلموا لقوة المسلمين.

* * *

---

(١) البيان المغرب ٢/ ١٨٥ بتصرف.

مواقف المنصور محمد بن أبي عامر الجهادية والإصلاحية

مواقفه الجهادية:

بعد أن توفي الحكم بن عبد الرحمن في عام ستة وستين وثلاثمائة تولى بعده ابنه هشام وكان ابن اثنتي عشرة سنة وكان أمر دولته لوزير أبيه جعفر بن عثمان المصحفي، وكان لابن أبي عامر دور قوي في السياسة في عهد الحكم بن عبد الرحمن فرقَّاه هشام إلى رتبة الوزارة، ثم استأثر ابن أبي عامر بالحكم وتخلص من جعفر بن أبي عثمان، ومن بعض القادة الذين ينافسونه في الحكم حتى انفرد أخيراً بشئون الحكم، وكان يحكم باسم الأمير هشام(1)، ومع ما وقع فيه من تدبير المؤامرت وقتل المنافسين فإن له مواقف جهادية كثيرة.

ومن أبرز غزواته غزوة «شنَت ياقوب» وقد ذكر المؤرخ ابن عذاري هذه الغزوة بقوله:

وعند تناهي المنصور ابن أبي عامر في هذا الوقت على الاقتدار، والنصر على الملوك الطاغية (دمرها الله)، سما إلى مدينة شَنْت يَاقُوب بها من الأرض الكبيرة. وكانت كنسبتها عندهم بمنزلة الكعبة عندنا، فيها يحلفون وإليها يحجون من أقصى بلاد رُومة وما وراءها، ويزعمون أن القبر المزور فيها قبر ياقوب الحواري أحد الاثني عشر رحمهم الله، وكان أخصهم بعيسى عليه السلام، وهم يسمونه أخاه للزومه إياهُ. وقد زعم جماعةٌ منهم أنه ابن يوسف النجار. وشنت ياقوب هى مدفن ياقوب، فهم يسمونه أخا الرب (تعالى الله عن قولهم عُلواً كبيرًا) وياقوب بلسانهم يعقوب، وكان أُسْقُفًا ببيت المقدس، فجعل يستقري الأَرَضين داعيًا لمن فيها، فجاز إلى الأندلس حتى انتهى إلى هذه القاصية، ثم عاد إلى أرض الشام، فقتل بها، وله مائة وعشرون سنة شمسية، فاحتمل أصحابه رمته، فدفنوها بهذه الكنيسة التي كانت أقصى أثره. ولم يطمع أحدٌ من ملوك الإسلام في قصدها، ولا الوصول إليها، لصعوبة مدخلها وخشونة مكانها، وبُعد شُقَّتها.

---

(1) انظر الأمويون بين الشرق والغرب/ ٣٨٠ - ٣٨٨.

فخــرج المنصــور إليهــا من قُرطبــة غازيًا بالصــائفة يوم الســبت لست بقين من جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وثلاثمائة، وهي غزوته الثامنة والأربعون.

ثم ذكر خطوات مسيره إلى أن قال: ثم نهض يريد شنت ياقوب، فقطع أَرَضين متباعدة الأقطار، وقطع بالعبور عدة أنهــار كبار وخلجان يمدها البحر الأخضر. ثم أفضى العسكر بعد ذلك إلى بسائط جليــلة من بلاد فلطارش ومباسيطة والدير وما يتصل بها، ثم أفضى إلى جبل شامــخ شديد الوعر، لا مسلك فيه ولا طريق، لم تهتــد الأدلاء إلى سواه. فــقدَّم المنصور الفَــعَلَة بالحديد لتــوسعة شــعابه وتســهيل مسالكه، فقطعــه العسكر وعبروا بعده وادي منيُه، وانبــسط المسلمون بعد ذلك في بسائط عريضــة وأَرَضين أَرِيضة، وانتهت مَغيرتهم إلــى دَير قَسطان وبسيط بلبنوط على البحــر المحيط، وفتــحوا حصن شنت بلايه، وغنمــوه، وعبروا سِبَــاحَةً إلى جزيرة من البــحر المحيط لجأ إليــها خلقٌ عظيمٌ من أهل تلك النواحي، فســبوا من فيها ممن لجأ إليها.

وانتهى العسكر إلى جبل مراسية المتَّصل من أكثر جهاته بالبحر المحيط، فتخللوا أقطاره، واستخرجوا من كان فيه، وحازوا غنائمه.

ثم أجاز المسلمون بعــد هذا خليج لورقى في معبرين أرشد الأدلاء إليــهما، ثم نهر إيله، ثم أفضــوا إلى بسائط واسعة العمــارة، كثيرة الفائدة، منهــا بسيط أونبة وقرجــيطة ودير شنت برية. ثم انتهوا إلــى خليج إيلياء، وهو من مشــاهد ياقوب أيضًا صاحب القبــر، تلو مشهد قبره عن النصارى في الفضل، يقــصد نُساكهم له من أقاصي بلادهم ومن بلاد القبط والنوبة وغيرها. فغادره المسلمون فارغًا.

وكان النزول بعده على مدينة شنت ياقــوب البائسة، وذلك يوم الأربعاء لليلتين خلتا من شعــبان، فوجدها المسلمون خــالية من أهلها، فحاز المسلمــون غنائمها، وهدموا مصانعهــا وأسوارها وكنيستها، وعفوا آثارها. ووكَّل المنــصور بقبر ياقوب من يحفظه ويدفع الأذى عنه.

إلى أن قال: وانكفــأ المنصور عن باب شنت ياقــوب، وقد بلغ غايةً لم يبلغــها مسلمٌ قبله.

قال: ولم يجد المنصور بشنت ياقوب إلا شيخًا من الرُّهبان جالسًا على القبر، فسأله عن مُقامه، فقال: أؤانس يعقوب. فأمر المنصور بالكفّ عنه(١).

فهذه غزوة من غزوات المنصور ابن أبي عامر الكثيرة، وقد خصصتها بالذكر لما فيها من المغامرات التي لم يسبق إليها في تلك البلاد، ولعل الذي دفعه إلى هذه المغامرات وتدمير ما وصل إليه من عامر تلك البلاد الجبلية هو كون تلك المناطق الوعرة ملاذًا للمخربين من النصارى الذين يقومون بالهجوم على بلاد المسلمين ثم يلجئون إلى تلك البلاد التي لم يكونوا يتوقعون أن أحدًا من الغزاة سيصل إليها.

قال ابن عذاري: وفي سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة توفي المنصور ابن أبي عامر رحمه الله تعالى، قال: وكانت عدة غزواته سبعًا وخمسين غزوة باشرها كلها بنفسه، وهو في أكثرها يشكو علة النقرس، عفا الله تعالى عنا وعنه(٢).

من مواقفه الإصلاحية:

وقد ذكر المؤرخ ابن عذاري نبذة من إصلاحات ابن أبي عامر ومن ذلك: بنيان قنطرة على نهر قرطبة الأعظم. ابتدأ المنصور بنيانها سنة سبع وثمانين وثلاثمائة، وفرغ منها في النصف من سنة تسع وثمانين وثلاثمائة، وانتهت النفقة عليها إلى مائة ألف دينار وأربعين ألف دينار، فعظمت بها المنفعة، وصارت صدرًا في مناقبه الجليلة. وكانت قطعة أرض لشيخ من العامة، ولم يكن للقنطرة عُدُولٌ عنها، فأمر المنصور أمناءه بإرضائه فيها، فحضر الشيخ عندهم، وأخذ حذره منهم، فساوموه بالقطعة وعرفوه وجه الحاجة إليها، وأن المنصور لا يريد إلا إنصافه فيها. فرماهم الشيخ بالغرض الأقصى عنده فيما ظنه: أن لا تخرج عنه بأقل من عشرة دنانير ذهبًا، كانت عنده أقصى الأمنية، وشرطها صحاحًا. فاغتنم الأمناء غفلته، ونقدوه الثمن، وأشهدوا عليه، ثم أخبروا المنصور بخبره، فضحك من جهالته، وأنف في غبنه، وأمر أن يعطى عشرة أمثال ما سأل، وتدفع له صحاحًا كما قال. فقبض الشيخ مائة دينار ذهبًا، فكاد أن يخرج عن عقله وأن يجنَّ عند قبضها من الفرح، وجاء محتفلاً في شكر المنصور. وصارت خبرًا سائرًا.

---

(١) البيان المغرب ٢/ ٢٩٤ - ٢٩٧ باختصار.

(٢) البيان المغرب ٢/ ٣٠١.

ومن ذلك أيضًا: بنيـان قنطرة على نهر إستجـة، وهو نهر شنيل، فتجـشم لها أعظم مؤنة. وسهَّل الطُّرق الوعرة والشعاب الصعبة[1].

فهذان مـثلان من الإصلاحات العـامة التي قام بها، ومما يلفت النـظر في الخبر الأول رحمته بذلك الشيخ وتورعه عن غبنه، فـهو لم يغتنم فرصة جهله بالأسعار كمـا فعل أصحابه، بل أعـطاه حقه وزيادة على ذلك، فـهذا يدل على تنزهه من الظلم وإن كان ذلك غير معلوم لمن سيقع عليه.

قال: ومن ذلك أنه خط بيده مصـحفًا كان يحمله معه في أسـفاره، يدرس فيه ويتبرك به.

ومن قوة رجائه أنه اعـتنى بجمع ما علق بوجهه من الغبـار في غزواته ومواطن جهاده، فكان الخدم يأخذونه عنه بالمناديل في كل منزل من منازله، حتى اجتمع له منه صُرةٌ ضخمة عـهد بتصبيره في حنوطه عند موته، وكان يـحمله حيث ما سار مع أكفـانه، توقعًا لحـلول منيته، وقـد كان اتخذ الأكـفان من أطيب مكسـبه من الضيـعة الموروثة عن أبيه وغزل بناتـه. وكان يسأل الله تعالى أن يتـوفاه في طريق الجهاد، فكان كذلك[2].

وهذان الخبران يدلان على قوة دينـه وعمق استحضاره للحيـاة الآخرة وتعظيمه لكتاب الله تعالى والجهاد في سبيله.

قال: وكان عـدل المنصور في الخاصة والعامـة. واطِّراحه المهاودة، وبسطه الحق على الأقرب فالأقرب من خاصته وحاشيته أمرًا مضروبًا به المثل.

ومن عدله أنه وقف عليه رجلٌ من العامة يومًا بمجلسه فناداه: يا ناصر الحق لي مظلمة عند ذلك الوصـيف الذي على رأسك! وأشار إلى الفتى صـاحب الدرقة. وكان له فـضلُ محل عند ابن أبي عـامر، ثم قـال: وقد دعوته إلى الحـاكم، فلم يأت! فقال المنصور: أَوَعبد الرحـمن بن فطيس بهذه المنزلة من العجز والمهانة وكنا نظنه أمضى من ذلك؟ اذكـر مظلمتك يا هذا! فذكـر الرجل معاملةً كـانت جارية بينهما قطعها من غير نصف، فقـال المنصور: ما أعظم بليتنا بهذه الحاشية! ثم نظر

---

(١) البيان المغرب ٢/ ٢٨٨. (٢) المرجع السابق ٢/ ٢٨٨.

إلى الصّقْلَبيّ، وهو قد ذهل عقله، فقال: ادفع الدرقة إلى فلان، وانزل صاغرًا، وساو خصمك في مقامه حتى يرفعك الحقُّ أو يضعك! ففعل، ومثُل بين يديه، ثم قال لصاحب شرطته الخاص به: خُذ بيد هذا الظالم الفاسق، وقدمه مع خصمه إلى صاحب المظالم لينفذ عليه حكمه بأغلظ ما يوجبه الحق من سجن أو غيره! ففعل ذلك، وعاد الرجل إليه شاكرًا، فقال له المنصور: قد انتصفت أنت فاذهب لسبيلك، وبقى انتصافي أنا ممن تهاون بمنزلتي. فتناول الصقلبيَّ بأنواع من المذلة، وأبعده عن الخدمة.

ومن ذلك، قصة فتاه الكبير المعروف بالميورقي مع التاجر المغربي، فإنهما تنازعا في خصومة توجهت فيها اليمين على الفتى المذكور، وهو يومئذ أكبر خدم المنصور، وإليه أمر داره وحرمه، فدافع الحاكم، وظن أن جاهه يمنع من إحلافه، فصرخ التاجر بالمنصور في طريقه إلى الجامع متظلمًا من الفتى، فوكل به في الوقت من حمله إلى الحاكم، فأنصفه منه، وسخط عليه المنصور، وقبض نعمته منه ونفاه.

ومن ذلك، قصة محمد، فصَّاد المنصور، وخادمه وأمينه على نفسه، فإن المنصور احتاجه يومًا إلى الفصد، وكان كثير التعهد له، فأنفذ رسوله إلى محمد، فألفاه الرسول محبوسًا في سجن القاضي محمد بن زرب، لِحَيْف ظهر منه على امرأته. قدر أن سبيله من الخدمة يحميه من العقوبة، فلما عاد الرسول إلى المنصور بقصته أمر بإخراجه من السجن مع رقيب من رُقباء السجن، يلزمه إلى أن يفرغ عن عمله، ثم يعيده إلى محبسه. ففعل ذلك على ما رسمه، وذهب الفاصد إلى شكوى ما ناله، فقطع عليه المنصور، وقال له: يا محمد، إنه القاضي وهو في عدله، ولو أخذني الحقُّ ما أطقتُ الامتناع منه! عُدْ إلى محبسك أو اعترف بالحق فهو الذي يطلقك. فانكسر الحاجم، وزال عنه ريحُ العناية. وبلغت قصته للقاضي، فصالحه مع زوجه، وزاد القاضي شدةً في أحكامه[1].

فهذه الأخبار الثلاثة تدل على عدله وإنصافه أهل الحق من ظالميهم وإن كانوا من المقربين إليه، وفي الخبر الأول نراه يُنحِي باللائمة على ذلك القاضي الذي

(١) البيان المغرب ٢/ ٢٨٩ - ٢٩٠.

عجــز عن استقدام المدعى عليــه لكونه من المقربين للمنصور، فــهو يرى بذلك أن القاضي يجب عليــه أن يكون قويًا وأن لا تأخذه في الحق لومــة لائم وأن لا يفرق في الخصومة بين كبير أو صغـير، ثم إنه بعد أن أخذ المظلوم حقه نراه يعاقب ذلك الفتى الظالم عقوبة خــاصة لكونه استغل قربه منه فامــتنع من الحضور إلى مجلس القضاء.

قال: ومن ذلك قصة الجوهري التاجر، وذلك أن رجلاً جوهريًا من تجار المشرق قصد المنصور من مدينة عدن بجوهر كثير، وأحجار نفيسة، فأخذ المنصور من ذلك ما استحسنه، ودفع إلى الجوهري التاجر صُــرَّته، وكانت قطعة يمانية. فأخذ التاجر في انصرافه طريق الرَّملة على شط النهر، فلما توسطها واليومُ قائظ وعرقُه مُنْصبٌّ دعتــه نفسه إلى التــبرد في النهر، فــوضع ثيابه وتلك الصُّرة على الشط، فــمرت حدأةٌ، فاختطفت الصــرة، تحسبها لحما، وصاعــدت في الأفق بها ذاهبة، فقطعت الأفق الذي تنظر إليه عين التاجر، فقامت قيامته وعلم أنه لا يقدر أن يستدفع ذلك بعدوى ولا بحيلة، فأسرَّ الحزن في نفســه، ولحقته لأجل ذلك علةٌ اضطرب فيها. وحضر الدفع إلى التجار، فحضر الرجل لذلك بنفسه، فاستبان له ما به من المهانة والكآبة، وفقد ما كان عنده من النشاط وشــدة العارضة. فسأله المنصور عن شأنه، فأعلمه بقصــته، فقال له: هلا أتيت إلينا بحدثان وقوع الأمــر؟ فكنا نستظهر على الحيلة، فهل هَديت إلى الناحية التي أخذ الطائر إليها؟ قال: مرَّ مُشرقًا على سَمْت هذه الجنان الذي يلي قصرك! يعني الــرملة، فدعا المنصور شرطيه الخــاص به فقال له: جئني بمشيخة أهل الرملة الساعة، فمضى، وجاء بهم سريعًا، فأمرهم بالبحث عمن غيرَّ حال الإقلال منهم سريعًا، وانتقل عن الإضاقة دون تدريج، فتناظروا في ذلك، ثم قالوا: يا مولانا! مــا نعلم إلا رجلاً من ضعفــائنا كان يعمل هو وأولاده بأيديهم، ويتناولون السَّقي بأقدامهم عجزًا عن شراء دابة، فابتاع اليوم دابة واكتسى هو وولده كسوة متوسطة. فأمر بإحضاره من الغد، وأمر التاجر بالغدو إلى الباب، فحضر الرجل بعــينه بين يدي المنصور، فاستدناه والتاجر حــاضرٌ، وقال له: سببٌ ضاع منا وســقط إليك ما فــعلت به؟ فقــال: هو ذا يا مولاي؟ وضــرب بيده إلى حجزة سراويله، فأخرج الصرة بعينها، فــصاح التاجر طربًا وكاد يطير فرحًا، فقال

له المنصور: صف لي حديثها. قال: نعم! بينا أنا أعمل في جناتي تحت نخلة، إذ سقطت أمامي، فأخذتها، وراقني منظرها، فقلت إن الطائر اختلسها من قصرك لقرب الجوار، فاحترزت بها، ودعتني فاقتي إلى أخذ عشرة مثاقيل عُيُونًا كانت معها مصرورة، وقلت: أقلُّ ما يكون في كرم مولاي أن يسمح لي بها. فأعجب المنصور ما كان منه، وقال للتاجر: خُذ صرتك، وانظرها، واصدقني عن عددها. ففعل وقال: وحق رأسك، يا مولاي، ما ضاع منها شيء سوى الدنانير التي ذكرها، وقد وهبتها له. فقال له المنصور: نحن أولى بذلك منك، ولا ننقص عليك فرحتك. ولولا جمعه بين الإقرار والإنكار لكان ثوابه موفورًا عليه. ثم أمر للتاجر بعشرة دنانير عوضًا من دنانيره وللجنَّان بعشرة دنانير ثوابًا لتأنيه عن إفساد ما وقع بيده، وقال: لو بدأنا بالاعتراف قبل البحث، لأوسعناه جزاءً! قال: فأخذ التاجر في الثناء على المنصور، وقد عاوده نشاطه، وقال: والله لأبثنَّ في الأقطار عظيم ملكك، ولأبينن أنك تملك طير عملك كما تملك إنسها، فلا تعتصم منك ولا تؤذي جارك! فضحك المنصور، وقال: اقصد في قولك يغفر الله لك! فعجب الناس من تلطف المنصور في أمره، وحيلته في تفريج كربته(١).

فهذا مثال على دهاء المنصور ابن أبي عامر ودقة ملاحظته، وهذا التفوق في النظر في القضايا والبحث الدقيق في خفاياها وملابساتها إنما هو بالدرجة الأولى توفيق من الله تعالى لمن حملوا في أفكارهم هموم الأمة وأصبح إحقاق الحق وإبطال الباطل مطلبهم الكبير، فالذهن في هذه الحال يتفتق عن أنواع من مجالات الحلول التي يصل بها صاحبها إلى حل القضايا المشكلة ومعرفة الأمور المغيبة.

***

---

(١) البيان المغرب ٢/ ٢٨٨ - ٢٩٢.

جهاد المرابطين في الأندلس

قبل أن أتحدث عن دور المرابطين في الجهاد في الأندلس أحب أن أعطي نبذة موجزة عن دولة المرابطين.

وأصل نشوء هذه الدولة التي حكمت بلاد المغرب والأندلس يعود إلى يحيى بن إبراهيم الجدالي الصنهاجي، أمير جدالة، فإنه قد شعر بما كان عليه قومه من الجهل بالدين وعدم وجود علماء يعلمونهم ويذكرونهم، فلما رجع من الحج عام أربعين وأربعمائة مرَّ على القيروان واتصل هو وجماعته بالعالم المربي أبي عمران ابن موسى بن عيسى الفاسي فطلبوا منه أن يرسل معهم عالمًا يفقههم في أمور دينهم، فأحالهم إلى تلميذه العابد المربي وجاج بن زللو اللمطي، الذي بني له - بعد تخرجه من شيخه - رباطا في الصحراء الكبرى في «نفيس» واجتمع حوله فيه تلامذته، وكتب الشيخ إلى تلميذه هذا مع يحيى بن إبراهيم «ابعث إلى بلده من تثق بدينه وورعه وكثرة علمه وسياسته ليعلمهم القرآن وشرائع الإسلام ويفقههم في الدين، ولك وله في ذلك الثواب والأجر العظيم. والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً».

وقد وقع اختيار الشيخ «وجاج اللمطي» على تلميذه «عبد الله بن ياسين الجزولي» وكان اختياراً موفقًا كما تبين فيما بعد، حيث كان عبد الله هذا هو منشئ دعوة المرابطين وأستاذَ زعمائهم، وسار عبد الله بن ياسين نحو ديار الملثمين من جدالة ولمتونة مع يحيى بن إبراهيم، وكان يحيى يقدِّمه لكل قبيلة يتوجه لدعوتها بقوله «هذا عبد الله بن ياسين محيي السنة» وقد أثار إعجاب قبائل البربر بعلمه وأخلاقه حتى قال أحد شيوخهم: أرأيتم هذا الجمل! لابد أن يكون له في هذه الصحراء شأن عظيم.

وبدأ ابن ياسين دعوته بالوعظ والتعليم فأحبه الناس وأقبلوا عليه، ثم بدأ بإصلاح المجتمع وإنكار المنكرات وتطبيق أحكام الإسلام على العامة والكبراء، فقاومه بعض الأكابر الذين يرفضون من الإسلام ما خالف أهواءهم فهدموا داره ونهبوا ما فيها.

عند ذلك فكَر هو وصاحبه يحيى بن إبراهيم في إنشاء رباط في جزيرة منعزلة عند مصب نهر السنغال في المحيط الأطلسي، وتوافد التلاميذ على ذلك الرباط يتعلمون العلم الديني ويتلقون التربية الأخلاقية والجهادية، وقد توسع ذلك الرباط حتى بلغ عدد جماعته أكثر من ثلاثة آلاف[1] ومن هؤلاء التلاميذ تكونت فرق المجاهدين التي أنشأت دولة المرابطين بعد جهاد طويل قاده منشئ هذه الدعوة عبد الله بن ياسين، بمؤازرة صاحبه يحيى بن إبراهيم الجدالي، ثم بقيادة يحيى بن عمر اللمتوني، ثم أخيه أبي بكر بن عمر، إلى أن آل الأمر إلى يوسف بن تاشفين الذي وسع الجهاد وأقام دولة المرابطين الواسعة.

سبب جهاد المرابطين في الأندلس:

بعد أن سقطت إمارة طليطلة وأصبحت كل إمارات الأندلس مهددة بالسقوط في أيدي النصارى اهتم علماء الأندلس ووجهاؤها بسبيل إنقاذ وضعهم المتدهور، فاتَّجهتْ أنظارهم إلى طلب النجدة من أمير المرابطين في المغرب، ووافقهم بعض حكامهم على ذلك، وعلى رأسهم المعتمد بن عباد، فأرسلوا رسلهم إلى الأمير يوسف بن تاشفين ليسرع إلى نجدتهم[2].

معركة الزَّلاقة:

وبعد أن وصلت رسل الأندلس إلى ابن تاشفين يطلبون نجدته سارع إلى ذلك بعد استشارة أهل الرأي، وقد عبرت الجيوش المرابطية إلى الأندلس على دفعات حتى تكاملت، وكان عدد فرسان المرابطين سبعة آلاف ومعهم عدد كثير من الرَّجَّالة، وذلك في شهر ربيع الأول من عام تسعة وسبعين وأربعمائة.

ويُذكر أنه في حال عبور الأمير يوسف بن تاشفين البحر هبت ريح عاصف أثارت أمواجًا عالية، فرفع الأمير يوسف يديه إلى السماء يدعو الله عز وجل «اللهم إن كنت تعلم أن في جَوَازِنا هذا خِيرَة للمسلمين فسهِّل علينا جواز هذا

---

(١) البيان المغرب لابن عذاري ٤/ ٧ - ٢٤، أمير المسلمين ابن تاشفين لإبراهيم الجمل/ ٣٧ - ٤٩، التاريخ الأندلسي/ ٤١٩ - ٤٢٠.

(٢) نفح الطيب ٦/ ٨٧.

البحر، وإن كان غير ذلك فصعِّبه حـتى لا أجوزه» فاستجاب الله دعاءه فسهَّل له عبور ذلك البحر(1).

وصل ابن تاشفين إلى الأندلس بجـيشه، وسارع أمراء الطـوائف إلى الاشتراك بقـواتهم، وفرح أهل الأندلس بقـدوم الأمير ابن تاشفين فـرحًا عظـيمًـا، وسار المرابطون إلى إمـارة بطليـوس وعسكروا في سـهل «الزَّلاقـة»، وتوافدت عليـهم جيوش الأندلس.

وكـان أميـر النصارى «الفـونسـو أذفنوش» يحاصـر سَـرقَسْطة في طريقـه إلى الاستـيلاء على بقية الأندلس، فلمـا علم بقدوم جيش المرابطين فكَّ الحـصار وبدأ يستعـد وكاتب أمراء النصارى فـأجابه عدد منهم واجتـمعت عنده جيوش كـثيرة، فسار بجيشه مزهوًا بتفوقه في العَـدد والعُدد، ونظر إلى جيشه فقال: بهؤلاء أقاتل الجن والإنس وملائكة السماء.

وبعد أن اجـتمع أمراء الطوائف ضمـوا جيوشـهم وأسندوا قيادة جيـشهم إلى المعتمد بن عباد، وصاروا في مقدمة الجيش ومنْ خلفهم جيش المرابطين.

وقبل المعـركة جرت مـراسلات بين الطرفين، فـقد أرسل ابن تاشفين - عـملاً بالسنة - إلى الفونسو يعرض عليـه الدخول فى الإسلام أو الجزية أو الحرب، ومما جاء في هذه الرسالة «وبلَغَنَا يا أذفنوش أنك دعوت إلى الاجتماع بك، وتمنيت أن تكون لك فُلْكٌ تعبر البحر عليها إلينا، فقد جزناه إليك، وجمع الله تعالى في هذه العرصة بيـننا وبينك، وسترى عاقـبة دعائك ﴿**وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ**﴾ [الرعد: ١٤]. فـغضب الفونسو لهـذه الرسالة وردَّ بكتاب عنيف مملوء بالوعـيد، وقد اكـتفى ابن تاشـفين في الرد عليه بأن كـتب على ظهر الرسـالة «الذي يكون ستراه».

وقد نظم أمير المسلمين يوسف بن تاشفين جيـشه فجعل القوات الأندلسية تحت قيادة المعتمـد بن عباد وجعلهم في المقدمة، وجعل منهم في الميـمنة قوة بقيادة ابن الأفطس، وجـعل في الميسـرة أهل شرقـي الأندلس، وجعل قـوات المرابطين في

(1) التاريخ الأندلسي/ ٤٠٣ عن دول الطوائف ٣١٩، ٤٤٧.

الخلف، وأفرد منهم قوتين من الفرسان جعلهما جيش احتياط إحداهما بقيادة داود ابن عائشة والأخرى بقيادة أبي بكر سِيْر بن أبي بكر وهما من قادته الكبار.

ولما تقابل الجيشان كتب قائد العدو إلى المسلمين يوم الخميس الحادي عشر من شهر رجب يخبرهم أن المعركة ستكون يوم الاثنين، وكان ذلك منه خداعًا ليباغتهم يوم الجمعة.

وقد أدرك المسلمون تلك الخديعة، وأكد ذلك ما ظهر في جيش العدو من الاستعداد للقتال، فأخذ المسلمون حذرهم، وزاد الأمرَ تأكيدًا أن أحد العلماء الصالحين وهو أبو العباس أحمدُ بن رُمَيْلَةَ القرطبي أخبر برؤيا صالحة، وهي أنه رأى النبي ﷺ ليلة الجمعة فبشره بالفتح والشهادة له في صبيحة الغد، فانتبه مسرورًا وتأهب ودعا ودهن رأسه وتطيب، وكان في جيش ابن عباد، فوصله خبر الرؤيا فبعث إلى ابن تاشفين وأخبره، فكان ذلك تحقيقًا لخديعة الفونسو المذكورة.

فلما كان صباح الجمعة الثاني عشر من شهر رجب من عام تسعة وسبعين وأربعمائة زحف الفونسو بجيشه على المسلمين. وقد وجه بقواته إلى مقدمة جيش المسلمين، وما كاد الأعداء يوجهون ضرباتهم إلى جيش الأندلس حتى ظهر الفشل والخلل فيهم فإنهزم كثير منهم وثبت قائدهم ابن عباد في قلة معه.

وكان قائد يوسف بن تاشفين يلاحظ ما يجري بدقة، فوجه الفرقة الاحتياطية التي كانت بقيادة ابن عائشة لنجدة المعتمد بن عباد، ثم لما احتدمت المعركة وكثَّف الأعداء من هجومهم وجه ابن تاشفين الفرقة الاحتياطية الأخرى بقيادة البطل المشهور سير بن أبي بكر، وقد استطاع ابن أبي بكر أن يوقف قوات القشتاليين التي يقودها هانيس، ودارت بين القوتين معركة عنيفة انضم إليها قائد النصارى الفونسو.

وتراجع جيش الأندلسيين فاشتغل النصارى بقتالهم ومطاردتهم، وكانت الفرصة الذهبية التي خطط لها ابن تاشفين حيث كان يلتمس نقاط الضعف في العدو لينزل إلى الميدان بهجوم صاعق، فاغتنم فرصة انشغال الأعداء بمطاردة الجيش الأندلسي وبُعْدَهُم عن معسكرهم فداهمهم من الخلف وأباد الحامية التي حول معسكرهم

وأضرم فيه النيـران، ثم نزل إلى الميدان وهجم بجيشه على مـؤخرة الأعداء وصار المسلمون يحصدونهم بسيوفهم.

ولما علم قائد العدو «الفونسـو» بما حل بمعسكره رجع بقواته فاصطدم بالمرابطين ودارت بينهم معركة حامية انهزم فيها النصارى.

ثم أراد ابن تاشفين أن يقـضي على بقية الـنصارى فجمع جـيشه في صـفوف متراصة وهجم بهم على العدو، واستطاع أحد جنود الفرقة السودانية أن يصل إلى الفونس وأن يقتل فرسه وطعنه في فخذه إلا أنـه نجا من تلك الطعنة واستمر القتال إلى غروب الشـمس، وفرَّ بقيـة جيش النصارى، وتسلل الفـونسو في الظلام مع خمسمائة فارس مات منهم أربعـمائة في الطريق ووصل الفونسو إلى طليطلة ومعه مائة فارس[1].

وهكذا كانت معـركة الزَّلاقة معـركة حاسمة ارتفع بعـدها شأن المسلمين وثبت وجودهم في الأندلس وانخفض شأن النصارى وانحازوا إلى معاقلهم.

لقد كان الفونسو عازمًـا على إنهاء وجود المسلمين في الأندلس، وساعده على ذلك تحالف أمـراء النصارى في أوروبا معـه وتفرُّق المسلمين إلى دويلات صغـيرة يعـيش أمراؤها في تناحـر وعـداء مسـتمـر، وكانوا مـن ذلتهم يدفـعون الجـزية للنصارى، وبلغت الخيانة ببعضهم إلى أن طلبوا المسـاعدة من أمير قشتالة الفونسو على قتـال إخوانهم من أمراء المسلمين، فـاغتنم هذا الأمـير الفرصة وبدأ يسـتولي على بلاد الأندلس إلى أن قـيَّض الله له الأمـيـر البطل القـائد المحنَّك يوسف بن تاشفين فقضى على جيشه وحطم آماله.

ولقد كان عجيبًا أن يخوض ابن تاشفين هذه المعركة الهائلة وهو في الثمانين من عمره، ومـع هذا العمر الكبيـر فإنه قاد جيـشه وشارك في القتـال وهو على ظهر فرسه، وهذا من الدلائل على صلاحه وعلو همته.

---

(١) نفح الطيب ٦/ ٨٦ - ١٠٣، الكامل في التـاريخ ٨/ ١٤١، أمير المسلمين يوسف بـن تاشفين لإبراهيم الجمل/ ١١٦ - ١٣٤، التاريخ الأندلسي للدكتور عبد الرحمن الحجي/ ٤٠٣ - ٤٠٩.

لقد كـان من نتائج هذه المعـركة الفـاصلة أن الإسلام بقي في الأندلس مـئات السنين بعد أن اتفق الأعداء من النصارى على القضاء على وجود المسلمين هناك.

عاد الأمير يوسف بن تاشفين إلى المغرب في شهر شعبان من عام تسعة وسبعين وأربعمـائة، وترك جزءًا من جيـشه في الأندلس بقيـادة سير بن أبي بكر ليـجاهد النصارى، وقد شارك معه في الجهاد أمـير بطليوس، أما بقية أمراء الأندلس فإنهم قد تركـوا جهـاد النصارى ورجعـوا إلى مُنازعاتهم، ولم يسـتفـيدوا من الدروس الأليمة التي مروا بـها يوم أن كانوا قاب قوسين أو أدنى من أن يتحـولوا إلى عبيد للنصارى.

حصار حصن لَبيط:

اشتـد ضغط النصارى على المسلمـين في الأندلس وتكررت هجماتهم خـاصة على الجهة الشرقيـة التي كان المعتمد بن عباد يسيطر عليـها، وكانوا يخرجون إلى المسلمين من حصن «لَبيط» المنيع وكان النصارى قد أحكموا بناءه ووضعوا فيه آلافًا من المقاتلين، ولما أيس ابن عـباد من الانتصار عليهم وخـشي من وقوع بلاده تحت أيديهم سـار إلى أميـر المسلمين يوسف بن تاشـفين وشرح له الضـرر الواقع على المسلمين من حـصن لبيـط وطلب منه نجدتهم، فـوعـده ابن تاشفين بالقـدوم إلى الأندلس بجيشه.

وبعد أن أكمل الأمير يوسف بن تاشفين استـعداده سار وعبر مضيق جبل طارق فتلقـاه المعتمد في الجـزيرة الخضراء المؤَن، وكتـب ابن تاشفين إلى ملوك الطوائف يستـنفرهم إلى الجـهاد وحدد مكـان اللقاء حـصن لبيط، وقـد حاصره المسـلمون حصارًا شـديدًا إلى أن وافق أمير قشتـالة الفونسو على إخلائه فـأخلاه ثم هدمه، وتخلص المسلمـون بذلك من بلاء كبـير، وعـاد ابن تاشفين إلى المغـرب، ولكن الأندلس عادت إلى أسوا من حالها الأولى[1].

عودة المرابطين إلى الجهاد:

هذا وقد ساءت أحوال ملوك الطوائف في الأندلس، وجـدد بعضهم تحالفه مع النصارى ضد إخوانه المسلمين، فكثُرت منـاشدة المسلمين للأمير يوسف بن تاشفين

(١) التاريخ الأندلسي/ ٤٢١ - ٤٢٢، أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ١٣٥ - ١٤٢.

بتخليص الأندلس من هؤلاء الملوك، وأفتاه العلماء كأبي حامد الغزالى وأبي بكر الطرطوشي بضرورة توحيد الأندلس تحت قيادته ليتمكن من إجلاء الصليبيين منها، وقد استجاب لتلك النداءات وعمل بفتوى العلماء، فجهز جيشًا وعبر إلى الأندلس فى أوائل سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة وقام ببعض الأعمال الجهادية، ثم عاد إلى المغرب وترك عدداً من قادته ليكملوا الجهاد في توحيد الأندلس ومقاومة النصارى، وقد جرت معركة كبيرة بين المرابطين بقيادة سير بن أبي بكر والنصارى بقيادة البرهانش كان النصر فيها حليف المسلمين وذلك في عام أربعة وثمانين وأربعمائة.

وفى عام واحد وتسعين وأربعمائة التقى المرابطون بقيادة محمد بن الحاج بالنصارى القشتاليين بقيادة الفونسو قرب كنشرة من أعمال طليطلة وقد انهزم النصارى وتكبدوا خسائر كبيرة.

واستمر المرابطون في جهادهم إلى أن توفي أمير المسلمين يوسف بن تاشفين في أول محرم من عام خمسمائة بعد عمر يقارب المائة سنة قضى أكثر من نصفها في الجهاد والإصلاح رحمه الله رحمة واسعة.

وقد خلفه في حكم دولة المرابطين ابنه علي الذي سار على سيرة أبيه في مواصلة الجهاد في سبيل الله تعالى.

معركة أقلِيش:

جرت هذه المعركة بعدما تولى الأمير علي بن يوسف بن تاشفين الحكم في أوائل عام واحد وخمسمائة، وقد كتب الأمير علي إلى أخيه تميم باستئناف الجهاد، فتوجه المرابطون إلى مدينة أقليش الواقعة شرق مدينة طليطلة ففتحوها، وتركها جيش النصارى القشتاليين وتحصنوا بقلعة أقليش المنيعة، وقد أمد أمير قشتالة الفونسو السادس تلك الحامية بعشرة آلاف فارس، بقيادة ولي عهده ابنه الوحيد شانُجه البالغ إحدى عشرة سنة، مع قائده الكبير البرهانش وقادة آخرين، وكان عدد الجيش القشتالي يفوق كثيراً عدد الجيش الإسلامي، وقد جرت هذه الوقعة في السادس عشر من شوال عام واحد وخمسمائة، وقد انتصر فيها المسلمون

انتصارًا رائعًا أعاد ذكرى معركة الزلاقة، وانهزم القشتاليون هزيمة ساحقة قُتل فيها ابن ملكهم شانُجه المذكور(١).

معركة إفراغة:

بعد انتصار المرابطين في معركة أقليش جرت لهم أعمال جهادية انتصروا في أكثرها وأصيبوا في بعضها.

ومن أشهر المعارك التي خاضوها معركة إفراغة، في رمضان سنة ثمان وعشرين وخمسمائة، وهذه المعركة تعتبر من المعارك المهمة، وكان الجيش الإسلامي مكونًا من المرابطين والأندلسيين بقيادة الأمير أبي زكريا يحيى بن غانية والي بلنسية ومرسية، ويعتبر من أعظم قادة المرابطين في ذلك العهد، وكان جيش المسلمين أقلَّ من جيش النصارى الذي يقوده أدفنوش بن رُدْمِير، وقد انتصر المسلمون في هذه المعركة بعد قتال عنيف(٢).

وهكذا قدم المرابطون للمسلمين صفحات جهادية بيضاء في المغرب والأندلس.

***

(١) التاريخ الأندلسي/ ٤٢٢ - ٤٢٥ عن البيان المغرب، وتاريخ الأندلس، ونظم الجمان ومصادر أخرى.

(٢) عصر المرابطين الموحدين في المغرب والأندلس لمحمد عبد الله عنان/ ١٢٠ - ١٢٦، التاريخ الأندسي/ ٤٢٦ - ٤٣٧، عن نظم الجمان، والروض المعطار، والبيان المغرب وغيرها.

مواقف وعبر في
جهاد المسلمين
فـــي المشـــرق

فتوح بلاد ما وراء النهر
فـــي
عهد الأمويين

١- المحاولات الأولى للفتح

كانت الفتوحات الإسلامية قد توقفت في آخر عهد عثمان رضي الله عنه لما اشتغل المسلمون بالفتن الداخلية، واقتصر الأمر تقريبًا على محاولة إخضاع البلاد التي تنتقض على المسلمين، ولم يعُدْ نشاط الفتوح بشكل ظاهر إلا في خلافة الوليد بن عبدالملك حينما استقرت الأمور الداخلية تمامًا.

ولقد أتاح هذا الانقطاع الطويل نسبيًا فرصة ترسيخ الإسلام في البلاد التي فتحها المسلمون وتنشئة الأجيال فيها علي هذا الدين حتى أصبح الغزو ينطلق من خراسان وسجستان لغزو بلاد ما وراء النهر وكأنه ينطلق من الكوفة والبصرة في عهد عمر رضي الله عنه.

جهاد الحكَم بن عمرو الغفاري:

حينما تولى زياد بن عبيد على البصرة من قبل أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه عام خمسة وأربعين ولّى عددًا من الأمراء على خراسان، ثم ولى الحكَم بن عمرو الغفاري رضي الله عنه، وفي ذلك يقول البلاذري: ثم ولّى زياد الحكم بن عمرو الغفاري، وكان عفيفًا وله صحبة، وإنما قال -يعني زياد- لحاجبه فيل: ايتني بالحكم، وهو يريد الحكم بن أبي العاص الثقفي، وكانت أم عبد الله بنت عثمان ابن أبي العاص عنده، فأتاه بالحكم بن عمرو، فلما رآه تبرك به، وقال: رجل صالح من أصحاب رسول الله ﷺ، فولاه خراسان، فمات بها في سنة خمس وخمسين، وكان الحكم أول من صلى من وراء النهر.

قال: وحدثني أبو عبدالرحمن الجعفي قال: سمعت عبدالله بن المبارك يقول لرجل من أهل الصغانيان كان يطلب معنا الحديث: أتدري من فتح بلادك؟ قال: لا، قال: فتحها الحكم بن عمرو الغفاري[1].

---

(١) فتوح البلدان (٥٧٦-٥٧٧).

رحيل المسلمين إلى خراسان:

ذكر البلاذري أن زيادًا ولّى الربيع بن زياد الحارثي سنة إحدى وخمسين خراسان، وحوَّل معه من أهل المصَرين(١) زهاء خمسين ألفا بعيالاتهم، وكان فيهم بُرَيدة بن الحُصَيب الأسلمي أبو عبدالله رضي الله عنه، وبِمرْوَ توفي أيام يزيد بن معاوية، وكان فيهم أيضًا أبو برزة الأسلمي عبدالله بن نضلة رضي الله عنه، وبها مات، وأسكنهم دون النهر(٢).

وهذا الخبر يعطينا صورة من الجهود الدعوية التي بذلها الصحابة رضي الله عنهم والتابعون في ذلك العهد، فإن رحيل خمسين ألفا بأسَرهم إلى خراسان سيكون له أثر في دعوة أهل تلك البلاد وبلاد ما وراء النهر، وذلك بالقدوة الحسنة أوَّلاً، ثم بالوعظ والتذكير.

جهاد عبيد الله بن زياد:

ذكر الإمام الطبري في حوادث سنة أربع وخمسين للهجرة أن معاوية رضي الله عنه ولَّى على خراسان عبيد الله بن زياد، وأنه لما قدم على خراسان قطع النهر إلى جبال بخارى على الإبل، فكان هو أول من قطع إليهم جبال بخارى فى جند ففتح رامِيثَن ونصف بيكَنْد -وهما من بخارى- فمِنْ ثَمَّ أصاب البخاريةَ -يعني السبي الذين سباهم من بخارى-.

وذكر في رواية أخرى عن عبادة بن محصن قال: ما رأيت أحدًا أشد بأسا من عبيد الله بن زياد، لَقِيَنَا زحفٌ من الترك بخراسان فرأيته يقاتل فيحمل عليهم فيطعن فيهم ويغيب عنا، ثم يرفع رأيته تقطر دما(٣).

وهذا موقف يُذكر لعبيد الله بن زياد حيث يقاتل هذا القتال الشديد وهو أمير القوم، كما أنه أول قائد مسلم وصل إلى منطقة بخارى.

وذكر البلاذري أن معاوية رضي الله عنه استعمل عبيد الله بن زياد على خراسان وهو ابن خمس وعشرين سنة فقطع النهر في أربعة وعشرين ألفا، فأتى بيكند،

(١) يعني الكوفة والبصرة.
(٢) فتوح البلدان/ ٥٧٧.
(٣) تاريخ الطبري ٥/ ٢٩٧ - ٢٩٨.

وكانت خاتون[1] بمدينة بخارى فأرسلت إلى الترك تستمدهم فجاءها منهم دَهْم[2] فلقيهم المسلمون فهزموهم، وحووا عسكرهم، فبعثت إليهم خاتون تطلب الصلح والأمان، فصالحها على ألف ألف، ودخل المدينة وفتح راميثين[3] وبيكند وبينهما فرسخان، وراميثين تنسب إلى بكند[4].

ويقول الحافظ ابن كثير في بيان جهاد عبيد الله بن زياد: ولقي الترك هناك فقاتلهم قتالا شديدًا وهزمهم هزيمة فظيعة، بحيث إن المسلمين أعجلوا امرأة الملك أن تلبس خفيها، فلبست واحدة وتركت أخرى، فأخذها المسلمون وقوموا جواهرها بمائتي ألف درهم، وغنموا مع ذلك غنائم كثيرة[5].

وفي هذا الخبر إشارة إلى لون من ألوان الترف الذي كان يعيش فيه أمراء الكفار، حيث كانت خفا تلك الأميرة تبلغ قيمتهما أربعمائة ألف درهم، وهذا من مؤشرات زوال السلطة حينما يكون الأمر الذي يهتم به الأمراء ويتنافسون عليه هو مظاهر الحياة الدنيا.

جهاد سعيد بن عثمان بن عفان:

ولَّى معاوية رضي الله عنه سعيد بن عثمان بن عفان رحمه الله ورضي عن أبيه خراسان وذلك في عام ستة وخمسين، فعبر النهر، فلما بلغ خاتون أميرة بخارى عبورُه النهر حملت إليه الصلح، وأقبل أهل السغد والترك وغيرهم إلى سعيد في مائة وعشرين ألفا، فالتقوا ببخارى، وقد ندمَتْ خاتون على أدائها الإتاوة ونكثت العهد، فلما التقوا انسحب بعض الأعداء من المعركة وانهزم بقيتهم، فلما رأت خاتون ذلك أعطت سعيدا الرهن وأعادت الصلح.

ودخل سعيد مدينة بخارى، ثم غزا مدينة سمرقند، فأعانته خاتون بأهل بخارى، فنزل على باب سمرقند، وحلف أن لا يبرح أو يفتحها، فقاتل أهلها ثلاثة أيام، ثم لزم العدو المدينة وقد فشت فيهم الجراح، وأتاه رجل فدلَّه على

(١) هي أميرة بخارى في ذلك الزمن. (٢) أي عدد كبير.

(٣) في فتوح البلدان رامدين وفي تاريخ الطبري راميثن وقد ذكرها ياقوت في معجم البلدان باسم راميثن وذكر أنها قرية ببخارى - ٣/ ١٨.

(٤) فتوح البلدان / ٥٧٧. (٥) البداية والنهاية ٨/ ٦٩.

قصر فيه أبناء ملوكهم وعظمائهم، فسار إليهم وحصرهم، فلما خاف أهل المدينة أن يفتح القصر عنوة ويقتل من فيه طلبوا الصلح فصالحهم على سبعمائة ألف درهم، وعلى أن يعطوه رهنًا من أبناء عظمائهم، وعلى أن يدخل المدينة متى شاء ويخرج من الباب الآخر، فأعطوه خمسة عشر من أبناء ملوكهم، ثم انصرف، فلما كان بترمذ حملتْ إليه خاتون الصلح، وأقام على ترمذ حتى فتحها(١).

جهاد عبيد الله بن أبي بكرة:

ومن أخبار الجهاد في تلك البلاد ما أخرجه الإمام الطبري عن أبي المخارق الراسبي قال: لما ولَّى الحجاج المهلب على خراسان وعبيد الله بن أبي بكرة على سجستان وذلك في سنة ثمان وسبعين فمكث عبيد الله بن أبي بكرة بقية سنته، ثم إنه غزا «رُتْبيل» يعني أحد ملوك بلاد ما وراء النهر -وقد كان مصالحا، وقد كانت العرب تأخذ منه قبل ذلك خراجا وربما امتنع فلم يفعل، فبعث الحجاج إلى عبيد الله بن أبي بكرة: أن ناجزْه بمن معك من المسلمين، فلا ترجع حتى تستبيح أرضه، وتهدم قلاعه، وتقتل مقاتلته وتسبي ذريته، فخرج بمن معه من المسلمين من أهل الكوفة وأهل البصرة، وهو أمير الجماعة، فمضى حتى وغل في بلاد رتبيل، فأصاب من البقر والغنم والأموال ما شاء، وهدم قلاعًا وحصونا وغلب على أرضٍ من أرضهم كثيرة، وأصحاب رتبيل من الترك يخلون لهم عن أرض بعد أرض، حتى أمعنوا في بلادهم، ودنوا من مدينتهم وكانوا منها ثمانية عشر فرسخا فأخذوا على المسلمين العقاب(٢) والشعاب، وخلَّوهم والرساتيق فسُقط في أيدي المسلمين، وظنوا أن قد هلكوا، فبعث ابن أبي بكرة إلى شريح بن هانئ: إني مصالح القوم على أن أعطيهم مالاً ويخلُّوا بيني وبين الخروج، فأرسل إليهم فصالحهم على سبعمائة ألف درهم، فلقيه شريح فقال: إنك لا تصالح على شيء إلا حسبه السلطان عليكم في أعطياتكم، قال: لو منَعَنا العطاء ما حيينا كان أهون علينا من هلاكنا، قال شريح: والله لقد بلغْتُ سنًا، وقد هلكَتْ لدَاتِي(٣)، ما تأتي عليَّ ساعة من ليل أو نهار فأظنها تمضي حتى أموت، وقال: يا أهل الإسلام

---

(١) فتوح البلدان/ ٥٧٨ - ٥٧٩، وانظر البداية والنهاية ٨/ ٨٢.

(٢) بكسر العين جمع عقبة وهي الطريق الجبلي.

(٣) أي أقراني الذين هم في سني.

تعاونوا علي عدوكم.. إلى أن قال: يا أهل الإسلام من أراد منكم الشهادة فإليّ، فاتبعه ناس من المتطوعة غير كثير وفرسان الناس وأهل الحفاظ، فقاتلوا حتى أصيبوا إلا قليلا فجعل شريح يرتجز يومئذ ويقول:

أصبحت ذا بَثٍّ أقاسي الكِبَرا قد عشت بين المشركين أعصرا
ثَمَّتَ أدركت النبيَّ المنذرا وبعده صديقَه وعمرا
ويوم مهران ويوم تُسترَا والجمع في صِفِّينهم والنَّهَرا
ويا جُمَيْرات مع المشقَّرا هيهات ما أطول هذا عمرا

فقاتل حتى قتل في ناس من أصحابه[1].

وهذه الأبيات تدلنا على أن شريح بن هانئ رضي الله عنه قد عُمِّر طويلا فقد أدرك الجاهلية ثم صحب النبي ﷺ وشارك في فتوح فارس الأولى، ثم كان مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الحروب الداخلية فشهد صفِّين والنهروان ثم ما زال مجاهدا بعد هذا العمر الطويل الذي يقارب المائة عام أو يزيد حيث إن تلك المعركة التى استشهد فيها كانت عام تسعة وسبعين للهجرة.

وهذا من عجائب ذلك الجيل الفريد حيث اختلط الشوق إلى الجهاد في دمائهم وصار جزءًا من حياتهم، وأصبحت الشهادة في سبيل الله تعالى أسمى أمانيهم، فأكسبوا بذلك أمتهم الإسلامية عبر الأجيال ذلك الميراث الكبير في الدولة الإسلامية العظمى.

هذا وإننا في محاولة تقييم ما حدث في مواجهة ذلك الحصار الذي أحكم الأعداء إغلاقه على المسلمين لابد أن نقول إن قائد ذلك الجيش عبدالله بن أبي بكرة قد وقع في شيء من الخطأ حينما توغل في تلك البلاد وهو غير خبير بها ولم يقَدِّم أمامه طلائع يكشفون له الطريق ويبلغونه خبر الأعداء.

كما أنه أخطأ حينما لم يعقد مجلس الشورى لبحث سُبل الخروج من تلك المعضلة، بل أبرم الصلح مع ملك الترك على دفع مبلغ من المال ليفتح للمسلمين

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٣٢٢، البداية والنهاية ٩/ ٢٩.

مخـرجًا يخرجون مـنه ويعودون من حيث أتوا، فكان من نتـائج ذلك أن عارض أكبر قادته قـائد أهل الكوفة شريح بن هانئ، ثم حصل بسبب ذلـك افتراق جيش المسلمين.

إن الذي أقدم عليه عبدالله بن أبي بكرة رأي سديد لأن فيه إنقاذًا للمسلمين من تلك المعـضلة التي قد ينتج عنهـا مهلكة، ولكن الرأي السـديد يفقـد مفـعوله إذا انحلت جماعة الجيش وتفـرقت كلمة قادتهم، ولو أن الأمر تمَّ عن طريق الشورى لربما برزت آراء جيدة من أناس لهم وزنهم يُقنعون الطرف الآخر المعارض للصلح، أو لربما انبثق من بين الرأيـين رأي وسط يكون فيه حل لتلك المعـضلة، فكم واجه المسلمون من معضلات ثم حلوها بالشورى.

أما موقف شريح بن هانئ فإنه يدل على قـوة إيمانه وصدق توجهه نحو رضوان الله تعالى والدار الآخرة، ولقد أتْبع القول بالعمل فقاتل الأعداء حتى استشهد هو وبعض من معه.

ولكن هل يقال إنه في ذلك الإقدام قد خالف أمر القائد وطاعة القائد واجبة؟

نعم يعتبـر ذلك مخالفة، ولكنه فهم أن القـائد قد ارتكب مخالفة شـرعية في ذلك الانهزام والتسليم للأعداء، والبَتِّ بذلك الأمر بدون مشورة أهل الرأي، وإنما الطاعة في المعروف، لكن كان الأولى في هذا الموقف أن يبـذل جهده في إنكار ما حدث وأن يحاول تغيير رأي القـائد وإقناع الناس ليساعدوه في ذلك فإن حصل له ما يريد من الرأي وإلا فـإن عليه أن يتبع الجـماعة، وأن لا يكون سـببًا في فـرقة المسلمين، لأن ذلك يعزز من مـوقف الأعداء، وهو لم يكسب في موقفـه الشجاع نصرًا للمـسلمين بشكل ظاهر، وإنما كـسب الشهادة هو ومن رُزقـها مـعه، وخلَّد لتلك البلاد شرفًـا عاليا أن ضمت بين أحـضانها جثث أولئك الصـالحين الأتقياء، فرحمهم الله رحمة واسعة وجزاهم على ما قدموا أحسن الجزاء.

أما الذين نجوا من تلك المعركة فإنهم خرجوا من بلاد رتبيل -كما جاء في رواية الطبري المذكورة- فاسـتقبلهم من خرجوا إليهم من المسلـمين بالأطعمة، فإذا أكل أحـدهم وشـبع مـات، فلمـا رأى ذلك الناس حـذروا يطعـمـونهم، ثم جـعلوا يطعمونهم السمن قليلا قليلا حتى استمرؤوا.

جهاد ابن الأشعث:

جاء في خبر الإمام الطبـري المذكور أن الحجاج بن يوسف تأثر من ذلك فكتب إلى عبدالملك يستأذنه في بعث جيش كـبير لتأديب الترك وفتح بلادهم فأذن له في ذلك فبعث أربعين ألفًا من أهل الكوفة وأهل البصرة بقـيادة عبدالرحمن بن محمد ابن الأشعث، وأنه سار إلى بلاد ما وراء النهر فأوقع بالأعداء واستولى على بعض بلادهم وأموالهم، ثم قـفل راجعًا على أمل أن يعود إليهم فـي العام القادم، وأنه كتب إلى الحجاج بذلك فلامه واتهمه بالضعف وأمره بالعودة لإكمال الفتح، ثم ما كان من فتـنة ابن الأشعث حينما ثار على الحـجاج وخلع بيعتـه وجرت بينه وبين الحجـاج حروب طويلة كانت نهـايتها علـى ابن الأشعث في دير الجمـاجم حيث انتصر عليه جيش الشام بقيادة الحجاج[1].

جهاد المهلب بن أبي صفرة:

إضافة إلى ذلك كانت هناك جهود طيبة في التمهيد لفتح بلاد ما وراء النهر من المهلب بن أبي صفرة الذي كان واليا على خراسان فقد أناب ابنه المغيرة على «مرو» وارتحل بجيشـه حتى قطع النهر وقاتل التـرك، ثم استقر ببلدة «كِسٌ» ورابط فـيها سنتين مـحاولاً تثبـيت أقدام المسلمين في أوائل تلك البـلاد ليسـتطيعـوا بعد ذلك التوغل داخل تلك الممالك بأمان[2].

ومن المواقف المذكورة في تلك الحروب مـا كان من يزيد بن المهلب وقد أرسله أبوه إلى مرو ليخلفه في إمارتها لما توفي أخوه المغيرة وقد واجه جيشًا من الترك في خمسـمائة رجل وكان هو في ستين أو سـبعين فطلب الترك منهم شيـئًا فأبى يزيد ولكن صاحبه مُجَّـاعة العتكي أعطاهم شيئًا من المتاع، فـذهبوا ثم غدروا ورجعوا فقال يزيـد: أنا كنت أعلم بهم فقاتِلوهم، فقـاتَلوهم واشتد قتـالهم وأصاب يزيد عظيمًا من عظمـائهم وأصيب هو في ساقه، ثم تحاجزوا وطلب التـرك منهم شيئًا من المتاع فرفض يزيد، فقال له مُجَّاعة: أذكرك الله قد هلك المغيرة، وقد رأيت ما دخل على الملهب من مصابه، فأنشدك الله أن تصاب اليوم -وكان المهلب قد وجد

---

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٣٢٣ - ٣٦٧.

(٢) تاريخ الطبري ٣٢٥ - ٣٢٦.

على فقد ابنه المغيرة وجدًا شديدًا- فقال يزيد: إن المغيرة لم يَعْدُ أجله ولست أعدُو أجلي، فرمى لهم مُجَّاعة بعمامة صفراء فأخذوها وانصرفوا[1].

وهذا دليل على قوة إيمان «يزيد» بقضاء الله وقدره، حيث طلب منه مجاعة تفادي القتال إبقاء على نفسه فرد عليه ببيان حتمية بلوغ الأجل المحدد من العمر وعدم تجاوز ذلك بلحظة واحدة.

وهكذا يصنع الإيمان القوي من المؤمنين رجالا أبطالا لا يهابون خوض الأهوال ولا ركوب الصعاب.

***

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٣٥١.

٢- فتوحات قتيبة بن مسلم الباهلي

أما العهد الذهبي بالنسبة لفتوح بلاد ما وراء النهر فقد بدأ بولاية قتيبة بن مسلم الباهلي، هذا الرجل الشجاع والقيادي الماهر والإداري المحنك، حيث بذل كل طاقته في ذلك الفتح حتى ارتبط به وأصبح بحقٍّ فاتح تلك البلاد.

ولقد استفتح إمارته بخطبة جهادية رائعة قال فيها: إن الله أحلَّكم هذا المحل ليعزَّ دينه، ويذُبّ بكم عن الحرمات، ويزيد بكم المال استفاضة والعدو وقما(١) ووعد نبيه ﷺ النصر بحديث صادق وكتاب ناطق فقال: ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾ [الصف: ٩] ووَعَدَ المجاهدين في سبيله أحسن الثواب، وأعظم الذخر عنده فقال: ﴿**مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [التوبة: ١٢٠، ١٢١] ثم أخبر عمن قُتل في سبيل الله أنه حيّ مرزوق فقال: ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾ [آل عمران: ١٦٩] فَتَنَجَّزوا موعود ربكم، ووطنوا أنفسكم على أقصى أثر وأمضى ألم، وإياي والهوينَى(٢).

وهكذا يتبين لنا من خطبة قتيبة أن هدفه الأول في إمارته على خراسان هو دفع الناس إلى الجهاد في سبيل الله تعالى بحزم وقوة، فانطلق في تحقيق هذا الهدف غير متردد ولا وجل، حتى فتح بلاد ما وراء النهر وأقرَّ حكم الإسلام فيها، وأشرف على الصين وأخذ من ملكها الجزية.

---

(١) يعني ذلا.

(٢) تاريخ الطبري ٦/ ٤٢٤.

ولقد سارع بعض الأمراء القريبين منه إلى عقد الصلح معه لسبق علمهم بقوته وحزمه، وأنه لن يتركهم حتى يوطئ الخيل بلادهم، فأطلقوا مَنْ عندهم من أسرى المسلمين وبادروا إلى الصلح.

وقد أخرج ابن جرير في ذلك عن محمد بن المثنى أن «نيزك طرخان» -يعني ملك طرخان- كان في يديه أسراء من المسلمين، وكتب إليه قتيبة حين صالح ملك شومان فيمن في يديه من أسرى المسلمين أن يطلقهم، ويهدده في كتابه، فخافه نيزك، فأطلق الأسرى، وبعث بهم إلى قتيبة فوجه إليه قتيبة سُلَيمًا الناصح مولى عبيد الله بن أبي بكرة يدعوه إلى الصلح وإلى أن يؤمنه، وكتب إليه كتابا يحلف فيه بالله: لئن لم يَقْدَم عليه ليغزونَّه، ثم ليطلبنه حيث كان، لا يقلع عنه حتى يظفر به أو يموت قبل ذلك، فقدم سليم على نيزك بكتاب قتيبة -وكان يستنصحه- فقال له: يا سُلَيم ما أظن عند صاحبك خيرا، كتب إلي كتابا لا يُكتب إلى مثلي، قال له سليم: يا أبا الهيَّاج إن هذا رجل شديد في سلطانه، سهل إذا سوهل، صعب إذا عوسر، فلا يمنعك منه غلظة كتابه إليك، فما أحسن حالك عنده وعند جميع مضر، فقدم نيزك مع سليم على قتيبة فصالحه أهل باذغيس في سنة سبع وثمانين على أن لا يدخل باذغيس[1].

ومن هذا النص ندرك بعض مظاهر عظمة قتيبة القيادية فقد حصل في هذا الكتاب التهديدي القوي على فك أسرى المسلمين كما أنه تفادى بذلك إقحام المسلمين في معارك جانبية تشغلهم عن الهدف الأهم وهو فتح بلاد ما وراء النهر.

فتح مدينة بيكند:

أخرج الإمام الطبري عن عدد من الرواة: أن قتيبة لما صالح نيزَك أقام إلى وقت الغزو، ثم غزا في تلك السنة -سنة سبع وثمانين- بيكند، فسار من «مرو»[2] وأتى «مرو الرُّوذ» ثم أتى «آمل»، ثم مضى إلى «زَمّ» فقطع النهر، وسار إلى بيكند -وهى أدنى مدائن بخارى إلى النهر يقال لها مدينة التجار على رأس المفازة من بخارى- فلما نزل بعَقْوتهم[3] استنصروا الصُّغْد واستمدوا من حولهم، فأتوهم في

---

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٤٢٨. (٢) يعني مرو الشاهجان (٣) أي بساحتهم.

جمع كثير وأخذوا بالطريق فلم ينفذ لقتيبة رسول، ولم يصل إليه رسول، ولم يَجْرِ له خبر شهرين وأبطأ خبره على الحجاج، فأشفق الحجاج على الجند، فأمر الناس بالدعاء لهم في المساجد، وكتب بذلك إلى الأمصار وهم يقتتلون كل يوم.

قال: وكان لقتيبة عين يقال له تَنْذُر من العجم فأعطاه أهل بخارى الأعلى مالاً على أن يفثأ عنهم قتيبة(١)، فأتاه فقال: أخْلِني: فنهض الناس واحتبس قتيبة ضرار ابن حصين الضَّبِّي، فقال تنذر: هذا عاملٌ يقدم عليك وقد عُزِل الحجاج. فلو انصرفت بالناس إلى مرو، فدعا قتيبة «سياه» مولاه فقال: اضرب عنق تنذر، فقتله، ثم قال لضرار: لم يبق أحد يعلم هذا الخبر غيري وغيرك وإني أعطي الله عهدًا إن ظهر هذا الحديث من أحد حتى تنقضي حربنا هذه لألحقنَّك به، فاملك لسانك، فإن انتشار هذا الحديث يفتُّ في أعضاد الناس، ثم أذن للناس.

قال: فدخلوا فراعَهم قتلُ تنذر، فوجموا وأطرقوا، فقال: قتيبة: ما يروعكم من قتل عبد أحانه الله؟(٢) قالوا: إنا كنا نظنه ناصحًا للمسلمين، قال: بل كان غاشًا فأحانه الله بذنبه فقد مضى لسبيله فاغدوا على قتال عدوكم، والْقَوهم بغير ما كنتم تلقونهم به.

وهكذا يكون الحزم وسداد الرأى، والتعلق الكريم بالأهداف العالية، إنه حينما أثار ذلك المولى الخائن أمر عزل الحجاج وبعث والٍ آخر على خراسان، لم يَدُر في خلد قتيبة أمر مستقبله ومستقبل قبيلته وأعوانه، وإنما كان الذي يهيمن عليه هو مستقبله مع أعدائه، فقد نصب أمامه هدفًا عاليا يسعى لتحقيقه، وهو أن يُظهر عزة الإسلام في الأرض، وأن يُخضع ممالك الطغيان لهذا الدين. وإذا كان الأمر كذلك فليبق أميرًا أو ليكن الأمير غيره. كما أن في موقفه هذا تغليب جانب الحذر من مكائد الأعداء وعدم الخفة والإسراع في التأثر بأراجيفهم التي يقصدون منها الفَتَّ في أعضاد المسلمين وتوهين أمرهم.

وفيما قام به من المبادرة إلى قتل ذلك الرجل، وأخذ العهد على جليسه حزم وسداد في الرأي لأن فيه قطعًا لموارد الفتنة قبل استفحالها.

---

(١) يعني أن يصرفه عن قتالهم. (٢) أي أهلكه.

وهكذا تحطمت مكيدة الأعداء أمام حزم هذا القائد الكبير ورسوخ يقينه.

قال: «فغدا الناس متأهبين وأخذوا مصافهم ومشى قتيبة فحضّ أهل الرايات، فكانت بين الناس مشاولة[1] ثم تزاحفوا والتقوا، وأخذت السيوف مأخذها وأنزل الله على المسلمين الصبر فقاتلوهم حتى زالت الشمس، ثم منح الله المسلمين أكتافهم، فانهزموا يريدون المدينة، واتبعهم المسلمون فشغلوهم عن الدخول فتفرقوا وركبهم المسلمون قتلا وأسرًا كيف شاؤوا، واعتصم من دخل المدينة بالمدينة وهم قليل، فوضع قتيبة الفَعَلَة في أصلها ليهدمها، فسألوه الصلح فصالحهم، واستعمل عليهم رجلاً من بني قتيبة».

وهكذا كان جزاء الاحتساب والصبر وحسن الظن بالله تعالى والثقة بنصره، فقد كان الأعداء في بلادهم، ويأتيهم المدد متى أرادوا من الطعام والسلاح والمقاتلين، ولكن المسلمين محصورون لا مَنَعَة لهم بعد الله جل وعلا إلا بثقتهم بأنفسهم وصبرهم وتضحيتهم في سبيل الله تعالى.

قال: «وارتحل عنهم يريد الرجوع: فلما سار مرحلة أو ثنتين، وكان منهم على خمسة فراسخ نقضوا وكفروا، فقتلوا العامل وأصحابه، وجَدَعوا أُنُفَهم وآذانهم، وبلغ قتيبة فرجع إليهم وقد تحصنوا فقاتلهم شهرًا، ثم وضع الفَعَلَة في أصل المدينة فعلقوها بالخشب، وهو يريد إذا فرغ من تعليقها أن يحرق الخشب فتنهدم، فسقط الحائط وهم يعلقونه فقتل أربعين من الفعلة، فطلبوا الصلح فأبى وقاتلهم فظفر بهم عنوة، فقتل من كان فيها من المقاتلة».

وهكذا كان قتيبة مصرًّا على الفتح، حازمًا في عدم قبول الصلح، وذلك لأنهم نقضوا العهد، وقتلوا المسلمين ومثلوا بهم، فما جزاؤهم إلا القتل وتطهير الأرض منهم.

وبهذا انتهى قتيبة من أول معركة شرسة يخوضها مع أولئك الأعداء، وأصبح لها ما بعدها، وعَرَف فيه الترك رجلا قويًا لا يهادن الباطل ولا يهاب الأهوال.

قال: «وكان فيمن أخذوا في المدينة رجل أعور كان هو الذي استجاش الترك على المسلمين فقال لقتيبة: أنا أفدي نفسي، فقال له سُلَيْم الناصح: ما تبذل؟ قال:

(١) يعني قتالا في الرماح.

خمسة آلاف حريرة صينية قيمتها ألف ألف، فقال قتيبة: ما ترون؟ قالوا: نرى أن فداءه زيادة في غنائم المسلمين، وما عسى أن يبلغ من كيد هذا! قال: لا والله لا تروَّع بك مسلمة أبدا، وأمر به فقتل[1].

وهكذا أصر قتيبة على قتل ذلك الرجل الذي كان يخطط للأعداء ويحرضهم على المسلمين، وكان قتيبة موفقًا حينما لم يقبل منه الفداء مع ضخامته لأنه يقاتل المسلمين بفكره وتدبيره ولن يكتفي بهذا الموقف الخائن بل سيستمر في تدبير المؤامرات ضد المسلمين، فالحكمة كل الحكمة في قطع دابره.

وحينما لاحظ بعض مستشاري قتيبة ضخامة المال الذي يريد أن يفدي نفسه به وهَوَّنُوا عليه ما يمكن أن يقوم به من مكيدة لاحظ هو مستقبل وضع المسلمين في ذلك البلد، فرأى أن ذلك المبلغ وأضعافه لا يعادل ترويع امرأة من المسلمين، بما يترتب على مكائده من أذى يلحق بالمرابطين في تلك البلاد، وهذا يدلنا على الأهداف السامية التي كانت وراء إقدام قتيبة على فتح تلك البلاد.

هذا وقد ذكر الطبري في حوادث سنة ثمان وثمانين أن قتيبة غزا «تومشكث وراميثنة» من قرى بخارى وأن أهلهما صالحوه فانصرف عنهم، وجعل على ساقة الجيش أخاه عبدالرحمن في طائفة من الجيش وأن الترك اجتمعوا مع الصغد وأهل فرغانة بقيادة ابن أخت ملك الصين في مائتي ألف، وأنهم لحقوا بعبدالرحمن فقاتلهم بجيشه وثبت لهم وأرسل إلى قتيبة فرجع وقد كادوا يستأصلون المسلمين فثبتهم الله وهزموا أعداءهم.

وهذا موقف عظيم يذكر لعبدالرحمن بن مسلم الذي كان غالبا في المقدمة عند الغزو وفي الساقة عند القفول، وفي هذا الموقف دلالة على عظمة المسلمين وشجاعتهم النادرة حيث ثبت جزء من جيش قتيبة لمائتي ألف ولم يفروا[2].

فتح مدينة بخارى:

ذكر الإمام الطبري أن قتيبة بن مسلم الباهلي غزا بخاري عام تسعة وثمانين وأنه فتح قرية دونها تسمى «راميثنة» وأنه رجع من غزوته تلك، وأن الحجاج كتب إليه

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٤٢٩ - ٤٣١.
(٢) تاريخ الطبري ٦/ ٤٣٦، تاريخ خليفة/ ٣٠٠.

يأمره بالعودة إلى غزو ملك بخاري، وأن قتيبة رجع فلقيه الصُّغْد وأهل كِشّ ونَسَف في طريق المفازة فقاتلوه فظفر بهم، ومضى إلى بخارى فنزل خرقانة السفلى عن يمين وردان، فلقوه بجمع كثير فقاتلهم يومين وليلتين، ثم أعطاه الله الظفر عليهم فقال نَهار بن توسعة:

وباتت لهم مِنَّا بخرقان ليلة وليتنا كانت بخرقان أطولا

ثم ذكر أن قتيبة لم يستطع فتح بخارى ذلك العام فرجع إلى مرو وكتب إلى الحجاج بذلك، فكتب إليه الحجاج: أن صوِّرْها لي، فبعث إليه بصورتها، فكتب إليه الحجاج: أنْ ارجع إلى مراغتك فتب إلى الله مما كان منك وأْتِها من مكان كذا وكذا.

قال وقيل: كتب الحجاج: أنْ كسْ بكشَّ وانسُفْ نسف، ورِدْ وردان، وإياك والتحويط، ودعني من بُنَيات الطريق.

ومن كتابات الحجاج هذه وما قبلها نأخذ فكرة عن اهتمامه البالغ باستمرار الغزو والفتح، وقد كان ذلك من أسباب قيام ابن الأشعث بالثورة عليه، حيث اكتفى ابن الأشعث بغزو أدنى بلاد ما وراء النهر، فلامه الحجاج واتهمه بالضعف.

ثم استمر الحجاج في حث قتيبة على مواصلة الغزو وأمره أن لا يرجع حتى يفتح بخارى، ولما استعصى ذلك على قتيبة أمره الحجاج ببعث صورة لتلك المدينة، فنظر باجتهاده إلى موطن الضعف فيها فأشار على قتيبة بالمكان الذي يدخلها منه، ثم أمر قتيبة بأن يدمِّر المدن التي تقف عقبة في طريقه، وذكر منها مدينة نسف، وأمره أن يتجه رأسًا إلى وردان ملك بخارى، وأن يجعلها بعد الفتح معقلا له ينطلق منها، وعبَّر بقوله «ارجع إلى مراغتك» عن الأمر بلزوم فتح بخارى تشبيهًا لها بمراغة الدابة التي تتقلب فيها.

وأمره أن يجتنب سياسة التحويط حول الهدف ابتغاء اليسر والسهولة، وأن يسلك الطريق المستقيم الموصل إلى الهدف المقصود دون تعريج على الأهداف الجانبية التي تحقق بعض الغنائم والنصر المؤقت.

وهذا يدلنا على أن الحجاج باهتمامه ومتابعته المتلاحقة للقادة كان عاملا مهمًا في فتح بلاد ما وراء النهر، وتلك حسنة توضع في مقابل سيئاته المشهورة.

وفي فتح بخارى أخرج الإمام الطبري بإسناده عن إدريس بن حنظلة «أن كتاب الحجاج لما ورد على قتيبة يأمره بالتوبة مما كان من انصرافه عن «وردان خذاه» ملك بخارى قبل الظفر به والمصير إليه، ويُعرِّفه الموضع الذي ينبغي له أن يأتي بلده منه، خرج قتيبة إلى بخارى في سنة تسعين غازيا فأرسل وردان خذاه إلى الصغد والترك ومن حولهم يستنصرونهم، فأتوهم وقد سبق إليها قتيبة فحصرهم، فلما جاءتهم أمدادهم خرجوا إليها ليقاتلوهم، فقالت الأزد: اجعلونا على حدة، وخلّوا بيننا وبين قتالهم، فقال قتيبة: تقدموا، فتقدموا يقاتلونهم، وقتيبة جالس عليه رداء أصفر فوق سلاحه، فصبروا جميعًا مليًّا، ثم جال المسلمون وركبهم المشركون فحطموهم حتى دخلوا عسكر قتيبة، وجازوه، حتى ضرب النساء وجوه الخيل وبكَيْن، فكرُّوا راجعين، وانطوت مجنبتا المسلمين على الترك، فقاتلوهم حتى ردوهم إلى موقفهم، فوقف الترك على نشز[1].

هذا وإن في إقدام الأزد على مواجهة ذلك الجيش الغازي موقفًا يذكر لهم، فإن التنافس في مواجهة الأخطار فضيلة وشرف، وفي تقهقرهم أمام الترك دلالة على قوة بأس الترك ومهارتهم في القتال، وهذا يدلنا على سبب مهم في تأخر المسلمين في فتح بلادهم وتردد بعض القادة في التوغل في أرضهم، حيث يتمتع الترك ومن حولهم من القبائل بقوة قتالية عالية وصبر على الجلاد، وإن من أهم أسباب ذلك كون حياتهم تميل إلى شيء من الخشونة، فلم تفسدهم الحضارة المادية كما هو الحال في دولة فارس.

هذا وإن في ثبات قتيبة في مركز القيادة مع هذا التقهقر دلالة على رباطة جأشه، ومقدرته الفائقة على التفكير وحسن التصرف في مواجهة المواقف الصعبة المفاجئة، فقد أوعز حالاً إلى مجنبتي جيش المسلمين بالهجوم على الأتراك فأطبقوا عليهم وهزموهم، وألجئوهم إلى مرتفع من الأرض يُحَصِّنه نهر بينهم وبين المسلمين.

قال: «فقال قتيبة: من يزيلهم لنا عن هذا الموضع؟ فلم يُقدِم عليهم أحد، والأحياء كلها وقوف، فمشى قتيبة إلى بني تميم، فقال: يا بني تميم إنكم أنتم بمنزلة

---

(١) يعني مرتفع من الأرض.

الحطمية، فيومٌ كأيامكم، أَبِي لكم الفـداء، قال: فأخذ وكيع اللواء بيده وقال: يا بني تميم أتسلمونني اليوم؟ قالوا: لا يا أبا مطرِّف -وهُرَيْم بن أبي طلحة المجاشعي على خيل بني تميم، ووكـيع رأسهم -وأناس وقوف، فـأحجموا جـميعًا، فـقال وكيع: يا هريم قَـدِّم، ودفع إليه الراية، وقال: قـدم خيلك، فتـقدم هريم، ودبَّ وكيع في الرجال، فـانتهى هريم إلى نهر بينه وبين العدو فوقف، فـقال له وكيع: أَقحِم يا هريم، قال: فـنظر هريم إلى وكيع نظر الجمل الصئـول، وقال: أنا أقحم خيلِي هذا النهر، فإن انكشفت كان هلاكها! والله إنك لأحمق، قال: يابن اللَّخناء ألا أراك ترد أمري! وحذفه بعمود كان معه، فضرب هريم فرسه فأقحمه وقال: ما بعد هذا أشـد من هذا، وعَبَّر هريم الخيل، وانتـهى وكيع إلى النهر فدعـا بخشب فقنطر النـهر وقال لأصـحابه: من وطَّن منكم نفسـه على الموت فليعـبر، ومن لا فليثـبت مكانه، فمـا عبر مـعه إلا ثمـانمائة راجل، فدبَّ فيـهم، حتى إذا أعـيوا أقعـدهم فأراحوا حتى دنا مـن العدو، فجعل الخـيل مجنبتين، وقـال لهريم: إني مطاعن القوم فاشـغلهم عنا بالخيل، وقال للناس: شُدُّوا، فحملوا فـما انثنوا حتى خالطوهم وحـمل هريم خيله عليهم، فطاعنوهم بالرمـاح، فما كفُّـوا عنهم حتى حدَّروهم عن موقفهم، ونادى قتيبة: أمـا ترون العدو منهزمين! فما عبر أحد ذلك النهر حتى ولَّى العدو منهزمين، فاتبعهم الناس.

وهكذا تبين لنا موقف بني تميم الشجاع حيث أحجمت كل القبائل عن مواجهة أولئك الذين تحصنوا بذلك المرتفع، فلم يُقْدم على هذا الموقف الهائل إلا وكيع بن أبي أسود التمـيمي وقبيلته، ولقـد أحسن صنعًا حينما عـرض قومه على الموت، فاختـار منهم من تطوع مقبلا على الشهـادة، لأن مثل هذا الموطن المهلك لا يقدم عليه مـن له رغبة في الحـياة، فـاستطاع هؤلاء الأبطال -على قلتـهم- أن يزيلوا الأعداء من موقعهم ذلك، لأن كل واحد منهم يعدل عشرات من الجنود العاديين.

وقال قتيبة: من جاء برأس فله مائة، فأُتِيَ برؤوس كثير من القتلى.

وهذا يعتبر دافعًا جيدًا للجنود ليبذلوا كل طاقتهم في ملاحقة العدو.

وجُرح يومئذ ملك الترك خاقان وابنه، وتمَّ فتح مدينة بخارى(١).

---

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٤٤٢ - ٤٤٤، الكامل لابن الأثير ٤/ ١١٣.

فتح مدينة سمرقند(١):

أخرج الإمام الطبرى في ذلك عن شيوخه: أن قتيبة لما قبض صلح خوارزم قام إليه المُجَشَّر بن مزاحم السُّلَمي فقال: إن لي حاجة فأخْلِني، فأخلاه، فقال: إنْ أردت الصُّغد(٢) يومًا من الدهر فالآن فإنهم آمنون من أن تأتيهم من عامك هذا، وإنما بينك وبينهم عشرة أيام، قال: أشار بهذا عليك أحد؟ قال: لا، قال: فأعلمته أحدا؟ قال: لا، قال: والله لئن تكلم به أحد لأضربن عنقك، فأقام يومه ذلك، فلما أصبح من الغد دعا عبدالرحمن -يعني أخاه- فقال سِرْ في الفرسان والمُرَامية وقدِّم الأثقال إلى مرو، فَوُجِّهت الأثقال إلى مرو، ومضى عبدالرحمن يتبع الأثقال يريد مرو يومه كله، فلما أمسى كتب إليه: إذا أصبحت فوجِّه الأثقال إلى مرو، وسِرْ في الفرسان والمرامية نحو السغد، وأكتم الأخبار فإني في الأثر.

قال: فلما أتى عبدالرحمن الخبرُ أمر أصحاب الأثقال أن يمضوا إلى مرو، وسار حيث أمره، وخطب قتيبة الناس فقال: إن الله تعالى قد فتح لكم هذه البلدة في وقت الغزوُ فيه ممكن، وهذه السغْد شاغرة برجلها قد نقضوا العهد الذي كان بيننا مَنَعُونا ما كنا صالحنا عليه «طرخون» وصنعوا به ما بلغكم وقال الله تعالى ﴿**وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا**﴾ [الفتح: ٢١].

قال: فأتى السغْد وقد سبقه إليها عبدالرحمن بن مسلم في عشرين ألفا، وقدِم عليه قتيبة في أهل خوارزم وبخاري بعد ثلاثة أو أربعة من نزول عبدالرحمن بهم، فقال: إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين.

فحصرهم شهرا، فقاتلوا مرارًا في حصارهم من وجه واحد»(٣).

وهكذا كان قتيبة حازمًا حينما اغتنم تلك الفرصة وقَبِل مشورة المجشَّر السلمي، وكان من مظاهر حزمه احتياطه البالغ في كتمان خبر مسيره إلى أهل سمرقند حتى يصل إليهم قبل أن يستمدوا الملوك المجاورين لهم، فهدَّد صاحب المشورة إن هو

---

(١) سمرقند من أهم مدن ما وراء النهر وتعتبر الآن من المدن المهمة في أوزبكستان.

(٢) الصُّغد اسم لقبيلة كبيرة من قبائل ما وراء النهر.

(٣) تاريخ الطبري ٦/ ٤٧٢، باختصار.

أعلنها، ووجَّـه أخاه عبدالرحـمن وأمره أن يكتم الخبـر ثم خطب الناس وأعلمهم بمسيـره ومسـوغات ذلك بعـد أن وثق من عدم شـيوع الخـبر قـبل وصول أخـيه عبدالرحمن إلى ساحة القوم.

وقد بين في خطبته أن القوم قـد نقضوا العهد فزال عهدهم واستـحقوا العقاب وأصبح تطهير البلاد منهم أمرًا لازما.

وفي رواية أخرى للـطبري عن نهشل بن يزيد عـن عمه -وكـان قد أدرك ذلك كله- قال: لما رأى غوزك -يعني ملك سمرقند -إلحاح قتيبة عليهم كتب إلى ملك الشاش وإخشاذ فرغانة[1] وخاقان: إنا نحن دونكم فيـما بينكم وبين العرب، فإن وُصِل إلينا كنتم أضعف وأذل، فـمهما كان عندكم من قـوة فابذلوها، فنظروا في أمرهم فـقالوا: إنما نؤتى من سـفلتنا، وإنهم لا يَجدُون كـوَجْدنا، ونحن معـشر الملوك المعنيُّون بهذا الأمر، فانتَخـبوا أبناء الملوك، وأهل النجدة من فتيان ملوككم، فليخرجـوا حتى يأتوا عسكر قتيـبة فليُبَّيت فإنه مـشغول بحصار الصُّغـد، ففعلوا وولَّوا عليهم ابنًا لخاقان، وساروا وقد أجمعوا أن يبيِّتوا العسكر.

وبلغ قتيبـة، فانتخب أهل النجدة والبأس ووجوه الناس، فكان شعـبة بن ظهير وزهير بن حيان فيمن انتخب فكانـوا أربعمائة، فقال لهم: إن عدوكم قد رأوا بلاء الله عندكم وتأييده إياكم في مزاحـفتكم ومكاثرتكم، كل ذلك يُفلجكم الله عليهم فأجْـمَعُوا على أن يحـتالوا غِرَّتكم وبيـاتكم، واختاروا دهاقيـنهم وملوكهم وأنتم دهاقين العرب وفرسانهم، وقد فضلكم الله بدينه، فأبلُوا الله بلاءً حسنا تستوجبون به الثواب، مع الذب عن أحسابكم.

قال: ووضع قـتيبـة عيونًا على العـدو حتى إذا قربوا منه قـدر ما يصلون إلى عسكره من الليل، أدخـل الذين انتخبـهم، فكلَّمهم وحضَّـهم، واستعـمل عليهم صالح بن مسلم، فخرجوا من العـسكر عند المغرب، فساروا فنزلوا على فرسخين من العسكر على طريق القوم الذين وُصفوا لهم، ففرَّق صالح خيله، وأكمن كمينًا عن يمينه، وكـمينًا عن يسـاره، حتى إذا مـضى نصف الليل أو ثلثـاه جاء العـدو

(١) الشاش وفرغانة من مناطق دولة أوزبكستان اليوم، وتعتبر طاشكند العاصمة من منطقة الشاش.

باجتماع وإسراع وصمت، وصالحٌ واقف في خيله، فلما رأوه شدوا عليه، حتى إذا اختلفت الرماح شدَّ الكمينان عن يمين وعن شمال، فلم نسمع إلا الاعتزاء، فلم نَرَ قَومًا كانوا أشد منهم.

قال: وقال رجل من البراجم: حدثني زهير أو شعبة قال: إنا لنختلف عليهم بالطعن والضرب إذ تبينت تحت الليل قتيبة، وقد ضربت ضربة أعجبتني، وأنا أنظر إلى قتيبة فقلت: كيف ترى بأبي أنت وأمي، فقال: اسكت دَقَّ الله فاك، قال: فقتلناهم فلم يُفلت منهم إلا الشريد، وأقمنا نحوي الأسلاب ونحتزُّ الرؤوس حتى أصبحنا، ثم أقبلنا إلى العسكر، فلم أر جماعة قط جاؤوا بمثل ما جئنا به، مامنا رجل إلا معلِّق رأسًا معروفًا باسمه، وأسيرٌ في وثاقه.

قال: وجئنا قتيبة بالرؤوس فقال: جزاكم الله عن الدين والأعراض خيرا، وأكرمني قتيبة من غير أن يكون باح لي بشيء، وقرن بي في الصلة والإكرام حيَّان العدوي وحُلَيسًا الشيباني، فظننت أنه رأى منهما مثل الذي رأي مني، وكسر ذلك أهلَ السغْد، فطلبوا الصلح وعرضوا الفدية فأبي وقال: أنا ثائر بدم طرخون كان مولاي وكان من أهل ذمتي(١).

وفي بيان صفة جيش الأعداء المنتخب جاء في إحدى روايات الطبري «فسألناهم(٢) عمَّن قتلْنا، فقالوا: ما قَتلْتم إلا ابن ملك أو عظيمًا من العظماء أو بطلا من الأبطال، ولقد قتلْتم رجالا إن كان الرجل ليعدل بمائة رجل»(٣).

وهكذا جاء المدد لأهل سمرقند الذي من أجله كتم قتيبة خبر إقدامه عليهم ولكن مجيئه كان بعد أن أحكم حصار المدينة، ولقد كان مجيء ذلك الجيش المنتخب من أبناء الملوك والأبطال خيرًا كثيرًا على المسلمين في مستقبل جهادهم، حيث قتلوا خيرة فرسان فرغانة والشاش، وأسروا بعضهم، فسهَّل عليهم ذلك غزو بلادهم.

---

(١) طرخون حاكمهم الأول الذي عقد الصلح مع قتيبة وقد خلعوه وولوا نيزك، يعني أن أهل الذمة الذين يدفعون الجزية يجب على المسلمين حمايتهم - تاريخ الطبري ٦/ ٤٧٦-٤٧٨.

(٢) يعني الأسرى.

(٣) تاريخ الطبري ٦/ ٤٧٤.

وهكذا أرادها ملوك الشاش وفرغانة مكيدة للمسلمين ليأخذوهم على غرة، وانتخبوا أفضل ما عندهم من المقاتلين، ولكن المسلمين قد تفوقوا عليهم كثيرًا في الرصد الحربي، فعلموا عن تحركهم، فانتخب قتيبة جيشًا من أهل النجدة بقيادة أخيه صالح بن مسلم، ثم بث عيونه فعلم منهم الليلة التي سيصلون فيها.

ورجعت مكيدة الأعداء عليهم، وكان صالح موفقًا حينما وضع لهم الكمينين، فلم يفجأ جيش الأعداد إلا المقاتلون من المسلمين على قارعة الطريق، وكان خروج الكمينين عند التحام المعركة مفاجأة أخرى مذهلة، بدَّدت طاقاتهم، فقُتل أكثرهم وأُسر بعضهم.

وهكذا يظهر المسلمون في كل حروبهم في القرن الأول أعظم تفوقًا في التخطيط الحربي، وفي المواجهات الميدانية.

ولقد كان غير خاف على قتيبة أن ذلك الجيش المنتخب سيتقدمه رَصَد وعيون، خاصةً وأن فيهم أبناء ملوكهم، فلم يُخرج الجيش الإسلامي المُنتخب لقتالهم إلا ليلة وصولهم، حيث أخرجهم مع المغرب، ومن المرجح أن عيون الأعداء قد خبَّروا الطريق إلى جيش المسلمين في النهار فأفادوا جيش الأعداء القادم بعدم استعداد المسلمين للقائهم، وإنما قصد قتيبة أن يأخذهم ليلا على غرة كما أرادوا هم ذلك فنجح في توريطهم، وكان عامل المفاجأة له أكبر الأثر في هزيمتهم.

ومما يشاد به حضور قتيبة تلك الليلة ومراقبته سير المعركة، فلم يعتمد على القائد المكلف ويَبِتْ هو بأمان وطمأنينة وذلك لاحتمال أن يتغلب جيش الأعداء بعض الشيء وينجحوا في اختراق جيش المسلمين المعدِّ لهم، وهنا لابد أنه كان في تخطيط قتيبة أن ينتدب لهم من يقاومهم قبل وصولهم إلى الجيش المرابط حول المدينة، فلما رأى ما قام به جيشه المنتخب من اصطلام جيش العدو وإبادته حمد الله تعالى على نجاح الخطة، هذا وإن شعور الجيش بحضور قائده الأعلى ومراقبته يعطيهم دفعة قوية نحو بذل أقصى ما عندهم من قوة، خاصة وأنه لا يُفترض في كل الأحوال توفر من لا يخلطون إرادة الآخرة بشيء من جاه الدنيا.

ومما يشاد به أيضًا خطبة قتيبة بن مسلم التي ربط بها ذلك الجيش بالله تعالى، فنبَّههم إلى أن ما قاموا به من انتصارات إنما هي بتوفيق الله جلا وعلا، وأن الأعداء قد هالهم واقع تلك الانتصارات، فاختاروا أفضلهم في الحرب لالتماس غرة المسلمين، ثم ثناؤه على جيشه المنتخب ببيان أنهم عظماء المسلمين وفرسانهم، وهذا يعطيهم دفعة قوية نحو البذل والتضحية، ثم الإشارة المهمة إلى ما يرجح كفة المسلمين إن تعادلوا مع أعدائهم في الكفاءة القتالية، وهو أن الله تعالى فضَّل المسلمين بدينه، فكل الفريقين منتخَبون من أهل الكفاءة الحربية ولكن الروح المعنوية العالية التي يتمتع بها المسلمون لا يعادلها أي قوة معنوية أخرى ولا يقاربها.

ثم إشارته المهمة إلى الهدف الأعلى من قتالهم، وهو أن يبلغوا رضوان الله تعالى عنهم، إلى جانب ما يشتركون به مع غيرهم من كونهم يدافعون عن أحسابهم، وهذا دليل على قوة ارتباط قتيبة بالله تعالى، الأمر الذي كان له أبلغُ الأثر في انتصاراته المتوالية.

ونعود الآن إلى خبر فتح قتيبة مدينة سمرقند.

قال الإمام الطبري في سياق روايته المذكورة عن شيوخه: «وَضَع قتيبة عليهم المجانيق فرماهم بها، وهو في ذلك يقاتلهم لا يُقلع عنهم، وناصَحه من معه من أهل بخارى وأهل خوارزم، فقاتلوا قتالا شديدًا وبذلوا أنفسهم».

وهكذا كان المسلمون متفوقين حتى في العتاد الحربي، فليس للمدن المحصنة من سلاح آنذاك إلا المجانيق ونحوها من الآلات الثقيلة، والحصون وحدها هي التي كانت تقي الأعداء من المسلمين في ذلك الوقت، أما المسلمون فليس لهم حصون إلا ظهور خيولهم، وهذه لا يمكن أن يحدَّ من حركتها أي سلاح يخترعه الأعداء، ولذلك لم يتمكن أعداؤهم في كل ميدان من استعمال الأسلحة الثقيلة ضدهم، وليس بإمكانهم أن يجاروهم في جولاتهم على ظهور الخيل لتفوق المسلمين الباهر في هذا المجال.

ثم ذكر في الرواية المذكورة أن قتيبة اختار الشجعان وأهل الغناء في الحرب فجمع لهم جيد السلاح وزحف بهم فرسانا ورجالا نحو السور، وثلم ثلمة بالمنجنيق، وقال قتيبة: ألحُّوا عليهم حتى تعبروا الثلمة، فقاتلوهم حتى صاروا على ثلمة المدينة، ورماهم الصغد بالنشاب فوضعوا تَرَسَتَهم، فكان الرجل يضع ترسه على عينه ثم يحمل، حتى صاروا على الثلمة، فقالوا له: انصرف عنا اليوم حتى نصالحك غدا.

ثم ذكر صلحه معهم، وأنه دخل المدينة وبُني له فيها مسجد وصلي فيه، وأنه أُتِي بالأصنام فسلُبت[1]، ثم وُضعت بين يديه، فكانت كالقصر العظيم حين جمعت، فأمر بتحريقها، فقالت الأعاجم: إن فيها أصنامًا مَنْ حرقها هلك، فقال قتيبة: أنا أحرقها بيدي، فجاء «غوزك»[2] فجثا بين يديه وقال: أيها الأمير إن شكرك علي واجب، لا تعرض لهذه الأصنام، فدعا قتيبة بالنار، وأخذ شعلة بيده، وخرج فكَبَّر ثم أشعلها، وأشعل الناس فاضطرمت فوجدوا من بقايا ما كان فيها من مسامير الذهب والفضة خمسين ألف مثقال[3].

وهكذا كان قتيبة صارمًا في أمر الله لا يهادن على الباطل، فلابد من إزالة معالم الوثنية حتى تتحرر العقول من تعظيمها، وهذا هو أهم أهداف الغزو الإسلامي، لأن المقصود به تحرير العقول من هيمنة خرافات الوثنية، وحينما يتم حرق تلك الأصنام ثم لا يحصل بحرقها ضرر على المسلمين يتبين لعامة الناس الذين ضللهم كبراؤهم أن تلك الأصنام لا تضر ولا تنفع، فتتحرر عقولهم من سيطرتها وسيطرة من يُروِّجون لها، لتكون بعد ذلك هذه العقول أهلا للتحلِّي بدين التوحيد الذي لا يفرض سلطة دينية بين الله تعالى وعباده.

ولقد أحسن قتيبة صنعا حين تولى حرقها بنفسه لأن ذلك أبلغ في التنفير منها وتحرير العقول من سيطرتها.

---

(١) يعني أزيل ما عليها من حلية الذهب وغيره.

(٢) يعني ملك سمرقند.

(٣) تاريخ الطبري ٦/ ٤٧٢، البداية ٩/ ٨٥، الكامل ٤/ ١٢٦.

فتح إقليمي الشاش وفرغانة:

وقد ذكر الإمام الطبري خبر غزو قتيبة بلاد الشاش وفرغانة سنة أربع وتسعين وأنه لما قطع النهر فـرض على أهل بخارى وكِشّ ونَسَف وخُوارَزم عشـرين ألف مقاتل، قال: فساروا معه إلى السغْد، فوُجِّهوا إلى الشاش، وتوجه هو إلى فرغانة وسار حتى أتى «خُجَنْدَة» فجمع له أهلها فلقوه فاقتتلوا مراراً كل ذلك يكون الظفر للمسلمين.

قال: ففزع الناس يومًا فركبوا خـيولهم، فأوفي رجل على نشز، فقال: تالله ما رأيت كاليوم غرة، لو كان هيج [يعني قتال] اليوم ونحن على ما أرى من الانتشار لكانت الفضيحة، فقال له رجل إلى جنبه: كلا، نحن كما قال عوف بن الخَرِع:

نَؤُمُّ الـبـــــلاد لحـب اللـقـــــا ولا نتَّــــقي طائرا حــــيث طارا

سَنِيــحًــا ولا جَـــارِيًا بارحـــا على كل حـــال نلاقي اليـــســـارا

وفي هذا دلالة على قوة معنوية أولئك الجنود حيث يقول هذا الذي تمثل بهذين البيتين: إنا على استعداد تام لأي عـدو يلقانا لأن المبدأ الذي نجتمع عليه هو حب لقاء العدو.

قال: ثم أتي قتيبة كاشـان مدينة فرغانة، وأتاه الجنود الذين وجههم إلى الشاش وقد فتحوها وحرقوا أكثرها، وانصرف قتيبة إلى مرو[١].

وهكذا ذكر الإمـام الطبري أخبـار فتح الإقليـمين المذكورين باقتـضاب، ولكن يُفهم من ذلك أن النهاية كانت سيادة حكم المسلمين على تلك البلاد.

وقد تقـدم معنا أن أهل فرغانة والشـاش قد قدَّمـوا لنصرة أهل سمرقند خـيار جـيشـهم من أبناء المـلوك ووجوه الناس والأبـطال، وأن المسلمين كـمنوا لهم في الطريق ليلا فـأبادوا أكثرهم وأسـروا بعضهم، فكانت هذه الفـاجعة كافـية لإثارة الرعب في قلوب أهل تلك البلاد فأصبحت مقاومتهم بعد ذلك ضعيفة.

ثم ذكر الإمام الـطبري فتح قتيـبة بلاد «كاشغـر» وهي تقع حاليًا في تركـستان الشرقية التابعة للصين، وذلك في سنة ست وتسعين.

---

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٤٨٣ - ٤٨٤.

وذكر أن قتيبة أرسل إلى شعْب عصام من يُسهِّل له الطريق إلى كاشغر، ثم ذكر أنه بعث كثير بن فلان إليها فَسَبَى منها سببًا، فختَّم أعناقهم مما أفاء الله تعالى على قتيبة[1].

وهكذا أيضًا ذكر فتح هذا الإقليم باختصار، وقد تجاوزه قتيبة متجهًا إلى الصين كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

وبهذا يكون قتيبة قد أتم فتح أقاليم بلاد ما وراء النهر وأظلها حكم الإسلام قبل نهاية القرن الأول، واستمر دخول أهلها في الإسلام، حتى أصبحت بعد ذلك تكوِّن جزءًا مهما من بلاد المسلمين، وأنجبت علماء أفاضل كان لهم دور بارز في نشر الإسلام وترسيخ دعائمه وخدمة العلوم الشرعية، ويأتي على رأس قائمة هؤلاء العلماء الإمام أبو عبدالله البخاري، ثم يأتى الإمام الترمذي والنسفي والبيهقي، وغيرهم من العلماء الكبار.

وقد أصبحت هذه البلاد تُسمَّى فيما بعد تركستان الغربية وتركستان الشرقية، وقد وقعت الأولى تحت الاحتلال الروسي عقودا من الزمن، وقسموها إلى خمس دول، وهي أوزبكستان وطاجكستان، وتركمانستان وقرقيزيا، وكازخستان.

أما تركستان الشرقية فإنها لا تزال تحت الاحتلال الصيني. وما تزال تركستان بشطريها تحتفظ بإسلامها مع ما طرأ عليها من بُعْد وانحراف.

خضوع مملكة الصين للمسلمين:

ذكر الإمام الطبري أن قتيبة بن مسلم توغل شرقا حتى قَرُبَ من بلاد الصين وذلك في سنة ست وتسعين.

قال: فكتب إليه ملك الصين: أن أبعث إلينا رجلا من أشراف من معكم يخبرنا عنكم، ونسائله عن دينكم، فانتخب قتيبة من عسكره اثنى عشر رجلا -وقال بعضهم عشرة- من أفناء القبائل، لهم جَمَال وأَلْسُن وشعور وبأس، بعدما سأل عنهم فوجدهم من صالح من هم منه، فكلَّمهم قتيبة وفاطنهم[2] فرأى عقولا

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٥٠٠.

(٢) أي اختبر فطنتهم.

وجمالا، وأمر لهم بعُدَّة حسنة من السلاح والمتاع الجيد، من الخز والوشي واللّيّن من البياض والرقيق -من الثياب- والنعال والعطر وحملهم على خيول مطهَّمة تُقَادُ معهم، ودواب يركبونها.

قال: وكان هبيرة بن المُشَمْرج الكلابي مفوْهًا بسيط اللسان، فقال: يا هبيرة كيف أنت صانع؟ قال: أصلح الله الأمير قد كفيت الأدب، وقل ما شئت أقُلْه وآخذ به[1]، قال: سيروا على بركة الله وبالله التوفيق، لا تضعوا العمائم عنكم حتى تقدموا البلاد، فإذا دخلتم عليه فأعلموه أني قد حلفت أن لا أنصرف حتى أطأ بلادهم، وأختِّم ملوكهم، وأجْبي خراجهم.

قال: فساروا وعليهم هبيرة بن المشمرج، فلما قدموا أرسل إليهم ملك الصين يدعوهم، فدخلوا الحمام، ثم خرجوا فلبسوا ثيابًا بيضا تحتها الغلائل، ثم مَسُّوا الغالية وتدخَّنوا ولبسوا النعال والأردية، ودخلوا عليه وعنده عظماء أهل مملكته، فجلسوا فلم يكلمهم الملك ولا أحد من جلسائه فنهضوا، فقال الملك لمن حضره: كيف رأيتم هؤلاء؟ فقالوا: رأينا قومًا ما هم إلا نساء.

قال: فلما كان الغد أرسل إليهم، فلبسوا الوشْي وعمائم الخز والمطارف، وغدوا عليه، فلما دخلوا عليه قيل لهم: ارجعوا، فقال لأصحابه: كيف رأيتم هذه الهيئة؟ قالوا: هذه الهيئة أشبه بهيئة الرجال من تلك الأولى وهم أولئك.

فلما كان اليوم الثالث أرسل إليهم، فشدُّوا عليهم سلاحهم ولبسوا البَيْض والمَغَافِر وتقلدوا السيوف وأخذوا الرماح، وتنكَّبوا القِسِيّ، وركبوا خيولهم، وغدوا فنظر إليهم صاحب الصين، فرأى أمثال الجبال مقبلة فلما دنَوا ركزوا رماحهم، ثم أقبلوا نحوهم مشمِّرين، فقيل لهم قبل أن يدخلوا: ارجعوا، لِمَا دخل قلوبهم من خوفهم.

قال: فانصرفوا فركبوا خيولهم، واختلجوا رماحهم، ثم دفعوا خيولهم، كأنهم يتطاردون بها، فقال الملك لأصحابه: كيف ترونهم؟ قالوا: ما رأينا مثل هؤلاء قط.

---

(١) يعني قد كفيت المنطق الذي تقتضيه المواقف المختلفة، وقل ما تريد من شؤون الحرب والسياسة أبلغه عنك.

فلما أمسى أرسل إليهم الملك: أن ابعثوا إلى زعيمكم وأفضلكم رجلا، فبعثوا إليه هبيرة، فقال له حين دخل عليه: قد رأيتم عظيم ملكي، وإنه ليس أحد يمنعكم مني، وأنتم في بلادي، وإنما أنتم بمنزلة البيضة في كفي، وأنا سائلك عن أمر فإن لم تصدقني قتلتكم، قال: سل، قال: لِمَ صنعتم ما صنعتم من الزِّي في اليوم الأول والثاني والثالث؟ قال: أما زيُّنا الأول فلبسانا في أهالينا وريحنا عندهم، وأما يومنا الثاني فإذا أتينا أمراءنا، وأما اليوم الثالث فزيُّنا لعدونا، فإذا هاجنا هَيْج وفزع كنا هكذا.

قال: ما أحسن ما دبرتم دهركم، لانصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له: يَنْصَرِفْ، فإني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه، وإلا بعثت عليكم من يهلككم ويهلكه، قال له: كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون؟ وكيف يكون حريصًا من خلَّف الدنيا قادرا عليها وغزاك؟ وأما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا آجالا إذا حضرت فأكرمها القتل، فلسنا نكرهه ولا نخافه.

قال: فما الذي يُرضى صاحبك؟ قال: إنه حلف أن لا ينصرف حتى يطأ أرضكم، ويُخَتِّم ملوككم، ويُعطى الجزية، قال: فإنا نخرجه من يمينه، نبعث إليه بتراب من تراب أرضنا فيطؤه ونبعث ببعض أبنائنا فيختِّمهم، ونبعث إليه بجزية يرضاها.

قالك فدعا بصحاف من ذهب فيها تراب، وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم، ثم أجازهم فأحسن جوائزهم فساروا فقدموا بما بعث به، فقبل قتيبة الجزية، وختَّم الغِلْمة وردهم، ووطئ التراب(١).

وهكذا أظهر أعضاء هذا الوفد عزة الإسلام أمام ملك الصين وحاشيته، واجتهدوا في الظهور أمامهم بالهيئات الثلاث التي حازت إعجاب الملك بعد أن عرف تفسيرها، وإن كانت الهيئة الحربية هي التي أوقعت الرعب فيهم، وهي التي كان الصحابة رضي الله عنهم يظهرون بها عند مقابلة الكفار.

---

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٥٠٠ - ٥٠٣، الكامل ٤/ ١٣٦.

وفي الحوار الذي دار بين ملك الصين وهبـيرة نجد هبيـرة موفقًا في عـرض قوة المسلمين وإظهار عزتهم، حتى أحـدث ذلك الخوف في قلب ملك الصين، فتنازل عن تهديده للمسلمين ورضي بأن يحقق لهم جميع ما يريدون في مقابل أن يتفادى القتـال معهم وذلك حـينما أشعـره بأن قوة المسلمين ليـست في هذا الجيش الذي حضـر بلاده فقط، وإنما جيشـهم ممتد من بلاده إلى بلاد الشـام التي هي منابت الزيتون.

ولقد كان ملك الصين ووزراؤه أصـحاب عقول رشيدة حيث اعـتبروا بالدروس التي تلقاها من قبلهم، فلم يقحموا دولتهم في صراع مع المسلمين، وقد سبق ذكر اعتـذار ملك الصين من إمداد ملك الفرس لما اسـتنجد به، وبين له أن المسلمين - بناء على الصفات التي نقلت عنهم- لا يمكن أن يقف أمامهم أحد.

ومما يذكر في هذه المحاورة إشارة هبـيرة إلى أن المسلمين لا يخافون من الموت، ولا يمكن أن يخـيفهم أحـد بالقتل، ولا يصـنع ذلك فيهـم شيئًـا، لأنهم يؤمنون بالقدر، ويعتقـدون أن لكل إنسان أجلاً لا يتجاوزه، فإذا كـتب الله تعالى انقضاء الأجل فإن أكرم أنواع الموت الشـهادة في سبيل الله تعالى، وهذه العقـيدة العظيمة كانت وراء إقدام المسلمين على خوض الأهوال ومقارعة الأبطال، لأن الإقدام على الخطر لا يقدِّم الأجل، والإحجام عنه لا يؤخره عن موعده المحدد، وإذا كان ملك الصين قد فهم هذا المـعنى فإنه مما يثير مخـاوفه لأن هذا الاعتقـاد مرعب للكفار، حيث إنهم حينما يقاتلون المسلمين فإنما يقاتلون قومًا لا يهابون الموت، والذي يقدم على قتال خصمه وهو يحمل هذا الشعور لا يمكن أن يقف أمامه أحد.

نبذة عن حياة قتيبة ونهايته:

يجدر بنا أن نذكـر شيئًا من فـضائل قتيـبة بن مسلم الباهلي وتاريخ حـياة هذا القائد العظيم، فهـو الذي نقل الإسلام ورسخ دعائم الدولة الإسلامـية في بلاد ما وراء النهر التي تمتد من بحر قزوين غربًا حتى حدود الصين شرقا.

هذا القـائد كان نبوغـه مبكرا حين كـان في العراق، ولـمَّـا يتجاوز الثـلاثين من عمره، وقد ظهر نبوغه حينما اعترض على الحجاج، وقد استشار الناس في شبيب

الخارجي الذي أعياه قتاله، فلم يتكلم إلا قتيبة، فقال للحجاج: إنك لم تنصح لله ولا لأمير المؤمنين في قتالهم، فغضب الحجاج، ولكنه كان في وضع يحتاج فيه إلى الناس لشدة هجوم الخوارج فقال له: وكيف ذاك؟ قال: تبعث الرجل الشريف وتبعث معه رعاعًا من الناس فينهزمون عنه ويستحي فيقاتل حتى يقتل، قال: فما الرأي؟ قال: أن تخرج بنفسك ويخرج معك نظراؤك فيواسونك بأنفسهم، وعمل الحجاج بمشورته وخرج لهم فكانت هزيمتهم(١).

ولقد أفاد الحجاج من هذه المشورة في قتال ابن الأشعث حيث خرج له بنفسه وقاد المعارك الأخيرة الحاسمة.

ومازال قتيبة محل إعجاب الحجاج حتى ولاه على بلاد «الرَّى» واستعان به في القضاء على فتنة ابن الأشعث، ثم ولاه خراسان، فانطلق منها لفتح بلاد ما وراء النهر، واستغرق فتحها عشر سنوات من سنة ست وثمانين حتى سنة ست وتسعين.

هذا وإن كان قتيبة رجلا ذا مواهب عالية من الشجاعة والمقدرة الإدارية والحربية فإنه يؤخذ عليه إهماله مبدأ الشوري في كثير من أموره، ولئن كان قد سلم من كثير من المشكلات الناجمة عن القرار المنفرد لتوفيق الله له أوَّلاً ثم لما يتمتع به من طاقة فكرية عالية وخبرة حربية واسعة فإن إهمال الشوري قد جر عليه مشكلة قضت على حياته وحياة إخوانه، وذلك حينما بادر من غير مشورة فخلع الخليفة سليمان بن عبدالملك، ثم قام خطيبًا فعاب جميع القبائل الذين كانوا معه أشد العيب، فكان نتيجة ذلك أن غضبت القبائل فولّوا عليهم وكيع بن أبي أسود التميمي، وثاروا على قتيبة فقتلوا إخوانه ثم قتلوه وكانت نهاية مؤلمة لهذا البطل الفاتح(٢).

***

---

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٢٧٣.

(٢) انظر تفاصيل ذلك في تاريخ الطبري ٦/ ٥٠٦ - ٥١٦، الكامل/ ٤/ ١٣٨، البداية والنهاية ٩/ ١٧٤.

٣- فتوحات يزيد بن المهلب

لما ولي الخلافة أمير المؤمنين سليمان بن عبدالملك ولي على خراسان يزيد بن المهلب بن أبي صفرة وذلك في عام سبعة وتسعين(١).

فتح جرجان:

قال الإمام ابن جرير الطبري: وفي هذه السنة -يعني سنة ثمان وتسعين- غزا يزيد بن المهلب جرجان وطبرستان.

ثم ذكر الإمام الطبري أن أمير المؤمنين سليمان بن عبدالملك لما ولَّى يزيد بن المهلب على خراسان كان أهم شيء عنده أن يفتح جرجان وطبرستان(٢) لأن هذين الإقليمين كانا على طريق خراسان، وقد تحول الطريق من فارس وكرمان، لعدم وجود الأمان للمسلمين في جرجان وطبرستان.

وكان يحكم جرجان عدد من الأمراء منهم صول التركي وفيروز بن قول، وكان بينهما نزاع وقتال، فذهب فيروز إلى يزيد بن المهلب يستنصر به فأغار صول على إمارته وأخذها، فلما قدم فيروز على يزيد بن المهلب قال له يزيد: ما أقدمك؟ قال: خفت صولاً فهربت منه، قال له يزيد: هل من حيلة لقتاله؟ قال: نعم، شيء واحد إن ظفرت به قتلته أو استسلم لك، قال: ما هو ؟ قال إن خرج من جرجان حتى ينزل البحيرة(٣) ثم أتيته فحاصرته بها ظفرت به، فاكتب إلى الإصبهبذ(٤) كتابًا تسأله فيه أن يحتال على «صول» حتى يقيم بجرجان، واجعل له على ذلك جُعلاً ومَنّه، فإنه يبعث بكتابك إلى صولٍ يتقرب به إليه لأنه يعظمه، فيتحوَلُ عن جرجان فينزلُ البحيرة.

فكتب يزيد بن المهلب إلى صاحب طبرستان: إني أريد أن أغزو «صولاً» وهو بجرجان، فخفت إن بلغه أني أريد ذلك أن يتحول إلى البحيرة فينزلها، فإن تحول

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٥٢٣.

(٢) موقع الإقليمين في شمال إيران واسمهما الآن مازندران -معجم أماكن الفتوح-.

(٣) هي جزيرة في البحر بينها وبين دهستان خمسة فراسخ وهما من جرجان مما يلي خوارزم.

(٤) هو حاكم طبرستان.

إليها لم أقدر عليه، وهو يسمع منك ويستنصحك، فإن حبسته العام بجرجان فلم يأت البحيرة حملت إليك خمسين ألف مثقال، فاحْتَل له حيلة تحبسه بجرجان، فإنه إن أقام بها ظفرت به، فلما رأى الأصبهبذ الكتاب أراد أن يتقرب إلى «صول» فبعث بالكتاب إليه، فلما أتاه الكتاب أمر بالرحيل إلى البحيرة، وحمل الأطعمة ليتحصن بها.

وبلغ يزيد أنه قد سار من جرجان إلى البحيرة، فاعتزم على السير إلى جرجان، فخرج في ثلاثين ألفا، وأقبل حتى أتى جرجان فدخلها بدون مقاومة تذكر، ثم سار إلى البحيرة فحاصرها، فكان يخرج إليه صولٌ في الأيام القليلة فيقاتله ثم يرجعُ إلى حصنه، فمكث الترك محصورين ستة أشهر، حتى شربوا الماء المالح فأصيبوا بداء السُّؤَاد، فوقع فيهم الموت، وأرسل صول في ذلك يطلب الصلح، فقال يزيد بن المهلب: لا، إلا أن ينزل على حكمي، فأبى، فأرسل إليه: إني أصالحك على نفسي ومالي وثلاثمائة من أهل بيتي وخاصتي، على أن تؤمنني فتنزل البحيرة، فأجابه يزيد، فخرج بماله وثلاثمائة ممن أحب، فاستولى المسلمون على الجزيرة، وقتل يزيد بعض من فيها من المقاتلة(١).

فهذا الخبر فيه مواقف جهادية عالية، منها:

١- اهتمام يزيد بن المهلب بغزو بلاد جرجان وطبرستان، وكانت هذه البلاد لوعورة أرضها وصعوبة مسالكها تصدُّ الغزاة من المسلمين، وقد ذكر الإمام الطبري أن مصقلة بن هبيرة بن شبل الثعلبي الشيباني غزا جرجان في عهد معاوية رضي الله عنه في عشرة آلاف مجاهد فأصيب هو وجنده بالرَّويان، وهي متاخمة لطبرستان، فهلكوا في واد من أوديتها، أخذ عليهم العدو بمضايقه فقتلوا جميعا، فهو يسمى وادي مصقلة، ولشهرة خبره كان يضرب به المثل: «حتى يرجع مصقلة من طبرستان»(٢). فكان لِمَا أصاب المسلمين في تلك الغزوة ولغيرها أثر على قادة المسلمين وجنودهم.

---

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٥٣٥ - ٥٣٨.

(٢) تاريخ الطبري ٦/ ٥٣٥ - ٥٣٦.

وقد جرى التوسع في الفتوحات شرقًا حتى بلغ المسلمون في فتوحاتهم بلاد الصين، بينما كانت بلاد جرجان وطبرستان دون خراسان، ومع ذلك تركها المسلمون، فكان اهتمام يزيد بن المهلب بغزو هذه البلاد أمرًا يذكر له.

وقد جاء في رواية للطبري أن سليمان بن عبدالملك كان كلما افتتح قتيبة فتحًا قال ليزيد بن المهلب: أمَا ترى ما يصنع الله على يدى قتيبة؟ فيقول ابن المهلب: ما فعلت جرجان التي حالت بين الناس والطريق الأعظم وأفسدت قومس وأبهرشهر؟![1] وهذا يبين بأن ابن المهلب قد اهتم بفتح هذه البلاد قبل أن يكون أميرًا على خراسان.

٢- وفي هذا الخبر نماذج من التدابير الحربية الجيدة، فمن ذلك ما جرى من يزيد ابن المهلب في كتابه إلى «صول» حاكم جرجان، حيث أخرجه بمكيدة ناجحة من مُتَمَنَّع بلاده بجرجان إلى الجزيرة التى لا يستطيع أن يقاوم فيها طويلا، فاستطاع يزيد أن يأخذ جرجان بدون مقاومة تذكر، لأن أغلب جيوشها تحولت إلى الجزيرة التي تحصن بها أميرها «صول»، ثم حاصرهم فيها حتى استسلم أميرهم.

ومن المواقف المذكورة في هذه الغزوة ما ذكر الإمام أبو جعفر الطبري من خبر أبي محمد الثقفي قال: أصاب يزيد بن المهلب تاجًا بجرجان فيه جوهر، فقال: أترون أحدًا يزيد في هذا التاج؟ قالوا: لا، فدعا محمد بن واسع الأزدي فقال: خذ هذا التاج فهو لك، قال: لا حاجة لي فيه، قال: عزمت عليك، فأخذه، وخرج فأمر يزيد رجلا ينظر ما يصنع به، فلقى سائلا فدفعه إليه، فأخذ الرجلُ السائلَ فأتى به يزيد وأخبره الخبر، فأخذ يزيد التاج وعوَّض السائل مالا كثيرًا[2].

وهكذا كانت شهرة هذا الإمام الزاهد العابد في الزهد والعفة والورع قد وصلت إلى القادة والأمراء، فكان يزيد بن المهلب يعلم أن محمد بن واسع سيزهد في ذلك التاج، فأراد أن يظهر للناس نموذجًا من البشر قد سمت نفوسهم وعلت طموحاتهم، فتجاوزت ما يتنافس الناس عليه من متاع الدنيا، وحلَّقت إلى نعيم الآخرة الخالد، فأصبح الجوهر النفيس عندهم يعادل أدنى عملة يمكن أن تقدم لسائل بائس.

---

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٥٣٩.
(٢) تاريخ الطبري ٦/ ٥٣٩.

لقد كان يزيد بن المهلب وأمثاله من العقلاء يدركون المستوى الرفيع الذى بلغه محمد بن واسع وأمثاله، ولكنهم لا يستطيعون بلوغ ذلك المستوى، لأن نفوسهم لم تتجرد بعْدُ من حب المال والجاه، ولأنهم لم تتمثل في أفكارهم عظمة الجنة ودرجاتها المتفاوتة في السمو والنعيم، ولكنَّ وضع يزيد مع ذلك أفضل بكثير من الذين لم يَدُر في مخيلتهم أن أحدًا من الناس يزهد في متاع الدنيا.

فتح طبرستان:

ذكر الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري عد عدد من الشيوخ أن يزيد بن المهلب لما صالح حاكم جرجان رغب في فتح طبرستان، فلما عزم على المسير إليها ولَّى عبدالله بن المعمَّر اليشكرى على بياسان ودهستان، وخلَّف معه أربعة آلاف، ثم أقبل إلى أدنى جرجان مما يلي طبرستان، واستعمل على أندرستان أسد بن عمرو -أو ابن عبدالله بن الرَّبعة- وهي مما يلي طبرستان، وخلَّفه في أربعة آلاف، ودخل يزيد طبرستان، فأرسل إليه حاكمها الأصبهبذ يسأله الصلح وأن يخرج من طبرستان فأبى يزيد ورجا أن يفتحها وأقام معسكرًا هناك.

ووجه يزيد ابنه أبا عيينة في جيش لقتال الأعداء، وكان حاكم طبرستان قد استنجد بأهل جيلان وأهل الديلم، فالتقوا مع المسلمين في سفح جبل فانهزم المشركون وتبعهم المسلمون حتى انتهوا إلى فم الشعب فدخله المسلمون، فرماهم المشركون من فوق الجبل فانهزم أبو عيينة والمسلمون ورجعوا إلى معسكر يزيد، ولم يتبعهم المشركون خوفًا من هجوم جيش المسلمين عليهم.

وكتب الإصبهبذ حاكم طبرستان إلى المرزبان ابن عم فيروز بن قول وهو بأقصى جرجان مما يلي البياسان: إنا قد قتلنا يزيد وأصحابه فاقتل من في البياسان من العرب، فخرج بجيشه إلى أهل البياسان والمسلمون آمنون في منازلهم، فقتلوا المسلمين جميعًا وكانوا أربعة آلاف بقيادة عبدالله بن المعمَّر.

وبلغ يزيد والمسلمين ذلك فهالهم وأعظموا ذلك وبلغهم أن المرزبان كتب إلى الإصبهبذ ليسد المنافذ على المسلمين، وهذا يعني أن المسلمين قد وقعوا بين جيشين

للأعداء، ففزع يزيد إلى حيان النبطي[1] وقال له: لا يمنعك ما كان مني إليك من نصيحة المسلمين، قد جاءنا عن جرجان ما جاءنا، وقد أخذ هذا بالطرق فاعمل في الصلح، قال: نعم، فأتى حيان الإصبهبذ فقال: أنا رجل منكم، وإن كان الدين قد فرق بيني وبينكم فإني لكم ناصح، وأنت أحب إلي من يزيد، وقد بعث يستمد، وأمداده قريبة، وإنما أصابوا منه طرفا، ولست آمن أن يأتيك مالا تقوم له، فأرح نفسك منه وصالحه، فإنك إن صالحته صيَّر حدَّه على أهل جرجان بغدرهم وقتلهم من قتلوا، فصالحَه على مبلغ كبير من المال، وقد أرسل إليهم يزيد ذلك المال الذي صالحهم عليه حيَّان النبطي[2].

وهذا الذي قام به يزيد بن المهلب من مصالحة حاكم طبرستان يعتبر من التدابير الحربية الناجحة، وهذا الصلح وإن كان ظاهره ذلة للمسلمين، حيث سيدفعون لذلك الحاكم مبلغًا كبيرًا من المال إلا أنه في الحقيقة نوع من الخداع الحربي، حيث أراد يزيد أن يتقي بذلك شر أحد الجيشين ليتفرغ للجيش الآخر، فإذا تم القضاء عليه رجع للجيش الذي صالحه في الوقت المناسب.

فتح جرجان مرة أخرى:

وقد ذكر الإمام الطبري فيما يرويه عن شيوخه أن يزيد بن المهلب لما صالح أهل طبرستان قصد لجرجان، فلما بلغ المرزبان حاكم جرجان أن يزيد قد صالح حاكم طبرستان جمع أصحابه وأتى مدينة «وجاه» فتحصن فيها، وأقبل يزيد حتى نزل عليها وحولها أشجار كثيفة ولا يعرف لها إلا طريق واحد، فأقام محاصرًا لها سبعة أشهر لا يقدر منهم على شيء، وكانوا يخرجون في بعض الأيام فيقاتلونه ويرجعون إلى حصنهم.

وفي يوم من الأيام خرج رجل من جيش يزيد من قبيلة طيء يتصيد[3]، فأبصر وَعِلاً يرقي في الجبل فاتَّبعه، وقال لمن معه: قفوا مكانكم، وصعد في الجبل

---

(١) هو من العجم وقد كان دخل في الإسلام وحسن إسلامه وتولى بعض الأعمال، وقد كان يزيد غرمه مائتي ألف بسبب إهانة وقعت منه لمخلد بن يزيد.

(٢) تاريخ الطبري ٦/ ٥٣٩ - ٥٤١ باختصار.

(٣) وقيل إن الهياج بن عبدالرحمن الأزدي من أهل طوس.

يقتص أثر الوعل، فـما شعـر بشيء حتى أطل على عسكر الأعـداء، فرجع يريد أصحابه فخـاف أن لا يهتدي لتلك الثغرة إذا أراد العودة فجعل يُقطِّع قـباءه ويعقد على الشجر عـلامات، حتى وصل إلى أصحابه، ثم رجـع إلى العسكر فأتى إلى عامر بن أينم الواشـجي صاحب شرطة يزيد، فرفع ذلك إلى ابـني زُحَر بن قيس فأدخـلاه على يزيد، فـقال له: أتريد أن تدخل «وجـاه» بغيـر قتال؟ قـال: نعم، فأعـلَمَه بذلك الطريق الجـبلي المطل على الأعـداء، فندب الناس فانتـدب له ألف وأربعمائة، فقال ذلك الرجل: الطريق لا يحمل هذه الجماعة لكثرة الأشجار فيه، فاختار يزيد منهم ثلاثمائة فوجههم معه وأمَّر عليهم أحد قادته وقال له: إن غُلِبْتَ على الحياة فلا تُغلبنَّ على الموت، وإياك أن أراك عندي منهزما، وقال للرجل الذي أعلمه بذلك: متى تصل إليـهم؟ قال: غدًا عند العصر فيـما بين الصلاتين، قال: امضوا على بركة الله فإني سأجهد على مناهضتهم غدًا عند صلاة الظهر.

فساروا، فلما قارب انتصـاف النهار من غد أمر يزيد الناس أن يُشعلوا النار في حطب كان قد جـمعه في حصاره إياهم، فـصيَّره آكامًا، فـأضرموه نارًا، فلم تَزُل الشمس حـتى صار حول عسكره أمـثالُ الجبال من النيـران، ونظر العدو إلى النار فهالهم مـا رأوا من كثرتها فـخرجوا إليهم، وأمـر يزيد الناس حين زالت الشمس فصلَّوا وجمعوا بين الصلاتين، ثم زحفوا إليهم فاقتتلوا.

وسار أصحاب تلك السرية بقية يومهم والغـد، فهجموا على عسكر الترك قبيل العصر وهم آمنون من ذلك الوجه، ويزيد والمسلمـون يقاتلونهم من الوجه الآخر، فمـا شعر الأعداء إلا بالـتكبير من ورائهم فـفروا جميـعًا إلى حصنهم، وركـبهم المسلمون فأعطوا بأيديهم ونزلوا على حكم يزيد فسبى ذراريهم وقتل مقاتلتهم، ثم رجع إلى خراسان، وأمَّر على جرجان جهم بن زحر الجعفي(١).

وهكذا نجح المسلمون في فـتح إقليم جرجان، ولقد كـان من مظاهر توفيق الله تعالـى ونصره لذلك الجيـش أن ألهم ذلك الرجل الصيـاد إلى صعود ذلـك الجبل الشاهق الوعر المكتظ بالأشجار ليطل عـلى الأعداء فيكتشف عورةً لهم، ثم يكون

(١) تاريخ الطبري ٦/ ٥٤١ - ٥٤٣.

الفتح ونصر المسلمين من ذلك الطريق، ولقد كان ذلك الصيـاد عالي الهمة حينما حمل على عـاتقه مسؤوليـة كشف ذلك الطريق الذي كان به فرج المسلمـين، كما كان يزيد بن المهلب قـائدا بارعًا حينـما اغتنم تلك الفـرصة فخطط للقـضاء على الأعداء بإرباكهم من خلفهم والهجوم عليهم من أمامهم في وقت واحد.

وإن مما ينبـغي الإشـادة به موقف تلك السـرية التي لا يتـجـاوز عدد أفـرادها ثلاثمائة، حـيث غامر أفرادها بالسـير في تلك المجاهل، ثم بالهجـوم على جيش قـوي كثـيف من الخلـف، إذ أن هناك احتـمـال أن ينعطف عليـهم ذلك الجـيش فيبيدهم، فهذا مثل من شجاعة المسلمين العالية ومسارعتهم إلى البذل والتضحية.

***

٤- جهاد بعض القادة في أواخر عهد بني أمية

جهاد المسيب بن بشر الرياحي:

ذكر الإمام الطبري أن خـاقان ملك الترك جمعهم ووجّـههم إلى السُّغد، فكان على الترك كورصول، وأقبلوا حتى نزلوا قصر الباهليّ.

قال: وقال بعضهم: أراد عظيمٌ من عظماء الدّهاقين أن يتزوج امرأة من باهلة، وكانت في ذلك القصر، فأرسل إليها يخطبهـا. فأبت، فاستجاش ورجا أن يسبُوا مَنْ في ذلك القصر، فيأخذ المرأة، فأقبل كـورصول حتى حصر أهل القصر، وفيه مائة أهل بيت بذراريّهم، وعلى سـمرقند عثمان بن عبـدالله بن مطرف وخافوا أن يبطئ عنهم المدد، فصـالحوا الترك على أربعين ألفًا، وأعـطوهم سبعة عـشر رجلا رهينة، وندب عثمان بن عبدالله الناس، فـانتدب المسيّب بن بشر الرياحيّ وانتدب معه أربعـة آلاف من جميع القبائل، فقـال شعبة بن ظهير: لو كـان ها هنا خيول خُراسان ما وصلوا إلى غايتهم.

ثم ذكر بعض أسماء من انتدب للقتال من الأبطال إلى أن قال: فقال المسيَّب بن بشر لما عسكروا: إنكم تقدمون على حَلْبة التـرك، حلْبة خاقان وغيرهم، والعوَض إن صبرتم الجنة، والعقاب النار إن فررتم، فمن أراد الغزو والصبر فليقدم.

فانصرف عنـه ألف وثلثمائة، وسار في البـاقين، فلما سار فرسخًـا قال للناس مثل مـقالته الأولى، فـاعتزل ألف، ثم سـار فرسخًـا آخر فقـال لهم مثل ذلك، فاعتـزل ألف. ثم سار -وكان دليلهم الأشـهب بن عبيد الحنظليّ- حـتى إذا كان على فرسخين من القوم نزل فأتاهم ترك خـاقان ملك قِيّ فقال: إنه لم يبقَ هاهنا دهْقان إلا وقد بايع الترك غيري، وأنا في ثلثمائة مقاتل فهم معك، وعندي الخَبر، قد كانوا صالحـوهم على أربعين ألفًا، فأعطوهم سبعة عـشر رجلا، ليكونوا رَهْنًا في أيديهم حتى يأخذوا صلحَـهم، فلما بلغهم مسيركم إليـهم قتل الترك مَنْ كان في أيديهم من الرهائن.

قال: وكان فيهم نهشل بن يزيد الباهليّ فنجا لم يقتَل، والأشهب بن عبيد الله الحنظليّ، وميعادهم أن يقاتلوهم غدًا أو يفتحوا القَصْر، فبعث المسيّب رجلين: رجلا من العرب ورجلاً من العجم من ليلته على خيولهم، وقال لهم: إذا قرُبتم فشُدُّوا دوابَّكم بالشَّجَر، واعلموا علم القوم. فأقبلا في ليلة مظلمة، وقد أجْرَت الترك الماء في نواحي القصر، فليس يصل إليه أحدٌ، ودنوا من القصر، فصاح بهما الربيئة، فقالا: لا تصحْ وادعُ لنا عبدالملك بن دثار، فدعاه فقالا له: أرسلنا المسيّب، وقد أتاكم الغياث، قال: أين هو؟ قال: على فرسخين، فهل عندكم امتناع ليلتك وغدًا؟ فقال: قد أجمعنا على تسليم نسائنا وتقديمهم للموت أمامنا، حتى نموت جميعًا غدًا. فرجعا إلى المسيَّب، فأخبراه فقال المسيب للذين معه: إني سائر إلى هذا العدو، فمن أحب أن يذهب فليذهب، فلم يفارقه أحدٌ، وبايعوه على الموت.

فسار وقد زاد الماء الذي أجروه حول المدينة تحصينًا، فلما كان بينه وبينهم نصف فرسخ نزل، فأجمع على بياتهم، فلما أمسى أمر الناس فشدّوا على خيولهم، وركب فحثَّهم على الصبر، ورغَّبهم فيما يصير إليه أهل الاحتساب والصَّبْر، ومالهم في الدنيا من الشرف والغنيمة إن ظفروا، وقال لهم: اكعَموا دوابَّكم[١] وقُودوها، إذا دنوتم من القوم فاركبوها، وشدّوا شدّةً صادقة وكبّروا، وليكن شعاركم: يا محمد[٢]، ولا تتبعوا مُولّيًا، وعليكم بالدوابّ فاعقروها، فإنّ الدوابّ إذا عُقرت كانت أشدَّ عليهم منكم، والقليل الصابر خيرٌ من الكثير الفشِل، وليست بكم قلَّة، فإنّ سبعمائة سيف لا يُضرب بها في عسكر إلاَ أوهنوه وإن كثر أهله.

قال: وعبّأهم وجعل على الميمنة كثير بن الدَّبوسيّ، وعلى الميسرة رجلا من ربيعة يقال له ثابت قُطْنة، وساروا حتى إذا كانوا منهم على غلوتين كبروا وذلك في السحَر، وثار الترك، وخالط المسلمون العسكَر، فعقروا الدوابّ، وصابرهم

(١) أي اربطوا أفواهها، وذلك أقوى لها على تحمل الشدة والعطش.

(٢) هذا ليس من الاستغاثة لأن الاستغاثة بغير الله تعالى لم تكن معروفة عند التابعين لوضوح كونها من الشرك، وإنما هو مجرد شعار يتعارفون به كما جاء في الخبر.

الترك، فجال المسلمون وانهزموا حتى صاروا إلى المسيَّب، وتبعهم الترك وضربوا عَجُز دابة المسيّب فترجَّل رجال من المسلمين، فيهم البَخْتريّ أبو عبدالله المرائيّ، ومحمد بن قيس الغَنَويّ -ويقال: محمد بن قيس العنبريّ- وزياد الأصبهانيّ، ومعاوية بن الحجاج، وثابت قطنة. فقاتل البَختريّ فقطعت يمينه، فأخذ السيف بشماله فقطعت، فجعل يذبُّ بيديه حتى استشهد. واستشهد أيضًا محمد بن قيس العنبريّ أو الغَنَوي وشبيب بن الحجاج الطائي.

قال: ثم انهزم المشركون، وضرب ثابت قُطْنة عظيمًا من عظمائهم، فقتله، ونادى منادي المسيّب، لا تتبعوهم، فإنهم لا يدرون من الرّعب، اتبعتموهم أم لا! واقصدوا القَصْر، ولا تحملوا شيئًا من المتاع إلا المال ولا تحملوا من يقدر على المشي.

وقال المسيّب: مَنْ حمل امرأة أو صبيًّا أو ضعيفًا حسْبَةً فأجرُه على الله، ومَنْ أبى فله أربعون درهمًا، وإن كان في القصر أحدٌ من أهل عَهْدكم فاحموه. قال: فقصدوا جميعًا القَصْر، فحملوا منْ كان فيه، وانتهى رجلٌ من بني فُقَيم إلى امرأة، فقالت: أغثْني أغاثك الله! فوقف وقال: دونك وعجز الفرس، فوثبت فإذا هي على عجُز الفرس، فإذا هي أفرسُ من رجل، فتناول الفقيمي بيد ابنها، غلامًا صغيرًا، فوضعه بين يديه، وأتَوْا ترك خاقان، فأنزلهم قصره وأتاهم بطعام. وقال: الحقوا بسمرقند، لا يرجعوا في آثاركم. فخرجوا نحو سمرقند، فقال لهم: هل بقي أحد؟ قالوا: هلال الحريريّ، قال: لا أسلمه، فأتاه وبه بضع وثلاثون جراحة، فاحتمله، فبرأ، ثم أصيب يوم الشعب مع الجنيد.

قال: فرجع الترك من الغد، فلم يروا في القصر أحدًا، ورأوا قتلاهم، فقالوا: لم يكن الَّذين جاءوا من الإنس، فقال ثابت قطنة:

فَدَتْ نفسي فوارسَ مِن تميم ... غَداةَ الرَّوع في ضَنْكِ المقامِ
فدت نفسِي فوارسَ أكنفوني ... على الأعداء في رَهَج القتَام
بقَصْرِ الباهليِّ وقد رأوني ... أحامي حيث ضَنَّ به المحامِي
بسيفي بعد حَطْمِ الرُّمحِ قُدْمًا ... أذُودُهُمُ بذي شُطَبٍ جُسَام
أكُرُّ عليهم اليَحْمُومَ كَرًّا ... ككرِّ الشَّرْبِ آنيَةَ المُدامِ

أكُــرُ به لدَى الغــمـرات حــتى تَجلَّتْ لا يَـضـيقُ بهـا مَــقـامِي

فلـوْلا الله ليـس له شَـــــرِيـكٌ وضَـرْبي قَـونَسَ الملكِ الهـمـامِ

إذًا لَســعَـتْ نســاءُ بنـي دِثَارٍ أمـــامَ التـــرك بادية الخِـــدَامِ!

فــمَنْ مِــثْلُ المسـيَّبِ فـي تميمٍ أبي بِشْـرٍ كَـقـادِمِـة الحـمـامِ(١)

ففي هذا الخبـر مثل جليل لما يصنعه الصبـر والثبات وسمـو الأهداف، فهؤلاء الذين لم يتجاوزوا سبعمائة قد انتصروا على جيش كبير يبلغ أضعافهم، وليس كل السبـعمـائة ثبتوا، بـل فرَّ أكثـرهم لضراوة القـتال وهول الصدام، ولم يـثبت مع قائدهم المسيب بن بشـر الرياحي إلا القليل، وبهؤلاء الذين ثبتوا حُسـمت المعركة وتنزَّل نصر الله تعالى.

إن هؤلاء الأبطال الأشـاوس أشبـه شيء بالصخـور الصلبـة التي تتحطم أمـام شموخها وعليـائها أمواج الطوفان الهادر.. إنه طوفان مدمِّر يهـدم البيوت ويقتلع الأشجـار، ويغيـر معالم الأرض، ولـكنه يتفرق ويتـشتت أمـام صلابة الصـخور ورسوخها.

لقد كان المسيب بن بشر رجـلا عظيمًا حينما استصفى أصـحابه ومحصهم فلم يقبل أن يتبعه إلا عُشَّاق الموت وطلاب الآخرة، لأن هؤلاء الأفذاذ هم الذين تتبدل بهم الموازين، وتتقرر بهم مصائر الأمم.

ونزل نصر الله تعالى على هذه الفئة القليلة الثابتة، وأنقذوا من في ذلك القصر من المسلمين المحـصورين، وأصيب الأعـداء بالذهول والحيـرة مما حدث، لأنه مما يشبه خـوارق العادات، وكذَّبوا أعينهم الـتي صوَّرت لهم أولئك الأبطال بأنهم من البشر، وغلَّبوا ما تخيلته عقولهم الحائرة من أن الذين لقوهم كانوا من الجن.

جهاد الجُنَيد بن عبدالرحمن المُرِّي:

روى الإمام الطبري عن شيوخه من خبر غـزو الجُنَيد بن عبدالرحمن المُرِّي أمير خراسـان وبلادِ ما وراء الـنهر: أنه خـرج غازيًا في سنة اثنتي عـشرة ومـائة يريد

(١) تاريخ الطبري ٦/٦٠٨ - ٦١١، وانظر البداية والنهاية ٩/ ٢٣٠.

طخارستان فنزل على نهـر بَلْخ، ووجَّه عُمارة بن حُرَيم إلى طخارسـتان في ثمانية عشر ألفًـا وإبراهيم بن بسَّام الليثي في عشرة آلاف في وجه آخـر، وجاشت الترك فأتـوا سمرقـند وعليهـا سَوْرة بن الحـرِّ أحدُ بني أبان بن دارم، فكتب سـورة إلى الجنيد: إن خاقان جاش بالترك فخرجتُ إليهم فما قدرت أن أمنع حائط سمرقند، فالغوث.

فأمر الجنيـد الناس بالعبور[1] فقام إليه المجَـشَّر بن مزاحم السُّلَمي وابن بسطام الأزدي وابن صبح الخَرَقي فـقالوا: إن الترك ليسـوا كغيرهم لا يَلْقَـونك صفًّا ولا زحفا[2] وقد فرَّقت جندك، فمُسلِم بن عبدالـرحمن النيروز والبختريّ بهراة، ولم يحضرك أهل الطالقان، وعـمارة بن حُرَيم غائب[3] وقال له المجشَّر: إن صاحب خراسـان لا يعبر النهـر في أقل من خمـسين ألفا[4]، فاكـتب إلى عمـارة فليأتك وأمهل ولا تعجل، قال: فكيف بسَـوْرة ومن معه من المسلمين! لو لم أكن إلا في بني مرة[5] أو من طلع معي من الشام لعبرت، وقال:

أليس أحقَّ الناس أن يشـهد الوغى وأن يَقْتل الأبطال ضـخم على ضخم

وقال:

مـــا علَّتي مــا علَّتـي مـا عـلَّتِي إنْ لم أقـــاتلـهم فـــجُـــزُّوا لِمَّـتِي

قال: وعبر فنزل «كِسَّ» وقد بعث الأشهب بن عبيد الحنظلي ليعلم علم القوم، فرجع إليه وقال: قد أتوك فتأهب إلى المسير.

وهنا نقف قليلا لنتأمل هذا المشهد الذي برزت فيه شـجاعة الشجعان في مقابل رأي أهل الرأي، فالمتأمل يرى فى كلام الأمير الجنيد وعزمه وتصميمه على مواجهة جيش التـرك مواقف عـالية في الشـجاعة والشـهامـة والرحمة بإخـوانه المسلمين المحاصرين بسمرقند والعزم الأكيد على حمايتهم وإنقاذهم مهما كلفه ذلك وجيشه من متاعب.

(١) يعني بعبور نهر جيجون الذي يفصل خراسان عن بلاد ما وراء النهر.
(٢) يعني أنهم يقومون بالغارات المفاجئة. (٣) يعني بطخارستان.
(٤) يعني من كان أميرا على خراسان قبل الجنيد لأن الجنيد حديثُ عهد بالولاية.
(٥) يعني أفراد قبيلته.

لكنَّ رأى أهل الرأي له وزنه الكبير في تقدير ذلك الموقف لأن المُجَشَّر السُّلَمي وأصحابه أهل خبرة طويلة بقتال الترك بينما الجنيد حديث عهد بذلك.

ومع كون الجُنيد لم يقبل برأيهم فإنهم قد أطاعوه وعبروا النهر معه ولم يخذلوه مع غلبة ظنهم بأن الترك سيقتطعونه وجيشه وستكون عليه هزيمة ونكبة كبيرة، وهذا موقف يُذكر لهم في طاعة القائد.

قال: وبلغ الترك[1] فغوَّروا الآبار[2] التي في طريق «كِسَّ» وما فيها من الرَّكايا[3]، فقال الجنيد: أيُّ الطريقين إلى «سمرقند» أمثل؟ قالوا: طريق المحترقة، فقال المجَشَّر بن مزاحم السُّلمي: القتل بالسيف أمثل من القتل بالنار، إن طريق المحترقة فيه الشجر والحشيش ولم يُزرع منذ سنين فقد تراكم بعضه على بعض، فإن لقيتَ خاقان أحرق ذلك كله فقتَلَنا بالنار والدخان، ولكن خذ طريق العقبة فهو بيننا وبينهم سواء.

فأخذ الجنيد طريق العقبة.. إلى أن قال: ومضى بالناس حتى دخل الشِّعب وبينه وبين مدينة سمرقند أربعة فراسخ، فصبَّحه خاقان في جمع عظيم، وزحف إليه أهل السُّغد والشاش وفرغانة وطائفة من الترك.

قال: فحمل خاقان على المقدمة وعليها عثمان بن عبدالله بن الشِّخِّير، فرجعوا إلى العسكر والترك تتبعهم، وجاؤوهم من كل وجه.. إلى أن ذكر أن العدو قصد للميمنة وفيها تميم والأزد في موضع واسع فيه مجال للخيل.

قال: وصبر الناس يقاتلون حتى أعَيواْ، فكانت السيوف لا تُحيك ولا تقطع شيئًا، فقطع عبيدهم الخشب يقاتلون به، حتى ملَّ الفريقان، فكانت المعانقة فتحاجزوا.

وذكر أنه استشهد في ذلك اليوم مئات من المسلمين، وذكر أسماء عدد من أبطالهم[4].

---

(١) أي بلغهم عبور المسلمين إليهم النهر.

(٢) أي دفنوها حتى لا يستفيد منها المسلمون.

(٣) أي منابع الماء.

(٤) تاريخ الطبري ٧/ ٧١ - ٧٤.

وهكذا انتهت هذه المعركة الهائلة التي قابل فيـها المسلمون أضعافهم من الكفار بالتحاجز بين الطرفين، وهذا يعني عدم انتصار أيٍّ من الفريقين على الآخر، وهذا مثال على شجاعة المسلمين وثباتهم وصبرهم.

وما جاء في الرواية من قول الراوي «فكانت السيـوف لا تحيك ولا تقطع شيئًا» دليل على الجـهد الكبـير الذي بذله المـسلمون في القـتال، حـيث كلَّت السيـوف ودثرت من كثرة الضرب بها.

إن من أبرز ما خلَّده المسلمـون من عظمة في هذه المعركـة غير المتكافـئة أنه لم يُذكر أن الأعداء أسروا أحدًا من المسلمين ولا أن أحـدًا منهم فرّ من المعركة، وهذا الثبات العظيم هو الذي أذهل الأعداء فقرروا إنهاء المعركة مع ما كانوا يتوقعونه في البـداية من المقـدرة على سـحق المسلمين وإبادتهم، لقـلتهم الـظاهرة أمام كـثـرة أعدائهم.

ونظرًا لأن هذه المعركة تمت في أحد شعاب تلك المنطقة فقد اشتهرت بعد ذلك بيوم الشِّعب.

ومن المواقف التي ينبغي الإشادة بها في هذه المعركـة ما ذكره الإمام الطبري في سياق روايتـه من مواقف بعض الشهداء، ومن ذلك ما ذكـره عن يزيد بن المفضَّل الحُدَّاني أنه حمل يوم الشِّـعب على مائة بعير سويقًا للمسلـمين، فجعل يسأل عن الناس، ولا يسأل عن أحد إلا قيل له: قد قُـتل فتقدم وهو يقول: لا إله إلا الله، فقاتل حتى قتل.

وذكر أنه قال لأمه بعد عودته من الحج: ادْعي الله أن يرزقني الشهادة.

وممن ذكر الطبري محـمد بن عبدالله بن حوذان: قال عنه: فـحمل سبع مرات يَقتل في كـل مرة رجلا. ثم رجع إلى مـوقفـه فهابه من كـان في ناحيـته، فناداه ترجمان للعـدو: يقول لك الملك: لا تُقبِل وتحوَّل إلينا فنرفض صـنمنا الذي نعبده ونعبدك، فقال محمد: أنا أقاتلكم لتـتركوا عبادة الأصنام وتعبدوا الله وحده فقاتل واستشهد(١).

---

(١) تاريخ الطبري ٧/ ٧٤.

وهكذا كـان غَنَاء هذا البطل المجاهد عن كـتيـبة من المقـاتلين لفرط شـجاعـته وإقدامه، فلهـذا كان الأعداء الذين هم بناحيـته يهابون الإقدام على تلـك الناحية وكأنهم يجابهـون- بشخص هذا المجاهد- كتيبة كـاملة، ولقد ناداه الأعداء بذلك العرض الكبيـر لينحاز إليهم حتى يـفقد المسلمون به الرجل القـوي الشجاع الذي حمى ناحيته من الأعداء، ولكنه أجـابهم بما يملؤ قلوبهم حسرة، وذلك حينما بين لهم الهدف العالي الذي يقاتل من أجله المسلمون ولقد ظفر -رحمه الله- بالشهادة التي هي أفضل نهاية.

وممن ذَكَر الـطبري النَّضْـرَ بن راشد العبـدي، وكان دخل على امـرأته والناس يقتتلون فقال لهـا: كيف أنت إذا أُتيتِ بأبي ضمرة[1] في لَبْد[2] مضرَّجا بالدماء؟ فشقَت جيبـها ودعتَ بالَويل، فقالَ: حسبك، لو أعولَتْ عليَّ كلُّ أنثى لعـصيتها شوقًا إلى الحور العين، ورجع فقاتل حتى استشهد رحمه الله[3].

وهكذا رأينا شوق هذا المجاهد الـنبيل إلى الشهادة في سبـيل الله تعالى، حيث لم يثنه عن الإقدام على الجهاد بكاء امرأته الشديد على فقده، ولقد قارن بين متعة الدنيا ونعـيم الآخرة فأبان أنه لـو جُمع له متـاع الدنيا كله لم يعدل مـا أعده الله سبحانه للشهداء من الحور العين، فضلا عما هو أعظم من ذلك من النعيم.

هذا وقد ذكرنا سابقًـا أن المسلمين التقوا بالترك وكان المسلمـون بقيادة الجُنَيد بن عبدالـرحمن المُرِّي، والتُّركُ بقيـادة خاقان، وأن عدد المسلمين كـان أقل من الترك بكثير، ومع ذلك ثبتوا لهم إلى أن تحاجزوا وأوقفوا المعركة.

لكن خاقان عاد بجيشه بعـد ذلك بيوم وفي ذلك يقول الإمام الطبري في سياق روايته: وكـانوا لقوا خاقان يوم الجـمعة، فأرسل الجنيـد إلى عبدالله بن معـمر بن سُمَـير اليشكريِّ أن يقف في الناحـية التي تلي «كِسَّ» ويحبس من مـرَّ به ويحوز الأثقال والرِّجَّـالة، وجاءت الموالي رجالـة ليس فيهم غـير فارس واحـد، والعدو يتبعونهم، فثبت عبدالله بن معمر للعدو فاستشهد في رجال من بكر.

---

(١) يعني نفسه فهذه كنيته. (٢) اللَّبْدُ البساط.

(٣) تاريخ الطبري ٧/ ٧٤ - ٧٥.

قال: فـأصبحـوا يوم السبت[1]، فأقبل خـاقان نصف النهار، فلم ير مـوضعًا للقتـال فيه أيسر من مـوضع بكر بن وائل، وعليهم زياد بن الحارث، فقـصد لهم فقالت بكر لزياد: القـوم قد كثرونا فَخَلِّ عنا نحمل عليـهم قبل أن يحملوا علينا، فـقال لهم: قـد مـارست منذ سبـعين سنة، إنكم إن حـملتم عليـهم فـصعـدتم انهزمـتهم، ولكن دعوهم حـتى يقربوا، ففعـلوا، فلما قربوا منهم حـملوا عليهم فأفرجوا لهم، فسجد الجنيد، وقال خاقـان يومئذ: إن العرب إذا أُحرجوا استقتلوا فخلُّوهم حتى يخرجوا، ولا تعرَّضوا لهم فإنكم لا تقومون لهم.

قال: وخرج جَـوارٍ للجنيد يُوَلْولن، فانتدب رجال من أهل الشـام فقالوا: الله الله يا أهل خراسان: إلى أين: وقال الجنيد: ليلةٌ كليلة الجرَّاح ويوم كيومه[2].

ففي هذا الخبر مواقف منها: أولاً ثبات عبدالله بن معمر اليشكري ومن معه من المسلمين لجيش يفوقهم كثيرا إلى أن استشهد في رجال معه رحمهم الله تعالى.

وثانيًـا: موقف ثبات لـبني بكر بقيـادة زياد بن الحارث حـيث صمـدوا لجيش خاقان، وفي كلام خاقان اعتراف للمسلمين بالشجاعة والإقدام حيث أوصى جيشه بأن لا يصمدوا للمسلمين لأنهم لا يستطيعون ذلك.

وقول الجنيـد «ليلة كليلة الجراح ويـوم كيومـه» يريد بذلك الجرَّاح بن عـبدالله الحكمي فارس أهل الشـام وأمير أرمينيـة وقد انتصر على الروم والتـرك في وقائع عديدة إلى أن أُفرد في قلة من جيـشه فهجم عليه الترك فـقتلوه ومن معه، وذلك في العام نفسه الذي لقي فيه الجنيد خاقان والترك.

جهاد أسد القسري:

توفي الجنيد بن عبـدالرحمن رحمه الله وتولى إمرة خراسـان عاصم بن عبدالله الهلالي، ثم تولاها بعده أسـد بن عبدالله القسري، وقد عَـبَر بجيش المسلمين إلى بلاد ما وراء النهـر ونزل بالخُتَّل، وعلم به خاقان فـأقبل بجنوده وحال بينهـما نهر بلخ فعبر خاقان بعد أن قتل من لم يعبر من المسلمين وأسر بعضهم، وقد كان أسد أرسل الأثقال وهي الدواب والأطعمة ونحوها أمامه ومعها حامية بقيادة إبراهيم بن

---

(١) يعني جيش المسلمين.

(٢) تاريخ الطبري ٧/ ٧٥.

عاصم العُـقيلي الجزري فـعلم بذلك خاقان فـمال عن جيش المـسلمين يريد أخذ الأثقال لأنها لا تكلفه قتالاً كبيرًا.

واستـشار أسد أهل الرأي فوقـع الرأي على المسير نحو الأثـقال لحمايتـها ومن معها، وقد كان أسد أرسل رسـولا إلى إبراهيم بن عاصم يخبره بذلك فوصل إليه وعمل إبراهيم خندقًا للحماية، وقد وصل إليه خاقان بجيشه وكانت بينهم مناوشة انتـصر فيـها المسـلمون، ثم اطَّلع خـاقان على مكان صـالح للهجـوم من خلف المسلمين فهجم عليهم وحاز أثقالهم وانحازوا عنه، ثم انصرف عنهم خاقان حينما رأى جيش المسلمين مقبلا بقيادة أسد القسري(١).

وفي هذا الخبر موقف يذكر لإبراهيم بـن عاصم الجزري ومن معه من المسلمين حيث صدوا هجوم الترك رغم قلة المسلمين.

وموقف يُذكر لأسد بن عـبدالله القسري حيث عزم على المسـير لإنقاذ المسلمين الذين كانوا يـحملون الأثقال فـأغَذَّ السـير حتى وصل إليـهم في الوقت المناسب فأنقذهم الله تعالى به.

المعركة الأخيرة مع خاقان:

يقول الإمـام الطبري: فلما كـان ليلة الأضحى قـيل لأسد(٢): إن خاقان نزل «جَزَّة»، فأمر بالنيـران فَرُفِعَت على المدينة(٣) فجاء الناس من الرسـاتيق إلى مدينة «بَلْخ» فأصبح أسد فصلى وخـطب الناس وقال: إن عدو الله الحارث بن سُرَيج(٤) استجلب طاغيته(٥) ليطفئ نور الله ويبدل دينه والله مُذِلّه إن شاء الله، وإن عدوكم الكلْب أصـاب من إخوانكم من أصـاب، وإن يرد الله نصركم لم يضـركم قلتكم وكثرتهم، فاستنصروا الله، وقال: إنه بلغني أن العبد أقرب ما يكون إلى الله تعالى إذا وضع جبـهتـه لله، وإني نازل وواضع جبـهتي، فـادعوا الله واسجـدوا لربكم

(١) تاريخ الطبري ٧/ ١١٣-١١٨ باختصار، وذلك في سنة تسع عشرة ومائة.

(٢) يعني أسد بن عبدالله القسري أمير خراسان.

(٣) وذلك علامة على نداء أهل القرى المجاورة للتجمع، وكان أسد قد نزل مدينة بلخ فأمر بالتجمع للجهاد.

(٤) هو من العرب المسلمين ولكنه ارتد على عقبه وتمرد على دولة الإسلام وحالف طغاة الكفار ضد المسلمين.

(٥) يعني خاقان.

وأخلصوا له الدعاء، فـفعلوا، ثم رفعوا رؤوسـهم وهم لا يشكُّون في الفتح، ثم نزل عن المنبر، وضحَّى وشاور الناس في المسير، فقال قوم: أنت شاب ولست ممن تخوَّف من غارة، على شـاة ودابة تخاطر بخروجك! قال: والله لأخـرجن، فإما ظفر وإما شهـادة، قال: وقال قوم: بل تخرج إليهم وتستـنصر الله عليهم، فوافق قولهم رأي أسد وما كان عزم عليه من لقائهم.

قـال: ثم خرج فنزل بابًا من أبواب بـلْخ وضُربت له قـبة «فـازتان»(١) وأُلصِق إحداهما بالأخـرى، وصلى بالناس ركعتين طوَّلهما، ثم استـقبل القبلة ونادى في الناس: ادعـوا الله وأطال في الدعـاء، ودعا بالنصـر، وأمَّن الناس على دعـائه، فقال: نُصرتم وربِّ الكعبة ثم انفتل من دعـائه فقال: نصرتم ورب الكعبة إن شاء الله، ثلاث مرات، ثم نادى مناديـه: بَرِئَت ذمة الله من رجل حمل امـرأة ممن كان من الجند.

قال: فنظر فإذا جـارية على بعير، فقال: سلـوا لمن هذه الجارية؟ فذهب بعض الأساورة فـسأل ثم رجع فقـال: لزياد بن الحارث البكري -وزياد جـالس- فقطَّب أسد وقال: لا تنتهون حـتى أسطوَ بالرجل منكم يكرُم عليّ فأضرب ظهره وبطنه، فقال زياد: إنْ كانت لي فهي حرة، لا والله أيها الأمير ما معي امرأة فإن هذا عدو حاسد.

قال: ثم ارتحل وعلـى مقدمـته سالم بن منـصور البجلي في ثلاثمـائة، فلقي ثلاثمائة من الترك طليعـة لخاقان، فأسر قائدهم وسبعة منهم مـعه وهرب بقيتهم، فأتى به أسـدًا، قال: فـبكى التركي، قال: مـا يبكيك؟ قال: لست أبكـي لنفسي ولكني أبكي لهلاك خـاقان قال: كيف؟ قـال: لأنه قد فرق جنوده فيـما بينه وبين مرو.

ثم ذكر التقاء الجيشين.. إلى أن قال: فلما التقوا حمل الحارث(٢) ومن معه من أهل السُّغد والبابية وغيرهم على الميسرة وفيها ربيعة وجُندانَ من أهل الشام فهزمهم فلم يردهم شيء دون رواق أسـد، فـشدَّت عليـهم الميـمنة -وهم الأزد وبنو تميم

(١) يعني خيمتين من خيام الجيش.

(٢) يعني ابن سريج الذي كان مع خاقان.

والجوزجان- فما وصلوا إليهم حتى انهزم الحارث والأتراك، وحمل الناس جميعًا، فقال أسد: اللهم إنهم عصوني فـانصرهم، وذهب الترك في الأرض عباديد[1] لا يلوون على أحد، فـتبعـهم الناس مقدار ثلاثة فـراسخ يقتلون من يقـدرون عليه، حتى انتهوا إلى أغنامهم فاستاقـوا أكثر من خمس وخمسين ومائة ألف شاة ودوابَّ كثيرة.

أما خاقـان فإنه فر هاربا ومعه الحارث بن سـريج يحميه، وكانت نهـاية خاقان على يد أحد قـادته وهو كُورصـول الترقـشي، حيث لعب هو وإياه بالنَّرد فـهدده خاقـان بقطع يده، فتنحَّى كـورصول، وجمـع جمعًـا من أصحابه فـبيَّت خـاقان فقتله[2].

وبعد ففي هذا الخـبر مواقف عالية، فمنهـا عزم أمير خراسان أسـد بن عبدالله القسري على غزو خاقان والترك، وما كان يتحلى به هذا الأمير من الشجاعة وقوة الأمل بالنصر على الأعداء مع ما سبق منهم من الإيقاع بالمسلمين والإضرار بهم.

ومن مواقفه في ذلك ما جاء في خطبتـه الرائعة يوم عيد الأضحى التي اشتملت على الخضوع لله تعالى واللجوء إليه وطلب النصر منه، في حال مؤثِّرة جعلت أفراد الجيـش يرفعـون رؤوسهم من السـجود وهم لا يشكُّون في النصـر، وبهذا الـدعاء الخاشع رفع من معنويتهم وأقدم بهم على أعدائهم وهم واثقون من نصر الله تعالى، ثم ما جاء في دعـائه الطويل بعد ذلك يوم أن التقى الصفَّان، وانصـرافه من الدعاء وهو يبشرهم بالنصر على الأعداء، وكل ذلك يدل على قوة إيمانه وغزارة علمه بالله تعالى حيث ركَّز على أهم عوامل النصر وهو التوكل على الله جل وعلا.

ومن المواقف المذكـورة في هذه المعركـة ثبات أهل الميـمنة من تميم والأزد ومن معهم حتى هزموا الأعداء على الرغم مما حـصل على ميسرة المسلمين من الهزيمة، حيث لم يفتَّ ذلك في أعـضاد بقية الجيش، وهذا من أسـرار عظمة المسلمين في جهادهم حيث لا يؤثر فيهم قتل قـادتهم ولا هزيمة بعضهم لأنهم إنما يقاتلون غالبا طلبًا لإحدى الحسنيين، إما النصر على الأعداء أو الشهادة فى سبيل الله تعالى.

---

(١) أي متفرقين في كل وجه.

(٢) تاريخ الطبري ٧/ ١١٩ - ١٢٥ باختصار.

وهذا الثبات القـوي من الميمنة دفع بقية الجيش إلى الإقـدام على الأعداء حتى سحقوهم وشتتوا جمعهم.

وفي نهاية خاقـان عبر عظيمـة حيث تم قتله على يد أحد قـادته المقربين إليه، ومن هذه العبـر أن الكفار مهمـا بلغ من تناصرهم فإن هدفـهم هو جلب المصالح لأنفسهـم وليس لديهم مبادئ سامـية تحكمهم فإذا كـانت مصالحهم في الاجـتماع اجتمعوا على أعدائهم وإذا تعرضت مصالحهم الذاتية للخطر ضحَّى بعضهم ببعض وتفرقوا.

ومن ذلك سوء الـنتائج التى تتـرتب على اللعب بالنرد ونحوه حـيث ينتج عن ذلك العداوة والبغضـاء التي قد يكون من نتائجها ذهاب مصـالح أمة كما في هذا الخبر.

ومن ذلك أن الأعداء لا تجمعهم مبادئ سامية وإنما يجمعهم شخصية قائد قوي يخضعـون له فإذا ذهب ذلك القائد تفرق أتباعـه وتناحروا فيما بينهم كـما حصل لأتباع خـاقان حـيث لم تقم لهم بعده قـائمة، أمـا المسلمون فإنهم يمـتازون على غيرهم بأن الذي يجـمعهم هو سلطان الدين وليس للقائد في نظرهم وجود كـبير ولا أثر مصيـري فإذا هلك قائدهم فإن خلفـه قادة يقومون بالأمر بعـده ويسيرون على نفس المنهج، ولو فُرض أنهم تفـرقوا بعد موت القائد أثناء المعركـة فإنه تفرّق مؤقت لأن الذي ألَّف بين قلوبهم وجمعهم هو الخضوع للدين والدين لا يموت.

وهذا من الأسباب الأسـاسية في تماسك المسلمين وبقائهم تـلك القرون العديدة يهيمنون على أكثر بلاد العالم.

***

الجهاد فى المشرق
فـــي
عهـد العباسيين

انتقاض أمير طبرستان وجهاده:

قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: في هذه السنة[1] نقض إصبهبذ طبرستان العهد بينه وبين المسلمين، وقتل من كان ببلاده من المسلمين.

وذُكِر أن أبا جعفر[2] لما انتهى إليه خبر الإصبهبذ وما فعل بالمسلمين، وجّه إليه خازم بن خزيمة وروْح بن حاتم ومعهم مرزوق أبو الخصيب مولى أبي جعفر، فأقاموا على حصنه محاصرين له ولمن معه في حصنه، وهم يقاتلونهم حتى طال عليهم المقام، فاحتال أبو الخصيب في ذلك فقال لأصحابه: اضربوني واحلقوا رأسي ولحيتي، ففعلوا ذلك به، ولحق بالإصبهبذ صاحب الحصن فقال له: إني رُكِب مني أمرٌ عظيم، ضُربتُ وحُلق رأسي ولحيتي. وقال له: إنما فعلوا ذلك بي تهمةً منهم لي أن يكون هواي معك، وأخبره أنه معه، وأنه دليل له على عورة عسكرهم. فقبل منه ذلك الإصبهبذ، وجعله في خاصته وألطفه.

وكان باب مدينتهم من حجر يلقي إلقاءً يرفعه الرجال، وتضعه عند فتحه وإغلاقه، وكان قد وكّل به الإصبهبذ ثقات أصحابه، وجعل ذلك نُوبًا بينهم، فقال له أبو الخصيب: ما أراك وثقت بي، ولا قبلت نصيحتى! قال: وكيف ظننت ذلك؟ قال: لتركك الاستعانة بي فيما يعنيك، وتوكيلي فيما لا تثق به إلا بثقاتك، فجعل يستعين به بعد ذلك، فيرى منه ما يحبّ إلى أن وثق به، فجعله فيمن ينوب في فتح باب مدينته وإغلاقه، فتولّى له ذلك حتى أنس به. ثم كتب أبو الخصيب إلى رَوْح بن حاتم وخازم بن خزيمة، وصيّر الكتاب في نُشّابة، ورماها إليهم، وأعلمهم أنه قد ظفر بالحيلة، ووعدهم ليلة سمّاها لهم في فتح الباب.

فلما كان في تلك الليلة فتح لهم، فقتلوا من فيها من المقاتلة، وسبّوا الذراري، وظُفر بالبحترية، وهي أم منصور بن المهدي، وأمّها باكند بنت الإصبهبذ الأصمّ - وليس بالإصبهبذ الملك، ذاك أخو باكند- وظفر بشكْلة أم إبراهيم بن المهديّ، وهي بنت خونادان قَهرمان المصمُغان، فمصّ الإصبهبذ خاتمًا له فيه سم فقتل نفسه[3].

(١) يعني سنة اثنتين وأربعين ومائة.
(٢) يعني أمير المؤمنين أبا جعفر المنصور.
(٣) تاريخ الطبري ٧/ ٥١٢ -٥١٣

هذا الخبر فيـه بيان خدعة حربية عـالية قام بها مرزوق أبو الخصـيب مولى أمير المؤمنين أبي جعفـر المنصور، وقد استطاع أن يقوم بتـلك الخدعة لكونه في الأصل من أهل تلك البلاد، وهذه تضحية كبيرة من أبي الخصيب لما قد يترتب على ذلك الأمر الذي أقدم عليـه من عدم تصديق الأعداء له ووقوعـه في أسرهم، ولكنه قد استعد لاحـتمال أسوأ النتائج في سبيل خـدمة الإسلام والمسلمين، وهذا يدل على إخلاصه وقوة إيمانه.

خروج أستاذسيس ومن تبعه وجهادهم:

قال الإمـام محـمد بن جـرير الطبـري: فمـمّا كـان فيـها[1] من ذلك خروج أستاذسيس في أهل هراة وباذغيس وسجستـان وغيرها من عامة خراسان، وساروا حـتى التـقـوا هم وأهل مَـرْوالروذ، فـخـرج إليـهم الأجـثم المَرْورَّوذيّ في أهل مَرْوالرّوذ، فقاتلوه قتالا شديدًا حـتى قتل الأجثم، وكثر القتل في أهل مَرْوالروذ، وهزم عدة من القواد، منهم معاذ بن مسلم بن مـعاذ وجبرئيل بن يحيى وحماد بن عمرو وأبو النجم السـجستاني وداود بن كراز، فوجه المنصـور وهو بالبردان خازم ابن خزيمة إلى المهدي، فولاه المهدي محاربة أستاذسيس، وضمّ القواد إليه.

وذكر أن القـائد خازم بن خزيمة اخـتلف عليه قادة جـيشه بتـحريض من وزير المهدي معاوية بن عبيد الله، فقدم خازم على المهدي وشكا إليه ذلك فأفرده بالقيادة والتصـرف، قال: فانصـرف خازم إلى عسكره، فـعمل برأيه، وحل لواء من رأى حل لوائه من القواد، وعـقد لواء لمن أراد، وضمّ إليه من كـان انهزم من الجنود، فجعلهم حـشواً يكثر بهم من معه في أخريـات الناس، ولم يقدمهم لما في قلوب المغلوبين من روعة الهزيمة، وكان من ضم إليه من هذه الطبقة اثنين وعشرين ألفا، ثم انتـخب ستة آلاف رجـل من الجند، فضـمهم إلى اثني عـشر ألفـا كانوا مـعه متخـيرين، وكان بكّارُ بن مسلم العقـيلي فيمن انتخب، ثم تعبـأ للقتال وخندق. واستعمل الهيـثم بن شعبة بن ظهير على ميمنتـه، ونهار بن حصين السعديّ على ميسرته، وكان بكار بـن مسلم العقيلي على مقدمته وتُرار خُـدا على ساقته، وكان من أبناء ملوك أعاجم خـراسان، وكان لواؤه مع الزِّبرقان وعلمـه مع مولاه بسَّام،

(١) أي في سنة خمسين ومائة.

فمكر بهم وراوغهم في تنقله من موضع إلى موضع وخندق إلى خندق حتى قطعهم، وكان أكثرهم رجالة، ثم سار خازم إلى موضع فنزله، وخندق عليه، وأدخل خندقه جميع ما أراد، وأدخل فيه جميع أصحابه، وجعل له أربعة أبواب، وجعل على كل باب منها من أصحابه الذين انتخب، وهم أربعة آلاف، وجعل مع بكار صاحب مقدمته ألفين، تكملة الثمانية عشر ألفا. وأقبل الآخرون ومعهم المروز والفؤوس والزُّبُل، يريدون دفْن الخندق ودخوله، فأتوا الخندق من الباب الذي كان عليه بكار بن مسلم، فشدّوا عليه شدة لم يكن لأصحاب بكار نهاية دون أن انهزموا حتى دخلوا عليهم الخندق.

فلما رأى ذلك بكار رمي نفسه، فترجل على باب الخندق ثم نادى أصحابه وقال: من قبَلي يؤتى المسلمون! فترجّل من معه من عشيرته وأهله نحو من خمسين رجلا، فمنعوا بابهم حتى أجلوا القوم عنه، وأقبل إلى الباب الذي كان عليه خازم رجلٌ كان مع أستاذسيس من أهل سجستان، يقال له الحريش، وهو الذي كان يدبر أمرهم، فلما رآه خازم مقبلا بعث إلى الهيثم بن شعبة، وكان في الميمنة: أن اخرج من بابك الذي أنت عليه، فخذ غير الطريق الذي يوصلك إلى الباب الذي عليه بكار، فإن القوم قد شغلوا بالقتال وبالإقبال إلينا، فإذا علوت فجزت مبلغ أبصارهم فأتهم من خلفهم. وقد كانوا في تلك الأيام يتوقعون قدوم أبي عون وعمرو بن سلم بن قتيبة بن طخارستان. وبعث خازم إلى بكار بن مسلم: إذا رأيت رايات الهيثم بن شعبة قد جاءتك من خلفك فكبِّروا وقولوا: قد جاء أهل طخارستان. ففعل ذلك أهل الهيثم، وخرج خازم في القلْب على الحريش السجستاني، فاجتلدوا بالسيوف جلادًا شديدًا، وصبر بعضهم لبعض، فبينما هم على تلك الحال إذ نظروا إلى أعلام الهيثم وأصحابه، فتنادوا فيما بينهم: جاء أهل طخارستان، فلما نظر أصحاب الحريش إلى تلك الأعلام، ونظر من كان بإزاء بكار بن مسلم إليها، شد عليهم أصحاب خازم فكشفوهم، ولقيهم أصحابُ الهيثم، فطعنوهم بالرماح، ورموهم بالنُّشاب، وخرج عليهم نهار بن حصين وأصحابه من ناحية الميسرة، وبكار بن مسلم وأصحابه من ناحيتهم، فهزموهم ووضعوا فيهم السيوف، فقتلهم المسلمون وأكثروا، فكان من قتل منهم

في تلك المعركة نحواً من سبعين ألفًا، وأسروا أربعة عشر ألفا، ولجأ أستاذسيس إلى جبل في عدة من أصحابه يسيرة، فقدّم خازم الأربعة عشر ألف أسير، فضرب أعناقهم، وسار حتى نزل بأستاذسيس في الجبل الذي كان لجأ إليه، ووافى خازمًا بذلك المكان أبو عون وعمرو بن سلم بن قتيبة في أصحابهما، فأنزلهم خازم ناحيةً، وقال: كونوا مكانكم حتى نحتاج إليكم. فحصر خازم أستاذسيس وأصحابه حتى نزلوا على حكم أبي عون، ولم يرضوا إلا بذلك، فرضي بذلك خازم، فأمر أبا عون بإعطائهم أن ينزلوا على حكمه، ففعل، فلما نزلوا على حكم أبي عون حكم فيهم أن يُوثَق أستاذسيس وبنوه وأهل بيته بالحديد، وأن يُعتق الباقون وهم ثلاثون ألفًا، فأنفذ ذلك خازم من حُكم أبي عون، وكسا كلّ رجل منهم ثوبين، وكتب خازم بما فتح الله عليه، وأهلك عدوّه إلى المهديّ، فكتب بذلك المهدي إلى أمير المؤمنين المنصور(١).

فهذا الخبر فيه مواقف منها:

أولا: ما كان من قائد الجيش خازم بن خزيمة حينما أدرك الخلل في تنظيم عسكره فتلافى ذلك قبل مواجهة الأعداء وأصلح ما كان بحاجة إلى إصلاح، وهذا يدل على وعي قيادي، لأن من أهم أسباب النصر طاعة القائد وحسن اختيار الأعوان.

ثانيًا: ما قام به من المكر بالأعداء ومراوغتهم حيث صار ينتقل من موضع إلى موضع فكان ذلك سببًا في تفرق جيش الأعداء، لأن أكثرهم مشاة فحركتهم في التنقل بطيئة.

ثالثًا: ما قام به من إقامة الخندق حول جيش المسلمين، وهذا أمر ضروري فيما إذا كان الجيش في بلاد الأعداء، فمن المحتمل أن يأتوا من كل جهة، فيكون الخندق وسيلة دفاعية حتى يتدبر القائد الخطط الحربية المناسبة.

رابعًا: موقف لبكار بن مسلم العقيلي حينما ثبت لما فر جنوده، فحفظ الباب الذي وكل به هو ومن ساعده من رجال عشيرته، وهذا أثر من آثار حسن اختيار

---

(١) تاريخ الطبري ٨/ ٢٩-٣٢.

القادة، فلو كان مثل جنوده في الهلع والدهشة لفر معهم ولدخل الأعداء من ذلك الباب.

خامسًا: في هذا الخبر خطة حربية بارعة وضـعها قائد الجيش خازم بن خزيمة، حيث خطط لمبـاغتة الأعـداء من خلفهم مع الهجـوم عليهم من الأمام وإيهـامهم بوصول مدد جـديد للمسلمين، فكان ذلك سببًا في هزيمتـهم، وهكذا تظهر نتائج الرأي السديد في الحـرب، حيث يوفـر القائد ذو الرأى الحصـيف والتفكيـر المبدع جهودًا كبيرة على المسلمين في إنهاء الحروب لصالحهم بأقل التضحيات.

سادسًا: موقف قيـادي ناجح من خازم بن خزيمة، حيث قـبل حكم أبي عون بإعتاق جنود الأعداء بعد القبض على قائدهم وأقاربه، لأن في ذلك تأليفًا لأولئك الجنود، وقد أضـاف إلى ذلك موقفًا إنسـانيّا نبيـلا، وذلك بكسوة كل جندي من هؤلاء ثوبين، وإذا علمنا أن عددهـم ثلاثون ألفا يكون قد أنفق عليـهم ستين ألف ثوب، وهذا يقتضي صرف مبلغ كـبير من المال، ولا شك أن لهذا الموقف من أبي عون ثم من خـازم أثرًا على أولئك الجنود، حيث سـيكونون عونًا للمـسلمين في المستقبل، أو على الأقل سيسلكون سبيل السلامة فيأمن المسلمون شرهم.

***

مواقف وعبر
في
جهاد المسلمين ضد الصليبيين

إن من أهم أسباب الحروب الصليبية أن المسلمين امتد نفوذهم حتى استولوا على أكثر بلاد الأناضول، وخشي الروم من سقوط القسطنطينية بأيديهم، خصوصًا بعد معركة مَلاذْكُرد الناجحة الحاسمة حيث حطم السلطان ألب أرسلان قوات الروم التي تصل إلى مائتي ألف بجيش لا يبلغ عشرين ألفًا كما تقدم، فخاف الروم إن هو جمع قواتِه البعيدةَ وانضم إليه مجاهدون من الإمارات الإسلامية الأخرى أَنْ تسقط بلادهم بيد المسلمين، فاستنجدوا بالصليبيين، حيث قَدِموا إلى بلاد الإسلام من الدول الأوروبية.

وقد كان المسلمون آنذاك متفرقين إلى إمارات صغيرة، فانتهز الصليبيون الفرصة واستولوا على مدنٍ وحصونٍ في بلاد الشام وما جاورها.

وفي بيان ما وصل إليه النصارى من النفوذ فى بلاد المسلمين يقول المؤرخ أبو شامة المقدسى(١):

وكان الفرنج قد اتسعت بلادُهم، وكَثُرتْ أجنادُهم، وعَظُمَتْ هيبتُهم، وزادت صولتهم، وامتدَّت إلى بلاد المسلمين أيديهم، وضَعُفَ أهلُها عن كفِّ عاديهم، وتتابعت غزواتهم، وساموا المسلمين سوءَ العذاب، واستطار في البلاد شرر شرِّهم، وامتدَّت مملكتُهم من ناحية ماردِين وشبختان إلى عريش مصر لم يتخلله من ولاية المسلمين غير حلب وحماة وحِمْص ودمشق. وكانت سراياهم تبلغ من ديار بكر إلى آمِد ومن ديار الجزيرة إلى نَصيبين ورأس عين.

أما أهل الرَّقَّة وحَرَّان فقد كانوا معهم في ذُلٍّ وهوان، وانقطعت الطُّرق إلى دمشق إلا على الرَّحْبة والبر. ثم زاد الأمر وعَظُمَ الشر، حتى جعلوا على أهل كل بلد جاورهم خَراجًا وإتاوةً، يأخذونها منهم ليكفّوا أذيَّتهم عنهم. ثم لم يقنعوا بذلك حتى أرسلوا إلى مدينة دمشق، واستعرضوا الرقيق ممن أُخذ من الرُّوم والأرمن وسائر بلاد النَّصْرانية، وخيَّروهم بين المقام عند أربابهم والعود إلى

(١) هو العلامة شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي الدمشقى، توفى عام ٦٦٥هـ.

أوطانهم، فمن اختار المقام تركـوه، ومن آثر العود إلى أهله أخذوه، وناهيك بهذه الحالة ذلة للمسلمين وصغارًا.

وأما أهل حلب فـإن الفرنج أخذوا منها مناصـفة أعمالها حـتى في الرَّحا التي على باب الجِنَان، وبينها وبين المدينة عشرون خطوة.

وأما باقي بلاد الشَّـام فكان حال أهلها أشد من حـال هذين البلدين. فلما نظر الله سبـحانه إلى بلاد المسـلمين ولاها عمـاد الدين زَنْكي، فغـزا الفرنج في عُـقْر ديارهم، وأخذ للموحِّدين منهم بثارهم، واستنقذ منهم حصونًا ومعاقل[1].

* * *

---

(١) كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ١/ ١١٧.

١ - بداية الغزو الصليبي وجهاد بعض أمراء المسلمين

قد ذكر المؤرخ ابن الأثير أن بداية الغزو الصليبي لبلاد الإسلام كانت سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، حيث استولوا على مدينة طليطلة وغيرها من بلاد الأندلس، وأنهم قصدوا سنة أربع وثمانين وأربعمائة جزيرة صقلية واستولوا عليها، وأنهم استولوا على بعض أطراف أفريقية، وأنهم خرجوا إلى بلاد الشام سنة تسعين وأربعمائة فاستولوا على أنطاكية بعد حصار دام تسعة أشهر أبدى فيه واليها باغيسيان شجاعة عظيمة، وفي ذلك يقول ابن الأثير: «وظهر من شجاعة باغيسيان وجودة رأيه وحزمه واحتياطه ما لم يشاهَد من غيره، فهلك أكثر الفرنج موتا، ولو بقوا على كثرتهم التي خرجوا فيها لطبقوا بلاد الإسلام» ولكن أنطاكية سقطت بيد الصليبيين بسبب خيانة أحد المستحفظين للأبراج بعد أن بذل له الأعداء مالا وإقطاعًا ففتح البرج لهم ودخلوا منه واستولوا على المدينة(١).

حال المسلمين آنذاك:

كانت حال المسلمين يوم أن غزا الصليبيون بلادهم سيئة للغاية، فالخلافة في بغداد ضعيفةٌ وليس للخليفة إلا الاسم، والعبيديون يحكمون مصر وهم ليس عندهم أي حماس للدفاع عن الإسلام، والشام يحكمه عدد من الأمراء الضعفاء، والحرب قائمة بينهم، وحينما اجتمع بعضهم تحت قيادة كربوقا في عامٍ واحدٍ وتسعين وأربعمائة اتفق الأمراء على الانهزام أمام الصليبيين ليوقعوا كربوقا الذي تكبَّر عليهم، وكان الصليبيون في أنطاكية في حال شديدة من الضعف والجوع والخوف حيث طلبوا الأمان في مقابل أن يخرجوا من البلد، ولكن كربوقا رفض ذلك، فلما كانت المعركة انهزم الأمراء من غير قتال حتى ظن الصليبيون أنها خدعة، فلما تبين لهم أنهم جادُّون في الهزيمة شدوا على من بقي من المسلمين وقتلوا منهم ألوفا وتقووا بالغنائم، وواصلوا زحفهم نحو بيت المقدس(٢).

---

(١) الكامل في التاريخ ٨/ ١٨٥ - ١٨٦.

(٢) الكامل في التاريخ ٨/ ١٨٦ - ١٨٧.

وهكذا خان هؤلاء الأمراء النفعيون دينهم وأمتهم، فخذلوا قائدهم ومن معه من المسلمين، وكان انسحابهم من المعركة نصرًا كبيرًا قدموه للصليبيين، وكان ذلك بداية دخول الصليبيين فى بلاد الشام واستيلائهم على بيت المقدس.

ولقد تكررت هذه المأساة في تاريخ المسلمين حينما يتولى عليهم أمراء لايهمهم أمر الإسلام ولا المسلمين، وإنما الذي يهمهم بقاؤهم فى السلطة وإن خانوا دينهم وخذلوا أمتهم.

سقوط بيت المقدس بيد الصليبيين:

لما سقطت أنطاكية بيد الصليبيين وانتصروا على الأمراء الأتراك انتهز العبيديون في مصر تلك الفرصة وساروا إلى بيت المقدس وكان واليه سقمان بن أرتق التركماني، فحاصروه ونصبوا عليه نيفا وأربعين منجنيقًا إلى أن استولوا عليه وأنابوا في حكمه رجلاً يعرف بافتخار الدولة، فقصده الصليبيون وحاصروه نيفا وأربعين يومًا إلى أن استولوا عليه يوم الجمعة لسبع بقين من شوال عام اثنين وتسعين وأربعمائة فلبثوا فيه أسبوعًا يقتلون المسلمين، وقتلوا بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفًا منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف(١).

ولقد عبَّر عن هذه المأساة الشاعرُ أبو المظفر الأبيوَرْدي بقوله:

مزجْنا دِمانا بالدّموع السّواجم ... فلم يبقَ منا عرضةً للمَراجم(٢)

وشرُّ سلاح المرء دمعٌ يريقه ... إذا الحرب شبّتْ نارُها بالصوارم

فإيهًا بني الإسلام إن وراءكم ... وقائعُ يُلحقنَ الذرى بالمناسم(٣)

وكيف تنامُ العينُ ملءَ جفونها ... على هفواتٍ أيقظتْ كلَّ نائم

وإخوانكم بالشام يُضحي مقيلهم ... ظهورَ المذاكي أو بطونَ القشاعم(٤)

تسومهمُ الرومُ الهوانَ وأنتمُ ... تَجُرُّونَ ذيلَ الخفْضِ فعلَ المسالم

---

(١) الكامل في التاريخ ٨/ ١٨٩.

(٢) السواجم: المذروفة والمراجم: من الرجم وهو الرمي بالأحجار.

(٣) المناسم: جمع منسم وهو خفّ البعير. (٤) المذاكي: الجياد، والقشاعم: النسور.

ومنها قوله:

وبين اختلاس الطعنِ والضرب وقفةٌ تَظَلُّ لها الولدانُ شيبَ القوادم

وتلكَ حروبٌ من يغبْ عن غمارها ليَسْلَمَ يقرعْ بعدها سنَّ نادم

سَلَلْنَ بأيدي المشركينَ قواضبًا ستُغْمدُ منهم في الكلَى والجماجم(١)

يكادُ لهنَّ المستجيرُ بطيبةٍ ينادي بأعلا الصوت يا آل هاشمِ

أرى أمَّتي لا يُشرعون إلى العدا رماحَهمُ والدينُ واهي الدعائم

ويجتنبون النارَ خوفًا من الرّدى ولا يحسبونَ العارَ ضربةَ لازم

أيرضَى صناديدُ الأعاريب بالأذى ويُغضي على ذُلٍّ كماةُ الأعاجم(٢)

فلَيْتَهُموا إذ لم يذودوا حميةً عن الدين ضنُّوا غيرةً بالمحارم

وإن زهدوا في الأجر إذ حمسَ الوغى فهلا أتوهُ رغبةً في المغانم(٣)

وهكذا يظهر لنا الضرر الفادح من بُعْد المسلمين عن الحياة الجهادية، وضعفِ الوعي الإسلامى، فهؤلاء العلماء والعباد والزهاد الذين فضلوا الرباط في المسجد الأقصى وحولَهُ لم يفهموا شمول العبادة في الإسلام، حيث فهموا أن العبادة هي المبالغة في أداء الشعائر التعبدية والاشتغال بالعلم القاصر، ولم يهتموا بالاستعداد للجهاد والمشاركة فيه وإعداد العدة التي أمرهم الله تعالى بها في قوله ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ**﴾ [الأنفال: ٦٠]، فداهمهم الأعداء الحاقدون وذبحوهم كما تذبح الشياه.

إن هؤلاء السبعين ألفًا الذين قتلهم الصليبيون في المسجد الأقصى لو كانوا قد تدربوا على الجهاد، وأصبح كل واحد منهم يملك السلاح لاستطاعوا وحدهم أن يهزموا الصليبيين - بإذن الله تعالى - لأنهم يملكون القوة الروحية بتوكلهم على

(١) القواضب: القواطع من السيوف.
(٢) الكماة: الأبطال.
(٣) البداية والنهاية ١٢/١٦٧.

الله جل وعلا واستمدادهم النصر منه، فإذا اجتمع مع هذا العامل المعنوي المهم العاملُ المادي، من التدرب على القتال وحمل السلاح فإن أصحاب ذلك لا يُغلبون بإذن الله جل وعلا.

جهاد سقمان وجكرمش ضد الصليبيين:

ذكر المؤرخ ابن الأثير في حوادث عام سبعة وتسعين وأربعمائة أنه لما استطال الفرنج - خذلهم الله - بما ملكوه من بلاد الإسلام، واتفق لهم اشتغال عساكر الإسلام وأمرائه بقتال بعضهم بعضا وتفرقت كلمة المسلمين زحف الصليبيون نحو حران ليأخذوها، وكان بين الأمير معين الدولة سقمان الأرتقي وشمس الدولة جكرمش نزاع، وكان كل واحد منهما يُعِد العدة لقتال الآخر، فلما علما بتحرك الصليبيين شرقًا أرسل كل واحد منهما إلى صاحبه يدعوه إلى الاجتماع معه لقتال الصليبيين وتلافي أمرّ حران ويُعْلمه بأنه قد بذل نفسه لله تعالى، فكل واحد منهما أجاب صاحبه إلى ما طلب منه، وسارا فاجتمعا على الخابور وتحالفا، وسارا إلى لقاء الصليبيين، وكان مع سقمان سبعة آلاف فارس من التركمان، ومع جكرمش ثلاثة آلاف فارس من الترك والعرب والأكراد، فالتقوا على نهر البليخ وكان المصافٌّ بينهم هناك، فاقتتلوا فأظهر المسلمون الانهزام فتبعهم الصليبيون نحو فرسخين، فعاد عليهم المسلمون فقتلوهم كيف شاؤوا، وامتلأت أيدي التركمان من الغنائم، ووصلوا إلى الأموال العظيمة لأن مؤن الأعداء كانت قريبة منهم.

وكان بيمند صاحب أنطاكية، وطنكري صاحب الساحل قد انفردا وراء جبل ليأتيا المسلمين من وراء ظهورهم إذا اشتدت الحرب، فلما خرجا رأيا الصليبيين منهزمين فأقاما إلى الليل وهربا بجنودهما، فتبعهم المسلمون وقتلوا من أصحابهما كثيراً وأسروا كذلك، وأفلتا في ستة فرسان.

وكان بردويل صاحب الرها قد انهزم مع جماعة من رؤسائهم، وخاضوا نهر البليخ فوصلت خيولهم، فجاء تركماني من أصحاب سقمان فأخذهم وحمل بردويل إلى مخيم صاحبه، وكان سقمان قد سار فيمن معه لاتباع بيمند.

وسار سقمان إلى حصون الفرنج فاستولى على عدد منها، أما جكرمش فقد سار إلى حران فاستولى عليها.

وبلغ عدد القتلي من الصليبيين ما يقارب اثني عشر ألف قتيل[1].

وهكذا انتصر المسلمون على الصليبيين انتصاراً كبيرًا لما اجتمع أميران منهم وصدقا في جهادهما، ولقد كان موقفًا عاليًا يُذكر لهذين الأميرين سقمان وجكرمش حينما تناسيا ما كان بينهما من خلاف وتوجها معًا للخطر المشترك عليهما، ولو أن أمراء المسلمين آنذاك فعلوا فعلهما لم يبق في أرض المسلمين أحد من الأعداء، ولا ستطاعوا أن يُخضعوا أمم الأرض لحكم الإسلام، وإنما يُؤتَى المسلمون من الشقاق والتناحر فيما بينهم.

جهاد طغتكين ضد الصليبيين:

ذكر المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة تسع وتسعين وأربعمائة أنه في شهر صفر جرت معركة بين أمير دمشق طغتكين والصليبيين بقيادة بغدوين أميرِ القدس وعكا وغيرهما، وذلك بعد معارك جرت بينهما، ثم إن بغدوين بنى حصنًا بينه وبين دمشق نحو يومين فخاف طغتكين من شرور ذلك، فسار إلى الصليبيين والتقوا واقتتلوا أشد قتال، فانهزم أميران من عسكر دمشق فتبعهما طغتكين وقتلهما، وانهزم الصليبيون إلى حصنهم فاحتموا به، فقال طغتكين: من أحسن قتالهم وطلب مني أمرًا فعلته له، ومن أتاني بحجر من حجارة الحصن أعطيته خمسة دنانير، فبذل الرجَّالة نفوسهم وصعدوا إلى الحصن وخربوه، وحملوا حجارته إلى طغتكين فوفى لهم بما وعدهم، وأمر بإلقاء الحجارة في الوادى، وأسروا من بالحصن، فأمر بهم فقُتلوا كلهم، واستبقى الفرسان أسراء، وكانوا مائتي فارس، ولم ينج ممن كان في الحصن إلا القليل[2].

هذا وإننا لنجد في هذا الخبر صُورًا من الحزم الذي اتصف به الأمير طغتكين، وذلك في الاهتمام بجهاد الصليبيين لإزالة ذلك الحصن الذي اتخذوه وقاية لهم ليحتموا به إذا أغاروا على دمشق فقام بجهاد ذلك الأمير الصليبي حتى هزمه، وهدم ذلك الحصن ثم فيما أقدم عليه من قتل ذينك الأميرين الذين خانا الأمانة

(١) الكامل في التاريخ ٨/ ٢٢١ - ٢٢٢.

(٢) الكامل في التاريخ ٨/ ٢٣٠.

وفرًّا إلى دمــشق، وهذه الصورة قل أن يوجد لها نظيــر فى تاريخ الحروب، وهي تعطي دروسًا قوية بليغة للقادة والجنود حــتى لا يفروا يوم الزحف فيحدثوا الفشل والخلل فى صفوف الجيش.

وأخيرًا في الطريقة التي سلكها ذلك الأمير في هدم ذلك الحصن، حيث إنه لم يكن فيما يظهــر عنده شيء من آلات الرمي الثقيلة كالمجانيق، فوجه أفــراد جيشه بالإغراء المذكور ليقوموا بهدم ذلك الحصن، فأنجزوا تلك المهمة بكثرة العدد وتظافر الجهود، وهذا يدل أيضًا على حزم هذا الأمير وعلو تفكيره الحربي.

* * *

٢- جهاد عماد الدين زنكي ضد الصليبيين

هو عماد الدين زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر بن عبد الله آل ترغان، من قبائل «الساب يو» التركمانية، وقد كان أبوه مقدمًا عند ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي، ولما تولى مُلْكَ السلاجقة بركيا روق بن ملكشاه عيَّن آق سنقر على إمارة حلب وكان حازمًا عادلاً، وبعد أن قُتل آق سنقر انتقل ابنه عماد الدين إلى الموصل في رعاية حاكمها القائد السلجوقي كربوقا الذي كان صديقًا لوالده، وكان عماد الدين في العاشرة من عمره، ومازال بعد أن بلغ سن الشباب موضع الثقة عند حكام السلاجقة لِمَا رأوا فيه من النبل والشجاعة، واشترك مع الأمير مودود ابن التونتكين في حروبه مع الصليبيين.

وقد أظهر السلطان عماد الدين زنكي شجاعة فائقة، من ذلك ما ذكره أبو شامة في حصار طبرية قال: وظهر من أتابك زنكي شجاعة لم يسمع بمثلها، منها أنه كان في نفر وقد خرج الفرنج من البلد، فحمل عليهم هو ومن معه وهو يظن أنهم يتبعونه، فتخلفوا عنه وتقدم وحده، وقد انهزم من بظاهر البلد من الفرنج فدخلوا البلد، ووصل رمحه إلى الباب فأثر فيه وقاتلهم عليه وبقي ينتظر وصول من كان معه، فحيث لم ير أحدًا حمى نفسه وعاد سالما، فعجب الناس من إقدامه أوَّلاً وسلامته آخرًا[١].

مواجهة ضد الصليبيين وفتح بارين:

قال المؤرخ أبو شامة: ثم سار أتابك الشهيد في هذه السنة، وهي سنة أربع وثلاثين [وخمسمائة]، إلى بلاد الفرنج، فأغار عليها، واجتمع ملوك الفرنج وساروا إليه، فلقيهم بالقرب من حصن بارِين، وهو للفرنج، فصبر الفريقان صبرًا لم يُسمع بمثله إلا ما يُحكى عن ليلة الهرير[٢]، ونصر اللهُ المسلمين، وهرب ملوكُ الفرنج وفُرسانهم، فدخلوا حصن بارِين، وفيهم ملك القُدْس؛ لأنه كان أقرب حصونهم، وأسلموا عدَّتهم وعتادهم، وكثر فيهم الجراح. ثم سار الشهيد إلى

(١) كتاب الروضتين ١/ ١٠٥.

(٢) هي إحدى ليالي معركة القادسية.

حصن بارِين، فحصره حصرًا شـديدًا، فراسلوه في طلب الأمان لِيَسْلَموا ويُسَلِّموا الحصن، فأبى إلا أخـذَهم قهرًا، فبلغه أنّ مَنْ بالسَّاحل من الفـرنج قد ساروا إلى الرُّوم والفرنج يستنجـدونهم، ويُنْهُون إليهم ما فيـه ملوكهم من الحصر؛ فجـمعوا وحشدوا وأقبلوا إلى الساحل، ومَنْ بالحصن لا يعلمون شيئًا من ذلك لقوَّة الحصر عليهم. فـأعادوا مـراسلته في طلب الأمان، فـأجابهم وتسلّم الحـصن، وساروا، فلقيـتهم أمـداد النصارى، فـسألوهم عن حـالهم، فأخـبروهم بتسلـيم الحصن، فلامـوهم وقالوا: عـجزتم عن حـفظه يومًـا أو يومين! فحلفـوا لهم أنّا لم نعلم بوصولكم، ولم يبلغنا عنكم خبر منذ حُصرنا وإلى الآن، فلما عميت الأخبار عنا ظننا أنكم قد أهملتم أمرنا، فَحَقَنّا دماءنا بتسليم الحصن.

قال ابن الأثيـر: وكان حصـن بارِين من أضرِّ بلاد الفرنج على المـسلمين، فإن أهله كانوا قد أخـربوا ما بين حماة وحلب من البلاد ونهـبوها، وتقطَّعت السُّبُل، فأزال الله تعـالى بالشهـيد رحمـه الله هذا الضرر العظيم. وفي مُـدَّة مقـامه على حصن بارِين سـيّر جنده إلى المعرة وكفـرطاب وتلك الولاية جميـعها، فاسـتولى عليها وملكها، وهي بلاد كثيرة وقرايا عظيمة.

قلت: وقد قال القَيْسَراني يذكر هزيمةَ الفرنج ويمدح زَنْكي قصيدةً أولها:

حَـــذار مِنَّـا، وأنّى ينـفعُ الحــــذر ... وَهْيَ الصَّـــوارم لا تُبـــقي ولا تَذَرُ

وأين تنجـــو ملوكُ الشِّـــرْك من ملكٍ ... مِنْ خَـيْلِهِ النَّصْرُ، لا بل جُنْدُه القَـدَرُ

سلُّوا سـيوفًـا كأغـماد السُّيوفِ بهـا ... صالوا فـما غَمَدُوا نَصْلاً ولا شَهَروا

حـتى إذا مـا عـمـادُ الدِّين أَرْهقَـهُمْ ... في مـأزق مِـنْ سَنَاه يَبْـرُقُ البَـصَـرُ

وَلَّوْا تضـيـقُ بهم ذَرْعًـا مـسـالكُهم ... والموتُ لا مـلجـــأٌ مـنه ولا وَزَرُ

وفي المســافـة من دون النَّجــاة بهم ... طُولٌ وإنْ كـان في أقطارها قِـصَـرُ

وأصـــبحَ الدِّين لا عـــينًـا ولا أثرًا ... يخـــافُ والكُفْـرُ لا عينٌ ولا أَثَرُ[1]

---

(١) كتاب الروضتين ١/ ١٣٠ - ١٣١.

مواجهة بينه وبين الصليبيين والروم:

قال أبو شامة: لما كان في سنة اثنتين وثلاثين [وخمسمائة] خرج ملك الرُّوم[1] من القُسْطَنْطينية ومعه خَلْقٌ عظيم لا يحصون كثرةً من الروم والفرنج وغيرهم من أنواع النصارى، فقصد الشَّام، فخافه النَّاس خوفًا عظيمًا.

وكان زَنْكي مشغولاً بما تقدَّم ذِكْرُه لا يمكنه مفارقة المَوْصل، فقصد ملك الروم مدينة بزاعة وحصرها - وهي على مرحلة من حلب - وفتحها عَنْوَةً، وقتل المقاتلة وسبى الذرية في شعبان. ثم سار عنها إلى شَيْزَر - وهي حصن منيع على مرحلة من [مدينة] حماة - فحصرها منتصف شعبان، ونصب عليها ثمانية عشر منجنيقًا. وأرسل صاحبها أبو العساكر سُلْطان بن على بن مقلَّد بن نصر بن مُنقذ، إلى زَنْكي يستنجده، فنزل على حماة، فكان يركب كل يوم في عساكره، ويسير إلى شَيْزَر بحيث يراه ملك الروم، ويرسل السَّرايا يتخطَّف من يخرج من عساكرهم للميرة والنَّهْب، ثم يعود آخر النهار. وكان الروم والإفرنج قد نزلوا على شرقي شَيْزَر، فأرسل إليهم زَنْكي يقول لهم: إنكم قد تحصنتم بهذه الجبال، فاخرجوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقي، فإن ظفرتم أخذتم شَيْزَر وغيرها، وإن ظفرت بكم أرحت المسلمين من شَرِّكم. ولم يكن له بهم قوة لكثرتهم، وإنما كان يفعل هذا ترهيبًا لهم. فأشار الفرنج على ملك الرُّوم بلقائه وقتاله، وهوَّنوا أمره، فقال لهم الملك: أتظنون أن معه من العساكر ما ترون وله البلاد الكثيرة! وإنما هو يريكم قلة من معه لتطمعوا وتصحروا له، فحينئذٍ ترون من كثرة عسكره ما يعجزكم.

وكان أتابك زَنْكي مع هذا يُراسل فرنج الشَّام، ويحذِّرهم ملك الرُّوم، ويعلمهم أنه إن ملك بالشام حصنًا واحدًا أخذ البلاد التي بأيديهم منهم. وكان يراسل ملكَ الروم يتهدَّده ويوهمه أن الفرنج معه. فاستشعر كلٌّ واحد من الفرنج والروم من صاحبه، فرحل ملكُ الروم عنها في رمضان، وكان مقامه عليها أربعة وعشرين يومًا، ترك المجانيق وآلات الحصار بحالها، فسار زَنْكي خلفهم فظفر بطائفة منهم

(١) قال المعلق: هو يوحنا كومنين، تولى ما بين (٥١٢هـ - ٥٣٨هـ). انظر «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيمان ٢/ ٣٣٢ وما بعدها.

في ساقة العسكر، فغنم منهم وقتل وأسر، وأخذ جميع ما خلَّفوه ورفعه إلى قلعة حلب ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ [الأحزاب: ٢٥][(١)].

وهكذا نجح عماد الدين في خداعهم وإرهابهم، حيث ظنوا أن معه جيشًا كبيرًا وأن الذين يغيرون عليهم كل يوم إنما هم سرية من سرايا عماد الدين.

هذا إضافة إلى استعماله المكائد للتفريق بين أولئك الحلفاء، حيث حذر صليبيي الشام من استيلاء إمبراطور الروم على بلادهم، كما أوهم هذا الإمبراطور بأن نصارى الشام قد تحالفوا معه، فلذلك كلِّه قرر ملك الروم الانسحاب، وفكَّ الحصار عن شيزر في التاسع من رمضان عام اثنين وثلاثين وخمسمائة، واستولى عماد الدين على آلاتهم الحربية الثقيلة، كما أرسل بعض قواته لملاحقتهم فقتلوا وأسروا عددًا كبيرًا منهم.

فتح مدينة الرها:

أما أهم عمل قام به عماد الدين زنكي في جهاد الصليبيين فهو فتح مدينة «الرها» وذلك في السادس من جمادى الآخرة من عام تسعة وثلاثين وخمسمائة، وهي من أكبر مدن الجزيرة، وفيها إمارة للنصارى قوية، ويتبعها عدد من قرى الجزيرة، وهي تحت إمرة «جوسلين» أقوى الصليبيين آنذاك وأشدِّهم دهاءً ومكرًا، وقد كان بلاؤه على المسلمين من حوله عظيمًا.

وقد كان عماد الدين يعلم أنه إذا قصد حصارها اجتمع فيها من الفرنج من يمنعها فيتعذر عليه فتحها لما هي عليه من الحصانة، فأظهر أنه سائر إلى ديار بكر ليوهم الفرنج أنه لا يريد بلادهم، فلما علم بذلك جوسلين اطمأن وفارق الرها إلى بلاد الشام، فجاءت عيون عماد الدين فأخبروه الخبر، فنادى بالعسكر بالرحيل، وجمع الأمراء، وقدَّم لهم الطعام، وقال: لا يأكلْ معي على مائدتي هذه إلا من يطعن غدًا معي بباب الرها، فلم يتقدم إليه غير أمير واحد لِمَا يعلمون من إقدامه وشجاعته، و أن أحدًا لا يقدر على مساواته في الحرب. وسار والعساكر

---

(١) كتاب الروضتين ١/ ١٢٢ - ١٢٣.

معه ووصل إلى الرها، وكان هو أولَ من حمل على الفرنج، وحمل فارس من خيالة الفرنج على عماد الدين فاعترضه ذلك الأمير الذي سار معه فطعنه فقتله.

وقاتل أهل البلد ثمانيةً وعشرين يومًا، وقدَّم النقَّابين، فنقبوا سور البلد، حتى أسقطوا جزءًا منه، فاستولى على البلد عنوة وحاصر قلعته حتى ملكها، وجعل في البلد عسكرًا يحفظه، ثم أغار على القرى التي تحت سلطان الصليبيين فاستولى عليها، وبسقوط الرها زالت دولة الصليبيين في الجزيرة.

وبهذا الفتح علت سمعة عماد الدين زنكي عند المسلمين، وأضفى عليه الخليفة ألقابًا عالية، وخاف منه الصليبيون والروم، وكان من أثر ذلك أن اتفقوا وقاموا بحملتهم الثانية التي تصدى لها ابنه نور الدين محمود بعد استشهاد أبيه رحمه الله(١).

قل أبو شامة: وهنأه القَيْسَراني(٢) عند فتح الرُّها بقصيدة أولها:

هو السَّيْفُ لا يُغْنيك إلا جِلادُهُ ... وهل طوَّق الأَمْلاكَ إلا نِجادُهُ
وعن ثَغْر هذا النَّصْرِ فلتأخذِ الظُّبى ... سناها وإن فاتَ العيونَ اتقادُه
سمت قُبَّة الإسلام فخرًا بطَوْله ... ولم يكُ يسمو الدِّينُ لولا عِمادُهُ
وذاد قسيمُ الدَّولة ابنُ قسيمها(٣) ... عن الله ما لا يُسْتَطَاعُ ذيادُهُ
لِيَهْنِ بني الإيمان أمنٌ ترفَّعَتْ ... رواسيه عِزًّا واطمأنَّ مِهادُهُ
وفتحٌ حديثٌ في السماع حَديْثُه ... شهيٌّ إلى يوم المَعَادِ مُعادُه
أراحَ قلوبًا طِرْنَ من وُكُناتِها ... عليها فوافى كلَّ صدر فؤادُهُ
لقد كان في فتح الرُّهاء دلالةٌ ... على غير ما عند العُلُوج اعتقادُهُ
يُرَجُّون ميلاد ابن مريمَ نُصرةً ... ولم يُغْنِ عند القوم عنهم ولادُه
مدينةُ إفْكٍ منذ خمسين حِجَّةً ... يفلُّ حديدَ الهند عنها حدادُهُ

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٨/٩ - ٩، كتاب الروضتين ١٣٨/١ - ١٤٢.

(٢) هو محمد بن نصر بن صغير القيسراني أحد الشعراء المتميزين.

(٣) قسيم الدولة هو لقب والد عماد الدين زنكي وقد لقبه الشاعر بلقب أبيه.

تفـوتُ مـدى الأبصار حـتى لوَ أنَّهـا ترقَّتْ إلـيـه خـانَ طَرْفًـا سـوادُهَ

وجـامـحـةٌ عَـزَّ المـلوكَ قِـيـادُها إلى أَنْ ثنـاها مَنْ يعِـزُّ قِـيَـادُهُ

فـأوسـعَـهـا حـرَّ القِـرَاعِ مُـؤَيَّدٌ بصـيـرٌ بتـمـريـن الألدِّ لِدَادُهُ

كـأَنَّ سنـا لُمعِ الأسنَّـةِ حَـولَه شَـرَارٌ ولكـنْ في يـديه زِنـادُهُ

فـأَضْـرَمهـا نارين: حَـرْبًا وخَـدْعـةً فـمـا راعَ إلاَّ سـورُها وانْـهـدادُهُ(١)

من مواقفه الإدارية والسياسية:

ذكر المؤرخ أبو شامة أن عماد الدين زنكي كان يتعهد أصحابه ويمتحنهم ليعرف كفايتهم فى المجالات الحربيـة والإدارية، وذكر من ذلك أنه سلَّم يومًا أحدهم نوعًا من الطعام وقال له: احـفظ هذه، فبقي ذلك الطعام معه سنة لا يفـارقه خوفًا من أن يطلبه منه، فلمـا كان بعد ذلك سأله عن الطعـام فأخرجه من منديل كـان معه وقدمـه له، فاستحـسن ذلك منه وقال: مثلك ينبـغي له أن يكون مستـحفظًا على حصن، فولاه على قلعة كُواشَى، فبقي بها إلى أن قتل عماد الدين.

ثم قال المؤرخ أبو شامـة: وكان لا يُمكِّن أحدًا مِنْ خَدَمه من مفـارقة بلاده وكان يقول: إن البلاد كـبستان عليه سيـاج، فمن هو خارج السِّيَاج يهـابُ الدُّخول، فإذا خرج منها من يدلُّ على عورتها ويُطمع العدو فيها زالت الهيبة وتطرَّق الخصوم إليها.

قال: ومن صائب رأيه وجيـده أن سيَّر طائفةً من التركمـان الإيوانية مع الأمير اليارُق إلى الشَّام، وأسكنهم بولاية حلب، وأمرهم بجهاد الفرنج، ومَلَّكَهم كلَّ ما استنقذوه من البلاد التي للفرنج، وجـعله ملكًا لهم، فكانوا يُغادون الفرنج بالقتال ويُرَاوحونهم، وأخذوا كثيرًا من السَّـواد وسدُّوا ذلك الثغر العظيم. ولم يزل جميع ما فتحوه في أيديهم إلى نحو سنة ست مئة.

قال: ومن آرائه أنه لما اجتمع له الأموال الكثيرة أَوْدَعَ بعضَها بالمَوْصل، وبعضها بسِنْجار، وبعضها بحلب، وقـال: إن جرى على بعض هذه الجهات خرق أو حيل بينى وبينه استعنت على سد الخرق بالمال فى غيره(٢).

---

(١) كتاب الروضتين ١/١٤١ - ١٤٢.

(٢) كتاب الروضتين ١/١٥٩.

قال: وكان الشهيد قليل التلوُّن والتنـقُّل، بطيء الملل والتغير، شديد العزم، لم يتغيّر على أحدٍ من أصحابه مُذْ مَلَكَ إلى أن قُتل إلاّ بذنب يُوجب التَغيُّر، والأُمراء والمقدَّمون الذين كـانوا معه أَولاً هُم الذين بقوا أخـيرًا، مَنْ سَلِمَ منهم من الموت؛ فلهذا كانوا ينصحونه ويبذلون نفـوسهم له. وكان الإنسان إذا قدم عسكره لم يكن غريبًا: إن كان جنديًا اشتمل عليه الأجنادُ وأضافوه، وإن كان صاحب ديوان قصد أهل الديوان، وإن كان عالمًا قصد القضاة بني الشَّهْرُزُوري، فيُحسنون إليه ويؤنسون غُربته فـيعود كأنه آهل. وسبب ذلك جـميعه أنه كان يـخطب الرّجال ذوي الهمم العليَّـة، والآراء الصائبة، والأنـفس الأبية، ويوسِّع عليـهم في الأرزاق، فيـسهل عليهم فعل الجميل واصطناع المعروف[1].

موقف للقاضى كمال الدين ابن الشهرزوري:

قـال ابن الأثير: ولما وصل الرُّوم والفـرنج إلى الشَّام، ورأوا الأمـر قد فـات، أرادوا جَبْرَ مُصيبتهم بمنازلة بعض بلادِ المسلمين، فنازلوا حلب وحَصَرُوها، فلم يَرَ الشّهيد أن يخاطر بالمسلمين ويلقاهم، لأنهم كانوا في جمع عظيم. فانحاز عنهم، ونزل قريبًا منهم، يمنع عنهم الميـرة، ويحفظُ أطرافَ البلاد من انتشار العـدو فيها، والإغارة عليها. وأرسل القاضي كمـال الدين بن الشهرزوري إلى السُّلطان مسعود ينهى إليه حال البلاد وكثرة العدوّ، ويطلب منه النّـجدة وإرسال العساكر. فقال له كمال الدين: أخاف أن تخرجَ البـلادُ من أيدينا، ويجعل السلطانُ هذا حُجَّة ويُنفّذ العساكر، فـإذا توسّطوا البلادَ ملكوها. فقال الشّهيـد: إن هذا العدوَّ قد طمع في البلاد، وإنْ أخَذَ حلب لم يبقَ بالشَّام إسلام، وعـلى كل حال فالمسلمون أَوْلى بها من الكُفَّار. قال: فلمَّا وصلتُ إلى بغـداد وأديت الرسالة، وعدني السلطان بإنفاذ العساكر، ثم أهمل ذلك ولم يتحرَّك فيه بشـيء، وكُتُبُ الشَّهيد إليَّ متّصلةٌ يحثني على المبادرة بإنفاذ العـساكر، وأنا أخاطبُ فلا أُزادُ على الوعـد، قال: فلما رأيت قِلَّة اهتمام السلطان بهـذا الأمر العظيم أحضرتُ فلانًا - وهو فقـيه كان ينوب عنه في القـضاء - فـقلتُ: خذ هذه الدنانـير وفـرقهـا في جمـاعة من أوباش بغـداد

(١) كتاب الروضتين ١/ ١٦٢ - ١٦٣.

والأعاجم، وإذا كان يوم الجمعة، وصَعِدَ الخطيب المنبر بجامع القصر قاموا، وأنت معهم، واستغاثوا بصوتٍ واحد: وَا إسْلاماه! وَادِينَ مُحَمَّداه!!، ويخرجون من الجامع ويقصدون دار السلطنة مستغيثين. ثم وضعت إنسانًا آخر يفعل مثل ذلك في جامع السلطان. فلما كانت الجمعة وصعِد الخطيب المنبر، قام ذلك الفقيه وشق ثوبه وألقى عِمامته عن رأسه، وصاح، وتبعه أولئك النَّفر بالصّياح والبكاء، فلم يبق بالجامع إلاّ مَن قام يبكي، وبطلت الجمعة، وسار الناس كلُّهم إلى دار السلطان. وقد فعل أولئك الذين بجامع السلطان مثلهم، فاجتمع أهلُ بغداد وكلُّ من بالعسكر عند دار السلطان، يبكون ويصرخون ويستغيثون، وخرج الأمر عن الضّبط، وخاف السلطان في داره وقال: ما الخبر؟ فقيل له: إن الناس قد ثاروا حيث لم ترسل العساكر إلى الغزاة. فقال: أحضروا ابن الشَّهْرُزُوري. قال: فحضرت عنده وأنا خائف منه، إلاَّ أنّني قد عزمت على صِدْقه وقول الحق. فلما دخلت عليه قال: يا قاضي، ما هذه الفتنة؟ فقلت: إن الناس قد فعلوا هذا خوفًا من الفتنة والشر، ولا شك أن السلطان ما يعلمُ كم بينه وبين العدو، وإنما بينكم نحو أسبوع، ولئن أخذوا حلب انحدروا إليك في الفرات وفي البر، وليس بينكم بلد يمنعهم عن بغداد. وعظَّمْتُ الأمر عليه حتى جعلته كأنه ينظر إليهم فقال: ارددُ هؤلاء العامة عنا، وخُذْ من العساكر ما شئتَ، وسِرْ بهم والأمداد تلحقك. قال: فخرجت إلى العامة ومن انضم إليهم، وعرَّفتهم الحال، وأمرتهم بالعود، فعادوا وتفرَّقوا. وانتخبتُ من عسكره عشرة آلاف فارس، وكتبت إلى الشَّهيد أُعرِّفُه الخبر، وأنّه لم يبق غيرُ المسير، وأُجدِّدُ استئذانه في ذلك. فأمرني بتسييرهم والحثِّ على ذلك، فعبَرت العساكر الجانبَ الغربي، فبينما نحن نتجهز للحركة وَإذَا قد وصل نجَّابٌ من الشَّهيد يخبر أن الرُّومَ والفرنج قد رحلوا عن حلب خائبين، لم ينالوا منها غرضًا، ويأمرني بترك استصحاب العساكر. فلما خوطب السلطان في ذلك أصرَّ على إنفاذ العساكر إلى الجهاد وقصد بلاد الفرنج وأخذها؛ وكان قصده أن تطأ عساكره البلاد بهذه الحجة فيملكها. قال: فلم أزل أتوصَّل مع الوزير وأكابر الدولة حتّى أَعَدْتُ العساكر إلى الجانب الشرقي، وسرت إلى الشَّهيد.

قال ابن الأثير: فـانظر إلى هذا الرجل الذي هو خير من عـشرة آلاف فارس - يعني كمال الدين - رحم الله الشهيد، فلقد كـان ذا همَّة عالية، ورغبة في الرجال ذوي الرأي والعقل، يرغـبهم ويخطبهم من البـلاد، ويُوفّر لهم العطاء. حكى لي والدي قال: قيل للشهيد: إن هذا كمال الدّين يحصل له في كل سنة منك ما يزيد على عشرة آلاف دينار أميرية، وغيره يقنع منك بخمس مئة دينار. فقال لهم: بهذا العقل والرَّأي تدبِّـرون دولتي! إن كمال الدين يقلُّ له هذا الـقدر، وغيـره يكثُر له خمس مئة دينار! فـإنّ شغلاً واحدًا يقوم فيه كمال الدين خـيرٌ من مئة ألف دينار. وكان كما قال رحمه الله تعالى(١).

فهـذا الخبر فيـه مثل من عظمة الرجال، فـهذا القاضي كـمال الدين بسياسـته وحنكته وحـسن تدبيره يلجئ ذلك السلطان إلى أن يُخرج العسـاكر وهو لا يريد، فلما أن انقضت الحـاجة إليهم وخاف منهم على إمارة عـماد الدين زنكي أعادهم بالحيلة والدهاء مع إصـرار السلطان على مسـيرهم، فبـمثل هذا الرجل العبـقري تنتظم الأمور وتستقر الممالك.

الحملة الصليبية الثانية:

قال المؤرخ أبو شـامة: قال الرئيـس أبو يعلى: وفي هذه السنة [اثنتين وأربعين وخمـسمائـة] تواصلت الأخبار من ناحـية القُـسْطنطينية وبلاد الفـرنج والرُّوم وما والاها بظهور ملوك الإفرنج من بلادهم؛ منهم الألمان(٢) والفُنُش(٣)، وجماعةٌ من كبـارهم في العدد الذي لا يُحـصر، لقصـد بلاد الإسلام بعـد أن نادوا في سائر بلادهم ومعاقلهم: النَّفيرَ النَّفيرَ إلـيها، والإسراع نحوها. وخلَّوْا بلادهم وأعمالهم خاليـة شاغرة من حُـماتها والحفظة لهـا. ثم استصـحبوا من ذخـائرهم وأموالهم وعُددهم الشيء الكـثير الذي لا يحـصى، بحيث يقال: إن عِـدَّتهم ألف ألف من الرَّجَّالة والفرسان، ويقال أكثر من ذلك. وغلبـوا على أعمال قُسْطنطينية، واحتاج

---

(١) كتاب الروضتين ١/ ١٣٢ - ١٣٥.

(٢) قال المعلق: استعملت كلمة الألمان هنا علمًا على الإمبراطور كنراد الثالث.

(٣) قال المعلق: هو برتراند بن ألفنسو جوردان، كونت تولوز.

ملكها إلى الدُّخول في مُدَاراتهم ومسالمتهم، والنُّزول على أحكامهم. وحين شاع خبرهم واشتهر أمرهم، شرعت ولاة الأعمال المصاقبة لهم، والأطراف الإسلامية القريبة منهم في التأهُّب للمدافعة لهم، والاحتشاد على المجاهدة فيهم، وقصدوا منافذهم ودروب معابرهم، لكي يمنعوهم من العُبور والنفوذ إلى بلاد الإسلام، وواصلوا شنَّ الغارات على أطرافهم، واستحرَّ القتل فيهم والفتك بهم إلى أن هلك منهم العددُ الكثير، وحلَّ بهم من عدم القوت والعُلوفات والمِيَر وغلاء السعر - إذا وجدوه - ما أفنى الكثير منهم بالجوع والمرض، ولم تزل أخبارهم تتواصل بهلاكهم، وفناء أعدادهم إلى أواخر سنة اثنتين وأربعين [يعني وخمسمائة]، بحيث سكنت النفوس بعض السكون.

قال: ودخلت سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة وتواترت الأخبار بوصول مراكب الفرنج وحصولهم على سواحل الثغور الساحلية: صور وعكا، واجتماعهم مع من بها من الفرنج. ويقال: إنهم بعد ما فني منهم بالقتل والمرض والجوع وصل تقدير من مئة ألف، وقصدوا البيت المقدَّس، فقَضَوا حجَّهم، وعاد من عاد منهم إلى بلادهم في البحر، وقد هلك منهم بالموت والمرض الخلقُ العظيم، وهلك من ملوكهم من هلك، وبقي الألمان أكبر ملوكهم ومن هو دونه. واختلفت الآراء بينهم فيما يقصدون منازلته من البلاد الإسلامية، إلى أن استقرَّت الحال على منازلتهم دمشق، وبلغ ذلك معين الدين، فاستعدَّ لحربهم، فجاؤوا في تقدير خمسين ألفًا، ودنَوْا من البلاد، وقصدوا المنزلة المعروفة بنزول العساكر فيها(١) فصادفوا الماء مقطوعًا، ناحية المِزَّة فخيَّموا عليها لقربها من الماء، وزحفوا إلى البلد بخيلهم ورَجْلهم، ووقف المسلمون بإزائهم في يوم السبت سادس ربيع الأوَّل، ونشبت الحربُ بين الفريقين، واجتمع عليهم من الأعمال الأجناد والأتراك والفُتَّاك وأحداث البلد والمطوِّعة والغُزاة الجمَّ الغفير، واستظهر الكُفّار على المسلمين بكثرة الأعداد، وغلبوا على الماء، وانتشروا في البساتين، وخيَّموا فيها، وقربوا من

(١) قال المعلق: ذكر وليم الصوري أنهم نزلوا على داريا، وهي المقصودة هنا، إذ أن الجيوش المهاجمة لدمشق غالبًا ما كانت تأتي عن طريق داريا.

البلد، وحصلوا منه بمكان لم يتمكَّن أحدٌ من العساكر قديمًا وحديثًا منه، وشرعوا في قطع الأشجار والتَّحصُّن بها، وهدُّوا الفطائر[١]، وباتوا تلك الليلة على هذه الحال، وقد لحق الناس من الارتياع لهول ما شاهدوه، والرَّوْع بما عاينوه، ما ضعفت به القلوب وحَرِجَتْ معه الصدور، وباكروا الظُّهور إليهم في غد ذلك اليوم؛ وهو الأحد تاليه، وزحفوا إليهم، ووقع الطراد بينهم، واستظهر المسلمون عليهم، وأكثروا القتل والجراح فيهم، وأبلى الأمير معين الدين في حربهم بلاءً حسنًا، وظهر من شجاعته وصبره وبسالته ما لم يُشاهد في غيره، بحيث لا يني في جهادهم، فجمع العسكر وحفظ البلد، وحصرهم الفرنج وزحفوا إليهم سادس ربيع الأول، فخرج العسكر وأهل البلد لمنعهم. وكان فيمن خرج الشيخ الفقيه حجة الدين أبو الحجاج يوسف بن ذوناس المَغْرِبي الفنْدَلاوي شيخ المالكية بدمشق - وكان شيخًا كبيرًا، زاهدًا عابدًا - خرج راجلاً، فرآه معينُ الدين، فقصده وسلَّم عليه وقال له: يا شيخ، أنت معذور، ونحن نكفيك، وليس بك قوَّة على القتال. فقال: قد بعت واشترى، فلا نُقيلهُ ولا نَسْتَقيله. يعني قولَ الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ...**﴾ [التوبة: ١١١]. وتقدَّم فقاتل الفرنج حتى قُتِلَ، رحمه الله، عند النَّيْرَب شهيدًا. وقوي أمر الفرنج، وتقدَّموا فنزلوا بالميدان الأخضر، وضعُفَ أهل البلد عن رَدِّهم عنه. وكان معين الدين قد أرسل إلى سيف الدين[٢] يستغيث به ويستنجده، ويسأله القدوم عليه، ويُعلمه شدَّة الأمر. فجمع سيف الدين عساكره، وسار مُجداً إلى مدينة حمص، وأرسل إلى معين الدين يقول له: قد حضرت ومعي كل من يُطيق حمل السلاح من بلادي، فإن أنا جئت إليك ولقينا الفرنج وليست دمشق بيد نوَّابي وأصحابي وكانت الهزيمة -والعياذ بالله - علينا، لا يسلم منا أحدٌ لبُعْد بلادنا عنا، وحينئذ يملك الفرنج دمشق وغيرها، فإن أردتم أن ألقاهم وأقاتلهم فتسلِّم البلد إلى من أثق إليه، وأنا أحلف لك، إن كانت النُّصرة لنا على الفرنج، أنني لا آخذ دمشق ولا

(١) قال المعلق: الفطائر هي جدران ترابية تفصل ما بين بساتين غوطة دمشق.

(٢) هو سيف الدين غازي أخو نور الدين، صاحب الموصل.

أقيم بها إلا مـقدار ما يرحل العدوُّ عنها، وأعود إلى بلادي. فـماطله معين الدين لينظر مـا يكون من الفـرنج. فأرسل سـيف الدين إلى الفـرنج الغـرباء يتهـدَّدهم ويعلمهم أنه عـلى قصدهم إن لم يرحلوا. وأرسل مـعين الدين إليهم أيضًـا يقول لهم: قد حضر ملك الشرق ومعه من العساكر ما لا طاقة لكم به، فإن أنتم رحلتم عنا وإلا سلَّمت البلد إليه، وحينئذٍ لا تطمعون في السَّلامة منه. وأرسل إلى فرنج الشـام يخوِّفـهم من أولئك الفرنج الخـارجين إلى بلادهم، ويقـول لهم: أنتم بين أمرين مذمومين؛ إن ملك هؤلاء الفرنج الغـرباء دمشق لا يُبقون عليكم ما بأيديكم من البلاد، وإن سلَّمتُ أنا دمشق إلى سيف الـدين فأنتم تعلمون أنكم لا تقدرون على منعـه من البيت المقـدَّس. وبذل لهم أن يسلِّم إليهم بانيـاس إن رحَّلُوا ملك الألمان عن دمشق. فـأجابوه إلى ذلك وعلمـوا صدقه، واجـتمـعوا بملك الألمان، وخوَّفوه من سيف الـدين وكثرة عساكره وتتابع أمـداده، وأنه ربما ملك دمشق فلا يبقى لهم مـعه مقـام بالسَّاحل. فأجـابهم إلى الرَّحيل عن دمـشق، فرحل ورحل فرنج الساحل، وتسلموا حصن بانياس من معين الدين وبقي معهم حتى فتحه نور الدين محمود، رحمه الله(١).

هذه الحملة المذكورة فـي الخبر هي الحملة الصليبـية الثانية، وقـد كانت الحملة الأولى هي التى سيطر فيهـا الصليبيون على القدس وأكثـر مدن الساحل الشامي، ولما تمت المقاومة الإسلامية التى سبق ذكرها بدأ الصليبيون بالقلق والضجر والخوف على مسـتقبل وجودهم في الشـام، وخاصة بعـد ظهور المجاهد الشهـيد السلطان عماد الدين زنكي، وكان فتح مدينة الرها قاصمة الظهر عندهم، حيث كانت أهم معاقلهم الحربية فدبروا تجنيد هذه الحملة الكبـيرة الرهيبة ليقضوا على دول الإسلام الصغيرة ويثبِّتوا وجودهم في الشام لتبقى لهم القدس دون منازع من المسلمين.

وقد ساروا بهذه الحملة من غرب أوروبا وقطعوا آلاف الأميال حتى وصلوا إلى القسطنطينية، فهادنهم ملك الروم وسالمهم وقدم لهم المعونات.

---

(١) كتاب الروضتين ١/ ١٨٤ - ١٩١.

ولما ساروا جنوبًا متوجهين نحو بلاد الإسلام انهال عليهم المسلمون من التركمان وغيرهم فى حرب عصابات خاطفة أفنوا فيها عددًا كبيرًا من الصليبيين، ولقد كان هؤلاء المسلمون موفقين حينما اختاروا حرب العصابات لأن جيشًا قوامه ألف ألف مقاتل لا يمكن مواجهته ميدانيًا بأعداد قليلة، فكانت حرب العصابات أنجح وسيلة لمقاومة ذلك الجيش والفتك به.

ثم جاءت المرحلة الثانية من مراحل إفناء ذلك الجيش الكبير وهي قطع الميرة عنهم ومحاصرتهم اقتصاديًا، حيث هلكت أكثر دوابهم لعدم وجود العلف الكافي، ومات كثير منهم من الجوع والأمراض المترتبة على نقص الطعام، ولقد كانوا فى سياستهم الحربية قد أخطؤوا في إقدامهم بذلك العدد الكبير في تلك الرحلة الطويلة، حيث دخلوا بلادًا إسلامية وليس فيها مدن كبيرة يمكن أن يستولوا عليها ويؤمِّنوا منها ما يكفيهم ويكفي دوابهم.

ولقد كان أولئك المسلمون مخلصين لدينهم وأمتهم حيث لم يقوموا بإمداد ذلك الجيش بما يسد حاجته، ولم يهادنونهم، بل قاموا بمقاومتهم، فكانت تلك الغارات الإسلامية والمقاطعة الاقتصادية سببًا فى هلاك أكثرهم، حيث لم يصل إلى الشام منهم إلا مائة ألف، وربما عاد بعضهم أثناء الطريق، وهؤلاء الباقون لما وصلوا إلى بيت المقدس وقضوا حجهم رجع منهم خمسون ألفًا وبقى أكبر ملوكهم «كنراد الثالث» في خمسين ألفًا.

وقد قرر أولئك الأعداء غزو مدينة دمشق، وكان ذلك بعد مقتل الشهيد عماد الدين زنكي وتولِّي ولديه سيف الدين على الموصل وما حولها، ونور الدين على حلب وما حولها، وقد استعد لحربهم الأمير معين الدين أنز الذي كان يحكم باسم مجير الدين أبق، وكان مملوكًا لطغدكين جد مجير الدين.

وإن مما ينبغى التنويه به الموقف السياسى الحربي لكل من سيف الدين حاكم الموصل ومعين الدين الحاكم الفعلي لدمشق، حيث قام كل واحد منهما بتهديد الصليبيين الغازين والصليبيين القدامي الذين استولوا على بعض بلاد الشام، وما

قام به معين الدين من مــحاولة التفريق بين الفريقين من النصــارى، حيث كان كله سببًا فى رحيل الصليبيين عن دمشق.

كما أنه ممــا ينبغى التنويه به الموقف الجهادي للـعالم الرباني يوسف الفندلاني، على الرغم من كبــر سنه وما قام به من تذكـير المسلمين بالمعنى الســامي لقول الله تعالى ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ...**﴾ [التوبة: ١١١]، وكذلك موقف الزاهد العابد عــبد الرحمن الحلحــولي في المسارعة إلى الجــهاد، وقد أنالهــما الله تعالى مُنَاهُما، حيث ظفرا بالشهادة فى سبيل الله جل وعلا.

* * *

٣- جهاد نور الدين محمود ضد الصليبيين

هو نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي، تولى إمارة حلب، ثم اتسعت سَلطنته حتى شملت بلاد الشام والجزيرة ومصر والحجازَ واليمن، وقد اشتهر بالعدل في الحكم، حتى قال عنه المؤرخ ابن الأثير: وقد طالعت سِيَر الملوك المتقدمين فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن من سيرته ولا أكثر تحريًا منه للعدل(١).

كما أنه قد اشتهر بالشجاعة وحب الجهاد، وقد ذكر ابن الأثير من شجاعته أنه كان فى الحرب يأخذ قوسين ليقاتل بهما، وأن الفقيه القطب التساوي قال: بالله عليك لا تخاطر بنفسك وبالإسلام فإنك إن أُصبت في معركة لا يبقى من المسلمين أحد إلا أخذه السيف، فقال نور الدين: ومَنْ محمود حتى يقال له هذا، مِنْ قبلي مَنْ حفظ البلاد والإسلام، ذلك الله الذى لا اله إلا هو(٢).

ولقد ظل رحمه الله تعالى يجاهد الصليبيين حتى أضعفهم وقلص من وجودهم في الشام، وكان حُلُمه الكبير أن يفتح بيت المقدس ويطهرها من الصليبيين ولكن وافته المنية فى سنة تسع وستين وخمسمائة قبل أن يتحقق ذلك، ولكنَّ فتحها تمَّ بعد ذلك على يدى صلاح الدين الأيوبي.

أمثلة من سياسته الحربية:

قال أبو شامة: قال ابن الأثير: وكان رحمه الله يكثر إعمال الحيل والمكر والخِدَاع مع الفرنج - خذلهم الله تعالى - وأكثر ما ملكه من بلادهم به. ومن جيِّد الرأي ما سلكه مع مليح بن ليون ملك الأَرْمن صاحب الدروب، فإنه ما زال يخدعه ويستميله، حتى جعله في خدمته سَفَرًا وحضرًا، وكان يقاتل به الإفرنج، وكان يقول: إنما حملني على استمالته أن بلاده حصينة وَعِرة المسلك، وقلاعه

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ١٢٥. وقد استمر حكمه ما بين عامي واحد وأربعين وتسعة وستين وخمسمائة.

(٢) الكامل في التاريخ ٩/ ١٢٥.

منيعة وليس لنا إليها طريق، وهو يخرج منها إذا أراد فينال من بلاد الإسلام، فإذا طُلِبَ انحجَرَ فيها فلا يُقدر عليه، فلما رأيتُ الحال هكذا بذلت له شيئًا من الإقطاع على سبيل التألُّف حتى أجابَ إلى طاعتنا وخِدْمتنا وساعدَنا على الفرنج.

قال: وحيث توفي نور الدين رحمه الله وسلك غيرُه غيرَ هذا الطريق مَلَكَ المتولي الأرمن بعد مليح كثيرًا من بلاد الإسلام وحصونهم، وصار منه ضرر عظيم، وخرقٌ واسع لا يُمكن رقعه.

قال: ومن أحسن الآراء ما كان يفعله مع أجناده؛ فإنه كان إذا توفي أحدهم، وخلَّف ولدًا أقر الإقطاع عليه، فإن كان الولد كبيرًا استبدَّ بنفسه، وإن كان صغيرًا رتَّب معه رجلاً عاقلاً يثق إليه، فيتولى أمره إلى أن يكبر. فكان الأجناد يقولون: هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد، فنحن نقاتل عليها، وكان ذلك سببًا عظيمًا من الأسباب الموجبة للصبر في المشاهد والحروب. وكان أيضًا يثبت أسماءَ أجنادِ كلِّ أميرٍ في ديوانه وسلاحَهم؛ خوفًا من حرص بعض الأمراء وشُحِّه أن يحمله على أن يقتصر على بعض ما هو مقرر عليه من العُدَد، ويقول: نحن كل وقت في النَّفير، فإذا لم يكن أجناد كافة الأمراء كاملي العَدَد والعُدد دخل الوَهْن على الإسلام. قال: ولقد صدق رضي الله عنه فيما قال، وأصاب فيما فعل، فلقد رأينا ما خافه عِيانًا[1].

ففي الخبر الأول مثلٌ من التخطيط الحربي البارع والسياسة العالية، فبالسياسة الحكيمة والتأليف بالمال دفع نور الدين شر ذلك الحاكم الأرمني وحوَّله إلى خدمته ضد أعدائه من الإفرنج.

وفي الخبر الثاني استطاع نور الدين الحصول على ولاء الجنود وضمان استمرار حماستهم في القتال وطاعتهم التامة للقيادة، وبأولئك الجنود الذين ضمنوا مستقبلهم ومستقبل أسرهم استطاع نور الدين أن يتفوق فى المجال الحربي على أعدائه.

---

(١) كتاب الروضتين ١/ ٤٤.

مثل من سياسة الوزير جمال الدين:

قال ابن الأثير: لما قُتـل أتابك الشَّهيد(١) ركب الملك ألب أرسلان بن السُّلْطان محمود - وكـان مع الشهيد - واجتمـعت العساكر عليه وخدمـوه، فأرسل جمال الدين الوزير(٢) إلى الصَّلاح(٣) يقـول له: المصلحـة أن نترك مـا كـان بيننا وراء ظهورنا، ونسلكَ طريقًا نبقي به الملك في أولادِ صاحبنا، ونُعمر بيته جزاءً لإحسانه إلينا، فإن الملك قد طمع في البلاد، واجتمعت عليه العساكر، ولئن لم نتلافَ هذا الأمر في أوله ونتداركْه في بدايـته ليَتَّسِعَنَّ الخرقُ ولا يمكن رقعُـه. فأجابه الصلاح إلى ذلك، وحلف كل واحدٍ منهـما لصاحبـه. فركب الجمال إلى الملك فـخدمه، وضمن له فتح البلاد وأطمـعه فيها، ومعه الصـلاح، وقالا له: إنَّ أتابك كان نائبًا عنك في البلاد، وباسمك كُنَّا نُطيعُه. فقبل قولهما، وظنَّه حقًا، وقرَّبهما طمعًا أن يكونا عونًا له على تحصـيل غرضه. وأرسلا إلى زين الدين بالمَوْصِل يُعـرفانه قتل الشهيـد، ويأمرانه بالإرسال إلى سيف الدين غازي - وهـو ولد عماد الدين زَنْكي الأكبر - وإحـضاره إلى المَوْصل، وكان بشَـهْرُزُور، وهي إقطاعُه من أبيه. فـفعل زين الدين ذلك، وكان نور الدين مـحمود بن الشـهيد قد سـار لما قُتل والده إلى حلب فـملكها، وذلك بإشـارة أسد الدين شِيركُـوه عليه بذلـك، وقال الجـمال للملك: إنَّ من الرأي أن تُسيَّر الصلاح إلى مملوكك نور الدين بحلب يدَبِّر أمره - وكانت حماة إقطاعَ الصلاح - فأمره فـسار، وبقي الجمال وحده مع الملك، فأخذه وقصد الرَّقَّة. فـاشتغل بشرب الخمر والخلوة بالنِّساء، وأراد أن يُعطي الأمـراء شيئًا فمنعه خـوفًا من أن تميل قلوبهم إليه، وقال: لهم الإقطاع الجـزيل والنِّعَم الوافرةُ. وشرع الجـمال يسـتميل العـسكر ويُحلِّف الأمراء لسـيف الدين بن أتابك الشهـيد واحدًا بعد واحد، وكلُّ من حلف يأمره بالمسير إلى الموصل هاربًا من الملك. وأقام بالملك في الرَّقَّة عِـدَّة أيام، ثم سار به إلى ماكِسين فـتركه بها عـدَّة أيام أيضًا، قد

(١) يعني عماد الدين زنكي والد نور الدين.

(٢) جمال الدين هو أبو جعفر محمد بن على بن أبى منصور.

(٣) يعني أمير مدينة «حماه».

اشتغل بلذَّاته عن طلب الملك، ثم سار به نحـو سِنْجار. وكان سيفُ الدين غازي قد دخل المَوْصِلِ واستقرَّ بها، فـقوِي حينئذٍ جَنانُ جمال الدين، ووصل هو والملك إلى سِنْجـار، فـأرسل إلى دُزْدَارها وقـال له: لا تُسلِّم البلد ولا تُمكِّن أحـدًا من دخـوله، ولكن أرسلْ إلى الملك وقل له: إنَّا تبع المَوْصِلِ، فـمـتى دخلتَ الموصل سلَّمتُ إليك البلد، ففـعل الدُّزدار ذلك. فقال الجمال للملك: المصلحـة أنَّا نسير إلى الموصل، فإنَّ مملوكك غـازي إذا سمع بقربنا منه خـرج إلى الخدمة، فحـينئذ نقبضُ عليه ونتـسلَّم البلاد. فساروا عن سِنْجار، وكثُـر رحيل العسكر إلى الموصل هاربين من الملك، فبقـي في قِلَّة من العسكر، فساروا إلى مدينـة بَلَد، وعبر الملك دجْلة من هناك، فلما عبرها دخل الجمال الموصل، وأرسل الأمير عز الدين أبا بكر الدُّبَيْسي في عسكرٍ إلى الملك، وهو في نفر يسـير، فأخذه وأدخله الموصل، فكان آخرَ العهـد به. واستقرَّ أمـر سيف الدين، وأقرَّ زين الدِّين على ما كـان عليه من ولاية الموْصل، وجعل الجـمال وزيره، وأرسلوا إلى السلطان مسـعود فاستـحلفوه لسيف الـدين، فحلف له وأقرَّه علـى البلاد، وأرسل له الخِلَع. وكـان هذا سيف الدين قد لازم خدمة السـلطان مسعود في أيام أبيه سفرًا وحـضرًا، وكان السلطان يحبه كثيرًا ويأنس به ويبسطه. فلما خُوطب في اليمين وتقرير البلاد لم يتوقَّف.

قال ابن الأثيـر: فانظروا إلى فعل جـمال الدين وحُسْن عـهده وكمـال مروءته ورعايته لحقوق مخدومه، وهذا المقامُ الذي ثبت فيه يعجز عنه عشرة آلاف فارس، ولقد قلل من قال: والنَّاس ألفٌ منهم كواحد. وهو مـعذور لأنه لم ير مثل جمال الدين(١).

أقول: فما قام به هذا الوزير جمال الدين عملٌ محمود، لأنه عمل على تثبيت السلطة بيد شابين صالحين عادلين، وهمـا سيف الدين ونور الدين ابنا عماد الدين زنكي، ونقل السلطة بدهائه وحـسن سياسـته من حاكم مـوصوف بشرب الخـمر والإغراق فى الملذات، وإن المتتبع لمراحل عملـه السياسي في هذا الأمر يعجب من مقدرته على حفظ مشاعره وكتمان خططه إلى آخر لحظة من انتقال السلطة.

(١) كتاب الروضتين ١/ ١٦٩ - ١٧١.

مثل من مواقف الإصلاح:

قال أبو شامة: قال ابن الأثير: ولما فرغ سيف الدين من إصلاح أمر السلطنة وتحليفه(١) وتقرير أمر البلاد عَبَر إلى الشام لينظر في تلك النَّواحي، ويقرِّر القاعدة بينه وبين أخيه نور الدين، وهو بحلب، وقد تأخَّر عن الحضور عند أخيه وخافه، فلم يزل يراسلُه ويستميله، فكلَّما طلب نورُ الدين شيئًا أجابه إليه استمالةً لقلبه. واستقرَّت الحالُ بينهما على أن يجتمعا خارج العسكر السَّيفي، ومع كل واحدٍ منهما خمسمائة فارس، فلما كان يوم الميعاد بينهما سار نور الدين من حلب في خمسمائة فارس، وسار سيف الدين من معسكره في خمسة فوارس، فلم يعرف نور الدين أخاه سيف الدين حتى قرب منه، فحينَ رآه عرفه، فترجَّل له، وقبَّل الأرض بين يديه، وأمر أصحابه بالعَوْد عنه فعادوا. وقعد سيف الدين ونور الدين بعد أن اعتنقا وبكيا، فقال له سيف الدين: لِمَ امتنعتَ من المجيء إليَّ، أكنت تخافني على نفسك؟ والله ما خطر ببالي ما تنكره، فلمن أريد البلاد، ومع من أعيش، وبمن أعتضد إذا فعلت السوء مع أخي وأحبِّ الناس إليَّ؟ فاطمأنَّ نور الدين وسكن رَوْعُه، وعاد إلى حلب فتجهَّز، وعاد بعسكره إلى خدمة أخيه سيف الدين، فأمره سيف الدين بالعَوْد وترك عسكره عنده، وقال: لا غرض لي في مقامك عندي، وإنما غرضي أن يعلم الملوك والفرنج اتفاقنا، فمن يريد السوءَ بنا يكف عنه. فلم يرجع نور الدين ولزمه إلى أن قضيا ما كانا عليه، وعاد كل واحد منهما إلى بلده(٢).

فهذا موقف جليل من هذين الأخوين بعد توجس من نور الدين يُعذر فيه، وذلك أن الإمارة تحمل صاحبها أحيانًا على الغرور والتعاظم وحب الأثرة، خاصة مع وجود وزراء السوء الذين يضخمون فى عين السلطان خطورة منافسة الآخرين، ويسهلون له ركوب المخاطر من أجل القضاء عليهم والانفراد بالسلطة، ولكن هذين الأميرين لم يكونا من هذا النوع، وكان نور الدين بارعًا حينما أظهر لأخيه سيف الدين مظاهر الاحترام والتبجيل.

---

(١) أي تحليف السلطان مسعود.

(٢) كتاب الروضتين ١/ ١٦٩ - ١٧٢.

معركة يغرَى:

ومن أخبار جهاد السلطان نور الدين ما ذكره العلامة المؤرخ ابن الأثير فى حوادث سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة حيث قال: فى هذه السنة هزم نور الدين محمود بن زنكى الفرنج بمكان اسمه «يغرَى» من أرض الشام، وكانوا قد تجمعوا ليقصدوا أعمال حلب ليغيروا عليها، فعلم نور الدين فسار إليهم في عسكره، فالتقوا بيغرَى، واقتتلوا قتالا شديدًا انجلت المعركة عن انهزام الفرنج، وقُتل منهم كثير، وأُسر جماعة من مُقدَّميهم، ولم ينج من ذلك الجمع إلا القليل(١).

انتصاره على الصليبيين وفتح أنطاكية:

ذكر أبو شامة فى حوادث سنة أربع وأربعين وخمسمائة أن نور الدين أنفذ إلى معين الدين والى دمشق يعلمه أن صاحب أنطاكية قد جمع إفرنج بلاده، وظهر يطلب بهم الإفساد فى الأعمال الحلبية، وأنه قد بَرَزَ في عسكره إلى ظاهر حلب للقائه، والحاجة ماسَّة إلى معاضدته، فندب معينُ الدين مجاهدَ الدين بُزان بن مامين في فريق وافر من العسكر الدمشقي للمصير إلى جهته، وبذل المجهود في طاعته ومناصحته، وبقي معين الدين في باقي العسكر بناحية حَوْران.

قال: وفي صفر من السنة وردت البشائر من جهة نور الدين بما أولاه الله تعالى، وله الحمد، من الظهور على حشد الإفرنج المخذول، ولم يفلت منهم إلا من خبَّر ببوارهم وتعجيل دمارهم؛ وذلك أن نور الدين اجتمع له من العساكر ستة آلاف فارس مقاتل سوى الأتباع والسَّواد، فنهض بهم إلى الفرنج في الموضع المعروف بإنِّب وهم في نحو أربعمائة فارس وألف راجل، فقتلوهم وغنموهم، ووُجد اللعين البرنس مقدَّمهم صريعًا بين حُماته وأبطاله، فعرف وقُطع رأسه وحُمل إلى نور الدين. وكان هذا اللعين من أبطال الفرنج المشهورين بالفروسية وشدَّة البأس، وقوة الحيَل وعظم الخلقة، مع اشتهار الهيبة وكثرة السطوة، والتَّناهي في الشَّر، وذلك يوم الأربعاء الحادي والعشرين من صفر. ثم نزل نور الدين في العسكر على باب أنطاكية، وقد خلْت من حُماتها، والذَّابِّين عنها، ولم يبق فيها غير أهلها مع كثرة أعدادهم وحصانة بلدهم. وتردَّدت المرسلات بينه وبينهم فى

(١) الكامل فى التاريخ ٩/ ٢٢..

طلب التسليم إليه وإيمانهم وصيانة أمـوالهم، فوقع الاحتجاجُ منهم بأن هذا أمرٌ لا يمكنهم الدخـول فـيـه إلا بعد انقـطاع آمالهـم من النَّاصر لـهم، والمعين على من يقصدهم. وحملوا ما أمكنهم من التُّحف والمال، واستمهلوا فأمهلوا ثم رتَّب نور الدين بعض العسكر للإقامة عليها، والمنع لمن يصل إليها، ونهض فى باقية العسكر إلى ناحية أفـامية، وقد كـان رتَّب الأمير صلاح الدين في فريق وافـر من العسكر لمنازلتها ومضايقتها، فالتـمسوا الأمان، فأُمِّنوا على أنفسهم وسلموا البلد فى ثامن عشر ربيع الأول، وانكفأ نور الدين فى عسكره إلى ناحية أنطاكية، وقد انتهى إليه الخبر بنهوض الفرنج من ناحية الساحل إلى صوب أنطاكية لإنجاد من بها، فاقتضت الحال مهـادنة مَن في أنطاكية وموادعـتهم، وتقرير أن يكون ما قـرُب من الأعمال الحلبيَّة له، وما قرُب من أنطاكية لهم، ورحـل عنهم إلى جهة غيرهم، بحيث كان قد ملك في هذه الـنوبة مما حول أنطاكيـة من الحصون والـقلاع والمعاقل وغـيرها المغانم الجمَّـة. وفصَل عنه الأمير مـجاهد الدين بُزان في العسكر الدمـشقي، وقد كان لـه في هذه الوقعـة ولمن في جملتـه البلاء المشـهور والذِّكـر المشكور، لما هو موصوفٌ به من الشَّهامة والبسالة، وإصابة الرأى، والمعرفة بمواقف الحروب.

وقال ابن أبي طي: حَمل أسـد الدين على حامل صليب الفرنج فـقتله، وقَتَلَ البرنس صـاحب أنطاكية وجمـاعة من وجوه عسكـره، ولم يُقتل من المسلمين من يؤبه له، وعاد المسلمون بالغنائم والأسارى. وكان لأسد الدين في هذه الحرب اليدُ البيضاء، ومدحه بها بعضُ الشعراء الحلبيين بقصيدة يقول فيها:

إنْ كـانَ آلُ فـرنجٍ أدركـوا فَلَحًـا ... في يوم يَغْـرا ونالوا مُنْـيَـةَ الظَّفَـر

فـفي الخَطيم خَطَمْتَ الكُفْـرَ مُنْصَلِتًـا ... أبا المُظَفَّـرِ بالصَّـمْـصَـامـة الذَّكَـرِ

نالوا بيــغـرا نِهـابًا وانْتَـهـبْتَ لنا ... على الخطيمِ نـفوسَ المعـشـر الأَشِـرِ

واستقودوا الخيلَ عُرْيًا[1] واستَقَدْتَ لنا ... قَوامِص[2] الكُفْرِ في ذُلٍّ وفي صَـغَر

قال: وحصل لأسد الـدين من هذه الكسرة سلاحٌ كثير، وعـدة أسارى وخيول كثيرة، فأنفذ لأخيه نجم الدين منها شيئًا[3].

(١) أى لا سروج عليها (٢) جمع قمص وهو اسم أحد ملوك الصليبيين

(٣) كتاب الروضتين ١/ ٢٠٤ - ٢٠٦

فتح حصن فامية:

قال ابن الأثير: وفيها[1] سار نور الدين إلى حصن أفامية -وهو للفرنج أيضا، وبينه وبين مدينة حماة مرحلة، وهو حِصْنٌ منيع على تلٍّ مرتفع عالٍ من أحصن القلاع وأمنعها- وكان من به من الفرنج يغيرون على أعمال حماة وشَيْزَر وينهبونها، فأهل تلك الأعمال معهم تحت الذلِّ والصَّغار. فسار نور الدين إليه، وحصره وضيَّق عليه، ومنع من به القرار ليلاً ونهاراً، وتابع عليهم القتال ليُمنعوا الاستراحة، فاجتمعت الفرنج من سائر بلادها، وساروا نحوه ليزحزحُوه عنها، فلم يصلوا إليه إلا وقد ملك الحصن وملأه ذخائر؛ من طعامٍ ومال، وسلاح ورجال، وجميع ما يحتاج إليه. فلما بلغه قرب الفرنج سار نحوهم، فحين رأوْا جدَّه في لقائهم رجعوا واجتمعوا ببلادهم، وكان قُصَاراهم أن صالحوه على ما أخذ، ومدَحَه الشعراء وأكثروا؛ منهم أبو الحسين أحمد بن مُنير، قال:

أسنى الممالك ما أَطَلْتَ منارَها ... وجعلتَ مُرْهَفَةَ الشِّفارِ دِثارها
وأحقُّ مَنْ ملك البلادَ وأهلَها ... رَؤُفٌ تكنَّفَ عَدْلُه أقطارَها
من عمَّ سام الخافقين وحامها ... مننًا وزاد هوىً فخصَّ نِزارَها

وذلك فى قصيدة له طويلة[2].

صلحه مع أهل دمشق:

قال المؤرخ أبو شامة: ففي مستهلِّ المحرَّم -يعني من سنة خمس وأربعين وخمسمائة- تقرَّر الصُّلْح بين نور الدين وأرباب دمشق، والسبُب في ذلك أن نور الدين أشفق من سفك دماء المسلمين إن أقام على حربها والمضايقة لها، بعدما اتَّصَل به من أخبارٍ دعته إلى ذلك. واتفق أنهم بذلوا له الطَّاعة وإقامة الخطبة له على منبر دمشق بعد الخليفة والسُّلْطان، وكذا السِّكَّة، ووقعت الأيمان على ذلك. وخلع نورُ الدين على مجير الدين خِلْعة كاملة بالطَّوق، وأعاده مكرَّمًا محترمًا، وخطب له على منبر دمشق يوم الجمعة رابع عشر محرم. ثم استدعى الرئيس إلى المخيَّم، وخلع عليه خلعةً كاملة أيضًا وأعاده إلى البلد، وخرج إليه جماعةُ من

(١) أى سنة أربع وأربعين وخمس مئة.
(٢) كتاب الروضتين ١/ ٢١٧.

الأجناد والخـواصِّ إلى المخيم، واخـتلطوا به، ووصل من استـماحـه من الطُّلاب والقَرَأة والضعفاء، بحيث ما خاب قـاصدُه، ولا أكدى سائله، ورحل عن مخيَّمه عائدًا إلى حلب بعد إحكام ما قرَّر، وتكميل ما دبَّر.

قلت: وفي ذلك يقول القيْسراني:

لك الله إن حـاربت فالنَّـصْرُ والفَـتْحُ   وإن شئتَ صُلْحًا عُدَّ من حَزْمك الصلْحُ
وهل أنتَ إلا السَّـيْـفُ في كلِّ حـالةٍ   فَطـوْرًا له حـــدٌّ وطـورًا له صَـــفْحُ
سـقـيـت الرُّدَينيَّـات حـتـى رَدَدْتَهـا   تَرَنَّحُ من سُكْرٍ فـخلِّ القَنَا تصحـو[١]
ومـــا كــان كفُّ الـعَـزْمِ إلا إشــارةً   إلى الحَزْمِ لولم يغـضبِ السيفُ والرُّمْحُ
وقـد عَلِمَ الأعـداءُ مُذْ بتَّ جـانحًـا   إلى السِّلْمِ مـا تنوى بذاك وما تنحـوا
إذا مــا دمـــشقٌ مـلَّكتك عِنـانَهـــا   تيــقَّنَ مَن فـي إيليــا[٢] أنَّه الذَّبحُ
متى التف نَقْعُ الجحْـفلين على الهدى   فلا مَـهْمَةٌ يحوي الضَّـلاَل ولا سَفْحُ
إذا ســار نور الدين في الجيش غــازيًا   فـقولا لليل الإفك قـد طَلَعَ الصُّـبْحُ
تَرَكْتَ قلوبَ الشِّـرْكِ تشكو جراحَـها   فلا زالت الشكـوى ولا اندمَلَ الجُرُحُ
صَـبَرْتَ فكان الصَّـبْـرُ خيـرَ مـغبَّـةٍ   فـسيـقَ إليك المُلْكُ يسعى به النُّجْحُ
كـــأن الـقَنَا تجلـو له وَجْــه أمـــره   ولو أُمهلتْ بلـقيس ما غَـرَّها الصَّرْحُ
بدولتـكَ الغَـــرَّاء أصــبـحَ ضــدُّها   بهيًـما ولولا الحُـسْنُ ما عُـرفَ القُبْحُ
وكم مِنْ قـريحِ الـقَلْب لو باتَ واردًا   مـواردَ هذا العَـدْلِ مـا مسـه قـرْحَ
سخا بك هذا الدَّهْرُ جُودًا على الورى   على أنـه مــازال في طبــعـــه شُحُّ
وقـد كـان يمحـو رَسْمَ كلِّ فـضيلةٍ   ونحن نَراه اليـومَ يُثْبتُ مـا يَمْـحُـو
بك ابتــهج الألبـاب وابتهـج الحِجَـا   وأثـمـــــــرتِ الآدابُ واطَّرَدَ المَـدْحُ
ولاذت بك التقوى وعـاذت بك العلا   ودانت لك الدنيــا وعـزبك السـرح
فـــلا قَلْبَ إلا قـــد تَمَـلَّكْتَــهُ هوىً   ولا صـدر إلا قـد جـلاه لك النصح

(١) أى قاتلت بالرماح حتى امتلأت من الدماء.
(٢) يعني بيت المقدس.

وما الجودُ في الأملاكِ إلا تجارةٌ فمن فاته حَمْدُ الورى فاته الرِّبْحُ
ولم أختصرْ ما قلتُ إلاّ لأنني أعبِّرُ عما لا يقومُ به الشَّرْحُ[1]

فهذا الذي قام به نور الدين محمود هو انتصار من نوع آخر، وهو مثل من العفو عند المقدرة، والإحجام عن القتال والجنوح إلى الصلح حقنًا لدماء المسلمين، وقد كان بلغ نور الدين ما يسير عليه حكام دمشق من مخالفة أمور الدين فعزم على الاستيلاء عليها لتطهيرها من تلك المخالفات، فلما قبل حكامها بالسير على سبيل الاستقامة واعترفوا لنور الدين بنسبة من التبعية تضمن استمرارهم فى الاستقامة على أمور الدين، رجح سلوك جانب الصلح، لأن هدفه هو الإصلاح وليس التوسع فى الملك. ولقد أجاد وأبدع الشاعر القيسراني فى تصوير هذا الموقف بقصيدته هذه الرائعة.

استيلاؤه على حصن عزاز وما حوله:

ذكر المؤرخ ابن الأثير فى حوادث سنة ست وأربعين وخمسمائة أن نور الدين استطاع أن يأسر جو سلين الذي كان أعظم ملوك الفرنج شجاعة ودهاء، وكان قد استولى على قرى وحصونٍ شماليَّ مدينة حلب لما فقد إمارة الرها، وكان نور الدين قد وضع عليه العيون، فلما خرج للصيد أبلغوا أبا بكر بن الداية نائبَ نور الدين على حلب فجاء بفرقة معه فأسره، وقد فرح المسلمون كثيرًا بأسره لشدة أذاه عليهم، وأُصيب النصارى به لشدة غنائه فيهم، واستولى بعد ذلك نور الدين على قلاعه وحصونه ومنها عَزَاز.

وقد مدحه الشعراء على ذلك، ومما قيل فيه قصيدة للقيسراني يقول فيها مُعرِّضا بجوسلين:

طغى وبغى عَدْوًا على غُلَوائه فأوبقه الكُفران عَدْواه والكفرُ
وأمست عَزَاز كاسمها بك عَزَّة تَشُقُّ على النَّسْرَين[2] لو أنها وكر

---

(١) كتاب الروضتين ١/ ٢٤١ - ٢٤٢.

(٢) النسران كوكبان، وسميا بذلك تشبيها بالنسر الطائر.

فسِـرْ وامْلك الدنيا ضـياءً وبهـجةً ... فبالأُفق الداجي إلـى ذي السنا فقر
كـأنى بهـذا الـعـزم لا فُلَّ حـدُّه ... وأقصاه بالأقصى[1]وقد قُضِي الأمر
وقد أصـبح البيت المقـدس طاهرا ... وليس سوى جاري الدماء له طهر[2]

وقد ذكـر المؤرخ أبو شامـة فتح عـزاز، وأن نور الدين توجه فى عـسكره إلى عزَاز، ونزل عليـها، وضـايقها وواظب قـتالهـا، إلى أن سَهَّل الله تعالـى ملكها بالأمان، وهي على غايةٍ من المَنَعـة والحصانة والرِّفْعة. فلما تسلَّمهـا رتَّب فيها من ثقاته من وثق به، ورحلَ عـنها ظافرًا مـسرورًا عائدًا إلى حلب فى أيام من شـهر ربيع الأول. ثم ذكر قصيدة لابن منير فى فتح عزاز وغيرها أولها:

فَـــدَتْكَ القُـلُوبُ بألبـــابهـــا ... وَســـاحُ الملوك بـأربابـهـــا
كـــتــــائبُ تَرْمـي جنودَ الصَّـليـ ... ـبِ منهـــا بتـــقطيعِ أصـــلابهـــا
إذا مـا انـثَنتْ من قِـرَاع الكُـمـاة ... كَـسَتْ وفـــدَها وَشْيَ أسـلابِـهـا

إلى أن قال:

لك الفَـضْلُ إنْ راسـلَتْكَ الجيـاد ... وقـــامت أدلَّة أنجـــابهـــا
إذا اعـــتـســـفَتْ هِمَمُ الجـــائرين ... أتيـتَ السِّـــيـــادةَ مـن بابهـــا
أبوك أبـوها وأنـت ابنهـــــا الـ ... ـعـــريقُ ودميـــة مـــحـــرابهـــا
أقـــول لمـؤجـــره بالـغـــرور ... تَمَـطَّتْ هواها فـــأَهْـوى بهـــا
حَـذَارِ فـــعندَ ابتـــسـامِ الغـيـو ... ثِ يُخْـــشَى صـواعـق ألهـابهـــا
ولا تُخْـــدَعُـوا بافـــتـراء اللُّيـو ... ثِ فـــالنار فـي بَرْدِ أنيـــابهـــا[3]

معركة دلوك وفتحها:

ثم ذكر ابن الأثير في حوادث سنة سبع وأربعين وخمـسمائة أن الفرنج تجمعت وحشدت الفـارس والراجل، وساروا نحو نور الدين وهو ببلاد جـوسلين ليمنعوه

(١) أى المسجد الأقصى.
(٢) الكامل في التاريخ ٩/ ٢٩ - ٣٠.
(٣) كتاب الروضتين ١/ ٢٤٣ -٢٤٥.

من مُلْكها، فوصلوا إليه وهو بدَلُوك، فلما قـربوا منه رجع إليهم ولقيهم، وجرى المصافّ بينهم عند دلوك، واقتتلوا أشد قتـال رآه الناس، وصبر الفريقان، ثم انهزم الفرنج وقُتل منهم وأُسر كثير، وعاد نور الدين إلى دلوك فاستولى عليها، ومما قيل في ذلك ما قاله ابن منير فى قصيدة له طويلة منها:

أعـــدْتَ بعـــصـــرك هـذا الأنيـ ... ـقِ فـتـــوحَ النبيِّ وأعـــصـــارَها

وكـــان مُـــهـــاجِـــرُها تـابعـيـ ... ـك وأنصــــارُ رأيك أنصـــارَها

فـــجـدَّدتَ إســـلام سلمـــانهـــا ... وعَـــمَّـــر جَـدُّك عَـــمَّـــارَها[1]

فتح قلعة حارم:

ثم ذكر ابن الأثيـر أن نور الدين عزم على فـتح قلعة حـارم المنيعـة وهي قرب أنطاكية ولها أهميـة كبيرة عند النصارى، وحاصرها وضيَّق عليهـا، وقد اجتمعت الفرنج لترحيله عنها ولكن أحد عقلائهـم في القلعة أشار عليهم بعدم مواجهة نور الدين لعدم مقـدرتهم على قتاله، ثم حاصـرها مرة أخرى فصالحـوه على تسليمه نصف أعمال القلعة.

ثم في المرة الثالثـة عزم على فتح القلعـة، واستنجد بأخيـه قطب الدين مودود صاحب الموصل والجزيرة، وبفخر الدين قرا أرسـلان صاحب حصن كيفا، وبنجم الدين ألبى صاحب مـاردين، فأما قطب الدين فإنه سـار مُجداً وفي مقـدَّمته زين الدين علي أميـرُ جيشه، وأمـا فخر الدين صاحب الحـصن فإنه استشـار خواصه فقالوا: على أي شيء عزمت؟ فقال: علـى القعود، فإن نور الدين قد تحشَّف من كثرة الصوم والصلاة، وهو يُلقي نفسه في المهالك، فكلهم وافقه على هذا الرأي، فلما كان من الغـد أمر بالتجهز للـغَزاة فقال له خواصه: فـارقناك أمس على حالة فنراك اليـوم عل ضدها! فقـال: إن نور الدين قد سـلك معي طريقـا إن لم أُنجِدْه خرج أهل بـلادي عن طاعتي وأخـرجوا البلاد عن يـدي، فإنه قد كـاتب زهادها وعبَّادها والمنقطعين عن الدنيا يَذكُرُ لهـم ما لقي المسلمون من الفرنج وما نالهم من القتل والأسر، ويستمد منهم الدعـاء، ويطلب أن يحثُّوا المسلمين على الغَزاة، فقد

---

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ٣٢، وانظر كتاب الروضتين ١/ ٢٥٥ - ٢٥٧.

قعد كل واحد من أولئك ومعه أصحابه وأتباعه وهم يقرؤون كتب نور الدين ويبكون ويلعنونني ويدعون علي، فلابد من المسير إليه، ثم تجهز وسار بنفسه.

وأما نجم الدين فإنه سيَّر عسكرا. فلما اجتمعت العساكر سار نور الدين نحو حارم فحصرها ونصب عليها المجانيق، وتابع الزحف عليها، فاجتمع من بقي بالساحل من الفرنج، فجاؤوا في حَدِّهم وحديدهم وملوكهم وفرسانهم، وقسوسهم ورهبانهم، وأقبلوا إليه من كل حدب ينسلون، وكان المقدَّمَ فيهم البرنسُ بيمند صاحبُ أنطاكية، وقمصُ صاحبُ طرابلس وأعمالها، وابن جوسلين وهو من مشاهير الفرنج، والدُّوك وهو مقدَّمٌ كبير من الروم، وجمعوا الفارس والراجل.

فلما قاربوه رحل عن حارم إلى أرتاح طمعًا أن يتبعوه فيتمكن منهم ببعدهم عن بلادهم، فساروا فنزلوا على غمر، ثم علموا عجزهم عن لقائه فعادوا إلى حارم، فلما عادوا تبعهم نور الدين في أبطال المسلمين على تعبئة الحرب، فلما تقاربوا اصطفوا للقتال، فبدأ الفرنج بالحملة على ميمنة المسلمين وفيها عسكر حلب وصاحب الحصن، فانهزم المسلمون فيها، وتبعهم الفرنج، فقيل كانت الهزيمة من الميمنة على اتفاق ورأي دبَّروه، وهو أن يتبعهم الفرنج، فيبعدوا عن راجلهم فيميل عليهم من بقي من المسلمين بالسيوف، فإذا عاد فرسانهم لم يلقوا رَجْلاً يلجئون إليه، ويعود المنهزمون في آثارهم، فيأخذُهم المسلمون من بين أيديهم ومن خلفهم، وعن أيمانهم وعن شمائلهم، فكان الأمر على ما دبَّروه، فإن الفرنج لما تبعوا المنهزمين عطف زين الدين في عسكر الموصل على راجل الفرنج فأفناهم قتلا وأسرا، وعاد خيَّالتهم ولم يُمعِنوا في الطلب خوفًا على راجلهم، فعاد المنهزمون في آثارهم، فلما وصل الفرنج رأوا رجالهم قتلى وأسرى، فسُقط في أيديهم، ورأوا أنهم قد هلكوا، وبقوا في الوسط قد أحدق بهم المسلمون من كل جانب، فاشتدت الحرب، وكثر القتل في الفرنج، وتمت عليهم الهزيمة، فعدل حينئذ المسلمون عن القتل إلى الأسر، فأسروا مالا يُحَدّ، وفي جملة الأسرى صاحب أنطاكية وصاحب طرابلس «القمص» وكان شيطان الفرنج وأشدَّهم شكيمة على المسلمين، والدُّوك مقدمُ الروم، وابن جوسلين، وكان عدد القتلى يزيد على عشرة آلاف.

وقد فادى نور الدين بالأسرى عددًا كبيرًا من أسرى المسلمين.

وكان للشعراء دور طيب فى الثناء على نور الدين وتأييده في حصار تلك القلعة وفتحها، ومن ذلك قصيدة لأحد الشعراء اكتفي بذكر أبيات منها يقول فيها:

أَلَبَسْتَ دين محمد يا نورهَ ... عِزاً له فوق السُّها آسادُ

مازلت تشمله بميَّاد القنا ... حتى تشقَّف عوده الميَّادُ

لم يبق مذ أرْهَفْتَ عزمك دونه ... عدد يُراعُ به ولا استعداد

إن المنابر لو تطيق تكلُّمًا ... حَمدَتْك عن خطبائها الأعوادُ

مَنْ مُنكرٍ أن ينسف السيل الربا ... وأبوه ذاك العارض المدَّاد

لا ينفع الآباءَ ما سمكوا من الـ ... ـعلياء حتى يرفع الأولاد(١)

وهكذا سعد المسلمون بهذه الانتصارات الكبيرة على الصليبيين بعد أن لقي منهم المسلمون عنتًا شديدًا فجادت قرائح الشعراء بالقصائد العصماء في مدح الإمام العادل والمجاهد البطل نور الدين محمود، وإن هناك ما هو أعظم من المدائح الشعرية مما لا يسطر في الكتب إلا قليلا، ألا وهو لهج ألسنة الصالحين بالدعاء، وهذا عند نور الدين وأمثاله أهم كثيرًا وأعظم.

ولقد أثبتت هذه الوقائع وغيرها أن نور الدين مع ما اتصف به من الشجاعة والإقدام كان ذا رأي مسدد في الحرب، وإلى ذلك ترجع بعض انتصاراته على الأعداء.

هذا وقد ذكر المؤرخ أبو شامة أخبار هذا الحصار والفتح ثم قال:

قلت: وبلغنى أن نور الدين رحمه الله تعالى لما التقى الجمعان، أو قُبيله، انفرد تحت تل حارم، وسجد لربه عز وجل، ومرَّغ وجهه وتضرَّع، وقال: يارب، هؤلاء عبيدك وهم أولياؤك، وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك، فانصر أولياءك على أعدائك، أيش فضول محمود في الوسط؟ يشير إلى أنك يا رب إن نَصَرْتَ

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ٤٩، ٧٩، ٨٦ - ٨٧. وذلك في سنة إحدى وخمسين وخمسمائة، وسبع وخمسين وخمسمائة وتسع وخمسين وخمسمائة.

المسلمين فدينَك نصـرت، فلا تمنعهم النصـر بسبب محمـود إن كان غير مسـتحقٍّ للنصر.

وبلغني أنه قال: اللهم انصر دينك ولا تنصر محـمودًا، من هو محمود الكلب حتى يُنصـر! وهذا فتح عظيم ونصر عـزيز أنعم الله به على نور الدين والمسلمين، مع أن جيشه عـامئذٍ كان منه طائفة كبـيرة بمصر مع شِيركُوه كـما سبق، وهذا من عجيبِ ما وقع واتفقٍ[1].

انتصاره فى معركة الملاّحة:

قال المؤرخ أبو شامة: قـال أبو يعلى: وفى تاسع جُمادى الأولى من سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة سـقطت الأطيار بالكتب من المعسكر النُّوري تتضمن الإعلام بأن الملك العادل نور الدين -أعـز الله نصره- لما عرف أن معسـكر الكفرة الإفرنج على الملاَّحة؛ بين طبريَّة وبانياس، نهض في عسكره المنصور من الأتراك والعرب، وجَدَّ في السيـر، فلما شارفهم وهم غارُّون، وشـاهدوا راياته قد أظلَّتهم، بادروا بلبس السِّلاح والركـوب، وافترقوا أربع فرق، وحـملوا على المسلمين، فعند ذلك ترجَّل الملك نور الدين، فـتـرجَّلت معـه الأبطال وأرهقـوهم بالسِّهـام وخِرْصـان الرِّماح[2]، حتى تزلزلت بهم الأقدام، ودهمهم البـوار والحِمام، فأنزل الله تعالى نصره عـلى المسلمين، وتمكَّنوا من فرسـانهم قتـلاً وأسرًا، واسـتأصلت السُّـيوفُ الرَّجَّالة، وهم العدد الكثير، فلم يفلت منهم غير عشرة نفر، وقيل إن ملكهم لعنه الله فيهم، وقيل إنه في جُمْلة القتلى، ولم يعـرف له خبر، ولم يُفقد من عسكر الإسـلام سوى رجلين أحـدهما من الأبطال المـذكورين قـتل أربعة من شـجعـان الكفرة، وقُتل عند حضور أجله إلى رحـمة الله تعالى، والآخر غريب لا يُعرف، وكل منهما مضى شهيدًا، مثابًا مأجورًا، رحمهما الله. وامتلأت أيدي العساكر من خيولهم وعُددهم، وكُراعهم وأثاث سوادهم، وحصلت كنيستهم فى يد الملك نور الدين بآلاتها المشهورة، وكان فتحًا مبينًا، ونصرًا عزيزًا[1].

---

(١) كتاب الروضتين ١/ ٤١٩.
(٢) يعني أسنتها.
(٣) كتاب الروضتين ١/ ٣٤٣.

موقف فى الثبات لنور الدين:

قال المؤرخ أبو شامة: قال أبو يعلى: وفى ليلة الثالث والعشرين من رجب سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ورد الخبر من العسكر بأن الفرنج تجمَّعوا وزحفوا إلى العسكر المنصور، وأن المولى نور الدين نهض في الحال في العسكر، والتقي الجمعان، واتَّفق أن عسكر الإسلام حدَث فيه فشل لبعض المقدَّمين، فاندفعوا وتفرَّقوا بعد الاجتماع، وبقي نور الدين ثابتًا مكانه في عِدَّة يسيرة من شجعان غِلْمانه وأبطال خواصِّه فى وجوه الفرنج، وأطلقوا فيهم السِّهام، فقتلوا منهم ومن خيولهم العدد الكثير، ثم ولُّوا منهزمين خوفًا من كمين يظهر عليهم من عسكر الإسلام، ونجَّى الله -وله الحمد- نور الدين من بأسهم بمعونة الله تعالى، وشدَّة بأسه، وثبات جأشه، ومشهور شجاعته، وعاد إلى مخيَّمه سالمًا في جماعته، ولامَ من كان السبب في اندفاعه بين يدي الفرنج، وتفرَّق جمع الفرنج إلى أعمالهم، وراسل ملكهم لنور الدين في طلب الصُّلح والمهادنة وحرص على ذلك، وتردَّدَتْ بين الفريقين مراسلات، ولم يستقرَّ بينهما حال، وعاد نور الدين إلى دمشق سالمًا.

قلت: وذكر أبو الفتح بَنْجير بن أبي الحسن بن بَنْجير الأشترى؛ المعيد -كان- بالمدرسة النَّظامية، في سيرة مختصرة جَمَعَها لنور الدين، رحمهما الله قال: وبلغنا أنَّ نور الدين خرج إلى الجهاد في سنة ست(١) وخمسين وخمسمائة، فقضى الله بانهزام عسكر المسلمين، وبقي الملك العادل مع شرذمة قليلة، وطائفة يسيرة، واقفًا على تلٍّ يقال له تل حبيش، وقد قرب عسكر الكُفَّار بحيث اختلط رَجَّالة المسلمين مع رجَّالة الكُفَّار، فوقف الملك العادل بحذائهم موليًّا وجهه إلى قبلة الدُّعاء، حاضرًا بجميع قلبه، مناجيًا ربَّه بسرِّه يقول: يا رَبَّ العباد، أنا العبد الضَّعيف، ملَّكْتني هذه الولاية وأعطيتني هذه النِّيابة، عمرتُ بلادك، ونصحتُ عبادك، وأمرتُهُمْ بما أمرتني به، ونهيتُهم عما نهيتنى عنه، فرفعت المنكرات من بينهم، وأظهرتُ شعار دينك في بلادهم، وقد انهزمَ المسلمون، وأنا لا أقدر على دفع هؤلاء الكفار أعداء دينك ونبيِّك محمد ﷺ، ولا أملك إلا نفسي هذه، وقد سلَّمتها إليهم ذابًا عن دينك وناصرًا لنبيِّك. فاستجابَ الله تعالى دعاءه، وأوقع في

(١) قال المعلق: كذا قال بنجير، وقد وهم، والصواب سنة ثلاث وخمسين كما ساقه أبو شامة في حوادثها.

قلوبهم الرُّعب، وأرسل عليهم الخذلان، فوقفوا مواضعهم وما جسروا على الإقدام عليه، وظنُّوا أنَّ الملك العادل عمل عليهم الحيلة، وأنَّ عسكر المسلمين في الكمين، فإن أقدموا عليه تخرج عساكر المسلمين من الكمين فلا ينفلت منهم أحد. فوقفوا وما أقدموا عليه.

قال: ولولا ذلك الإلهام من الله تعالى لكانوا قد استأسروا المسلمين، وما كان ينفلت واحد من المسلمين، فوقف عسكر الكفار وبرز اثنان منهم يجولان بين الصَّفَّين يطلُبان البراز من المسلمين، فأمر الملك العادل بِخُطْلُخ الزَّاهد؛ مولى الشَّهيد بالخروج إليهما، فخرج، وجال بينهما ساعة، وحمل على واحد منهما فقتله، ثم جال ساعة وعمل حيلة وخدعَهُ، ورجع إلى قريب صفِّ الكُفَّار، وحمل على الآخر فقتله، ورجع إلى الصف(١).

فتح قلعة بانياس:

ذكر المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة تسع وخمسين وخمسمائة أنه في ذى الحجة من هذه السنة سار نور الدين إلى قلعة بانياس، وهي بالقرب من دمشق، وكانت بيد الفرنج من سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، ولما فتح «حارم» أَذِنَ لعسكر الموصل وديَار بكر بالعود إلى بلادهم، وأظهر أنه يريد طبرية، فجعل من بقي من الفرنج هِمَّتَهم حفظها وتقويتها، فسار محمود إلى «بانياس» لعلمه بقلة من فيها من الحماة المانعين عنها، فنازل أهلها وضيَّق عليهم وقاتلهم، وكان في جملة عسكره أخوه نُصْرة الدين أمير أميران، فأصابه سهم فأذهب إحدى عينيه، فلما رآه نور الدين قال له: لو كُشِف لك عن الأجر الذي أُعِدَّ لك لتمنيت ذهاب الأخرى.

وجدَّ في حصارها، فسمع الفرنج فجمعوا، فلم تتكامل عدتهم حتى فتحها، على أن الفرنج قد ضعفوا بقتل رجالهم في حارم وأسْرِهم، فملَك القلعة وملأها ذخائر وعُدَّة ورجالا، وشاطر الفرنج في أعمال طبرية، وقرروا له على الأعمال التى لم يشاطرها عليها مالاً في كل سنة.

---

(١) كتاب الروضتين ١/ ٣٧٦ - ٣٧٨.

ووصل خبر استيلاء نور الدين على حصن حارم وحصن بانياس إلى الفرنج بمصر، فصالحوا شيركوه[1] وعادوا ليدركوا بانياس، فلم يصلوا إلا وقد استولى عليها نور الدين[2].

فهذا الخبر فيه مواقف عالية لنور الدين محمود رحمه الله تعالى، فمن ذلك تخطيطه الحربي البارع، وذلك حينما أوهم أعداءه بأنه سائر إلى طبرية، ثم عاد إلى بانياس، فكان استعداد الأعداء في غير المكان الذي قصد، وترتَّب على هذه الخدعة الحربية نجاحهُ في الاستيلاء على بانياس.

وما عَمِلَه نور الدين من خداع الأعداء داخل في قول رسول الله ﷺ «**الحرب خدعة**»[3].

ومن ذلك عزاؤه البليغ لأخيه الذي فُقِئَتْ عينه في الحرب، وهذا العزاء يدل على عمق إيمان نور الدين ورسوخ يقينه، وعظمة استحضاره لمشاهد الحياة الآخرة.

فتح حصن المُنَيطرة وصافيثا وعريمة:

وهذه خدعة حربية أخرى يقوم بها نور الدين محمود، فقد ذكر المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة إحدى وستين وخمسمائة أنه سار إلى حصن المُنَيطرة -وكان بيد الفرنج- بعدد قليل من جيشه على غِرَّة منهم، وهو يعلم أنه لو جمع عساكره حذِرُوا، فسار إليهم وانتهز فرصة غفلتهم، فحاصره وجدَّ في قتال أصحابه فأخذه عنوة وقَتل بعض رجاله وسبَى بعضهم، ولم يجتمع الفرنج للدفاع عنه إلا وقد استولى عليه، فتفرقوا وأيسوا من رده[4].

وهكذا تكُونُ إدارة الحروب الناجحة: مكاسبُ كبيرة في مقابل خسائر قليلة.

وقد استمر نور الدين في غزو الصليبيين في بلاد الشام، فقد غزا بلادهم سنة

---

(١) شيركوه هو أسد الدين الأيوبي وهو عم صلاح الدين الأيوبي، وهو من أكبر قادة نور الدين، وقد وجهه للاستيلاء على مصر وبصحبته ابن أخيه صلاح الدين.

(٢) الكامل في التاريخ ٨/ ٨٧.

(٣) صحيح البخاري، الجهاد، رقم ٣٠٣٠ (٦/ ١٥٨)، صحيح مسلم الجهاد، رقم ١٧٣٩ (٣/ ١٣٦١).

(٤) الكامل في التاريخ ٩/ ٩٤، وانظر البداية والنهاية ١٢/ ٢٦٩.

ثلاث وستين وخمسمائة فاستولى على بعض قلاعهم وحصونهم ومنها «صافيثا وعريمة»[1].

القضاء على حملة صليبية:

- على إثر انتصارات نور الدين المتتالية في الشام واستيلائه على مصر[2] بعث الصليبيون إلى دول أوربا يطلبون نجدتهم، ويخوفونهم من استيلاء نور الدين على بيت المقدس، فأرسلوا لهم حملة وصلت إلى دمياط، ولما علم بهم الصليبيون في الشام أمدوهم بالجيوش، وكان أسد الدين شيركوه قد مات وخَلَفه على ولاية مصر ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي، فأرسل الجيوش إلى دمياط، واستمد نور الدين فأمدَّه بالجيوش أرسالاً وانتهز فرصة خروج جيوش الصليبيين إلى مصر فأغار على بلادهم في الشام واستولى على كثير منها وخرب كثيرًا من حصونهم، وقد قاومهم صلاح الدين في مصر حتى هزمهم، ورجعت الحملة الصليبية إلى أوربا خاسئة حسيرة، ورجع الصليبيون إلى الشام فوجدوا نور الدين قد استولى على كثير من بلادهم، فخسروا الشام ولم يكسبوا مصر[2].

وهذا يعتبر نجاحًا كبيرًا لنور الدين الذي وُفِّق برجال أكفاء أقوياء من أمثال أسد الدين وصلاح الدين.

حصار حصن الكرك ولقاء مع الصليبيين:

ذكر ابن الأثير حصار نور الدين حصن الكرك، وهو من أمنع المعاقل على طرف البر، فحاصره وضيَّق على أهله، ونصب عليه المنجنيقات، فأتاه الخبر أن الصليبيين قد جمعوا له وساروا إليه، وقد جعلوا على مقدمتهم ابن هنغري وفليب ابن الرقيق، وهما فارسا الفرنج في وقتهما، فرحل نور الدين نحو هذين المقدَّمين ليلقاهما ومن معهما قبل أن يلتحق بهما باقي الفرنج، فلما قاربهما رجعا القهقرى واجتمعا بباقي الفرنج، وسلك نور الدين وسط بلادهم يفتح القري، وأقام ينظر حركة الفرنج فلم يبرحوا مكانهم.

---

(١) الكامل ٩/ ٩٦.　　(٢) كما سيأتي في جهاد أسد الدين شيركوه.

(٣) الكامل ٩/ ١٠٥، وانظر البداية والنهاية ١٢/ ٢٧٩.

لكن إحدى سرايا نور الدين انتصرت على سـرية من سرايا الصليبيين، وكانت هذه السرية بقـيادة شهاب الدين إلـياس، وكان قد سـار إلى نور الدين ومعه مئـتا فارس فـصادف ثلاثمائة فـارس من الصليبيين، فـاقتتلوا واشـتد القتال، وصـبر الفريقان وكثر القتلى بين الطائفتين، فانهزم الصليبيون، وعمهم القتل والأسر، ولم يفلت منهم إلا من لا يعتد به(١).

حملة تأديبية للصليبيين:

ومن أعمال نور الدين الجهادية تلك الحملة التـأديبية التى قام بها لتأديب الفرنج لما استولوا على مركبـين تجاريين للمسلمين، فقد قام بحملة واسعـة فيما تبقَّى من أملاكهم حتى خضعوا وسلَّموا ما أخذوا بذلَّة وصَغار(٢).

وهذا موقف جليل فى إظهار عزة دولة الإسلام وحماية مصالح المسلمين.

حصار الصليبيين لدمياط:

قال المؤرخ ابن الأثير: فى هذه السنة [خمس وستين وخـمسمائة] فى صفر نزل الفرنج على مدينة دمياط من الديار المصرية وحصروها وكان الفرنج بالشام لما ملك أسد الدين شيركوه مصر قد خافـوه وأيقنوا بالهلاك، وكاتبوا الفرنج الذين بصقلية والأندلس وغيـرها يستمدونهم ويعـرفونهم ما تجدد من ملك الأتراك مـصر وأنهم خـائفون على البـيت المقـدس منهم، فأرسلوا جـمـاعة من القـسوس والرهبـان يحرضونهم على الحـركة، فأمدوهم بالأموال والرجـال والسلاح، واتعدوا للنزول على دميـاط ظنًا منهم أنهم يملكونها ويتـخذونها ظهرًا يمـلكون به الديار المصرية، ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ﴾ [الأحزاب: ٢٥] فإلى أن دخلوا كان أسد الدين قد مات وملك صلاح الدين، فاجتمعوا عليها وحصروها وضيقوا على من بها، فأرسل إليها صلاح الدين العساكر فى النيل وحشر فيها كل من عنده، وأمدهم بالأموال والسلاح والذخائر، وأرسل إلى نور الدين يشكو ما هـم فيه من المخافة ويقول إنى إن تأخرت عن دمـياط ملكهـا الفرنج وإن سرت إليـها خلفنى المصـريون فى أهلها بالشـر وخـرجـوا عـن طاعـتى وسـاروا فى أثرى، والفـرنج أمـامى فـــلا يبـقى لنا

(١) الكامل ٩/ ١٠٦.
(٢) الكامل ٩/ ١١٣.

باقية، فسيـر نور الدين العساكر إليه أرسالا يتلو بعضها بعـضا، ثم سار هو بنفسه إلى بلاد الفرنج الشامية فنهبها وأغار عليـها واستباحها فوصلت الغارات إلى ما لم تكن تبلغه قـبل لخلو البلاد من مانع، فـلما رأى الفرنج تتابع الـعساكر إلى مـصر ودخول نور الدين إلى بلادهم ونهـبها وتخريبـها رجعوا خـائبين لم يظفروا بشيء ووجدوا بـلادهم خرابا وأهلهـا بين قتـيل وأسيـر، فكانوا موضع المثل (خـرجت النعامة تطلـب قرنين رجعت بلا أذنين) وكانت مدة مـقامهم على دميـاط خمسين يوما، أخرج فيها صـلاح الدين أموالا لا تحصى، حكى أنه قال ما رأيت أكرم من العاضد أرسل إليّ مرة لمقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها(١).

وقد ذكر المؤرخ أبو شامة هذا الخبـر ثم قال: وبلغنى من شِدَّة اهتمام نور الدين رحمه الله بأمر المسلمين حين نَزَلَ الفرنج على دِمْياط أنه قرئ عليه جُزْء من حديث كان له به رواية، فجاء في جملة تلك الأحـاديث حديث مسلسل بالتبسُّم، فطلَبَ منه بعضُ طلبـة الحديث أن يتـبسَّم لتـتم السلسلة، على مـا عُرف من عـادة أهل الحديث، فغـضب من ذلك وقال: إنى لأستحـيى من الله تعالى أن يراني متبـسمًا والمسلمون مُحاصَرون بالفرنج.

وبلغني أن إمامًـا لنور الدين رأى ليلة رحيل الفرنج عن دميـاط في منامه النبيَّ ﷺ وقال له: أَعلِمْ نورَ الدين أن الفرنج رحلوا عن دمـياط في هذه الليلة، فقال: يا رسول الله، ربما لا يصدِّقني، فاذكر لي علامةً يعـرفها. فقال: قل له بعلامة ما سجدت على تَلٍّ حـارمٍ، وقلتَ: يا رب انصر دينك ولا تنصر مـحمودًا، مَنْ هو محمود الكلب حتى يُنْصَر قال: فـانتبهت ونزلت إلى المسجد، وكان من عادة نور الدين أنه ينزل إليـه بغَلَـس، ولا يزال يتركَّـع فيـه حـتى يصلِّي الصـبح، قـال: فتعرَّضْتُ له، فسألني عن أمري، فأخبرته بالمنام، وذكرت له العلامة، إلا أنني لم أذكر لفظة الكلب، فـقال نور الدين رحمـه الله تعالى: اذكر العلامـة كلهَا. وألحَّ علي في ذلك، فقلتهـا فبكى رحمه الله وصدَّق الرؤيا، وأرِّخـت تلك الليلة فجاء الخبر برحيل الفرنج بعد ذلك فى تلك الليلة(٢).

---

(١) الكامل ٩/ ١٠٥ - ١٠٦.
(٢) كتاب الروضتين ٢/ ١٣٩ - ١٤٤.

فهـذا مثال على قـوة إيمان السلطان نور الدين محـمود ورسـوخ يقينه، وذلك لحضور قلبه القوي مع الله تعالى، واعتقاده الجازم بأن النصر بيده عز وجل وحده، ولما كان شديد الاهتمام بأمور المسلمين متحرقًا قلبه خوفا عليهم وعلى انتكاس راية المجاهدين قـدر الله تعالى تلك الـرؤيا الصالحة التـى رآها ذلك الرجل ليبـشر نور الدين برحيل الصليـبيين عن دميـاط، ووقاية الله تعالى المسلمين من شـرهم، وقد اشتملت هذه الرؤيا على التذكير بذلك الموقف الجليل لنور الدين حينما سجد على تلٍّ حارم وقال ذلك الكـلام الذي يتضرع فيه إلى الله عـز وجل بأن ينصر المسلمين وتناسى فـيه ذاته ومكانتـه، وتجسَّم فى تفكيـره الشوق العـارم نحو عـزة الإسلام وانتصار المسلمين.

مثل من اهتمامه بحماية المسلمين:

قال ابن الأثير، وفى سنة سـبع وستين وخمسمـائة أمر الملك العادل نورُ الدين باتخاذ الحمام الهوادي، وهى المناسيب التى تطيـر من البلاد البعيدة إلى أوكارها، فاتخذت في سائر بلاده.

وكان سـبب ذلك أنه اتسَّعت بلاده وطالت مملكته، فـكانت من حد النَّوبة إلى باب هَمَذان، لا يتخلَّلها سـوى بلاد الفرنج. وكان الفرنج -لعنهم الله- ربما نازلوا بعض الثغور، فإلى أن يصله الخبر، ويسـير إليهم يكونوا قد بلغوا بعض الغرض. فحينئذ أمر بذلك، وكتب به إلى سائر بلاده، وأجرى الجرايات لها ولمربِّيها؛ فوجد بها راحـةً كبـيرة. كانت الأخـبار تأتيـه لوقتهـا، لأنه كان له في كل ثَغْـر رجالٌ مرتَّبون، ومـعهم من حمام المدينة التي تجاورهم، فـإذا رأوا أو سمعوا أمرًا كـتبوه لِوَقْته، وعلَقْوه على الطائر، وسرَّحوه، فيصل إلى المدينة التي هو منها في ساعته، فَتنقل الرُّقْـعة منه إلى طائر آخر من البلد الذي يجـاورهم في الجهة التي فيـها نور الدين، وهكذا إلى أن تصل الأخبار إليه. فانحفظت الثُّغور بذلك، حتى إن طائفةً من الفرنج نازلوا ثغـرًا له، فأتاه الخبر ليـومه، فكتب إلى العساكـر المجاورة لذلك الثَّغْر بالاجـتماع والمسير بسرعـة، وكَبْس العدوِّ، ففعلوا ذلك فظفـروا والفرنج قد أمنوا لبُعْـد نور الدين عنهم. فرحم الله نور الدين ورضـي عنه، فما كـان أحسن نظَره للرعايا والبلاد[1].

---

(١) كتاب الروضتين ٢/ ٢٢٩.

٤- جهاد أسد الدين شيركوه

في عهد السلطان العادل نور الدين محمود كان للأمير أسد الدين شيركوه بن شادي الأيوبي في جهاد الصليبيين في مصر جهود طيبة.

وكان سبب ذلك - على ما ذكره المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة تسع وخمسين وخمسمائة- أن شاور بن الخياط وزير العاضد لدين الله العبيدي صاحب مصر، نازعه في الوزارة ضرغامٌ وغلبه عليها، فجاء شاور إلى نور الدين وطلب منه أن يمده بجيش يستعيد به وزارته في مقابل أن يكون تابعًا له ويبعث له ثلث دَخْل البلاد، وأن يبقى أسد الدين عندهم بجيشه، فشجعه على الاستجابة رغبُته في التقَوِّي على الصليبيين حينما يحيط بهم جيش من الشام وجيش من مصر، وقد كان أسد الدين راغبًا في ذلك لَمَا عُرِف عنه من الشجاعة والإقدام، فوجهه نور الدين إلى مصر، فكانت مواجهةٌ بينه وبين ناصر الدين أخي ضرغام، فانهزم ناصر الدين وعادت الوزارة لشاور، إلا أن شاور غدر بأسد الدين ولم يف بشيء مما وعد به، فانحاز أسد الدين إلى بلبيس، وأرسل شاور إلى الصليبيين يستمدهم ويخوفهم من نور الدين إن استولى على مصر، فجاؤوا من بلاد الشام وأحاطوا هم وجيش المصريين بأسد الدين في بلبيس، ولكنه استطاع أن يتحصن منهم بتلك المدينة رغم ضعف أسوارها، وكان يخرج لقتالهم بجيشه ثم يتحصن، وقد بقي على ذلك ثلاثة أشهر إلى أن بلغ الصليبيين أن نور الدين قد استولى على قلعة حارم التي هي من أمنع حصونهم، فطلبوا الصلح مع أسد الدين على أن يسلِّم ما بيده إلى المصريين، ولم يكن يعلم بما جرى لهم في الشام، إضافة إلى أن الأقوات والذخائر قلَّت عنده كثيرا.

قال ابن الأثير: وخرج من بلبيس في ذى الحجة، فحدثني من رأى أسد الدين حين خرج من بلبيس قال: أخرج أصحابه بين يديه، وبقي في آخرهم وبيده لَتٌّ من حديد، يحمي ساقتهم، والمسلمون والفرنج ينظرون إليه، قال: فأتاه فرنجي من الغرباء الذين خرجوا من البحر(١) فقال له: أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء

(١) وهم الذين جاؤوا لزيارة بيت المقدس فاستعان بهم الصليبيون على القتال.

المصريون والفرنج وقد أحاطوا بك وبأصحابك ولا يبقى لكم بقية!! فقال شيركوه: يا ليتهم فعلوه حتى كنت ترى ما أفعله، كنت والله أضع السيف فلا يُقتل منا رجل حتى يُقتل منهم رجال، وحينئذ يقصدهم الملك العادل نور الدين وقد ضعفوا وفني شجعانهم فنملكُ بلادهم ونُهلكُ من بقي.

قال الفرنجي: كنا نعجب من فرنج هذه البلاد ومبالغتهم في صفتك وخوفهم منك، والآن فقد عذرناهم. ثم رجع عنه وسار شيركوه إلى الشام فوصل سالما، وكان الفرنج قد وضعوا له في الطريق رصدًا ليأخذوه أو ينالوا منه ظفرا، فعلم بهم فحاد عن ذلك الطريق، ففيه يقول عمارة:

أخذتمْ عن الإفرنج كلَّ ثنية وقلتَ لأيدي الخيل مُرِّي على (مَرِّي)

لئن نصبوا في البر جسرا فإنكم عبرتم ببحر من حديد على الجسر

ولفظُه (مَرِّي) في آخر البيت الأول اسم ملك الفرنج[1].

فهذا الخبر فيه مثل من خيانة بعض أمراء المسلمين آنذاك ووزرائهم حيث كانوا يتحالفون مع الصليبيين ضد المسلمين، وقد كان هؤلاء أشد بلاءً على الأمراء المخلصين للإسلام من الصليبيين أنفسهم، وهذا الوزير وأمثاله كانوا من حكام الدنيا، ولم يكن يهمهم أمر الدين.

أما موقف أسد الدين فقد كان مجيدا حيث ثبت للصليبيين وحلفائهم من المسلمين ثلاثة شهور، ولم يستسلم لهم ولم يطلب منهم الصلح.

وفي حواره مع ذلك الصليبي تصوير رائع لشجاعة المسلمين، واستهانتهم بالمهالك في سبيل خدمة دينهم.

وفي آخر الخبر مثل من دقة الرصد الحربي عند المسلمين، حيث أراد الأعداء إهلاك المسلمين أو إضعافهم بالكمين الذي وضعوه لهم ليأخذوهم على غرةٍ، ولكن طلائع المسلمين اكتشفوهم فسلكوا طريقًا آخر، وفوتوا على الصليبيين تلك الفرصة.

(١) الكامل ٩/ ٨٤ - ٨٦ وانظر كتاب الروضتين ١/ ٤١١ -٤١٤.

معركة البابين:

ذكر المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة اثنتين وستين وخمسمائة خبر مسير أسد الدين شيركوه إلى بلاد مصر حيث قال: فلما كان هذه السنة تجهز وسار في ربيع الأول في جيش قوي، وسيَّر معه نور الدين جماعة من الأمراء، فبلغت عدتهم ألفي فارس، وكان كارهًا لذلك، ولكن لما رأى جدَّ أسد الدين في المسير لم يمكنه إلا أن يُسيِّر معه جمعا خوفًا من حادث يتجدد عليهم فيضعف الإسلام، فلما اجتمع معه عسكره سار إلى مصر على البر وترك بلاد الإفرنج على يمينه، فوصل إلى الديار المصرية، فقصد طفيح وعبر النيل عندها إلى الجانب الغربي، ونزل بالجيزة مقابل مصر، وتصرف في البلاد الغربية، وحكم عليها، وأقام نيفًا وخمسين يوما.

وكان شاور [ابن الخياط] لما بلغه مجيء أسد الدين إليهم قد أرسل إلى الإفرنج يستمدهم فأتوه على الصعب والذلول طمعًا في ملكها، وخوفًا أن يملكها أسد الدين فلا يبقى لهم في بلادهم مقام معه ومع نور الدين، فالرجاء يقودهم والخوف يسوقهم.

فلما وصلوا إلى مصر عبروا إلى الجانب الغربي، وكان أسد الدين وعساكره قد ساروا إلى الصعيد، فبلغ مكانًا يعرف بالبابين، وسارت العساكر المصرية والفرنج وراءه فأدركوه بها في الخامس والعشرين من جمادى الأولى.

قال ابن الأثير في سياق روايته: وكان [يعني أسد الدين] أرسل إلى المصريين والفرنج جواسيس فعادوا إليه وأخبروه بكثرة عددهم وعُددهم وجِدِّهم في طلبه، فعزم على قتالهم إلا أنه خاف من أصحابه أن تضعف نفوسهم عن القتال في هذا المقام الخطر الذي عَطَبُهم فيه أقرب من سلامتهم، لقلة عددهم وبُعدِهم عن أوطانهم وبلادهم وخطر الطريق، فاستشارهم، فكلهم أشار عليه بعبور النِيل إلى الجانب الشرقي والعود إلى الشام، وقالوا له: إن نحن انهزمنا وهو الذي يغلب على الظن -فإلى أين نلتجئ وبمن نحتمي وكل من في هذه الديار من جندي وعامي وفلاح عدو لنا؟

فقام أمير من مماليك نور الدين يقال له شرف الدين برغش صاحب شقيف وكان شجاعا. . ثم ذكر كلامه في الحث على الثبات والإقدام على قتال الأعداء.

قال: فقال أسد الدين: هذا الرأي وبه أعمل، وقال ابن أخيه صلاح الدين مثله، وكثر الموافقون لهم، واجتمعت الكلمة على القتال.

فأقام بمكانه حتى أدركه المصريون والفرنج وهو على تعبية، وجعل الأثقال في القلب يتكثر بها، وجعل صلاح الدين في القلب، وقال له ولمن معه: إن المصريين والفرنج يجعلون حملتهم على القلب ظنًا منهم أني فيه، فإذا حملوا عليكم فلا تصدُقوهم القتال، ولاتُهلكوا نفوسكم، واندفعوا قدَّامهم بين أيديهم، فإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم، واختار هو من شجعان عسكره جمعًا يثق بهم ويعرف صبرهم في الحرب، ووقف بهم في الميمنة، فلما تقابلت الطائفتان فعل الفرنج ما ذكره وحملوا على القلب، فقاتلهم من به قتالا يسيرا وانهزموا بين أيديهم غير متفرقين، ومعهم الفرنج، فحمل حينئذ أسد الدين فيمن معهم على من تخلف من الذين حملوا من المسلمين والفرنج، الفارسُ والراجل فهزمهم ووضع السيف فيهم فأثخن وأكثر القتل والأسر، فلما عاد الفرنج من أثر المسلمين رأوا عسكرهم مهزوما والأرضَ منهم قفرا فانهزموا أيضًا.

وكان هذا من أعجب ما يُؤَرَّخ، أن ألفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل[1].

في هذا الخبر مثل من الشجاعة الفائقة والخطط الحربية الناجحة، فقد صمد ألفان لجيش يفوقهم عدة أضعاف في العَدد والعُدد وتغلبوا عليهم، ولقد كان من أسباب هذا التفوق أن جيش أسد الدين كانوا يقاتلون عن إخلاص لقضيتهم، فكانوا يبذلون قدرًا كبيرًا من طاقتهم.

ومن أسباب ذلك ما قام به أسد الدين من إعداد تلك الخطة الحربية الرائعة التي فرَّقت قوة الأعداء وشلَّت من حركتهم، فقد كان لها الأثر الأكبر في انتصاره وخذلان أعدائه.

---

(١) الكامل ٩/ ٩٤ - ٩٥.

ولا يغيبنَّ عن البال أن الذين حضروا المعركة من المصريين كانوا من النفعيين الذين رضوا بأن يقفوا مع الصليبيين في صف واحد، أما أهل الاستقامة فإنهم مبعدون عن إدارة الأمور والمشاركة في الحروب لفساد الحكم آنذاك، ومما يدل على ذلك أنه لما توجه أسد الدين إلى الإسكندرية ساعده أهلها وتسلَّمها بدون قتال، لأنهم يتمنون حكمه بدلا من حكم عملاء الصليبيين، وحينما حاصرها الصليبيون وعملاؤهم صمد أهلها مع صلاح الدين ثلاثة أشهر وكان أسد الدين قد أنابه عليها(١).

ولقد كان للمسلمين المصريين الصادقين مواقف عالية في نصرة الإسلام والمسلمين، فعلى يد جيشهم -بالدرجة الأولى- تم دحر التتار الذين عاثوا فساداً في بلاد الإسلام بقيادة قطز في معركة عين جالوت، وبمشاركتهم الفعالة تم القضاء على الصليبيين في الشام بقيادة صلاح الدين الأيوبي في معركة حطين.

ومع هذا الانتصار الكبير لأسد الدين فإنه قد رحل بجيشه عن مصر، ولعل سبب ذلك قلة جيشه حيث لا يتمكن من إبقاء حوامي في البلاد التي يستولي عليها، لكنه عاد بجيشه بعد سنتين إلى مصر لما قوي أمر الصليبيين فيها، وكانوا قد أبقوا بعض شجعانهم في مصر يشرفون على الحكم فيها ويتولون جباية الأموال المقررة لهم على أهل مصر، وقد حكموا على المسلمين حكما جائراً وآذوهم أذى شديداً.

هجوم النصارى على مصر:

لما رأى هؤلاء النصارى ضعف الحكم في مصر كاتبوا أمير النصارى في الشام وهو «مَرِي» وهو من أشدهم شجاعة ومكراً ودهاء، فزينوا له غزو مصر لخلوها من المدافعين عنها، وقدْ فَهِم لدهائه أن ذلك خطر على النصارى في الشام، لأن ذلك يُحرِّض نور الدين عليهم، وأنه لو أرسل أسد الدين إليها لكان هلاك النصارى في الشام لأن نور الدين سيغزوهم من الشمال والشرق وأسد الدين

(١) الكامل ٩/ ٩٥، وانظر الروضتين ٢/ ١٨ - ١٩.

سيغزوهم من الجنوب، ولكنه لم يستطع إقناع كـبراء دولته الذين أصروا على غزو مصر بحجـة أنهم سيملكونها قبل أن يتحرك نور الدين. وَجَـدَّ النصارى في السير إلى مصر، واستولوا على بعض بلادها، وكان أمير مصر العاضد العبيدي، ووزيره شاور وهو الذي بيده الحكم.

استنجاد حكام مصر بنور الدين

وأرسل العاضـد إلى نور الدين يسـتغيث به ويعـرفه ضـعف المسلمين عن دفع النصارى، وأرسل في الكتب شعـور النساء، وقال: هذه شعور نسـائي من قصري يستغثن بك لتنقذهم من الفرنج، فشرع في تسـيير الجيوش وكان قبل ذلك قد علم بتحرك الفرنج فبدأ يضم جيوشه إليه.

أما الفرنج فإنهم اشتدوا في حصار القاهرة وضيقوا على أهلها، فراسلهم شاور وذكر لملك الفرنج مـودته لهم وخوفه من أن يقدم جيش نور الدين فيـستولي على مصر، واتفـقا على الصلح على أن يدفع شاور للفرنج ألـف ألف دينار ويرجعون إلى بلادهم، فاستطاع أن يعطيهم مائة ألف واستمـهلهم في البقية حتى يجمعه من الناس ولكنه لم يسـتطع ذلك لأنه كان قـد أحرق بلادهم حتى لا يسـتولي عليـها الفرنج فذهبت أموالهم.

إرسال أسد الدين إلى مصر:

وقد توالت كتب أهل مصر إلى نور الدين يسـتمدونه ويطلبون منه إنقاذهم من الصليبيين، فبـعث إلى أسد الدين ليولِّيه على جيش مصـر وكان في حمص حيث كان واليا عليها، فما شعر به نور الدين إلا وهو على أبواب حلب ففرح نور الدين بقدومـه وتفاءل من ذلك، وكـان أسد الدين قد وصـلته أيضًا كـتب استـغاثة من مصر، فأمر نور الدين بتجهيز الجيش، وأعطى أسد الدين مائتي ألف دينار للإنفاق على الجيش سوى الثـياب والدواب والأسلحة وغير ذلك، وأعطاه حـرية التصرف في إدارة الجيش ومواجهة الأعداء، واختار من العسكر ألفي فارس إلى جانب ستة آلاف من غيرهم، وبعث معه نور الدين عددًا من الأمراء، ومنهم صلاح الدين بن

يوسف ابن أخي أسد الدين، وكان صلاح الدين كـارها لذلك المسير لِمَا واجهه من الأهوال حينما حوصر في الإسكندرية، ولكن نور الدين ألزمه بالمسير مع عمه.

رحيل النصارى وتولي أسد الدين الوزارة:

وسـار أسد الدين مـجدًا منتـصف شـهر ربيع الأول، من عـام أربعة وسـتين وخمسمائة، فلما قارب مصر رحل الفرنج إلى بلادهم بخُفَّي حنين خائبين، وسمع بذلك نور الدين ففرح بـه وأمر بضرب البشائر في البـلاد، واعتبر رحيلهم فـتحًا وهزيمة كبرى لهم.

ووصل أسد الدين إلى القاهرة واجتمع بأميرها العاضد وفرح به أهل مصر.

أما شاور بن الخـياط وزير حاكم مصر فـإنه ساءه مجيء أسد الدين شـيركوه، وعزم على دعـوته ثم القبض عليـه، فنهاه ابنه الكامل وقـال له: والله لئن عزمت على هذا الأمر لأُعَـرِّفنَّ شيـركوه، فقـال له أبوه: والله لئن لم نفعل هذا لـنُقتلنَّ جميـعا، فقال: صـدقت ولأنْ نقتل ونحن مسلمـون والبلاد إسلاميـة خير من أن نُقتل وقد ملكها الفرنج، فإنه ليس بينك وبين عـود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه، وحينئذ لو مشى العـاضد إلى نور الدين لم يرسل معه فارسًا واحدًا ويملكون البلاد، فترك شاور ما كان عزم عليه.

ولعل أمراء أسد الدين عرفوا بما عزم عليه شـاور فعزم بعضهم على قتله وعلى رأسهم صـلاح الدين فنهاهم عن ذلك أسـد الدين، ولكنهم ظلوا على عـزمهم، وانتهزوا فرصة مجيئه مع حاشيته يسأل عن أسد الدين فأخبروه أنه ذهب لزيارة قبر الإمام الشافـعي فسايره صلاح الدين ومن معـه وألقوه عن فرسه وهربَتْ حاشـيته فأخذوه أسيرًا ولم يمكنهم قتله إلا بعد إذن أسد الدين فحضر ولم يمكنه إلا إتمام ما بدؤوا به.

وسمع بذلك أمير مصر العـاضد فطلب رأس شاور وتابع الرسل في ذلك فقُتل وأرسل إليه رأسه في السابع عشر من ربيع الآخر، وتجـمهر الناس فأمرهم العاضد بنهب دار شاور فانتهبوها.

وسار أسد الدين إلى قصر العاضد فقلَّده الوزارة ولُقِّب المنصورَ أمير الجيوش، وصار هو صاحب الأمر والنهي في مصر، ولكنه لم يمهل طويلا حيث توفي فى يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة، وكانت ولايته شهرين وخمسة أيام(١).

ففي هذا الخبر مواقف وعبر منها:

أولا: أن الحاكم الصالح يحفظ الله تعالى به البلاد والعباد، ويحميهم بحسن تدبيره من شرور الأعداء، ويتحقق على يديه الأمن والرخاء، وذلك لأنه يختار لمؤازرته وتدبير أموره أهل الاستقامة والشجاعة والرأي السديد، فيستخلصُ أفضل عناصر الأمة ليكونوا هم الذين يدبرون أمورها ويحمونها، ففي السلم أمن ورخاء، وحماية للضعفاء من ظلم الأقوياء، فإذا دهم العدو البلاد قام الرجال الأكفاء لحمايتها وفدوا أمتهم بأرواحهم وأموالهم.

أما الحاكم النفعي الذي لا يهمه إلا مصالحه الخاصة فإنه يخشى من أهل الكمال والفضل لأنهم لا يوافقونه على تجاوزاته، فيقرب النفعيين من أمثاله الذين لا يهمهم إلا مصالحهم، ويستوي عندهم أن يحكمهم حاكم مسلم أو كافر، ففي السلم ظلم واعتداء على الآمنين، وتسلط من الأقوياء على الضعفاء، فإذا دهم البلادَ عدو فإن هؤلاء النفعيين لا يستطيعون حمايتها لأنهم متفرقون حيث لا يجمعهم هدف واحد مشترك، بل هدف كل واحد منهم تأمين مصالحه الخاصة.

وهكذا كان وضع بلاد مصر في ذلك الزمن، حيث استولى عليها الصليبيون دون مقاومة.

هذا الشعب العظيم الذي لم يستطع حماية بلاده من الصليبيين هو الذي كان له إسهام كبير في القضاء على الصليبيين في الشام بعد سنوات معدودات، وكان الفارق بين الأمرين هو تغيُّر السلطة الحاكمة، حيث انتقلت إدارة البلاد من العُبَيديين إلى الأيوبيين، وذلك بما قام به صلاح الدين الأيوبي من إبعاد النفعيين وتقريب أهل الكفاءة والأمانة.

---

(١) الكامل لابن الأثير ٩/ ٩٩ - ١٠١. وانظر الروضتين ٢/ ٥١ - ٥٢.

ثانيًا: من حسنات نـور الدين محمـود أنه اختار أسـد الدين شيـركوه الأيوبي لقيادة جيوشه في عدة وقائع مع الصليبـيين، وكان شجاعًا مقداما، ومع ذلك فإنه كان ذا رأي حـصيف في تدبير الحـروب، وقد طارت له سمـعة عاليـة بين أعداء الإسلام من النصـارى حتى صار اسمـه مرعبًـا لهم، ولا أدل على ذلك من قول الكامل بن شاور إنك إذا قبـضت على شيركوه عاد الفرنج واسـتولوا على البلاد، فقد كان معـلومًا لدى المجتمع آنذاك أن جلاء الفرنج من مصر كـان بسبب رعبهم من أسد الدين لشجاعته وطاعة جيشه له.

ثالثًا: موقف جـليل للكامل بن شاور حـيث نهى أباه عن تدبير خطة للـقبض على أسد الدين شيـركوه وأبان له بأن مصلحة مصر والإسـلام في بقاء أسد الدين حتى لا يرجع الصليبيون إلى مصر، وهذا يدل على إخلاصه للإسلام ولأمته.

***

٥- جهاد صلاح الدين الأيوبي

هو صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي، ولد بتكريت في العراق، وانتقل به أبوه إلى الشام حيث أصبح أبوه من أمراء نور الدين محمود، ثم أصبح صلاح الدين من قادته وشارك عمه أسد الدين شيركوه في القضاء على الصليبيين والعبيديين في مصر، إلى أن آل إليه حكم مصر بعد وفاة عمه أسد الدين شيركوه.

ولما توفي السلطان نور الدين محمود صار بين صلاح الدين وأبناء نور الدين نزاع حتى آل الأمر إلى ظهور صلاح الدين وشملت سلطنته مصر والشام والجزيرة وغيرها.

وكان رحمه الله عادلاً كريمًا حليمًا صبورًا على ما يكره، ومن أخبار زهده وكرمه أنه مات ولم يخلِّف إلا دينارًا وأربعين درهما، مع سعة سلطانه(١).

غزوه بلاد الفرنج وفتح أيلة:

ذكر المؤرخ ابن الأثير أن صلاح الدين الأيوبي سار في عام ستة وستين وخمسمائة من مصر وأغار على أعمال عسقلان وغزة وأتاه ملك الفرنج في قلة من العسكر مسرعين لرده عن البلاد فقاتلهم وهزمهم، وأفلت ملك الفرنج بعد أن كاد أن يؤخذ أسيرًا.

وعاد صلاح الدين إلى مصر فعمل مراكب مفصلة وحملها قطعًا على الجمال في البر، وقصد أيلة، فجمع قطع المراكب وألقاها في البحر، وحصر أيلة براً وبحرًا وفتحها في العشر الأُوَل من ربيع الآخر(٢).

---

(١) الكامل ٩/ ١٠٢، ١٣٠، ٢٢٥، وكانت إمرته على مصر بعد وفاة عمه أسد الدين شيركوه، وذلك في عام أربعة وستين وخمسمائة وذلك في أواخر حكم العاضد الحاكم العبيدى الذي كان حاكما بالاسم فقط، ثم ضم صلاح الدين إلى حكمه الشام وغيرها بعد وفاة نور الدين إلى أن توفي في عام تسعة وثمانين وخمسمائة.

(٢) الكامل ٩/ ١١٠.

موقف لأهل الإسكندرية في صد حملة صليبية:

ذكر المؤرخ ابن الأثير في حوادث سنة سبعين وخمسمائة أن أسطولا بحريًا حربيا خرج من صقلية لغزو مصر، وهو مكون من مائتي سفينة تحمل الرجال وست وثلاثين تحمل الخيل، إضافة إلى ستة مراكب كبار تحمل آلة الحرب وأربعين مركبًا تحمل الأزواد، وأن عدد المقاتلين خمسون ألفا من الرَّجالة وألف وخمسمائة من الفرسان، وكانت تلك الحملة بقيادة ابن عم صاحب صقلية، فوصلوا إلى الإسكندرية في السادس والعشرين من ذي الحجة عام تسعة وستين وخمسمائة على حين غفلة من أهلها وطمأنينة.

فخرج أهل الإسكندرية بسلاحهم وعُدتهم ليمنعوهم من النزول وأبعدوا عن البلد فمنعهم الوالي عليهم من ذلك وأمرهم بملازمة السور، ونزل الفرنج إلى البر مما يلي البحر والمنارة، وتقدموا إلى المدينة ونصبوا عليها الدبابات والمنجنيقات، وقاتلوا أشد قتال، وصبر لهم أهل البلد ولم يكن عندهم من العسكر إلا القليل، ورأى الفرنج من شجاعة أهل الإسكندرية وحسن سلاحهم ما راعهم.

وسيرت الكتب بالحال إلى صلاح الدين يستدعونه لدفع العدو عنهم، ودام القتال أول يوم إلى آخر النهار ثم عاود الفرنج القتال اليوم الثاني وجدُّوا ولازموا الزحف حتى وصلت الدبابات إلى قريب السور، ووصل ذلك اليوم من العساكر الإسلامية كلُّ من كان في أقطاعه وهو قريب من الإسكندرية فقويت بهم نفوس أهلها وأحسنوا القتال والصبر، فلما كان اليوم الثالث فتح المسلمون باب البلد وخرجوا منه على الفرنج من كل جانب وهم غارُّون وكثر الصياح من كل الجهات فارتاع الفرنج واشتد القتال فوصل المسلمون إلى الدبابات فأحرقوها وصبروا للقتال فأنزل الله نصره عليهم وظهرت أماراته، ولم يزل القتال إلى آخر النهار ودخل أهل البلد إليه وهم فرحون مستبشرون بما رأوا من تباشير الظفر وقوتهم وفشل الفرنج وفتور حربهم وكثر القتل والجراح في رَجَّالتهم.

وأما صلاح الدين فإنه لما وصله الخبر سار بعساكره، وسير مملوكًا له ومعه ثلاث جنائب ليجدَّ السير عليها إلى الإسكندرية يبشر بوصوله، وسير طائفة من العسكر

إلى دمياط خوفًا عليها واحتياطا لها، فسار ذلك المملوك فوصل الإسكندرية من يومه وقت العصر والناس قد رجعوا من القتال فنادى في البلد بمجيء صلاح الدين والعساكر مسرعين، فلما سمع الناس ذلك عادوا إلى القتال وقد زال ما بهم من تعب وألم الجراح وكل منهم يظن أن صلاح الدين معه فهو يقاتل قتال من يريد أن يشاهد قتاله.

وسمع الفرنج بقرب صلاح الدين في عساكره فسُقِط في أيديهم وزادوا تعبًا وفتورا فهاجمهم المسلمون عند اختلاط الظلام ووصلوا إلى خيامهم فغنموها بما فيها من الأسلحة الكثيرة والتحملات العظيمة، وكثر القتل في رَجالة الفرنج فهرب كثير منهم إلى البحر وقرَّبوا شوانيهم إلى الساحل ليركبوا فيها فسلم بعضهم وركب، وغرق بعضهم، وغاص بعض المسلمين في الماء وخرق بعض شواني الفرنج فغرقت فخاف الباقون من ذلك فولوا هاربين، واحتمى ثلثمائة من فرسان الفرنج على رأس تل فقاتلهم المسلمون إلى بكرة ودام القتال إلى أن أضحى النهار فغلبهم أهل البلد وقهروهم فصاروا بين قتيل وأسير وكفى الله المسلمين شرهم(١).

في هذا الخبر صورة جيدة للحروب الدفاعية الناجحة، حيث استطاع أهل الإسكندرية بمعونة بعض أهل القرى المجاورة لهم أن يصدوا حملة بحرية كبيرة مجهزة بأقوى وأضخم العتاد الحربي.

ولقد كان أهل الإسكندرية في غاية الشجاعة والإقدام حينما خرجوا لقتال جيش يفوقهم كثيرًا في العَدد والعُدد، ولقد أجادوا الخطة الحربية حينما باغتوا العدو وهم آمنون، حيث لم يكن الأعداء يتوقعون أن أهل الإسكندرية يستطيعون مقاومتهم أو يتجرؤون على الخروج لقتالهم.

ونجد في هذا الخبر موقفًا فدائيًا في غاية الروعة حينما غاص في البحر بعض المغاوير من المسلمين وخرقوا بعض سفن الأعداء من تحتها فغرَّقوها، فهذه عملية في منتهى الخطورة لما يتوقع من هجوم الأعداء بسلاح الرماية من فوق السفن.

---

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ١٢٩ - ١٣٠، وانظر كتاب الروضتين ٢/ ٣٣٣ - ٣٣٤.

وهكذا استطاع هؤلاء الأبطال من المسلمين أن يشردوا حملة بحرية كبيرة كان الأعداء قد خططوا لها ليستولوا بها على مصر بعد أن أبادوا كثيرًا من جنودها وعددًا كبيرًا من الأسلحة الثقيلة ووسائل النقل.

وفي هذا الخبر مثل من تطبيق المسلمين لجهاد الفرض العيني، وذلك فيما إذا دهم العدو دار الإسلام، فإن الجهاد يجب على كل قادر في ذلك البلد ومن حوله حتى تحصل الكفاية في صد الأعداء.

مواجهة بينه وبين الصليبيين في الأردن:

ذكر المؤرخ أبو شامة نقلا عن القاضي ابن شداد أن الخبر وصل إلى السلطان بأن الفرنج قد اجتمعوا في صَفُورِيَة، ورحلوا إلى الفولة؛ وهي قرية معروفة وذلك في عام تسعة وسبعين وخمسمائة وكان غرضه المصافّ، فلما سمع بذلك تعبَّى للقتال، وسار للقاء العدو، فالتقوا، وجرى قتالٌ عظيم، وقتل من العدو جماعةٌ وجُرح جماعة، وهم ينضمُّ بعضهم إلى بعض، يحمي راجلهم فارسهم، ولم يخرجوا للمصاف، ولم يزالوا سائرين حتى أتوا العين، فنزلوا عليها، ونزل السلطان حولهم، والقتل والجرح يعمل فيهم ليخرجوا إلى المصاف، وهم لا يخرجون؛ لخوفهم من المسلمين، فإنهم كانوا في كثرة عظيمة، فرأى السلطان الانتزاح عنهم لعلَّهم يرحلون، فَيُضرب معهم مصاف، فرحل نحو الطور سابع عشر جمادى الآخرة، فنزل تحت الجبل مترقبًا رحيلهم، ليأخذ منهم فُرصة، فأصبح الفرنج راجعين على أعقابهم ناكصين، فرحل رحمه الله نحوهم، وجرى من رمي النُّشَّاب واستنهاضهم للمصاف أمور عظيمة فلم يخرجوا، ولم يزل السلطان حولهم حتى نزلوا الفولة راجعين إلى بلادهم، وعاد السلطانُ منصوراً وقد نال منهم قتلاً وأسرًا، وخرَّب عَفْرَبَلا وبَيْسان وزرعين وقرى عِدَّة، فنزل الفَوّار، وأعطى النَّاس دستورًا، فسار من آثر المسير، وأتى هو دمشق يوم الخميس الرابع والعشرين من جمادى الآخرة.

قال: فانظر إلى هذه الهِمَّة التي لم يشغلها عن الغَزَاة أخذ حلب ولا الظَّفر بها، بل كان غرضه - رحمة الله عليه - الاستعانة بالبلاد على الجهاد، فالله يحسن جزاءه في الآخرة، كما وفَّقه للأعمال المرضية في الدُّنيا[1].

(١) كتاب الروضتين ٣/ ١٨٥ - ١٨٦.

موقعة حطِّين[1]:

خرج صلاح الدين من مصر إلى الشام ومعه جيش من مصر وممن قدموا معه من الشام، فلما وصل أرسل إلى بقية أطراف الشام وإلى المشرق يطلب اجتماع الجيوش لغزو الصليبيين، فاجتمع لديه اثنا عشر ألف فارس من الجند الذين يتقاضون الرواتب سوى المتطوعة، وذلك في عام ثلاثة وثمانين وخمسمائة.

واستشار صلاح الدين أمراءه في كيفية قتال الأعداء، فأشار أكثرهم عليه بترك اللقاء، وأن يُضعف الصليبيين بشنِّ الغارات وإخراب الولايات مرة بعد مرة، فقال صلاح الدين: الرأي عندي أن نلقى بجمع المسلمين جمع الكفار فإن الأمور لا تجري بحكم الإنسان، ولا نعلم قدر الباقي من أعمارنا، ولا ينبغي أن نفرق هذا الجمع إلا بعد الجهد والجهاد.

ثم سار بجيشه حتى خلَّف طبرية خلف ظهره، وتقدم حتى قارب الصليبيين وهم في خيامهم لم يفارقوها، فأمر العسكر بالنزول، فلما جنَّه الليل جعل في مقابل الصليبيين من يمنعهم من القتال، وسار بطائفة من الجيش إلى طبرية وقاتل أهلها ونقب بعض أبراجها، وأخذ المدينة عنوة في ليلة، ولجأ من بها إلى القلعة التي لها فامتنعوا بها، وفيها أميرتها النصرانية ومعها أولادها.

فلما سمع الصليبيون بذلك اجتمعوا للمشورة فاستقر رأيهم على التقدم لقتال المسلمين، وهذا هو الذي أراده صلاح الدين من مهاجمة طبرية، وتقدموا حتى قربوا من معسكر المسلمين.

فلما سمع بذلك صلاح الدين عاد من طبرية، وكان المسلمون قد نزلوا على الماء، والزمان قيظ شديد الحر، فوجد الصليبيون العطش، ولم يتمكنوا من الوصول إلى ذلك الماء من المسلمين، وكانوا قد أفنوا ما هناك من الصهاريج، ولم يتمكنوا من الرجوع خوفًا من المسلمين، فبقوا على حالهم إلى الغد وهو يوم السبت وقد أخذ العطش منهم.

---

(١) هي قرية قرب طبرية وقعت حولها المعركة.

أما المسلمون فإنهم باتوا يحرض بعضهم بعضا، وقد وجدوا ريح النصر والظفر، وكلما رأوا الصليبيين على خلاف عادتهم مما ركبهم من الخذلان زاد طمعهم وجرأتهم، فأكثروا التكبير والتهليل طول ليلتهم، وكان السلطان صلاح الدين، قد عبَّى جيشه ونظمه وجعل الرماة في المقدمة.

يوم المعركة:

أصبح صلاح الدين والمسلمون يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر، فركبوا وتقدموا إلى الصليبيين، فركب الصليبيون ودنا بعضهم من بعض، وأمر السلطان الرماة أن يرشقوا الأعداء بنبالهم، وتبارز الشجعان، ثم أمر السلطان بالتكبير والحملة الصادقة، فحمل المسلمون على أعدائهم فاقتتلوا أشد قتال، وصبر الفريقان، وأثخن رماة المسلمين في الأعداء فقتلوا كثيرًا من خيولهم.

وتوجه الصليبيون نحو طبرية لعلهم يَرِدُون الماء، فلما علم صلاح الدين بمقصدهم صدهم عن مرادهم، ووقف بالعسكر في وجوههم، وطاف بنفسه على المسلمين يحرضهم، والناس مطيعون له.

وقد حمل مملوك من مماليك صلاح الدين على الأعداء حملة قوية فقاتل قتالاً عجب منه الناس، ثم تكاثر الأعداء عليه فقتلوه، فعند ذلك حمل المسلمون حملة قوية ضعضعوا بها الكفار وقتلوا منهم كثيرًا.

ولما اشتد القتال عليهم أدرك «القمص» حاكم طرابلس أنه لا طاقة لهم بقتال المسلمين فاتفق هو وجماعة وحملوا على من يليهم، وكان المقدَّمَ في تلك الناحية تقيُّ الدين عمر ابن أخي صلاح الدين، فأدرك أنهم منهزمون يريدون الفرار فأمر أصحابه أن يفتحوا لهم طريقًا يخرجون منه.

فلما انهزم القمص فتَّ ذلك في أعضادهم وكادوا يستسلمون، ثم علموا أنه لا ينجيهم من الموت إلا الإقدام عليه، فحملوا حملات متوالية كادوا يزيلون المسلمين - على كثرتهم - عن مواقفهم لولا لطف الله تعالى بهم.

وكان بعض المتطوعة قد ألقى في تلك الأرض نارًا وكان الحشيش كثيرًا فاحترق، وكانت الريح فحملت حر النار والدخان إلى الأعداء، فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال.

ولم ينفع الأعداء إقدامهم ومحاولة كسب المعركة لأنهم في كل حملة يفقدون عددًا كبيرًا منهم لشدة ثبات المسلمين وبسالتهم، فوهن الأعداء لذلك وهنًا عظيمًا، فأحاط بهم المسلمون إحاطة الدائرة بقطرها، فارتفع من بقي منهم إلى تل بناحية حطين، وأرادوا أن ينصبوا خيامهم ويحموا نفوسهم به فاشتد القتال عليهم من سائر الجهات، ومنعهم المسلمون عما أرادوا ولم يتمكنوا من نصب خيمة إلا خيمةَ ملكهم.

وأخذ المسلمون صليبهم الأعظم، الذي يسمونه صليب الصلبوت، ويذكرون أن فيه قطعةً من الخشبة التي صُلب عليها المسيح عليه السلام بزعمهم، فكان أخذه عندهم من أعظم المصائب عليهم، وأيقنوا بعده بالقتل والهلاك.

وقد واجه المسلمون مقاومة عنيفة من الصليبيين، يقول الأفضل ابن صلاح الدين الأيوبي: كنت إلى جانب أبي في ذلك المصافِّ، وهو أول مَصَافٍّ شاهدته، فلما صار مَلك الفرنج على التل في تلك الجماعة حملوا حملة منكرة على من بإزائهم من المسلمين حى ألحقوهم بوالدي، قال: فنظرت إليه وقد عَلَتْه كآبة وارْبَدَّ لونه وأمسك بلحيته، وتقدم وهو يصيح: كذب الشيطان، قال: فعاد المسلمون على الفرنج فرجعوا فصعدوا إلى التل، فلما رأيت الفرنج قد عادوا والمسلمون يتبعونهم صحت من فرحي: هزمناهم، فعاد الفرنج فحملوا حملة ثانية مثل الأولى ألحقوا المسلمين بوالدي، وفعل مثل ما فعل أولاً، وعطف المسلمون عليهم فألحقوهم بالتل، فصحت أنا أيضًا هزمناهم، فالتفت والدي إلي وقال: اسكت، ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة، قال: فهو يقول لي إذا الخيمة قد سقطت، فنزل السلطان وسجد شكرًا لله تعالى فبكى من فرحه، وكان سبب سقوطها أن الفرنج لما حملوا تلك الحملات ازدادوا عطشًا، وقد كانوا يرجون الخلاص في بعض تلك الحملات مما هم فيه، فلم يجدوا إلى الخلاص طريقًا، فنزلوا عن دوابهم وجلسوا على الأرض فصعد المسلمون إليهم فألقوا خيمة الملك وأسروهم عن بكرة أبيهم، وفيهم الملك وأخوه والبرنس أرياط صاحب الكرك ولم يكن في الفرنج أشدُّ منه عداوة للمسلمين، وأسروا أيضًا صاحب جبيل وابنَ هنفري ومقدَّمَ الداوية، وكان من أعظم الفرنج شأنًا.

وانتهت المعركة بانتصار حاسم للمسلمين وانهزام ساحق للصليبيين، وقد كثر فيها القتلى والأسرى منهم حتى إن من يرى القتلى لا يظن أنهم أسروا واحدًا، ومن يرى الأسرى لا يظن أنهم قتلوا أحدًا، وما أصيب الفرنج منذ خرجوا إلى الساحل سنة إحدى وتسعين وأربعمائة بمثل هذه الوقعة، وقد بلغ عدد القتلى ثلاثين ألفا وبلغ عدد الأسرى منهم ثلاثين ألفا.

فلما فرغ المسلمون منهم نزل صلاح الدين في خيمته وأحضر ملك الفرنج عنده والبرنس صاحب الكرك، وأجلس الملك إلى جانبه وقد أهلكه العطش فسقاه ماء مثلوجًا فشرب وأعطى فضله البرنس صاحب الكرك، فشرب، فقال صلاح الدين: إن هذا الملعون لم يشرب الماء بإذني فينال أماني، ثم كلم البرنس وقرَّعه بذنوبه وعدَّد عليه عوراته، ومن ذلك أنه سب الرسول ﷺ، وعزم على غزو مكة والمدينة، وقتلِ الحجاج غدرًا، وكان صلاح الدين قد نذر مرتين أن يقتله إن ظفر به، فقام إليه بنفسه فقتله، فلما قتله وسُحب وأُخرج ارتعدت فرائص ملك الصليبيين فسكَّن السلطان جأشه وأمَّنه(١).

هذه المعركة العظيمة تعتبر من المعارك الفاصلة في حياة المسلمين، حيث ترتب عليها فتح القدس وكثير من المدن والحصون التي كان الصليبيون قد استولوا عليها.

وهذا اللقاء الكبير هو الذي كان يخطط له نور الدين محمود حينما بذل جهودًا كبيرة في توحيد بلاد الشام ومصر حيث كان لا يستطيع في بلاد الشام وما جاورها أن يجمع نصف هذا الجيش، فكانت كل حروبه تقليصًا لوجود الصليبيين وإضعافًا لهم، ولكن حينما انضمت مصر إلى سلطنته خطط لحرب شاملة يطوِّق بها الصليبيين من الشمال والجنوب، ولكن وافته المنية قبل أن يتم ذلك، فاستثمر صلاح الدين تلك الجهودَ الكبيرةَ وأكمل ما بدأه نور الدين وكانت على يديه هذه المعركة الكبيرة الفاصلة.

وقد ظهرت لصلاح الدين وجيشه مواقف عالية، منها:

أولاً: رأيه في مواجهة الأعداء الذي خالف فيه قادته حيث كان رأيهم تفريقَ الجيش في سرايا تهاجم حصون الأعداء حتى يتم إضعافهم، بينما كان رأيه

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٩/ ١٧٦ - ١٧٩. والبداية والنهاية لابن كثير ١٢/ ٤٣١ - ٣٤٣.

مواجـهةَ جـمع الأعداء بجمع المسلمـين، فكان رأيه أسدَّ من آرائهم وأعظم نفـعًا للمسلمين ونكايةً في أعدائهم.

ثانيًا: إغارته على طبرية ليلجئ الأعداء إلى مغادرة مكانهم ومواجهته في المكان الذي أراد أن تكون المعركـة فيه، فكان له مـا أراد، وكان ذلك من عوامل انتـصار المسلمين واندحار أعدائهم.

ثالثًا: أن أفراد الجـيش الإسلامـي ظلوا طوال ليلة المعركـة يكبرون الله تعـالى ويهللون، وقد جاء في بعض الأخبار أن صلاح الدين كان يتفقد جيشه تلك الليلة فوجدهم ما بين ذاكر ومصلٍّ وتالٍ لكتاب الله تعالى مـا عدا أصحاب خيمة واحدة وجـدهم نيامـا، فقـال: إن أُتيناً غدا فـإنما سنُؤْتَى من هذه الخـيمـة فأيقظ أهلهـا وسرَّحهم إلى دمشق.

وهذا يدل على وعي السلـطان صلاح الدين وفـهـمـه الثاقب لعـوامل النصـر الأساسية، كما يدل على صلاح أفراد ذلك الجيش الذي تم على يده النصر الحاسم للإسلام والمسلمين.

رابعًا: في تلك المعركة انتصر المسلمون على عدو يبلغ أضعافهم، حيث جاء في نهاية خبر المعـركة أن عدد قتلى الصليبيين ثلاثون ألفـا وعددَ أسراهم ثلاثون ألفا، وقـد استطاع ثلاثة آلاف منهم الفـرار، وهذا يعني أنهم كـانوا ثلاثة وستين ألفـا، بينمـا كان عـدد جيش المسلمين اثني عـشر ألفًـا سوى المتطوعين الذين لم يُـذكر عددهم، والظاهر أن عددهم قليل لا يلفت النظر، إذ لو كـانوا كثيرين لكان هناك اهتمام بـبيان عددهم، فالمـسلمون إذًا واجهوا أضعـافهم، إضافة إلى عـامل مهم ظاهره أنه لصالح المسلمين وحقيقته أنه لصالح الأعداء، وهو كون الأعداء قد حيل بينهم وبين الماء، وليس بينهم وبينه إلا جيش المسلمين، وهذا عادةً يكون دافعًا إلى استمـاتة المقاتلين وإقدامهم ليخـترقوا صفوف أعدائـهم حتى يصلوا إلى الماء، وقد كان ذلك من الصليبيين، ولكنهم وُوْجِهوا بثـبات قوي وبسالة عالية من المسلمين، حيث استطاعوا صد هجماتهم وإعادتَهم إلى الوراء أكثر من مرة.

وقد جرى على المسلمين قديمًا - بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه - موقف مشابه، حيث واجـهوا أعداءهم وليس معهم ماء وكـان الأعداء على الماء، فشكى

المسلمــون هذا الأمر لخــالد فأفــادهم بأن الماء سيــصيــر لأصبــر الفريقــين، وصار للمسلمين الذين صبروا وهزموا أعداءهم من الفرس.

خامسًا: من المواقف العالية للسلطان صلاح الدين الأيوبي أنه لما حمل الأعداء حملة شديدة على المسلمين وتراجع المسلمون حتى لحقوا به قال: «كذب الشيطان» فهذا دليل على أنه لم يعـتمد على الأسباب المادية وإنما كـان حاضر القلب مع الله تعالى مـدركًا أنه هو ولي المؤمنين وأن الشيـطان ولي الكافرين، فهـو بهذا الكلام يدحر الشيطان الرجيم الذي يفـرح بما ينال المسلمين من هزيمة، ويُشعره بأن ظنونه كاذبة وأن ما حصل للمسلمين إنما هو أمر عارض، وأن المسلمين سيثبتون وستكون نهاية المعركة لصالحهم.

إن أول مـا تبادر إلى ذهنه من هول ذلك المشـهـد هو دحر الشـيطان وتكذيب ظنونه، وهذا يعني أن فكره مـرتبط برجاء نصـر الله تعالى وتأيـيده، ليخـيب ظن الشيطان وجنوده، وهذا يكشف لنا عـاملاً مهما من عـوامل نجاح السلطان صلاح الدين في إقامة دولة كبرى تحكم بالإسلام وتتحاكم إليه وتنصره وتدافع عنه.

فتح بيت المقدس:

كان فتح بـيت المقدس هو الهدفَ الأعظم من كل الجهـاد الذي قام به السلطان نور الدين محمود ومنِ بعده السلطانُ صلاح الدين الأيوبي.

ولقد كان من براعـة صلاح الدين وتخطيطِه الحربيِّ العبقريِّ أنه بـدأ بالاستيلاء على المدن الساحلية التي بيد الصليبيين حـتى لا تكون محطاتٍ لنزول حملة صليبية جديدة، ولقد كـان الاستيلاء على بيت المقـدس من قِبَل المسلمين أمرًا كـبيرًا على النصارى في العـالم، فقد كـان هناك احتمال أن يقـوم المنكوبون في حطين بطلب النجدة من الممالك الأوربية، فبدأ صلاح الدين بأقرب بلد إليه وهي طبرية فاستولى عليها، ثم فـتح مدينة عكا بعد حصارها والصلح مع أهلهـا ثم راسل أخاه العادل نائبه على مصر ليغزو المدن الساحلية القريبة منه ففتح «مجدل يابا» و «يافا».

ثم فرَّق صلاح الدين عـسكره مدة إقامته بعـكا، ففتح قادته الناصرة وقـيسارية وصفورية ومعليا والشقيف والفولة وغيرَها من البلدان المجاورة لمدينة عكا.

ثم تولى صلاح الدين فتح مدينة بيروت وصيدا وتبنين وجبيل، وبقي من المدن الساحليـة الشمـالية مدينةُ صـور التي تجمَّع بها أكـثر مَنْ خـرجوا من بلادهم من النصارى وولَّوا أمرهم «المريكش» أحـد التجار القادمين عليها، فكان أمـرها يحتاج إلى مرابطة طويلة فتركها صلاح الدين حتى لا تشغله عن فتح بيت المقدس.

وقد رجع السلطان جنوبًا إلى القدس ولكنه قدَّم عليها عـسقلان فحاصرها بعد أن التقى بأخيه العادل نائبِـه على مصر ومعه جيش من مصر، ففتـحها صلحًا بعد حصار دام أربعة عشر يومًا، ثم بث السرايا ففتح غزة والرملة والداروم وغيرها(١).

ولما تم فتح مـا حول القـدس وتم تأمين الساحل توجه السلـطان صلاح الدين بجيشـه نحو بيت المقدس وكان بهـا جمع كثيف من النصـارى إلى جانب من لجأ إليها من موقعة حطين ومن عسقـلان وغير ذلك، وكانوا جميعًا يرون الموت أهونَ من أن يملك المسلمون بيت المقدس وحـصَّنوا سوره ونصبوا عليه المجـانيق ليمنعوا من يريد الدنو منه، وصعدوا على سوره بِحدِّهم وحديدهم وقد عزموا على حفظه والذب عنه.

وقد وصل جـيش المسلمين إلى القدس فـي متصف رجب سنة ثـلاث وثمانين وخمسمائة، فرأى المسلمون على سـوره من الرجال ما هالهم، وسمعوا لأهله من الجَلَبة والضجيج داخل المدينة ما استدلوا به على كثرة الجمع.

وبقي صـلاح الدين خمـسة أيام يطوف حـول المدينة لينظر من أين يقـاتل لأن السور في غاية التحصين، فلم يجد عليه موضع قتال إلا من جهة الشمال، فانتقل إلى هذه الجهة ونصب المنجنيقات، وبدأ القـتال بالرمي من الطرفين، وتقاتلوا أشد قتال رآه الناس، كل واحد من الفـريقين يرى ذلك دينًا حتمًا واجبًا فلا يحـتاج فيه إلى باعث سلطاني.

وكان خيَّالة الأعداء يخرجون كل يوم إلى ظاهر البلد يقاتلون ويبارزون، فيُقتل من الفريقين، وممن استـشهـد الأمير عـز الدين عيسى بن مـالك، وهو من أكابر الأمراء وكـان أبوه صاحب قلعة جـعبر، وكـان يقاتل بنفسـه كل يوم، فلما رأى

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ١٧٩ - ١٨٢.

المسلمون مصرعه عظم عليهم ذلك فحملوا حملة رجل واحد فأزالوا الفرنج عن مواقفهم فأدخلوهم إلى القدس.

ووصل المسلمون إلى الخندق فجاوزوه والتصقوا بالسور فنقبوه، وزحف الرماة يحمونهم، والمنجنيقات توالي الرمي لتكشف الفرنج عن الأسوار، حتى يتمكن المسلمون من نقب السور، فلما نقبوه حشوه بالمواد وفجروه فسقط السور والبرج الذي عليه.

فلما رأى ذلك الفرنج اجتمع مُقَدَّموهم فتشاوروا واجتمع رأيهم على طلب الأمان وتسليم القدس لصلاح الدين، فأرسلوا جماعة من أعيانهم في طلب الأمان فامتنع السلطان من إجابتهم وقال: لا أفعل بكم إلا ما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة من القتل والسبي، وجزاء سيئة بمثلها.

فلما رجعت رسلهم خائبين لم يظفروا بالصلح أرسل كبيرهم باليان بن بيرزان وطلب الأمان لنفسه ليحضر عند صلاح الدين في أمر الصلح فأجيب إلى ذلك وحضر عنده ورغب في الأمان فلم يجبه واستعطفه فلم يعطف عليه، فلما أيس من ذلك قال له. أيها السلطان اعلم أننا في هذه المدينة في خلق كثير لا يعلمه إلا الله تعالى، وإنما يفترون عن القتال رجاء الأمان ظنًا منهم أنك تجيبهم إليه كما أجبت غيرهم، وهم يكرهون الموت ويرغبون في الحياة، فإذا رأينا الموت لابد منه فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا ونحرق أموالنا وأمتعتنا ولا نترككم تغنمون منها دينارًا واحدًا ولا درهما، ولا تسبُون ولا تأسرون رجلاً ولا امرأة، وإذا فرغنا من ذلك خربنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرهما من المواضع، ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير، ولا نترك دابة ولا حيوانًا إلا قتلناه، ثم خرجنا إليكم كلُّنا فقاتلناكم قتال من يريد أن يحمي دمه ونفسه، وحينئذ لا يُقتل الرجل حتى يقتل أمثاله، ونموت أعزاء أو نظفر كراما.

فاستشار صلاح الدين أصحابه فأجمعوا على إجابتهم إلى الأمان، فأجاب صلاح الدين حينئذ إلى بذل الأمان للفرنج، فاستقر أن يُؤخذ من الرجل عشرة دنانير يستوى فيه الغني والفقير ويؤخذ من المرأة خمسة دنانير ومن الطفل ذكرًا أو أنثى ديناران، فمن أدّى ذلك إلى أربعين يومًا فقد نجا، ومن انقضت الأربعون يومًا عنه ولم يُؤدِّ ما عليه فقد صار مملوكًا.

فبذل ياليان عن الفقراء ثلاثين ألف دينار، فأجيب إلى ذلك وسُلِّمت المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب، وكان يومًا مشهودًا ورُفعت الأعلام الإسلامية على أسوارها.

ودخل صلاح الدين المسجد الأقصى، فأمر بتطهير المسجد والصخرة من الأقذار والأنجاس، فَفُعِل ذلك، وأمر أن يُعْمَل له منبر فقيل له: إن نور الدين محمودًا كان قد عمل بحلب منبرًا أمر الصُّنَّاع بالمبالغة في تحسينه وإتقانه، وقال: هذا عَمِلْناه ليُنْصَبَ بالبيت المقدَّس، فعمله النجارون في عدة سنين، ولم يُعمل في الإسلام مثله، فأمر بإحضاره فُحمل من حلب ونُصب بالقدس، وهذا من حسنات نور الدين وبُعد همته وطموحه رحمه الله تعالى[1].

وهكذا فُتح بيت المقدس للمرة الثانية في الإسلام وقد حاز شرف المرة الأولى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وحاز شرف الثانية السلطان صلاح الدين الأيوبي، وهو شرف كبير أن يُقرن الثاني بالأول.

ومن المواقف الجليلة في هذا الحصار إقدام أبطال المسلمين على الزحف إلى سور المدينة وتجاوُزُهم الخندق الذي وضعه الأعداء لحمايتهم، ثم قيامهم بنقب السور مع كثرة الرماة الذين هم فوق السور، وبإقدام هؤلاء الأبطال تم فتح بيت المقدس وانتصار المسلمين.

وبعد هذه الرحلة الجهادية التي تم فيها الانتصار الحاسم على الصليبيين في حطين وفتح بيت المقدس وعدد من المدن والقلاع.. بعد ذلك عاد صلاح الدين إلى دمشق ليستريح جيشه ثم يواصل الجهاد بعد ذلك، وكتب إلى البلاد جميعًا باجتماع العساكر بدمشق.

ولما عاد إلى دمشق وجد وكيل الخزانة الصفيَّ بن الفايض قد بنى له دارًا بالقلعة هائلةً مطلَّة على الشرف القبلي، فغضب عليه وعزله وقال: إنا لم نُخلَق للمُقام بدمشقَ ولا بغيرها من البلاد، وإنما خُلقنا لعبادة الله عز وجل والجهاد في سبيله، وهذا الذي عملتَه مما يثبط النفوس ويُقعدها عما خلقت له[2].

---

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ١٨٢ - ١٨٥، البداية والنهاية ١٢/ ٣٤٤ - ٣٤٧.
(٢) البداية والنهاية ١٢/ ٣٥١.

وهكذا نرى السلطان صلاحَ الدين يسمو عن متطلبات النفوس القريبة، إلى متطلبات النفوس الطموحة العالية.

إنه لا يهدأ له بال ولا يقِر له قرار وهو يرى بقايا الصليبيين مازالوا في بلاد الإسلام.

فكيف يسعد بالإقامة في القصر المنيف والجنان الوارفة وعُبَّادُ الصليب ينتهكون بلاد الإسلام ويُذلُّون المسلمين؟!

إن الإقامة في القصور والنعيم تعتبر بالنسبة لهذا البطل الطموح سجنًا للقلب الحي، وإعاقة للفكر الوثاب.

إنه لا يَسعد بسماع لحن مُطرب ولا كلام مُعجب، ولا ثناء منمَّق، ولا تستجيشه رؤية القصور المنيفة وما تحتوى عليه من شهوات ونعيم، وإنما يسعد بسماع صهيل الخيل، وقعقعة السلاح، ومقارعة الأقران، والنصر المؤزر على الأعداء.

فلذلك غضب على وكيل الخزانة الذي قصرت همته، وتَدَاَنَى طموحه إلى بناء قصر يستقبل به السلطان.

أوليس خالد بن الوليد رضي الله عنه يقول: ما ليلة تُهدَى إليَّ فيها عروس أَنَالَها محبٌ بأحب إلي من ليلة شديدة البرد كثيرة الجليد أُصَبِّح فيها العدو بسريَّة من المهاجرين!!

إنه وأمثاله سلف صالح عظيم لخلف مبدع طموح من أمثال هذا السلطان الكبير.

حصار مدينة صور:

بعد فتح بيت المقدس لجأ الصليبيون الذين أمَّنهم صلاح الدين إلى مدينة صور الساحلية وهي مدينة حصينة يصعب فتحها من البر لأنها داخلة فى البحر، وقد حفر الصليبيون أمامها خندقًا من البحر إلى البحر فأصبحت كجزيرة في وسط البحر.

ولما علم صلاح الدين بتجمع النصارى بتلك المدينة زحف إليها سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، وحاصرها من جهة واحدة وصار قتال بين المسلمين

والنصارى، ولكن صـلاح الدين أدرك أنه لابد من أسطول بحري لـلمسلمين لأن النصارى يـقاتلونهم من البـر والبحر، فـاستـقدم عـشر سفن من «عـكَّا»، وصار المسلمـون يقاتلون أعـداءهم برًا وبحـرًا، وكادوا ينتـصرون على الأعـداء لولا أن المجاهدين المسلمين الذين في السفن ناموا في إحدى الليالي آخر الليل ولم ينتظموا في الحراسـة فهـجم عليهم الأعداء واسـتولوا على خـمس سفن فألقـى المسلمون بأنفسهم في البحر وغرق بعضهم، ولما رأى السلطان صلاح الدين ذلك أمر قائدى بقية السفن بالسير بها إلى بيروت خـوفًا من أن يستولي عليها الأعداء، وكان ذلك بداية فشل المسلمـين في فتح مدينة صـور، حيث تخاذل بعض القـادة وطلبوا من صلاح الدين أن يأذن(١) لهم بالرحيل، فأذن للجـيش بذلك، وكان بقاء النصارى فيها سـببًا فى عودة الحروب الصليبـية، حيث كانت مكانًا مناسبًا لتـجمع الجيوش القادمة من أوروبا.

فتح اللاذيقية:

قال المؤرخ أبو شـامة: قال القـاضي ابنُ شَدَّاد: وهي بلدٌ مليح، خـفيفٌ على القَلْب، غير مُسَوَّر، وله ميناء مشهـور، وله قَلْعتان مُتَّصلتان على تَلٍّ يشرف على البلد، فنزل السُّلْطان - رحمـة الله عليـه - يوم الخـميس الرَّابع والعـشـرين من جُمادى الأُولى(٢) محدقًـا بالبلد، وأخذ العسكر منازلهم مستـديرين على القَلْعتين من جميع نواحيـها إلا من ناحية البلد، واشتدَّ القـتال، وعَظُمَ الزَّحف، وارتفعت الأصواتُ، وقَـويَ الضَّجـيج إلى آخر النَّهـار، وأُخذ البلد دون القلعـتين، وغَنِمَ النَّاسُ منه غنيمةً عظيمةً، فإنَّه كان بلدَ التُّجَّار.

وفَرَّق بين النَّاس الليل وهجومُهُ، وأصبـح يوم الجمعة مقاتلاً مجـتهدًا في أَخْذِ النُّقوب من شمالي القِلاع، وتمكَّن منها النَّقْبُ حتى بلغ طوله - على ما حكى لي مَنْ ذَرَعه - عشرين ذِراعًـا، وعرضُه أربعة أذرع، فاشتدَّ الزَّحْفُ عليـه حتى صَعِدَ النَّاس الجبل، وقاربوا السُّور، وتواصل القتال حتى صاروا يتحاذفون بحجارة اليدَ، فلما رأى عدوُّ الله ما حَلَّ به من الصَّغَار والبـوار، استغاثوا بطلب الأمان، وطلبوا قاضي جَبَلَة يدخل إليهم ليقرِّرَ لهم قاعدة الأمان، فأُجيبوا إلى ذلك.

---

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ١٨٦ - ١٨٧، كتاب الروضتين ٤/ ٤١١ - ٤١٣.

(٢) يعني من عام أربعة وثمانين وخمسمائة.

وكان - رحمه الله - متى طُلِبَ منه الأمـان لا يبخل به، فعادَ النَّاسُ عنهم إلى خيامـهم وقد أَخَذَ منهم التَّعَب، فبـاتوا إلى صبيحة السـبت، ودخل قاضي جَبَلَة إليهم، واستقرَّ الحالُ معهم على أنهم يُطْلَقون بأنفسهم وذراريهم ونسائهم وأموالهم خلا الغـلال والذَّخائر وآلات السِّـلاح والدَّوابِّ، وأُطلق لهم دوابٌّ يركبـونها إلى مَأْمنهم، ورُقِّيَ عليهـا العَلَمُ الإسلامي المنصور في بقية يوم السَّبْت، وأقـمنا عليها يوم الأحد السَّابع والعشرين من جُمادى الأُولى[1].

فتح قلعة صِهْيَون:

قال المؤرخ أبو شامة: قال القاضي ابنُ شَدَّاد: رحل السُّلْطان عن اللاذقية ظهيرة الأحد السَّـابع والعشرين من جُـمادى الأُولى[2] طالِبَ صِهْيَـوْن، فنزل عليها يوم الثلاثاء التاسع والعشرين، فاستدار العـسكر بها من جميع نواحيها بُكْرَةَ الأربعاء، ونَصَبَ عليهـا ستة مناجـيق، وهي قلعةٌ حصينةٌ منـيعة في طَرَفِ جبلٍ، خنادقُـها أودية هائلة، واسعة عميقة، وليس لهـا خندق محفور إلا من جانبٍ واحد، مقدارُ طُوله ستُّون ذراعًا، ولا يبلغ، وهو نقرٌ في حجر، ولها ثلاثة أسوار، سوران دون رَبَضِها، وسور دون القُلَّة[3]، وسور القُلَّة، وكان على قُلَّتها عَلَمٌ طويل منصوب، فحين أقبل العَسْكر الإسلامي شاهدته وقد وقع، فاستبشر بذلك المسلمون، وعلموا أنَّه النَّصر والفَتْح، واشتَـدَّ القتالُ عليها من سائر الجوانب، فـضربها منجنيق ولده الملك الظَّاهر، وكان نَصَبَـه قُبالة قُرَينة[4] من سورها قاطـع الوادي، وكان صائب الحجر، فلم يزل يضربها حتى هدم من السور قطعةً جيدة عظيمة تمكِّن الصَّاعد في السور من التَّرَقِّي إليه منها.

ولما كان يوم الجمـعة ثاني جُمادى الآخـرة عَزَمَ السُّلطان على الزَّحْف، وركب وتقدَّم، وتـواترت المنجنيقـات بالضَّرْب، وارتفـعت الأصوات، وعَظُمَ الضَّـجيج والتكبيـر والتَّهليل، وما كان إلا سـاعة حتى رَقِي المسلمـون على أسوار الرَّبَض، واشتدَّ الزحف، وعَظُمَ الأمر، وهجم المسلمون الرَّبَض.

---

(١) كتاب الروضتين ٤/ ٢٠ - ٢١.

(٢) يعني من عام أربعة وثمانين وخمسمائة.

(٣) قال المحقق: القلة: أعلى القلعة، قلة كل شيء أعلاه، انظر «معجم متن اللغة» ٤/ ٦٣٩.

(٤) قال المحقق قرينة: تصغير قُرْنة، وهى الزاوية. انظر «القاموس المحيط» (قرن).

ولقد كنتُ أشاهد النَّاسَ وهم يأخذون القدر، وقد استوى فيها الطَّعام، فيأكلونها، وهم يقاتلون القلعة، وانضمَّ مَنْ كان فى الرَّبض إلى القلعة بما أمكنهم أن يحملوه من أموالهم، ونُهِبَ الباقي، واستدار المقاتلة حول أسوار القلعة، فلما عاينوا الهلاك، استغاثوا بطلب الأمان، فأمنهم السُّلْطان على أن يَسْلَموا بأنفسهم وأموالهم، ويؤخذ من الرَّجل منهم عشرة دنانير، وعن المرأة خمسة دنانير، وعن الصغير ديناران، فَسلِّمت القلعة، وأقام السلطان حتى تسلَّم عِدَّة قلاع كالعِيْذُو، وبلاطُنُس وغيرهما من القلاع والحصون، فتسَلَّمها النُّوَّاب، فإنها كانت تتعلق بصِهْيَوْن(١).

فتح بَكَاس:

قال المؤرخ أبو شامة: قال القاضي ابنُ شَدَّاد: ثم رحل السُّلْطان، وسرنا حتى أتينا بكَاس وهي قلعة حصينة على جانبِ العاصي، ولها نَهَرٌ يخرج من تحتها، وكان النُّزول بذلك المنزل على شاطئ العاصي يوم الثُلاثاء سادس جُمادى الآخرة(٢) وصَعِدَ السُّلطان جريدةً إلى القلعة، وهي على جبلٍ مُطلٍّ على العاصي، فأحدق بها من كلِّ جانب، وقاتلها قتالاً شديدًا بالمنجنيقات والزَّحف المضايق إلى يوم الجمعة أيضًا تاسع جُمادى الآخرة، ويَسَّرَ الله فتحها عَنْوَةً، وأُسر من فيها بعد قَتْلِ من قُتِلَ منهم، وغُنِمَ جميع ما كان فيها(٣).

فتح حصن الشغر:

بعد أن استولى صلاح الدين على بكاس توجه إلى حصن الشغر، وكان لا يصل إليه حجر المنجنيق من ارتفاعه ووعورة مسالكه، فبينما صلاح الدين جالس وعنده أصحابه وهم في ذكر القلعة وإعمال الحيلة فى الوصول إليها قال بعضهم: هذا الحصن كما قال الله تعالى ﴿**فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا**﴾ [الكهف: ٩٧].

---

(١) كتاب الروضتين ٤/ ٢٥ - ٢٦.

(٢) يعني من سنة أربع وثمانين وخمسمائة

(٣) كتاب الروضتين ٤/ ٢٩.

فقال صلاح الدين: أَوْ يأتي الله بنصر من عـنده، فبينما هم في هذا الحديث إذ قد أشـرف عليهم فرنجي ونادى بطلب الأمـان لرسول يحضـر عند صلاح الدين، فأُجيب إلـى ذلك، ونزل رسول وسأل إنظارهم ثلاثة أيام فإن جـاءهم من يمنعهم وإلا سلَّموا القـلعة بما فيـها من ذخـائر ودواب وغير ذلك، فـأجابهم إليـه وأخذ رهائنهم على الوفاء به، فلما كان اليوم الثالث سلموها إليه، واتفق أنه يوم الجمعة سادس عشر من جمادى الآخرة - يعني من سـنة أربع وثمانين وخمسمائة - وكان سبب استـمهالهم أنهم أرسلوا إلى صاحـب أنطاكية وكان هذا الحصن لـه يُعَرِّفونه أنهم محـصورون ويطلبـون منه أن يُرَحِّل عنهم المسلمين، فإن فـعل وإلا سلَّموه، وإنما فعلوا ذلك لرعب قذفه الله تعالى في قلوبهم وإلا فلو أقاموا الدهر الطويل لم يصل إليه أحد ولا بلغ المسلمون منه غرضًا(١).

وفي هذا الخبر مـثل من نصر الله تعالى أولياءه بالرعب الذي يـقذفه في قلوب أعدائهم، فيسلكون معهم على خلاف السلوك المعتاد مع غيرهم.

كما أن فيه إشارة إلى قوة تعلُّق قلب صـلاح الدين بالله عز وجل وثقته البالغة بنصـره، فمع تعـذُّر السبل الموصلة إلى تلك القلعـة قال: أَوْ يأتي الله بنـصر من عنده، فكان الـنصـر هو ذلك الرعب الذي ألقـاه الله تعـالى في قلوب الأعـداء فخرجوا للتفاوض وتسليم الحصن دون أن يمسهم أي أذى من الحرب.

فتح قلعة برزية:

ذكر المؤرخ ابن الأثير أن السلطان صلاح الدين سار بعد ذلك إلى قلعة «برزية» وكان أهلها يقطعون الطريق على المسلمين ويبـالغون في أذاهم، فوصلها في الرابع والعشرين من جمـادى الآخرة من عام أربعة وثمانين وخمسمـائة، ونزل غربيَّها، وهي الجهة التي يمكن قتـالها منها، وليس معه إلا قلة من جيشه لضـيق مسالكها، ونَصَب المسلمون المنجنيقات، ونصب أهل القلعة منجنيقًا أبطل منجنيقات المسلمين لعلُوِّ مكانه، فلما رأى صـلاح الدين أن المنجنيق لا ينتفعـون به عزم على الزحف ومكاثرة أهلها بجموعه، فقسَّم عسكره ثلاثة أقسام، يزحف قسم فإذا تعبوا عادوا،

---

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ١٩٢..

وزحف القسم الثـاني، ثم الثالث، ثم يدور الدور مـرة أخرى حتى يتـعب الفرنج حيث إنهم لم يكن عندهم من الكثرة ما ينقسمون كذلك فإذا تعبوا سلَّموا القلعة.

فتقدم القـسم الأول وزحفوا إلى الأعداء، وخرج الفرنج من حـصنهم فدافعوا وكان يسـاعدهم ارتفاعهـم فكانوا إلى جانب السلاح يدحـرجون الحجارة الكبـيرة على المسلمين، فلمـا تعبوا نزلوا وخَلَفـهم القسم الثاني وكـان الزمان حراً فاشـتد الكرب على الناس، وكان صلاح الدين في سلاحه يطوف عليهم ويحرضهم وكان تقي الدين أخوه كذلك، وكانت تلك نوبة القسم الخاص بصلاح الدين، فقاتلوهم إلى الظهر، ثم تعبوا ورجعوا فلما رآهم صلاح الدين قد عادوا تقدم إليهم وردَّهم وصاح بالقسم الثالث وهم جلوس ينتظرون نوبتهم فوثبوا ملبِّين وساعدوا إخوانهم وزحفوا مـعهم، وجاء الفرنجَ مـالا قِبلَ لهم به، وكان أصحـاب القسم الأول قد استـراحوا فقامـوا أيضًا معـهم، فحينئـذ اشتد الأمر علـى الفرنج وبلغت القلوب الحناجر، فظهر عجزهم عن القتال وضعفهم عن حمل السلاح فخالطهم المسلمون فدخل الفرنج حصنهم فدخل معهم المسلمون.

وكان طائفة قليلة من المسلمين في الخيام شـرقي الحصن فرأوا الفرنج قد أهملوا ذلك الجانـب لأنهم لا يرون فيـه مقاتـلاً. وليكثُروا في الجـهة التي فـيهـا صلاح الدين، فصـعدت تلك الطائفـة من العسكر، فلم يمـنعهم مانع، فـصعـدوا أيضًا الحصن من الجهة الأخرى فالتقوا مع المسلمين الداخلين مع الفرنج، فملكوا الحصن عنوة ودخل الفرنج «القُلَّة»(١) التي للقلعة وأحـاط بهم المسلمون، وأرادوا نقبـها، وكان الفرنج قد رفعوا مَنْ عندهم من أسرى المسلمين إلى سطح القلة وأرجلهم في القيود والخشب المثـقوب، فلما سمعوا تكبير المسـلمين في نواحي القلعة كبروا في سطح القلة، وظن الفرنج أن المسـلمين قد صعدوا إلى السطـح فاستسلمـوا وألقوا بأيديهم إلى الأسر فملكها المسلمون عنوة، وأخذوا ما فيها وسبوا من فيها وأخذوا صاحبها وأهله.

ذكر ذلك المؤرخ ابن الأثير وكان قد حضـر ذلك الحصار ثم قال: ومن أعجب ما يُحكَى من السـلامة أنني رأيت رجلا من المسلمين على هذا قد جـاء من طائفة

---

(١) يعني أعلى القلعة وهو مكان محصَّن.

من المؤمنين شماليَّ القلعة إلى طائفة أخرى من المسلمين جنوبِّي القلعة، وهو يَعْدُو في الجبل عرضًا، فأُلقَيتْ عليه الحجارة وجاءه حجر كبير لَوْ نَالَه لبَعجهَ، فنزل عليه فناداه الناس يحذرونه، فالتفت ينظر ما الخبر فسقط على وجهه من عثرة، فاسترجع الناس وجاء الحجر إليه فلما قاربه وهو منبطح على وجهه لقيه حجر آخر ثابت في الأرض فوق الرجل فضربه المنحدر فارتفع عن الأرض ومَرَّ من فوق الرجل ثم سقط على الأرض من جانبه الآخر لم ينله منه أذى ولا ضرر، وقام يعدُو حتى لحق بأصحابه، فكان سببَ نجاته، فتَعِسَتْ أم الجبان![1].

فهذا الخبر فيه مواقف وعبر فمنها:

أولاً: أن هؤلاء الصليبيين الذين انخدعوا بحصنهم الحصين فصاروا يقطعون الطريق وينهبون أموال الناس لم يُمهَلوا بل سلط الله تعالى عليهم هذا السلطان القوي فأخذهم شر أخذة وأصبحوا أذلة مملوكين بعد أن كانوا يملكون أموال الناس بالقوة، فلا ينخدعَنَّ مبطل مفسد فإن هناك أيْدٍ قويةً عادلة قد أُعدَّت له إلى جانب عذابه في الآخرة.

ثانيًا: فيه مثل من حزم السلطان صلاح الدين وابتكار الطرق الحربية غير المألوفة إذا تعذر استعمال المألوفة، فحينما بطل استعمال المنجنيق عوَّض ذلك باستثماره كثرة جيشه فجعلهم أقسامًا يتناوبون، وحوَّل الوقت كله إلى قتال حتى استنفد كل طاقة الأعداء فسلَّموا أنفسهم، وهكذا يفعل القائد المبدع حيث يضع الأمور مواضعها ويجعل لكل حال لبوسها.

ثالثًا: مثلٌ من إقدام المجاهدين على المغامرة وإن كان هناك من يكفيهم ولم تَصْدُر لهم أوامر، وقد تمثَّل ذلك في مشهدين: الأول حينما قام أصحاب القسم الأول الذين انتهت نوبتهم فقاتلوا مع إخوانهم، والثاني: حينما قام الذين خُلِّفوا في الخيام فتسوروَّا الحصن من جانب آخر وساعدوا إخوانهم في القتال، وهذا دليل على إخلاصهم وسمو مقاصدهم.

رابعًا: بركة التكبير ورفع الصوت به، فلقد كان سببًا في فتح الملجأ الذي كان داخل القلعة حينما كبَّر أسرى المسلمين الذين كانوا فوقه فتوهَّم الأعداء أن المسلمين

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ١٩٣ - ١٩٤، وانظر كتاب الروضتين ٤/ ٣٢ - ٣٣.

صعدوا إلى سطحه، والتكبير دائمًا له أثر مُزلْزل في الأعداء، فطالما انخلعت له قلوبهم وتحطمت بسماعه معنوياتهم.

خامسًا: عبرة بليغة في نجاة ذلك المسلم الذي دحرج عليه الأعداء صخرة حيث هيأ الله له أن يسقط على الأرض وأن تقفز الصخرة من فوقه دون أن تمسه بأذى، والله سبحانه إذا أراد سلامة عبده هيأ أسباب ذلك، وفي هذا درس للجبناء الذين يقعدون في مأمنهم خوفًا من المهالك ويضيِّعون بسبب طاقاتٍ كثيرةً تَبْقى معطلة لا يستفيدون منها هم ولا إخوانهم المسلمون.

فتح حصن دَرْبساك:

قال المؤرخ أبو شامة: قال القاضي ابنُ شَدَّاد: ثم سار السُّلْطان حتى أتى جسر الحديد، وأقام عليه أيامًا، وسار حتى نزل على دَرْبَسَاك يوم الجُمُعة من شهر رجب، يعني عام أربعة وثمانين وخمسمائة وهي قلعةٌ منيعة قريبةٌ من أنطاكية - يَسَّرَ الله فتحها - فنزل عليها، وقاتلها قتالاً شديدًا بالمنجنيقات، وضايقها مضايقةً عظيمةً، وأخذ النَّقْبُ تحت بُرجٍ منها، وتمكَّن النَّقْب منه حتى وقع، وحموه بالرِّجال والمقاتلة، ووقف في الثَّغرة رجالٌ يحمونها عمن يصَعدُ فيها.

قال: ولقد شاهدتهم، وكلما قُتِلَ رجلٌ منهم قام غيره مقامه، وهم قيام عوض الجدار مكشوفين، واشتدَّ الأمر حتى طلبوا الأمان، واشترطوا مراجعة أنطاكية، وكانت القاعدة أن ينزلوا بأنفسهم وثياب أبدانهم لا غير، ورَقي عليها العَلَم الإسلامي يوم الجمعة أيضًا ثاني عشري رجب، وأعطاها عَلَم الدِّين سليمان بن جَنْدَر، وسار عنها من الغد بكرة السبت(١).

فتح قلعة صفد:

قال المؤرخ أبو شامة: قال القاضي ابنُ شَدَّاد: ثم سار [يعنى صلاح الدين] في أوائل رمضان من دمشق يريد صفد [يعني من عام أربعة وثمانين وخمسمائة]، ولم يلتفت إلى مفارقة الأهل والأولاد والوطن، في هذا الشهر الذي يسافر الإنسان أين كان ليجتمع فيه بأهله، فأتاها وهي قلعةٌ منيعة، وقد تقاطعت حولها أودية من

---

(١) كتاب الروضتين ٤/ ٣٨.

سائر جـوانبها، فأحـدق العسكرُ بها، ونُصِـبَتْ عليها المجـانيق، وكانت الأمطار شديدة، والوحول عظيمة، ولم يمنعه ذلك عن جِدِّه.

ولقد كنتُ ليلةً في خـدمته، وقد عَيَّن مـواضع خمسة مجـانيق حتى تُنْصَبَ، فقال في تلك الليـلة: ما ننام حتى ننصب الخمسـة. وسَلَّم كلَّ منجنيق إلى قوم، وَرَسُلُه تتواتر إليهم يخبرونه، ويعرِّفُونهم كيف يصنعون، حتى أطلَّنا الصباح، وقد فرغت المنجنيقات، ولم يبق إلا تركيب خنازيرها فيها، فرويتُ له الحديث المشهور في الصِّحاح، وبَشرْتُهُ بمقتضاه، وهو قوله ﷺ: «**عَيْنان لا تَمَسُّهُما النار: عينٌ باتت تَحْرُسُ في سبيل الله، وعَيْنٌ بكت من خشية الله**»(١).

قال: ولم يَزَل القـتالُ متـواصلاً بالنُّوَب مع الصوم، حـتى سُلِّمت بالأمان في رابع عشر شَوَّال(٢).

فتح حصن كوكب:

قال المؤرخ أبو شـامة: قـال القاضي ابنُ شَدَّاد: ثم سـار - رحمـة الله عليه - يريد كوكب، فنزل على سَطْح الجبل، وجَرَّدَ العسكر، وأحـدق بالقلعة، وضايقها بالكُلِّيَّة، بحيث اتخذ له موضعًا يتـجاوزه نُشَّاب العَدُوِّ، وبنى له حائطًا من حجارة وطين يستتر وراءه، والنُّشَّاب يتجاوزه ولا يـقدر أحدٌ يقف على باب خميته إلا أن يكون مُلْبسًا(٣)، وكانت الأمطارُ متواترةً، والوحول بحيث تمنع الماشي والرَّاكب إلا بمشقَّـة عظيمة، وعـانى شدائد وأهوالاً من شدَّة الـرِّياح، وتراكم الأمطار، وكون العدوِ متسلِّطًا عليهم بعلوِّ مكانه، وجُرِحَ وقُتِلَ جماعة، ولم يزل راكبًا مركب الجِدِّ - رحمه الله - حتى تمَكَن النَّقْبُ من سُورها. ولما أَحَسَّ العدوُّ المخذول بالنَّقْب وقد تمكَّنَ من السَّور، علِم أنه مـخذول مأخوذ، فطلب الأمان، فأَمَّـنهم، وتسلَّمها في منتصف ذي القَـعْدة، ونَزل إلى الغَوْر إلى الثَّـقَل، وكان قد أنزل الثَّـقَل من شِدَّة الوحل والرِّيح في سطح الجبل(٤).

---

(١) أخرجه الترمذي في «جامعه» (١٦٣٩) من حديث ابن عباس، وقال: حسن غريب.

(٢) كتاب الروضتين ٤/ ٤٨ - ٤٩.

(٣) أى لابسا الدرع.

(٤) كتاب الروضتين ٤/ ٥٢.

استنجاد صليبيي الشام بأهل أوروبًا:

وقد رحل زعماء النصارى الدينيون من صور إلى بلاد أوروبا، وقاموا بدعوة مكثفة لغزو المسلمين واسترجاع بيت المقدس، وصاروا يستنجدون بأهل أوروبا ويحثونهم على الأخذ بثأر البيت المقدس، وصوروا المسيح عليه السلام، وجعلوا صورة رجل عربي والعربي يضربه، وقد جعلوا الدماء على صورة المسيح عليه السلام، وقالوا لهم: هذا المسيح يضربه محمد نبي المسلمين [ﷺ وحاشاه مما يقول الظالمون] وقد جرحه وقتله، فعظم ذلك على الفرنج، فحشدوا رجالهم ونساءهم، ومن لم يستطع الخروج يستأجر من يخرج عوضه أو يعطيهم مالاً على قدر حالهم، فاجتمع لهم من الرجال والأموال ما لا يتطرق إليه الإحصاء.

وقد كان من أثر هذه الحملة الدعائية الكبرى قيام الحملة الصليبية الثالثة، حيث استجاب لها ملوك أوروبا، فجندوا عشرات الألوف من الصليبيين عن طريق البحر، وخرج ملك ألمانيا ومعه مائة ألف عن طريق البر.

وقد كان خروج ملك الألمان في سنة ست وثمانين وخمسمائة من بلاده، وهم نوع من الفرنج من أكثرهم عددًا وأشدهم بأسًا، وقد أزعجه مُلْك المسلمين البيت المقدس فجمع عساكره وسار عن طريق القسطنطينية، وقد كتب ملك الروم إلى صلاح الدين يُعَرِّفه بذلك ويَعِدُه بمنعه من العبور، ولكنه عجز عن ذلك، إلا أنه منع عنهم الميرة.

وساروا حتى مروا على أرض الإسلام، وذلك في مملكة قلج أرسلان السلجوقي، فثار بهم التركمان فمازالوا يسايرونهم ويقتلون من انفرد، وعصف بهم البرد وكان الثلج متراكمًا فأهلكهم البرد والجوع والتركمان فقلَّ عددهم، ومع ذلك خافهم الملك السلجوقي فهادنهم وسمح لهم بالتزود من بلاده بما يشاؤون. ثم مروا ببلاد الأرمن فأظهر لهم صاحبها الطاعة وأمدهم بما شاؤوا، ثم ساروا نحو أنطاكية.

وكان في طريقهم نهر فنزلوا عنده ودخل ملكهم ليغتسل وكان النهر شديد الجري فحمله الماء إلى شجرة فشجَّت وجهه وأخمدت أنفاسه وكفى الله شره، وقد

اختلف أصحابه على ولده فرجع عنه طائفة إلى بلادهم، وسار فيمن بقي وهم يزيدون على أربعين ألفا، ووقع فيهم الوباء والموت فوصلوا إلى أنطاكية فحسَّن لهم صاحبها المسير إلى عكا، فساروا على ساحل بلاد الشام فخرج لهم أهل حلب وغيرها وأخذوا منهم خلقا كثيرًا ومات أكثر من أُخذ.

وبلغوا طرابلس فكثر فيهم الموت فلم يبق منهم إلا نحو ألف رجل، فركبوا إلى عكا، ولما رأوا ما فيه أهلها من الاختلاف عادوا إلى بلادهم فغرقت بهم المراكب ولم ينج منهم أحد[1].

وهكذا أنقذ الله تعالى المسلمين من مائة ألف مقاتل، وذلك بعدة عوامل، منها غارة بعض المسلمين عليهم، ومنها موت ملكهم وتفرقهم من بعده، وهذا أهمها، ومنها إصابتهم بالوباء وموت كثير منهم، ولو أنهم سلموا ووصلوا لكانت محنة كبرى على المسلمين، وفي ذلك يقول ابن الأثير: ولولا لطف الله بالمسلمين، وأَهْلَكَ ملك الألمان وإلا كان يقال: إن الشام ومصر كانتا للمسلمين[2].

وصول الصليبيين إلى عكا:

تقدم لنا أن الصليبيين خرجوا بأعداد كبيرة من أوروبا قاصدين بلاد الشام، وقد وصلوا إلى ميناء صور فضاقت بهم فقصدوا عكا، وساروا إليها مع من اجتمع بها من صليبيي الشام عن طريق البر، وسفنهم تحاذيهم في البحر، وكان رأي صلاح الدين اقتطاعَهم وهم سائرون في البر، ولكن لم يوافق على ذلك قادته وطلبوا الأسهل لهم، وكان قد جعل جزءًا من الجيش يناوشونهم، ومع قلتهم فإن الأعداء هابوا قتالهم، فكيف لو كان كل الجيش الإسلامي يناوشهم؟!

ووصلوا إلى عكا قبل المسلمين فأحاطوا بها من البحر إلى البحر، ولم يتمكن المسلمون من الوصول إليها، وجرت بينهم وقائع كثيرة، أبرزها معركة في أول شهر شعبان باكرهم فيها صلاح الدين بحَدِّه وحديده وصبر الفريقان صبرًا حارَ لَهُ من رآه، فلما كان وقت الظهر حمل عليهم تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ٢٠١، ٢٠٧، البداية والنهاية ١٢/ ٣٥٨.

(٢) الكامل في التاريخ ٩/ ٢٠١

حملة قوية من الميمنة على من يليه منهم فأزاحهم عن مواقفهم، وركب بعضهم بعضا والتجؤوا إلى من يليهم من أصحابهم وأَخْلَوا نصف البلد، وملك تقي الدين مكانهم، وصار المسلمون يدخلون البلد وأدخل فيه صلاح الدين الرجال والمؤن(١).

في هذه المعركة موقف يذكر لابن أخى صلاح الدين تقي الدين ومن ثبتوا وأثخنوا في العدو من أبطال المسلمين.

هذا وقد جرت معركة كبرى بينهم، وذلك أن الصليبيين رأوا قلة جيش المسلمين حيث إن بعض جيش صلاح الدين مرابط حول الثغور، وجيشُ مصر لم يصل، فانتهز الصليبيون الفرصة قبل أن تأتي أمداد المسلمين، فخرجوا من معسكرهم كأنهم الجراد المنتشر قد ملؤوا الأرض طولا وعرضا، وهجموا على ميمنة المسلمين وفيها تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين، فأمدهم صلاح الدين برجال من القلب، فلما رأى الصليبيون قلةَ من في القلب عطفوا عليه عطفة رجل واحد فتقهقر كثير من المسلمين وانهزموا وثبت بعضهم واستُشهد بعض أمرائهم وشجعانهم، فقصد الأعداء التل الذي فيه خيمة صلاح الدين، فقتلوا من مرُّوا به، وانحدروا إلى جانب التل الآخر، ثم خشوا أن يُقتطعوا فرجعوا، وكان صلاح الدين يحث المسلمين على الثبات ويناديهم ويأمرهم بالكرة، فاجتمع حوله جماعة صالحة فتقدم بهم، وكانت ميمنة المسلمين قد ثبتوا وحملت ميسرة المسلمين على من يليهم فقطعوا المدد عن الذين حملوا على القلب، فلما رجع هؤلاء كانت لهم ميسرة المسلمين، وحمل عليهم صلاح الدين بمن معه من خلفهم فلم يفلت منهم أحد، وكان النصر للمسلمين على قلتهم بالنسبة للأعداء(٢).

فهذه المعركة فيها مثل من ثبات صلاح الدين ورباطة جأشه وحسن تصرفه عند الشدائد، وفيها مواقف كريمة للمسلمين الذين ثبتوا معه في عدم التأثر بموقف من انهزموا، وبقاء معنويتهم عاليةً مع ما أحرزه الأعداء في البداية من إجلاء أصحاب القلب عن مواقفهم.

---

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ٢٠١ - ٢٠٢.

(٢) الكامل في التاريخ ٩/٢٠٢ - ٢٠٣ .

معركة الأسطول:

كان السلطان صلاح الدين قد أرسل إلى البلاد الإسلامية بطلب الإمداد العسكري، فوصلت إليه الجيوش من بعض البلاد، ومنها أسطول خرج من مصر، وقد وصل الأسطول قرب مدينة عكا، فلما سمع الفرنج بقربه جهزوا إلى طريقه أسطولا ليلقاه ويقاتله، فركب صلاح الدين في العساكر جميعها وقاتلهم من جميع جهاتهم ليشتغلوا بقتاله عن قتال الأسطول ليتمكن من دخول عكا، فلم يشتغلوا عن قصده بشيء فكان القتال برا وبحرا، وكان يومًا مشهودًا لم يؤرَّخ مثله، وأخذ المسلمون من الفرنج مركبًا فيه من الرجال والسلاح، وأخذ الفرنج من المسلمين مثل ذلك، إلا أن القتل في الفرنج كان أكثر منه في المسلمين، ووصل الأسطول الإسلامي سالمًا[1].

وهذا يعتبر نجاحًا كبيرًا لأولئك المجاهدين حيث سيطروا على الميناء ودافعوا عن الأسطول الإسلامي على الرغم من وجود الصليبيين القوي في البحر.

وقبل ذلك كان السلطان قد أمر بتجهيز سفينة كبيرة من بيروت، فيها طعام كثير وأسلحة، فقام من فيها من التجار المسلمين بالتَّزَيِّي بزِيِّ الفرنج خدعةً لهم وكانت السفينة مما غنمه المسلمون منهم،فوصلت ولم يشكَّ الأعداء أنها لتجارهم وأفرغت حمولتَها فاكتفى بها المسلمون حتى قدم الأسطول المصرى[2].

وكان النصر حليف المسلمين في كل المعارك التي خاضوها مع الصليبيين حول عكا، وإن حصل لبعضهم انهزام في أول المعركة، إلا أن معاركهم معهم لم تكن حاسمة نظرًا لكثرة الصليبيين، ولكونهم سبقوا إلى سور عكا وعملوا لأنفسهم تحصينات يلجؤون إليها عند الانهزام، ولِماَ كان يعتري صلاح الدين من المرض الذي يحمله على مغادرة الميدان مدة قد تطول فيستفيد الأعداء من ذلك، ولكون بعض قادة صلاح الدين لا يأخذون برأيه أحيانًا فتفوت على المسلمين فرص جيدة للنصر الحاسم، ولأن الإمدادات من أمراء المسلمين تعتبر قليلة جدًا بالنسبة لما يصل إلى الصليبيين من إمدادات[3].

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ٢٠٦..

(٢) البداية والنهاية ١٢/ ٣٦٠.

(٣) ينظر الكامل في التاريخ ٩/٢٠٢ - ٢٠٣

وقبل ذلك وأهمُّ منه أن من أسباب تأخر النصر وقوعَ المسلمين أو بعضهم في المعاصي، وقد نبه القاضي الفاضل السلطانَ بعدَّة كتب لهذا المعنى، ومما جاء فيها: إن ما عند الله تعالى من النصر لا يُنال إلا بطاعته، وإننا لو صَدَقناه لعجَّل لنا عواقب صدقنا، ولو أطعناه لما عاقَبَنا بعدوِّنا، ولو فعلنا ما نقدر عليه من أمره لفعل لنا ما لا نقدر عليه إلا به، ونستغفر الله تعالى من ذنوبنا، فلولا أنها تسدُّ طريق دعائنا لكان جواب دعائنا قد نزل، وفيضُ دموع الخاشعين قد غَسَل، لكنْ في الطريق عائق(١).

ابتكار علمي حربي موفق:

كان الصليبيون في مدة مقامهم على عكا قد عملوا ثلاثة أبراج من الخشب عالية جدًا، طول كل برج منها خمسُ طبقات، كل طبقة مملوءة من المقاتلة، وقد غَشَوْها بالجلود والخل والطين والأدوية التي تمنع النار من إحراقها وقدَّموها نحو مدينة عكا من ثلاث جهات، وزحفوا بها فأشرفَتْ على السور، وقاتل من بها مَنْ عليه فانكشفوا وشرعوا في طمِّ خندقها، فكادوا أن يملكوا البلد عنوة، فقاتل صلاح الدين الصليبيين ثمانية أيام وخفف ذلك عن حامية البلد، وقد قاوم المسلمون الأبراج بالنفط الطيار فلم يصنع فيها شيئًا فأيقنوا بالهلاك.

ولما أراد الله تعالى إنقاذ المسلمين من تلك الأبراج وفق شابًا نحَّاسا من أهل دمشق يُعرف بعلي بن عريف النحاسين وكان مولعًا بآلات النفط وتحصيل العقاقير التي تقوِّي عمل النار، وكان بعكا لأمر يريده الله، فلما رأى الأبراج قد نُصِبَت على عكا شرع في عمل ما يعرفه من الأدوية المقوية للنار، بحيث لا يمنعها شيء من الطين والخل وغيرهما، فلما فرغ منها حضر عند الأمير قراقوش حاكم عكا، وقال له يأمر المنجنيقي أن يرمي في المنجنيق المحاذي لبرج من هذه الأبراج ما أعطيه حتى أحرقه، وكان عند قراقوش من الغيظ والخوف على البلد ومن فيه ما يكاد يقتله فازداد غيظًا بقوله فقال له: قد بالغ أهل هذه الصناعة في الرمي بالنفط

---

(٣) البداية والنهاية ١٢/ ٣٦١، والقاضي الفاضل من العلماء الكبار وكان وزير صلاح الدين ومستشاره، وكان يحبه كثيرًا ويأخذ بآرائه.

وغيره فلم يفلحوا، فقال له من حضر: لعل الله تعالى يجعل الفرج على يد هذا ولا يضرنا أن نوافقه على قوله فأجابه إلى ذلك، وأمر المنجنيقي بامتثال أمره، فرمى عدة قدور نفطا وأدوية ليس فيها نار، وكان الفرنج إذا رأوا القدر لا يحرق شيئًا يصيحون ويرقصون ويلعبون على سطح البرج، حتى علم أن الذي ألقاه قد تمكن من البرج فألقى قدرًا مملوءة وجعل فيها النار فاشتعل البرج، وألقى قدرًا ثانية وثالثة فاضطرمت النار في نواحي البرج، وأَعَجَلْت من في طبقاته الخمس عن الهرب فاحترق هو ومن فيه، فلما احترق البرج الأول انتقل إلى الثاني والثالث وقد هرب من فيهما، وكان يومًا مشهودًا لم ير الناس مثله، والمسلمون ينظرون فرحين لنجاة المسلمين من الأبراج.

وحُمِلَ ذلك الرجل إلى صلاح الدين فبذل له الأموال الجزيلة والأقطاع الكثيرة فلم يقبل منه شيئًا، وقال: إنما عملته لله تعالى ولا أريد الجزاء إلا منه[1].

وبعد: فإن ما قام به هذا الرجل المبدع الماهر في الصناعة يعتبر أمرًا عظيمًا وإنجازًا كبيرًا نصر الله تعالى به الإسلام وأَقَرَّ عيون المسلمين وأذل به الكفار وأبطل مساعيهم.

وهكذا يبرز من عباقرة المسلمين من يتفوقون آنذاك على الأوروبيين الذين مهروا في الصناعة، وهذا دليل على ارتفاع مستوى المسلمين في الصناعات الحربية، لأن هذا الرجل لم يكن ليبلغ ما بلغ لولا تقدم المسلمين في الصناعة وتوافر الآلات والمواد اللازمة لذلك، وقد كانوا في تلك المواد المحرقة قد وصلوا إلى مستوى الأوروبيين، ثم تفوق الصليبيون باختراع الموانع التي تمنع عمل النار، فتوصل هذا المسلم المبدع إلى اختراع موادَّ تقوِّي النار بحيث تُبطل مفعول تلك الموانع التي اخترعها الأعداء.

وهكذا تفوَّق المسلمون آنذاك على أعدائهم في الاختراع والصناعة فأعقب ذلك نصر مؤزر للمسلمين وهزيمة نكراء لأعدائهم.

---

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ٢٠٥ - ٢٠٦. البداية والنهاية ١٢/ ٣٥٧.

مثل من رحمة صلاح الدين:

وقد كان صلاح الدين رحمه الله رقيق القلب رحيمًا بالمسلمين عطوفًا عليهم، ولقد بلغت رحمته أعداءه، ومن ذلك أن امرأة من الفرنج سُرِق ولدها الرضيع وهو ابن ثلاثة أشهر، فوجدت عليه أمه وجدًا شديدًا واشتكت إلى ملوكهم، فقالوا لها: إن سلطان المسلمين رحيم القلب، وقد أذنَّا لك أن تذهبي إليه فتشتكي أمرك إليه، فجاءت إلى السلطان فأنهت إليه حالها، فرقَّ لها رقة شديدة حتى دمعت عينه، ثم أمر بإحضار ولدها، فإذا هو قد بيع في السوق، فرسمَ بدفع ثمنه إلى المشتري، ولم يزل واقفًا حتى جيء بالغلام، فأخذته أمه وأرضعته ساعة وهي تبكي من شدة فرحها وشوقها إليه، ثم أمر بحملها إلى خيمتها على فرس مكرَّمة، رحمه الله تعالى(1).

ولا شك أن هذا الموقف وأمثاله من المواقف الأخلاقية كان لها أثر بالغ في رفع سمعة المسلمين الأخلاقية واجتذاب الناس إلى الدخول في الإسلام.

مثل من تضحيات المجاهدين:

ومن أخبار حصار عكا ما ذكره المؤرخ أبو شامة من رواية القاضي ابن شداد قال: ومن نوادر هذه الوقعة ومحاسنها - يعني نوادر ما جرى في القتال على عكَّا - أن عَوَّامًا مسلمًا كان يُقال له عيسى، كان يدخل البلد بالكُتُبِ والنَّفقات على وسطه ليلاً على غِرَّةٍ من العدو، وكان يغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو.

وكان ذات ليلةٍ شَدَّ على وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار، وكُتُبٌ للعسكر، وعَامَ في البحر، فجرى عليه أَمْرٌ أهلكه، وأَبْطَأَ خَبَرُهُ عَنَّا وكانت عادتُه إذا دخل البلد طار طائر عَرَّفَنَا بوصوله، فأبطأَ الطَّائر، فاستشعر هلاكه، فلما كان بعد أيام بينما النَّاس على طرف البحر في البلد وإذا البحر قد قَذَفَ إليهم ميتًا غريقًا، فافتقدوه، فوجدوه عيسى العَوَّام، ووجدوا على وسطه الذهب ومشمَّع الكُتُب.

(1) البداية والنهاية ١٢/ ٣٦٤ وانظر الروضتين ٤/ ٢٤٥.

وكان الذهب نفقةٌ للمجاهدين، فما رُئي من أدَّى الأمانة في حال حياته، وقَدَّر الله له أداءها بعد وفاته إلا هذا الرجل، وكان ذلك في العشر الأواخر من رجب أيضًا.

فهذا مثل من التضحيات العجيبة التى يقدمها المجاهدون عبر التاريخ، حيث ينسى هؤلاء الفدائيون أنفسهم ومستقبلهم الدنيوي، وتضخم في أعينهم الأهداف الجهادية السامية لتكون هي الحاضر والمستقبل في حياتهم وهم يتعرضون للشهادة يسابقون الزمن، حيث يريدون الظفر بالمقامات العالية في الجنة في زمن قصير، هذا في عالم الآخرة أما في عالم الدنيا فكم هي العائدات الضخمة التي تعود على الأمة من تضحيات هؤلاء الفدائيين، فلقد كان هذا المجاهد السبَّاح الماهر هو الوسيلة لنقل الرسائل والمال عبر البحر، فقام بهذه المهمة إلى أن اختاره الله جل وعلا في ركب الشهداء الأبرار.

عبرة من نصر الله تعالى أولياءه:

ذكر المؤرخ أبو شامة من رواية القاضي ابن شداد: وفي الثَّاني والعشرين من شعبان جَهَّز العدو - لعنه الله - بَطَسًا [يعنى سفنا] متعدِّدة لمحاصرة برج الذُّبان، وهو بُرْجٌ في وسط البحر مبنيٌّ على الصَّخر على باب ميناء عكا، يُحْرَسُ منه الميناء، ومتى عبره المركب أَمِنَ من غائلة العدو، فأراد العدو أَخْذَه ليبقى الميناء بحكمه، ويمنع من دخول شيء من البَطَس إليه، فتنقطع المِيْرَة عن البلد.

فجعلوا على صواري البطس بُرْجًا، وملؤوه حطبًا ونِفْطًا على أنهم يسيِّرون البطس، فإذا قاربت بُرْجَ الذُّبَّان ولاصقته أحرقوا البرج الذى على الصَّارى وألصقوه ببرج الذبان ليلقوه على سطحه، ويُقتل من عليه من المُقاتلة ويأخذوه، وجعلوا في البطسة وقودًا كثيرًا حتى يلقى في البرج إذا اشتعلت النَّار فيه، وَعَبُّوا بطسة ثانية وملؤوها حطبًا ووقودًا على أنهم يدفعونها إلى أن تدخل بين البطس الإسلامية، ثم يلهبونها، فتحرق البطس الإسلامية، ويهلك ما فيها من المير.

وجعلوا في بطسة ثالثة مقاتلة تحت قبو بحيث لا يصل إليهم نُشَّاب ولا شيء من آلات السلاح حتى إذا أحرقوا ما أرادوا إحراقه دخلوا تحت القبو، فأمنوا

وأحرقوا ما أرادوا إحراقه، وقدَّموا البطسة نحو البُرْج المذكور، وكان طمعهم مشتدا حيث كان الهواء مُسْعدًا لهم، فلما أحرقوا البطسة التي أرادوا يحرقون بها بطس المسلمين والبرج الذي أرادوا يحرقون به مَنْ على البرج، فأوقدوا النَّار، وضربوا فيها النَّفْط، فانعكس الهواءُ عليهم كما شاء الله تعالى وأراد، واشتعلت البطسة التي كان فيها البرج بأَسْرها، واجتهدوا في إطفائها فما قدروا، وهلك من كان بها من المقاتلة إلا من شاء الله تعالى، ثم احترقت البطسة التي كانت مُعَدَّة لإحراق بطسنا، وَوَثَبَ أصحابنا عليها فأخذوها.

وأما البطسةُ التي فيها القبو، فإنَّهم انزعجوا وخافوا، وهمُّوا بالرجوع، واختلفوا واضطربوا اضطرابًا عظيمًا، فانقلبت وهلك جميع من كان بها؛ لأنهم كانوا في قبو لم يستطيعوا الخروج منها، وكان ذلك من أعظم آيات الله، وأندر العجائب في نُصْرَةِ دين الله، ولله الحمد، وكان يومًا مشهودًا(١).

فهذه أمثلة عالية من معية الله تعالى لأوليائه بالنصر والتأييد، فالعدو استظهر على المسلمين بكون الريح لصالحه، حيث إنه بغير ذلك لا يستطيع تحريك السفن، فاغتنموا كون الريح متوجهة نحو الهدف الذي أرادوا إحراقه، فإذا بالريح بقدرة الله تعالى تعكس مسارها بعدما أشعلوا النار في السفن فكانت النار على الأعداء واحترقت سفنهم وهلكوا، وفي ذلك عبرة في تقوية الصلة بالله تعالى وكثرة دعائه واللجوء إليه.

استيلاء الصليبيين على عكا وعقد هدنة معهم:

هذا وقد جرت معارك أخرى كان النصر فيها حليف المسلمين إلا أنها لم تكن حاسمة، إلى أن وصل ملك فرنسا ثم ملك انجلترا على رأس جيشين في عدد من السفن فاستطاع الصليبيون أن يستولوا على عكا، وكان من أسباب ذلك أيضًا ما حصل من سآمة أفراد الحامية الإسلامية داخل عكا وإبدالهم بجنود آخرين ليسوا في مستواهم في الخبرة والعدد.

وكان الذي أطال بقاء الصليبيين حول عكا هو اعتصامهم بخنادقهم، فكانوا قلَّما يخرجون للقتال، وإذا خرجوا وانهزموا لجؤوا إليها.

---

(١) كتاب الروضتين ٤/ ١٦١- ١٦٢.

وكانوا إذا خرجوا يقصدون طائفة من المسلمين ليقضوا عليهم، فمن ذلك أنهم في العشرين من جمادى الآخرة من سنة ست وثمانين وخمسمائة خرجوا واتجهوا نحو جيش المصريين، فاقتتلوا قتالاً شديدًا ودخل الصليبيون خيامهم فقاتلهم المصريون فيها ثم داروا على الصليبيين من الخلف وقطعوا إمدادهم، وساعدهم أهل الموصل لقربهم منهم فقتلوا من الصليبيين ما يزيد على عشرة آلاف.

ولما تتابعت الأمداد على الصليبيين خرجوا مرة أخرى من خنادقهم، فتصدت لهم مقدمة المسلمين بالرماية، وندم الصليبيون على خروجهم فلزموا مكانهم، وباتوا ليلتهم تلك، فلما كان الغد عادوا نحو عكا والمسلمون خلفهم يقتلون منهم، وكان صلاح الدين مريضًا وقد نُصب له خيمة فوق تلّ، فلم يكن له إشراف مباشر، يقول ابن الأثير: فلولا ذلك الألم الذي حدث بصلاح الدين لكانت هي الفصل وإنما لله أمر هو بالغه[١].

وقد انتهى أمر صلاح الدين مع الصليبيين إلى عقد هدنة لمدة ثلاث سنين وثمانية أشهر وذلك في العشرين من شعبان عام ثمان وثمانين وخمسمائة، وقد كانت الهدنة بطلب من ملك انجلترا، وقد أشار أمراء صلاح الدين عليه بالموافقة ليرحل الفرنج القادمون فتخف الوطأة على المسلمين[٢].

***

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ٢٠٨ - ٢٠٩.

(٢) الكامل في التاريخ ٩/ ٢٢١ - ٢٢٢، البداية والنهاية ١٢/ ٣٧٢ - ٣٧٣.

٦- جهاد الظاهر بيبرس ضد الصليبيين

بقي للصليبيين إمارات في ساحل الشام حيث لم يتم إجلاؤهم بالكلية، إلى أن انتهى عهد الأيوبيين وجاء عهد المماليك، فكان للسلطان الظاهر بيبرس والسلطان المنصور قلاوون وابنِه خليل دور كبير في القضاء على الصليبيين وإزالة ملكهم عن بلاد الشام بالكلية.

ولقد كان هناك دولة للأرمن النصارى جنوب بلاد الأناضول، وقد كانوا حلفاء للصليبيين والتتار، ولقد أدرك الظاهر بيبرس أن أي عمل حربي يقوم به ضد الأرمن والصليبيين سيكون محرِّضا للتتار للقدوم والمشاركة مع النصارى في مواجهته، والتتار لا تزال لهم دولة قوية في الشرق تحت إمرة حاكمهم القوي هولاكو.

ولقد كان هناك طائفة من التتار لا تخضع لهولاكو وهم مغول القفجاق، ويسمَّون القبيلة الذهبية، وزعيمهم هو بركة خان، وقد اعتنق الإسلام، فاغتنم الظاهر بيبرس هذه الفرصة فكاتب بركة خان وحرضه على قتال هولاكو، فاستجاب لذلك بركة خان وكان مخلصًا في إسلامه فقاتل هولاكو حتى شغله عن المسلمين وأضعفه وفرَّق جنده.

وبهذا نجح الظاهر بيبرس في هذا التخطيط الحربي الجيد حيث أمن جانب التتار وتفرغ للصليبيين(١).

ولقد كان فيما قام به السلطان بركة خان عمل جهادي كبير يُشكر عليه، حيث رفع بجهاده هذا إصرًا ثقيلاً عن كاهل المسلمين.

ولقد سار السلطان الظاهر بيبرس من مصر بجيشه إلى الشام قاصدًا جهاد الصليبيين في عام أربعة وستين وستمائة، وقد نزل في عين جالوت، وبعث عدة جيوش للإغارة على إمارات الصليبيين في الساحل، فأغاروا على عكا وصور

---

(١) الحروب الصليبية للدكتور سعيد عاشور ٢/ ١٠٨٩، والظاهر بيبرس البندقداري هو أحد سلاطين المماليك، تولى الحكم في سنة ثمان وخمسين وستمائة حتى سنة ست وسبعين وستمائة.

وطرابلس وحصن الأكراد، فسبوا وغنموا شيئًا كثيرًا، ثم نزل الظاهر بنفسه على مدينة صفد في الثامن من شهر رمضان، وقد فتحها بعد حصار طويل وقتل كثيرًا من أهلها، ثم جعلها معقلاً للمسلمين فوضع فيها الجنود وزوَّدها بالذخائر والأسلحة[1].

ثم عاد الظاهر إلى دمشق، ووجه جيشًا لقتال الأرمن وقد كانوا ناصروا التتار حينما غزوا الشام، واستنجدوا بهم أيضًا حينما أراد بيبرس فتح أنطاكية، فوجه بيبرس جيشين بقيادة الأمير قلاوون والأمير المنصور الأيوبي أمير حماة، فالتقوا مع المسلمين عند دَرْبَساك وهي قلعة عند أنطاكية فأنزل المسلمون بالأرمن وحلفائهم هزيمة كبرى واستولوا على عدد من بلدانهم المهمة، ومنها سيس عاصمةُ أرمينية الصغرى، ورجع المسلمون بغنائم كثيرة وعدد كبير من الأسرى، ومن بينهم ابن هيثوم ملكِ أرمينية الصغرى، ولم يستطع هيثوم استرداد ابنه إلا بمقابل تنازله عن مواقع مهمة مثل دربساك التي تتحكم في الطريق بين أرمينية وأنطاكية، ومدن أخرى تتحكم في الطريق بين أرمينية والجزيرة حيث يوجد التتار حلفاء الأرمن[2].

وبهذا استطاع بيبرس أن يُضعف أرمينية جدًّا وأن يحصرها بحيث لا تستطيع أن تستنجد بأعدائه ولا أن تُنجدهم.

فتح مدينة يافا:

وفي يوم السبت ثاني جمادى الآخرة من عام خمسة وستين وستمائة خرج السلطان الظاهر بيبرس من مصر بجيشه عازمًا على قصد الشام على حين غفلة، وسار نحو يافا، فوافته رسل صاحبها في الطريق فاعتقلهم، وأمر العسكر بلبس آلة الحرب في الليل وسار فصبَّح يافا وأحاط بها من كل جانب، فهرب من كان فيها من الصليبيين إلى قلعتها، فملك السلطان المدينة، وطلب أهل القلعة الأمان فأمنهم وعوَّضهم عما نُهب لهم بأربعين ألف درهم، فركبوا في المراكب إلى عكا[3].

---

(١) النجوم الزاهرة ٧/ ١٣٨.

(٢) النجوم الزاهرة ٧/ ١٤٠، الحروب الصليبية / ١٠٩٢.

(٣) النجوم الزاهرة ٧ / ١٤١ - ١٤٢.

وهكذا تم فتح يافا وإجلاء الصليبيين منها بهذه السرعة والسهولة بفضل الله تعالى ثم بفضل التخطيط الحربي البارع الذي رسمه السلطان بيبرس الذي جمع الله تعالى له بين الشجاعة النادرة والرأي الثاقب.

فتح مدينة أنطاكية:

وبعد أن فتح الظاهر بيبرس يافا توجه شمالاً يريد فتح أنطاكية، وفي طريقه إليها فتح قلعة الشقيف، وقلعة الباشورة وغيرهما.

ولما قرب من أنطاكية أمر العسكر ليلاً بلبس آلة الحرب ونزل أنطاكية فى غرة شهر رمضان، فخرج إليه جماعة من أهلها يطلبون الأمان وشرطوا شروطًا لم يجب إليها، وزحف عليها ففتحها يوم السبت رابع الشهر، وقد كان هو أول من فتح أنطاكية وقضى على الصليبيين فيها منذ أن استولوا عليها[١].

وقد استمر السلطان الظاهر بيبرس في غزو الصليبيين في ساحل الشام، ومن ذلك ما قام به سنة تسع وستين وستمائة حيث خرج من مصر في ثاني عشر من شهر جمادى الآخرة، وكان معه ولده الأمير السعيد وقد هاجم عددًا من حصون الصليبيين وقلاعهم الحصينة، وفتح منها قلعتَيْ صافيتا والمجدَّل وحصن الأكراد[٢].

ومما يذكر للسلطان الظاهر بيبرس كثرة خروجه للجهاد حيث كان لا يهدأ له بال ولا يقِر له قرار بعاصمة سلطنته وهو يرى البلاد الإسلامية مهددة من الصليبيين والتتار، وقد بلغت قوة دولته حداً أرهب الأعداء وجعل بعضهم يحاول الصلح معه، فرحمه الله رحمة واسعة.

***

(١) النجوم الزاهرة ٧/ ١٤٣.

(٢) النجوم الزاهرة ٧/ ١٥٠

٧- جهاد السلطان قلاوون وابنه خليل

فتح حصن المرقب:

ذكر المؤرخ يوسف بن تَغْرِي بَرْدِي أن السلطان المنصور قلاوون(١) خرج بجيشه من مصر إلى بلاد الشام، ووصل إلى حصن المرقب الذي هو تحت سيطرة الصليبيين، وذلك في العاشر من شهر صفر عام أربعة وثمانين وستمائة، وحاصر أهل ذلك الحصن ونصب المسلمون المجانيق ورموا بها الحصن وهدموا معظم أبراجه، واستمر ذلك إلى سادس عشر من شهر ربيع الأول حيث زحف السلطان بجيشه واستولى على ذلك الحصن، ونزل من فيه من الصليبيين بالأمان على أرواحهم فركبوا وجهز السلطان معهم من أوصلهم إلى أَنْطَرْسُوس(٢).

فتح مدينة طرابلس:

ثم ذكر أنه في عام ثمانية وثمانين وستمائة خرج السلطان المنصور قلاوون من الديار المصرية بعساكره لحصار طرابلس، ووصل في مستهل شهر ربيع الأول إلى طرابلس وحاصرها، ونصب عليها المجانيق، وضايق أهلها مضايقة شديدة إلى أن ملكها عنوة في يوم الثلاثاء الرابع من شهر ربيع الأول، وشمل القتل والأسر سائر من فيها من الصليبيين، وغرق منهم في الماء جماعة كثيرة، كما تم الاستيلاء على عدد من الحصون التابعة لها(٣).

فتح مدينة عكا:

كان السلطان المنصور قلاوون قد عزم على حصار مدينة عكا، وبدأ بالاستعداد لذلك، ولكنْ وافته المنية وهو في مخيَّمه خارج القاهرة بعد مرض أصابه، ذكر ذلك ابن تغري بردي ثم ذكر أنه لما آل الأمر إلى ولده السلطان خليل بن قلاوون(٤) واستتب له الأمر شرع في إكمال ما عزم عليه أبوه، فتجهز للسفر،

---

(١) هو السلطان المنصور قلاوون بن عبد الله التركي، تولى الحكم سنة ثمان وسبعين وستمائة إلى أن توفي سنة تسع وثمانين وستمائة.

(٢) النجوم الزاهرة ٧/ ٣١٥.

(٣) النجوم الزاهرة ٧/ ٣٢١

(٤) تولى الحكم بعد أبيه ما بين عامي تسعة وثمانين وستمائة وثلاثة وتسعين وستمائة.

وأرسل إلى البلاد الشامية ليستعدوا للغزو معه، وعمل آلات الحصار وجمع الصناع إلى أن تم أمره فخرج بعساكره من الديار المصرية في ثالث شهر ربيع الأول من سنة تسعين وستمائة، وسار حتى نازل عكا في يوم الخميس رابع شهر ربيع الآخر، فاجتمع عنده على عكا من الأمم مالا يُحصى كثرة، وكان المطَّوِّعة أكثرَ من الجند ومن في الخدمة، ونصب عليها المجانيق الكبار والصغار، ونقب النقَّابون في سورها عدة نقوب.

قال: وأنجد أهلَ عكا صاحب قبرص بنفسه، وفي ليلة قدومه عليهم أشعلوا نيرانًا عظيمة لم يُرَ مثلها فرحًا به، وأقام عندهم ما يقرب من ثلاثة أيام، ثم عاد عندما شاهد انحلال أمرهم وعظمَ ما دهمهم، ولم يزل الحصار عليها والجد في أمر قتالها إلى أن انحلَّت عزائم من بها وضعف أمرهم، واختلفت كلمتهم، هذا والحصار عمَّال في كل يوم، واستُشهد عليها جماعة من المسلمين.

فلما كان سحر يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى ركب السلطان والعساكر وزحفوا عليها قبل طلوع الشمس وضربوا الكوسات فكان لها أصوات مهولة وحسٌّ عظيم مزعج، فحال ملاصقة العسكر لها وللأسوار هرب الفرنج، ومُلكت المدينة بالسيف، ولم تمض ثلاث ساعات من النهار المذكور إلا وقد استولى المسلمون عليها ودخلوها، وطلب الفرنج البحر فتبعتهم العساكر الإسلامية تقتل وتأسر، فلم ينج منهم إلا القليل(١).

فتح مدينة صور:

قال ابن تَغْرِي بَرْدِي: وكان السلطان [يعني خليل بن قلاوون] عند منازلته عكا قد جهز جماعة من الجند مقدمهم الأمير علم الدين سنجر الصوابي الجاشنكير إلى «صور» لحفظ الطرق وتعرُّف الأخبار، وأمره بمضايقة صور، فبينما هو في ذلك لم يشعر إلا بمراكب المنهزمين من عكا قد وافت ميناء صور، فحال بينها وبين الميناء، فطلب أهل صور الأمان فأمَّنهم على أنفسهم وأموالهم ويسلِّموا صور فأُجيبوا إلى ذلك، فتسلَّمها.

(١) النجوم الزاهرة ٨/ ٥ - ٧.

ثم ذكر أن السلطان خليل لما علم بذلك جهز إليها من خرَّبها وهدم أسوارها وأبنيتها(١).

نهاية الصليبيين في الشام:

وبعد هذه الفتوح بقي للصليبيين في الشام مدينة صيدا وعثليث وأَنْطَرطوس، وكان السلطان خليل بن قلاوون قد ولَّى على نيابة الشام علم الدين سنجر الشجاعي فحاصر مدينة صيدا حتى فتحها بالأمان لأهلها يوم السبت خامس عشر رجب من سنة تسعين وستمائة، ثم فتح قلعة جُبَيل وخربها بأمر السلطان، ثم فتح عثليث بعد شهر.

وأما أهل أَنْطَرطُوس فإنهم لما بلغهم أخذ هذه القلاع عزموا على الهرب، فجرد الأمير سيف الدين بَلَبان الطِّباخي عسكرًا، فلما أحاطوا بها ليلة الخميس خامس شعبان ركبوا البحر وهربوا إلى جزيرة أرواد، وهي بالقرب منها، فندب إليها السَّعديَّ بما كان أحضره من مراكب فأخلوها، وكان فتح هذه المدن الست في ستة شهور(٢).

وهكذا قام السلطان المنصور قلاوون بمشروع جهادي كبير لاستئصال بقية الصليبيين في الشام، فبدأ بفتح حصن المرقب الحربي الذي كان واسعًا وفي غاية الأهمية، ثم ثنَّى بفتح مدينة طرابلس التي كانت مشهورة بحصانتها ومناعة سورها، ثم ثلث بالعزم على حصار مدينة عكا فوافته المنية قبل ذلك، فحقق له أمنيته ابنه السلطان خليل الذي خلَفه في الحكم، وكانت عكا أهمَّ مراكز الصليبيين في ساحل الشام ثم توَّجَ السلطان خليل بن قلاوون أعماله الجهادية بفتح بقية المدن والحصون التي استولى عليها الصليبيون.

وبهذه الفتوحات انتهى وجود الصليبيين في بلاد الإسلام الذي بدأ في عام ثمانية وسبعين وأربعمائة واستمر حتى عام تسعين وستمائة للهجرة، وهذا يعني أن احتلال الصليبيين لأجزاء من بلاد المسلمين استمر اثنتي عشرة ومائتي سنة.

***

(١) النجوم الزاهرة ٨/ ٨.

(٢) النجوم الزاهرة ٨/ ١٠ - ١١.

مواقــف وعبر
فــي
جهاد المسلمين ضد التتار

استيلاء التتار على بلاد المشرق كلها

في موضوع حروب التتار كتب المؤرخ المشهور أبو الحسن على بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير كتابة عالية مفصلة لكونه قد عاصر تلك الأحداث وقد قدَّم لذلك بمقدمة أظهر فيها الأسى والحزن على ما حل بأمة الإسلام من النكبات العظيمة على أيدي التتار، وفي ذلك يقول: لقد بقيت عدة سنين معرضًا عن ذكر هذه الحادثة استعظامًا لها كارهًا لذكرها، فأنا أقدم إليه رجلا وأوخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك، فياليت أمى لم تلدنى ويااليتنى مت قبل هذا وكنت نسيًا منسيًا، إلا أنى حثنى جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعا فنقول: هذا الفصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التى عقمت الأيام والليالى عن مثلها، وعمت الخلائق وخصت المسلمين، فلو قال قائل إن العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقًا، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها، ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بختنصر ببنى إسرائيل من القتل وتخريب البيت المقدس، وما البيت المقدس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملاعين من البلاد التى كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس. وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى من قتلوا؟! فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بنى إسرائيل، ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا إلا يأجوج ومأجوج، وأما الدجال فإنه يبقى على من اتبعه ويهلك من خالفه، وهؤلاء لم يبقوا على أحد، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة، فإن لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم لهذه الحادثة التى استطار شررها وعم ضررها وسارت في البلاد كالسحاب استدبرته الريح[1].

وقد لخص الحافظ بن كثير الكلام في ذلك بقوله: وفيها [أى في سنة ست عشرة وستمائة] عبرت التتار نهر جيحون في صحبة ملكهم جنكزخان من بلادهم،

---

(١) الكامل في التاريخ ٩/ ٣٢٩.

وكانوا يسكنون جبال طمغاج من أرض الصين ولغتهم مخالفة للغة سائر التتار، وهم من أشجعهم وأصبرهم على القتال، وسبب دخولهم نهر جيحون أن جنكزخان بعث تجارًا له ومعهم أموال كثيرة إلى بلاد خوارزم شاه يبتضعون له ثيابًا للكسوة، فكتب نائبها إلى خوارزم شاه يذكر له ما معهم من كثرة الأموال، فأرسل إليه بأن يقتلهم ويأخذ ما معهم، ففعل ذلك، فلما بلغ جنكزخان خبرهم أرسل يتهدد خوارزم شاه، ولم يكن ما فعله خوارزم شاه فعلاً جيدًا، فلما تهدده أشار من أشار على خوارزم شاه بالمسير إليهم، فسار إليهم وهم في شغل شاغل بقتال كشلى خان، فنهب خوارزم شاه أموالهم وسبى ذراريهم وأطفالهم، فأقبلوا إليه محروبين، فاقتتلوا معه أربعة أيام قتالا لم يسمع بمثله، أولئك يقاتلون عن حريمهم والمسلمون عن أنفسهم، يعلمون أنهم متى ولّوا استأصلوهم، فقتل من الفريقين خلق كثير، حتى أن الخيول كانت تزلق في الدماء، وكان جملة من قتل من المسلمين نحوًا من عشرين ألفا، ومن التتار أضعاف ذلك، ثم تحاجز الفريقان وولّى كل منهم إلى بلاده ولجأ خوارزم شاه وأصحابه إلى بخارى وسمرقند فحصّنها وبالغ في كثرة من ترك فيها من المقاتلة، ورجع إلى بلاده ليجهز الجيوش الكثيرة، فقصدت التتار بخارى وبها عشرون ألف مقاتل فحاصرها جنكزخان ثلاثة أيام، فطلب منه أهلها الأمان فأمنهم ودخلها فأحسن السيرة فيهم مكرًا وخديعة، وامتنعت عليه القلعة فحاصرها واستعمل أهل البلد في طم خندقها، وكانت التتار يأتون بالمنابر والربعات[1] فيطرحونها في الخندق يطمونه بها ففتحوها قسرًا في عشرة أيام، فقتل من كان بها. ثم عاد إلى البلد فاصطفى أموال تجارها وأحلها لجنده فقتلوا من أهلها خلقا لا يعلمهم إلا الله عز وجل، وأسروا الذرية والنساء، وفعلوا معهن الفواحش بحضرة أهليهن، فمن الناس من قاتل دون حريمه حتى قتل، ومنهم من أسر فعذب بأنواع العذاب، وكثر البكاء والضجيج بالبلد من النساء والأطفال والرجال، ثم ألقت التتار النار في دور بخارى ومدارسها ومساجدها فاحترقت حتى صارت بلاقع خاوية على عروشها، ثم كروا راجعين عنها قاصدين سمرقند.

---

(١) أى الحوامل الخشبية للقرآن الكريم.

قال: ثم دخلت سنة سبع عشرة وستمائة، وفي هذه السنة عم البلاء وعظم العزاء بجنكزخان المسمى بتموجين لعنه الله تعالى، ومن معه من التتار قبحهم الله أجمعين، واستفحل أمرهم واشتد إفسادهم من أقصى بلاد الصين إلى أن وصلوا بلاد العراق وما حولها حتى انتهوا إلى إربل وأعمالها، فملكوا في سنة واحدة وهي هذه السنة سائر الممالك إلا العراق والجزيرة والشام ومصر، وقهروا جميع الطوائف التي بتلك النواحي الخوارزمية والقفجاق والكرج واللان والخزر وغيرهم، وقتلوا في هذه السنة من طوائف المسلمين وغيرهم في بلدان متعددة كبار مالا يحد ولا يوصف، وبالجملة فلم يدخلوا بلداً إلا قتلوا جميع من فيه من المقاتلة والرجال، وكثيراً من النساء والأطفال، وأتلفوا ما فيه بالنهب إن احتاجوا إليه، وبالحريق إن لم يحتاجوا إليه حتى أنهم كانوا يجمعون الحرير الكثير الذي يعجزون عن حمله فيطلقون فيه النار وهم ينظرون إليه، ويخربون المنازل وما عجزوا عن تخريبه يحرقوه، وأكثر ما يحرقون المساجد والجوامع، وكانوا يأخذون الأسارى من المسلمين فيقاتلون بهم ويحاصرون بهم، وإن لم ينصحوا في القتال قتلوهم.

قال الحافظ ابن كثير: ثم سار - يعني ملك التتار - إلى سمرقند فحاصرها في أول المحرم من هذه السنة وبها خمسون ألف مقاتل من الجند فنكلوا وبرز إليهم سبعون ألفًا من العامة فقتل الجميع في ساعة واحدة وألقى إليه الخمسون ألف السلم فسلبهم سلاحهم وما يمتنعون به، وقتلهم في ذلك اليوم واستباح البلد فقتل الجميع وأخذ الأموال وسبى الذرية وحرقه وتركه بلاقع، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وأقام لعنه الله هنالك وأرسل السرايا إلى البلدان فأرسل سرية إلى بلاد خراسان وتسميها التتار المغربة، وأرسل أخرى وراء خوارزم شاه، وكانوا عشرين ألفا قال اطلبوه فأدركوه ولو تعلق بالسماء فساروا وراءه فأدركوه بينهم وبينه نهر جيحون، وهو آمن بسببه، فلم يجدوا سفنًا فعملوا لهم أحواضًا يحملون عليها الأسلحة ويرسل أحدهم فرسه ويأخذ بذنبها فتجره الفرس بالماء وهو يجر الحوض الذي فيه سلاحه، حتى صاروا كلهم في الجانب الآخر، فلم يشعر بهم خوارزم شاه إلا وقد خالطوه، فهرب منهم إلى نيسابور ثم منها إلى غيرها وهم فى أثره لا يمهلونه يجمع لهم، فصار كلما أتى بلدًا ليجتمع فيه عساكره له يدركونه فيهرب منهم،

حتى ركب في بحر طبرستان وسار إلى قلعة في جزيرة فيه فكانت فيها وفاته، وقيل إنه لا يعرف بعد ركوبه البحر ما كان من أمره بل ذهب فلا يدري أين ذهب، ولا إلى أي مفر هرب، وملكت التتار حواصله فوجدوا في خزائنه عشرة آلاف دينار، وألف حمل من الأطلس وغيره وعشرون ألف فرس وبغل، ومن الغلمان والجواري والخيام شيئًا كثيرًا، وكان له عشرة آلاف مملوك كل واحد مثل ملك، فتمزق ذلك كله.

وقد كان خوارزم شاه فقيهًا حنفيًا فاضلاً له مشاركات في فنون من العلم، يفهم جيدًا، وملك بلادًا متسعة وممالك متعددة إحدى وعشرين سنة وشهورًا، ولم يكن بعد ملوك بني سلجوق أكثر حرمة منه ولا أعظم ملكًا منه، لأنه إنما كانت همته في الملك لا في اللذات والشهوات، ولذلك قهر الملوك بتلك الأراضي وأحل بالخطا بأسًا شديدًا، حتى لم يبق ببلاد خراسان وما وراء النهر وعراق العجم وغيرها من الممالك سلطان سواه، وجميع البلاد تحت أيدي نوابه.

ثم ساروا إلى مازندران وقلاعها من أمنع القلاع، بحيث إن المسلمين لم يفتحوها إلا في سنة تسعين من أيام سليمان بن عبد الملك، ففتحها هؤلاء في أيسر مدة ونهبوا ما فيها وقتلوا أهاليها كلهم وسبوا وأحرقوا، ثم ترحلوا عنها نحو الري فوجدوا في الطريق أم خوارزم شاه ومعها أموال عظيمة جدًا، فأخذوها وفيها كل غريب ونفيس مما لم يشاهد مثله من الجواهر وغيرها، ثم قصدوا الري فدخلوها على حين غفلة من أهلها فقتلوهم وسبوا وأسروا، ثم ساروا إلى همذان فملكوها ثم إلى زنجان فقتلوا وسبوا، ثم قصدوا قزوين فنهبوها وقتلوا من أهلها نحوًا من أربعين ألفًا، ثم تيمموا بلاد أذربيجان فصالحهم ملكها أزبك بن البهلوان على مال حمله إليهم لشغله بما هو فيه من السكر وارتكاب السيئات والانهماك على الشهوات، فتركوه وساروا إلى موقان فقاتلهم الكرج في عشرة آلاف مقاتل فلم يقفوا بين أيديهم طرفة عين حتى انهزمت الكرج فأقبلوا إليهم بحدهم وحديدهم، فكسرتهم التتار وقعة ثانية أقبح هزيمة وأشنعها.

قال ابن كثير: وانقضت هذه السنة وهم في بلاد الكرج، فلما رأوا منهم ممانعة ومقاتلة يطول عليهم بها المطال عدلوا إلى غيرهم، وكذلك كانت عادتهم، فساروا

إلى تبريز فصالحهم أهلها بمال. ثم ساروا إلى مراغة فحصروها ونصبوا عليها المجانيق وتترسوا بالأسارى من المسلمين، وعلى البلد امرأة - ولن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة - ففتحوا البلد بعد أيام وقتلوا من أهله خلقًا لا يعلم عدتهم إلا الله عز وجل، وغنموا منه شيئًا كثيرًا، وسبوا وأسروا على عادتهم لعنهم الله لعنة تدخلهم نار جهنم، وقد كان الناس يخافون منهم خوفًا عظيمًا جدًا حتى إنه دخل رجل منهم إلى درب من هذه البلد وبه مائة رجل لم يستطع واحد منهم أن يتقدم إليه، وما زال يقتلهم واحدًا بعد واحد حتى قتل الجميع ولم يرفع منهم أحد يده إليه، ونهب ذلك الدرب وحده. ودخلت امرأة منهم في زي رجل (بيتا) فقتلت كل من في ذلك البيت وحدها ثم استشعر أسير معها أنها امرأة فقتلها لعنها الله.

ثم قصدوا مدينة إربل فضاق المسلمون لذلك ذرعًا وقال أهل تلك النواحي هذا أمر عصيب، وكتب الخليفة إلى أهل الموصل والملك الأشرف صاحب الجزيرة يقول إني قد جهزت عسكرًا فكونوا معه لقتال هؤلاء التتار، فأرسل الأشرف يعتذر إلى الخليفة بأنه متوجه نحو أخيه الكامل إلى الديار المصرية بسبب ما قد دهم المسلمين هناك من الفرنج، وأخذهم دمياط الذي قد أشرفوا بأخذهم لها على أخذ الديار المصرية قاطبة، وكان أخوه المعظم قد قدم على والي حران يستنجده لأخيهما الكامل ليحاجزوا الفرنج بدمياط وهو على أهبة المسير إلى الديار المصرية، فكتب الخليفة إلى مظفر الدين صاحب إربل ليكون هو المقدم على العساكر التي يبعثها الخليفة وهي عشرة آلاف مقاتل، فلم يقدم عليه منهم سوى ثمانمائة فارس تفرقوا قبل أن يجتمعوا، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولكن الله سلّم بأن صرف همة التتار إلى ناحية همذان فصالحهم أهلها وترك عندهم التتار شحنة، ثم اتفقوا على قتل شحنتهم فرجعوا إليهم فحاصرهم حتى فتحوها قسرًا وقتلوا أهلها عن آخرهم، ثم ساروا إلى أذربيجان ففتحوا أردبيل ثم تبريز ثم إلى بيلقان فقتلوا من أهلها خلقًا كثيرًا وجمًا غفيرًا وحرقوها، وكانوا يفجرون بالنساء ثم يقتلونهن ويشقون بطونهن عن الأجنة ثم عادوا إلى بلاد الكرج وقد استعدت لهم الكرج فاقتتلوا معهم فكسروهم أيضًا كسرة فظيعة.

ثم فتحوا بلدانًا كثيرة يقتلون أهلها ويسبون نساءها ويأسرون من الرجال ما

يقاتلون بهم الحصون، يجعلونهم بين أيديهم ترسًا يتقون بهم الرمي وغيره، ومن سلم منهم قتلوه بعد انقضاء الحرب، ثم ساروا إلى بلاد اللان، والقبجاق فاقتتلوا معهم قتالاً عظيمًا فكسروهم وقصدوا أكبر مدائن القبجاق وهي مدينة سوداق وفيها من الأمتعة والثياب والتجائر من البرطاسي والقندر والسنجاب شيء كثير جدًا، ولجأت القبجاق إلى بلاد الروس وكانوا نصارى فاتفقوا معهم على قتال التتار فالتقوا معهم فكسرتهم التتار كسرة فظيعة جدًا، ثم ساروا نحو بلقار في حدود العشرين وستمائة ففرغوا من ذلك كله ورجعوا نحو ملكهم جنكزخان لعنه الله وإياهم.

هذا ما فعلته هذه السرية المغرّبة، وكان جنكزخان قد أرسل سرية في هذه السنة إلى كلانة وأخرى إلى فرغانة فملكوها، وجهز جيشًا آخر نحو خراسان فحاصروا بلخ فصالحهم أهلها، وكذلك صالحوا مدنًا كثيرة أخرى، حتى انتهوا إلى الطالقان فأعجزتهم قلعتها وكانت حصينة فحاصروها ستة أشهر حتى عجزوا فكتبوا إلى جنكزخان فقدم بنفسه فحاصرها أربعة أشهر أخرى حتى فتحها قهرًا، ثم قتل كل من فيها. وكل من في البلد بكماله خاصة وعامة.

ثم قصدوا مدينة مرو مع جنكزخان فقد عسكر بظاهرها نحو مائتي ألف مقاتل من العرب وغيرهم فاقتتلوا معه قتالاً عظيمًا حتى انكسر المسلمون فإنا لله وإنا إليه راجعون، ثم حصروا البلد خمسة أيام واستنزلوا نائبها خديعة ثم غدروا به وبأهل البلد فقتلوهم وغنموهم وسلبوهم وعاقبوهم بأنواع العذاب، حتى إنهم قتلوا في يوم واحد سبعمائة ألف إنسان.

ثم ساروا إلى نيسابور ففعلوا فيها ما فعلوا بأهل مرو، ثم إلى طوس فقتلوا وخربوا مشهد علي بن موسى الرضى سلام الله عليه وعلى آبائه، وخربوا تربة الرشيد الخليفة فتركوه خرابًا، ثم ساروا إلى غزنة فقاتلهم جلال الدين بن خوارزم شاه فكسرهم ثم عادوا إلى ملكهم جنكزخان لعنه الله وإياهم، وأرسل جنكزخان طائفة أخرى إلى مدينة خوارزم فحاصروها حتى فتحوا البلد قهرًا فقتلوا من فيها قتلاً ذريعًا، ونهبوها وسبوا أهلها وأرسلوا الجسر الذي يمنع ماء جيحون منها فغرقت دورها وهلك جميع أهلها.

ثم عادوا إلى جنكزخان وهو مخيم على الطالقان فجهز منهم طائفة إلى غزنة فاقتتل معهم جلال الدين بن خوارزم شاه فكسرهم جلال الدين كسرة عظيمة، واستنقذ منهم خلقًا من أسارى المسلمين، ثم كتب إلى جنكزخان يطلب منه أن يبرز بنفسه لقتاله، فقصده جنكزخان فتواجها وقد تفرق على جلال الدين بعض جيشه ولم يبق بد من القتال، فاقتتلوا ثلاثة أيام لم يعهد قبلها مثلها من قتالهم، ثم ضعفت أصحاب جلال الدين فذهبوا فركبوا بحر الهند فسارت التتار إلى غزنة فأخذوها بلا كلفة ولا ممانعة، كل هذا أو أكثره وقع في هذه السنة[١].

وقد ذكر المؤرخ ابن الأثير أن تلك الانتصارات التى حاز عليها التتار بسبب عدم وجود المانع لهم، قال: وسبب عدمه أن خوارزم شاه محمداً كان قد استولى على البلاد وقتل ملوكها وأفناهم، وبقي هو وحده سلطان البلاد جميعها، فلما انهزم منهم لم يبق في البلاد من يمنعهم ولا من يحميها (ليقضى الله أمرًا كان مفعولاً)[٢].

***

(١) البداية والنهاية ١٣/ ٩٠ - ٩٨.

(٢) الكامل في التاريخ ٩/ ٣٣٠.

استيلاء التتار على بغداد وقضاؤهم على الخلافة العباسية

ذكر الحافظ ابن كثير في حوادث سنة ست وخمسين وستمائة خبر هجوم التتار على بغداد واستيلائهم عليها فقال: استهلت هذه السنة وجنود التتار قد نازلت بغداد صحبة الأميرين اللذين على مقدمة عساكر سلطان التتار. هولاكوخان، وجاءت إليهم أمداد صاحب الموصل يساعدونهم على البغاددة وميرته وهداياه وتحفه، وكل ذلك خوفًا على نفسه من التتار، ومصانعة لهم قبحهم الله تعالى، وقد سترت بغداد ونصبت فيها المجانيق والعرادات وغيرها من آلات الممانعة التى لا ترد من قدر الله سبحانه وتعالى شيئًا، كما ورد في الأثر «لن يغني حذر عن قدر» وكما قال تعالى: ﴿**إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ**﴾ [نوح: ٤]. وقال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ**﴾ [الرعد: ١١].

ووصل بغداد بجنوده الكثيرة الكافرة الفاجرة الظالمة الغاشمة، ممن لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، فأحاطوا ببغداد من ناحيتها الغربية والشرقية، وجيوش بغداد في غاية القلة ونهاية الذلة، لا يبلغون عشرة آلاف فارس، وهم وبقية الجيش، كلهم قد صرفوا عن إقطاعاتهم حتى استعطى كثير منهم في الأسواق وأبواب المساجد، وأنشد فيهم الشعراء قصائد يرثون لهم ويحزنون على الإسلام وأهله، وذلك كله عن آراء الوزير ابن العلقمي الرافضي، وذلك أنه لما كان في السنة الماضية كان بين أهل السنة والرافضة حرب عظيمة نهبت فيها الكرخ ومحلة الرافضة حتى نهبت دور قرابات الوزير، فاشتد حنقه على ذلك، فكان هذا مما أهاجه على أن دبَّر على الإسلام وأهله ما وقع من الأمر الفظيع الذي لم يؤرخ أبشع منه منذ بنيت بغداد، وإلى هذه الأوقات، ولهذا كان أول من برز إلى التتار هو، فخرج بأهله وأصحابه وخدمه وحشمه، فاجتمع بالسلطان هلاكوخان لعنه الله، ثم عاد فأشار على الخليفة بالخروج إليه والمثول بين يديه لتقع المصالحة على أن يكون نصف خراج العراق لهم ونصفه للخليفة، فاحتاج الخليفة إلى أن خرج في سبعمائة راكب من القضاة والفقهاء والصوفية ورؤوس الأمراء والدولة والأعيان، فلما اقتربوا من منزل السلطان هولاكوخان حجبوا عن الخليفة إلا سبعة عشر نفسًا، فخلص الخليفة بهؤلاء

المذكورين، وأُنزل الباقون عن مراكبهم ونهبت وقتلوا عن آخرهم، وأُحضر الخليفة بين يدي هولاكو فسأله عن أشياء كثيرة فيقال إنه اضطرب كلام الخليفة من هول ما رأى من الإهانة والجبروت، ثم عاد إلى بغداد وفي صحبته خوجه نصير الدين الطوسي، والوزير ابن العلقمي وغيرهما، والخليفة تحت الحوطة والمصادرة، فأحضر من دار الخلافة شيئًا كثيرًا من الذهب والحلى والمصاغ والجواهر والأشياء النفيسة.

وقد أشار أولئك الملأ من الرافضة وغيرهم من المنافقين على هولاكو أن لا يصالح الخليفة، وقال الوزير متى وقع الصلح على المناصفة لا يستمر هذا إلا عامًا أو عامين ثم يعود الأمر إلى ما كان عليه قبل ذلك، وحسَّنوا له قتل الخليفة، فلما عاد الخليفة إلى السلطان هولاكو أمر بقتله، ويقال إن الذي أشار بقتله الوزير ابن العلقمي، والمولى نصير الدين الطوسي، وكان النصير عند هولاكو قد استصحبه في خدمته لما فتح قلاع الألموت، وانتزعها من أيدي الإسماعيلية، وكان النصير وزيرًا لشمس الشموس ولأبيه من قبله علاء الدين بن جلال الدين، وكانوا ينسبون إلى نزار بن المستنصر العبيدي. وانتخب هولاكو النصير ليكون في خدمته كالوزير المشير، فلما قدم هولاكو وتهيب من قتل الخليفة هوَّن عليه الوزير ذلك فقتلوه رفسًا، وهو في جوالق لئلا يقع على الأرض شيء من دمه، خافوا أن يؤخذ بثأره فيما قيل لهم، وقيل بل خنق، ويقال بل أغرق فالله أعلم، فباءوا بإثمه وإثم من كان معه من سادات العلماء والقضاة والأكابر والرؤساء والأمراء وأولي الحل والعقد ببلاده.

ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان ودخل كثير من الناس في الآبار وأماكن الحشوش، وقنى الوسخ، وكمنوا كذلك أيامًا لا يظهرون، وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات ويغلقون عليهم الأبواب فتفتحها التتار إما بالكسر وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة فيقتلونهم بالأسطحة، حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزقة، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وكذلك في المساجد والجوامع والرُّبُط، ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم وإلى دار الوزير ابن العلقمي الرافضي وطائفة من التجار أخذوا لهم أمانًا، بذلوا عليه أموالاً جزيلة حتى سلموا وسلمت أموالهم. وعادت بغداد بعد ما كانت آنس المدن كلها كأنها خراب ليس فيها إلا القليل من الناس، وهم في

خوف وجوع وذلة وقلة، وكان الوزير ابن العلقمي قبل هذه الحادثة يجتهد في صرف الجيوش وإسقاط اسمهم من الديوان، فكانت العساكر في آخر أيام المستنصر قريبًا من مائة ألف مقاتل، منهم من الأمراء من هو كالملوك الأكابر الأكاسر، فلم يزل يجتهد في تقليلهم إلى أن لم يبق سوى عشرة آلاف، ثم كاتب التتار وأطمعهم في أخذ البلاد، وسهل عليهم ذلك، وحكى لهم حقيقة الحال، وكشف لهم ضعف الرجال، وذلك كله طمعًا منه أن يزيل السنة بالكلية، وأن يظهر بدعة الرافضة وأن يقيم خليفة من الفاطميين، وأن يبيد العلماء والمفتيين، والله غالب على أمره، وقد رد كيده في نحره، وأذله بعد العزة القعساء، وجعله حوشكاشًا للتتار بعدما كان وزيرًا للخلفاء، واكتسب إثم من قتل ببغداد من الرجال والنساء والأطفال، فالحكم لله العلى الكبير رب الأرض والسماء.

وقد اختلف الناس في كمية من قتل ببغداد من المسلمين في هذه الوقعة، فقيل ثمانمائة ألف، وقيل ألف ألف وثمانمائة ألف، وقيل بلغت القتلى ألفي ألف نفس، فإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. وكان دخولهم إلى بغداد في أواخر المحرم، ومازال السيف يقتل أهلها أربعين يومًا.

ولما انقضى الأمر المقدر وانقضت الأربعون يومًا بقيت بغداد خاوية على عروشها ليس بها أحد إلا الشاذ من الناس، والقتلى في الطرقات كأنها التلول، وقد سقط عليهم المطر فتغيرت صورهم وأنتنت من جيفهم البلد، وتغير الهواء فحصل بسببه الوباء الشديد حتى تعدى وسرى في الهواء إلى بلاد الشام، فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الريح، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولما نودي ببغداد بالأمان خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والقنى والمقابر كأنهم الموتى إذا نبشوا من قبورهم، وقد أنكر بعضهم بعضًا فلا يعرف الوالد ولده ولا الأخ أخاه، وأخذهم الوباء الشديد فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى(١).

وهكذا تبين لنا سقوط دولة الخلافة العباسية وقتل الخليفة المستعصم ومئات الألوف من المسلمين بسبب التدابير الماكرة السيئة التى قام بها الوزير محمد بن أحمد ابن العلقمي الرافضي المنافق، وقد كان يُظهر للخليفة النصح ويكيد له في الخفاء.

(١) البداية والنهاية ١٣/ ٢١٣ - ٢١٦.

مواقف السلطان سيف الدين المظفر قطز

قال المؤرخ يوسف بن تَغْرِى بَرْدِي: السلطان الملك المظفَّر سيف الدين قُطُزُ بن عبدالله المُعِزِّى الثالث من ملوك الترك بالديار المصرية، وقُطُزُ (بضم القاف والطاء المهملة وسكون الزاى)، وهو لفظ مُغْلِىّ. تسلطن بعد خلع ابن أستاذه الملك المنصور علىّ بن الملك المُعِزّ أَيْبَك فى يوم السبت سابع عشر ذى القعدة سنة سبع وخمسين وستمائة، وذلك بعد أن عظُمت الأراجيفُ بتحريك التَّتار نحوَ البلاد الشاميّة وقطعِهم الفُرات وهجمِهم بالغارت على البلاد الحَلَبيّة، وكان وصل إليه بسبب ذلك الصاحبُ كمال الدين[1] عمر بن العَدِيم رسولاً من الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب والشام يطلب منه النَّجْدَة على قتال التَّتَار، فأنزله قُطُزُ بالكَبْش[2] وجمع القضاةَ والفقهاءَ والأعيان لمشاورتهم فيما يعتمد عليه فى أمر التتار وأن يُؤخذ من الناس ما يُستعان به على جهادهم، فحضروا فى دار السَّلْطنة بقلعة الجبل، وحضر الشيخ عِزّ الدين ابن عبدالسلام والقاضى بدر الدين السِّنْجَارى قاضى الديار المصرية وغيرُهما من العلماء، وجلس الملك المنصور علىّ فى دَسْت السلطنة، وأفاضوا فى الحديث، فكان الاعتماد على ما يقوله ابن عبدالسَّلام، وخُلاصة ما قال: إنّه إذا طرق العدوُّ بلاد الإسلام وجب على العالم قتالُهم، وجاز لكم أن تأخذوا من الرعيّة ما تستعينون به على جهادكم بشرط ألاّ يبقى فى بيت المال شيء، وتبيعوا مالكم من الحوائص[3] المذهبة والآلات النفيسة، ويَقْتَصِر كُلّ الجند على مركوبه وسلاحه ويتساوَوْا هم والعامة. وأما أخذ الأموال من العامّة مع بقايا فى أيدى الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا، وانفضّ المجلس على ذلك، ولم يتكلم السلطان بكلمة فى المجلس لعدم معرفته بالأمور

---

(١) قال المحقق: هو عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبى جرادة الصاحب العلامة كمال الدين أبو القاسم العقيلى الحلبى المعروف بابن العديم. سيذكر المؤلف وفاته سنة ٦٦٠هـ.

(٢) قال المحقق الكبش: اسم يطلق على الجزء الشمالى الغربى من جبل يشكر حيث المنطقة الواقعة غربى جامع ابن طولون.

(٣) قال المحقق: كان من عادة السلطان أنه إذا ركب للعب الكرة بالميدان فرق حوائص من ذهب على بعض الأمراء المقدمين (راجع صبح الأعشى فى الكلام على الخلع والتشاريف /ج ٤ ص ٥٢ - ٥٥).

ولصغر سنّه؛ فلهجَ الناس بخلْعِ المنصور وسلطنة قُطُزْ حتى يقوم بهذا الأمر المهم، واتفق ذلك بعد أيام، وقبض قُطُزْ هذا على الملك المنصور عليّ، واحتجَّ لكمال الدِّين بن العَديم وغيره بأنّه صبيّ لا يُحسن تدبير الملك، وفي مثل هذا الوقت الصَّعْب لابدّ أنْ يقوم بأمر الملك رجل شَهْم يُطيعه الناس وينتصب للجهاد. قال: وتسلطن وركب بِشعار الملك، وجلس على كرسيّ السلطنة وتمّ أمره. ولمّا وقع ذلك تقدم قُطُزْ إلى برهان الدين الخَضِر أن يتوجّه في جواب رسالة الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب الشام صحبةَ الصاحب كمال الدين بن العَديم، ويَعِد الملك الناصر بالنَّجْدة وإنفاذ العساكر إليه؛ فتوجَّها ووصلا إلى دِمَشْق وأدّيا الرسالةَ؛ ولم يزل البُرهانُ بدمشق إلى أن رحل الملك الناصر من دمشق إلى جهة الديار المصريّة جافلاً من التّار(١).

في هذا الخبر موقف جليل لسلطان العلماء عز الدين ابن عبدالسلام حيث لم يخش من السلطان وأعوانه، بل صرح بما يراه هو الحق، وقد تطرق في هذا الخبر إلى نوع من الجهاد بالمال، وهو الذي يكون إلزاميا على الدولة وأفراد الأمة، وذلك فيما إذا دهم العدو دار الإسلام ولم يكن في بيت مال المسلمين ما يكفي لتجهيز الغزاة، وذلك بأنه يجوز للحاكم الذي يريد أن يقوم بغزو الكفار أن يأخذ من أفراد الرعية ما يستعين به هو وجيشه على صد الأعداء، ولكن ذلك مشروط بخلو بيت المال، وأن يكون البدء بالحاكم وأسرته وجنده، وذلك بإلزامهم بالتخلي عن مظاهر الترف وبيع كل النفائس والأشياء الثمينة ورصد ثمنها للإنفاق على المجاهدين، بعد ذلك يُنظر في توزيع باقي النفقة اللازمة للجهاد على أفراد الرعية على حسب مستواهم المالي، هكذا جاءت فتوى هذا العالم الكبير، وهي من فتاوى الضرورة التي يباح في موضوعها مالا يباح في غيره، والضرورة تُقَدَّر بقدرها.

معركة عين جالوت:

تبين لنا أن التتار بعدما استولوا على العراق تقدموا إلى الشام فاستولوا عليها، ولم يبق خارجًا عن سيطرتهم إلا مصر وما وراءها غربًا والحجاز واليمن، ولما استقروا في بلاد الشام عزموا على الزحف إلى مصر وذلك في عام ثمانية وخمسين وستمائة، وفي ذلك يقول الحافظ ابن كثير: والمقصود أن المظفر قطز لما

---

(١) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٧/ ٧٢ - ٧٣.

بلغه ما كان من أمر التتار بالشام المحروسة وأنهم عازمون على الدخول إلى ديار مصر بعد تمهيد ملكهم بالشام، بادرهم قبل أن يبادروه وبرز إليهم وأقدم عليهم قبل أن يقدموا عليه، فخرج في عساكره وقد اجتمعت الكلمة عليه، حتى انتهى إلى الشام واستيقظ له عسكر المغول وعليهم كتبغانوين، وكان إذ ذاك في البقاع فاستشار الأشرف صاحب حمص والمجير ابن الزكي، فأشاروا عليه بأنه لا قبل له بالمظفر حتى يستمد هولاكو، فأبى إلا أن يناجزه سريعًا، فساروا إليه وسار المظفر إليهم، فكان اجتماعهم على عين جالوت يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان، فاقتتلوا قتالاً عظيمًا، فكانت النصرة ولله الحمد للإسلام وأهله، فهزمهم المسلمون هزيمة هائلة وقتل أمير المغول كتبغانوين وجماعة من بيته، وقد قيل إن الذي قتل كتبغانوين الأمير جمال الدين آقوش الشمسي، واتبعهم الجيش الإسلامي يقتلونهم في كل موضع، وقد قاتل الملك المنصور صاحب حماه مع الملك المظفر قتالاً شديدًا، وكذلك الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب، وكان أتابك العسكر، وقد أسر من جماعة كتبغانوين الملك السعيد بن العزيز بن العادل، فأمر المظفر بضرب عنقه، واستأمن الأشرف صاحب حمص، وكان مع التتار، وقد جعله هولاكو خان نائبًا على الشام كله، فأمنه الملك المظفر ورد إليه حمص، وكذلك رد حماه إلى المنصور وزاده المعرة وغيرها، وأطلق سلمية للأمير شرف الدين عيسى ابن مهنا بن مانع أمير العرب، واتبع الأمير بيبرس البندقداري وجماعة من الشجعان التتار يقتلونهم في كل مكان، إلى أن وصلوا خلفهم إلى حلب، وهرب من بدمشق منهم يوم الأحد السابع والعشرين من رمضان. فتبعهم المسلمون من دمشق يقتلون فيهم ويستفكون الأسارى من أيديهم، وجاءت بذلك البشارة ولله الحمد على جبره إياهم بلطفه فجاوبتها دق البشائر من القلعة، وفرح المؤمنون بنصر الله فرحًا شديدًا، وأيد الله الإسلام وأهله تأييدًا وكبت الله النصارى واليهود والمنافقين وظهر دين الله وهم كارهون[1].

وهكذا هزم الله تعالى التتار لأول مرة على يد أولئك الأبطال من الجيش المصري ومن انضم إليه من جيش الشام بقيادة السلطان المظفر قطز، وحاز هذا الأمير الشجاع الشهم على شرف القيام بمواجهة التتار وهزيمتهم.

---

(١) البداية والنهاية ١٣/ ٢٣٤.

ولقد كانت هزيمة التتار في عرف المسلمين -آنذاك- أمرًا بعيد الاحتمال، ومن أجل ذلك مالأهم بعض أمراء المسلمين وخضعوا لهم، واستعز النصارى وتطاولوا على المسلمين وأهانوهم ظنًا منهم أن الدولة ستستمر للتتار، ولكن الله تعالى بفضله وإحسانه أخلف ظنون التتار والنصارى والمتخاذلين من المسلمين فنصر عباده المؤمنين وأعز بهم دينه.

إن معركة عين جالوت معركة فاصلة، فصلت بين الإسلام والكفر، وبين دولة المسلمين ودولة الكفار، فالتتار الذين انتصروا على أكثر بلاد المسلمين كان في يقينهم أنهم سيستولون على مصر وبقية بلاد المسلمين، ولكن جنود مصر البواسل -بمعونة جند الشام- كانوا لهم بالمرصاد، فخيبوا آمالهم وأبطلوا أحلامهم.

ولقد قُتل في هذه المعركة الفاصلة «كتبغانوين» قائد التتار الكبير، ورجع هولاكو ملك التتار نحو المشرق خاسئًا ذليلا، وتم تطهير شمال الشام من التتار على يد الظاهر بيبرس أحدِ قادة قطز الأقوياء.

مواقف جهادية في هذه المعركة:

من ذلك مواقف قائد المسلمين السلطان سيف الدين المظفرِ قطز حاكم مصر، ولابد قبل بيان مواقفه من إعطاء نبذة موجزة عنه، فهو محمود بن مودود من سلالة بيت خوارزم شاه حاكمِ بلاد المشرق الذي قضى التتار على مملكته، وقد نُقل قطز وهو صغير إلى مصر حيث أصبح مملوكا للأمير صالح بن أيوب بن الكامل، ثم انتقل إلى ملك الأمير عزّ الدين أيبك التركمانيّ حاكم مصر، وقد رأى فيه نجابة وشجاعة فقرّبه إليه.

يقول عنه الإمام الذهبي: وكان المظفر أكبر مماليك المعز أيبك التركماني، وكان بطلا شجاعا مقدامًا حازمًا حسن التدبير، يرجع إلى دين وإسلام وخير، وله اليد البيضاء في جهاد التتار، فعوض الله شبابه في الجنة ورضي عنه، ذكره ابن تغري بَرْدي[1].

---

(١) النجوم الزاهرة ٧/ ٨٤.

وقال ابن كثير: لما قُتل أستاذُه المعز قام بتولية ولده نور الدين المنصور علي، فلما سمع بأمر التتار خاف أن تختلف الكلمة لصغر سنٍّ ابن أستاذه فعزله ودعا إلى نفسه، فبويع في ذي القعدة سنة سبع وخمسين وستمائة[1].

وفي مواقفه العالية في هذه المعركة ما ذكره الحافظ ابن كثير قال: ذُكر عنه أنه لما كان يوم المعركة بعين جالوت قُتل جواده، ولم يجد أحدًا في الساعة الراهنة من الوشاقية الذين معهم الجنائب[2]، فترجَّل وبقي واقفًا على الأرض ثابتا، والقتال عمَّال في المعركة، وهو في موضع السلطان من القلب، فلما رآه بعض الأمراء ترجل عن فرسه وحلف على السلطان ليركبنها، فامتنع وقال لذلك الأمير: ما كنت لأحرم المسلمين نفعك، ولم يزل كذلك حتى جاءته الوشاقية بالخيل فركب، فلامَه بعض الأمراء وقال: يا خَوَنْد لِمَ لا ركبت فرس فلان؟ فلو أن بعض الأعداء رآك لقتلك وهلك بسببك الإسلام، فقال: أمَّا أنا فكنت أروح إلى الجنة، وأما الإسلام فله رب لا يضيعه، قد قُتل فلان وفلان وفلان، -حتى عد خلقًا من الملوك- فأقام للإسلام من يحفظه غيرهم، ولم يضيِّع الإسلام[3].

فهذا موقف جليل لهذا الأمير البطل دل على تواضعه وعدم اهتمامه بحظ نفسه في سبيل مصلحة المسلمين العامة، كما يدل على تذكره عظمة الإسلام والهدفَ العالي الذي ينشده المؤمنون حقا وهو ابتغاء رضوان الله تعالى والجنة.

وقال الحافظ ابن كثير: وقد رُوي عنه أنه لما رأى عصائب التتار قال للأمراء والجيوش الذين معه: لا تقاتلوهم حتى تزول الشمس وتفيء الظلال وتهب الرياح، ويدعوا لنا الخطباء والناس في صلاتهم، رحمه الله تعالى[4].

وهذه لفتة جيدة تدل على اهتمام المظفر قطز بالاعتماد على الله تعالى واستمداد النصر منه، حيث أمَّل بموافقة ساعة صلاة الجمعة أن يستجيب الله جل وعلا دعاء خطباء الجمعة والمسلمين لهم بالنصر.

---

(١) البداية والنهاية ١٣/ ٢٣٨، النجوم الزاهرة ٧/ ٨٤.

(٢) الوشاقية هم سائسو الخيل

(٣) البداية والنهاية ١٣/ ٢٣٨.

(٤) البداية والنهاية ١٣/ ٢٣٩.

وقال الحافظ ابن كثير أيضًا في بيان انتصار المسلمين وهزيمة التتار: وقُتل أميرهم «كتبغانوين» في المعركة وأسر ابنه وكان شابًا حسنا، فأُحضر بين يدي المظفر قطز فقال له: أهَرَبَ أبوك؟ قال: إنه لا يهرب، فطلبوه فوجدوه بين القتلى، فلما رآه ابنه صرخ وبكى، فلما تحققه المظفر سجد لله تعالى، ثم قال: أنامُ طيِّبا، كان هذا سعادة التتار، وبقتله ذهب سعدهم.

قال: وهكذا كان كما قال: ولم يفلحوا بعده أبدا، وكان قتله يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان، وكان الذي قتله الأمير آقوش الشمسي رحمه الله تعالى[1].

وهذا الخبر فيه دلالة على خبرة المظفر قطز بمكامن القوة عند الأعداء، حيث أدرك أن قوة التتار ونجاحهم يتمثَّلان في قائدهم الكبير كتبغانوين، الذي توالت انتصاراته منذ عهد جنكيز خان جد ملكهم هولاكو، وقد كان الأمر كما قال قطز حيث انتكس التتار بعد مقتله وتقلص مُلكهم.

وفي سجود المظفر قطز لله تعالي شكرا، دلالةٌ على عظمة اهتمامه بنصر الإسلام والمسلمين رحمه الله تعالى.

ومن مواقفه الجهادية أثناء المعركة ما ذكره المؤرخ يوسف بن تَغْرِي بَرْدِي قال: ثم رحل الملك المظفر قطز بعساكره من غزة ونزل الغور بعين جالوت، وفيه جموع التتار في يوم الجمعة خامس عشرين شهر رمضان [يعني من عام ثمانية وخمسين وستمائة] ووقع المصافُّ بينهم في اليوم المذكور وتقاتلا قتالا شديدًا لم يُرَ مثله، حتى قُتل من الطائفتين جماعة كثيرة، وانكسرت ميسرة المسلمين كسرة شنيعة، فحمل المظفر -رحمه الله- بنفسه في طائفة من عساكره وأردف الميسرة حتى تحايَوا وتراجعوا، واقتحم الملك المظفر القتال وباشر ذلك بنفسه، وأبلى في ذلك اليوم بلاءً حسنا، وعظم الحرب، وثبت كل من الفريقين مع كثرة التتار، والمظفر مع ذلك يشجع أصحابه ويحسن لهم الموت، وهو يكُرُّ بهم كرة بعد كرة، حتى نصر الله الإسلام وأعزه، وانكسرت التتار، وولوا الأدبار على أقبح وجه بعد أن قُتل معظم أعيانهم، وأُصيب مُقَدَّم العساكر التتارية كتبغانوين[2].

---

(١) البداية والنهاية ١٣/ ٢٤٠.

(٢) النجوم الزاهرة ٧/ ٧٩.

وهكذا تبين لنا دور المظفر قطز رحمه الله في نجاح المسلمين في تلك المعركة حيث كانوا من قبلُ إذا انهزمت طائفة منهم انهـزموا أمام التتار، ولكنه استطاع بمن معه من الأبطال أن يسدَّ تلك الثغرة التي انفـتحت بانكسار ميسرة جيش المسلمين، ولقد كان لتشـجيعه الجيش -وهو القائد- الأثرُ الكبير في ثبـات أفراده حتى تحقق لهم النصر بإذن الله تعالى.

رؤيا صادقة تحمل البشارة بالنصر:

لقد كان من أهم الحوافز للأمير المظفر قطز على الإقدام على حرب التتار رؤيا صالحة رآها في صغره، وفي بيان ذلك يقول المؤرخ يوسف بن تَغْري بَرْدي نقلاً عن الشيخ قطب الدين اليونيني قال: حكى لي المولى علاء الدين بن غانم في غرة شوال سنة إحدى وتسعين وستمائة ببعلبك، قال: حدثني المولى تاج الدين أحمد ابن الأثير -تغمده الله برحمته- ما معناه: أن الملك الناصر صلاح الدين يوسف -رحمه الله- لما كان على «برزة» في أواخر سنة سبع وخمسين[(١)] وصله قُصَّاد من الديار المصرية بكتب يخبرونه فيها أن قطز تسلطن وملك الديار المصرية وقبض على ابن أستاذه.

قال المولى رحمه الله: فطلبني السلطان الملك الناصر فقرأت عليه الكتب، وقال لي: خذ هذه الكتب ورُح إلى الأمير ناصر الدين القَيْمَري والأميرِ جمالِ الدين بن يَغمور، أوقف كلاً منهما عليها، قال: فأخذتها وخرجت فلما بعدت عن الدهليز لقيني حسام الدين البركة خاني وسلم علي وقال: جاءكم بريديٌّ أو قُصَّاد من الديار المصرية؟ فورَّيت وقلت: ما عندي علم بشيء من هذا، قال: قطز تسَلطن وتملَّك الديار المصرية ويكسر التتار.

قال تاج الدين: فبقيت متعجبًا من حديثه وقلت له: أيش هذا القول؟ ومن أين لك هذا؟ قال: والله هذا قطز خشداشي[(٢)]، كنت أنا وإياه عند الهيجاوي من أمراء مصر ونحن صبيان، وكان عليه قمل كثير، فكنت أسرح رأسه على أنني كلما أخذت منه قملة أخذت منه فلسًا أو صفعته، ثم قلت في غضون ذلك: والله

---

(١) يعني وستمائة. (٢) أي كان تابعًا لي.

ما أشتهي إلا أن يرزقني الله إمرة خمسين فارسا، قال لي: طيِّبْ قلبك أنا أعطيك إمرة خمسين فارسا، فصفعته وقلت: أنت تعطيني إمرة خمسين! قال: نعم، فصفعته وقال لي: وأَلَك علة! أيش يلزم لك إلا إمرة خمسين فارسا؟ أنا والله أعطيك، قال: ويلك كيف تعطيني؟ قال: أنا أملك الديار المصرية وأكسر التتار وأعطيك الذي طلبت، قلت: ويلك أنت مجنون! أنت بقملك تملك الديار المصرية؟ قال: نعم، رأيت النبي ﷺ في المنام وقال لي: **أنت تملك الديار المصرية وتكسر التتار**. وقول النبي ﷺ حق لا شك فيه، قال: فسكتُّ وكنت أعرف منه الصدقَ في حديثه وعدم الكذب.

قال تاج الدين: فلما قال لي هذا قلت له: وردت الأخبار بأنه تسلطن، قال لي: والله هو يكسر التتار.

قال تاج الدين: فرأيت حسام الدين البركة خاني -الحاكي ذلك- بالديار المصرية بعد كسر التتار فسلم علي، وقال: يا مولاي تاج الدين تَذْكُر ما قلته لك في الوقت الفلاني؟ قلت: نعم، قال: والله حالما عاد الملك الناصر من قطْيا دخلت الديار المصرية أعطاني(١). إمرة خمسين فارسا كما قال: لا زائد علي ذلك(٢).

فهذه الرؤيا الصالحة كانت هي الدافع الأكبر لمظفر الدين قطز بأن يُقدم على قتال التتار بعزم وقوة، بعدما نكل عن ذلك كثير من الأمراء أو قاتلوهم بضعف وخوف.

لقد دخل المظفر قطز تلك المعركة وهو على يقين قوي وثقة كاملة بنصر الله تعالى له ولجنده، كما كان الصحابة رضي الله عنهم يدخلون المعارك وهم يحملون في أفكارهم وعد النبي ﷺ لهم بالتمكين في الأرض، وما دامت هذه الرؤيا قد انتشرت -كما جاء في هذا الخبر- فإن الذين علموا بها من جنوده وقادته سيكونون أيضًا على درجة عالية من الثقة واليقين بالنصر، فكان ذلك دافعًا قويًا لهم إلى بذل كل ما يستطيعون من طاقة في سبيل الله تعالى، وبذلك انتصروا على أعدائهم.

---

(١) يعني المظفر قطز.

(٢) النجوم الزاهرة ٧/ ٨٧ -٨٩، وانظر البداية والنهاية ١٣/ ٢٣٩.

وبعد معركة عين جالوت تجرأ المسلمون على أعدائهم من التتار وكانت لهم معهم مواقف جهادية مشرّفة.

ومن ذلك ما ذكر المؤرخ يوسف بن تَغْرِي بَرْدِي من أن التتار قدموا إلى الشام في أوائل شهر محرم من عام تسعة وخمسين وستمائة، فلما سمع بهم أهل حلب انسحب جيشها إلى حماة، ثم انسحب جيش حلب وحماة إلى حمص فلما علم بهم التتار لحقوا بهم وكانوا في ستة آلاف، فخرج إليهم المنصور صاحب حماة والأشرف صاحب حمص والجُوكَنْدارِي العزيزي صاحب حلب بعساكرهم، فحمل المسلمون على التتار حملة رجل واحد فهزموهم وقتلوهم شر قِتلة، وهرب أمير التتار بيدرا في نفر يسير، وكانت الوقعة عند قبر خالد بن الوليد رضي الله عنه[1].

***

(١) النجوم الزاهرة ٧/ ١٠٦ - ١٠٧.

ولقد كان التـتار لما استولوا على بلاد المشرق ظلوا عـشرات السنين لا يجرؤون على غـزو دار الخلافـة حتى زيـن لهم هذا المنافق الخبـيث ذلك الغـزو وبين لهم ضعف الدولة العباسـية، ومن قبل ذلك مشورته على الخليفـة بتسريح الجند الذي كانوا مائة ألف فـي بغداد وحدها، فلم يبق منهم إلا عشـرة آلاف، ولقد كان من واجب الخلفـاء ورجال دولتـهم أن يعلموا بأن التـتار إذ صـبَّحـوا دار الإسلام في مشرقهـا فإنهم مُمسُّوهم بعد ذلك، ولكنهم لم يهتـموا بذلك ولم يخططوا للدفاع عن دار الخلافة، بل إن الخليـفة المستعصم خضـع لآراء ابن العلقمي فقطع رواتب الجند وأخلى دار الخلافة من الجيش الذي لابد منه لحمايتها.

وهذا الذي حصل للمسلمين في الرعب من التتار وعدم الإقدام على مواجهتهم يعتبر مثلاً للإخلاد للراحة والنعيم، والبـعد عن الحياة الجهادية، فهؤلاء المئات من الألوف في بغداد ومِنْ قَبْلهم مـئات الألوف من المسلمين في بلدان المشرق لو أنهم كانوا متدربين على القتال ويملكون الروح الجهادية لاستطاع أهل كل بلد أن يدافعوا عن أنفسهم ولَضَعُف التتار عن مقاومة جميع أهل تلك البلاد.

إن الإخلاد إلى الراحـة والبعـدَ عن الحيـاة الجهاديـة من الأمور المخالفـة لسنة الرسول ﷺ وسنة أصحابه، حيث لم يكن في عهـدهم أناس مخصوصون للقتال وبقيـة المسلمين لا شأن لهم بذلك، بل إن الـصحابة رضي الله عنهم كـانوا كلُّهم مجاهدين، وحينما داهمت جيـوش الكفار المدينة النبوية في أُحُد والأحزاب خرج المسلمون جـميعًـا بقيـادة النبى ﷺ للقتال، ولم يبق إلا الـشيوخ الكبـار والنساء والأطفال.

ولقد ظلت هذه الروح الجهادية والمقدرة على القتال عند المسلمين في عصورهم الأولى، وقد تقدم ذكر أمثلة لذلك.

ثم خَبَتْ هذه الروح الجهادية شـيئًا فشيئًا حتى نسي كثـير من المسلمين الجهاد، وأصبحـوا عاجزين حتى عن الدفاع عن أنفـسهم، وقد ظهر هذا العـجز جليا في استسلامهم وتذللهم للتتار بدون مقاومة تذكر.

***

مواقف الظاهر بيبرس في جهاد التتار(١)

من الأعلام الذين كان لهم دور فعال في جهاد التتار السلطان الظاهر بيبرس حاكم مصر والشام الذي خلَف السلطانَ المظفر قطز، وقد كان للظاهر بيبرس دور مهم في معركة عين جالوت فقد كان من أبرز قادتها، وهو الذي قام بمهمة ملاحقة التتار حتى مدينة حلب.

يقول الحافظ ابن كثير في بيان مواقفه مع التتار: وقد كان هولاكوخان لما بلغه ما جرى على جيشه من المسلمين بعين جالوت أرسل جماعة من جيشه الذين معه كثيرين ليستعيدوا الشام من أيدي المسلمين فحيل بينهم وبين ما يشتهون، فرجعوا إليه خائبين خاسرين، وذلك أنه نهض إليهم الهزبر الكاسر والسيف الباتر الملك الظاهر، فقدم دمشق، وأرسل العساكر في كل وجه لحفظ الثغور والمعاقل بالأسلحة، فلم يقدر التتار على الدنو إليه، ووجدوا الدولة قد تغيرت، والسواعدَ قد شمرت، وعناية الله بالشام وأهله قد حصلت، ورحمتَه بهم قد نزلت، فعند ذلك نكصوا على أعقابهم، وكروا راجعين القهقرى، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات(٢).

فهذا موقف يذكر للأمير الظاهر بيبرس البندقداري، حيث سارع إلى ملاقاة التتار قبل أن يصلوا إلى دمشق، وفرَّق جنده على الثغور والمعاقل، فحفظ بلاد الشام، وأرعب التتار حتى نكصوا على أعقابهم وعرفوا أنه قد أصبح للمسلمين دولة قوية.

ومما يدل على عظمة هيبة السلطان الظاهر بيبرس عند التتار ما ذكره ابن تَغْرِي بَرْدي من أن ملك التتار «أَبْغَابن هولاكو» أمر عساكره بقصد البلاد الشامية، فخرج

(١) هو السلطان الظاهر بيبرس البندقداري، تولى الحكم في سنة ثمان وخمسين وستمائة بعدما قتل السلطان المظفر قطز، وقد استمر الظاهر بيبرس في حكم مصر والشام حتى سنة ست وسبعين وستمائة حيث توفي في هذه السنة.

(٢) البداية والنهاية ١٣/ ٢٣٦.

عسكره في عشـرة آلاف فارس، وعليهم الأمير صَمْـغرا والبَرْوَاناه[١]، فلما بلغهم أن الملك الظاهر بالشام أرسلوا ألفًا وخمسمائة من المَغُل ليتجسسوا الأخبار ويغيروا على أطراف بلاد حلب، وكان مُقَدَّمُهم أمـال بن بَيْجُونوين، ووصلت غارتهم إلي عـينتاب ثم إلى قـسطون[٢]، ووقـعوا على تركـمانٍ نازلين بين حـارم وأنطاكيـة فاستأصلوهم.

قال: فتقدم الملك الظاهر بتجفيل البلاد[٣] ليحمل التتار الطمع فيدخلوا فيتمكن منهم، وبعث إلى مصـر بخروج العسـاكر، فخـرجَتْ ومُقدَّمهـا الأمير بَيْـسَرِي، فوصلوا إلى السلطان وخرج بهم، فسبق إلى التتار خبره فولوا على أعقابهم[٤].

وهكذا تبدلت الموازين والقوي، فأصبح التـتار يرهبون من المسلمين بعد أن كان المسلمـون يرهبون منهـم، والناس هم الناس، ولكن لما كـان المسلمون مـتفـرقين ومتناحـرين فيـما بينهم وليس عندهم اهتـمام بجهـاد الأعداء فإنـهم قد ضعـفوا وأصبحوا نهبًـا لأي دولة قوية تغير عليهم، ولما ظهر فيهم الحـاكمان القويان المظفر قطز ثم الظاهر بيبرس قاما بتوحيـد بلاد الشام ومصر في دولة واحدة قوية، وكوَّنا الجيوش القوية التي تحمل روح الجهاد.

معركة ألبيرة:

لقد إغتنم التتار فرصة بُعْد السلطـان الظاهر بيبرس عن شمال الشام فجاؤوا من المشرق وتحـالفوا مع الروم والسلاجـقة الذين يحكمون جـزءًا من بلاد الأناضول، حتى وصلوا إلى بلدة «ألبيرة»[٥]، وفي هذا الخبر ذكـر الحافظ ابن كثيـر أن التتار نزلوا على مدينة «ألـبيرة» في ثلاثين ألف مـقاتل، خمسـة عشر ألفـا من المغول، وخمسـة عشر ألفا من الروم، والمقدَّم على الجـميع «البَرْوَاناه»[٦] بأمر «أبغا» ملك التتـار، ومعـهم جيش الموصل وجـيش ماردين والأكـراد، ونصبـوا عليهـا ثلاثة

---

(١) البـرواناه لفظ فارسي مـعناه في الأصل الحـاجب، ثم أطلق على الوزير الأكـبر وهـو سليمـان بن علي الصاحب معين الدين وزير السلاجقة حكام بلاد الأناضول - عن هامش النجوم الزاهرة.

(٢) عينتاب بلدة بين حلب وأنطاكية، وقسطون حصن من أعمال حلب.

(٣) أي إظهار الجفل والخوف من التتار.

(٤) النجوم الزاهرة ٧/ ١٥٥ - ١٥٦.

(٥) هي بلدة تقع بين مدينة حلب وبلاد الروم.

(٦) هو معين الدين سليمان بن علي الصاحب كما تقدم.

وعشرين منجنيقا، فخرج أهل ألبيرة في الليل فكبسوا عسكر التتار، وأحرقوا المنجنيقات ونهبوا شيئًا كثيرًا، ورجعوا إلى بيوتهم سالمين، فأقام عليها الجيش مدة، ثم رجعوا عنها بغيظهم لم ينالوا خيرًا وكفى الله المؤمنين القتال(١).

هذا وإن ما قام به أهل بلدة ألبيرة يعتبر مثلا عاليًا للشهامة والشجاعة، وذلك لا يكون غالبًا إلا نتيجة للإيمان القوي وابتغاءِ فضل الله تعالى وثوابه.

إن الذي يمنع الناس من الإقدام على القتال هو الخوف من القتل، ولكن العقلاء إذا تذكروا بأن الأعداء إذا استولوا على بلادهم قتلوهم شر قِتلة وأهانوهم وانتهكوا أعراضهم.. إذا تذكروا ذلك فإنهم يُقدمون جميعًا على قتَال الأعداء لأنه إن قُتل بعضهم في ميدان المعركة كان أعَزَّ لهم وأكرم، هذا في مقتضى العقل السليم، فكيف بالمؤمنين الذين وعدهم الله تعالى بالجنة في الآخرة إذا باعوا نفوسهم له جل وعلا وبذلوا طاقتهم في الدفاع عن الإسلام والمسلمين؟!

وإن مما يُذكر للسلطان الظاهر بيبرس حاكم مصر والشام أنه لما سمع بنزول التتار على ألبيرة أنفق على الجيش ستَّمائة ألف دينار، ثم ركب سريعًا وفي صحبته ولده السعيد، فلما كان في أثناء الطريق بلغه رحيل التتار عنها فعاد إلى دمشق(٢).

فهذا موقف جهادي كبير لهذا السلطان، يدل على اهتمامه البالغ بأمور المسلمين والقيام بنجدتهم وإرهاب الكافرين، ولعل رحيل الأعداء عن ذلك البلد كان سببه ما بلغهم من قصد السلطان إليهم، وهو الذي اشتهر عندهم بالقوة والشجاعة والحزم.

معركة أُبُلُسْتين(٣):

ومن أبرز مواقف السلطان الظاهر بيبرس الجهادية ما ذكره ابن تَغْرِي بَرْدي من أن السلطان خرج من القاهرة يوم الخميس العشرين من شهر رمضان عام ستة وسبعين وستمائة نحو الشام قاصدا بلاد الروم، فلما وصل بلاد الروم قدَّم الأمير شمس الدين سُنْقُرَ الأشقر على جماعة من العسكر وأمره بالمسير بين يديه، فوقع على كتيبة من التتار وعدتهم ثلاثة آلاف فارس، ومَقَدَّمُهم «كراي» فهزمهم سنقر الأشقر وأسر منهم طائفة وذلك في يوم الخميس تاسع ذي القعدة.

---

(١) البداية والنهاية ١٣/ ٢٦٩.
(٢) البداية والنهاية ١٣/ ٢٦٩.
(٣) مدينة مشهورة ببلاد الروم، وقد كانت آنذاك في سلطان السلاجقة.

ثم ورد الخبر على الظاهر بأن عسكر الروم والتتار مع البَرْوَاناه اجتمعوا على نهر جَيْحان[1]، فلما صعد العسكر الجبل أشرف على صحراء أَبُلُسْتين فشاهد التتار قد رتبوا عساكرهم أحد عشر فرقة في كل فرقة ألف فارس، وعزلوا عسكر الروم عنهم خوفًا من باطن يكون لهم مع المسلمين، وجعلوا عسكر الكرج فرقة واحدة.

قال: فلما تراءى الجمعان حملت ميسرة التتار حملة واحدة وصدموا سنجق الملك الظاهر[2]، ودخلت طائفة منهم بينهم وشقوا الميسرة وساقوا إلى الميمنة، فلما رأى الملك الظاهر ذلك أردفهم بنفسه، ثم لاحت التفاتة منه فرأى الميسرة قد أتت عليها ميمنة التتار، فأمر الظاهر جماعة من أصحابه الشجعان بإردافها، ثم حمل هو بنفسه رحمه الله، فلما رأته العساكر حملت نحوه برمَّتها حملة رجل واحد، فترجَّل التتار عن خيولهم وقاتلوا قتال الموت فلم يغن عنهم ذلك شيئًا، وصبر لهم الملك الظاهر وعسكره وهو يَكُرُّ في القوم كالأسد الضاري، ويقتحم الأهوال بنفسه، ويشجع أصحابه ويطيِّب لهم الموت في الجهاد إلى أن أنزل الله تعالى نصره على المسلمين، وانكسر التتار أقبح كسرة، فمنهم من قُتل ومنهم من أُسر، وبقيتهم فروا إلى الجبال فاعتصموا بها، فقصدتهم العساكر الإسلامية وأحاطوا بهم، فترجلوا عن خيولهم وقاتلوا فقُتل منهم جماعة.

واستشهد من المسلمين جماعة، منهم عدد من الأمراء[3].

وإنه لواضح من ملاحظة أحداث هذه المعركة أثرُ السلطان الظاهر بيبرس في إنجاحها، وذلك بتشجيعه أفراد جيشه على الثبات وثباته بنفسه واقتحامِه المخاطر، وملاحظاتِه الدقيقة على مواقع الخل في جيشه.

وإن مما يذكر لقادة ذلك الجيش وأفراده ثباتَهم الراسخَ أمام هجوم الأعداء العنيف على الرغم مما اعترى بعضَهم من الانكسار المؤقت، ولكن كان لشجعان المسلمين أثرُ في صد الأعداء حين تراجع أفراد الجيش الإسلامي، ثم صبروا لأعدائهم الذين استقتلوا وأظهروا التحدي حتى أنزل الله تعالى نصره على عباده المؤمنين وخذل أعداءه المعتدين.

---

(١) هو نهر بالمصيِّصة ومنبعه من بلاد الروم. (٢) السنجق بلغة الترك اللواء.

(٣) النجوم الزاهرة ٧/ ١٦٦ - ١٦٩، البداية والنهاية ١٣/ ٢٧١ - ٢٧٢.

مواقف السلطان قلاوون[1]

معركة حول حمص:

ذكـر المؤرخ يوسف بن تَغْـرِي بَرْدِي أن السلطان قـلاوون سار مـن مصـر إلى دمشق في عام ثمانين وستمائة، وأنه ورد عليه خبر مجيء التتار إلى البلاد الشامية وهو بدمشق فتهـيأ لقتالهم، وأرسل يطلب العساكر المصـرية، وبعد قليل حضرت عساكر مصـر إلى دمشق، واجتمعت العساكـر عند السلطان، ولم يتأخر أحد من التركمان والعربان وسائر الطوائف.

ووصل الخبر بوصول التتار إلى أطراف حلب، فخلت حلب من أهلها وجندها ونزحوا إلى جهة حماة وحمص، وتركوا الغِلال والحواصل والأمتعة.

ثم ورد الخبر بوصول مَنْكُوتَمُر بن هولاكو ملك التـتار إلى عيْنْتَاب وما جاورها في يوم الأحد سـادس عشرين جمـادى الآخرة، فخرج السلطان المنصـور قلاوون بعساكـره في يوم الأحد المذكور، وخيم بالمرج، ووصل التتار إلى بَـغْراس، فقدَّم السلطان المنصور عسكره أمامه، ثم سافـر في آخر جمادى الآخرة وسار حتى نزل بعساكره على حمص في شهر رجب.

وشرعت التتـار تتقدم قليلا قليلا بـخلاف عادتهم، فلما وصلوا حمـاة أفسدوا بنواحيها، واسـتمر عسكر السلطان بظاهر حمص على حـاله إلى أن وصلت التتار إليه في يوم الخمـيس رابع عشر شعبـان، فركب المنصور بعساكـره وصافَّ العدو، والتقى الجمعان عند طلوع الشمس، وكان عـدد التتار على ما قيل مائة ألف فارس أو يزيدون، وعَسْكرُ المسلمـين على مقدار النصف من ذلك أو أقل، وتواقـعوا من ضحوة النهار إلى آخره، وعظم القتال بين الفريقين وثبت كل منهم.

قال الشيخ قطب الدين اليـونيني: وكانت وقعة عظيمة لم يُشـهد مثلها في هذه الأزمان ولا من سنين كثيـرة، وكان الملتقى فيما بين مشـهد خالد بن الوليد رضي

---

(١) هو السلطان المنصور قـلاوون بن عبدالله التركي، تولى الحكم سنة ثـمان وسبعين وستـمائة إلى أن توفي سنة تسع وثمانين وستمائة.

الله عنه إلى الرستن(١) والعاصي، واضطربت ميمنة المسلمين وحملت التتار على ميسرة المسلمين فكسروها، وانهزم من كان فيها، وكذلك انكسر جناح القلب الأيسر، وثبت السلطان المنصور قلاوون، رحمه الله تعالى، في جمع قليل بالقلب ثباتًا عظيما، ووصل جماعة كثيرة من التتار خلف المنكسرين من المسلمين إلى بحيرة حمص، وأحدق جماعه من التتار بحمص وهي مغلقة الأبواب، وبذلوا نفوسهم وسيوفهم فيمن وجدوه من العوام والسُّوقَة والغلمان والرجَّالة المجاهدين بظاهرها، فقتلوا منهم جماعة كثيرة، وأشرف الإسلام على خطة صعبة، ثم إن أعيان الأمراء ومشاهيرَهم وشجعانهم مثل سُنْقُرِ الأشقر، وبدرِ الدين بيسري، وعلمِ الدين سنجر الدُّويداري، وعلاء الدين طَيْبَرْس الوزيري، وبدرِ الدين بيليك، وسيف الدين أَيْتَمُش السعدي، وحسام الدين لاجين المنصوري، والأمير حسامِ الدين طُرُنْطَاي، وأمثالهم لَمَّا رأوا ثبات السلطان ردُّوا على التتار وحملوا عليهم حملات حتى كسروهم كسرة عظيمة، وجُرح مَنْكُوتَمُر مقدَّمُ التتار.

وجاءهم الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا في عَرَبِه عَرْضًا، فتمت هزيمتهم، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة تُجاوز الوصف، واتفق أن ميسرة المسلمين كانت قد انكسرت كما ذكرنا، والميمنة ساقت على العدو ولم يبق مع السلطان إلا النفر اليسير، والأمير حسام الدين طرنطاي قدَّامه بالسناجق(٢)، فعادت الميمنة الذين كسروا ميسرة المسلمين في خلق عظيم ومروا به، وهو في ذلك النفر تحت السناجق (يعني السلطان المنصور قلاوون) والكوسات تُضرب(٣).

قال: ولقد مرت به في ذلك الوقت وما حوله من المقاتلة ألف إلا دون ذلك، فلما مروا به (يعني ميمنة التتار التي كانت كَسرت ميسرة المسلمين» ثبت لهم ثباتًا عظيمًا، ثم ساق عليهم بنفسه فانهزموا أمامه لا يلوون على شيء، وكان ذلك تمامَ النصر، وكان انهزامهم عن آخرهم قبل الغروب، وافترقوا فرقتين: فرقةٌ أخَذَتْ جهة سَلَمْيَةَ والبَرِّية، وفرقةٌ أخذت جهة حلب والفرات.

---

(١) الرستن قرية بين حمص وحماه تشرف على نهر العاصي.

(٢) وتنطق الصناجق أيضا وهي كلمة تركية معناها الألوية.

(٣) هي الطبول الكبار وتستعمل في الحرب.

قال: ولما انقضى الحرب في ذلك النهار وعاد السلطان إلى منزلته، وأصبح بكرة يوم الجمعة سادس عشر رجب جهز السلطان وراءهم جماعة كثيرة من العسكر والعربان، ومقدَّمهم الأمير بدر الدين بيليك الأَيْدَمُري.

قال: وكُتبت البشائر بهذا النصر العظيم إلى سائر البلاد وحصل للناس السرور الذي لا مزيد عليه، وعُملت القلاع وزُينت المدن، أما أهل دمشق فإنه كان ورد عليهم الخبر أولا بكسرة المسلمين، ووصل إليهم جماعة ممن انهزم، فلما بلغهم النصر كان سرورهم أضعاف سرور غيرهم، وكان أهل البلاد الشامية من يوم خرج السلطان من عندهم إلى ملتقى التتار وهم يدعون الله تعالى في كل يوم ويبتهلون إليه، وخرج أهل البلاد بالنساء والأطفال إلى الصحاري والجوامع والمساجد، وأكثروا من الابتهال إلى الله عز وجل في تلك الأيام لا يفترون عن ذلك، حتى ورد عليهم النصر العظيم ولله الحمد وطابت نفوس الناس، وردَّ من كان نزح عن بلاده وأوطانه، واطمأن كل أحد وتضاعف شكر الناس لذلك.

قال: وقُتل في هذه الوقعة من التتار مالا يُحصى كثرة، وكان من استُشهد من عسكر المسلمين دون المائتين على ما قيل(1).

وهكذا عشنا مع أحداث هذه المعركة الكبيرة التي خطط لها التتار وجمعوا لها الجموع الكثيرة ليقضوا بها على وجود المسلمين ودولتِهم القوية في مصر والشام، ولكن ظنونهم خابت، وأحلامَهم تبددت أمام ثبات شجعان المسلمين.

لقد تعوَّد التتار على الهجوم الصاعق في بداية المعارك الذي يعقبه انهزام كثير من المسلمين وفرارهم، لكنهم وجدوا منهم في معركة عين جالوت وما تلاها غيرَ ما تعودوا منهم، إلا أنهم في هذه المعركة قد اعتدوا بكثرة جمعهم، وهم يعلمون أن المسلمين لا يستطيعون أن يجمعوا مثلهم فأقدموا على قتالهم، غير أن الفارق في العدد عوضه شجاعة الشجعان بعد الأمل الكبير في نصر الله تعالى والتوكل عليه.

---

(1) النجوم الزاهرة ٧/ ٣٠١ - ٣٠٥.

وفي عرض مقطع من هذه المعركة يتبين لنا أهمية الثبات والصبر في النصر، وذلك فيما فعلته ميمنة التتار حيث هجموا على ميسرة المسلمين وهم ألوف فانهزموا، بينما لما هجم هؤلاء التتار على السلطان قلاوون ثبت لهم وصبر وهو في ألف أو أقل حتى هزمهم وفرقهم.

وأخيرًا فإن لِمَا قام به المسلمون من دعاء الله تعالى والتضرع إليه على النحو المذكور أثرًا معلومًا في تنزل نصر الله تعالى فإنه جل وعلاء مع عباده المؤمنين بنصره وتأييده إذا لجئوا إليه بإخلاص وصدق.

***

دخول التتار فى الإسلام

إن من عجائب التاريخ أن تلك الأمة الهمجية تدخل في الإسلام، حيث أسلم بركة خان أحد زعماء التتار وأسلم كثير من قومه، وبلغ من إخلاصه أنه قام بحروب كبيرة ضد ابن عمه هولاكو خان زعيم التتار الذي قضى على دولة الإسلام وقتل مئات الألوف من المسلمين، يقول الحافظ ابن كثير عن بركة خان: السلطان بركة خان بن تَوَلَى بن جنكيزخان، وهو ابن عم هولاكو، وقد أسلم بركة خان هذا، وكان يحب العلماء والصالحين، ومن أكبر حسناته كسره لهولاكو وتفريق جنوده، وكان يناصح الملك الظاهر ويعظمه ويكرم رسله إليه، ويطلق لهم شيئًا كثيرًا، وقد قام بالمُلْك بعده بعض أهل بيته وهو منكوتمر بن طغان بن بابوين ابن تولى بن جنكيزخان، وكان على طريقته ومنواله ولله الحمد(١).

وإلى بركة خان هذا يرجع الفضل بعد الله تعالى في دحر هولاكو وصده عن إكمال هجومه على بلاد الإسلام.

بل إنه قد دخل في الإسلام أحد أبناء هولاكو وهو أحمد وقد أصبح سلطانًا على التتار بعد أخيه أبغا بن هولاكو، وذلك في عام واحد وثمانين وستمائة، ذكر ذلك المؤرخ ابن تَغْرِي بَرْدِي وذكر أنه مسلم حسن الإسلام، وعمره يومئذ مقدار ثلاثين سنة، وأنه وصلت أوامره إلى بغداد تتضمن إظهار شعائر الإسلام وإقامة مناره، وأنه أعلى الدين، وبنى الجوامع والمساجد والأوقاف ورتب القضاة، وأنه انقاد إلى الأحكام الشرعية، وأنه ألزم أهل الذمة بلبس الغيار(٢) وضرب عليهم الجزية(٣).

ثم أظهر الإسلام ملك التتار قازان بن أرغون بن آباقا بن هولاكو، وسمى نفسه بعد الإسلام محمودا، ولكن كانت أعماله مع المسلمين تتنافى مع الإسلام.

وإن في دخول هذه الأمة في الإسلام دليلا على عظمة الإسلام، وعلى مقدار اعتزاز المسلمين بإسلامهم، فإن المعروف في تاريخ الأمم -فى حال اكتساح أمة

---

(١) البداية والنهاية ١٣/ ٢٤٩.

(٢) يعني اللباس الذي يتميزون به كالزنَّار ونحوه.

(٣) النجوم الزاهرة ٧/ ٣١٠.

لأمة أخـرى في الحروب- أن المغلوب يقـلد الغالب، فـيتأثر بسـياسـته وأخـلاقه وأفكاره الدينية، فـيكون الغزو الفكري تابعًـا للغزو العسـكري، لكن الذي حصل للأمـة الإسلامـية آنذاك كـان بضد ذلك حـيث كـان المسلمون يحـتقـرون التتـار ويحكمون عليـهم بالانحطاط الفكري والخلقي، بينما أدرك التتـار عظمة المسلمين في المجال الفكـري والأخلاقي، والاجتـماعي والسيـاسي والاقتـصادي. . ثم لما حللوا ذلك وجـدوا أن سر تلك العظمـة يكمن في الدين الإسـلامي العظيم الذي يحكم جميع تصرفاتِ المسلم وسلوكِه في هذه الحياة. . إنهم لم يروا دين الإسلام محصورا في شعائر تعبدية، ثم ينطلقَ المسلمون بعد ذلك في حياتهم على مقتضى ما تمليـه عليهم أفكارهم وأهواؤهم، لأنهم وجـدوا أن أنظمة الإسـلام السياسـيةَ والأخلاقية والاقتصادية والاجتماعيةَ تفـوق مستوى تفكير الإنسان، ولا تتغير بتغير البلاد والزمان، فـأدركوا أن وراء هذا التفكير الموحَّد الذي شمل أكـثر بلاد العالم قوةً عظمي ومـبادئ عليا يـخضع لها جـميع المسلمين، فقـادهم ذلك إلى تعظيم الإسلام والدخول فيه.

لقد كان دخـول زعماء التتار في الإسـلام يعني توقف الحرب بينهم وبين دولة الإسلام القائمة في مـصر والشام، خصوصًا وأن الخلافة الإسلامـية قد قامت في هذه الدولة بعـد أن بايع السلطان الظاهر بيـبرس المسـتنصـرَ بالله أحمـدَ بنَ أميـر المؤمنين الظاهرِ العبـاسي وذلك في سنة تسع وخمسين وسـتمائة، فصـار الاعتداء على هذه الدولة يعني الخروج على الخلافة.

***

موقف السلطان محمد بن قلاوون(١)

ذكر المؤرخ يوسف بن تغري بردي أن قازان ملك التتار قد زحف على بلاد الشام بجيش كبير وذلك في عام تسعة وتسعين وستمائة، وأن السلطان محمد بن قلاوون قد خرج من مصر إلى الشام ووصل إلى دمشق ثم زحف إلى حمص وانضم جيش الشام إلى جيش مصر، والتقوا مع التتار قرب مدينة سَلَمْيَة يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر ربيع الأول، وحملت ميسرة المسلمين على التتار فكسرتهم أقبح كسرة، وقتلوا منهم نحو خمسة آلاف أو أكثر ولم يُقتل من المسلمين إلا اليسير، ثم حمل قلب المسلمين أيضًا حملة هائلة وصدموا العدو أعظم صدمة، وثبت كل من الفريقين ثباتًا عظيمًا، ثم حصل تخاذل في عسكر الإسلام بعضِهم في بعض، بلاءً من الله تعالى، فانهزمت ميمنتهم بعد أن كان لاح لهم النصر، فلا قوة إلا بالله، ولما انهزمت الميمنة انهزم أيضًا من كانوا وراء القلب من غير قتال، وألقى الله الهزيمة عليهم فانهزم جميع عساكر الإسلام بعد النصر، وانسحب السلطان في طائفة يسيرة من أمرائه ومُدَبِّري مملكته، وترك أفرادُ الجيش العتاد والسلاح والمؤن وحاولوا النجاة بأنفسهم.

ولقد أصاب أهل الشام رعبٌ عظيم حينما علموا بهزيمة جيش السلطان، ولكن خفف من رعبهم حينما علموا أن قازان مسلم وأن غالب جيشه من المسلمين، وأنهم لم يتبعوا المنهزمين(٢).

أما سبب انهزام المسلمين بعدما لاح لهم النصر فقد ذكره السلطان محمد بن قلاوون في خطابه الذي بعثه لقازان ملكِ التتار جوابًا على خطاب قازان الذي يذكر فيه إسلامه وإسلام قومه وأن السببَ في غزوه بلاده هو اعتداء بعض رعية السلطان على بعض رعية ملك التتار، وقد أنكر عليه السلطان ما يحصل من التتار

(١) هو السلطان الناصر محمد بن قلاوون التركي، وهو أشهر سلاطين المماليك وقد تولى السلطنة ثلاث مرات: الأولى ما بين عامي ثلاثة وتسعين وأربعة وتسعين وستمائة، والثانية ما بين عامي ثمانية وتسعين وستمائة وثمانية وسبعمائة، والثالثة استقر بالسلطنة ما بين عامي تسعة وسبعمائة وواحد وأربعين وسبعمائة.

(٢) النجوم الزاهرة ٨/ ١٢٠ - ١٢٢.

من الإفساد في الأرض مع كونهم يظهرون الإسلام، وأبان له بأن سبب انهزام المسلمين من جيشه هو معرفتهم بأن ملك التتار مسلم وأن غالبية جيشه قد أظهروا الإسلام فأصابهم عند ذلك شيء من التردد في جواز قتالهم(١).

ولقد جَدَّ المسلمون بعد ذلك من جيش دولة الخلافة في قتالهم حينما بان لهم إفسادهم، وأفتاهم العلماء بأنهم يشبهون الخوارج كما سيأتي.

وهذه المعركة وإن كانت نتيجتها لصالح التتار فإن فيها مواقف تشكر لجيش الشام ومصر وخاصة السلطان محمد بن قلاوون الذي كان آنذاك لم يبلغ الخامسة عشرة من العمر ولكن كان في دولته عدد من الأمراء الشجعان وكان لهم دور جيد في ثبات الجيش أول المعركة.

مواقف لشيخ الإسلام ابن تيمية:

وفي أثناء ذلك جرى موقف كبير لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، وذلك حينما خرج من دمشق هو وعدد من العلماء والأعيان لتلقي قازان وأخذِ الأمان منه لأهل دمشق، وقد ذكر ذلك الحافظ ابن كثير، وذكر عن الشيخ أبي عبدالله محمد بن عمر البالسي حكاية ما جرى من ذلك، فقال: وكان يومَ قازان في جملة من كان مع الشيخ ابن تيمية لما تكلم مع قازان، فحكى عن كلام شيخ الإسلام تقي الدين لقازان وشجاعته وجرأته عليه، وأنه قال لترجمانه: قل للقان أنت تزعم أنك مسلم ومعك مؤذنون وقاض وإمام وشيخ على ما بلغنا، فغزَوَتَنا وبلغت بلادنا على ماذا؟

قال: وجرت له مع قازان وقطلوشاه وبولاى أمور ونُوَبٌ قام فيها ابن تيمية كلها لله وقال الحق ولم يخش إلا الله عز وجل.

قال: وَقرَّب إلى الجماعة طعامًا فأكلوا منه إلا ابن تيمية فقيل له: ألا تأكل؟ فقال: كيف آكل من طعامكم وكلُّه ما نهبتهم من أغنام الناس وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس؟!

(١) النجوم الزاهرة ٨/ ١٤٢ - ١٤٦.

قال: ثم إن قازان طلب منه الدعاء فقال في دعائه: «اللهم إن كان هذا عبدك محمود إنما يقاتل لتكون كلمتك هي العليا وليكون الدين كلُّه لك فانصره وأيده ومَلّكه البلاد والعباد، وإن كان إنما قام رياء وسمعة وطلبا للدنيا ولتكون كلمته هي العليا وليُذل الإسلام وأهله فاخذله وزلزله ودمره واقطع دابره»، قال: وقازان يؤمِّن على دعائه ويرفع يديه.

قال: فجعلنا نجمع ثيابنا خوفًا من أن تتلوث بدمه إذا أمر بقتله.

قال: فلما خرجنا من عنده قال له القاضي نجم الدين بن صُصْري وغيره: كدت أن تهلكنا وتهلك نفسك، والله لانصحبك من هنا، فقال: وأنا والله لا أصحبكم.

قال: فانطلقوا عصبةً وتأخر هو في خاصة نفسه ومعه جماعة من أصحابه، فتسامعَتْ به الخواقين والأمراء من أصحاب قازان فأتوه يتبركون بدعائه، وهو سائر إلى دمشق وينظرون إليه، قال: والله ما وصل إلى دمشق إلا في نحو ثلاثمائة فارس في ركابه، وكنت أنا من جملة من كان معه، وأما أولئك الذين أبوا أن يصحبوه فخرج عليهم جماعة من التتر فشلَّحوهم عن آخرهم، هذا الكلام أو نحوه، وقد سمعت هذه الحكاية من جماعةٍ غيرِه[1].

ففي هذا الخبر عدة مواقف وعبر:

أولا: في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية أمام ملك التتار الجبار، ذلك الكلام القوي الرصين الذي أنكر عليه فيه قيامه بظلم المسلمين، وذلك في قتالهم ونهب أموالهم مع أنه مسلم ويظهر شعائر الإسلام.

ثانيًا: في دعائه القوي الواضح الذي دعا فيه لملك التتار إن كان يريد عزة الإسلام والمسلمين، ودعا عليه بتلك الدعوات القوية الساحقة إن كان يريد إذلال الإسلام والمسلمين.

ثالثًا: في ورعه الدقيق، حيث امتنع عن الأكل من طعام التتار لكونه مما نهبوه من أموال المسلمين.

(١) البداية والنهاية ١٤/ ٨، ٩١-٩٢.

وفي هذه المواقف كان رحمه الله تعالى في غاية القوة والجرأة في قول الحق أمام سلطان جبار قد اشتهر بالبطش والعنف.

ولقد كـان الإقدام على الإنكـار على ذلك السلطان الجبـار يعتـبر إقدامًـا على الشهادة في سبيل الله تعـالى في أغلب الاحتمالات، ولا يمكن أن يُقدم على ذلك إلا من قد حـملوا أرواحهم على أكـفهم وأصـبح هدفهم الأعلى هو إظهـار عزة الإسـلام وإنصافُ المـظلومين مهـمـا تكن النتـائج في ذلك ثم إنه لا يقـوى على الوقوف مثل ذلك الموقف إلا الرجلُ الذي امتلأ قلبه إيمانًا بالله عز وجل وكان قوي الاستحضار لعظمته وجـلاله، لأن فكره - والحال هذه - لا يتصور قوة ولا عظمة في الوجود إلا قوة الله جـل وعلا وعظمتَه، بينمـا تتلاشى من ناظريه كل مظاهر القوة والعظمة التي يظهر بها سلاطين البشر.

ولقد كان هذا هو الدافعَ لشيخ الإسلام ابن تيـمية ليقف ذلك الموقفَ العظيم، ولقد عـبر عن ذلك بقـوله لمن سأله عن مـوقفـه ذلك: ذكرت عظمـة الله تعالى فأصبح السلطان أمامي كالقط.

رابعًا: في هذا الخبر عـبرة عظيمة، وذلك في موقف الـسلطان قازان من شيخ الإسلام ابن تيمية حيث لان له حتى أصبح بين يديه كالحَمَل الوديع، وتلاشى عنه جبـروته وتعاظمه وأبهـة سلطانه، وأصبح من تَأثُّره بكـلام ابن تيميـة إلى حد أنه طلب الدعاء له وكـان يؤمِّن على دعائه حتى حـينما دعا عليـه إذا هو انحرف عن الطريق المستـقيم، ولا شك أن ذلك من تسخير الله تعـالى، حيث ألان قلب ذلك السلطانِ لابن تيمية، فإن القلوب كلَّها بيد الله عز وجل يصرفها كيف يشاء.

خامسًا: وفيه عبرة فـيما حدث لابن تيمية في رجوعـه إلى دمشق، وما حدث لمعارضيه الذين أبوا أن يصاحبوه لظنهم أن سلطان التتار سيرسل إلى ابن تيمية من ينتقم منه في الطريق، فكان الأمـر على خلاف ما توقعوا، حيث رجع ابن تيـمية إلى دمشق في عـزة وحماية قـوية من فرسان التتـار الذين أعجبـوا به وبالغوا في احترامه، بينما رجع أولئك الذين فارقوه بشرِّ حال، وذلك كله مع ما سبق يوضح

لنا معية الله تعالى لأوليائه بالنصر والتـأييد جزاء لهم على توكلهم عليه وتعظيمِهم إياه واستمدادِهم النصر منه وخذلانَه لمن غاب عن باله تصورُ عظمته، وهيمن على قلبه تصور عظمة المخلوقين والرهبة منهم.

موقف جهادي لنائب القلعة:

ولما استــولى التتــار على بلاد الشام عاثوا في الأرض فـسادًا هم وأتبـاعهم من النصارى، فقـتلوا في دمشق وما حولها عـددًا كبيرًا من المسلمين وسبوا كـثيرًا من النساء والأطفـال ونهبوا كـثيرًا من الأمـوال، وولوا على نيابة الشـام سيف الدين قبـجق المنصوري الذي كـان لجأ إليـهم قبل ذلك لخـلاف بينه وبين سلطان مـصر والشام، قـال الحافظ ابن كـثير: وأرسل قـبجق إلى نائب القلعـة [يعني أرجواش المنصوري] ليسلـمها إلى التتار فـامتنع أرجواش من ذلك أشد الامـتناع، فجمع له قبجق أعيـان البلد فكلموه أيضا فلم يجبهم إلى ذلك، وصمم عـلى ترك تسليمها إليهم وبهـا عين تطرف، فإن الشيخ تقي الـدين ابن تيمية أرسـل إلى نائب القلعة يقول له ذلك لو لم يبق فيها إلا حجر واحد فلا تسلمهم ذلك إن استطعت، وكان في ذلك مصلحة عظيمة لأهل الشـام فإن الله حفظ لهم هذا الحصن والمعقل الذي جعله الله حـرزا لأهل الشام التي لا تزال دار إيمان وسنة حتى ينزل بها عـيسى بن مريم عليه السلام(١).

فهذا مـوقف يذكر لنائب القلعة أرجواش حيث صمـم على عدم تسليم القلعة لنائب التتـار، مع أن الشام كلَّه قد سقط بأيدي التـتار، فما نسبـة هذه القلعة إلى بلاد الشام؟! ومع ذلك ومع احتمال قـيام التتار بتدمير تلك القلعة فـقد ثبت فيها نائبها ومن معه من الجنود وأبى أن يسلمها.

ولقد كان لشيخ الإسلام ابن تيمـية تأثير واضح وقوي على نائب القلعة، حيث ائتمـر بأمره القـوي الصارم الذي يـلزمه بالثـبات حتى هـدم آخر حجـر في تلك

---

(١) البداية والنهاية ١٤/ ٩.

القلعة، وهذا الموقف من شـيخ الإسلام يدل على روح جهادية عاليـة تتسم بالقوة والثبات والتصميم على الدفـاع عن الإسلام والمسلمين حتى آخر قطرة من دمه ودم أتباعه، هذا مع قلة مؤيديه الذين يأتمرون بأمره فكيف لو كان معه جيش كبير؟!

ولقد كـان تصميم أرجواش نائـبِ القلعة ثابتا، فلقـد كلَّمه -إضافة إلى أمـير دمشق- الأمير حـسام الدين لاجين والأمير بكتمر وغيرهـما في تسليم قلعة دمشق إلى نائب التتـار وقالوا له: دَمُ المسلمين في عنقك إن لم تـسلمها، فـأجابهم: دم المسلمين في أعناقكم أنتم الذين خرجتم من دمشق وتوجهتم إلى قازان وحسنتم له المجيء إلى دمشق وغـيرها، ثم وبخـهم، ولم يسلم قلعة دمشـق، وتهيأ للقـتال والحصـار واستمـر على حفظ القلعـة، ثم ترادفتْ قُصَّادُ قـازان إلى أرجواشٍ هذا وطال الكلام بينهم في تسليم القلعـة، فثبَّـته الله تعالى ومنع ذلك بالكليـة، وكان هؤلاء الأمراء قد لجـئوا إلى قازان فرارًا من الملك مـحمد بن قلاوون حـاكم مصر والشام[1].

وذكر الحـافظ ابن كثير بعض مـا فعلتْه عصـابات التتار بأهل الشـام من القتل والنهب ثم قال: وخـرج الشيخ ابن تيمـية في جماعـة من أصحابه يوم الخـميس العشرين من ربيع الآخر -يعني من عام تسعـة وتسعين وستمائة- إلى ملك التتر، وعاد بعد يومين ولم يتـفق اجتماعه به، حجـبه الوزير سعد الدين والرشيـد مشير الدولة والتزما له بقضاء الشغل، وذكرا له أن التتر لم يحصل لكثير منهم شيء إلى الآن ولابد لهم من شيء[2].

وهذه هي المحاولة الثانية من شيخ الإسلام ابن تيـمية في مقابلة ملك التتار، مما يدل على تفانية فـي إعزاز الإسلام وحماية المسلمين، وتضـحيته بنفسـه ووقته من أجل ذلك، ولكنْ تبين من كلام وزراء قازان بأن التتـار لن يرجعوا إلا وقد أخذوا من الأموال مـا يكفيهم، وقد حـصَّل لهم نائبهم قبجق وعـماله كثيـرًا من أموال الناس بالقوة[3].

---

(١) النجوم الزاهرة ٨/ ١٢٥.

(٢) البداية والنهاية ١٤/ ١٠.

(٣) البداية والنهاية ١٤/ ١٠، النجوم الزاهرة ٨/ ١٢٦.

وذكر الحافظ ابن كثير دخول التتار إلى دمشق، واستيلاءهم على كثير من أموال الناس، ثم قال: وشرع التتر في عمل مجانيق بالجامع ليرموا بها القلعة من صحن الجامع، وغُلقت أبوابه، ونزل التتار في مَشَاهِده يحرسون أخشاب المجانيق وينهبون ماحوله من الأسواق.

قال: وفي ذلك اليوم - يعني يوم الجمعة تاسع عشر جمادى الأولى من عام تسعة وتسعين وستمائة- توجه السلطان قازان، وترك نوابه بالشام في ستين ألف مقاتل نحو بلاد العراق، وجاء كتابه: «إنا تركنا نوابنا بالشام في ستين ألف مقاتل، وفي عزمنا العود إليها في زمن الخريف والدخول إلى الديار المصرية وفتحها» وقد أعجزتهم القلعة أن يصلوا إلى حجر منها وخرج سيف الدين قبجق لتوديع قطلوشاه نائب قازان، وسار وراءه، وضُربت البشائر بالقلعة فرحًا لرحيلهم ولم تُفتح القلعة، وأرسل أرجواش ثاني يوم من خروج قبجق القلعية إلى الجامع فكسروا أخشاب المنجنيقات المنصوبةَ به، وعادوا إلى القلعة سالمين(١).

وهكذا كان أصحاب القلعة هم الوحيدين الذين صمدوا في وجه التتار وأعجزوهم عن فتح القلعة، وإن المتأمل ليعجب من فتحهم الشام كلَّه وعجزِهم عن فتح قلعة، مما يدل على أن سلامة هذه القلعة منهم مع كثرتهم وكثرة ما يملكونه من الأسلحة ووسائل التدمير دليل على نصر الله تعالى أوليـاءه المؤمنين وخذلانِ أعدائه.

وقال الحافظ ابن كثير في خبر هذه القلعة: وخرج طائفة من القلعة فقتلوا طائفة من التتار ونهبوهم، وقُتل جماعة من المسلمين في غبون ذلك، وأخذوا طائفة ممن كان يلوذ بالتتر، ورسم قبجق لخطيب البلد وجماعة من الأعيان أن يدخلوا القلعة فيتكلموا مع نائبها في المصالحة، فدخلوا عليه يوم الإثنين ثاني عشر جمادى الآخرة، فكلموه وبالغوا معه، فلم يجب إلى ذلك، وقد أجاد وأحسن وأرجل في ذلك بيض الله وجهه(٢).

---

(١) البداية والنهاية ١٤/ ١٠. (٢) البداية والنهاية ١٤/ ١١.

فيا ترى لو كان قادة بلاد الشام وجنودُها من أمثال هذا القائد القوي الحازم وجنودِه المطيعين المنتظمين هل يكون للتتار وغيرهم من أعداء الإسلام موطئ قدم؟!

لقد كان أمل أرجواش كبيرًا في أن يزول التتار وأن تعود بلاد مصر والشام دولة واحدة، وهذا ما تحقق بعد ذلك حيث جلا التتار وعادت دولة الإسلام القوية، وكانت قلعة دمشق رمزَ الثبات الذي حطم كبرياء التتار ومنعهم من دعوى الاستيلاء على الشام كله.

مواقف أخرى لابن تيمية وغيره:

ولما رحل قازان إلى العراق ببعض جيشه وترك جيشًا في الشام بقيادة بولاي، كان لشيخ الإسلام ابن تيمية موقف مع بولاي ذكره الحافظ ابن كثير، فقد ذكر أنه في اليوم الثامن من شهر رجب من العام التاسع والتسعين وستمائة خرج الشيخ تقي الدين ابن تيمية إلى مخيم بولاي فاجتمع به في فكاك من كان معه من أسارى المسلمين فاستنقذ كثيرًا منهم من أيديهم وأقام عنده ثم عاد(١).

فهذا مثل من بذل الإحسان والسعي في إنقاذ المسلمين من الضرر، حيث غامر شيخ الإسلام ابن تيمية بنفسه وذهب إلى والي التتار وسعى في إنقاذ أسرى المسلمين، وهذا يعتبر من الأعمال الجهادية العالية، من حيث اشتمالُه على المشقة الكبيرة في مخاطبة الجبارين واحتمالِ التعرض للشهادة في سبيل ذلك.

هذا وقد ذكر الحافظ ابن كثير رحيل بقية جيش التتار خوفًا من جيش مصر القادم، وفي ذلك يقول: ونودي بالجامع بعد الصلاة ثالث رجب من جهة نائب القلعة بأن العساكر المصرية قادمة إلى الشام، وفي عشية يوم السبت رحل بولاي وأصحابه من التتار وانشمروا عن دمشق، وقد أراح الله منهم.. إلى أن قال: ونادى أرجواش في البلد: احفظوا الأسوار وأخرجوا ما كان عندكم من الأسلحة، ولا تهملوا الأسوار والأبواب، ولا يبيتن أحد إلا على السور، ومن بات في داره شُنق، فاجتمع الناس على الأسوار لحفظ البلاد، وكان الشيخ تقي الدين ابن تيمية

(١) البداية والنهاية ١٤/ ١١- ١٢.

يدور كل ليلة على الأسوار يحـرّض الناس على الصبر والقتـال ويتلو عليهم آيات الجهاد والرباط[1].

وهذا موقف حـزم وعزم من شـيخ الإسلام ابن تيمـية ونائب القلعـة أرجواش حيث حوَّلا المـسلمين كلَّهم في البلد إلى مجاهدين، وهكذا ينبـغي لكل مسلم أن يكون مجاهدا إذا احتاجت إليه الأمـة، وأن يكون كل أفراد الأمة جنودًا احتياطيين يَنْفِرون إلى الجهاد عند اللزوم.

وذكر الحافظ ابن كـثير أنه في مسـتهل صفر من عـام سبعمـائة وردت الأخبار بقصد التـتار بلاد الشام، وأنهم عازمون على دخول مـصر، فانزعج الناس لذلك وازدادوا ضعفًا علـى ضعفهم. . إلى أن قال: وجلس الشيخ تقي الدين ابن تـيمية في ثاني صفـر بمجلس في الجامع وحرض الناس على القتـال، وساق لهم الآيات والأحـاديث الواردة في ذلك، ونهى عن الإسـراع في الفـرار، ورغب في إنفـاق الأموال في الذبِّ عن المسلمـين وبلادهم وأموالهم، وأن ما يُنفق في أجـرة الهرب إذا أنفق في سبيل الله كان خيرا، وأوجب جهـاد التتار حتما في هذه الكرة، وتابع المجالس في ذلك.

كما ذكر أن الشيخ زيـنَ الدين الفارقي وإبراهيمَ الرقي وابنَ قوام وشرفَ الدين ابنَ تيمـية وابنَ خبَّارة خـرجوا إلى نائب السلطة الأفرم -وكـان مرابطًا في المرج- فقووا عزمـه على ملاقاة العدو، واجتمـعوا بمهنا أمير العرب فحـرضوه على قتال العدو فأجابهم بالسمع والطاعة، وقويت نياتهم على ذلك[2].

وهذا موقف يذكر لهؤلاء العلمـاء فقد قاموا بمهمتـهم وأدوا الأمانة التي جعلها الله تعـالى في رقابـهم، فالعلمـاء هم المسـؤولون عن تبليغ الإسـلام، وهم أول المسؤولين عن إصلاح المجتمع الإسلامي وإعداده للجهاد وحماية دار الإسلام.

وقال الحـافظ ابن كثـير في بيان مـا جرى بعـد ذلك وما حصـل من مواقف: واستهل جـمادى الأولى -يعني من عام سبـعمائة- والناس على خطة صـعبة من

---

(١) البداية والنهاية ١٤/ ١٢.

(٢) البداية والنهاية ١٤/ ١٥-١٧.

الخوف، وتأخرِ السلطان، واقترب العدو، وخرج الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله تعالى في مستهلِ هذا الشهر، وكان يوم السبت إلى نائب الشام في المرج[1] فثبتهم وقوَّى جأشهم وطيب قلوبهم ووعدهم النصر والظفر على الأعداء، وتلا قوله تعالى ﴿**ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ**﴾ [الحج: ٦٠] وبات عند العسكر ليلة الأحد، ثم عاد إلى دمشق، وقد سأله النائب والأمراء أن يركب على البريد إلى مصر يستحث السلطان على المجيء، فساق وراء السلطان، وكان السلطان قد وصل إلى الساحل فلم يدركه إلا وقد دخل القاهرة، وتفارط الحال، ولكنه استحثهم على تجهيز العساكر إلى الشام إن كان لهم به حاجة، وقال لهم: إن كنتم أعرضتم عن الشام وحمايته أقمنا له سلطانًا يحوطه ويحميه ويستغله في زمن الأمن، ولم يزل بهم حتى جُردت العساكر إلى الشام، ثم قال لهم: لو قُدِّر أنكم لستم حكام الشام ولا ملوكَه واستنصر أهله وجب عليكم النصر، فكيف وأنتم حكامه وسلاطينه وهم رعاياكم وأنتم مسؤولون عنهم، وقوَّى جأشهم وضمن لهم النصر هذه الكرة، فخرجوا إلى الشام، فلما تواصلت العساكر إلى الشام فرح الناس فرحًا شديدًا بعد أن كانوا يئسوا من أنفسهم وأهليهم وأموالهم.

قال: ورجع الشيخ تقي الدين ابن تيمية من الديار المصرية في السابع والعشرين من جمادى الأولى على البريد، وأقام بقلعة مصر ثمانية أيام يحثهم على الجهاد والخروج إلى العدو، وقد اجتمع بالسلطان - يعني الناصر محمد بن قلاوون- والوزير وأعيان الدولة فأجابوه إلى الخروج[2].

وهذا موقف جهادي كبير لشيخ الإسلام ابن تيمية حيث أثَّر بتوجيهاته السديدة القوية على سلطان مصر والشام ووزرائه حتى حملهم على تجهيز الجيش لملاقاة جيش التتار.

ولقد ضرب ابن تيمية بهذا مثلا عاليا للعالم الرباني المجاهد الذي طبق كل ما تعلمه من الإسلام حتى ما هو شاق على النفوس كالجهاد وإنكار المنكر.

---

(١) يعني بذلك الأفرم نائب السلطان في الشام وكان مرابطا مع الجيش في المرج

(٢) البداية والنهاية ١٤/ ١٦ - ١٧.

وهكذا أظهر ابن تيمية صورة للعالم الديني بأنه ذلك العالمُ الذي يبصِّر المسلمين بجميع واجباتهم، ويسارع في نجدتهم وإنقاذهم من الكوارث والنكبات.. العالمُ الذي يَبرز عند الفزع ويتوارى عند الطمع، وليس ذلك العالمَ الذي يقبع في زاوية من زوايا المسجد أو المدرسة الدينية يدّرس العلم ولا يهمه أمر المسلمين.. وليس العالمَ الذي يتهالك على الدنيا وينافس عليها أهلها.

مقارنة بين الأحزاب والتتار:

عقد شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية مقارنة جيدة بين الأحزاب الذين تحزبوا ضد رسول الله ﷺ والمسلمين في المدينة النبوية وموقف الرسول ﷺ والصحابة منهم، وبين التتار الذين تحزبوا مع الأعداء الآخرين ضد المسلمين في أواخر القرن السابع، وفي ذلك يقول رحمه الله تعالى:

ثم إنه تعالى قال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا** ﴾ [الأحزاب: ٩].

ثم ذكر قصة الأحزاب باختصار.. إلى أن قال في قصة التتار: وفي هذه الحادثة تحزب هذا العدو من مَغُلٍ وغيرهم من أنواع الترك، ومن فرس ومستعربة، ونحوهم من أجناس المرتدة، ومن نصارى الأرمن وغيرهم. ونزل هذا العدو بجانب ديار المسلمين، وهو بين الإقدام والإحجام، مع قلة من بإزائهم من المسلمين. ومقصودهم الاستيلاء على الدار، واصطلام أهلها. كما نزل أولئك بنواحى المدينة بإزاء المسلمين.

ودار الحصار على المسلمين عام الخندق -على ما قيل- بضعًا وعشرين ليلة. وقيل: عشرين ليلة.

وهذا العدو عبر الفرات سابع عشر ربيع الآخر، وكان أولَ انصرافه راجعًا عن حلب لما رجع مقدمهم الكبير قازان بمن معه: يومُ الإثنين حادي أو ثاني عشر جمادى الأولى، يومَ دخل العسكر عسكرُ المسلمين إلى مصر المحروسة. واجتمع بهم الداعي، وخاطبهم في هذه القضية. وكان الله سبحانه وتعالى لمَّا ألقى في قلوب المؤمنين ما ألقى من الاهتمام والعزم ألقى الله في قلوب عدوهم الرَّوع والانصراف.

وكان عام الخندق برد شديد، وريح شديدة منكرة، بها صرف الله الأحزاب عن المدينة، كما قال تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ [الأحزاب: ٩].

وهكذا هذا العام أكثرَ الله فيه الثلج والمطر والبرد.. على خلاف أكثر العادات. حتى كره أكثر الناس ذلك. وكنا نقول لهم: لا تكرهوا ذلك فإن لله فيه حكمةً ورحمة. وكان ذلك من أعظم الأسباب التي صرف الله بها العدو: فإنه كثر عليهم الثلج والمطر والبرد، حتى هلك من خيلهم ما شاء الله. وهلك أيضًا منهم من شاء الله. وظهر فيهم وفي بقية خيلهم من الضعف والعجز بسبب البرد والجوع ما رأوا أنهم لا طاقة لهم معه بقتال. حتى بلغني عن بعض كبار المقدَّمين في أرض الشام أنه قال: لا بيض الله وجوهنا: أعدونَّا في الثلج إلى شعره، ونحن قعود لا نأخذهم، وحتى علموا أنهم كانوا صيدًا للمسلمين، لو يصطادونهم، لكن في تأخير الله اصطيادَهم حكمةُ عظيمة.

وقال الله فى شأن الأحزاب: ﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً ﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١].

وهكذا هذا العام. جاء العدو من ناحيتي علو الشام، وهو شمال الفرات. وقِبليّ الفرات. فزاغت الأبصار زيغًا عظيما، وبلغت القلوب الحناجر لعظم البلاء، لا سيما لَّما استفاض الخبر بانصراف العسكر إلى مصر، وتقرُّبِ العدو، وتوجههِ إلى دمشق. وظن الناس بالله الظنونا. هذا يظن أنه لا يقف قدامهم أحد من جند الشام، حتى يصطلموا أهل الشام. وهذا يظن أنهم لو وقفوا لكسروهم كسرة، وأحاطوا بهم إحاطة الهالة بالقمر. وهذا يظن أن أرض الشام ما بقيت تُسكن، ولا بقيت تكون مملكة الإسلام. وهذا يظن أنهم يأخذونها، ثم يذهبون إلى مصر فيستولون عليها، فلا يقف قدامهم أحد، فيحدِّث نفسه بالفرار إلى اليمن، ونحوها. وهذا -إذا أحسن ظنَّه- قال: إنهم يملكونها العام، كما ملكوها عام هولاكو سنة سبع وخمسين. ثم قد يخرج العسكر من مصر فيستنقذها منهم، كما خرج ذلك العام. وهذا ظن خيارهم. وهذا يظن أن ما أخبره به أهل الآثار

النبـوية، وأهل التحـديث والمبشـرات أمانيٌّ كـاذبة، وخرافـاتٌ لاغية. وهـذا قد استـولى عليه الرعب والفزع، حتى يمر الـظن بفؤاده مر السحـاب، ليس له عقل يتفهم، ولا لسان يتكلم.

وهذا قد تعـارضت عنده الأمارات، وتقابلت عنده الإرادات، لا سيـما وهو لا يفـرق من المبشـرات بين الصـادق والكاذب. ولا يميز فـي التحـديث بين المخطئ والصائب. ولا يعرف النصوص الأثرية معرفة العلماء، بل إما أن يكون جاهلا بها وقد سمعها سماع العِبَر، ثم قـد لا يتفطن لوجوه دلالتها الخفية، ولا يهتدى لدفع ما يتخيل أنه معارض لها في بادئ الرويَّة.

فلذلك استـولت الحيرة علـى من كان متـسمًا بالاهتـداء، وتراجمت به الآراء تراجم الصبـيـان بالحـصـبـاء ﴿**هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُـؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَـدِيداً**﴾ [الأحزاب:١١]. ابتلاهـم الله بهذا الابتلاء، الذي يكفِّر به خطيـئاتهم، ويرفع به درجاتهم. وزلزلوا بما يحصل لهم من الرجفات، ما استوجبوا به أعلى الدرجات. قال الله تعالى: ﴿**وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً**﴾ [الأحزاب: ١٢]. وهكذا قالوا في هذه الفتنة فيما وعدهم أهل الوراثة النبوية، والخلافة الرسالية، وحـزبُ الله المحدِّثون عنه. حتى حصل لهؤلاء التأسي برسول الله ﷺ، كمـا قال الله تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**﴾ [الأحزاب: ٢١].

إلى أن قال: فدلت هذه الآية -وهـي قوله تعالى ﴿**وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّـرَضٌ**﴾ [الأحـزاب: ١٢]- على أن المرض والنفـاق في القلب يوجب الريب في الأنباء الصادقة التي توجب أمن الإنسـان: من الخوف، حتى يظنوا أنها كانت غرورًا لهم، كما وقع في حادثتنا هذه سواء.

ثم قال تـعالى: ﴿**وَإِذْ قَـالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَـامَ لَكُمْ فَـارْجِعُوا**﴾ [الأحزاب: ١٣] وكـان النبي ﷺ قد عسكر بالمسلمين عـند سلع، وجعل الخندق بينه وبين العدو. فـقالت طائفة منهم: لا مقـام لكم هنا، لكثرة العدو. فـارجعوا

إلى المدينة. وقيل: لا مقام لكم على دين محمد، فارجعوا إلى دين الشرك وقيل لا مقام لكم على القتال فارجعوا إلى الاستئمان والاستجارة بهم.

وهكذا لما قدم هذا العدو كان من المنافقين من قال: ما بقيت الدولة الإسلامية تقوم، فينبغي الدخول في دولة التتار. وقال بعض الخاصة: ما بقيت أرض الشام تسكن، بل ننتقل عنها، إما إلى الحجاز واليمن، وإما إلى مصر. وقال بعضهم: بل المصلحة الاستسلام لهؤلاء، كما استسلم لهم أهل العراق، والدخول تحت حكمهم.

فهذه المقالات الثلاث قد قيلت في هذه النازلة. كما قيلت في تلك. وهكذا قال طائفة من المنافقين، والذين في قلوبهم مرض، لأهل دمشق خاصة والشام عامة: لا مقام لكم فى هذه الأرض.

ونفي المَقَام بها أبلغ من نفي المُقَام. وإن كانت قد قرئت بالضم أيضًا [(١)]. فإن لم يقدر أن يقوم بالمكان، فكيف يقيم به؟

قال الله تعالى: ﴿**وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا**﴾ الأحزاب: ١٣].

وكان قوم من هؤلاء المذمومين يقولون -والناس مع النبي ﷺ عند سلعٍ داخلَ الخندق، والنساء والصبيان في آطام المدينة- يا رسول الله، إن بيوتنا عورة. أي مكشوفة ليس بينها وبين العدو حائل -وأصل العورة: الخالي، الذي يحتاج إلى حفظ وستر. يقال: أعور مجلسك إذا ذهب ستره، أو سقط جداره. ومنه عورة العدو-.

وقال مجاهد والحسن: أيْ ضائعة نخشى عليها السراق. وقال قتادة: قالوا: بيوتنا مما يلى العدو، فلا نأمن على أهلنا، فائذن لنا أن نذهب إليها، لحفظ النساء والصبيان. قال الله تعالى: ﴿**وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ**﴾ لأن الله يحفظها ﴿**إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا**﴾ فهم يقصدون الفرار من الجهاد، ويحتجون بحجة العائلة.

---

(١) وهي قراءة حفص، وقد سار الشيخ في تفسير الآية على قراءة أخرى.

وهكذا أصاب كثيرًا من الناس في هذه الغزاة، صاروا يفرون من الثغر إلى المعاقل والحصون، وإلى الأماكن البعيدة كمصر، ويقولون: ما مقصودنا إلا حفظ العيال، وما يمكن إرسالهم مع غيرنا، وهم يكذبون في ذلك، فقد كان يمكنهم جعلهم في حصن دمشق لَوْ دَنَا العدو، كما فعل المسلمون على عهد رسول الله ﷺ وقد كان يمكنهم إرسالهم والمقام للجهاد، فكيف بمن فر بعد إرسال عياله؟ قال الله تعالى ﴿**وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيراً**﴾ [الأحزاب: ١٤] فأخبر أنه لو دُخِلت عليهم المدينة من جوانبها ثم طُلِبت منهم الفتنة -وهي الافتتان عن الدين بالكفر، أو النفاق- لأعطوا الفتنة. ولجاءوها من غير توقف.

وهذه حال أقوام لو دخل عليهم هذا العدو المنافق المجرم. ثم طلب منهم موافقته على ما هو عليه من الخروج عن شريعة الإسلام -وتلك فتنة عظيمة- لكانوا معه على ذلك. كما ساعدهم في العام الماضي أقوام بأنواع من الفتنة في الدين والدنيا، ما بين ترك واجبات، وفعل محرمات، إما في حق الله، وإما في حق العباد. كترك الصلاة، وشرب الخمور، وسب السلف، وسب جنود المسلمين، والتجسس لهم على المسلمين، ودلالتِهم على أموال المسلمين، وحريمهم. وأخذِ أموال الناس، وتعذيبهم، وتقويةِ دولتهم الملعونة، وإرجافِ قلوب المسلمين منهم، إلى غير ذلك من أنواع الفتنة.

ثم قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً**﴾ [الأحزاب: ١٥] وهذه حال أقوام عاهدوا ثم نكثوا قديما وحديثا في هذه الغزوة. فإن في العام الماضي وفي هذا العام في أول الأمر كان من أصناف الناس من عاهَد على أن يقاتل ولا يفر، ثم فر منهزمًا لما اشتد الأمر.

ثم قال تعالى: ﴿**قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ [الأحزاب: ١٦] فأخبر الله أن الفرار لا ينفع لا من الموت ولا من القتل، فالفرار من الموت كالفرار من الطاعون. ولذلك قال النبي ﷺ: «**إذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه**» والفرار من القتل كالفرار من الجهاد، وحرف

«لن» ينفي الفعل في الزمن المستقبل، والفعل نكرة والنكرة في سياق النفي تعم جميع أفرادها. فاقتضي ذلك: أن الفرار من الموت أو القتل ليس فيه منفعة أبدًا، وهذا خبر الله الصادق، فمن اعتقد أن ذلك ينفعه فقد كذَّب الله في خبره.

والتجربة تدل على مثل مادل عليه القرآن. فإن هؤلاء الذين فروا في هذا العام لم ينفعهم فرارهم: بل خسروا الدين والدنيا، وتفاوتوا في المصائب. والمرابطون الثابتون نفعهم ذلك في الدين والدنيا، حتى الموت الذي فروا منه كثر فيهم وقلَّ في المقيمين، فما مَنَعَ الهرب من شاء الله، والطالبون للعدو والمعاقبون له لم يمت منهم أحد ولا قُتِل، بل الموت قلَّ في البلد من حين خرج الفارون، وهكذا سنة الله قديمًا وحديثا.

ثم قال تعالى: ﴿**وَإِذًا لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ يقول: لو كان الفرار ينفعكم لم ينفعكم إلا حياةً قليلة ثم تموتون، فإن الموت لابد منه، وقد حُكِي عن بعض الحمقى أنه قال: فنحن نريد ذلك القليل، وهذا جهل منه بمعنى الآية، فإن الله لم يقل: إنهم يمتعون بالفرار قليلا، لكنه ذكر أنه لا منفعة فيه أبدًا، ثم ذكر جوابًا ثانيًا: أنه لو كان ينفع لم يكن فيه إلا متاع قليل، ثم ذكر جوابًا ثالثًا، وهو أنَّ الفار يأتيه ما قُضي له من المضرة، ويأتي الثابت ما قُضي له من المسرة، فقال: ﴿**قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا**﴾ [الأحزاب: ١٧].

إلى أن قال: وقد ذكر أهل المغازي -منهم ابن اسحق- أن النبي ﷺ قال في الخندق: «**الآن نغزوهم، ولا يغزونا**» فما غزت قريش ولا غطفان، ولا اليهود المسلمين بعدها، بل غزاهم المسلمون: ففتحوا خيبر ثم فتحوا مكة. كذلك -إن شاء الله- هؤلاء الأحزاب من المغل وأصناف الترك ومن الفرس، والمستعربة، والنصارى، ونحوهم من أصناف الخارجين عن شريعة الإسلام: الآن نغزوهم ولا يغزونا ويتوب الله على من يشاء من المسلمين، الذين خالط قلوبهم مرض أو نفاق، بأن ينيبوا إلى ربهم، ويَحسنَ ظنهم بالإسلام، وتقوى عزيمتهم على جهاد عدوهم. فقد أراهم الله من الآيات ما فيه عبرة لأولي الأبصار، كما قال: ﴿**وَرَدَّ**

اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

فإن الله صرف الأحزاب عام الخندق بما أرسل عليهم من ريح الصَّبا: ريحٍ شديدة باردة، وبما فرق به بين قلوبهم، حتى شتت شملهم، ولم ينالوا خيرًا، إذ كان همهم فتحَ المدينة والاستيلاءَ عليها وعلى الرسول والصحابة، كما كان هَمُّ هذا العدو فتحَ الشام والاستيلاءَ على من بها من المسلمين، فردهم الله بغيظهم، حيث أصابهم من الثلج العظيم، والبرد الشديد، والريح العاصف، والجوع المزعج، ما الله به عليم.

وقد كان بعض الناس يكره تلك الثلوج والأمطار العظيمة التي وقعت في هذا العام، حتى طلبوا الاستصحاء غير مرة. وكنا نقول لهم: هذا فيه خيرةُ عظيمة. وفيه لله حكمةٌ وسر، فلا تكرهوه. فكان من حكمته أنه فيما قيل: أصاب قازان وجنودَه حتى أهلكهم، وهو كان فيما قيل سببَ رحيلهم. وابتُلي به المسلمون ليتبين من يصبر على أمر الله وحكمه ممن يفر عن طاعته وجهاد عدوه. وكان مبدأ رحيل قازان فيمن معه من أرض الشام وأراضي حلب يوم الاثنين حادي عشر جمادى الأولى، يوم دخلتُ مصر عقيب العسكر واجتمعتُ بالسلطان وأمراء المسلمين وألقى الله في قلوبهم من الاهتمام بالجهاد ما ألقاه، فلما ثَبَّت الله قلوب المسلمين صرف العدو، جزاءً منه وبيانًا أن النية الخالصة والهمة الصادقة ينصر الله بها وإن لم يقع الفعل، وإن تباعدت الديار.

وذُكر أن الله فرق بين قلوب هؤلاء المغل والكرج وألقى بينهم تباغضًا وتعاديًا، كما ألقى سبحانه عام الأحزاب بين قريش وغطفان، وبين اليهود. كما ذكر ذلك أهل المغازي، فإنه لم يتسع هذا المكان لأن نصف فيه قصة الخندق، بل من طالعها علم صحة ذلك، كما ذكره أهل المغازي، مثلُ عروةِ بنِ الزبير، والزهريِّ، وموسى بنِ عقبة، وسعيدِ بن يحيى الأموي، ومحمدِ بن عائذ، ومحمدِ بن اسحق، والواقديِّ، وغيرهم.

ثم تبقَّى بالشام منهم بقايا، سار إليهم من عسكر دمشق أكثرهم، مضافًا إلى عسكر حماة وحلب وما هنالك. وثبت المسلمون بإزائهم، وكانوا أكثر من المسلمين

بكثير، لكن في ضعف شديد وتقربوا إلى حماة، وأذلهم الله تعالى، فلم يُقدموا على المسلمين قط، وصار من المسلمين من يريد الإقدام عليهم فلم يوافقه غيره، فجرت مناوشات صغار، كما جرى في غزوة الخندق، حيث قَتَل علي بن أبي طالب رضي الله عنه فيها عمرَو بنَ عبد وُدٍّ العامريَّ لما اقتحم الخندق، هو ونفر قليل من المشركين.

كذلك صار يتقرب بعض العدو فيكسرُهم المسلمون، مع كون العدو المتقرب أضعافَ من قد سرى إليه من المسلمين. وما من مرة إلا وقد كان المسلمون مستظهرين عليهم. وساق المسلمون خلفهم في آخر النوبات، فلم يُدركوهم إلا عند عبور الفرات. وبعضهم في جزيرة فيها. فرأوا أوائل المسلمين فهربوا منهم، وخالطوهم وأصاب المسلمون بعضهم. وقيل: إنه غرق بعضهم.

وكان عبورهم وخلو الشام منهم في أوائل رجب [(١)]، بعد أن جرى ما بين عبور قازان أوَّلاً وهذا العبور -رجفاتٌ ووقعات صغار، وعزْمنا على الذهاب إلى حماة غير مرة لأجل الغزاة، لَمَّا بلغنا أن المسلمين يريدون غزو الذين بقوا، وثَبَتَ بإزائهم المقدَّم الذي بحماة ومن معهم من العسكر ومن أتاه من دمشق، وعزموا على لقائهم ونالوا أجرًا عظيمًا. وقد قيل: إنهم كانوا عدة كمانات، إما ثلاثة، أو أربعة. فكان من المقدَّر أنه إذا عزم الأمر وصدق المؤمنون الله يُلقي في قلوب عدوهم الرعب فيهربون، لكن أصابوا من البليدات بالشمال مثل «تيزين» و«الفوعة» و«معرة مصرين» وغيرها مالم يكونوا وطئوه في العام الماضي.

وقيل: إن كثيرًا من تلك البلاد كان فيهم ميل إليهم بسبب الرفض، وأن عند بعضهم فرامينَ منهم، لكن هؤلاء ظلمة، ومن أعان ظالما بُلي به، والله تعالى يقول: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ [الأنعام: ١٢٩].

وقد ظاهروهم على المسلمين: الذين كفروا من أهل الكتاب، من أهل «سيس» والإفرنج. فنحن نرجو من الله أن يُنزلهم من صياصيهم وهي الحصون -ويقال للقرون: الصياصي- ويَقذفَ في قلوبهم الرعب وقد فتح الله تلك البلاد.

---

(١) يعني من عام سبعمائة.

ونغزوهم إن شاء الله تعالى فنفتح أرض العراق وغيرها، وتعلو كلمة الله ويظهر دينه [1].

فهذه مقارنة جيدة تدل على علم واسع وفهم عميق لكتاب الله تعالى وواقع المسلمين وواقع أعدائهم، كما تدل على فهم شيخ الإسلام ابن تيمية لأسباب النصر وأسباب الخذلان.

ومن هذه المقارنة وما سبق ذكره من بيان مواقف شيخ الإسلام ابن تيمية في أحداث المسلمين مع التتار يتبين لنا أثر هذا العالِم الربانيِّ في نصر المسلمين على أعدائهم وتوجيه المسلمين إلى الاعتقاد الصحيح والاستقامة في أمور الجهاد.

معركة شقحب:

سار قازان ملك التتار بجيوشه من العراق ونزل على الفرات، وبعث أمامه قائده قطلوشاه إلى الشام في ثمانين ألف مقاتل، وخرجَتِ العساكر المصرية إلى الشام مع الأمراء بيبرس وطغريل وكراي ولاجين، ودخل بيبرس ومن معه دمشق في منتصف شعبان عام اثنين وسبعمائة ولَبِثَ يستحثُّ السلطان محمد بن قلاوون على الخروج.

وبلغ التتارَ تجمُّعُ المسلمين عند حماة فبعثوا إليهم طائفة كثيرة من جيش ليقتطعوهم، فتوجه إليهم بعض الأمراء في ألف وخمسمائة فارس بمنزلة عُرْض - وهي بلد من أعمال حلب- في حادي عشر شعبان على غفلة فافترقوا أربع فرق، وقاتلوهم قتالاً شديداً من نصف النهار إلى العصر حتى كسروهم وأفنوهم، وكان التتار -فيما يقال- أربعة آلاف، وكان هؤلاء التتار قد هجموا قبل ذلك على التركمان، فاستنقذ هؤلاء الأمراء التركمانَ وحريمهم وأولادهم من أيدي التتار، وهم نحو ستة آلاف أسير، ولم يُفْقَد من العسكر الإسلامي إلا الأميرُ أَنَص الجمدار والمنصوري ومحمد بن باشقرد الناصري، وستة وخمسون من الأجناد، وأسروا من التتار مائة وثمانين[2].

(١) فتاوى ابن تيمية ٢٨/ ٤٤٣-٤٦٦.

(٢) النجوم الزاهرة ٨/ ١٥٧ - ١٥٨، البداية والنهاية ١٤/ ٢٤.

وهكذا انتصر ألف وخمسمائة من المسلمين على أربعة آلاف من التتار، لَّما صبر المسلمون وكانوا يدًا واحـدة على أعدائهم، وإنما كان المسلمون يُخذَلون أمـام التتار لشدة فزعهم وعـدم صبرهم واختلاف قلوبهم، وكانت هذه المعركـة الصغيرة بدايةً جيدة للِّقاء الكبير الذي تم بعد ذلك في شـقحب، حيث كان لهذه المعركة أثر في تحطيم معنوية التتار.

وذكر الحافظ ابن كثير أن التتار وصلوا إلى بلاد الشام، وأن جيش حلب وحماة تقهقرا إلى حـمص، ثم خافوا أن يدهمهم التتار فسـاروا إلى دمشق وانضموا إلى جيـشهـا في المرج، ووصل التتـار إلى حمص وبعلبك وعـاثوا في تلك الأراضي فسـادًا، وقَلِقَ الناس قلقًا عظيمـا، واختبط البلد لتـأخر قدوم السلطان محـمد بن قـلاوون ببقـية الجـيش المصري، وقـال الناس: لا طاقـة لجيش الشـام مع هؤلاء المصريين بلقاء التتار لكثرتهم، وتحـدَّث الناس بالأراجيف، فاجتمع الأمراء بالميدان وتحالفوا على لقـاء العدو، وشجعوا أنفسـهم، ونُودي بالبلد أن لا يرحل أحد منه فسكن الناس، وجلس القـضاة بالجامع وحلَّفوا جمـاعة من الفقهـاء والعامة على القتال [1].

وهذا موقف جـهادي مشكور لهؤلاء الأمـراء الذين ثبَّتوا المسلمين وشجـعوهم على القتال ولم يسمـعوا لإرجاف المرجفين وكذلك قام القضاة بموقف جـيد حينما حلَّفوا الفقهاء والعامة على الثبات والجهاد.

قال الحافظ ابن كـثير: وتوجه الشيخ تقي الدين ابن تيمـية إلى العسكر الواصل من حماة فاجـتمع بهم في «القطيعة» فأعلمهم بما تحـالف عليه الأمراء والناس من لقاء العدو، فـأجابوا إلى ذلك وحلفوا معـهم، وكان الشيخ تقي الدين ابن تيـمية يَحْلِف للأمراء والناس: إنكم في هذه الكرة منصورون، فـيقول له الأمراء: قل إن شاء الله، فيقول إن شاء الله تحقيقًا لا تعليقا، وكان يتأول أشياءً من كتاب الله منها قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٠][2].

---

(١) البداية والنهاية ١٤/ ٢٥.

(٢) البداية والنهاية ١٤/ ٢٥.

وهذا موقف جهادي رائع لشيخ الإسلام ابن تيمية، حيث سعى لتثبيت الجيش الإسلامي وتقوية عزائم أفراده، وذلك بخروجه أولاً إلى الجيش القادم من حماة وإعلامهم بما عزم عليه المجاهدون في دمشق من الثبات الذي وثقوه بالحلف، ثم بقيامه ثانيًا بالحلف أمام الأمراء والعامة بحصول النصر للمسلمين في تلك المعركة، وذلك راجع إلى ثقته بنصر الله تعالى حينما تتحقق عوامل النصر من المجاهدين، وقد لاحظ في تلك المرة تحقق تلك العوامل، كما أنه راجع إلى غزارة علمه حيث تأول قول الله تعالى: ﴿ **ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ** ﴾ [الحج: ٦٠] وقد بغى التتار كثيرًا على المسلمين وبالغوا في العدوان عليهم.

وقال الحافظ ابن كثير في بيان حال المسلمين آنذاك في ترددهم في قتال التتار: وقد تكلم الناس في كيفية قتال هؤلاء التتار، من أيِّ قبيلٍ هو! فإنهم يظهرون الإسلام وليسوا بغاة على الإمام، فإنهم لم يكونوا في طاعته في وقت ثم خالفوه فقال الشيخ تقي الدين: هؤلاء من جنس الخوارج الذين خرجوا على علي ومعاوية رضي الله عنهما، ورأوا أنهم أحق بالأمر منهما، وهؤلاء يزعمون أنهم أحق بإقامة الحق من المسلمين، ويعيبون على المسلمين ما هم متلبِّسون به من المعاصي والظلم، وهم متلبسون بما هو أعظم منه بأضعاف مضاعفة، فتفطَّن العلماء والناس لذلك، وكان يقول للناس: إذا رأيتموني من ذلك الجانب وعلى رأسي مصحف فاقتلوني، فتشجع الناس في قتال التتار وقوِيَتْ قلوبهم ونيَّاتهم ولله الحمد (١).

وهذا مثل من رسوخ علم ابن تيمية حيث أبان الناس انطباق صفة الخوارج على التتار الذين أظهروا الإسلام ولم يطبقوا منه إلا قليلا، كما أن في هذا الخبر مثلا على ثقة المسلمين البالغة بابن تيمية سواء في ذلك أهل العلم أو العامة، وبهذه الثقة التي تكونت من اتصافه بالعلم النافع والعمل الصالح استطاع أن يؤثر على المسلمين وأن يقودهم إلى الجهاد.

لقد كان لهذه الشبهة أثر في هزيمة المسلمين في معركتهم السابقة مع التتار، حيث تخاذل المسلمون في قتالهم لكونهم يظهرون الإسلام، وكان على أثر ذلك

(١) البداية والنهاية ١٤/ ٢٥.

استيلاء التتار على بلاد الشام وما قاموا به من قتل الآمنين ونهب أموال المسلمين، فلما قيض الله تعالى للمسلمين في ذلك الزمن عالما جليلا يكشف لهم الشبهات ويُجَلِّي لهم الحقائق ويدفعهم إلى اليقين من سلامة الاتجاه قويت معنويتهم وتوحد هدفهم وأقدموا على الجهاد بنفوس مطمئنة وعزائم قوية.

هذا وقد كان جيش مصر وصل إلى الشام بقيادة بعض الأمراء ثم وصل السلطان قبل وصول التتار إلى دمشق ففرح بذلك المسلمون في الشام، وقد ذكر الحافظ ابن كثير أن عسكر الشام ندب شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية إلى أن يسير إلى السلطان يستحثه على السير إلى دمشق فسار إليه فحثَّه على المجيء إلى دمشق بعد أن كاد يرجع إلى مصر، فجاء هو وإياه جميعًا، فسأله السلطان أن يقف معه في معركة القتال، فقال له الشيخ: السُّنَّة أن يقف الرجل تحت راية قومه، ونحن من جيش الشام لا نقف إلا معهم، وحرض السلطان على القتال وبشره بالنصر، وجعل يحلف بالله الذي لا إله إلا هو إنكم منصورون عليهم في هذه المرة، فيقول له الأمراء: قل إن شاء الله، فيقول إن شاء الله تحقيقًا لا تعليقا، وأفتى الناسَ بالفطر مدة قتالهم، وأفطر هو أيضًا، وكان يدور على الأجناد والأمراء فيأكل من شيء معه في يده لِيُعْلمهم أن إفطارهم -ليتقووا على القتال- أفضلُ، فيأكل الناس، وكان يتأول في الشاميين قوله ﷺ: «**إنكم ملاقوا العدو غدا، والفطر أقوى لكم**» فعزم عليهم في الفطر عام الفتح كما في حديث أبي سعيد الخدري [1].

وقد كان وصول السلطان في يوم السبت ثانى شهر رمضان عام اثنين وسبعمائة، وعند لقاء الأمراء به ورد إليهم الخبر بوصول التتار فلبسوا السلاح واتفقوا على قتال التتار بشقحب تحت جبل غباغب، وعند وصولهم إلى هذا المكان صفوا جيشهم، فصف السلطان محمد بن قلاوون في القلب وبجانبه المستكفي بالله، ومشى السلطان والخليفة ومعهما القراء يتلون القرآن ويحثون على الجهاد ويشوِّقون إلى الجنة، وصار الخليفة يقول: يا مجاهدون لا تنظروا لسلطانكم وقاتلوا عن دين نبيكم ﷺ وعن حريمكم، والناس في بكاء شديد.

---

(١) البداية والنهاية ١٤/ ٢٧.

وزحفت كتائب التتار كقطع الليل، وذلك بعد الظهر من يوم السبت ثاني رمضان المذكور، وحمل قطلوشاه قائد التتار على ميمنة الجيش الإسلامي فثبتوا لهم، وقُتِل في ذلك الهجوم عدد من أمراء المسلمين ونحو الألف من فرسانهم فلما وقعَ ذلك أدركهم الأمراء من القلب والميسرة وصاح سلاَّر: هلك والله أهل الإسلام، وصرخ في بيبرس والمماليك البُرجية فأتوه دفعة واحدة فأخذهم وصدم بهم العدو، وقصد مُقدَّمَ التتار قطلوشاه، وتقدم عن الميمنة حتى أخذت راحة.

وأبلى سلار في ذلك اليوم وبيبرس بلاءً حسنا، وكانا المقدَّمان في أمراء مصر، فلما رأى باقي الأمراء ذلك منهم ألْقَوا نفوسهم للموت، واقتحموا القتال وكان لسلارَ وبيبرس في ذلك اليوم اليدُ البيضاء على المسلمين، رحمهما الله تعالى، واستمروا في القتال حتى كشفوا التتار عن المسلمين.

وجاءت طائفة من التتار لنجدة قطلوشاه، ووقفوا في وجه سلارَ وبيبرسَ ومن معهما فخرج من عسكر السلطان عدد من القادة والمماليكِ السلطانية وأردفوا سلارَ وبيبرس، وقاتلوا أشد القتال حتى أزاحوهم عن مواقفهم، واستمر القتال بين المسلمين والتتار إلى أن وقف كل من الطائفتين عن القتال في المساء.

ومال قطلوشاه بمن معه إلى جبل قريب منه، وصعد عليه وفي نفسه أنه انتصر وأن بولاي في أثر المنهزمين، فلما صعد الجبل رأى السهل والوعر كلَّه عساكر، والميسرة السلطانية ثابتةٌ وأعلامُها تخفق، فبُهِتَ وتحير، واستمر بموضعه حتى كمل معه جمعه.

أما القائد الآخر بولاي فإنه انهزم ومعه عشرون ألفا من التتار وفروا هاربين.

وبات السلطان وسائر عساكره على ظهور الخيل، وتلاحق بهم المنهزمون شيئًا بعد شيء على صوت الطبول السلطانية، وأحاط عسكر السلطان بالجبل الذي بات عليه التتار، وصار سلار وبيبرس وقبجق والأكابر في طول الليل دائرين على الأمراء والأجناد يوصونهم ويرتبونهم ويؤكدون عليهم في التيقظ، ووقفَ كل أمير في مصافِّه وثبتوا على ذلك حتى ارتفعت الشمس.

وشرع قطلوشاه في ترتيب من معه، ونزلوا مشاةً وفرسانًا وقاتلوا العساكر، فَبَرَزَت المماليك السلطانية بمقدِّميها إلى قطلوشاه وجوبان وعملوا في قتالهم عملاً

عظيما، فصاروا تارة يرمونهم بالسهام وتارة يواجهوانهم بالرماح، واشتغل الأمراء أيضًا بقتال مَنْ في جهتهم يتناوبون القتال أميرًا بعد أمير، وألحَّت المماليك السلطانية في القتال وأظهروا في ذلك اليوم من الشجاعة والفروسية ما لا يوصف، حتى إن بعضهم قُتِل تحته الثلاثة من الخيل.

ومازال القتال دائرًا حتى انتصف نهار الأحد، فصعد قطلوشاه الجبل بجيشه وقد اشتد عطشهم، واتفق أن بعض من كان أسره التتار هرب ونزل إلى السلطان وعرَّفه أن التتار قد أجمعوا على النزول في السحر لمصادمة العساكر السلطانية وأنهم في شدة من العطش، فاقتضى الرأى أن يفرِّج لهم عند نزولهم ويركب الجيش أقفيتهم، فلما باتوا على ذلك وأصبحوا نهار الإثنين ركب التتار في الرابعة من النهار ونزلوا من الجبل فلم يتعرض لهم أحد، وساروا إلى النهر فاقتحموه، فعند ذلك ركبهم بلاء الله من المسلمين وأيدهم الله تعالى بنصره حتى حصدوا رؤوس التتار عن أبدانهم ووضعوا فيهم السيوف ومرُّوا في أثرهم قتلاً وأسرًا إلى وقت العصر.

وعاد المجاهدون إلى السلطان وعرَّفوه بهذا النصر العظيم وبات السلطان لَيْلَتَه وأصبح يوم الثلاثاء وقد خرج إليه أهل دمشق، فسار إليها في عالم عظيم لا يحصيهم إلا الله تعالى وهم يضجُّون بالدعاء والهناء والشكر لله تعالى على هذه المنَّة.

أما المنهزمون من التتار فإن كثيرًا منهم قُتلوا على يد الفِرَقِ التي تَبِعَتْهم من الجيش وكذلك من رجال البادية وعامة المسلمين(١).

وهكذا تم الانتصار الحاسم للمسلمين على التتار بعد عناء شديد وجهاد مرير، ولم يتجرأ التتار بعدها على حرب دولة المسلمين في الشام ومصر، وكان وقع الهزيمة شديدًا على ملك التتار قازان حيث كان قد انتخب لتلك المعركة أفضل رجاله.

***

(١) النجوم الزاهرة ٨/ ١٥٧ - ١٦٣.

فهرس المصادر والمراجع

- الأمويون بين الشرق والغرب، للدكتور محمد السيد الوكيل/ الناشر: دار القلم - دمشق الدار الشامية - بيروت.
- أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين/ لإبراهيم محمد الجمل/ الناشر: مطابع الشعب بالقاهرة.
- البداية والنهاية للحافظ أبي الفداء ابن كثير/ الناشر: دار الكتب العلمية في بيروت.
- البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب/ لأبي عبد الله محمد بن عبد الله المراكشي.
- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام/ للحافظ محمد بن أحمد الذهبى/ الناشر: دار الكتاب العربي في بيروت.
- التاريخ الأندلسي/ للدكتور عبد الرحمن بن على الحجي/ الناشر: دار القلم - دمشق، المنارة - بيروت.
- تاريخ خليفة بن خياط/ لخليفة بن خياط الليثى/ الناشر: دار القلم - دمشق، مؤسسة الرسالة - بيروت.
- تاريخ ابن خلدون/ لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون/ الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت.
- تاريخ الدولة العلية العثمانية/ لمحمد فريد بك المحامي/ الناشر: دار النفائس.
- تاريخ الطبري/ لمحمد بن جرير الطبري/ الناشر: دار المعارف بالقاهرة.
- الحروب الصليبية/ د. سعيد عبد الفتاح عاشور/ الناشر: مكتبة الأنجلو المصرية.
- الروضتين في أخبار الدولتين/ لشهاب الدين أبي شامة/ الناشر: مؤسسة الرسالة.

- السلطان محمد الفاتح/ د.عبد السلام عبد العزيز فهمى/ الناشر: دار القلم - دمشق - بيروت.
- الطريق إلى دمشق/ لأحمد عادل كمال/ الناشر: دار النفائس في بيروت.
- الفتوح/ لأحمد بن أعثم الكوفي/ الناشر: دار الكتب العلمية في بيروت.
- فتوح البلدان/ لأحمد بن يحيي البلاذري/ الناشر: مؤسسة المعارف في بيروت.
- قادة فتح المغرب العربي/ لمحمود شيث خطاب/ الناشر: دار الفتح - بيروت.
- القاموس المحيط/ لمحمد بن يعقوب الفيروزبادي/ الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت.
- الكامل في التاريخ/ لعلى بن أبي الكرم الشيباني «ابن الأثير»/ الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت.
- لسان العرب/ لمحمد بن مكرم بن منظور/ الناشر: دار صادر - بيروت.
- المختار المصون من أعلام القرون/ للدكتور محمد بن حسن بن عقيل موسى/ الناشر: دار الأندلس الخضراء - جدة.
- معجم البلدان/ لياقوت بن عبد الله الحموي/ الناشر: دار صادر ودار بيروت - بيروت.
- موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية لبلاد السند والبنجاب/ د. عبد الله الطرازي.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة/ ليوسف بن تغري بردي/ الناشر: وزارة الثقافة والإرشاد القومي المؤسسة المصرية العامة للتأليف.
- نفح الطيب/ لأحمد بن محمد المقَّري/ الناشر: دار القلم - دمشق.

***

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥

مواقف وعبر في جهاد المسلمين مع الروم

الموضوع	الصفحة
الجهاد مع الروم في عهد الأمويين	٩
- جهاد الروم في عهد معاوية	١٢
- الغزوات الأولى	١٢
- غزوة القسطنطينية	١٢
- جهاد الروم في عهد عبد الملك والوليد	١٤
- الاستعداد لغزو الروم في عهد عبد الملك	١٤
- خبر الفتية التائبين وفتح طوانة	٢٠
- فتح عمورية	٣٥
- فتح نقفورية	٣٧
- فتح مدينة السماوة الكبرى	٣٩
- فتح مدينة المسيحية	٤٢
- فتح مدينة بدروق	٤٤
- جهاد الروم في عهد سليمان بن عبد الملك	٤٦
- محاصرة القسطنطينية	٤٦
- جهاد الروم في عهد هشام بن عبد الملك	٥٠
- **الجهاد مع الروم في عهد العباسيين**	٥٣
- جهاد الروم في عهد المهدي والرشيد	٥٦
- غزوة القسطنطينية	٥٦
- فتح هرقلة الأول	٥٧

- فتح هرقلة الثاني وما حولها ٥٩
- جهاد الروم في عهد المعتصم ٦١
- فتح عمورية ٦٣
- جهاد السلطان ألب أرسلان ٦٨
- معركة ملاذكرد ٦٨
- **الجهاد مع الروم في عهد العثمانيين** ٧٣
- نشأة هذه الدولة ٧٥
- فتح القسطنطينية ٧٨
- خطط حربية ناجحة ٧٩
- الهجوم الأخير ٨٠
- فتح مدينة بلغراد ٨١
- فتح جزيرة رودس ٨٢
- إنقاذ تونس من النصارى ٨٣
- جهاد المتمردين في بلاد الأفلاق ٨٤

مواقف وعبر في جهاد المسلمين في بلاد السند والهند

- **الجهاد والفتوحات في عهد الأمويين** ٨٩
- نبذة عما سبق من الأحداث ٩١
- الجهاد في السند في عهد معاوية رضي الله عنه ٩٤
- الجهاد في السند في عهد عبد الملك وابنه الوليد ٩٦
- ولاية سعيد الكلابي على السند ٩٦
- ولاية مجاعة التميمي ٩٦
- ولاية محمد النمري على مكران ٩٧
- حملة محمد بن القاسم وفتح السند ٩٨
- فتح مدينة النيرون ١٠٢

- فتح إقليم سيوستان ١٠٣
- المعركة الفاصلة مع ملك السند ١٠٤
- فتح مدينة راور ١١٥
- فتح بهرور ودهليلة ١١٦
- انضمام الوزير سياكر إلى المسلمين ١١٦
- فتح إقليم برهمناباد ١١٧
- احتواء القبائل المتوحشة ١١٩
- فتح مدينة أرور ١٢٠
- فتح مدينة باتيه ١٢١
- فتح مدينة اسكلنده ١٢٢
- فتح قلعة سكة ١٢٣
- فتح مدينة الملتان ١٢٣
- فتح إقليم الكيرج ١٢٥
- نهاية محمد بن القاسم ١٢٥
- الجهاد في السند في عهد هشام بن عبد الملك ١٢٨
- ولاية الجنيد المري على السند ١٢٨
- ولاية الحكم الكلبي ١٢٩
- ولاية عمرو بن محمد بن القاسم ١٣٠
- **الجهاد والفتوحات في عهد العباسيين** ١٣١
الجهاد في الهند في عهد المهدي ١٣٣
- جهاد محمود بن سبكتكين في بلاد الهند ١٣٥
- جهاده مع جيبال ملك الهند ١٣٦
- جهاده مع بيدبا ١٣٧
- جهاده في بلاد الغور ١٣٧

- جـهـاده في وسط الهند ١٣٨
- جهـاده في بلاد تانيـشر ١٣٩
- جهـاده في بلاد قشمـير ١٤٠
- جهـاده في مملكة كجـورامه ١٤١
- جـهاده في بلاد أخـرى ١٤٣
- جـهاده في سـومنات ١٤٤
- من مـواقفـه في الإصلاح والعـدل ١٤٨
- جهـاد مسعـود بن محـمود وابناه ١٥١
- **الجهـاد والفتـوحات بعـد العبـاسيين** ١٥٣
- جهـاد السلطان محـمد البـهمني ١٥٥
- جهاد السلطان محمود الكجراتى ١٥٩
- جـهـاد السلطان بابر ١٦٣
- جهـاد السلطان عالمـكير ١٦٥
- جـهاد السلطـان أحمـد الدراني ١٦٨

مواقف وعبر في فتوح المغرب

- فتـوحات عبد الله بن سـعد ١٧٣
- فتـوحات مـعاوية بن حـديج ١٧٤
- فتـوحات عـقبـة بن نافع الأولى ١٧٦
- مغـامرات في الصـحراء ١٧٦
- إنشاء مـدينة القـيروان ١٧٨
- فتـوحات أبي المهـاجر ١٨٣
- فتوحـات عقبة الثـانية ١٨٧
- نهايـة عقبـة بن نافع ١٩٢
- فتـوحات زهيـر البلوي ١٩٥

- نهايـة زهير البلوي وأصـحابه ١٩٧
- فتـوحات حسان بن النعـمان ١٩٩
- فـتح قـــرطاجنة ١٩٩
- مـعركـة المسلمـين الأولى مع الكاهنة ٢٠٠
- معـركة المسلمين الثانـية مع الكاهنة ٢٠١
- فتـوحات موسى بن نصـير ٢٠٤
- جهود ابن نـصير في إخضاع المـتمردين ٢٠٥
- فـتح مـدينة طنجـة ٢٠٦
- أعمـال ابن نصيـر الإصلاحـية ٢٠٦
- جهود ابن نـصير في الجهاد الـبحري ٢٠٩

مواقف وعبر في فتوح الأندلس

- جـهاد طريف بن مـالك ٢١٣
- فـتـوحـات طارق بن زياد ٢١٤
- المعركـة الفاصلة مع حـاكم الأندلس ٢١٥
- فـتح عدد من مـدن الأندلس ٢١٧
- فتـوحات موسى بن نصـير ٢٢١
- جهـاد ولاة الأندلس في أواخر العهـد الأموي ٢٢٤
- معـركة بلاط الشـهداء ٢٢٤
- **جـهـاد الدولة الأمـوية في الأندلس** ٢٢٥
- من مواقـف عبد الرحـمن الداخل ٢٢٥
- رأي أبي جعـفر المنصور بعبـد الرحمن الداخل ٢٢٧
- مواقف هشام بن عـبد الرحمن الجهادية والإصـلاحية ٢٢٩
- مواقف الحكـم بن هشام الجهـادية والإصلاحـية ٢٣٢
- من مواقـفه الإصلاحـية ٢٣٤

- مواقف عبد الرحمن الناصر الجهادية ٢٣٦
- غزوة مطونية ٢٣٦
- غزوة بلدة ٢٣٦
- غزوة مُوَيش ٢٣٧
- غزوة طُرش ٢٣٨
- غزوة مُونْت رُوبي ٢٣٩
- غزوة بنبلونة ٢٣٩
- مواقف المنصور ابن أبي عامر الجهادية والإصلاحية ٢٤١
- من مواقفه الإصلاحية ٢٤٣
- **جهاد المرابطين في الأندلس** ٢٤٨
- سبب جهاد المرابطين في الأندلس ٢٤٩
- معركة الزلاقة ٢٤٩
- حصار حصن لَبِيط ٢٥٣
- عودة المرابطين إلى الجهاد ٢٥٣
- معركة إقليش ٢٥٤
- معركة إفراغة ٢٥٥

مواقف وعبر في جهاد المسلمين في المشرق

- **فتوح بلاد ما وراء النهر في عهد الأمويين** ٢٥٩
- المحاولات الأولى للفتح ٢٦١
- جهاد الحكم بن عمرو الغفاري ٢٦١
- رحيل المسلمين إلى خراسان ٢٦٢
- جهاد عبيد الله بن زياد ٢٦٢
- جهاد سعيد بن عثمان بن عفان ٢٦٣
- جهاد عبيد الله بن أبي بكرة ٢٦٤

- جهاد ابن الأشعث ٢٦٧
- جهاد المهلب بن أبي صفرة ٢٦٧
- فتوحات قتيبة بن مسلم ٢٦٩
- فتح مدينة بيكند ٢٧٠
- فتح مدينة بخارى ٢٧٣
- فتح مدينة سمرقند ٢٧٧
- فتح إقليمي الشاش وفرغانة ٢٨٣
- خضوع مملكة الصين للمسلمين ٢٨٤
- نبذة عن حياة قتيبة ونهايته ٢٨٧
- فتوحات يزيد بن المهلب ٢٨٩
- فتح جرجان ٢٨٩
- فتح طبرستان ٢٩٢
- فتح جرجان مرة أخرى ٢٩٣
- جهاد بعض القادة في أواخر عهد بني أمية ٢٩٦
- جهاد المسيب الرياحي ٢٩٦
- جهاد الجنيد بن عبد الرحمن المري ٢٩٩
- جهاد أسد القسري ٣٠٤
- المعركة الأخيرة مع خاقان ٣٠٥
- **الجهاد في المشرق في عهد العباسيين** ٣٠٩
- انتقاض أمير طبرستان وجهاده ٣١١
- خروج أستادسيس وجهاده ٣١٢

مواقف وعبر في جهاد المسلمين ضد الصليبيين

- بداية الغزو الصليبي وجهاد بعض أمراء المسلمين ٣٢١
- حال المسلمين آنذاك ٣٢١

- سقــوط بيت المقدس بيد الصليــبيين ٣٢٢
- جهاد سقمان وجكرمش ضد الصليبيين ٣٢٤
- جهــاد طغتكين ضــد الصليــبيين ٣٢٥
- **جهــاد عمــاد الدين زنكي ضد الصليــبيين** ٣٢٧
- مواجــهة ضد الصليبــيين وفتح بارين ٣٢٧
- مواجــهة بينه وبين الصليــبيين والروم ٣٢٩
- فــتح مــدينة الرها ٣٣٠
- من مواقــفه الإدارية والسياســية ٣٣٢
- موقف للقاضي كمال الدين بن الشهرزوي ٣٣٣
- **الحــملة الصليبيــة الثانيــة** ٣٣٥
- **جهــاد نور الدين محمــود ضد الصليــبيين** ٣٤١
- أمثلة من ســياسته الحــربية ٣٤١
- مثل من ســياسة الوزير جــمال الدين ٣٤٣
- مــثل من مــواقف الإصــلاح ٣٤٥
- معركة يغرى ٣٤٦
- انتصــاره على الصليبيين وفتح أنطاكــية ٣٤٦
- فتح حصن فامية ٣٤٨
- صلحــه مع أهل دمــشق ٣٤٨
- استــيلاؤه على حصن عزاز ومــا حوله ٣٥٠
- معــركة دلوك وفتحــها ٣٥١
- فــتح قلعة حــارم ٣٥٢
- انتصــاره في معركــة الملاحة ٣٥٥
- مــوقف في الثبــات لنور الدين ٣٥٦
- فــتح قلعــة بانيــاس ٣٥٧

- فتح حصن المنيطرة وصافيثا وعريمة ٣٥٨
- القضاء على حملة صليبية ٣٥٩
- حصار حصن الكرك ولقاء مع الصليبيين ٣٥٩
- حملة تأديبية للصليبيين ٣٦٠
- حصار الصليبيين لدمياط ٣٦٠
- مثل من اهتمامه بحماية المسلمين ٣٦٢
- **جهاد أسد الدين شيركوه** ٣٦٣
- معركة البابين ٣٦٥
- هجوم النصارى على مصر ٣٦٧
- استنجاد حكام مصر بنور الدين ٣٦٨
- إرسال أسد الدين إلى مصر ٣٦٨
- رحيل النصارى وتولى أسد الدين الوزارة ٣٦٩
- **جهاد صلاح الدين الأيوبي** ٣٧٢
- غزوه بلاد الفرنج وفتح أيلة ٣٧٢
- موقف لأهل الإسكندرية في صد حملة صليبية ٣٧٣
- مواجهة بينه وبين الصليبيين في الأردن ٣٧٥
- **موقعة حطين** ٣٧٦
- **فتح بيت المقدس** ٣٨١
- حصار مدينة صور ٣٨٥
- فتح اللاذقية ٣٨٦
- فتح قلعة صهيون ٣٨٧
- فتح بكاس ٣٨٨
- فتح حصن الشغر ٣٨٨
- فتح قلعة برزية ٣٨٩

- فتح حصن دربساك ٣٩٢
- فتح قلعة صفد ٣٩٢
- فتح حصن كوكب ٣٩٣
- استنجاد صليبيى الشام بأهل أوروبا ٣٩٤
- وصول الصليبيين إلى عكا ٣٩٥
- معركة الأسطول ٣٩٧
- ابتكار علمي موفق ٣٩٨
- مثل من رحمة صلاح الدين ٤٠٠
- مثل من تضحيات المجاهدين ٤٠٠
- عبرة من نصر الله تعالى أولياءه ٤٠١
- استيلاء الصليبيين على عكا وعقد هدنة معهم ٤٠٢
- **جهاد الظاهر بيبرس ضد الصليبيين** ٤٠٤
- فتح مدينة يافا ٤٠٥
- فتح مدينة أنطاكية ٤٠٦
- **جهاد السلطان قلاوون وابنه خليل** ٤٠٧
- فتح حصن المرقب ٤٠٧
- فتح مدينة طرابلس ٤٠٧
- فتح مدينة عكا ٤٠٧
- فتح مدينة صور ٤٠٨
- نهاية الصليبيين في الشام ٤٠٩

مواقف وعبر في جهاد المسلمين ضد التتار

- استيلاء التتار على بلاد المشرق كلها ٤١٣
- استيلاء التتار على بغداد وقضاؤهم على الخلافة العباسية ٤٢٠
- **مواقف السلطان سيف الدين المظفر قطز** ٤٢٤

- **معركة عين جالوت** ٤٢٥
- مواقف جهادية في هذه المعركة ٤٢٧
- رؤيا صادقة تحمل البشارة بالنصر ٤٣٠
- **مواقف الظاهر بيبرس في جهاد التتار** ٤٣٣
- معركة ألبيرة ٤٣٤
- معركة أبلستين ٤٣٥
- **مواقف السلطان قلاوون** ٤٣٧
- معركة حول حمص ٤٣٧
- **دخول التتار في الإسلام** ٤٤١
- **مواقف السلطان محمد بن قلاوون** ٤٤٣
- **مواقف لشيخ الإسلام ابن تيمية** ٤٤٤
- موقف جهادي لنائب القلعة ٤٤٧
- مواقف أخرى لابن تيمية وغيره ٤٥٠
- مقارنة بين الأحزاب والتتار لابن تيمية ٤٥٣
- **معركة شقحب** ٤٦١
- فهرس المصادر والمراجع ٤٦٧
- فهرس الموضوعات ٤٦٩